أحمد بهجت

أنبياء الله

دار الشروق

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى إبريل عام ١٩٧٣
وصدرت طباعته التالية في: ١٩٧٣ـ ١٩٧٥ـ ١٩٧٦ـ ١٩٧٧ـ
١٩٧٨ـ ١٩٧٩ـ ١٩٨٠ـ ١٩٨١ـ ١٩٨٢ـ ١٩٨٣ـ ١٩٨٤ـ
١٩٨٥ـ ١٩٨٦ـ ١٩٨٧ـ ١٩٨٨ـ ١٩٨٩ـ ١٩٩٠ـ ١٩٩١ـ
١٩٩٣ـ ١٩٩٥ـ ١٩٩٧ـ ١٩٩٨ـ ١٩٩٩ـ ٢٠٠٠ـ ٢٠٠١

الطبعة السابعة والعشرون
١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م
الطبعة الثامنة والعشرون
١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م
الطبعة التاسعة والعشرون
١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية ـ مدينة نصر ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

مقدمة الطبعة الثانية عشرة

هناك كتب يحس الكاتب أنه كتبها بقلمه..

وهناك كتب يحس أنها أمليت عليه من أنقى عمق فى قلبه.. وليس له من فضل فيها سوى فضل الأداة..

وليس له من حمد لأن الله هو الذى طهر القلب ابتداء، وهو الذى شاء له أن يكون أداة فى النهاية.

وأحسب أن كتاب أنبياء الله من النوع الأخير..

كنت أكتب كأن إنسانًا داخلى يملى على السطور، ومارست خلال كتابته إحساسًا يشبه إحساسى بالسجود أثناء صلاة القيام فى العشر الأواخر من شهر رمضان فى بيت الله الحرام فى مكة..

اتصل بى إبراهيم المعلم ليقول لى: نحن نطبع الطبعة الثانية عشرة.. ونريد مقدمة لها..

قلت فى قلبى.. الحمد لله، وأحمده حمدًا ينبغى لجلال وجهه ويليق بعظيم سلطانه.. عدد خلقه وزنة عرشه ومداد كلماته ورضا نفسه..

ربنا لا نحصى ثناء عليك..

أنت سبحانك كما أثنيت على نفسك..

لم أشعر داخلى بالزهو..

على العكس.. أحسست بالإشفاق والخوف، وخشيت أن يكون نجاح الكتاب فى الدنيا توفية كاملة لأجرى عنه فى الدنيا والآخرة..

ثم ردنى إلى التوازن أن انتشار الكتاب وذيوعه وتخطيه مائة

وعشرين ألف نسخة فى التـوزيع يعود أولاً إلى كرامة الموضوع ذاته.. أى كرامة الأنبياء على الله تعالى..

لا عـلاقة لى إذن بالموضـوع.. يسـتوى فـى ذلك أن ينتشـر الكتاب أو لا ينتشر..

أسأل الله تعالى أن يعفو عن قارئه وناشره وكاتبه..



رمضـان عـام ١٤٠٤ هـ

مقدمة الطبعة العاشرة

تمنح الأقدار إذنا للإنسان أن يبذل الجهد، والله تعالى هو الذى يعطى الثمرة، وها هى ذى الطبعة العاشرة من كتاب أنبياء الله .

فالحمد لله حمداً ينبغى لجلال وجهه ويليق بعظيم سلطانه. وأشكر للقراء إقبالهم على الكتاب واحتفالهم به، وأخص بالشكر الذين تفضلوا بإرسال آرائهم إلى، وأختص بالشكر صاحب الخطاب الطويل الذى لم يذكر اسمه وإن قال إنه أخى فى الإسلام.

ثم شرع يسرد على فى خطاب من خمس صفحات ٣٦ خطأ تقع بين الأخطاء المطبعية أو اللغوية أو الفكرية.. وقد صححت كل ما أشار إليه باستثناء شيء واحد رأيت فيه ما يجيز اختلاف الآراء دون ضرر..

وإنى لأسأل لهذا القارئ الكريم عفو الله ورحمته وأسأل كل من يقرأ الكتاب أن يدعو لنا بالعفو والرحمة..

احمد بهجت

يناير عام ١٩٨٢

مقدمة الطبعة الثالثة

أحيانًا أحس تجاه ما أكتبه بإحساسى تجاه أبنائى، لا أوجه خطوهم فى الدنيا، ولا أراقبهم، ولا أراهم كثيرًا، وإنما أدعو لهم عارفًا أن الله تعالى هو البارئ وهو الحافظ..

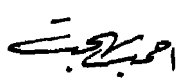
لا أنكر أننى أحس بالفرح العميق حين أسمع نبأ طيبًا من أحدهم..

اتصلت بى دار الشروق تقول: نفدت الطبعة الثانية.. ونحن نطبع الثالثة..

تحرك قلبى بحمد الله حمدًا ينبغى لجلال وجهه ويليق بعظيم سلطانه..

لم أضف جديدًا لهذه الطبعة.

أسأل الله أن يتقبل من قارئه وناشره وكاتبه..



القاهرة ١٦ / ٣ / ١٩٧٥

مقدمة الطبعة الثانية

حين نشر كتاب «أنبياء الله» فى طبعته الأولى فى إبريل سنة ١٩٧٣، كنا نقدر له عامًا لينفد من السوق، باعتباره مرجعًا ليس زهيد الثمن، ونفد الكتاب فى الأيام الأولى من صدوره، وكتبت عنه أقلام كثيرة لها احترامها وأثنت عليه، وحمل هذا التقدير لكاتبه إحساسًا بالغًا بالمسئولية، فراجعه ونقحه وزاد فيه واختصر منه، واستعان فى هذا كله بآراء العلماء الناقدة وملاحظات القراء الذكية.

أحمد بهجت

أغسطس عام ١٩٧٣

كـن .. فيكون

حين انصرفت مشيئة الله تبارك وتعالى إلى خلق الكون .

حين أراد أن يخلق المجرات والنجوم والشموس والكواكب والأراضى وما نعرف لا نعرف ، أمر هذا كله . . وقال له : كن . . فكان .

حدثنا الله تعالى أنه عندما يريد شيئا فإنه يأمره أن يوجد . . قال تعالى :

﴿ إنّما أمرُهُ إذا أراد شيئًا أن يقُول لهُ كُن فيكُونُ ﴾ [1] .

وهذا هو أمر التكوين . .

وأمر الله تعالى نوعان : أمر تكوين ، وأمر تشريع .

أما أمر التكوين فيعنى كل القوانين العلمية المعقدة المحكمة التى يخضع لها الكون وجوده وتطوره . وأما أمر التشريع فهو ما يوحيه الله تعالى لأنبيائه كى يبلغوه للناس حذوا به ويتبعوه . وأمر التكوين يسبق أمر التشريع بالنسبة إلينا . . وأمر التكوين لا ية فيه ، بمعنى أن السماء ليست مختارة فى أن تكون أو لا تكون ، وكذلك الأرض انينها الحاكمة . . أما أمر التشريع ففيه مجال واسع لحرية الإرادة . . وفيه مجال سئولية . . وفيه اختيار يترتب عليه إمكان المساءلة .

ألم تر أن الله تعالى قال عن أمر التكوين :

﴿ ثُمّ استوىٰ إلى السّماء وهي دُخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين ﴾ [2] .

وقال عن أمر التشريع :

﴿ لا إكراه في الدّين ﴾[3] .

الآية ٨٢ من سورة يس (مكية) .

(٢) الآية ١١ من سورة فصلت مكية .

الآية ٢٥٦ من سورة البقرة مدنية .

وقال تعالى :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (١) .

إن الحرية تهيمن على أمر التشريع ، وهى مستبعدة تماما من أمر التكوين ، ولعل هذا ما قصده ربنا سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (٢) .

وليس إباء السماوات والأرض وإشفاقهن من الأمانة إلا صورة فنية تعبر عن رفض ما لا يستطعن حمله بحكم التكوين الأصلى والتقدير الأزلى . ليس رفضهما هنا اختيارا حرا . . إنما هو رفض يجىء من كونهما خلقتا طائعتين غير مكلفتين ، وليس التمثيل والتشبيه فى الآية إلا تقريبا لمعانيها من الذهن البشرى .

. . . .

وأمر التكوين بالنسبة إلينا غيب . .

خلق الله السماوات والأرض وما أشهدنا خلقهن . . لا نعرف متى كان ذلك ولا كيف كان . . ولا بأى أسلوب أو وسيلة . لا نعرف أيضا تاريخ تكوينهما بالتحديد .

إن وقوع الخلق وكيفيته وأسلوبه أسرار مغلقة ، استأثر الله وحده بعلمها . أما مادة الخلق ، فهى أمامنا نبحث فيها كيف نشاء . . وتدرسها آلاف العلوم على الأرض .

أما كيفية الخلق فغيب لا ندرى عنه إلا ما حدثنا به الله .

ولقد حدثنا الله تعالى أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام . قال تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾(٣) .

أمر الله السماوات والأرض وما بينهما أن تتكون فى ستة أيام . . فتكونت فى ستة أيام . . وهذه الأيام الستة من أيام الله تعالى ، وهى لا تشبه أيامنا التى نعيشها الآن على

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف مكية .
(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب مدنية .
(٣) الآية ٤ من سورة السجدة مكية .

الأرض لسبب بسيط : أننا نحسب اليوم بدورة الأرض مرة حول نفسها أمام الشمس ، والله تعالى يتحدث عن يوم قديم سبق خلق الأرض والشمس . .

الحساب إذن يختلف ، وطول اليوم يختلف . . ربما تكون هذه الأيام الستة بحسابنا الآن آلاف السنين أو ملايين القرون . . أو تكون أكثر من ذلك أو أقل . . وربما تكون بحساب الله عز وجل شيئا اخر تماما . هذا غيب لا نعتسف له التأويل ، ولا نخوض فيه بغير علم . غيب لا نعرف عنه إلا ما حدثنا به الله ، والغيب هو الشيء الذى يغيب عن عقلنا أو زماننا فلا ندركه ، وكل ما غاب عنا وحدثنا عنه الله فهو وحده الصدق .

ولقد حدثنا الله أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش . خضع له كل شيء . ودان له كل شيء . وسجد له كل شيء . وقدسه كل شيء . وحكمت قبضته سبحانه مقاليد كل شيء . . واحتاج إليه كل شيء .

وهو الغنى الذى لا يحتاج إلى أحد . . ويحتاج إليه كل أحد .

. . . .

انتهى الأمر ونفذت مشيئة الله تعالى . وخلق الكون . سجد بعد خلقه لرب الخليقة . . سجد سجود احتياج واستمداد . سجد سجود استسلام يحكمه نظام بديع محكم .

رمز الخير

الملائكة عباد الله . جنود الله . وهم من أكرم خلق الله وأفضله . وهم درجات ، ولكل واحد فيهم مهمته السامية التى يؤديها بكمال لا يطاول . وفى الملائكة من كانت مهمته أن يتصل بالبشر . فيهم من كانت مهمته أن يبلغ أنبياء الله رسالات الله إلى البشر . وهذا هو جبريل عليه السلام . . سيد الملائكة وأرفع عباد الله فى الملأ الأعلى ورمز الخير .

سماه الله تعالى : « الرُّوحُ الأمينُ » . . قال تعالى فى سورة الشعراء :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (١) .

وسماه الله تعالى : «رُوحُ الْقُدُس» . قال تعالى فى سورة النحل :

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

وسماه الله تعالى : «رسولا كريما» . كما سماه «الروح» . قال تعالى فى سورة التكوير :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾(٣) .

وقال تعالى فى سورة القدر :

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾(٤) .

---

(١) الأيتان ١٩٣ ، ١٩٤ مكية .
(٢) الآية ١٠٢ مكية .
(٣) الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ مكية .
(٤) الآية ٤ مكية .

وسماه الله تعالى : «شديد القوى» . قال تعالى فى سورة النجم :

﴿ والنَّجْم إذَا هوىٰ (١) ما ضلّ صاحبُكُمْ وما غوىٰ (٢) وما ينطقُ عن الْهوىٰ (٣) إنّ هُو إلاّ وَحْيٌ يُوحىٰ (٤) علّمهُ شديدُ الْقُوىٰ (٥) ذُو مرّة فاسْتوىٰ (٦) وهُو بالأُفُق الأعْلىٰ (٧) ثُمّ دنا فتدلّىٰ (٨) فكان قاب قوْسيْن أوْ أدْنىٰ (٩) فأوْحىٰ إلىٰ عبْده ما أوْحىٰ (١٠) ما كذب الْفُؤادُ ما رأىٰ ﴾(١) .

هذه هى أسماء جبريل عليه السلام . وقد سمى جبريل روحا وأضيف إلى القدس . والقدس هو الله عز وجل . . وقد خلقه الله تعالى من غير أب أو أم أو مثال كما خلق آدم . وإن اختلف جبريل عن ادم فى أنه ليس جسدا تجوز عليه الأخطاء والمعاصى . إنما هو روح طائع أمين أضافه الله إلى اسمه . وكرم الله تعالى جبريل تكريما إلهيا حين أضاف اسمه إليه . وجعل الإيمان به عليه السلام مسألة أساسية لا نقاش فيها ولا مساومة .

سأل اليهود النبى عليه الصلاة والسلام عمن يأتيه بالوحى . قال : جبريل . قالوا : هو عدونا . لو كان الذى يأتيك بالرسالة ميكال لآمنا بك وتابعناك . [ميكال هو ميكائيل] . ونزل قوله تعالى يحدد بالحسم الإلهى موقف الله من أعداء ملائكته . . إنهم أعداؤه . . قال تعالى :

﴿ قُلْ من كان عدُوًا لجبْريل فإنّهُ نزّلهُ علىٰ قلْبك بإذْن اللّه مُصدّقًا لّما بيْن يديْه وهُدى وبُشْرىٰ للْمُؤْمنين (٩٧) من كان عدُوًا لّلّه وملائكته ورُسُله وجبْريل وميكال فإنّ اللّه عدُوٌّ لّلْكافرين ﴾ (٢) .

لماذا خص الله جبريل وميكال بالذكر ؟ خصهما بالذكر تشريفا وتعظيما . .

وسوف نلتقى فى قصص أنبياء الله كثيرا بجبريل عليه السلام . هو الروح الأمين الذى يحمل وحى السماء إلى الأرض .

وهو يختفى أزمنة ، فإذا ظهر ظهرت معه رحمة الله . . وبعث نبى إلى قومه . . وخرج كتاب من كتب الله إلى الناس .

---

(١) الايات من ١ إلى ١١ مكية . (٢) سورة البقرة الايتان ٩٧ ، ٩٨ (مدنية) .

رمز الشر

خلق الله تعالى مع الملائكة خلقا آخر يسميه الجن .

والجن مخلوقات مستترة . . ليست أجسادا ظاهرة لنراها . . وهذا هو وجه الشبه الوحيد بين الجن والملائكة . . وفيما عدا ذلك يختلف الملائكة عن الجن اختلافا تاما . حتى فى مادة الخلق نفسها ، فقد خلق الله الجن من النار وخلق الملائكة من النور ، والملائكة هم جنود الله الذين خلقوا لعبادته وتحقيق أمره فى الكون . والملائكة بحكم تكوينهم هم الخير المحض ، أو الخير المطلق . أما الجن فمخلوقات تخضع للتكليف ، وفيهم الطيب ومنهم الفاسد .

قال تعالى فى سورة الجن على ألسنة الجن :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾[1] .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[2] .

والجن يتناسلون ، قال تعالى :

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ ﴾[3] .

وفى الجن من يعبد الله ليترقى ، وفيهم من يعبد الله وهو يخبئ فى نفسه كبرياء لا تتفق مع العبودية . ومن أسماء الجن الشهيرة «إبليس» . . وكان هذا المخلوق يقف مع الملائكة حين صدر إليهم أمرالسجود لآدم . فلما رفض أن يسجد صار رمزا للشر فى الكون . ويتصور بعض الناس أن إبليس كان من الملائكة لوقوفه معهم . . والصحيح أنه من الجن ، لقوله تعالى : فى سورة الكهف :

---

(١) الآية ١١ (مكية) . (٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ مكية .

(٣) من الآية ٥٠ من سورة الكهف مكية .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (١) .

ما الذى كان يفعله هناك مع الملائكة . . ؟ ما الذى عمله حتى استحق شرف الوقوف مع الملائكة . . ؟ هذا كله غيب . يقول العلماء : إنه عبد الله آلاف السنين ليترقى . . كان إبليس سيدا من سادة الكبرياء والانتهازية قبل خلق الإنسان .

لقد عبد الله حبا فى المجد لا حبا فى الله ، كان رمزا لروح الشر ، وكانت العبادة هى طريق السمو والارتقاء فسلك هذا الطريق ، فلما صدر إلى الملائكة الأمر بالسجود وهم ملائكة ، لزمه هذا الأمر بوصفه أقل منهم ، ساعتئذ انحسرت دوافعه للعبادة عن وجه الكبرياء ، ورأى أهدافه فى المجد تهدر ، وألفى نفسه مأمورا بالسجود لآدم ، وهو مخلوق من طين ، فاستكبر ورفض . وبذلك اختار إبليس يومها ـ والله يعلم أنه سيختار ـ أن يكون رمزا للشر على الأرض . .

من يومها صار إبليس أشهر مخلوق فى الأرض . . خسر نفسه وكسب الشهرة . ووقفت روحه تساند كل الشرور والمظالم والآثام فى الأرض . . وهناك من يعتبر إبليس مراة لابن أدم يرى نفسه فيها ، وهناك من يراه يجرى مجرى الدم فى عروق المخلوقات ، وهناك من يستهون شأنه ويحتقره . . وعلى أى حال . . فإن هذا المخلوق هو الدرجة الأخيرة فى اللون الأسود من الشر .

---

(١) سورة الكهف من الآية ٥٠ مكية .

رجـــال الله

أنبياء الله تعالى هم أمر التشريع . هم رسله إلى البشر . . وهم أساسا بشر . . غير أنهم أنقى البشر .

ولو أن الله تعالى لم يرسل أنبياءه إلى الناس لألزمهم حجته، ولكان ذلك عدلا منه سبحانه . ذلك أن الله قبل إرسال أنبيائه أرسل كلماته إلى العقل البشرى وألزمه الحجة . إن ذلك الكون كله هو كتاب الله المفتوح ، وهو كتاب يمتلئ بالكلمات المعجزة الدالة على وجوده سبحانه .

والإنسان ذاته - بالنسبة لذاته - آية من آيات الله ، وكلمة من كلماته تلزمه الحجة . ولو طاف الإنسان داخل نفسه ، أو ساح بذهنه فى آفاق الكون . . لرأى كلمات الله وآياته . ولو استجمع الإنسان نقاءه الداخلى وأنعش به قدرته على التذكر ، فسوف يرى كلمات الله يوم أخذ العهد على آدم وذريته . قال تعالى :

﴿ وإذْ أخذ ربُّكَ من بني آدمَ من ظُهُورهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أنفُسِهِمْ ألسْتُ بربِّكُمْ قالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ (١) .

وإذن تلزم الإنسان الحجة . لماذا يرسل الله تعالى أنبياءه إلى الناس إذا كان قد ألزمهم الحجة ؟ الجواب أن أنبياء الله تعالى جميعا رحمة . لا يعامل الله عباده بالعدل وحده . لأن الله أكبر . إنما يعاملهم بالرحمة . والأنبياء هم الرحمة . يبعث كل نبى رحمة لقومه أو زمانه . حتى إذا جاء آخر الأنبياء جاء رحمة للعالمين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

ولولا محمد بن عبد الله ، ﷺ ، لما عرفنا قصص الأنبياء كما وقعت حقا . ذلك أن قصص الأنبياء تعرضت قبل بعثة النبى ﷺ لعبث لم يسلم منه نبى . وامتد

---

(١) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف (مكية) . (٢) من الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء مكية .

التحريف إلى سيرة الأنبياء ، فجاءت بشكل لا يحفظ للأنبياء وقارهم أو عصمتهم .

تحكى صحف اليهود المحرفة عن نبى يشرب الخمر ويزنى بابنته ، وتحكى عن نبى يرسل قائد جيشه إلى الحرب كى يقتنص امرأته ، وتحكى عن نبى ينكفئ على عبادة الأصنام بعد أن تزوج وهو شيخ من صبية حسناء تعبد صنما ، فآثر إرضاءها بعبادة صنمها على إرضاء خالقه .

وتحس طيلة الوقت وأنت تقرأ هذه الصحف المحرفة أنك أمام عقل بشرى ملوث ومغرض . . عقل مرتش يكذب عمدا على الله وأنبيائه لأغراض نجهلها الآن وإن كانت لليهود أيامها مصالح ظاهرة فى ذلك .

فإذا غادرت صحف اليهود المحرفة إلى صحف النصارى وأوراقهم وجدت لديهم اتجاها عكسيا يكاد يكون رد فعل للاتجاه الأول . . إنهم يكرمون نبيهم عيسى إلى الحد الذى تنسبه بعض فرقهم بالبنوة إلى الله . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ولقد ضاع حجم الأنبياء الحقيقى بين التصغير والتكبير . . ولولا القران ما عرفنا حقيقة الأنبياء .

حقيقة الأنبياء أنهم خير البشر . ولكنهم فى نهاية الأمر بشر يمشون فى الأسواق ويأكلون الطعام ويعيشون ويموتون .

لا يختارون أنفسهم للرسالة . لا يصلون إلى الرسالة نتيجة كسب وقصد وجهد أو اختيار . إنما يختارهم الله . يختارهم لعلمه السابق أنهم أنقى من فى الوجود ، وأفضل . تستوى فى ذلك عقولهم وقلوبهم . بعدها يبعث إليهم رسالاته . ويضيفهم الله إلى نفسه تشريفا وتكريما . فيسميهم رسل الله .

وهم لا يخطئون فيما يرسلهم به الله . إن لهم عصمة من نوع معين . كما أن لهم معجزات من أنواع عديدة . أما عصمة الأنبياء فتعنى أنهم لا يرتكبون خطيئة كبيرة ولا صغيرة . . لا قبل البعثة ولا بعدها . إنهم يحلّقون فى مستوى الكمال لا يهبطون عنه وإن ساروا فيه صعودا . . وإذا كان الله تعالى يعاتب أنبياءه أحيانا فإنما يفعل ذلك وصولا بهم إلى مستويات أكبر من الكمال لا ندريها ، ولا نحلم بها .

ولما كان الأنبياء هم أكثر الناس معرفة لله ، فإن واجبهم يقتضيهم أن يشعروا بأنهم مقصرون فى حق الله . . لأن الإنسان لو عبد ربه ملايين السنين لما كان ذلك كافيا للشكر على نعمة الله فى نصف ساعة . ولهذا يستغفر الأنبياء . . هذه ذنوبهم وهذا استغفارهم ، ونحن نعرف أن الإنسان لا يعاقب على النسيان والسهو ، ولكن الأنبياء

يعاقبون على ذلك . لقد نسى آدم فأهبطه الله من الجنة . ولو لم يكن نبيا لما آخذه الله على النسيان .

وتختلف درجات الأنبياء والرسل . قال الله تعالى فى سورة البقرة :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾(١) .

وقال الله تعالى فى سورة الإسراء :

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (٢) .

وقال الله تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (٣) .

وبرغم اختلاف درجات الأنبياء عند الله تبارك وتعالى ، ووجود خمسة منهم هم أولو العزم وهم : محمد بن عبد الله . ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى . . عليهم الصلاة والسلام . برغم اختلاف درجات الأنبياء عند الله تعالى ، فإن المؤمنين مأمورون بالوقوف عند حد الأدب ، وعدم التفرقة بين أحد من رسله . . قال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٤) .

ولقد جرت سنة الله فى أنبيائه أن يؤيدهم بالمعجزات الواضحة والخوارق . ففى الأنبياء من كانت معجزته الطوفان . وفيهم من كانت معجزته ناقة ولدت من جبل ، وفيهم من كانت معجزته صرخة هزت الدنيا وأهلكت الكافرين ، وفيهم من كانت معجزته عصا تتحول إلى ثعبان ، وفيهم من كانت معجزته إحياء الموتى وتكليمهم . وفيهم من كانت معجزته كتابا . . وكانت معجزات الأنبياء جميعا تختلف عن رسالتهم، باستثناء واحد . معجزة محمد بن عبد الله ﷺ .

---

(١) من الآية ٢٥٣ مدنية .

(٢) من الآية ٥٥ مكية .

(٣) الآية ٧ مدنية . .

(٤) من الآية ٢٨٥ مدنية .

إن طب عيسى ومعجزته فى شفاء الأمراض كانا شيئا يختلف عن إنجيله . وعصا موسى التى تتحول إلى حية جبارة كانت شيئا يختلف عن توراته . إلا أن الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة ، هى نفس جوهر هذه الرسالة . توحدت حقيقة الرسالة ومعجزتها فى كتاب واحد هو القرآن الكريم .

وسوف نلاحظ أن الله عز وجل يأخذ عباده بالرحمة والرفق . . وفى فجر التاريخ البشرى، كانت البشرية تمر بطور الطفولة . وفى هذا الطور لا يصدق الأطفال إلا الأشياء الخارقة العجيبة . وفى هذا الطور لا يؤمن الناس إلا إذا انبهرت أعينهم قبل عقولهم . واندهشت حواسهم قبل حكمتهم .

وساق الله تعالى معجزات أنبيائه الحسية إلى الناس . وكان الناس هم الذين يطلبون الآيات والخوارق . . وكان الله تعالى يستجيب لعباده زيادة فى الرحمة لمعرفته أنهم ما زالوا فى طور الطفولة . وكلما نضجت البشرية فى شىء ، جاءت معجزات الأنبياء مستجيبة لهذا النضج . فكان الله تعالى يعطى كل رسول من الآيات ما يتفق مع حال قومه وأهل عصره وعلوم زمانه . . أو يعطى كل رسول من الآيات ما يستهدف إثبات شىء للناس .

كان قوم فرعون أهل علوم ورياضة وطبيعة وفلك . . كانوا أهل صناعة ساحرة . كانوا سادة عصرهم فى العلوم والسحر . ولهذا أعطى الله تعالى موسى عليه السلام معجزات تتفوق على العلم والسحر . تبدو علما وسحرا ولكنها ليست كذلك . الأمر الذى يؤكد أنها من عند الله . وكان الرومان أهل سلطان فى قوم عيسى ، وكانوا متقدمين فى علوم الطب والقانون . . فكانت معجزة عيسى شيئا مثيرا لدهشة الطب والقانون معا . . إن رجلا مات ينهض من الموت ليكلم عيسى . . إن فكى الطب والقانون معا يتدليان بالدهشة أمام هذه الخارقة . وكذلك كان أهل هذا الزمان يريدون . فلما تقدمت البشرية ، وبدأ عقلها ينضج ، وصارت الكلمة فيها هى مفتاح الحياة ، وصار العلم فيها هو سيد الكون ، وصار الكتاب فيها شيئا لا يمكن الاستغناء عنه . . شاء الله تبارك وتعالى ألا يقنع البشر بالمعجزات ، وأرسل إليهم كتابا هو ذاته معجزة . كتابا كل سورة منه معجزة ، وكل آية منه معجزة . أسلوبه . . وقيمه . . وتشريعه . . وقصصه . . وأحكامه . . كل ما فيه معجزة حية . . لا تموت طالما بقى الإنسان حيا يقرأ ويكتب . ولم يرسل الله مع هذا الكتاب معجزات أخرى لها قيمته .

إن احترام نضج العقل البشرى يستوجب ألا نضغط عليه . نحن نضغط على الأطفال ونرهبهم أو نستميلهم . . لكننا نحاول إقناع الكبار .

وتلك كانت ميزة الرسالة الأخيرة . . وذلك كان فضل نبيها . . عليه أفضل الصلاة والسلام . إنه رسم للإنسانية آفاق الكمال الذى تستطيع أن تبلغه كبشرية راقية لديها عقلها . ومن الكتاب الذى أنزله الله على خاتم رسله . . من القرآن الكريم . عرفنا قصص الأنبياء كما وقعت بحق .

قصص الأنبياء فى القرآن

ينطوى القرآن الكريم على عديد من القصص . أهمها قصص الأنبياء .

وترد قصص الأنبياء فى القرآن كجزء من نسيجه الدينى ، بمعنى أن القصة فى القرآن ليست عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه . . شأن القصة الفنية الحرة . . إنما ترد القصة فى القرآن مقيدة بغرض دينى . . وترد أساسا للدعوة أو للدعاية لهذا الغرض الدينى . ولقد كان المفروض . . طبقا لهذا التقييد . . أن تجىء القصص خالية من القيمة الفنية . . ونحن نعرف الآن . . أنه يستحيل على كاتب من البشر ، أن يوظف فنه للدعاية لشىء ويستطيع أن ينتج فنا فى نفس الوقت . .

يثير الدهشة العميقة . . أن ينكسر هذا القانون النقدى فى قصص القرآن . . فإذا نحن أمام قصة تدعو مباشرة لشىء . . بينما هى فى الوقت نفسه عمل فنى معجز . .

ولعل هذه أول إشارة مستلفتة لإعجاز القرآن وكونه من عند الله تعالى . .

يستحيل على بشر . . مهما أوتى من عبقرية فنية . . أن يقدم أدبا ودعاية فى الوقت نفسه . يستحيل أن يقدم فنا معجزا ودعوة مباشرة فى الوقت نفسه . . غير أن قصص الأنبياء فى القرآن تفعل هذا كله بشكل ناعم لا تحس فيه بالجهد . . وإنما يدهشك أن يكون الأمر غير ما هو كائن . هذه واحدة . . وهناك ملاحظة أخرى . . من المعروف أنه يستحيل على كاتب قصة بشرى ، مهما تكن درجة كفاءته ونبوغه ككاتب . . أن يحكى لك القصة نفسها ثلاث مرات أو خمس مرات أو عشر مرات ، ثم يحتفظ بنفس مستواه فى المرات العشر . . لابد أن يهبط مستواه فى تسعة أعشار ما يحكيه . . ولابد أن يكرر نفس ما قاله بنفس التأثير الأول . . لا يمكن أن يأتى بجديد .

هذه مسألة بدهية . . غير أنك تنظر فى قصص القرآن ، فيروعك أن ترى القصة مقدمة عشر مرات . . يحكيها الله عشر مرات أو خمس عشرة مرة . . نفس القصة . . بنفس المستوى . . بتأثير مختلف . . يظل مستوى القصة فى الذروة برغم تكرارها . . ويتغير تأثيرها وإيحاؤها بكلمة تضاف أو جزء يحذف أو عبارة جديدة ، أو جملة لم

تكن موجودة . . أو مجرد ظل لخاطر نفسى لم يقدم قبل ذلك . شىء معجز يقطع بأن صاحب قصص القرآن ليس هو النبى البشر . . إنما هو رب العالمين سبحانه .

كثيرا ما توقفت كناقد أدبى . . أمام قصص القرآن . . كنت أقرأ القصة بحس الناقد الذى يريد أن يعثر على ثغرة ينفذ منها ليقول شيئا . . وكنت أخضع القصص لمقاييس النقد الأدبى القديم والحديث . . وكنت أعود من رحلتى دائما بإحساس يقينى ومطلق بالسجود . . ليست هذه القصص من اختراع بشر . . ليست كتابة بشرية . . أبطالها من البشر . كلماتها قالها البشر . . أحداثها وقعت فى تاريخ البشر . . كل ما فيها بشرى . . غير أن فيها شيئا غير بشرى . . الرؤيا التى تتناولها . . الطريقة التى تقدم بها . . الأسلوب الذى تحكى به القصة . . تركيب هذا الأسلوب وسبكه . . هذا هو الشىءالإلهى فيها . .

ولهذا السبب كان الله يحكى القصة مرة ومرتين وعشرين . . وفى كل مرة يعطيك تأثيرا معينا ، ويملؤك بإيحاء خاص ، يختلف عما سبق أن أعطاه لك . . وهذه معجزة فى فن الكتابة . لا ترى لها مثيلا فى أى كتاب على الأرض غير هذا الكتاب الكريم الذى أسلمه لنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . . وهو رجل لم يكن يكتب ولم يكن يقرأ .

انظر إلى قصة موسى . . تأمل لقاء موسى بكلمات ربه . . تأمل موقفه أمام النار المقدسة فى وادى طوى . . يحكى الله هذا الحادث أكثر من مرة . . يملؤك مرة بالخوف والرهبة والجلال . . ويحكيه مرة أخرى فيملؤك بالحب والحنان والأمل . . نفس القصة . . أبطالها هم موسى وعصاه . . لم يتغير شىء فى الأبطال ولا فى الظلال . . كل ما حدث أن أسلوب التقديم الإلهى هو الذي أعطاك تأثيرا مختلفا . . رغم أن الأبطال هم كما هم لم يتغير فيهم شىء ولم يزدعليهم شىء .

ولقد تحدث الكثيرون من قبل عن إعجاز القرآن . . وسحره . . وقيلت آلاف الكلمات حول هذا الموضوع . . وحكى لنا القدماء والمحدثون عن هذا الشىء الخاص الذى يشيع فى كلمات القرآن ويجعل القلب يسجد بغير أن يغادر مكانه فى صدر الإنسان . قيل هو لفظه المعجز . . وقيل هو معناه المدهش . . وقيل نظمه المحير . . وقيل ما قيل عنه . . غير أن أحدا لم يلمس قلب الموضوع كما فعل كتاب «التصوير الفنى فى القرآن» الذى وضحت فيه حاجتنا لمنهج جديد غير منهج البلاغة والألفاظ والمعانى ، منهج يدرس الخصائص المشتركة ، والطريقة الموحدة فى التعبير عن جميع الأغراض . . عن طريق أسلوب التصوير الفنى .

هذا الأسلوب الذى سمى « التصوير الفنى » . . هو سر الأسرار فى إعجاز القصص القرآنى . . إنك تمسك القصة فى القرآن وتقرأ . . بعد لحظات تكتشف أن شيئا غريبا

وقع . . لم يعد هناك كتاب تقرؤه . . لم تعد عيناك تعبران سطور الكلمات . . اختفى الكتاب واختفت الكلمات ، وتلاشى الحاضر وذاب الواقع ، وانتصب أمامك مسرح عظيم يتحرك فوقه أبطال القصة التى تقرؤها .

ها هو ذا نوح يقتحم مجلس سادة عصره وكبراء القوم . . ها هى ذى كلمات الحوار تمضى أمامك مجسدة مصورة ، يكاد وقع كل كلمة يختلف عن وقع الكلمة الأخرى . . مثلما تختلف بصمات أصابع القاتل عن بصمات أصابع غيره . . ينتصب المسرح أمامك وتمضى الأحداث ويتطور الصراع ، وأنت جالس مبهور تشهد وتسمع . . تختفى الكلمات المكتوبة ، وتتحول فى ذهنك إلى مسرح هائل يضج بالصراع والحوار والجدال والمشاعر . .

ميزة قصص القرآن . . ميزته المعجزة تكمن فى هذا . . إن الكلمات لا تحكى لك إنما هى تتحرك داخلك أشخاصا مجسدة فى مسرحية قديمة ، تستطيع وأنت تصغى إليها وتشاهدها ، أن تكتشف أنها ليست مسرحية قديمة فحسب . . إنما هى أيضا جديدة ، تمثل كل يوم على مسرح الحياة بأداء مختلف وممثلين جدد . وتنتهى من القصة . . وتمضى بك دوامة الحياة . . ثم تعاود قراءة قصة أخرى من قصص القرآن . . لا تكاد تمضى فى القراءة حتى يقع شىء أعجب . . انتصب المسرح فى القصة الأولى ، وهذه المرة تضىء شاشة السينما . . تختفى الكلمات المكتوبة وتضىء شاشة السينما . . ويتحرك أمامك شريط الصور . . يتحرك بلغة سينمائية معجزة . . السينما لغة مفرداتها هى الصورة . . وأنت تشهد فيلما يعبر بالصورة بغير كلام . . ثمة حلم هنا لا تعرف تفسيره . . سيؤدى تقطيع الصور وتسلسل السيناريو وتركيب المشاهد إلى تفسير الحلم فى النهاية . .

من أمثلة القصص التى يقدمها القران بأسلوب المسرح . . قصبة هود وقصة صالح . ومن أمثلة القصص التى يقدمها القرآن بأسلوب السينما . . قصة يوسف . . وقصة موسى .

ولقد نزل القرآن منذ أربعة عشر قرنا من الزمان . . لم يكن عالم الأدب قد اكتشف قواعد القصة القصيرة ، أو أصول الدراما ، أو فن السينما . . كانت هذه الصور الثلاث من صور التعبير الأدبى بذورا فى ضمير الغيب لم يكشف عنها الستار بعد . . ولقد قدر لأوربا أن تكون هى صاحبة هذا الكشف . لم يكن العرب ـ الذين نزل إليهم القرآن بلغتهم ـ يعرفون من أشكال التعبير الفنى غير الشعر . . والأساطير القديمة . . ولهذا السبب اتهموا النبى عليه الصلاة والسلام مرة بأنه شاعر . . واتهموه مرة أخرى بأنه يحكى أساطير الأولين . فلما بدت التهمتان بغير أقدام . . عادوا يتهمونه بالسحر .

ولقد أصابوا في الأخيرة . . مع تحفظ فى اختلاف فهمنا للسحر عن فهمهم البدائى القاصر ، قصدوا بالسحر هذا الخداع والوهم والتخييل . ونفهم من السحر سحر الفن الموحى . . ولقد انطوت قصص الأنبياء فى القرآن على قدر من سحر الفن الموحى . . يستحيل الكشف عنه فى عجالة أو تقديمه فى كتاب أو كتابين . . ذلك جهد يمكن أن يتوفرعليه عديد من الفنانين والأدباء فى عصور متلاحقة ، فيكشف الله لكل واحد فيهم عمقا من أعماق القصة فى القرآن . . لكل حسب كفايته وجهده وموهبته .

فلننظر الآن كيف ذاب الغرض الدينى فى الغرض الفنى ، أو كيف ذاب الغرض الفنى فى الغرض الدينى ، فإذا الجمال غاية مستهدفة ، ووسيلة مستخدمة فى الوقت نفسه . . وإذا بآلاف العناصر تصنع فى نهاية الأمر مزيجا لا يقدر عليه غير خالق الإنسان والملائكة .

ننظر أولا فى أغراض قصص الأنبياء فى القرآن . . سنكتشف أن قصص الأنبياء تناولت أغراضا عديدة مختلفة لا تكاد تقع تحت حصر . . هى صراع بين الخير والشر ، بين جيوش الظلام المدربة المنظمة الكثيفة ، وفصائل الخير القليلة المشتتة المضروبة . هى صراع بين الإنسان وظروفه وأهوائه . وهى صراع بين الطين والروح . . وهى صراع بين النبى والكافرين به . . وهى صراع بين النبى وأهل بيته . . أحيانا زوجته [لوط] وأحيانا ابنه [نوح] وأحيانا أبوه [إبراهيم] . .

خيط واحد يشد كل قصص الأنبياء ويبدو واضحا فى نسيجها المحكم المعجز الرائع . . خيط واحد . . هو الصراع . . لا يكاد النبى يبدأ دعوته حتى تنقلب الدنيا كلها ضده فجأة . يضيع سلامه . . وأمنه ورزقه . . وتبدأ الهجمات عليه . . قبل البعثة يعيش النبى فى سلام عظيم من الخارج ، وقلق عظيم من الداخل . . وبعد نزول الوحى ترتفع أعلام السلام الداخلى وترفرف داخل الروح ، ويتحطم تماما أمنه الخارجى وسلامه وراحته .

ظل شعيب موضع احترام قومه حتى جاءه الوحى . . فبدأت السخرية منه . . وبعد أن كان الحليم الرشيد . . صار متهما بالكذب والافتراء . وظل محمد بن عبد الله موضع تصديق قريش وإجلالها حتى لقد سمى الصادق الأمين ، ولا يكاد الوحى يتنزل عليه حتى تتطاير حوله آلاف الاتهامات التى تبدأ بالجنون وتنتهى بالكذب . . وبعد أن كانوا ينهضون له فى المجالس ، ويهشون له ويجلونه ، ويحكمونه فيما ينشب بينهم من شجار ، ويستمعون إليه ويرضون كلماته . . بعدها صاروا يرمون عليه أحشاء الجمال المذبوحة وهو ساجد يصلى لرب جبريل وربه . فلا يجد لحظتها من يدافع عنه غير ابنته فاطمة . أى هوان يلقاه النبى فى سبيل ربه . . وأى بلاء . .

لا ينجو نبى من هذا البلاء حتى إن كان من أولى العزم . . على العكس . . يزيد بلاؤه كلما زاد عزمه . . يتفاوت ابتلاء الأنبياء حسب درجاتهم عند رب العرش . .

أعظمهم قدرا هو أعظمهم بلاء . انظر إلى نوح كيف كذبوه ألف سنة إلا خمسين . انظر إلى إبراهيم كيف طرد من بيت أبيه وألقى فى النار . انظر إلى موسى كيف احتوشه خوف الاعتقال ومؤامرات القتل ، وكيف اتهم بالجنون والكذب . انظر إلى عيسى كيف افتروا عليه وعلى أمه بهتانا وإفكا وزورا . وانظر إلى محمد كيف تعرض لكل ما تعرض له الأنبياء قبله . . حتى تركزت عليه خلال سنى حياته المضيئة كل أنواع القهر والعذاب والمعاناة والتكذيب والمؤامرات والحروب .

هو ناموس إلهى لا يتغير . . يزيد الصراع حدة وعنفا كلما كان النبى من أولى العزم الكبار . . ذلك أن دعوته تعنى تغيير نظام الحياة . . تعنى عودة الحق إلى عرشه تعنى عودة الجمال والخير والفضيلة . . لكن هذه القيم كلها تعيش عادة فى الحياة وهى ترتدى ثياب الأفكار الوحيدة . . أما الباطل فيحمى نفسه بتكوين الجيوش وبناء الأنظمة والتسلح .

يعيش الباطل فى جنده وعسكره ، بينما يمضى الحق عادة وهو يرتدى عباءة الفكر الوحيدة الهشة . . ولا يكاد النبى يفتح فمه ويدعو لربه . حتى تتحرك كل جيوش الظلام فى اتجاهه . ويجيء الوقت الذى يقول فيه النبى والذين آمنوا معه :

﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾[1] . . ؟

ويكون الرد من الواحد القهار ذاته :

﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[2] .

ولا يقدم القرآن هذا الصراع بشكل فنى معجز فحسب . . إنما يرتبط المضمون هنا بالشكل ارتباطا عضويا كارتباط الروح بالجسد الحى . . سوف تجد وسط هذا الصراع العنيف الدامى أغراضا يحرص قصص الأنبياء على إبرازها واستهدافها وتأكيدها .

من هذه الأغراض إثبات الوحى والرسالة . . وبيان أن الدين كله من عند الله . من عهد آدم إلى عهد محمد . وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة . وأن الله رب الجميع ومولاهم . وأن جميع الأديان التى أنزلت على الأرض من عهد آدم إلى عهد محمد ، هى فى أصلها دين واحد . هو إسلام الوجه والقلب لله . . تختلف أساليب الأنبياء فى الدعوة . وتختلف أصواتهم ولغاتهم فى الحديث لقومهم .

لكنهم جميعا يقولون كلاما واحدا يتصل بالله . .

ـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . . ـ

(١ ، ٢) من الآية ٢١٤ من سورة البقرة مدنية .

﴿ يا قوْم اعْبدُوا اللّهَ ما لَكُم مّنْ إله غَيْرُهُ ﴾[1] .

لا الذهب ولا الهوى ولا الحكم ولا السلطة ولا الراحة ولا النعيم ولا الدنيا كلها تصلح للعبادة . . لا معبود سوى الله وحده . . لا شريك له .

ومثلما ترينا قصص الأنبياء أن وسائل الأنبياء فى الدعوة موحدة . . ترينا أيضا أن استقبال قومهم لهم متشابه . التكذيب والاتهام والإيذاء والشر . .

وليس على أى نبى من الأنبياء إلا أن يبلغ ويتحمل ويصبر . .

﴿ واصْبِرْ نفْسك مع الّذين يدْعُون ربّهُم بالْغداة والْعشيّ يُريدُون وجْههُ ﴾[2] .

اصبر . . دواء واحد ليس فى غيره الشفاء . اصبر .

﴿ واصْبرْ وما صبْرُك إلاّ باللّه ﴾[3] .

من أغراض قصص الأنبياء فى القرآن الدعوة إلى الله ، وإثبات اليوم الآخر ، وتبشير المؤمنين ، وتحذير الكافرين ، وبيان سنة الله فى تدمير المكذبين بالدين . أيضا ترينا قصص الأنبياء نعمة الله على أنبيائه ، وترسم لنا صورا للعلاقات الإنسانية كما يراها الله من فوق سبع سماوات . . وتبين لنا أن الأبوة والبنوة وقرابة الدم أو المصاهرة ، ووحدة الأرض أو الجنس أو اللون ، ليست هى الروابط بين الناس . .

إنما الرابطة هى الإيمان بالله . . وهى الحب فى الله . . هذه هى الرابطة الوحيدة المعتمدة عند رب العرش . . وبقية الروابط غرائز وعصبيات يرتفع فوقها من يؤمن بالله عز وجل ويسلم له .

ترينا قصص الأنبياء قدرة الله على المعجزات والخوارق . . ونفضل تأدبا أن نسميها قدرة الله فحسب . . ذلك أن القانون الذى يبدو لنا كقانون نحن البشر . . مثل أن البحر لا ينشق نصفين ، أو أن العصا لا تتحول إلى ثعبان يأكل عصيا أخرى . . هذا القانون ، بالنسبة إلينا ، هو عبد مخلوق بالنسبة لله . . ليس القانون قانونا على الله عز وجل . . هو قانون علينا نحن . . ونحن مخلوقات مثله . . أما الله فخالق . . وطاعة القانون له أمر لا ندريه نحن ولا نعرفه . . ولهذا نسميه معجزة أو خارقة . بينما الأمر غير ذلك . .

---

(١) من الاية ٦٥ من سورة الأعراف مكية .
(٢) من الآية ٢٨ من سورة الكهف مكية .
(٣) من الاية ١٢٧ من سورة النحل مكية .

ترينا قصص الأنبياء من بين أغراضها كيف خلق الله آدم من العدم . . كان الكون عدما فصار بكلمة الله كونا . . وكانت الأرض عدما فصارت بكلمة الله أرضا . ومن طين الأرض خلق آدم . وجعل الله من القوانين السارية على هذا المخلوق أن يجيء نسله من اتصاله بحواء . . من اتصال رجل بامرأة . .

ثم شاء الله أن يولد طفل من امرأة فقط . . بغير أن يلمسها رجل . . كلمة شاء الله أن تكون، فكانت عيسى بن مريم . . هل هذه معجزة . . أو خارقة . . أو قانون أصيل يطيع خالقه ولا ندرى نحن كيف؟

لا نستطيع أن نمضى فى تعداد أغراض قصص الأنبياء فى القرآن . . إنما نريد أن نذكر كيف خضعت القصة للغرض الدينى ؟ . . وكيف استطاعت - فى الوقت نفسه - أن تعبر فنيا عن هذا الغرض ؟

يتحدث كتاب التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب عن هذه النقطة بعمق وإيحاء . . يقول: إن خضوع القصة فى القرآن للغرض الدينى ، ترك أثرا واضحا فى طريقة عرضها، وفى مادتها وتأثيرها النهائى . .

وكان أول أثر لهذا الخضوع أن ترد القصة الواحدة ، فى معظم الحالات ، مكررة فى مواضع شتى . . ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها غالبا ، إنما هو تكرار لبعض حلقاتها . . ومعظمه إشارات سريعة لمواضع العبرة فيها ، أما جسم القصة كله، فلا يكرر إلا نادرا ، ولمناسبات خاصة فى السياق . . وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ، ويلاحظ السياق الذى وردت فيه ، يجدها مناسبة تماما لهذا السياق . ويجدها منطبقة عليه ، وموحية بما يوحى به ، وملتحمة بمعانيه ودالة عليها . . يقع ذلك بغير إخلال بالسمة الفنية . . بل لعل هذا الذى يقع ، يسند قيما فنية كامنة ، ويبرز قيما فنية خافية . .

وردت قصة موسى ، عليه الصلاة والسلام ، فى القرآن فى حوالى الثلاثين موضعا . . هى أكثر القصص فى القرآن تكرارا . . ورغم ذلك كانت من أغنى قصص الأنبياء فى القرآن . . وباستثناء ستة مواضع اقتضى السياق فيها تكرار القصة . . نرى الحلقات الأساسية لم تكرر ، فإذا كررت حلقة منها جاءت بشىء جديد فى تكرارها . . شىء تحسبه ظلا . . فإذا تمليته وجدت نفسك تمتلئ بتأثير جديد كل الجدة . . مدهش غاية الدهشة . . موح أعظم الإيحاء . .

ينطبق هذا على قصة موسى ، وقصة إبراهيم التى تكررت فى حوالى العشرين موضعا ، كما ينطبق على كل قصص الأنبياء التى تتكرر لحكمة عليا وأسباب وجيهة .

وغير التكرار . . خضعت القصة فى القرآن للغرض الدينى . . فكان من أثر هذا الخضوع أن تقدم بالقدر الذى يكفى لأداء هذا الغرض ، وأن تعرض بالشكل الذى تتفق معه . . وهكذا تعرض القصة مرة من أولها . ومرة من وسطها ، ومرة من آخرها ، وتارة تعرض كاملة ، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها ، وتارة تتوسط بين هذا وذاك . . حسبما تكمن العبرة . . متجاوزة بذلك الهدف التاريخى . . ذلك أن القرآن الكريم ليس كتابا فى التاريخ . . ينطوى على قدر من التاريخ لكنه ليس تاريخا ، إنما هو كتاب دعوة إلى الله . .

هناك قصص أنبياء بدأت عرضها بميلاد هؤلاء الأنبياء ركزت على مولدهم لخطورة هذا الميلاد وأثره الموحى . . مثل آدم الذى جاء ميلاده بالأمر ونفخة الله بالروح . . ومثل عيسى الذى جاء ميلاده من غير أن يلمس أمه الصديقة رجل . . ومثل موسى الذى جاء مولده فى عصر يذبح فيه قصر الفرعون كل مولود ذكر لبنى إسرائيل ، فيشاء الله أن ينجو موسى بلجوئه ، وهو رضيع ، إلى قصر الفرعون ذاته ، وهو مصدر الخطر . . وبذلك يولد الأمن فى أحضان الخطر ، ويتم تدبير الله ، وتنفذ مشيئته . .

وهناك قصص أنبياء تعرض ، فإذا هى تتجاوز ميلاد النبى وتبدأ القصة من صباه أو وهو فتى ، لما لهذا الأمر من علاقة وثيقة بالقصة . . إن قصة يوسف تبدأ بحلم يراه وهو صبى ، بعدها تلعب الأحلام دورا رئيسيا فى حياته ، حتى تفسر رؤياه بعد ذلك بسجود إخوته الذين كادوا له ، وكادوا يقتلونه من قبل . . وقصة إبراهيم تبدأ وهو فتى ينظر إلى السماء ويفكر كيف يعبد الناس الكواكب والنجوم والشمس ، وهى جميعا مخلوقات تظهر ثم تغيب . . وقصة داود تبدأ وهو شاب صغير ، لا يدرى شيئا عن القتال ، ثم تدفعه الحياة دفعا إلى صراع مع جالوت . . أخطر الفرسان المحاربين فى عصره . . ويهزم الراعى الوديع الفارس المهول . . لأن الله وقف مع وداعة القلب ضد حدة الطبع وقسوة المشاعر . .

وهناك قصص تعرض فى حلقة متأخرة نسبيا . . مثل قصص نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وكثير من الأنبياء غيرهم . . إن السياق القرآنى لا يذكر لنا شيئا عن ميلادهم أو شبابهم . . إنما نفاجأ بأننا أمام نبى يحمل رسالة من ربه . . يبرز على مسرح الأحداث فجأة ويبدأ أداء دوره . .

وهناك قصص تذكر بجميع حوادثها وتفصيلاتها ، وقصص تهمل بعض حوادثها وتفصيلاتها . . وهناك قصص طويلة مثل قصص موسى ، وإبراهيم ، ونوح . . وهناك قصص قصيرة مثل قصص هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب . . وهناك قصص متناهية فى القصر مثل قصص زكريا ، وأيوب ، ويونس . . وهناك قصص تعرض فى سياق قصص أخرى ، كقصة يعقوب ، إذ تعرض فى سياق قصة يوسف . .

ثم تذكر مرة أخرى عند موته ، وهو يسأل أبناءه ماذا يعبدون من بعده . . وهناك قصص أنبياء يشار إليهم بالاسم ولا يذكر أى حدث من أحداث حياتهم . . مثل إدريس ، واليسع ، وذى الكفل . . وهناك قصص تعرض بغير ذكر أسماء أو أعداد على الإطلاق . . إن قصة أهل الكهف تعرض فلا تذكر أسماءهم ولا عددهم ، وتكتفى بذكر الفترة التى قضوها نائمين فى الكهف مع كلبهم ، وهى تسع سنوات وثلاثمائة . .

وهكذا يختلف أسلوب القرآن فى عرض قصص الأنبياء والأولياء والصالحين . يتنوع الأسلوب ، ويختلف من الناحية التاريخية . . كما يتنوع الأسلوب ويختلف من الناحية الفنية أيضا . . ويخدم هذان الغرضان الناحية الدينية أو ناحية الدعوة . . ولقد قيل بحق : إن القرآن يجعل الجمال الفنى أداة مقصودة للتأثير الوجدانى ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية . . بلغة الجمال الفنية . .

انظر كيف تتنوع طريقة عرض القصص . . مرة يذكر ملخصا للقصة يسبقها ، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك . . كقصة أهل الكهف ، ومرة يذكر عاقبة القصة ومغزاها ونهايتها ، ثم يبدأ من أولها ويسير بالتفصيل ، مثل قصة موسى فى سورة القصص . . ومرة تبدأ القصة برؤيا فى المنام ، ثم تسير القصة وكأنما هى تأويل للرؤيا . . حتى إذا تحققت الرؤيا أنهى القصة هذا الختام الدقيق ، ولم يسر فيها كما سارت التوراة . . ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ، ومرة تتحول القصة إلى مسرحية ، فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبه إلى ابتداء العرض ، ثم يدع الحوار يكمل القصة . . ومرة تتحول القصة إلى فيلم سينمائى يبدأ بحلم وينتهى بتأويله . . مثل قصة يوسف التى قسمت إلى ٢٨ مشهدا ، يمكن لكل مشهد أن ينطوى على عديد من التفصيلات الدقيقة الموحية . . وهناك أسلوب القطع بين المشاهد . . وهذه النقلات السريعة الخاطفة ، التى تترك بين المشهد والمشهد مساحة تتيح للخيال أن ينطلق وينشط . . وهناك تنوع طريقة المفاجأة . . فمرة يكتم سر المفاجأة عن بطل القصة ، وعن النظارة ، حتى يكشف لهم معا فى وقت واحد . . مثل قصة موسى مع العبد الصالح فى سورة الكهف . . إن موسى يلتقى بواحد لا يذكر القرآن الكريم اسمه . . قيل إنه الخضر ، ولكن القرآن لم يذكر اسمه . . اكتفى بوصفه بأن موسى وفتاه كانا يسيران :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندنا وعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا علْما ﴾ (١) .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الكهف مكية .

هذه هي صورة العبد من عباد الله ، كما رسمه الله عز وجل . . تجاوز اسمه إلى حقيقته . . وأى شيء يفيد الاسم والوصف الخارجي لو جهلنا الحقيقة . . ؟

ونسير مع موسى والعبد الرحيم العالم . . فإذا نحن أمام مفاجآت تذهلنا . . إن هذا العبد الرحيم يخرق سفينة لمساكين يعملون فى البحر . . . ويقتل غلاما صغيرا ، ويقيم على حسابه جدارا كاد يهوى ، فى قرية بخيلة ، رفضت أن تطعمه أو تأويه أو تضيفه . . أى تناقض . . لم يصبر موسى عليه ، ثم ها هو ذا السر ينكشف ، وتبرز المفاجآت التى كانت مجهولة لنا ولموسى وفتاه .

وأحيانا يلجأ القرآن لعكس هذا الأسلوب . . وبدلا من إخفاء السر عن قارئ القصة ـ بينما يعلمه البطل ـ نراه يخفى السر عن البطل ويعلنه للقارئ أو النظارة . . انظر إلى قصة لوط . . ذهب إليه الملائكة الكرام ، ونحن نعرف ـ كقراء ـ أنهم ملائكة ذهبوا لإنقاذه ، بينما هو يجهل هذه الحقيقة ، ولهذا ضاق بهم وكره زيارتهم ، وقال فى نفسه : هذا يوم عصيب . . نحن نضحك ـ كقراء ـ من خشيته وتوجسه وخوفه على ضيفه . نعلم ـ كقراء وجمهور ـ أنهم ملائكة . . هذا التقديم الفنى الخاص يكون أغلب ما يكون فى معرض السخرية . . إننا نشفق على لوط ونسخر من قومه . . تخيل أنت ـ كقارئ ـ مشهد قومه وقد جاءوا على الخبر السعيد بوصول شباب جميل . . بينما تعلم أنت ـ كقارىء ـ أن عذابا مرعبا ينتظرهم من هؤلاء الذين يتشكلون فى أردية الشباب الجميل . ألا تسخر من قوم لوط فى نفسك أعظم السخرية ؟ . . لقد أخفى القرآن السر عنهم وعن لوط مؤقتا . . وكشفه لك أنت . .

وإلى جوار هذا التصوير الفنى فى قصص الأنبياء . . يجيء التعبير الفنى فى القرآن ، ريشة مبدعة لا تكاد تلمس اللوحة الحية حتى تدب الحياة فى المشهد ، ويتحرك الحدث واقعا يجرى أمام عينيك . ثم تجيء صدمة موحية . . صدمة للتطهير ، كما يقولون فى دنيا الأدب المسرحى . . ثم تمضى أمامك شخصيات الأنبياء فى القصص . . كل شخصية منها رسمت وأبرزت بشكل يجعل خصائص هذا النبى وتكوينه النفسى وملامح روحه تبرز أمامك ، بشكل حى تنزوى إلى جواره كل حياة . .

هذا هو نوح . . الشاكر أبدا . . الصابر أبدا . . أى حبال مدها لصبره حتى ليقضى ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه فلا يزيد عدد المؤمنين ، ويزيد عدد الكافرين ، ورغم ذلك يستمر . . أى جلد وصبر واحتمال ؟! وهذا هو موسى . . الغيور ، القوى ، المندفع ، العصبى . إنه يمشى فى شوارع مصر فيستغيث به واحد من شيعته أثناء شجاره مع مصرى ، فيندفع موسى متدخلا ضد المصرى :

﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ (١) .

اندفاع يميز شخصيته ،عليه الصلاة والسلام . . وعصبية هي جزء من تكوينه النفسي . . ها هو ذا بعد عشر سنوات يمضي في سيناء . . يأمره الله أن يلقي عصاه . . ألقاها فإذا هي حية تسعى . . لم يكد يراها حتى وثب جريا . .

أمره الله تعالى ألا يخاف :

﴿ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢) . .

مرت سنوات عليه ،وها هو ذا يسأل ربه سؤالا يصور اندفاعه :

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (٣) . .

ويفهمه الله تعالى أن أي أعصاب إنسانية لا تحتمل هذا . . أعصاب الجبل نفسه لا تصمد لنور الله . .

﴿ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) . .

ثم ها هو ذا يعود إلى قومه فيكتشف أنهم يعبدون عجلا من الذهب . . ترك فيهم هارون . . وعاد إليهم بألواح التوراة . . لم يكد يسمع ما حدث حتى ألقى الألواح من يده . . وأمسك هارون أخاه من رأسه ولحيته وشده إليه كإعصار لا يبصر من الغضب . . قال هارون :

﴿ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾(٥) . .

كان هارون أعلم منا بموسى . . ولو أن هارون تدخل في غياب موسى فانقسم قومه قسمين . . لأخذه موسى من رأسه ولحيته وقال له : كيف فرقت بين بني إسرائيل ولم

(١) من الآية ١٥ من سورة القصص مكية .
(٢) من الآية ١٠ من سورة النمل مكية .
(٣) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف مكية .
(٤) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف مكية .
(٥) الآية ٩٤ من سورة طه مكية . .

تنتظر عودتى . . ؟ هو اندفاع عصبى لنموذج إنسانى شديد الغيرة على الله . . شديد الحب لله . .

تقابل شخصية موسى باندفاعها العاشق للحق . . شخصية إبراهيم بثباتها الراسخ ، وحبها العميق لله ، وهدوئها مع الناس ، وتسامحها مع الخلق ، وحلمها على البشر ، وانحنائها على آلام الإنسان انحناءة الأب الرحيم ، وإيثارها لأمر الخالق على كل مشاعر الأبوة ، حتى ليهم الشيخ بذبح ولده ، الذى جاءه على كبر . . لأنه رأى فى المنام أنه يذبحه . . ورؤيا الأنبياء حق . . نفس راضية ، وطبع شديد الحنو ، وحلم ورحمة يشيعان فى حياته كلها ويجريان فيها مجرى الدم فى الجسد الحى . . حتى ليستحق أن يقول عنه الرحمن الرحيم :

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[1] . .

لا نريد أن نمضى فى الحديث عن أسلوب القرآن المعجز فى تقديمه لأنبياء الله ، ولا نريد أن نفيض فى الحديث عن طريقة العرض ورسم الشخصيات . . فذلك حديث طويل . . نحسب أن الوقت قد حان لنقرأ معا قصص أنبياء الله . .

---

(١) من الآية ١٢٥ من سورة النساء مدنية .

قصة آدم
[عليه الصلاة والسلام]

انصرفت مشيئة الله تعالى إلى خلق آدم . . قال الله تبارك وتعالى للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(١) . .

اختلف الناس فى معنى خلافة آدم . . فمن قائل إنه خليفة لجنس سبق على الأرض ، وكان هذا الجنس يفسد فيها ويسفك الدماء . . ومن قائل إنه كان خليفة لله تعالى ، بمعنى أنه خليفة فى إمضاء أحكامه وأوامره ، لأنه أول رسول إلى الأرض . . وهذا ما نعتقده . . سأل أبو ذر رسول الله ، ﷺ ، عن آدم : أنبيا كان مرسلا ؟ قال : نعم . . قيل : لمن كان رسولا ولم يكن فى الأرض أحد ؟ قال : كان رسولا إلى أبنائه . .

. . . .

يرفع ستار الخليقة على مشهد بين الله تعالى وملائكته : قال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . .

وقف المفسرون أمام هذه الآيات وقفة طويلة . .

قال تفسير المنار : إن هذه الآيات من المتشابهات التى لا يمكن حملها على ظاهرها ، لأنها بحسب قانون التخاطب إما استشارة من الله تعالى ، وذلك محال عليه تعالى . . وإما إخبار منه سبحانه للملائكة واعتراض منهم وجدال ، وذلك لا يليق بالله تعالى ولا بملائكته ، واقترح صرف معنى القصة لشىء آخر . .

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة مدنية.
(٢) الآية ٣٠ من سورة البقرة مدنية.

وقال تفسير الجامع لأحكام القرآن : إن الله تعالى كان قد أخبر ملائكته أنه إذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء ، وحين قال تعالى :

﴿ إنّي جاعلٌ في الأرْض خَليفةً ﴾ (١) . .

قالوا أهذا هو الخليفة الذى حدثتنا عن إفساده فى الأرض وسفكه للدماء ، أم خليفة غيره ؟ وقال تفسير « فى ظلال القرآن » : إن الملائكة بفطرتهم البريئة التى لا تتصور إلا الخير والنقاء ، قد حسبوا أن التسبيح بحمد الله وتقديسه هو الغاية المطلقة للوجود ، وهذه الغاية متحققة بوجودهم هم ، وسؤالهم يصور دهشتهم ، ولا يعبر عن اعتراض من أى نوع . .

رأينا كيف اجتهد كل واحد من المفسرين لكشف الحقيقة . . فكشف الله لكل واحد فيهم عمقا منها . . وإنما أوقع فى الحيرة عمق القرآن . . وتقديم القصة بأسلوب الحوار . . وهو أسلوب بالغ التأثير والنفاذ . . إن الله تعالى يحكى لنا القصة بأسلوب الحوار ، وليس من الضرورى أن تكون قد وقعت بنفس هذا الأسلوب . . ألا ترى أن الله تعالى يقول فى سورة [فصلت] :

﴿ ثُمَّ اسْتوىٰ إلى السّماء وهي دُخانٌ فقال لها وللأرْض ائْتيا طوْعا أوْ كرْها قالتا أتيْنا طائعين ﴾(٢) . .

هل يتصور أحد من الناس أن الله عز وجل قد خاطب السماء والأرض ، وردت عليه السماء والأرض ووقع بينهما هذا الحوار . . ؟ إنما يأمر الله تعالى السماء والأرض فتطيع السماء والأرض . . وإنما صور الله ما حدث بأسلوب الحوار لتثبيته فى الذهن ، وتأكيد معناه وإيضاحه . . واستخدام هذا الأسلوب المسرحى فى قصة أدم يوحى بمعنى عميق . . وذلك أن الستار يوشك أن يرتفع عن خلق النوع الإنسانى . .

نحن نتصور أن الله تعالى حين قرر خلق ادم ، حدث ملائكته من باب إعلامهم كى يسجدوا له ، لا من باب أخذ رأيهم أو استشارتهم . . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . . حدثهم الله تعالى أنه سيجعل فى الأرض خليفة ، وأن هذا الخليفة ستكون له ذرية وأحفاد ، وأن أحفاده وذريته سيفسدون فى الأرض ، ويسفكون فيها الدماء . . وقامت الحيرة فى نفوس الملائكة الأطهار . . إنهم يسبحون بحمد الله ، ويقدسون له . . والخليفة المختار لن يكون منهم ، فما هو السر فى ذلك ؟ وما هى حكمة الله تبارك وتعالى فى الأمر ؟ لم تستمر حيرة الملائكة ، وتشوقهم إلى شرف الخلافة فى

(١) من الاية ٣٠ سورة البقرة مدنية . (٢) الآية ١١ مكية .

الأرض ، ودهشتهم من تشريف آدم بها ، لم يستمر هذا الحوار الداخلى غير جزء من ملايين الأجزاء من الثانية . . ثم ردهم إلى اليقين والتسليم قوله تعالى :

﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[1] . .

وبهذه الإشارة إلى علمه المحيط ، وعلمهم القاصر ، عاد التسليم واليقين .

نستبعد وقوع الحوار بين الله تعالى وملائكته تنزيها لله ، وإكبارا لملائكته . . ونعتقد أن الحوار قام فى نفوس الملائكة لحمل شرف الخلافة في الأرض . . ثم أعلمهم الله تعالى أن طبيعتهم ليست مهيأة لذلك ولا ميسرة له . . إن التسبيح بحمد الله وتقديسه ، هو أشرف شيء فى الوجود ، ولكن الخلافة فى الأرض لا تقوم بذلك وحده ، إنما هى تحتاج إلى طبيعة أخرى . . طبيعة تبحث عن المعرفة وتجوز عليها الأخطاء . .

هذه الحيرة ، أو هذه الدهشة ، أو هذا الاستشراف . . هذا الحوار الداخلى الذى ثار فى نفوس الملائكة بعد معرفة خبرخلق آدم . . هذا كله يجوز على الملائكة ، ولا ينقص من أقدارهم شيئا ، لأنهم ، رغم قربهم من الله ، وعبادتهم له ، وتكريمه لهم ، لا يزيدون على كونهم عبيدا لله ، لا يشتركون معه فى علمه ، ولا يعرفون حكمته الخافية ، وغيبه المستور ، وتدبيره فى الخفاء ، ولا يعرفون حكمته العليا وأسباب تحقيقها فى الأشياء . .

ولسوف تفهم الملائكة فيما بعد . . أن آدم نوع جديد من المخلوقات ، فهو يختلف عنهم في أن عمله لن يكون تسبيح الله وتقديسه ، ولن يكون مثل حيوانات الأرض وكائناتها ، يقتصر وجوده على سفك الدماء والإفساد فيها . . إنما سيكون آدم نوعا جديدا من المخلوقات . . وستتحقق بوجوده حكمة عليا لا يدريها أحد غير الله . . وتلك حكمة المعرفة . . قال الله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [2] . .

قرأها ابن عباس : «إلا ليعرفون» . . فكأن المعرفة هدف النوع الإنسانى وغاية وجوده . . وسوف يبين لنا الله بأسلوب الحوار كيف كان ذلك . .

ولعل أجمل اقتراب من تفسير هذه الآيات كلمة الشيخ محمد عبده . . « إن الحوار فى الآيات ، شأن من شئون الله تعالى مع ملائكته . . صوره لنا فى هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب ، ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول ، ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا نحن البشر . . » . .

---

(١) من الآية ٣٠ سورة البقرة مدنية . (٢) الآية ٥٦ من سورة الذاريات مكية .

أدرك الملائكة أن الله سيجعل فى الأض خليفة . . وأصدر الله سبحانه وتعالى أمره إليهم تفصيلا ، فقال إنه سيخلق بشرا من طين ، فإذا سواه ونفخ فيه من روحه فيجب على الملائكة أن تسجد له ، والمفهوم أن هذا سجود تكريم لا سجود عبادة ، لأن سجود العبادة لا يكون إلا لله وحده . . قال تعالى فى سورة [ص] :

﴿ إذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾(١) .

جمع الله سبحانه وتعالى قبضة من تراب الأرض ، فيها الأبيض والأسود والأصفر والأحمر ، ولهذا يجيء الناس ألوانا مختلفة . . ومزج الله تعالى التراب بالماء فصار صلصالا من حمإ مسنون . . تعفن الطين وانبعثت له رائحة . . وكان إبليس يمر عليه فيعجب أى شيء يصير هذا الطين ؟ . . من هذا الصلصال خلق الله تعالى ادم . . سواه بيديه سبحانه . . ونفخ فيه من روحه سبحانه . . فتحرك جسد ادم ودبت فيه الحياة . . فتح ادم عينيه فرأى الملائكة كلهم ساجدين له . . ما عدا واحدا يقف هناك . . لم يكن ادم قد عرف أى نوع من المخلوقات هذا الذى لم يسجد له . . لم يكن يعرف اسمه . . كان إبليس يقف مع الملائكة ، ولكنه لم يكن منهم . . كان من الجن . . والمفروض ، بوصفه أقل من الملائكة ، أن تنطبق عليه الأوامر التى تصدر لهم .

حكى الله تعالى قصة رفض إبليس السجود لادم فى أكثر من سورة . . قال تعالى فى سورة «ص» :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾(٢) . .

كان أدم يتابع ما يحدث حوله ، ويحس بالحب والرهبة والدهشة . . حب عميق لله الذى خلقه وكرمه وأسجد له ملائكته . . ورهبة من غضب الخالق حين طرد إبليس

(١) الايات ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ مكية .

(٢) الايات من ٧٥ إلى ٨٣ مكية .

من رحمته . . ودهشة من هذا المخلوق الذى يكرهه بغير أن يعرفه . . ويتصور أنه أفضل منه بغير أن تتاح لأحدهما فرصة لاختيار نفسه وإثبات أفضليته . . ثم ما أعجب إبليس وحجته . . إنه يتصور أن النار أفضل من الطين . . فمن أين جاءه هذا العلم ، والمفروض أن يكون هذا العلم عند الله ، فهو الذى خلق النار والطين ويعرف أيهما أفضل . . ؟

أدرك آدم من الحوار أن إبليس مخلوق يتصف باللؤم كما يتصف بالجحود . إنه يسأل الله تعالى أن يبقيه إلى يوم البعث ، لا يريد إبليس أن يموت ، غير أن الله تعالى يفهمه أنه سيبقى إلى يوم الوقت المعلوم . . سيبقى إلى أن يحين أجله فيموت . . أدرك آدم أن الله قد لعن إبليس ، وطرده من رحمته بسببه ، أدرك أن إبليس لن ينسى له هذا الصنيع . . انتهى الأمر وعرف آدم عدوه الأبدى . . وأدهشت آدم بعض الدهشة جرأة عدوه وحلم الله عز وجل . .

ربما قال لى قائل : لماذا استبعدت أن يكون قد جرى حوار بين الله عز وجل وملائكته . . ولجأت إلى تأويل الآيات ، ولم تستبعد وقوع حوار بين الله تعالى وإبليس . . ؟ وأقول ردا على ذلك : إن العقل يهدى لهذه النتيجة . . إن إمكان قيام حوار بين الله تعالى وملائكته أمر مستبعد ، لأن الملائكة منزهون عن الخطإ والقصور والرغبات البشرية التى تبحث عن المعرفة . . إنهم بحكم خلقهم ، جند طائعون مكرمون . أما إبليس فهو خاضع للتكليف ، وطبيعته ، بوصفه من الجن ، قريبة من طبيعة جنس آدم . . بمعنى أن الجن يمكن أن يؤمنوا ، ويمكن أن يكفروا . . إن وجدانهم الدينى يمكن أن يسوقهم إلى تصور خاطئ يسند كبرياء كاذبة . . ومن هذا الموقع وبحكم هذا التكوين ، يمكن أن ينشأ حوار . . والحوار يعنى الحرية ، ويعني الصراع . . ولقد كانت طبيعة البشر والجن مركبة بشكل يسمح لهم بالحرية ، ويسمح لهم بالصراع . أما طبيعة الملائكة فمن لون آخر لا تدخل الحرية فى نسيجه .

ولقد شاهد آدم عمليا ـ بعد خلقه مباشرة ـ قدر الحرية التى يعطيها الله لمخلوقاته المكلفة . . وكان وقوع هذا الدرس أمام آدم يحوى مغزى عميقا ، إن الستار يفتح على خلق النوع الإنسانى بحوار يدور بين الله ـ جل جلاله ـ وعبد كافر ، ورغم ذلك يعطيه الله الحرية . . وهو فى نهاية الأمر عبد . . وكافر . .

إن إبليس رفض أن يسجد لآدم . . كان الله تعالى يعلم أنه سيرفض السجود لآدم . . سوف يعصاه . . وكان الله يستطيع أن ينسفه نسفا ، أو يحيله إلى حفنة من التراب ، أو يخنق بعزته وجلاله كلمة الرفض فى فم إبليس . . غير أن الله تعالى يعطى مخلوقاته المكلفة قدرا من الحرية لا يعطيه غيره أحدا . . إنه يعطيهم حرية مطلقة تصل إلى حق رفض أوامره سبحانه . . إنه يمنحهم حرية الإنكار وحرية العصيان ، وحرية

الاعتراض عليه . . سبحانه وتعالى . لا ينقص من ملكه أن يكفر به الكافرون ، ولا يزيد من ملكه أن يؤمن به المؤمنون ، إنما ينقص ذلك من ملك الكافرين ، أو يزيد فى ملك المؤمنين . . أما هو . . فتعالى عن ذلك . . فهم آدم أن الحرية نسيج أصيل فى الوجود الذى خلقه الله . . وأن الله يمنح الحرية لعباده المكلفين . . ويرتب على ذلك جزاءه العادل . .

بعد درس الحرية . . تعلم آدم من الله تعالى الدرس الثانى . . وهو العلم . . كان آدم قد أدرك أن إبليس هو رمز الشر فى الوجود ، كما أدرك أن الملائكة هم رمز الخير ، أما هو نفسه فلم يكن يعرف نفسه حتى هذه اللحظة . . ثم أطلعه الله سبحانه وتعالى على حقيقته ، وحكمة خلقه ، وسر تكريمه . . قال تعالى :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (١) . .

أعطاه الله تعالى سر القدرة على اختصار الأشياء فى رموز ومسميات . . علمه أن يسمى الأشياء : هذا عصفور ، وهذا نجم ، وهذه شجرة ، وهذه سحابة ، وهذه طائرة ، وهذا هدهد ، وهذه . . إلى آخر الأسماء . . تعلم آدم الأسماء كلها . . الأسماء هنا هى العلم . . هى المعرفة . . هى القدرة على الرمز للأشياء بأسماء . . غرس الله فى نفس آدم معرفة لا نهاية لها ، وحبا للمعرفة لا نهاية له ، ورغبة يورثها أبناءه فى التعلم . . وهذه هى الغاية من خلق آدم ، وهذا هو السر فى تكريمه . .

بعد أن تعلم آدم أسماء الأشياء وخواصها ومنافعها . . بعد أن عرف علمها . . عرض الله هذه الأشياء على الملائكة فقال :

﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) . .

[يقصد صادقين فى رغبتكم فى الخلافة] . . ونظر الملائكة فيما عرض الله عليهم ، فلم يعرفوا أسماءه . . واعترفوا لله بعجزهم عن تسمية الأشياء أو استخدام الرمز فى التعبير عنها . . قال الملائكة اعترافا بعجزهم :

﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ (٣) ـ [أى ننزهك ونقدسك] .

﴿ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤) .

[ردوا العلم كله إلى الله] . .

---

(١) ، (٢) من الآية ٣١ من سورة البقرة مدنية . (٣) ، (٤) من الآية ٣٢ من سورة البقرة مدنية .

قال الله تعالى لآدم :

﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ (١) . .

وحدثهم آدم عن كل الأشياء التى عرضها الله عليهم ولم يعرفوا أسماءها . .

قال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٢) . .

أراد الله تعالى أن يقول للملائكة إنه علم ما أبدوه من الدهشة حين أخبرهم أنه سيخلق آدم، كما علم ما كتموه من الحيرة فى فهم حكمة الله ، كما علم ما أخفاه إبليس من المعصية والجحود . . أدرك الملائكة أن آدم هوالمخلوق الذى يعرف . . وهذا أشرف شىء فيه . . قدرته على التعلم والمعرفة . . وعرف الملائكة لماذا أمرهم الله بالسجود له . . كما فهموا السر فى أنه سيصبح خليفة فى الأرض ، يتصرف فيها ويتحكم فيها . . بالعلم والمعرفة . . معرفة بالخالق . . وهذا ما يطلق عليه اسم الإيمان أو الإسلام . . وعلم بأسباب استعمار الأرض وتغييرها والتحكم فيها والسيادة عليها . . ويدخل فى هذا النطاق كل العلوم المادية على الأرض . .

ومن المعروف أن كمال الإنسان لا يتحقق إلا بتحصيله ما يستطيعه من معرفة الخالق وعلوم الأرض . . فإن نجح فى شىء على حساب الشىء الآخر صار مثل طائر جبار يرف بجناح واحد ، بينما جناحه الثانى مهيض يمنعه من التحليق . .

كان آدم يعرف أسماء كل شىء ، وكان يتحدث أحيانا مع الملائكة ، لكن الملائكة كانوا مشغولين عنه بعبادة الله تعالى ، ولهذا كان آدم يحس الوحدة . . ونام آدم يوما فلما استيقظ وجد عند رأسه امرأة تحدق فى وجهه بعينين جميلتين ورحيمتين . . وربما دار بينهما هذا الحوار :

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة البقرة مدنية . (٢) الآيات ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ من سورة البقرة مدنية .

قال آدم : لم تكونى هنا قبل أن أنام . قالت : نعم . قال : جئت أثناء نومى إذن ؟ قالت : نعم .

قال : من أين جئت . . . ؟ قالت : جئت من نفسك . . خلقنى الله منك وأنت نائم . . ألا تريد أن تستعيدنى إليك وأنت مستيقظ ؟ قال ادم : لماذا خلقك الله ؟ قالت حواء : لتسكن إلى . قال ادم : حمدا لله . . كنت أحس الوحدة . .

سألته الملائكة عن اسمها . . قال إن اسمها حواء . . سألوه : لماذا سميتهاحواء يا آدم ؟

قال ادم : لأنها خلقت منى . . وأنا إنسان حى . .

كان ادم مخلوقا طبيعته قائمة ومركبة على عشق المعرفة ، وكان ينقل معرفته لحواء ، فيحدثها عما يعرفه ولا تعرفه هى . . وأحبته حواء . .

وأصدر الله تعالى أمره لأدم بسكنى الجنة . قال تعالى [فى سورة البقرة] :

﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ (١) . .

لا نعرف مكان هذه الجنة . . سكت القران عن مكانها واختلف المفسرون فيها على خمسة وجوه . قال بعضهم : إنها جنة المأوى ، وإن مكانها السماء . ونفى بعضهم ذلك لأنها لو كانت جنة المأوى لحرم دخولها على إبليس ولما جاز فيها وقوع عصيان . وقال أخرون : إنها جنة أخرى خلقها الله لأدم وحواء . وقال غيرهم : إنها جنة من جنات الأرض تقع فى مكان مرتفع . . وذهب فريق إلى التسليم فى أمرها . . والتوقف . ونحن نختار هذا الرأى . . إن العبرة التى نستخلصها من مكانها لا تساوى شيئا بالقياس إلى العبرة التى تستخلص مما حدث فيها . .

. . . .

دخل ادم وحواء الجنة . وهناك عاشا حلم الجنس البشرى كله . وهناك أيضا مرا بأقسى تجربة . . كانت حياة ادم وحواء فى الجنة هى البراءة المطلقة والقدرة التى لا تحد . وعرف ادم معنى السعادة الداخلية العميقة حين صار مع حواء فى الجنة . . لم يعد يحس الوحدة . . كان يتحدث مع حواء كثيرا ، ويستمعان لغناء الخلائق وتسبيح الأنهار ، وموسيقى الوجود البكر ، قبل أن يعرف الوجود معنى الأحزان والألام . .

---

(١) الاية ٣٥ من سورة البقرة مدنية .

وكان الله قد سمح لهما بأن يقتربا من كل شيء وأن يستمتعا بكل شيء ، ما عدا شجرة واحدة لعلها شجرة الألم أو شجرة المعرفة .

قال الله لهما قبل دخول الجنة :

﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا من الظَّالمينَ ﴾[1] .

وفهم آدم وحواء أنهما ممنوعان من الأكل من هذه الشجرة . . غير أن آدم إنسان ، والإنسان ينسى ، وقلبه يتقلب ، وعزمه يضعف . . واستغل إبليس إنسانية آدم وجمع كل حقده في صدره ، واستغل تكوين آدم النفسي . . . وراح يثير في نفسه يوما بعد يوم . راح يوسوس إليه يوما بعد يوم :

﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴾؟[2] .

تساءل آدم بينه وبين نفسه . . ماذا يحدث لو أكل من الشجرة . . ؟ ربما تكون شجرة الخلد حقا ، وكان حلم آدم أن يخلد في البراءة المطلقة التي يعيش فيها في الجنة . ومرت الأيام وآدم وحواء مشغولان بالتفكير في هذه الشجرة . . ثم قررا يوما أن يأكلا منها . . نسيا أن الله حذرهما من الاقتراب منها . نسيا أن إبليس عدوهما القديم . ومد آدم يده إلى الشجرة وقطف منها إحدى الثمار وقدمها لحواء . . وأكل الاثنان من الثمرة المحرمة . قال تعالى : في سورة طه :

﴿ وعصىٰ آدمُ ربَّهُ فغوىٰ ﴾ [3] .

ليس صحيحا ما تذكره صحف اليهود من إغواء حواء لآدم وتحميلها مسئولية الأكل من الشجرة . . إن نص القرآن لا يذكر حواء . . إنما يذكر آدم - كمسئول عما حدث - عليه الصلاة والسلام . وهكذا أخطأ الشيطان وأخطأ ادم . أخطأ الشيطان بسبب الكبرياء ، وأخطأ آدم بسبب الفضول . احتقر أحدهما الإنسان ، وأراد الآخر أن يجعل نفسه ندا لله بالخلود .

لم يكد آدم ينتهي من الأكل حتى أحس أن صدره ينقبض . . أحس الألم والحزن والخجل . . تغير الجو حوله وسكتت الموسيقى العذبة التي كانت تنبعث من داخله . . اكتشف أنه عار ، و أن زوجته عارية . . اكتشف أنه رجل وأنها امرأة . . وبدأ هو وزوجته يقطعان أوراق الشجر لكي يغطي بها كل واحد منهما جسده العاري . . وأصدر الله تبارك وتعالى أمره بالهبوط من الجنة . .

---

(١) الآية ٣٥ من سورة البقرة، الآية ١٩ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ١٢٠ من سورة طه .
(٣) من الآية ١٢١ مكية.

وهبط آدم وحواء إلى الأرض . . خرجا من الجنة . كان أدم حزينا وكانت حواء لا تكف عن البكاء . . وكانت توبتهما صادقة فتقبل الله منهما التوبة . . وأخبرهما الله أن الأرض هى مكانهما الأصلى . . يعيشان فيها ، ويموتان عليها ، ويخرجان منها يوم البعث . .

﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ (١) .

حكى الله تعالى قصة الدرس الثالث الذى تعلمه أدم خلال وجوده فى الجنة وبعد خروجه منها وهبوطه إلى الأرض . قال تعالى فى سورة طه :

﴿ ولقد عهدنا إلىٰ آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما (١١٥) وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبىٰ (١١٦) فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقىٰ (١١٧) إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرىٰ (١١٨) وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحىٰ (١١٩) فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك علىٰ شجرة الخلد وملك لا يبلىٰ (١٢٠) فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصىٰ آدم ربه فغوىٰ (١٢١) ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدىٰ (١٢٢) قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقىٰ ﴾(٢) .

يتصور بعض الناس أن خطيئة ادم بعصيانه هى التى أخرجتنا من الجنة . . ولولا هذه الخطيئة لكنا اليوم هناك . وهذا تصور ساذج لأن الله تعالى حين شاء أن يخلق ادم قال للملائكة : ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ ولم يقل لهم إنى جاعل فى الجنة خليفة . . لم يكن هبوط أدم إلى الأرض هبوط إهانة ، وإنما كان هبوط كرامة كما يقول العارفون بالله . كان الله تعالى يعلم أن ادم وحواء سيأكلان من الشجرة . ويهبطان إلى الأرض . . كان الله تعالى يعلم أن الشيطان سيغتصب منهما البراءة . . وكانت هذه المعرفة شيئا لازما لحياتهما على الأرض . . وكانت التجربة كلها ركنا من أركان الخلافة فى الأرض . . ليعلم ادم وحواء ويعلم جنسهما من بعدهما أن الشيطان طرد

(١) الاية ٢٥ من سورة الأعراف مكية . (٢) الايات من ١١٥ إلى ١٢٣ مكية .

الأبوين من الجنة ، وأن الطريق إلى الجنة يمر بطاعة الله وعداء الشيطان . هل يقال لنا إن الإنسان مسير مجبور . . . وإن آدم كان مجبورا سلفا على أن يخطئ ويخرج من الجنة ويهبط إلى الأرض ؟ حقيقة إن هذا التصور لا يقل سذاجة عن التصور الأول . . كان آدم حرا تمام الحرية . . ولهذا تحمل تبعة عمله .

عصى وأكل من الشجرة فأخرجه الله من الجنة . . معصيته لا تنافى حريته . . بل إنها تستمد وجودها الأصلى من حريته . كل ما فى الأمر أن الله كان يعلم سلفا ما سيحدث ، يعلم الله الأشياءقبل حدوثها ، والعلم هنا نور يكشف . وليس قوة تقهر . . بمعنى أن الله يعلم ما سيحدث ، ولكنه لا يدفعه دفعا أو يقهره قهرا على الحدوث . . إن الله يعطى الحرية لعباده ومخلوقاته .

ويرتب على ذلك حكمته العليا فى تعمير الأرض وإقامة الخلافة فيها . .

. . . .

فهم آدم درسه الثالث . فهم أن إبليس عدوه . . فهم بشكل عملى . . أن إبليس هو السبب فى فقدانه للنعيم وفى شقائه .

فهم أن الله يعاقب على المعصية . وأن الطريق إلى الجنة يمر بطاعة الله . فهم أن الله يقبل التوبة ويعفو ويرحم ويجتبى . علمهما الله تعالى أن يستغفرا قائلين :

﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

وقبل الله توبته وعفا عنه وأرسله إلى الأرض . أول رسول لأبنائه . .

بدأت حياة آدم فى الأرض . . خرج من الجنة مهاجرا إلى الأرض . . واستن بذلك لأبنائه وأحفاده من الأنبياء سنة الخروج .

لا يكاد النبى يبدأ دعوته إلى ربه حتى يضطره قومه إلى الخروج . . والهجرة . .

هناك فى الجنة خرج آدم قبل نبوته ، وهنا فى الأرض يخرج الأنبياء بعد نبوتهم عادة . .

عرف آدم أنه ودع السلام حين خرج من الجنة . .

هنا فى الأرض كان عليه أن يواجه شقاء وصراعا لا ينتهى أحدهما إلا ليبدأ الآخر ، وكان عليه أن يشقى ليأكل ، كان عليه أن يحمى نفسه بالملابس والأسلحة ، ويحمى

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأعراف مكية .

زوجته وأطفاله من الحيوانات والوحوش التى تعيش فى الأرض . . وكان عليه قبل هذا كله وبعده أن يستمر فى صراعه مع روح الشر . إن الشيطان هو السبب فى خروجه من الجنة . . وهو فى الأرض يوسوس له ولأولاده ليدخلهم الجحيم . والمعركة بين الخير والشر لا تتوقف ، ومن يتبع هدى الله فلا خوف عليه ولا يحزن . . ومن يعص الله ، ويتبع المخلوق النارى إبليس فهو معه فى النار .

فهم أدم هذا كله مع الشقاء الذى بدأت به حياته على الأرض . الشيء الوحيد الذى كان يخفف حزنه . . أنه قد جاء سلطانا عليها . . وعليه أن يخضعها ، ويستعمرها ، ويزرعها ويبنيها ويعمرها ، ينجب فيها نسلا يكبرون ويغيرون شكل الحياة ويجعلونه أفضل . .

كانت حواء تلد فى البطن الواحد ابنا وبنتا . وفى البطن التالى ابنا وبنتا . فيحل زواج ابن البطن الأول من بنت البطن الثانى . . وكبر أبناء ادم وتزوجوا ، وملئوا الأرض نسلا . . ودعاهم آدم إلى الله تعالى . .

وقدر لآدم أن يشهد أول انحياز من أحد أبنائه لروح الشر إبليس . . وقعت أول جريمة قتل على الأرض . . قتل أحد أبناء ادم شقيقه . قتل الشرير أخاه الطيب . قال تعالى فى سورة المائدة :

﴿ واتْلُ عليْهِمْ نبأ ابْنيْ آدم بالْحقّ إذْ قرّبا قُرْبانا فتُقُبّل منْ أحدهما ولمْ يُتقبّلْ من الآخر ﴾[1] .

يقال إن القاتل كان يريد زوجة شقيقه لنفسه . . وأمرهما ادم أن يقدما قربانا ، فقدم كل واحد منهما قربانا ، فتقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر .

﴿ قال لأقْتُلنّك قال إنّما يتقبّلُ اللهُ من الْمُتّقين (٢٧) لئن بسطت إليّ يدك لتقْتُلني ما أنا بباسطٍ يدي إليْك لأقْتُلك إنّي أخافُ اللّه ربّ الْعالمين ﴾[2] .

لاحظ كيف ينقل إلينا الله تعالى كلمات القتيل الشهيد ، ويتجاهل تماما كلمات القاتل . عاد القاتل يرفع يده مهددا . .

---

(١) من الاية ٢٧ من سورة المائدة مدنية . (٢) من الأيتين ٢٧ ، ٢٨ من سورة المائدة مدنية .

قال القتيل فى هدوء :

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (١) .

انتهى الحوار بينهما وانصرف الشرير وترك الطيب مؤقتا . بعد أيام . . كان الأخ الطيب نائما وسط غابة مشجرة . . مات فى نفس الغابة حمار عجوز فأكلت النسور لحمه وشربت الأرض دمه وبقى فكه العظمى ملقى على الأرض . . حمله الشرير وتوجه نحو شقيقه النائم ، ورفع يده وأهوى بها بعنف وسرعة . .

ارتج الوجه الطيب حين انبثق منه الدم واستيقظ ، كان يحلم وهو نائم وترتسم على شفتيه ابتسامة فغطت دماؤه بسمته . . وعاد القاتل ينهال على شقيقه حتى سكنت حركته . . أدرك القاتل أن شقيقه فارق الحياة .

جلس القاتل أمام القتيل ساكنا مصفر الوجه . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل» . . جلس القاتل أمام شقيقه المضرج فى دمه . . ماذا يقول لأبيه آدم لو سأل عنه ؟ لقد شاهدهما آدم يخرجان معا . . فكيف يعود وحده . . ؟! ولو أنكر أمام أبيه أنه قتل شقيقه . . فأين يخفى جثته . . أين يذهب بها ؟! كان هذا الأخ القتيل أول إنسان يموت على الأرض . . ولم يكن دفن الموتى شيئا قد عرف بعد . وحمل الأخ جثة شقيقه وراح يمشى بها . مزق الهواء صوت طائر يصرخ . أفزعته الصرخة وملأت نفسه بشؤم مجهول . . التفت القاتل ، فوجد غرابا حيا يصرخ فوق جثة غراب ميت . وضع الغراب الحى الغراب الميت على الأرض وساوى أجنحته إلى جواره وبدأ يحفر الأرض بمنقاره ورجليه . حتى إذا صنع لأخيه لحده وقبره . . رفعه بمنقاره ووضعه برفق فى القبر ثم صرخ صرختين قصيرتين وعاد يهيل عليه التراب . . بعدها طار فى الجو وهو يصرخ .

وقف القاتل وانكفأ على جثة شقيقه . . صرخ :

﴿قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾(٢) .

اندلع حزنه على أخيه كالنار فأحرقه الندم . اكتشف فجأة . اكتشف أنه وهو الأسوأ والأضعف ، قد قتل الأفضل والأقوى . نقص أبناء آدم واحدا . . وكسب الشيطان واحدا من أبناء آدم . .

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة المائدة مدنية . (٢) من الآية ٣١ من سورة المائدة ـ مدنية .

واهتز جسد القاتل ببكاء عنيف ثم أنشب أظافره فى الأرض وراح يحفر قبر شقيقه.

قال آدم حين عرف القصة :

﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

وحزن حزنا شديدا على خسارته فى ولديه . مات أحدهما ، وكسب الشيطان الثانى .

صلى آدم على ابنه ، وعاد إلى حياته على الأرض : إنسانا يعمل ويشقى ليصنع خبزه . ونبيا يعظ أبناءه وأحفاده ويحدثهم عن الله ويدعوهم إليه ، ويحكى لهم عن إبليس ويحذرهم منه . ويروى لهم قصته هو نفسه معه ، ويقص لهم قصته مع ابنه الذى دفعه لقتل شقيقه .

وكبر آدم . . ومرت سنوات وسنوات . . وانتشر أبناؤه فى الأرض . وجاء على الأرض ليل . هبت الرياح بعنف . وارتعشت أوراق شجرة عجوز غرسها آدم . ومالت أغصانها على بحيرة إلى جوارها ، حتى لمست الثمار مياه البحيرة . . وحين اعتدلت الشجرة بعد مرور الرياح ، راحت المياه تتساقط من بين فروعها وبدت الشجرة من البعد كما لو كان شعرها محلولا وهى تنكفىء على الماء وتبكى .

كانت الشجرة حزينة ، وكانت أغصانها ترتعش . . وفى السماء كانت النجوم ترتعش .

وتسللت أشعة القمر إلى حجرة آدم . سقطت الأشعة على وجه آدم . كان وجه آدم أكثر شحوبا ونبلا من وجه القمر . . وعرف القمر أن آدم يموت . .

الحجرة بسيطة . . حجرة آدم .

على فراش من أغصان الشجر والورد يرقد آدم بلحيته البيضاء ووجهه الطيب . . أبناؤه جميعا يقفون حوله فى انتظار وصيته . . وتحدث آدم فأفهم أبناءه أن هناك سفينة واحدة لنجاة الإنسان ، وسلاحا واحدا لانتصاره ، هذه السفينة هى هدى الله ، وهذا السلاح هو كلمات الله .

طمأن آدم أبناءه بأن الله لن يترك الإنسان وحده على الأرض . . إنما سيرسل أنبياءه لهدايته وإنقاذه . . وسيختلف الأنبياء فى الأسماء والصفات والمعجزات . . ولكنهم سيجمعون على شىء واحد : الدعوة إلى عبادة الله وحده .

وتلك كانت وصية آدم لأبنائه .

انتهى آدم من وصيته وأغمض عينيه ، دخل الملائكة حجرته وأحاطوا به وتعرف بينهم على ملك الموت . . وابتسم قلبه للسلام العميق . . وهبت على روحه رائحة أزهار الجنة .

---

(١) الآية ١٥ من سورة القصص مكية .

قصة نوح
[عليه الصلاة والسلام]

مرت أعوام على موت آدم . . ماتت الأزهار حول قبره ، وهرمت الأشجار والصخور ، وأضيفت أعوام إلى عمر النجوم، وتغيرت فى الأرض أشياء وأشياء . وطبقا لقانون عام زحف النسيان على وصية آدم . . عادت الخطيئة القديمة إلى الظهور مرة ثانية . . خطيئة النسيان . . وإن عادت بشكل يختلف هذه المرة . .

قبل أن يولد قوم نوح عاش خمسة رجال صالحين من أجداد قوم نوح ، عاشوا زمنا ثم ماتوا . . كانت أسماء الرجال الخمسة هى [وَدّ] . . [سُوَاع] . . [يَغُوث] . . [يَعُوق] . . [نَسْر] . بعد موتهم صنع الناس لهم تماثيل فى مجال الذكرى والتكريم . . ومضى الوقت . . ومات الذين نحتوا التماثيل . . وجاء أبناؤهم . . ومات الأبناء وجاء أبناء الأبناء . ونسجت الأساطير الخرافية ، والميل البدائى فى عقل الإنسان ، قصصا وحكايات حول التماثيل تعزو لها قوة خاصة . . واستغل إبليس فرصته وهى تمر إلى جواره ، وأوهم الناس أن هذه تماثيل آلهة تملك النفع وتقدر على الضرر . . وبدأ الناس يعبدون هذه التماثيل .

لا نعرف من مصادر موثوق بها ، كيف كان شكل الحياة حين بدأت عبادة الأصنام فى الأرض . . غير أننا نعرف قانونا عاما لا ينكسر أبدا ، عندما يبدأ الناس انحدارهم نحو الشرك . فى اللحظة التى يترك الناس فيها عبادة الله إلى عبادة الأصنام . . تحتضر روح الجمال فى الأرض ، ويعتلى القبح عرشه كسيد حاكم ، وينهزم الإنسان من الداخل ، وينتكس العقل البشرى ، ويتبع ذلك أن يزيد ظلم الظالمين وذل المظلومين ، كما يزيد فقر الفقراء وغنى الأغنياء . . ويتحول الوجود الإنسانى كله إلى جحيم لا يحتمل . .

ينطبق هذا القانون دائما عندما يعبد الناس غير الله . . سواء أكان المعبود صنما من الحجارة، أم عجلا من الذهب ، أم حاكما من الناس ، أم نظاما من الأنظمة ، أم مذهبا من المذاهب ، أم قبر ولى من الأولياء . ذلك أن الضمان الوحيد للمساواة بين البشر يكمن فى عبوديتهم جميعا لله ، وكون الله هو خالقهم والمشرع لهم . . فإذا ضاع هذا

الضمان ، وادعى أحد من الناس ، أو زعم أحد الأنظمة لنفسه حق الألوهية ، فقد ضاع الناس وضاعت حرياتهم تماما .

وليست عبادة غير الله مأساة تتمثل فى ضياع الحرية وحدها ، وإنما يمتد أثرها الخطير إلى عقل الإنسان فيلوثه وينكس أعلامه ويدمره . ذلك أن الله تعالى خلق الإنسان ليعرف ، وجعل عقله جوهرة هدفها العلم . . وأخطر علم هو العلم بأن الله وحده هو الخالق وما سواه عبيد .

هذه نقطة بدء لا بد منها لتحقيق الخلافة بنجاح . .

وعندما يهدر العقل البشرى إمكانياته ، وينصرف لغير الله ، لا يعود هناك خطأ يتوقف عنده العقل البشرى ، أو يراجع نفسه فيه . . وقد يحدث أن يتقدم الإنسان ماديا بسبب أخذه بأسباب التقدم رغم عدم إيمانه ، ولكن هذا التقدم المادى الذى يخلو من معرفة الله ، يكون عذابا أعظم من أى عذاب ، لأنه ينتهى بتحطيم الإنسان لنفسه . . وعندما يعبد الناس غير الله تعالى، يزداد بؤس الحياة وفقر الناس . . هناك علاقة وثيقة بين ذل الناس وفقرهم وعدم إيمانهم بالله وعدم تقواهم .

يقول الله تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(١) .

وهكذا يؤدى الكفر بالله أو الشرك به إلى ذهاب الحرية ، وتحطيم العقل ، وزيادة الفقر ، وخلو الحياة من هدف نبيل . . وفى هذا الجو أظهر الله تعالى نوحا وبعثه برسالته إلى قومه .

كان نوح هو العقل الوحيد الطافى فوق دوامات الخراب الجماعى الهائل الممثل فى عبادة غير الله . اختار الله عبده نوحا وأرسله إلى قومه . كان نوح بمقياس الفكر ثورة فكرية . . وكان بمقياس النبل والنقاء جسداً لهما . . وكان بمقياس الذكاء قمة شامخة . .

بإيجاز . . كان نوح بمقياس العظمة أعظم إنسان فى عصره . . لم يكن ملكا فى قومه ، ولا رئيسا عليهم ، ولا أغنى واحد فيهم. نعلم الآن أن العظمة تختلف عن الملك والغنى والرئاسة . يجمع هذا المثلث داخل أضلاعه ـ عادة ـ أغلبية من النفوس الخسيسة . إنما توجد العظمة فى نقاء القلب ، وطهارة الضمير ، وقيمة الأفكار التى يحملها العقل ، وقدرة هذا العقل على تغيير الحياة حوله . . وكان نوح هذا كله وأكثر . .

---

(١) من الآية ٩٦ مكية . .

كان نوح هو الإنسان الذى يذكر جيدا عهد الله لآدم وأبنائه حين خلقهم فى عالم الذر . . كان على الفطرة مؤمنا بالله تعالى . . قبل بعثته إلى الناس ، وكل الأنبياء مؤمنون بالله تعالى قبل بعثتهم . فيهم من يبحث عن الله تعالى كإبراهيم . وفيهم من يؤمن به فى أعماقه كموسى . . وفيهم من يتعبد له ويخلو فى غار حراء كمحمد . . عليهم الصلاة والسلام . . وهناك سبب آخر لعظمة نوح . . كان إذا استيقظ أو نام أو شرب أو أكل أو لبس ملابسه أو خرج أو دخل . . يشكر الله ويحمده ، ويذكر نعمته عليه ، ويعاود الشكر ، ولهذا قال الله تعالى عن نوح :

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[1] .

اختار الله عبده الشاكر وأرسله نبيا إلى قومه . وخرج نوح على قومه وبدأ دعوته :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[2] .

بهذه الجملة الموجزة وضع نوح قومه أمام حقيقة الألوهية . . وحقيقة البعث . . هناك إله خالق هو وحده الذى يستحق العبادة . . وهناك موت ثم بعث ثم يوم للقيامة . . يوم عظيم ، فيه عذاب يوم عظيم .

شرح «نوح» لقومه أنه يستحيل أن يكون هناك غير إله واحد هو الخالق . . أفهمهم أن الشيطان قد خدعهم زمنا طويلا ، وأن الوقت قد جاء ليتوقف هذا الخداع ، حدثهم نوح عن تكريم الله للإنسان . . كيف خلقه ، ومنحه الرزق وأعطاه نعمة العقل ، وليست عبادة الأصنام غير ظلم خانق للعقل .

واستمع الناس إليه فى صمت . . كان كلامه صدمة لركودهم . . مثلما تجىء إلى إنسان نائم تحت جدار يتهيأ للسقوط . . وتهزه فجأة لتوقظه ، ربما فزع هذا الإنسان ، وغضب رغم أنك تهدف إلى إنقاذه . كانت روح الشر الموجودة فى الأرض تسمع هى الأخرى وتحس بالخوف . . إن عرش الكراهية مهدد بهذا الحب الذى يحمله كلام النبى . . تحرك قوم نوح فى اتجاهين بعد دعوته . . لمست الدعوة قلوب الضعفاء والفقراء والبؤساء ، وانحنت على جراحهم وآلامهم بالرحمة . . أما الأغنياء والأقوياء . والكبراء . . والحكام ، فقد تأملوا الدعوة بعين الشك البارد . . ولما كانوا يستفيدون من بقاء الأوضاع على ما هى عليه . . فقد بدءوا حربهم ضد «نوح» . .

فى البداية . . اتهموا نوحا بأنه بشر مثلهم . .

---

(١) من الآية ٣ من سورة الإسراء مكية .

(٢) من الآية ٥٩ من سورة الأعراف مدنية .

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [١] .

قال تفسير القرطبى : الملأ الذين كفروا من قومه هم الرؤساء الذين كانوا فى قومه . يسمون الملأ لأنهم مليئون بما يقولون .

قال هؤلاء الملأ لنوح : أنت بشر يا نوح .

رغم أن نوحا لم يقل غير ذلك ، وأكد أنه مجرد بشر . . والله يرسل إلى الأرض رسولا من البشر ، لأن الأرض يسكنها البشر ، ولو كانت الأرض تسكنها الملائكة لأرسل الله رسولا من الملائكة . . استمرت الحرب بين الكافرين ونوح . .

فى البداية ، تصور النظام الحاكم يومها أن دعوة نوح لا تلبث أن تنطفئ وحدها ، فلما وجدوا الدعوة تجتذب الفقراء والضعفاء وأهل الصناعات البسيطة بدءوا الهجوم على نوح من هذه الناحية . هاجموه في أتباعه ، وقالوا له : لم يتبعك غير الفقراء والضعفاء والأراذل .

قال تعالى فى سورة هود:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾[٢] .

هكذا اندلع الصراع بين نوح ورؤساء قومه . ولجأ الذين كفروا إلى المساومة . . قالوا لنوح : اسمع يا نوح . . إذا أردت أن نؤمن لك فاطرد الذين آمنوا بك . إنهم ضعفاء وفقراء ، ونحن سادة القوم وأغنياؤهم . . ويستحيل أن تضمنا دعوة واحدة مع هؤلاء .

واستمع « نوح » إلى كفار قومه وأدرك أنهم يعاندون ، ورغم ذلك كان طيبا فى رده . . أفهم قومه أنه لا يستطيع أن يطرد المؤمنين ، لأنهم أولا ليسوا ضيوفه ، إنما هم ضيوف الله . . وليست الرحمة بيته الذى يدخل فيه من يشاء أو يطرد منه من يشاء ، إنما الرحمة بيت الله الذى يستقبل فيه من يشاء . قال تعالى فى سورة هود :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة هود . . مكية .

(٢) الآيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ مكية . .

عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١) .

. . . .

كان نوح يناقش كل حجج الكافرين بمنطق الأنبياء الكريم الوجيه .

وهو منطق الفكر الذى يجرد نفسه من الكبرياء الشخصى وهوى المصالح الخاصة . .

قال لهم إن الله قد آتاه الرسالة والنبوة والرحمة . ولم يروا هم ما آتاه الله ، وهو بالتالى لا يجبرهم على الإيمان برسالته وهم كارهون. إن كلمة لا إله إلا الله لا تفرض على أحد من البشر . . أفهمهم أنه لا يطلب منهم مقابلا لدعوته ، لا يطلب منهم مالا فيثقل عليهم ، إن أجره على الله ،هو الذى يعطيه ثوابه. أفهمهم أنه لا يستطيع أن يطرد الذين آمنوا بالله ، وأن له حدوده كنبى . وحدوده لا تعطيه حق طرد المومنين لسببين : أنهم سيلقون الله مؤمنين به فكيف يطرد مؤمنا بالله؟! ثم إنه لو طردهم لخاصموه عند الله وهذا يستتبع أن يثيبهم الله على إيمانهم، ويجازى من طردهم ، فمن الذى ينصر نوحا من الله لو طردهم؟ وهكذا انتهى نوح إلى أن مطالبة قومه له بطرد المؤمنين جهل منهم . .

وعاد نوح يقول لهم إنه لا يدعى لنفسه أكثر مما له من حق ، وأخبرهم بتذلله وتواضعه لله عز وجل ، فهو لا يدعى لنفسه ما ليس له من خزائن الله ، وهى إنعامه على من يشاء من عباده ، وهو لا يعلم الغيب ، لأن الغيب علم اختص الله تعالى وحده به . . أخبرهم أيضا أنه ليس ملكا . . بمعنى أن منزلته ليست كمنزلة الملائكة . . وقد استدل بعض العلماء من هذه الآية على أن الملائكة أفضل من الأنبياء [انظر تفسير القرطبى] . قال لهم نوح : إن الذين تزدرى أعينكم وتحتقر وتستثقل . . إن هؤلاء المؤمنين الذين تحتقرونهم لن تبطل أجورهم وتضيع لاحتقاركم لهم ، الله أعلم بما فى أنفسهم . . هو الذى يجازيهم عليه ويؤاخذهم به . . أظلم نفسى لو قلت إن الله لن يؤتيهم خيرا . .

---

(١) الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ . . مكية .

وسئم النظام الحاكم يومها من هذا الجدل الذى يجادله نوح . . حكى الله موقفهم منه فى سورة هود :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١).

أضاف نوح إغواءهم إلى الله تعالى . . تسليما بأن الله هو الفاعل فى كل حال . غير أنهم استحقوا الضلال بموقفهم الاختيارى وملء حريتهم وكامل إرادتهم . . وقديما قال إبليس عليه لعنة الله :

﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ (٢) .

وينصرف معنى العبارة الظاهرى إلى أن الله تعالى هو الذى أغواه . . والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى أعطاه حريته ثم حاسبه عليها ، ونحن لا نرى رأى القدرية والمعتزلة والإمامية . إنهم يرون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منه . . طاعة كانت أو معصية ، لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله ، فهو غير محتاج فى صدورها عنه إلى ربه .

لا نرى رأيهم هذا بإطلاقه . . إنما نرى أن الإنسان صانع لأفعاله ولكنه محتاج فى صدورها عنه إلى ربه . . بهذه النظرة يستقيم معنى مساءلة الإنسان عن أفعاله . كل ما فى الأمر أن الله ييسر كل مخلوق لما خلق له . . سواء أكان التيسير إلى الخير أم إلى الشر . . وهذا من تمام الحرية وكمالها . يختار الإنسان بحريته فييسر له الله تعالى طريق ما اختاره . اختار إبليس طريق الغواية فيسر الله له طريق الغواية . واختار كفار قوم نوح نفس الطريق فيسره الله لهم .

وتستمر المعركة . وتطول المناقشة بين الكافرين من قوم نوح وبينه حتى إذا انهارت كل حجج الكافرين ولم يعد لديهم ما يقال ، بدءوا يخرجون عن حدود الأدب ويشتمون نبى الله :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٣) .

---

(١) الآيات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ . . مكية . (٢) من الآية ١٦ من سورة الأعراف مكية .
(٣) الآية ٦٠ من سورة الأعراف مكية .

ورد عليهم نوح بأدب الأنبياء العظيم :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[١] .

ويستمر نوح فى دعوة قومه إلى الله . . ساعة بعد ساعة . . ويوما بعد يوم . . وعاما بعد عام . . ومرت الأعوام ونوح يدعو قومه . . كان يدعوهم ليلا ونهارا ، وسرا وجهرا ، يضرب لهم الأمثال . ويشرح لهم الآيات ويبين لهم قدرة الله فى الكائنات ، وكلما دعاهم إلى الله فروا منه ، وكلما دعاهم ليغفر الله لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستكبروا عن سماع الحق .

حكى الله تعالى ما لقيه نوح فى سورة نوح :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾[٢] .

ماذا كان جواب قومه بعد هذا كله ؟

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ﴾[٣] .

واستمر نوح يدعو قومه إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما . قال تعالى فى سورة العنكبوت :

---

(١) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الأعراف مكية.
(٢) الآيات من ٥ إلى ١٢ مكية .
(٣) الآيات من ٢١ إلى ٢٤ من سورة نوح مكية .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾(١) .

وكان يلاحظ أن عدد المؤمنين لا يزيد ، بينما يزيد عدد الكافرين . وحزن نوح غير أنه لم يفقد الأمل ، وظل يدعو قومه ويجادلهم ، وظل قومه على الكبرياء والكفر والتبجح .

وحزن نوح على قومه . . لكنه لم يبلغ درجة اليأس . . ظل محتفظا بالأمل طوال ٩٥٠ سنة . . ويبدو أن أعمار الناس قبل الطوفان كانت طويلة ، وربما يكون هذا العمر الطويل لنوح معجزة خاصة له . .

وجاء يوم أوحى الله إليه . . أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن . أوحى الله إليه ألا يحزن عليهم . ساعتها دعا نوح على الكافرين بالهلاك .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٢) .

برر نوح دعوته بقوله :

﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (٣) .

قال تعالى فى سورة هود :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾(٤) .

انتهى الأمر وأصدر الله تعالى حكمه على الكافرين بالطوفان . . أخبر الله تعالى عبده نوحا أنه سيصنع هذه السفينة ﴿بأعيننا ووحينا ﴾ أى بعلم الله وتعليمه ، وعلى مرأى منه وطبقا لتوجيهاته ومساعدة الملائكة . . أصدر الله تعالى أمره إلى نوح :

﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) من الآية ١٤ من سورة العنكبوت مكية . (٢) الآية ٢٦ من سورة نوح . مكية .
(٣) من الآية ٢٧ من سورة نوح مكية . (٤) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة هود مكية .
(٥) من الآية ٣٧ من سورة هود ، من الآية ٢٧ من سورة المؤمنون .

يغرق الله الذين ظلموا مهما كانت أهميتهم أو قرابتهم للنبى ، وينهى الله نبيه أن يخاطبه أو يتوسط لهم .

وبدأ نوح يغرس الشجر ويزرعه ليصنع منه السفينة . انتظر سنوات ، ثم قطع ما زرعه ، وبدأ نجارته . كانت سفينة عظيمة الطول والارتفاع والمتانة ، وقد اختلف المفسرون فى حجمها ، وهيئتها ، وعدد طبقاتها ، ومدة عملها ، والمكان الذى عملت فيه ، ومقدار طولها ، وعرضها ، على أقوال متعارضة لم يصح منها شىء .

وقال الفخر الرازى فى هذا كله : اعلم أن هذه المباحث لا تعجبنى ، لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها البتة . ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا . رحم الله الفخر الرازى . . أصاب الحق بكلمته . . لا نعرف عن حقيقة هذه السفينة إلا ما حدثنا الله به . لا نعرف مثلا أين عملت ، ولا كم كان طولها أو عرضها ، ولا نعرف بالقطع غير اسم المكان الذى ذهبت إليه بعد رسوها . إن الآثار المادية قد سكتت تماما عنها ، ولا ريب أن أخشاب السفينة قد تحللت ، لأن الطوفان وقع من زمن سحيق . . وكل خبط فيها لا يفيد ولا حاجة لمعرفته .

تجاوز الله تعالى هذه التفصيلات التى لا أهمية لها ، إلى مضمون القصة ومغزاها المهم . .

بدأ نوح يبنى السفينة . . ويمر عليه الكفار فيرونه منهمكا فى صنع السفينة . . والجفاف سائد . . وليست هناك أنهار قريبة أو بحار . . كيف ستجرى هذه السفينة إذن يا نوح ؟ . . هل ستجرى على الأرض . . أين الماء الذى يمكن أن تسبح فيه سفينتك ؟ لقد جن نوح . وترتفع ضحكات الكافرين وتزداد سخريتهم من نوح . .

إن قمة الصراع فى قصة نوح تتجلى فى هذه المساحة الزمنية . . إن الباطل يسخر من الحق . . يضحك عليه طويلا ، ويسخر منه طويلا ، متصورا أن الدنيا ملكه ، و أن الأمن نصيبه ، وأن العذاب غير واقع . . ؟ غير أن هذا كله مؤقت بارتفاع الستار عن الطوفان . عندئذ يسخر المؤمنون من الكافرين ، وتكون سخريتهم هى الحق . قال تعالى فى سورة هود :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة هود مكية .

انتهى صنع السفينة . وجلس نوح ينتظر أمر الله . أوحى الله إلى نوح أنه إذا فار التنور كان هذا علامة على بدء الطوفان .

قيل فى تفسير التنور إنه بركان في المنطقة، وقيل إنه الفرن الكائن فى بيت نوح ، إذا خرج منه الماء وفار كان هذا أمرا لنوح بالحركة . .

وجاء اليوم الرهيب . . فار التنور . . وأسرع نوح يفتح سفينته ويدعو المؤمنين به . . وهبط جبريل عليه السلام إلى الأرض . . حمل إلى نوح فى السفينة من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين . . بقرة وثورا . فيلا وفيلة . عصفورا وعصفورة . نمرا ونمرة . . إلى آخر المخلوقات .

كان نوح قد صنع أقفاصا للوحوش وهو يصنع السفينة . . وساق جبريل عليه السلام أمامه من كل زوجين اثنين ، لضمان بقاء نوع الحيوان والطير على الأرض ، وهذا معناه أن الطوفان أغرق الأرض كلها ، فلولا ذلك ما كان هناك معنى لحمل هذه الأنواع من الحيوان والطير .

وبدأ صعود السفينة . صعدت الحيوانات والوحوش والطيور ، وصعد من آمن بنوح . . وكان عدد المؤمنين قليلا . . قال تعالى فى سورة هود :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (١) .

لم تكن زوجة نوح مؤمنة به فلم تصعد . . وكان أحد أبنائه يخفى كفره ويبدى الإيمان أمام نوح . . فلم يصعد هو الآخر . . وكانت أغلبية الناس غير مؤمنة هى الأخرى . . فلم تصعد . . وصعد المؤمنون . . قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : آمن من قوم نوح ثمانون إنسانا . .

. . . .

ارتفعت المياه من فتحات الأرض . . لم تبق هناك فتحة فى الأرض إلا خرج منها الماء . . انهمرت من السماء أمطار غزيرة بكميات لم تر مثلها الأرض قبلها ، ولن ترى بعدها . . وراحت المياه تسقط من السماء وتخرج من فتحات الأرض ، وترتفع ساعة بعد ساعة . . فقدت البحار هدوءها ، وانفجرت أمواجها تجور على اليابسة ، وتكتسح الأرض . . كان باطن الأرض يتحرك حركة غير عادية . . ارتفعت قيعان المحيطات ارتفاعات مفاجئة ، واندفع موج البحار يكتسح أمامه الجزء اليابس من الأرض . .

---

(٢) الآية ٤٠ من سورة هود مكية .

وغرقت الكرة الأرضية للمرة الأولى فى المياه . . كانت أثناء الطوفان هى الكرة المائية . . لم تعد كرة أرضية . . قال تعالى فى سورة القمر :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (١) .

ارتفعت المياه أعلى من الناس . . تجاوزت قمم الأشجار ، وقمم الجبال ، وغطت سطح الأرض كله . . وفى بداية الطوفان نادى نوح ابنه . . كان ابنه يقف بمعزل عنه . ناداه قائلا :

﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾(٢) .

ورد الابن على نداء أبيه :

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ (٣) .

عاد نوح يخاطبه :

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ (٤) .

وانتهى الحوار بين نوح وابنه . .

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (٥) .

انظر إلى تعبير القرآن الكريم :

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ﴾ (٦) . .

أنهى الموج حوارهما فجأة . . نظر نوح فلم يجد ابنه . . لم يجد غير جبال الموج التى ترتفع وترفع معها السفينة ، وتفقدها رؤية كل شىء غير المياه . . وشاءت رحمة الله أن يغرق الابن بعيدا عن عين الأب ، رحمة منه بالأب ، واعتقد نوح أن ابنه المؤمن تصور أن الجبل سيعصمه من الماء . فغرق . .

واستمر الطوفان . . استمر يحمل سفينة نوح . . بعد ساعات من بدايته ، كانت كل عين تطرف على الأرض قد هلكت غرقا . . لم يعد باقيا من الحياة والأحياء غير

---

(١) الأيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ من سورة القمر . . مكية.
(٢) الآية ٤٢ من سورة هود . . مكية .
(٣) من الآية ٤٣ من سورة هود . . مكية .
(٤) من الآية ٤٣ من سورة هود . . مكية .
(٥) من الآية ٤٣ من سورة هود . . مكية .
(٦) من الآية ٤٣ من سورة هود . . مكية .

هذا الجزء الخشبى من سفينة نوح ، وهو ينطوى على الخلاصة المؤمنة من أهل الأرض . . وأنواع الحيوانات والطيور التى اختيرت بعناية . . ومن الصعب اليوم أن نتصور هول الطوفان أو عظمته . . كان شيئا مروعا يدل على قدرة الخالق . . كانت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال . . ويعتقد بعض العلماء اليوم أن انفصال القارات وتشكل الأرض فى صورتها الحالية ، قد وقعا نتيجة طوفان قديم جبار . . ثارت فيه المياه ثورة غير مفهومة . . حتى غطت سطح الجزء اليابس من الأرض . . وارتفعت فيه قيعان المحيطات ، ووقع فيه ما نستطيع تسميته بالثورة الجغرافية .

استمر طوفان نوح زمنا لا نعرف مقداره . . ثم صدر الأمر الإلهى إلى السماء أن تكف عن البكاء . . وإلى الأرض أن تستقر وتبتلع الماء . . وإلى أخشاب السفينة أن ترسو على الجودى . . وهو اسم مكان قديم ، يقال إنه جبل فى العراق .

وبصدور الأمر الإلهى ، عاد الهدوء إلى الأرض . . وانحسرت المياه عنها ، وعاد الجزء اليابس فيها يلمع تحت أشعة الشمس . . طهر الطوفان الأرض وغسلها . . قال تعالى فى سورة هود :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [1] .

﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ بمعنى نقص الماء وانصرف عائدا إلى فتحات الأرض . . ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ بمعنى أنه أحكم وفرغ منه ، يعنى هلك الكافرون من قوم نوح تماما . . ويقال إن الله أعقم أرحامهم أربعين سنة قبل الطوفان ، فلم يكن فيمن هلك طفل أو صغير . . ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ بمعنى رست عليه ، وقيل كان ذلك يوم عاشوراء . . فصامه نوح ، وأمر من معه بصيامه . . ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ، أى هلاكا لهم . . طهر الطوفان الأرض منهم وغسلها . . ذهب الهول بذهاب الطوفان . . وانتقل الصراع من الموج إلى نفس نوح . . تذكر ابنه الذى غرق . .

لم يكن نوح يعرف حتى هذه اللحظة أن ابنه كافر . . كان يتصور أنه مؤمن عنيد ، آثر النجاة باللجوء إلى جبل . . وكان الموج قد أنهى حوارهما قبل أن يتم . . فلم يعرف نوح حظ ابنه من الإيمان . تحركت فى قلب الأب عواطف الأبوة . .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة هود . . مكية .

قال تعالى فى سورة هود :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (١) .

أراد نوح أن يقول لله إن ابنه من أهله المؤمنين . . وقد وعده الله بنجاة أهله المؤمنين . . قال الله سبحانه وتعالى ، مطلعا نوحا على حقيقة ابنه للمرة الأولى :

﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) .

قال القرطبى ـ نقلا عن شيوخه من العلماء ـ وهو الرأى الذى نؤثره : كان ابنه عنده ـ أى نوح ـ مؤمنا فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ ، إلا وذلك عنده كذلك ، إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إنجاء بعضهم . . وكان ابنه يسر الكفر ويظهر الإيمان . . فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب . أى علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت . وكان الله حين يعظه أن يكون من الجاهلين ، يريد أن يبرئه من تصور أن يكون ابنه مؤمنا . . ثم يهلك مع الكافرين . .

وثمة درس مهم تنطوى عليه الآيات الكريمة التى تحكى قصة نوح وابنه . . أراد الله سبحانه وتعالى أن يقول لنبيه الكريم إن ابنه ليس من أهله ، لأنه لم يؤمن بالله . . وليس الدم هو الصلة الحقيقية بين الناس . . ابن النبى هو ابنه فى العقيدة . . هو من يتبع الله والنبى . . وليس ابنه من يكفر به ولو كان من صلبه . . هنا ينبغى أن يتبرأ المؤمن من غير المؤمن . . وهنا أيضا ينبغى أن تتصل بين المؤمنين صلات العقيدة فحسب . . لا اعتبارات الدم أو الجنس أو اللون أو الأرض . .

واستغفر نوح ربه وتاب إليه ورحمه الله وأمره أن يهبط من السفينة محاطا ببركة الله ورعايته . .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ (٣) .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة هود . . مكية . (٢) من الآية ٤٦ من سورة هود مكية .

(٣) من الآيتين ٤٧ ، ٤٨ من سورة هود مكية .

وهبط نوح من سفينته . . أطلق سراح الطيور والوحوش فتفرقت فى الأرض نزل المؤمنون بعد ذلك . .

وضع نوح جبهته على الأرض وسجد . لم تزل الأرض مبللة من أثر الطوفان . نهض نوح بعد صلاته وحفر الأساس لبناء معبد عظيم لله . . أشعل الناجون النار وجلسوا حولها . . كان إشعال النار ممنوعا فى السفينة ، حتى لا تمتد النار إلى أخشابها فتحترق . . ولم يكن أحدهم قد أكل طعاما ساخنا طوال مدة الطوفان .

ومر يوم صيام الشكر لله . .

. . . .

ويسدل القرآن الكريم الستار على قصة نوح ، بعد الطوفان لا ندرى ماذا كان من أمره مع قومه . كل ما ندريه ، أو نستطيع أن نؤكده ، أن نوحا أوصى أبناءه وهو يموت أن يعبدوا الله وحده . . ومضى نوح إلى الرفيق الأعلى . .

قصة هود
[عليه الصلاة والسلام]

مضى قوم نوح فى التاريخ . . الأكثرون المكذبون انطبقت عليهم صفحات الطوفان . . استبعدوا من الحياة ، ومن رحمة الله ، ومن حساب الناس واهتمامهم على السواء . والناجون ـ وهم أقلية ـ استخلفوا فى الأرض ، تحقيقا لسنة الله ووعده . .

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

ولقد كان وعد الله لنوح :

﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

دارت عجلة الزمن . . وجاء وعد الله . . . بعد الطوفان لم يكن على الأرض من البشر غير المؤمنين . . لم يكن هناك قلب واحد كافر فى الأرض . . وبدأ الشيطان يشكو من البطالة .

ومرت سنوات وسنوات . . مات الآباء والأبناء ، وجاء أبناء الأبناء . . نسى الناس وصية نوح ، وعادت عبادة الأصنام . . انحرف الناس عن عبادة الله وحده ، وتم الأمر بنفس الخدعة القديمة . . قال أحفاد قوم نوح : لا نريد أن ننسى آباءنا الذين نجاهم الله من الطوفان . . وصنعوا للناجين تماثيل ليذكروهم بها ، وتطور هذا التعظيم جيلا بعد جيل ، فإذ ا الأمر ينقلب إلى العبادة ، وإذا بالتماثيل تتحول بفضل الشيطان إلى آلهة مع الله . وعادت الأرض تشكو من الظلام مرة ثانية . . وأرسل الله سيدنا هودا إلى قومه . .

يرتفع الستار عن قصته بعد بعثته بالرسالة إلى الناس .

---

(١) من الآية ٨٣ من سورة القصص مكية .
(٢) الآية ٤٨ من سورة هود مكية .

كان «هود» من قبيلة اسمها «عاد» وكانت هذه القبيلة تسكن مكانا يسمى الأحقاف . . وهو صحراء تمتلئ بالرمال . . وتطل على البحر . . أما مساكنهم فكانت خياما كبيرة لها أعمدة شديدة الضخامة والارتفاع ، وكان قوم عاد أعظم أهل زمانهم في قوة الأجسام ، والطول والشدة . . كانوا عمالقة وأقوياء ، إلى الدرجة التي قالوا فيها ، كما حكى الله عنهم :

﴿ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ (١) .

لم يكن في زمانهم أحد في قوتهم . . ورغم ضخامة أجسامهم ، كانت لهم عقول مظلمة . . كانوا يعبدون الأصنام ، ويدافعون عنها ، ويحاربون من أجلها ، ويتهمون نبيهم ويسخرون منه . . وكان المفروض ، ما داموا قد اعترفوا أنهم أشد الناس قوة . . أن يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة . . غير أنهم كانوا لا يبصرون غير كبريائهم الكافرة .

قال لهم هود :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) .

نفس الكلمة التي يقولها كل رسول . . لا تتغير ولا تنقص ولا تتردد ولا تخاف ولا تتراجع . . كلمة واحدة هي الشجاعة كلها ، وهي الحق وحده . .

وسأله قومه : هل تريد أن تكون سيدا علينا بدعوتك . . ؟ وأي أجر تريده ؟ أفهمهم هود أن أجره على الله ، إنه لا يريد منهم شيئا غير أن يغسلواعقولهم في نور الحقيقة . . حدثهم عن نعمة الله عليهم ، كيف جعلهم خلفاء من بعد نوح ، كيف أعطاهم بسطة في الجسم ، وشدة في البأس . . كيف أسكنهم الأرض التي تمنح الخير والزرع . . كيف أرسل عليهم المطر الذي يحيي به الأرض . . وتلفت قوم هود حولهم فوجدوا أنهم أقوى من على الأرض ، وأصابتهم الكبرياء وزادوا في العناد .

قالوا لهود : كيف تتهم آلهتنا التي وجدنا آباءنا يعبدونها ؟ قال هود : كان آباؤكم مخطئين . قال قوم هود : هل تقول يا هود إننا بعد أن نموت ونصبح ترابا يتطاير في الهواء . . سنعود إلى الحياة ؟ قال هود : ستعودون يوم القيامة ، ويسأل الله كل واحد فيكم عما فعل .

انفجرت الضحكات بعد هذه الجملة الأخيرة . . ما أغرب ادعاء هود . . هكذا تهامس الكافرون من قومه . . إن الإنسان يموت ، فإذا مات تحلل جسده ، فإذا تحلل

---

(١) الآية ١٥ من سورة فصلت . (٢) من الآية ٥٠ من سورة هود مكية .

جسده تحول إلى تراب ، ثم يهب الهواء ويتطاير التراب . . كيف يعود هذا كله إلى أصله . . ؟! ثم ما معنى وجود يوم للقيامة . . . ؟ لماذا يقوم الأموات من موتهم . . . ؟

استقبل هود كل هذه الأسئلة بصبر كريم . . ثم بدأ يحدث قومه عن يوم القيامة . . أفهمهم أن إيمان الناس بالآخرة ضرورة تتصل بعدل الله ، مثلما هى ضرورة تتصل بحياة الناس . . قال لهم ما يقوله كل نبى عن يوم القيامة . . إن حكمة الخالق المدبر لا تكتمل بمجرد بدء الخلق ، ثم انتهاء حياة المخلوقين فى هذه الأرض . . لا يسدل الستار بعدها . . هذا هو الفصل الأول من الامتحان . .

والامتحان لا ينتهى بتسليم أوراق الإجابة . . لا بد من تصحيح هذه الأوراق ، وإعطاء درجات ، وبيان الناجحين والراسبين . . وليست تصرفات الناس فى الدنيا واحدة ، هناك من يظلم ، وهناك من يقتل ، وهناك من يعتدى . . وكثيرا ما نرى الظالمين يذهبون بغير عقاب ، كثيرا ما نرى المعتدين يتمتعون فى الحياة بالاحترام والسلطة . . أين تذهب شكاة المظلومين؟ وأين يذهب ألم المضطهدين . . ؟ هل يدفن معهم فى التراب بعد الموت . . ؟!

إن العدالة تقتضى وجود يوم للقيامة . إن الخير لا ينتصر دائما فى الحياة . . أحيانا ينظم الشر جيوشه ويقتل حملة الخير . .

هل تذهب هذه الجريمة بغير عقاب ؟ إن ظلما عظيما يتأكد لو افترضنا أن يوم القيامة لن يجىء . . ولقد حرم الله تعالى الظلم على نفسه وجعله محرما بين عباده . . ومن تمام عدل الله وجود يوم للقيامة والحساب والجزاء . . . .

ذلك أن يوم القيامة . . هو اليوم الذى تعاد فيه جميع القضايا مرة أخرى أمام الخالق ، ويعاد نظرها مرة ثانية . . ويحكم فيها رب العالمين سبحانه . .

هذه هى الضرورة الأولى ليوم القيامة ، وهى تتصل بعدل الله ذاته . . وثمة ضرورة أخرى ليوم القيامة ، وهى تتصل بسلوك الإنسان نفسه . . إن الاعتقاد بيوم الدين ، والإيمان ببعث الأجساد ، والوقوف للحساب ، ثم تلقى الثواب والعقاب ، ودخول الجنة أو النار ، هذا شىء من شأنه أن يعلق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض ، فلا تستبد بهم ضرورات الأرض ، ولا يستعبدهم الطمع ، ولا تتملكهم الأنانية ، ولا يقلقهم أنهم لم يحققوا جزاء سعيهم فى عمرهم القصير المحدود ، وبذلك يسمو الإنسان على الطين الذى خلق منه إلى الروح الذى نفخه ربه فيه . . ولعل مفترق الطريق بين الخضوع لتصورات الأرض وقيمها وموازينها . . والتعلق بقيم الله العليا ، والانطلاق اللائق بالإنسان . . يكمن فى الإيمان بيوم القيامة . .

حدثهم هود بهذا كله فاستمعوا إليه وكذبوه . . حكى الله تعالى موقف القوم من يوم القيامة فى سورة (المؤمنون) :

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾(١) .

هكذا كذب قوم هود نبيهم . . قالوا له : هيهات هيهات . . واستغربوا أن يبعث الله من فى القبور ، استغربوا أن يعيد الله خلق الإنسان بعد تحوله إلى التراب ، رغم أنه خلقه من قبل من التراب . . وطبقا للمقاييس البشرية ، كان ينبغى أن يحس المكذبون للبعث أن إعادة خلق الإنسان من التراب والعظام أسهل من خلقه الأول . . لقد بدأ الله الخلق فأى صعوبة فى إعادته . . ؟! إن الصعوبة - طبقا للمقياس البشرى - تكمن فى الخلق . . وليس المقياس البشرى غير مقياس بشرى ينطبق على الناس ، أما الله ، فليست هناك أمور صعبة أو سهلة بالنسبة إليه سبحانه ، تجرى الأمور بالنسبة إليه سبحانه بمجرد الأمر . .

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٢) . .

نريد أن نلتفت لقوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ . . ﴾ (٣) . .

الملأ هم الرؤساء . . يسمون الملأ لأنهم مليئون بما يقولون . . ولهم مصلحة فى استمرار الأوضاع الفاسدة . . سنرى هؤلاء الملأ فى كل قصص الأنبياء . . سنرى رؤساء القوم وأغنياءهم ومترفيهم يقفون ضد الأنبياء . . يصفهم الله تعالى بقوله :

---

(١) الآيات ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ من سورة «المؤمنون» مكية .
(٢) الآية ١١٧ من سورة البقرة مدنية .
(٣) من الآية ٣٣ من سورة «المؤمنون» مكية .

﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

من مواقع الثراء والغنى والترف ، يولد الحرص على استمرار المصالح الخاصة . . ومن مواقع الثراء والغنى والترف والرياسة ، يولد الكبرياء . . ويلتفت الرؤساء فى القوم إلى أنفسهم ويتساءلون : أليس هذا النبى بشرا مثلنا ، يأكل مما نأكل ، ويشرب مما نشرب ؟ . . بل لعله بفقره يأكل أقل مما نأكل ، ويشرب في أكواب صدئة ، ونحن نشرب فى أكواب من الذهب والفضة . . كيف يدعى أنه على الحق ونحن على الباطل؟ . . هذا بشر . . كيف نطيع بشرا مثلنا ؟

ثم . . لماذا اختار الله بشرا من بيننا ليوحى إليه ؟ قال رؤساء قوم هود : أليس غريبا أن يختار الله من بيننا بشرا ويوحى إليه . . . ؟! تساءل هو : ما هو الغريب فى ذلك؟ . . إن الله الرحيم بكم قد أرسلنى إليكم لأحذركم . . إن سفينة نوح ، وقصة نوح ليست بعيدة عنكم ، لا تنسوا ما حدث ، لقد هلك الذين كفروا بالله ، وسيهلك الذين يكفرون بالله دائما ، مهما يكونوا أقوياء . .

قال رؤساء قوم هود : من الذى سيهلكنا يا هود ؟ قال هود : الله . . قال الكافرون من قوم هود : ستنجينا آلهتنا .

وأفهمهم هود أن هذه الآلهة التى يعبدونها لتقربهم من الله ، هى نفسها التى تبعدهم عن الله . أفهمهم أن الله هو وحده الذى ينجى الناس ، وأن أى قوة أخرى فى الأرض لا تستطيع أن تضر أو تنفع .

واستمر الصراع بين هود وقومه . وكلما استمر الصراع ومرت الأيام ، زاد قوم هود استكبارا وعنادا وطغيانا وتكذيبا لنبيهم . . وبدءوا يتهمون «هودا» ، عليه السلام ، بأنه سفيه مجنون . قالوا له يوما :

- لقد فهمنا الآن السر فى جنونك . . إنك تسب آلهتنا وقد غضبت آلهتنا عليك ، وبسبب غضبها صرت مجنونا . .

قص علينا الله ما قالوه فى سورة هود :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ (٢) .

إلى هذا الحد بلغ الانحراف فى نفوسهم ، إلى حد أن يتصوروا أن هودا يهذى ، لأن أحد آلهتهم المفتراة قد غضب عليه ، فمسه بسوء .

---

(١) من الآية ٣٣ «المؤمنون» مكية .

(٢) من الآيتين ٥٣ ، ٥٤ من سورة هود مكية .

لم يتوقف هود عند هذيانهم ، ولم يغضبه أن يظنوا به الجنون والهذيان ، ولكنه توقف عند قولهم :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

بعد هذا التحدى . لم يبق لهود إلا التحدى . لم يبق له إلا التوجه إلى الله وحده . لم يبق أمامه إلا إنذار أخير ينطوى على وعيد للمكذبين وتهديد لهم . وتحدث هود . .

﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (٢) .

إن الإنسان ليشعر بالدهشة لهذه الجرأة فى الحق . رجل واحد يواجه قوما غلاظا شدادا وحمقى . . يتصورون أن أصنام الحجارة تستطيع الإيذاء . إنسان بمفرده يقف ضد جبارين فيسفه عقيدتهم ، ويتبرأ منهم ومن آلهتهم ، ويتحداهم أن يكيدوا له بغير إبطاء أو إمهال ، فهو على استعداد لتلقى كيدهم ، وهو على استعداد لحربهم فقد توكل على الله . والله هو القوى بحق . وهو الآخذ بناصية كل دابة فى الأرض . سواء الدواب من الناس أو دواب الوحوش أو الحيوان . لا شىء يعجز الله .

بهذا الإيمان بالله . والثقة بوعده . والاطمئنان إلى نصره . . يخاطب هود الذين كفروا من قومه . . وهو يفعل ذلك رغم وحدته وضعفه ، لأنه يقف مع الأمن الحقيقى ويبلغ عن الله . وهو فى حديثه يفهم قومه أنه أدى الأمانة . وبلغ الرسالة . فإن كفروا فسوف يستخلف الله قوما غيرهم ، سوف يستبدل بهم قوما آخرين . وهذا معناه أن عليهم أن ينتظروا العذاب .

وهكذا أعلن هود لهم براءته منهم ومن آلهتهم . . وتوكل على الله الذى خلقه ، وأدرك أن العذاب واقع بمن كفر من قومه . هذا قانون من قوانين الحياة . يعذب الله الذين كفروا ، مهما كانوا أقوياء أو أغنياء أو جبابرة أو عمالقة .

انتظر هود وانتظر قومه وعد الله . وبدأ الجفاف فى الأرض . . لم تعد السماء تمطر . . كانت الشمس تلهب رمال الصحراء وتبدو مثل قرص من النار يستقر على

---

(١) من الآية ٥٣ من سورة هود مكية . (٢) الآيات ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ سورة هود مكية .

رءوس الناس ، وهرع قوم هود إليه . . ما هذا الجفاف يا هود ؟ . قال هود : إن الله غاضب عليكم ، ولو آمنتم فسوف يرضى الله عنكم ويرسل المطر فيزيدكم قوة إلى قوتكم . وسخر قوم هود منه وزادوا فى العناد والسخرية والكفر . وزاد الجفاف ، واصفرت الأشجار الخضراء ، ومات الزرع . وجاء يوم فإذا سحاب عظيم يملأ السماء . . وفرح قوم هود وخرجوا من بيوتهم يقولون : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ .

تغير الجو فجأة . . من الجفاف الشديد والحر إلى البرد الشديد القارس . . بدأت الرياح تهب . . ارتعش كل شىء ، ارتعشت الأشجار والنباتات والرجال والنساء والخيام . . ارتعش الجلد واللحم والعظام والنخاع . . واستمرت الرياح . . ليلة بعد ليلة ويوما بعد يوم . . كل ساعة كانت برودتها تزداد . . وبدأ قوم هود يفرون ، أسرعوا إلى الخيام واختبئوا داخلها ، اشتد هبوب الرياح واقتلعت الخيام ، واختبئوا تحت الأغطية ، فاشتد هبوب الرياح وتطايرت الأغطية . كانت الرياح تمزق الملابس وتمزق الجلد وتنفذ من فتحات الجسم وتدمره . لا تكاد الريح تمس شيئا إلا قتلته ودمرته وامتصت قلبه ، وجعلته كالرميم .

استمرت الرياح مسلطة عليهم سبع ليال وثمانية أيام لم تر الدنيا مثلها قط . . ثم توقفت الريح بإذن ربها . . قال تعالى فى سورة الأحقاف :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (١) .

وقال تعالى فى سورة الحاقة :

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (٢) .

لم يعد باقيا من قوم هود إلا ما يبقى من النخل الميت . . مجرد غلاف خارجى لا تكاد تضع يدك عليه حتى يتطاير ذرات فى الهواء . .

نجا هود ومن آمن معه . . وهلك الجبابرة . . ونزل الستار على قوم هود .

---

(١) من الآيتين ٢٤، ٢٥ من سورة الأحقاف مكية.

(٢) الآية ٧ من سورة الحاقة مكية.

قصة صالح
[عليه الصلاة والسلام]

انحدرت سنوات وسنوات . . ولد رجال ومات رجال . .

وجاء بعد قوم عاد قوم ثمود ، وتكررت قصة العذاب بشكل مختلف مع ثمود . .

كانت ثمود قبيلة تعبد الأصنام هى الأخرى ، فأرسل الله «سيدنا صالحا» إليهم . . وقال صالح لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (١) .

نفس الكلمة التى يقولها كل نبى . . لا تتبدل ولا تتغير ، كما أن الحق لا يتبدل ولا يتغير . . فوجئ الكبار من قوم صالح بما يقوله . . إنه يتهم آلهتهم بأنها بلا قيمة ، وهو ينهاهم عن عبادتها ويأمرهم بعبادة الله وحده . وأحدثت دعوته هزة كبيرة فى المجتمع . . وكان صالح معروفا بالحكمة والنقاء والخير ، كان قومه يحترمونه قبل أن يوحى الله إليه ويرسله بالدعوة إليهم . وقال قوم صالح له :

﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (٢) .

تأمل وجهة نظر الكافرين من قوم صالح . . إنهم يدلفون إليه من باب شخصى بحت . . لقد كان لنا رجاء فيك . . كنت مرجوا فينا لعلمك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك . ثم خاب رجاؤنا فيك . . أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟! يا للكارثة . . كل شىء يا صالح إلا هذا . ما كنا نتوقع منك أن تعيب آلهتنا التى وجدنا آباءنا عاكفين عليها . . وهكذا يعجب القوم مما لا عجب فيه . .

ويستنكرون ما هو واجب وحق ، ويدهشون أن يدعوهم أخوهم صالح إلى

---

(١) من الآية ٦١ من سورة هود مكية.　　(٢) الآية ٦٢ من سورة هود مكية.

عبادة الله وحده . . لماذا ؟ لا حجة لديهم ولا برهان ولا تفكير . . ولكن لأن آباءهم كانوا يعبدون هذه الآلهة .

هكذا تفعل العادة فى الإنسان فعلها القوى ، وهكذا يفعل التقليد فى الإنسان فعله العاتى . وهكذا يجيء النبى فيفجر هذا التقليد الأبله ويحطم العادات المهلكة . وهكذا تعلن عقيدة التوحيد عن نفسها كدعوة للتحرر الفكرى قبل كل شيء ، دعوة إلى إطلاق العقل البشرى من حبال التقاليد ، وخرافات السابقين ، وأوهام العادات المستقرة .

هذه هى دعوة التوحيد فى صميمها . . إعلان بميلاد الحرية العقلية وكل أنواع الحريات الأخرى . وهى دعوة لا يقف ضدها غير من تحجر عقله على أفكار السابقين وعادات الموتى وأوهام الآباء والجدود . ورغم نصاعة دعوة صالح عليه الصلاة والسلام . . فقد بدا واضحا أن قومه لا يصدقونه . . كانوا يشكون فى دعوته ، واعتقدوا أنه مسحور ، وطالبوه بمعجزة تثبت أنه رسول من الله إليهم . . وشاءت إرادة الله أن تستجيب لطلبهم . . وكان قوم ثمود ينحتون من الجبال بيوتا عظيمة . . كانوا يستخدمون الصخر فى البناء ، وكانوا أقوياء قد فتح الله عليهم رزقهم من كل شيء . . جاءوا بعد قوم عاد فسكنوا الأرض واستعمروها . .

قال صالح لقومه حين طالبوه بمعجزة ليصدقوه :

﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ (١) .

والآية هى المعجزة ، ويقال إن الناقة كانت معجزة لأن صخرة بالجبل انشقت يوما وخرجت منها الناقة . . ولدت من غير الطريق المعروف للولادة ، ويقال إنها كانت معجزة لأنها كانت تشرب المياه الموجودة فى الآبار فى يوم فلا تقترب بقية الحيوانات من المياه فى هذا اليوم ، وقيل إنها كانت معجزة لأنها كانت تدر لبنا يكفى لشرب الناس جميعا في اليوم الذى تشرب فيه الماء فلا يبقى منه شيء للناس .

كانت هذه الناقة معجزة ، وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ نَاقَةُ اللَّهِ . . ﴾ (٢) .

أضافها لنفسطه سبحانه بمعنى أنها ليست ناقة عادية وإنما هى معجزة من الله . وأصدر الله أمره إلى صالح أن يأمر قومه بعدم المساس بالناقة أو إيذائها أو قتلها ،

(١) من الآية ٦٤ من سورة هود مكية .

(٢) من الآية ٦٤ من سورة هود مكية .

أمرهم أن يتركوها تأكل فى أرض الله ، وألا يمسوها بسوء ، وحذرهم أنهم إذا مدوا أيديهم بالأذى للناقة فسوف يأخذهم عذاب قريب .

فى البداية تعاظمت دهشة ثمود حين ولدت الناقة من صخور الجبل . . كانت ناقة مباركة . . كان لبنها يكفى آلاف الرجال والنساء والأطفال . . وكانت إذا نامت فى موضع هجرته كل الحيوانات الأخرى . كان واضحا أنها ليست مجرد ناقة عادية . . وإنما هى آية من الله . وعاشت الناقة بين قوم صالح ، آمن منهم من آمن وبقى أغلبهم على العناد والكفر . . وتحولت الكراهية عن سيدنا صالح إلى الناقة المباركة . . تركزت عليها الكراهية ، وبدأت المؤامرة تنسج خيوطها ضد الناقة . . كره الكافرون هذه الآية العظيمة ، ودبروا فى أنفسهم أمرا . .

كان طبيعيا - كما رأينا من قبل - أن يجيء التدبير من رؤساء قومه . . مرة أخرى نلتقى بالملأ الذين استكبروا من قومه . قال تعالى فى سورة (الأعراف) :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾[1] .

إن صالحا عليه الصلاة والسلام يحدث قومه برفق وحب ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وينبههم إلى أن الله قد أخرج لهم معجزة هى الناقة ، دليلا على صدقه وبينة على دعوته ، وهو يرجو منهم أن يتركوا الناقة تأكل فى أرض الله ، وكل الأرض أرض الله ، وهو يحذرهم أن يمسوها بسوء خشية وقوع عذاب الله عليهم ، وهو يستلفتهم إلى إنعام الله عليهم : كيف جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد ؟ كيف أنعم عليهم بالقصور والجبال المنحوتة والنعيم والرزق والقوة ؟

---

(١) الآيات ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ . . مكية .

يفعل صالح هذا كله . . فإذا قومه يجيبونه أغرب إجابة . إنهم يتجاوزون كلمات نبيهم ويتركونه . يتجهون إلى الذين آمنوا بصالح . يسألونهم سؤال استخفاف وزراية : ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ ؟ سؤال لا محل له بعد معجزة الناقة . . كل ما فى الأمر أنهم يستخفون ويسخرون . قالت الفئة الضعيفة التى آمنت بصالح : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

لاحظ جواب المؤمنين الموضوعى . إن سؤال السادة المترفين يصطدم بهذا الجواب الموضوعى . . إن السادة يشكون فى أن صالحا مرسل من ربه . . لكن المؤمنين يردونهم إلى الحق الذى جاء به صالح . . وهذا الحق الذى جاء به صالح لا علاقة له بالناقة . إنما له علاقة بدعوته ورسالته نفسها . . ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ . لم يقولوا لهم إنا بناقته مؤمنون ، لم يقولوا لهم إن الناقة تثبت نبوته . تجاوز المؤمنون هذه المعجزة الخارقة إلى حقيقة رسالة صالح .

عند هذا الحد من الحوار . . نرى الذين كفروا وقد أخذتهم العزة بالإثم . . وللإثم عزة عند الكافرين والمستكبرين :

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١) .

هكذا باحتقار واستعلاء وغضب . عبثا تفتش عن أى دليل موضوعى فى حوار الكافرين . . إنهم يرفضون الإيمان فحسب . . وهم أحرار تماما فى ذلك .

سقط الليل على مدينة ثمود . انتصبت الجبال شامخة تحتضن البيوت المنحوتة فيها . وبدا واضحا للكافرين أن أحدا لا يمكن أن ينالهم بسوء . أضيئت المشاعل داخل قصر منحوت فى الجبل . . وأديرت كئوس الشراب على الجالسين فى شبه دائرة . .

لم يكن هناك أحد من رؤساء القوم قد تغيب عن الجلسة الخطيرة . انعقدت الجلسةودار الحوار . قال أحد الكافرين :

﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ (٢) .

وقال كافر آخر :

﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ (٣) .

---

(١) الآية ٧٦ من سورة الأعراف مكية . (٢) الآية ٢٤ من سورة القمر مكية .
(٣) الآية ٢٥ من سورة القمر مكية .

وعادت كئوس الشراب تدور . . وانتقل الحوار من صالح إلى ناقة الله .

قال أحد الكافرين : إذا جاء الصيف جاءت الناقة إلى ظل الوادى البارد فتهرب منه المواشى إلى الحر . وقال كافر آخر : وإذا جاء الشتاء بحثت الناقة عن أدفأ مكان واستراحت فيه فتهرب مواشينا إلى البرد وتتعرض للمرض . وعادت كئوس الشراب تدور وهى تهتز فى أيدى الشاربين . . وأمر أحد الجالسين أن تكف المغنية عن الغناء لأنه يفكر . . وانطبق الصمت . . وراح هو يفكر . . رأس من رءوس الكفر منكس على صدره وهو يفكر بعمق . استعان المفكر بكأسين من شراب قوى مسكر وهمس : ليس هناك غير حل واحد . تساءل الجالسون عن الحل . قال كبيرهم : ينبغى إزاحة صالح من طريقنا . . أقصد ناقته . . نقتل الناقة وبعدها نقتله هو . .

تلك منذ أقدم العصور إلى اليوم أساليب الأنظمة الكافرة . . وهذا سلاحهم منذ أقدم أيام الخليقة . . لا يعمدون إلى العقل أو الفكر أو الجدل والبرهان . . إنما تمتد الأيدى إلى السلاح وتقتل . هذا أسلم الحلول عندهم وذلك تصورهم . إن القتل يطوى المشكلة كلها ، ويدفنها فى التراب .

انبعثت الهمسات حول صالح وناقته . قال أحدهم وكان فى عقله بقية لم يطمسها الشراب : حذرنا صالح من المساس بالناقة ، وهددنا بالعذاب القريب . أخمد الجالسون هذا الصوت العاقل بكأسين من الخمر ، وتصاعدت كلمات الحوار تتحدث عن صالح .

- كم نتشاءم منه ونتطير .

■ هو وناقته .

- ومن معه .

■ أفضل الحلول قتله .

- نبدأ بقتل الناقة ، ثم نثنى إليه .

■ من الذى يقتله؟

استلقى السؤال بينهم جسدا بغير رأس . قال أحدهم بعد لحظة صمت :

- أعرف واحدا يستطيع قتله .

تناقلوا الاسم بينهم فى سرور واضح . ذلك جبار من جبابرة المدينة . رجل يعيث فسادا فى الأرض ولا يكف عن الشراب ، والويل لمن يعترضه وهو مخمور . . تساءلوا : من يساعده على القتل؟ فقيل إن له زملاء فى المدينة .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ (١) .

هؤلاء هم أداة الجريمة . . مجرمو المدينة المشهورون . . اتفق على موعد الجريمة ومكان التنفيذ . . وازداد الظلام الساقط على الجبال ظلمة . .

وجاءت ليلة المأساة .

الناقة المباركة تنام فى سلام . . انتهى المجرمون التسعة من إعداد أسلحتهم وسيوفهم وسهامهم ، وخرجوا فى جوف الظلام كما تخرج الخيانة ، شرب زعيمهم كثيرا من الخمر حتى لم يعد يرى ما أمامه . .

﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ (٢) .

انظر إلى استخدام لفظ « تعاطى » وكيف ذهب عقله بما تعاطاه . .

هجم الرجال التسعة على الناقة فنهضت الناقة مفزوعة . . امتدت الأيدى الآثمة القاتلة إلى الناقة . وسالت دماء الناقة . .

علم النبى صالح بما حدث فخرج غاضبا على قومه . . قال لهم : ألم أحذركم من أن تمسوا الناقة؟! قالوا : قتلناها فأتنا بالعذاب واستعجله لنا لو سمحت . . ألم تقل إنك من المرسلين؟!

قال صالح لقومه :

﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (٣) .

بعدها غادر صالح قومه . تركهم ومضى . انتهى الأمر ووعده الله بهلاكهم بعد ثلاثة أيام .

ومرت ثلاثة أيام على الكافرين من قوم صالح وهم يهزءون من العذاب وينتظرون ، وفى فجر اليوم الرابع : انشقت السماء عن صيحة جبارة واحدة . . انقضت الصيحة على الجبال فهلك فيها كل شيء حى . . وارتجفت الأرض رجفة جبارة فهلك فوقها كل شيء حى . .

هى صرخة واحدة . . لم يكد أولها يبدأ وآخرها يجيء حتى كان كفار قوم صالح قد صعقوا جميعا صعقه واحدة . .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة النمل مكية .
(٢) الآية ٢٩ من سورة القمر مكية .
(٣) من الآية ٦٥ من سورة هود مكية .

قال تعالى فى سورة القمر :

﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾(١) .

هلكوا جميعا قبل أن يدركوا ما حدث . . أما الذين آمنوا بسيدنا صالح . . فكانوا قد غادروا المكان مع نبيهم ونجوا .

---

(١) الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ من سورة القمر مكية .

قصة إبراهيم الخليل
(عليه الصلاة والسلام)

استوحش من الأكوان كلها ووصل إلى مقام الأنس بالله وحده . . ولذلك انفرد إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمكانة خاصة بين أنبياء الله .

هو أحد أولى العزم الخمسة الكبار الذين أخذ الله منهم ميثاقا غليظا، وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد . . بترتيب بعثهم . وهو النبى الذى ابتلاه الله ببلاء مبين . . بلاء فوق قدرة البشر وطاقة الأعصاب . . ورغم حدة الشدة وعنت البلاء . . كان إبراهيم هو العبد الذى وفى . . وزاد على الوفاء بالإحسان . قال تعالى فى سورة النجم :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ (١) .

وقد كرم الله تبارك وتعالى إبراهيم تكريما خاصا . فجعل ملته هى التوحيد الخالص النقى من الشوائب . وجعل العقل فى جانب الذين يتبعون دينه . قال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢) .

وأثنى الله سبحانه على إبراهيم فقال فى سورة النحل :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣) .

وكان من فضل الله على إبراهيم أن جعله الله إماما للناس . وجعل فى ذريته النبوة

---

(١) الآية ٣٧ من سورة النجم مكية .

(٢) الآية ١٣٠ من سورة البقرة مدنية .

(٣) الآية ١٢٠ من سورة النحل مكية .

والكتاب . فإذا كل الأنبياء بعد إبراهيم هم أولاده وأحفاده ، وتحقق وعد الله له فلم يبعث بعده نبى إلا جاء من نسله .

. . حتى إذا جاء آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم . . جاء تحقيقا واستجابة لدعوة إبراهيم التى دعا الله فيها . . أن يبعث فى الأميين رسولا منهم .

ولو مضينا نبحث فى فضل إبراهيم وتكريم الله له فسوف نمتلئ بالدهشة . نحن أمام بشر جاء ربه بقلب سليم . إنسان لم يكد الله يقول له أسلم حتى قال أسلمت لرب العالمين . نبى هو أول من سمانا المسلمين . نبى أثمرت دعوته المستجابة عن بعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . نبى كان جدا وأبا لكل أنبياء الله الذين جاءوا بعده . .

نبى هادئ متسامح حليم أواه منيب . قال تعالى فى سورة هود :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ (1) .

وقال فى سورة الصافات :

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (2) .

هكذا تحدث ذو الجلال الخالق عن عبده إبراهيم . هذا الذى سبق كله فى كفة . . وهذا الذى قاله الحق عنه كفة ترجح . .

لم يرد فى كتاب الله ذكر لنبى . . اتخذه الله خليلا . . غير إبراهيم . هو وحده الذى اختصه الله عز وجل بقوله فى سورة النساء :

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (3) .

قال العلماء : الخُلَّة هى شدة المحبة . وبذلك تعنى الآية . . واتخذ الله إبراهيم حبيبا .

يرتد نظر العقل وهو يحاول استشراف هذه القمة . . مجرد تصعيد النظر نحو هذه القمة الشامخة يثير الدوار . فوق هذه القمة الشامخة يجلس إبراهيم عليه الصلاة والسلام . كيف ؟ بم استحق ما استحق ؟ أى قلب كان قلبه . . ؟! بأى رحمة خلق . . ؟! من أى نبل صيغ . . ؟! وأى حب كان يسع ؟

---

(1) الآية ٧٥ . . مكية . (2) الآية ١٠٩ مكية .

(3) من الآية ١٢٥ من سورة النساء .

إن منتهى أمل السالكين ، وغاية هدف المحققين والعارفين بالله . . أن يحبوا الله عز وجل . أما أن يحلم أحدهم أن يحبه الله . أن يفرده بالحب . أن يختصه بالخُلّة وهى شدة المحبة . . فذلك شى وراء آفاق التصور .

كان إبراهيم هو هذا العبد الربانى الذى استحق أن يتخذه الله خليلا . . تلك درجة من درجات الأنبياء لا نعرف مقدارها . . ولا نعرف كيف نصفها ، ونعتقد أن أى كلمات بشرية تقال عنها ، تكون سجنا يظلمها ويسىء إليها . . نحن أمام فيض إلهى من نورالسماوات والأرض .

نعرف أن محار البحار الذى يصنع اللؤلؤ ، يصنعه حين يقتحم جسم غريب عالم اللؤلؤ الداخلى ، كأن الجراح تلد اللآلئ . نحسب بيقين . . أن المحار الذى يصنع اللؤلؤ كان يقلد قلب إبراهيم فيما يفعل ، نحن أمام قلب ألقى فى هذا العالم . كلما أصابه منه جرح صنع لؤلؤة . . ومن المدهش أن هذا القلب أدرك رشده من طفولته .

لا يتحدث القرآن عن ميلاده أو طفولته ، ولا يتوقف عند عصره صراحة ، ولكنه يرسم صورة لجو الحياة فى أيامه ، فتدب الحياة فى عصره ، ونرى الناس قد انقسموا ثلاث فئات : فئة تعبد الأصنام والتماثيل الخشبية والحجرية . وفئة تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر . وفئة تعبد الملوك والحكام .

أطفئت أنوار العقل فى مشارق الأرض ومغاربها . . وجلس الظلام على عروشه المتعددة . واشتد ظمأ الأرض إلى الرحمة . . واشتد جوعها إلى الحق . وفى هذا الجو ولد إبراهيم . ولد فى أسرة من أسر ذلك الزمان البعيد . لم يكن رب الأسرة كافرا عاديا من عبدة الأصنام . . كان كافرا متميزا يصنع بيديه تماثيل الآلهة . .

قيل إن أباه مات قبل ولادته فرباه عمه ، وكان له بمثابة الأب ، وكان إبراهيم يدعوه بلفظ الأبوة ، وقيل إن أباه لم يمت وكان آزر هو والده حقا . وقيل إن آزر اسم صنم اشتهر أبوه بصناعته . . ومهما يكن من أمر فقد ولد إبراهيم فى هذه الأسرة .

رب الأسرة أعظم نحات يصنع تماثيل الآلهة . فنان تجمد على نحت تماثيل الآلهة وتكرار نفسه . ومهنة الأب تضفى عليه قداسة خاصة فى قومه . وتجعل لأسرته كلها مكانا ممتازا فى المجتمع . هى أسرة مرموقة من الأسر الأرستقراطية بتعبير زماننا . . أسرة من الصفوة الحاكمة .

من هذه الأسرة المقدسة . . ولد طفل قدر له أن يقف ضد أسرته وضد نظام مجتمعه وضد أوهام قومه وضد ظنون الكهنة وضد العروش القائمة وضد عبدة النجوم والكواكب وضد كل أنواع الشرك باختصار . وكان طبيعيا أن يكون جزاؤه الإلقاء فى النار حيا .

لا نريد أن نسبق الأحداث . لنبدأ معه منذ طفولته .

كان عقله مضيئا منذ طفولته . أضاء الله قلبه وعقله وآتاه رشده وآتاه الحكمة منذ طفولته . أدرك إبراهيم وهو طفل أن أباه يصنع تماثيل غريبة . وسأله يوما عما يصنع ، فأخبره أنها تماثيل الآلهة ، ودهش إبراهيم وأحس داخل عقله بالرفض . . كان يلعب وهو طفل بهذه التماثيل ويمتطى ظهورها مثلما يمتطى الناس ظهور الحمير والبغال . . وشاهده أبوه يوما يركب ظهر تمثال مردوخ ، وغضب الأب وأمر ابنه ألا يلعب بهذا التمثال مرة ثانية .

سأل إبراهيم : أى تمثال هذا يا أبى . . ؟ إن أذنيه كبيرتان . . أكبر من آذاننا . قال أبوه : إنه مردوخ رب الأرباب يا ولدى ، وهاتان الأذنان الكبيرتان ترمزان إلى فهمه العميق .

ضحك إبراهيم بينه وبين نفسه . . كان عمره ٧ سنين .

يحدثنا القديس برنابا على لسان عيسى كيف سخر إبراهيم من أبيه وهو طفل . . يقول إن إبراهيم سأل والده يوما : من صنع الإنسان يا أبى ؟ قال الأب : الإنسان ، لأنى أنا صنعتك وأبى صنعنى . أجاب إبراهيم : ليس الأمر كذلك يا أبى . . لأنى سمعت شيخا ينتحب ويقول : يا إلهى . . لماذا لم تعطنى أولادا . قال الأب : حقا يا بنى . . الله يساعد الإنسان ليصنع إنسانا ، ولكنه لا يضع يده فيه .

قال إبراهيم : كم إلها هناك يا أبى ؟ أجاب الشيخ : لا عدد لهم يا بنى .

قال إبراهيم : ماذا أفعل يا أبى إذا خدمت إلها وأراد بى الآخر شرا لأنى لا أخدمه؟ ماذا لو وقع شقاق وخصام بين الآلهة ؟ ماذا لو قتل الإله الذى يريد بى شرا إلهى؟ ماذا أفعل . . ؟ من المؤكد أنه يقتلنى أنا أيضا . أجاب الشيخ ضاحكا : لا تخف يا بنى لأنه لا يخاصم إله إلها آخر . . فى الهيكل الكبير ألوف من الآلهة مع الإله الكبير بعل ، وقد بلغت الآن سبعين سنة من العمر ومع ذلك لم أر إلها قط ضرب إلها آخر .

قال إبراهيم : إذن يوجد وفاق بينهم . أجاب أبوه : نعم يوجد . قال إبراهيم : من أى شيء تصنع الآلهة ؟ قال الشيخ : هذا من خشب النخل ، وذاك من الزيتون ، وذلك التمثال الصغير من العاج . . انظر ما أجمله . . حقا لا ينقصه إلا التنفس .

قال إبراهيم : إذا لم يكن للآلهة نفس فكيف يهبون الأنفاس . . ؟ وإذا لم تكن لهم حياة فكيف يعطون الحياة ؟ من المؤكد يا أبى أن هؤلاء ليسوا هم الله . حنق الشيخ لهذا الكلام وقال ثائرا : لو كنت بالغا من العمر ما تتمكن معه من الإدراك لشججت رأسك بهذه الفأس .

قال إبراهيم : يا أبى . . إن كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان فكيف يتأتى للإنسان أن يصنع آلهة . . ؟ إذا كانت الآلهة مصنوعة من الخشب فإن إحراق الخشب خطيئة كبرى. ولكن قل لى يا أبت . . كيف وأنت تساعد الآلهة وتصنع منها أعدادا هائلة . . كيف لم تساعدك الآلهة لتصنع أولادا كثيرين فتصير أقوى رجل فى القرية؟

انتهى الحوار بينهما بأن مد الأب يده وضرب إبراهيم . .

ومرت الأيام . . وكبر إبراهيم . . كان قلبه يمتلئ من طفولته بكراهية صادقة لهذه التماثيل التى يصنعها والده . لم يكن يفهم كيف يمكن لإنسان عاقل أن يصنع بيديه تمثالا ، ثم يسجد بعد ذلك لما صنع بيديه . لاحظ إبراهيم أن هذه التماثيل لا تشرب ولا تأكل ولا تتكلم ولا تستطيع أن تعتدل لو قلبها أحد على جنبها . . كيف يتصور الناس أن هذه التماثيل تضر وتنفع؟!

عذبت هذه الفكرة إبراهيم طويلا . . أيمكن أن يكون كل قومه على خطأ ، وهو وحده على الحق؟! أليس هذا شيئا مدهشا؟!

كان لقوم إبراهيم معبد كبير يمتلئ بالتماثيل . . وكان فى وسط المعبد محراب توضع فيه تماثيل أكبر الآلهة . . وكانت الآلهة أنواعا وأصنافا وأشكالا . . وكان إبراهيم يزور المعبد مع والده وهو طفل ، كان يحس باحتقار عظيم لكل هذه الأخشاب والحجارة . الأمر المدهش هو الناس . . قومه . . كانوا إذا دخلوا خفضوا رءوسهم وحنوا ظهورهم . وبدءوا يبكون ويتوسلون ويسألونها أشياء كأنها تسمع أو تفهم . فى البداية كان هذا المنظر يبدو مضحكا لإبراهيم ، ثم بدأ إبراهيم يحس الغضب . . أليس شيئا عجيبا أن يكون كل هؤلاء الناس مخدوعين؟! وزادت المشكلة . إن والد إبراهيم كان يريد أن يكون إبراهيم كاهنا حين يكبر . . ولم يكن والد إبراهيم يريد من ابنه شيئا أكثر من أن يحترم هذه التماثيل ، غير أن إبراهيم كان لا ينقطع عن التصريح باحتقاره وكراهيته لها .

وذات يوم دخل إبراهيم المعبد مع أبيه . وبدأت الاحتفالات بالتماثيل . . ووسط الاحتفال راح كبير الكهنة يوجه الحديث إلى تمثال كبير الآلهة . . وكان الكاهن يتحدث بصوت عميق مؤثر ويسأل التمثال أن يرحم قومه ويرزقهم . وخرج صوت إبرهيم فى سكون المعبد وهو يخاطب كبير الكهنة : إنه لا يسمعك يا سيدى الكاهن . . ألا تلاحظ أنه لا يسمع ؟

والتفت الناس لهذا الصبى فوجدوه إبراهيم . . شعر كبير الكهنة بالإحراج والغضب ، واعتذر الأب مدعيا أن ابنه مريض ولا يعرف ما يقول . . وخرج الاثنان من المعبد ، صحب الوالد إبراهيم إلى فراشه وأرقده فيه . . وتركه ومضى .

اطمأن إبراهيم إلى نوم الناس جميعا فنهض من فراشه . . لم يكن مريضا . . كان يحس أنه مقبل على اكتشاف عظيم . . يستحيل أن يكون الله هو هذه اللعب الخشبية أوالتماثيل الحجرية التى يصنعها قومه . خرج إبراهيم من بيته إلى الجبل . . سار وحده فى الظلام . . اختار كهفا فى الجبل وأسند ظهره لحجارته وجلس .

نظر إلى السماء . . سئم النظر إلى الأرض التى تموج بجاهلية تنكفئ على الأصنام . . لم يكد ينظر فى السماء حتى تذكر أنه ينظر لكواكب ونجوم تعبد فى الأرض . وامتلأ قلب الفتى الصغير بحزن رحيم كبير .

نظر إلى ما وراء القمر والنجوم والكواكب وأدهشه أن يعبدها الناس وهى مخلوقة تعبد خالقها ، وتظهر بإذنه وتأفل بإذنه . وأدار إبراهيم بينه وبين نفسه حوارا داخليا ، لم يلبث أن مده إلى حوار مع قومه الذين يعبدون هذه الكواكب .

حكى الله تعالى هذه المواقف بقوله تعالى فى سورة الأنعام :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾[١] .

لا يحدثنا القرآن عن الجو الذى أعلن فيه إبراهيم ذلك . غير أننا نحس من سياق الآيات أن هذا الإعلان كان بين قومه ، ويبدو أن قومه اطمأنوا له ، وحسبوا أنه يرفض عبادة التماثيل ويهوى عبادة الكواكب . . وكانت الملاحة حرة بين الوثنيات الثلاث : عبادة التماثيل والنجوم والملوك . .

غير أن إبراهيم كان يدخر لقومه مفاجأة مذهلة فى الصباح . . لقد أفل الكوكب الذى التحق بديانته بالأمس . وإبراهيم لا يحب الآفلين . قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾[٢] .

عاد إبراهيم فى الليلة الثانية يعلن لقومه أن القمر ربه . لم يكن قومه على درجة كافية من الذكاء ليدركوا أنه يسخر منهم برفق ولطف وحب . كيف يعبدون ربا يختفى ثم يظهر . . يأفل ثم يشرق . . بانتظام يشى بعبوديته لله؟ لم يفهم قومه هذا فى المرة

---

(١) من الآيات ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ مكية.   (٢)من الآيتين ٧٦، ٧٧ من سورة الأنعام .

الأولى فكرره مع القمر . . لكن القمر كالزهرة كأى كوكب آخر . . يظهر ويختفى . . قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (١) .

سنلاحظ هنا أنه يحدث قومه عن رفضه لألوهية القمر . . إنه يمزق العقيدة القمرية بهدو ولطف . كيف يعبد الناس ربا يختفى ويأفل . ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ . . يفهمهم أن له ربا غير كل ما يعبدون . . غير أن اللفتة لا تصل إليهم . . ويعاود إبراهيم محاولته فى إقامة الحجة على الفئة الأولى من قومه . . عبدة الكواكب والنجوم . قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

كان تفنيده للعقيدة الشمسية هو ختام جولته مع عبدة الكواكب والنجوم . أعلن أن الشمس ربه لأنها أكبر . سخرية مرت على آذان قومه فلم تلتقطها القلوب الموصدة . لم يفهم عبدة الشمس أنهم يعبدون مخلوقا . لا يغنى فيه أنه كبير . . الله أكبر . بعد أن أعلن إبراهيم أن الشمس ربه . انتظر حتى جاء المغيب ، وغربت الشمس . أفلت هى الأخرى مثل كل المعبودات التى تأفل . بعدها أعلن براءته من عبادة النجوم والكواكب . . أنهى جولته الأولى بتوجيهه وجهه للذى فطر السماوات والأرض حنيفا . . ليس مشركا مثلهم . .

استطاعت حجة إبراهيم أن تظهر الحق . . وبدأ صراع قومه معه . . لم يسكت عنه عبدة النجوم والكواكب . . بدءوا جدالهم وتخويفهم له وتهديده . ورد إبراهيم عليهم قال :

﴿ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

---

(١) من الآية ٧٧ من سورة الأنعام مكية . (٢) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ من سورة الأنعام مكية .
(٣) الآيتان ٨٠ ، ٨١ من سورة الأنعام مكية .

لا نعـرف رهبة الهجوم عليه . ولا حدة الصـراع ضده . ولا أسلوب قومه الذى اتبعه معه لتخويفه . تجاوز القرآن هذا كله إلى رده هو . . كان جدالهم باطلا فأسقطه القـرآن من القـصة ، وذكـر رد إبراهيم المنطقى العـاقل . كـيف يخـوفونه ولا يخافـون هم . . ؟! أى الفريقين أحق بالأمن؟

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(١) .

يسدل الستار هنا على المشهد الأول ، ليرتفع بعد ذلك عن مشهد آخر مع الفئة التي تخـصـصت فى عـبادة الأصنام . فـرغ من عـبـدة الكواكب والنجـوم والتـفت لعـبـدة الأصنام . آتاه الله الحجة فى المرة الأولى كما سيؤتيه الحجة فى كل مرة :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

سبحانه . . كان يؤيد إبراهيم ويريه ملكوت السموات والأرض . لم يكن معه غير إسلامه حين بدأ صراعه مع عبدة الأصنام . . هذه المرة يأخذ الصراع شكلا أعظم حدة . أبوه فى الموضوع . . هذه مهنة الأب وسر مكانته وموضع تصديق القوم . . وهى العبادة التى تتبعها الأغلبية . .

خرج إبراهيم على قومه بدعوته . قال بحسم غاضب وغيرة على الحق :

﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٣) .

انتهى الأمر وبدأ الصراع بين إبراهيم وقومه . . كان أشدهم ذهولا وغضبا هو أباه أو عمه الذى رباه كأب . . واشتبك الأب والابن فى الصراع . . فصلت بينهما المبادئ فاختلفا . . الابن يقف مع الله ، والأب يقف مع الباطل . قال الأب لابنه : مصيبتى فيك كبيرة يا إبراهيم . . لقد خذلتنى وأسأت إلى . قال إبراهيم :

---

(١) الآية ٨٢ من سورة الأنعام مكية . (٢) الآية ٨٣ من سورة الأنعام مكية .

(٣) الآيات ٥٢ ـ ٥٦ من سورة الأنبياء مكية .

﴿يَا أبت لمَ تعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصرُ ولا يُغْني عنك شيْئا (٤٢) يا أبت إنّي قَدْ جَاءنِي مِن الْعِلْم ما لمْ يأْتك فاتّبعْني أهْدك صراطا سويًا (٤٣) يا أبَت لا تعْبُد الشَّيْطَان إنّ الشيْطان كان للرّحْمن عصيًا (٤٤) يا أبت إني أخافُ أن يَمَسّك عذابٌ مّن الرّحْمن فتكُون للشّيْطان وليًا﴾ [(١)] .

انتفض الأب واقفا وهو يرتعش من الغضب . قال لإبراهيم وهو ثائر :

﴿أرَاغبٌ أنت عَنْ آلهتي يَا إبْراهيمُ لئن لَمْ تنته لأرْجُمنّك واهْجُرني مَليًا﴾ [(٢)] .

إذا لم تتوقف عن دعوتك هذه فسوف أرجمك ، سأقتلك ضربا بالحجارة . . هذا جزاء من يقف ضد الآلهة . . اخرج من بيتى . . لا أريد أن أراك . . اخرج .

انتهى الأمر وأسفر الصراع عن طرد إبراهيم من بيته . . كما أسفر عن تهديده بالقتل رميا بالحجارة . رغم ذلك تصرف إبراهيم كابن بار ونبى كريم . خاطب أباه بأدب الأنبياء . قال لأبيه ردا على الإهانات والتجريح والطرد والتهديد بالقتل :

﴿سَلامٌ عليْك سأسْتغْفرُ لك ربّي إنّهُ كان بي حفيًا (٤٧) وأعْتزلُكُمْ وما تدْعُونَ من دُون اللّه وأدْعُو ربّي عسىٰ ألاّ أكُون بدُعاء ربّي شقيًا﴾ [(٣)] .

وخرج إبراهيم من بيت أبيه . . هجر قومه وما يعبدون من دون الله . . وقرر فى نفسه أمرا . . كان يعرف أن هناك احتفالا عظيما يقام على الضفة الأخرى من النهر ، وينصرف الناس جميعا إليه . . وانتظر حتى جاء الاحتفال وخلت المدينة التى يعيش فيها من الناس .

وخرج إبراهيم حذرا وهو يقصد بخطاه المعبد . كانت الشوارع المؤدية إلى المعبد خالية . وكان المعبد نفسه مهجورا . . انتقل كل الناس إلى الاحتفال . . دخل إبراهيم المعبد ومعه فأس حادة . نظر إلى تماثيل الآلهة المنحوتة من الصخر والخشب . . نظر إلى الطعام الذى وضعه الناس أمامها كنذور وهدايا . اقترب إبراهيم من تمثال لأحد الآلهة وسأله : لقد برد الطعام أمامك . . لماذا لا تأكل ؟!

---

(١) الآيات ٤٢ ـ ٤٥ من سورة مريم مكية

(٢) الآية ٤٦ من سورة مريم مكية .

(٣) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة مريم مكية .

وظل التمثال صامتا جامدا . وسأل إبراهيم عددا من التماثيل حوله :

﴿ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾[1] ؟!

كان يسخر منهم ويعرف أنهم لا يأكلون . . وعاد يسأل التماثيل :

﴿ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ﴾[2] ؟!

رفع يده بالفأس وبدأ يحطم الآلهة الكاذبة التى يعبدها الناس . . حطم الأصنام جميعا ، وترك تمثالا واحدا علق فى رقبته الفأس . . وانصرف إلى الجبال بعد أن بر بقسمه ، وكان قد أقسم أن يطلع قومه بالدليل العملى على غبائهم فى عبادة غير الله . وانتهى الاحتفال فى الضفة الأخرى وعاد الناس . . لم يكد أول واحد يدخل المعبد حتى صرخ . . وتجمع الناس على صرخته فاكتشفوا أن الآلهة جميعها قد تحطمت ما عدا واحدا . وبدءوا يفكرون فيمن يكون عساه مرتكب هذه الفعلة .

وقفزت إلى عقولهم صورة إبراهيم وهو يحدثهم ويدعوهم إلى الله . .

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾[3] .

أحضروا إبراهيم على الفور وحققوا معه .

هكذا قال الحاكم . وجاء إبراهيم . . وسألوه :

﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾[4] ؟!

ابتسم إبراهيم وقال وهو يشير إلى كبير الآلهة الذى علق الفأس فى رقبته :

﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾[5] !

قال الكهنة : نسأل من ؟ قال إبراهيم : اسألوا آلهتكم . قال المحقق : أنت تعرف أن الآلهة لا تنطق .

قال إبراهيم : كيف تعبدون شيئا لا ينطق . . ولا ينفع . . ولا يضر ؟ . . ألا تفكرون قليلا؟ . . أين ذهبت عقولكم ؟ لقد حطمت آلهتكم وكبير الآلهة واقف ينظر . . لم يستطع هؤلاء الآلهة أن يدفعوا عن أنفسهم الأذى فكيف يحضرون لكم

---

(١) الآية ٩١ من سورة الصافات مكية .
(٢) الآية ٩٢ من سورة الصافات مكية .
(٣) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء مكية .
(٤) الآية ٦٢ من سورة الأنبياء مكية .
(٥) الآية ٦٣ من سورة الأنبياء مكية .

الخير . . ؟! ألا تفكرون قليلا؟ . . لقد علقت الفأس فى عنق كبير الآلهة فلم يقل لماذا فعلت ما فعلت . إنه لا ينطق ولا يسمع ولا يرى ولا يتحرك ولا يضر ولا ينفع . إنه لا شيء . . مجرد حجر . كيف يعبد الناس حجرا ؟! . . أين ذهبت عقولكم ؟! . .

أجمل الله تعالى فى سورة الأنبياء هذه المشاهد . قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (١) .

ألزمهم الحجة وأسكتهم بالبرهان وناقشهم بمنطق الفكر . . فقرروا إعدامه حرقا فى النار .

ثار المحققون وهاج أتباعهم وانعقدت محاكمة مضحكة اتهمته تهما عقوبتها الحرق . لم تعد المسألة مسألة صراع بين أفكار . . أو مبادئ . . أو قيم . . لقد أحالهم

---

(١) الآيات من ٥١ إلى ٦٨ من سورة الأنبياء مكية .

إبراهيم - بسخرية توقظ القلب - إلى كبير الآلهة واتهمه بأنه هو الذى حطم الآلهة . وطالبهم أن يسألوا الآلهة عمن حطمها . . ولكن الآلهة لا تنطق . . كيف يعبد الناس ما لا ينطق ولا يعى . . ؟! حين تهاوت الحجة نهضت الكبرياء . وحين أسقط دليلهم ميتا نهض العناد . . وتقرر إعدامه حرقا .

ألقى القبض عليه ، وبدأ إعداد المحرقة . كانت حيثيات الحكم الباطل تتلخص فى جملة موجزة تقول : ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

. . . .

وفعلوا . . بدأ الاستعداد لإحراق إبراهيم . انتشر النبأ في المملكة كلها . وجاء الناس من القرى والجبال والمدن ليشهدوا عقاب الذى تجرأ على الآلهة وحطمها واعترف بذلك وسخر من الكهنة . وحفروا حفرة عظيمة ملئوها بالحطب والخشب والأشجار . . وأشعلوا فيها النار . . وأحضروا المنجنيق وهو آلة جبارة ليقذفوا إبراهيم منها فيسقط فى حفرة النار . . ووضعوا إبراهيم بعد أن قيدوا يديه وقدميه فى المنجنيق . واشتعلت النار فى الحفرة وتصاعد اللهب إلى السماء . . وكان الناس يقفون بعيدا عن الحفرة من فرط الحرارة اللاهبة . . وأصدر كبير الكهنة أمره بإطلاق إبراهيم فى النار .

جاء جبريل عليه السلام ووقف عند رأس إبراهيم وسأله : يا إبراهيم . . ألك حاجة؟ قال إبراهيم : أما إليك فلا .

انطلق المنجنيق ملقيا إبراهيم فى حفرة النار . هبط إبراهيم فى النار مثلما يهبط بقدمه درجة سلم فى حديقة ندية . كانت النار موجودة فى مكانها . . ولكنها لم تكن تمارس وظيفتها فى الإحراق .

أصدر الله جل جلاله إلى النار أمرا . قال تعالى :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١) .

أطاعت النار فكانت ﴿ بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . أحرقت قيوده فقط . وجلس إبراهيم وسطها كأنه يجلس وسط حديقة . كان يسبح بحمد ربه ويمجده . لم يكن قلبه يسع غير حب الله . لم يكن فى قلبه مكان خال يمكن أن يمتلئ بالخوف أو الرهبة أو الجزع . كان القلب مليئا بالحب وحده . ومات الخوف . . وتلاشت الرهبة . . واستحالت النار إلى سلام بارد يلطف عنه حرارة الجو . إن الذين يحبون الله مثله لا يخافون . . لا توجد الكلمة فى قواميسهم أبدا .

---

(١) الآية ٦٩ من سورة الأنبياء مكية .

جلس الدهماء والكبار والكهنة يرقبون النار من بعد . . كانت حرارتها تدفع فى وجوههم صهدا حارقا وتكاد تزهق أرواحهم . . وظلت النار تشتعل فترة طويلة حتى ظن الكافرون أنها لن تنطفىء أبدا . . فلما انطفأت فوجئوا بإبراهيم يخرج من الحفرة سليما كما دخل . وجوههم مسودة من دخان الحريق ، ووجهه يتلألأ بالنور والجلال . ثيابهم احترق نصفها بسبب ما تساقط عليها من الأخشاب الملتهبة . . وثيابه كما هى لم تحترق . . عليهم أثر الدخان والحريق ، وليس عليه أى أثر للدخان أو الحريق .

خرج إبراهيم من النار كما لو كان يخرج من حديقة . وتصاعدت صيحات الدهشة الكافرة . خسروا جولتهم خسارة مريرة وساخرة .

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾(١) .

لا يحدثنا القرآن الكريم عن عمر إبراهيم حين حطم أصنام قومه ، لا يحدثنا عن السن التى كلف فيها بالدعوة إلى الله . .

ويبدو من استقراء النصوص القديمة أن إبراهيم كان شابا صغيرا حين فعل ذلك ، بدليل قول قومه عنه :

﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾(٢) .

وكلمة الفتى تطلق على السن التى تسبق العشرين . . ويحدثنا القديس برنابا فى إنجيله أن إبراهيم حطم الأصنام قبل أن يكلفه الله تعالى بالدعوة .

يقول برنابا فى الفصل التاسع والعشرين إن إبراهيم سمع صوتا يناديه . سأل إبراهيم : من ينادينى ؟ حينئذ سمع قائلا يقول : « أنا ملاك الله جبريل » . فارتاع إبراهيم ولكن الملاك سكن روعه قائلا : لا تخف يا إبراهيم لأنك خليل الله ، فإنك لما حطمت آلهة الناس تحطيما اصطفاك إله الملائكة والأنبياء حتى إنك كتبت فى سفر الحياة .

وتمضى كلمات برنابا فيقول : إن إبراهيم تساءل ماذا يفعل ليعبد إله الملائكة والأنبياء . . ؟ وأجابه جبريل أن يذهب لهذا الينبوع ويغتسل ويصعد الجبل ليكلمه الله تعالى .

وارتقى إبراهيم الجبل وجثا على ركبتيه وناداه الله تعالى . . أجاب إبراهيم : من ينادينى ؟

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الأنبياء مكية .

(٢) من الآية ٦٠ من سورة الأنبياء مكية .

قال الله تعالى : أنا إلهك يا إبراهيم . .

وارتاع إبراهيم وسجد على الأرض معفرا وجهه وهو يقول :

ـ كيف يصغى عبدك إليك يا رب وهو تراب ورماد . . ؟ هنالك يأمره الله تعالى أن ينهض لأنه اصطفاه عبدا له ، وباركه هو ومن يتبعه . .

. . . .

هذه الرواية تحدد زمن اصطفاء إبراهيم وتكليفه بالنبوة بعد تحطيمه لعبادة الأصنام والكواكب . . ولعل هذه اللحظات المضيئة التى تجلى فيها الحق تبارك وتعالى على عبده إبراهيم هى التى تحدث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة البقرة :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (1) .

وعلى أى حال . . فإن زمن اصطفاء الله تعالى لإبراهيم غير محدد فى القرآن . . وبالتالى فنحن لا نستطيع أن نقطع فيه بجواب نهائى . .

كل ما نستطيع أن نقطع فيه برأى ، أن إبراهيم أقام الحجة على عبدة التماثيل بشكل قاطع ، كما أقامها على عبدة النجوم والكواكب من قبل بشكل حاسم ، ولم يبق إلا أن تقام الحجة على الملوك المتألهين وعبّادهم . وبذلك تقوم الحجة على جميع الكافرين .

وهكذا يرفع الستار عن هذا المشهد . إبراهيم فى حوار مع ملك يعتقد أنه إله . نقول يعتقد والله أعلم بما فى نفسه . . ربما كان قومه يعبدونه ، وهو يوافقهم على عبادته استخفافا بعقولهم ، واحتقارا لهم وحفاظا على مصالحه . . وربما كان حقا قد تصور أنه إله لأن الله آتاه الملك . نسى أنه مجرد بشر ، وطمس السلطان على قلبه فلم يعد يبصر بشريته . . لا يهم أى نوع منهما كان الملك الذى اشتبك إبراهيم معه فى حوار . . ولا ندرى هل كان ملكا على قوم إبراهيم وسمع بخبر معجزته فاستدعاه ليجادله . . أم كان ملكا آخر . . كل ما ندريه أن اللقاء بينهما أسفر عن سقوط آخر حجج القلاع الكافرة .

قال الله تعالى فى سورة البقرة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ

---

(1) الآية ١٣١ مدنية

اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١) .

تجاوز الله تعالى اسم الملك لانعدام أهميته ، كما تجاوز حقيقة مشاعره ، كما تجاوز الحوار الطويل الذى دار بين إبراهيم وبينه . . ربما قال الملك لإبراهيم : سمعت أنك تدعو لإله جديد . . قال إبراهيم : أهناك إله جديد وإله قديم ؟ ليس هناك غير إله واحد أيها الملك هو الله .

قال الملك : ما الذى يستطيع ربك أن يفعله ولا أفعله أنا ؟

كان الملك مصابا بكبرياء الملك ومرض الغرور ، وكان استسلام الناس له يزيد من إحساسه بالكبرياء والغرور . . استمع إبراهيم إلى الملك وأدرك كل شىء . وقال إبراهيم بهدوء :

﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ (٢) .

قال الملك :

﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ (٣) .

لم يتساءل إبراهيم كيف يحيى الملك ويميت . . كان يعرف أنه كاذب . . عاد الملك يقول :

ـ أستطيع أن أحضر رجلا يسير فى الشارع وأقتله ، وأستطيع أن أعفو عن محكوم عليه بالإعدام وأنجيه من الموت . . وبذلك أكون قادرا على الحياة والموت . .

ابتسم إبراهيم لسذاجة ما يقوله الملك . . وأحس الحزن فى نفسه . . غير أنه أراد أن يثبت للملك أنه يتوهم فى نفسه القدرة وهو فى الحقيقة ليس قادرا . . قال إبراهيم :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ (٤) .

استمع الملك إلى تحدى إبراهيم صامتا . . فلما انتهى كلام النبى بهت الملك . . أحس بالعجز ولم يستطع أن يجيب . . لقد أثبت له إبراهيم أنه كاذب . . قال له إن الله يأتى بالشمس من المشرق . . فهل يستطيع هو أن يأتى بها من المغرب . . إن للكون

---

(١) الآيه ٢٥٨ مدنية .
(٢) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة مدنية .
(٣) من الآيه ٢٥٨ من سورة البقرة مدنية .
(٤) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة مدنية .

نظما وقوانين يمشى طبقا لها . . قوانين خلقها الله ولا يستطيع أى مخلوق أن يتحكم فيها . . ولو كان الملك صادقا فى ادعائه الألوهية فليغيرنظام الكون وقوانينه . . ساعتها أحس الملك بالعجز . . وأخرسه التحدى . . ولم يعرف ماذا يقول ، ولا كيف يتصرف . . انصرف إبراهيم من قصر الملك ، بعد أن بهت الذى كفر . .

. . . .

انطلقت شهرة إبراهيم فى المملكة كلها . . تحدث الناس عن معجزته ونجاته من النار ، وتحدث الناس عن موقفه مع الملك وكيف أخرس الملك فلم يعرف ماذا يقول . . واستمر إبراهيم فى دعوته لله تعالى . . بذل جهده ليهدى قومه ، حاول إقناعهم بكل الوسائل ، ورغم حبه لهم وحرصه عليهم فقد غضب قومه وهجروه ، ولم يؤمن معه من قومه سوى امرأة واحدة ورجل واحد . . امرأة تسمى سارة ، وقد صارت فيما بعد زوجته ، ورجل هو لوط ، وقد صار نبيا فيما بعد . وحين أدرك إبراهيم أن أحدا لن يؤمن بدعوته . . قرر الهجرة . قبل أن يهاجر دعا والده للإيمان ، ثم تبين لإبراهيم أن والده عدو لله ، وأنه لا ينوى الإيمان ، فتبرأ منه وقطع علاقته به .

للمرة الثانية فى قصص الأنبياء نصادف هذه المفاجأة . . فى قصة نوح كان الأب نبيا والابن كافرا ، وفى قصة إبراهيم كان الأب كافرا والابن نبيا ، وفى القصتين نرى المؤمن يعلن براءته من عدو الله رغم كونه ابنه أو والده ، وكأن الله يفهمنا من خلال القصة أن العلاقة الوحيدة التى ينبغى أن تقوم عليها الروابط بين الناس . . هى علاقة الإيمان لا علاقة الميلاد أو الدم . قال تعالى فى سورة التوبة :

﴿ وما كان اسْتغْفارُ إبْراهِيمَ لأبيه إلاّ عن مّوْعدة وعَدهَا إيّاهُ فلَمّا تبيّن لهُ أنهُ عدُوٌ للّه تبرّأ منْهُ إنّ إبْراهِيمَ لأوّاهٌ حليمٌ ﴾ [1] .

خرج إبراهيم عليه السلام من بلده وبدأ هجرته .

سافر إلى مدينة تدعى أور . . ومدينة تسمى حاران . . ثم رحل إلى فلسطين ومعه زوجته . . المرأة الوحيدة التى آمنت به . . وصحب معه لوطا . . الرجل الوحيد الذى آمن به .

قال تعالى فى سورة العنكبوت :

﴿ فآمن لهُ لُوطٌ وقَالَ إنّي مُهاجِرٌ إلىٰ ربّي إنّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحكِيمُ ﴾ [2] .

---

(١) الاية ١١٤ مدنية . (٢) الآية ٢٦ مكية .

بعد فلسطين ذهب إبراهيم إلى مصر . . وطوال هذا الوقت وخلال هذه الرحلات كلها ، كان يدعو الناس إلى عبادة الله ، ويحارب فى سبيله ، ويخدم الضعفاء والفقراء ، ويعدل بين الناس ، ويهديهم إلى الحقيقة والحق .

وكانت زوجته «سارة» لا تلد . . وكان ملك مصر قد أهداها سيدة مصرية لتكون فى خدمتها ، وكان إبراهيم قد صار شبخا ، وابيض شعره خلال عمر أبيض أنفقه فى الدعوة إلى الله ، وفكرت سارة أنها وإبراهيم وحيدان ، وهى لا تنجب أولادا ، ماذا لو قدمت السيدة المصرية لتكون زوجة لزوجها ؟ وكان اسم المصرية « هاجر » وهكذا زوجت سارة سيدنا إبراهيم من هاجر ، وولدت هاجر ابنها الأول فأطلق والده عليه اسم « إسماعيل » .

كان إبراهيم شيخا حين ولدت له هاجر أول أبنائه إسماعيل .

. . . .

عاش إبراهيم فى الأرض قلبا يعبد الله ويسبح بحمده ويقدس له .

ولسنا نعرف أبعاد المسافات التى قطعها إبراهيم فى رحلته إلى الله . كان دائما . . هو المسافر إلى الله . . سواء استقر به المقام فى بيته أو حملته خطواته سائحا فى الأرض . مسافر إلى الله يعلم أنها أيام على الأرض وبعدها يجىء الموت ثم ينفخ فى الصور وتقوم قيامة الأموات ويقع البعث .

ملأ اليوم الآخر قلب إبراهيم بالسلام والحب واليقين . وأراد أن يرى يوما يد ذى الجلال الخالق وهى تعمل . . أراد أن يرى يوم القيامة قبل وقوعه . . حكى الله هذا الموقف فى سورة البقرة . . قال تعالى :

﴿ وإذْ قال إبْراهيمُ ربّ أرني كيْف تحْيي الْموْتىٰ قال أولمْ تؤْمن قال بلىٰ ولكن ليطْمئنّ قلْبي ﴾ (١) .

لا تكون هذه الرغبة فى طمأنينة القلب مع الإيمان إلا درجة من درجات الحب لله .

﴿ قال فخُذْ أرْبعة من الطّيْر فصُرْهُنّ إليْك ثُمّ اجْعلْ علىٰ كُلّ جبل مّنْهُنّ جُزْءا ثُمّ ادْعُهُنّ يأْتينك سعْيا واعْلمْ أنّ الله عزيزٌ حكيمٌ ﴾ (٢) .

---

(١) من الآيه ٢٦٠ مدنية . (٢) من الآية ٢٦٠ مدنية .

فعل إبراهيم ما أمره به الله . ذبح أربعة من الطير وفرق أجزاءها على الجبال . . ودعاها باسم الله فنهض الريش يلحق بجناحه ، وبحثت الصدور عن رءوسها ، وتطايرت أجزاء الطير مندفعة نحو الالتحام ، والتقت الضلوع بالقلوب لقاء العشاق ، وسارعت الأجزاء الذبيحة للالتئام ، ودبت الحياة فى الطير ، وجاءت طائرة مسرعة ترمى بنفسها فى أحضان إبراهيم .

اعتقد بعض المفسرين أن هذه التجربة كانت حب استطلاع من إبراهيم . . واعتقد بعضهم أنه أراد أن يرى يد ذى الجلال الخالق وهى تعمل ، فلم ير الأسلوب وإن رأى النتيجة . واعتقد بعض المفسرين أنه اكتفى بما قاله له الله ولم يذبح الطير . ونعتقد أن هذه التجربة كانت درجة من درجات الحب قطعها المسافر إلى الله ، إبراهيم .

يظل من يحب دائما فى موقع الرغبة والخشوع والاستزادة .

وإذا كان من نحب ـ سبحانه ـ يتعالى عن إدراك الأبصار . . فلتكن الرحلة تأملا فى آثاره وقدرته . . وكذلك كانت رحلة إبراهيم . وكذلك كان حبه . . يزيد عطشه كلما ارتوى . .

. . . .

استيقظ إبراهيم يوما فأمر زوجته هاجر أن تحمل ابنها وتستعد لرحلة طويلة . وبعد أيام بدأت رحلة إبراهيم مع زوجته هاجر ومعهما ابنهما إسماعيل . . وكان الطفل رضيعا لم يفطم بعد . وظل إبراهيم يسير وسط أرض مزروعة تأتى بعدها صحراء تجيء بعدها جبال . . حتى دخل إلى صحراء الجزيرة العربية ، وقصد إبراهيم واديا ليس فيه زرع ولا ثمر ولا شجر ولا طعام ولا مياه ولا شراب . كان الوادى يخلو تماما من علامات الحياة . وصل إبراهيم إلى الوادى ، وهبط من فوق ظهر دابته . . وأنزل زوجته وابنه وتركهما هناك ، ترك معهما جرابا فيه بعض الطعام ، وقليلا من الماء لا يكفى يومين . . ثم استدار وتركهما وسار . .

أسرعت خلفه زوجته وهى تقول له : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه شيء ؟ . .

لم يرد عليها سيدنا إبراهيم . . ظل يسير . . عادت تقول له ما قالته وهو صامت . . أخيرا فهمت أنه لا يتصرف هكذا من نفسه . . أدركت أن الله أمره بذلك وسألته : هل الله أمرك بهذا ؟ قال إبراهيم عليه السلام : نعم . .

قالت زوجته المؤمنة العظيمة : لن نضيع ما دام الله معنا وهو الذى أمرك بهذا . وسار إبراهيم حتى إذا أخفاه جبل عنهما وقف ورفع يديه الكريمتين إلى السماء وراح يدعو الله :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾[1].

لم يكن بيت الله قد أعيد بناؤه بعد ، لم تكن الكعبة قد بنيت ، وكانت هناك حكمة عليا فى هذه التصرفات الغامضة ، فقد كان إسماعيل الطفل الذى ترك مع أمه فى هذا المكان ، كان هذا الطفل هو الذى سيصير مسئولا مع والده عن بناء الكعبة فيما بعد . . وكانت حكمة الله تقضى أن يمتد العمران إلى هذا الوادى ، وأن يقام فيه بيت الله الذى نتجه جميعا إليه أثناء الصلاة بوجوهنا .

ترك إبراهيم زوجته وابنه الرضيع في الصحراء وعاد راجعا إلى كفاحه فى دعوة الله . . أرضعت أم إسماعيل ابنها وأحست بالعطش . . كانت الشمس ملتهبة وساخنة وتثير الإحساس بالعطش . . بعد يومين انتهى الماء تماما ، وجف لبن الأم . . وأحست هاجر وإسماعيل العطش . . كان الطعام قد انتهى هو الآخر . . وبدا الموقف صعبا وحرجا للغاية . .

بدأ إسماعيل يبكى من العطش . . وتركته أمه وانطلقت تبحث عن ماء . . راحت تمشى مسرعة حتى وصلت إلى جبل اسمه «الصفا» . . فصعدت إليه ووضعت يديها فوق جبينها لتحمى عينيها من الشمس وضيقت عينيها وراحت تبحث بهما عن بئر أو إنسان أو قافلة أو حس أو خبر . . لم يكن هناك شيء . . ونزلت مسرعة من الصفا حتى إذا وصلت إلى الوادى راحت تسعى سعى الإنسان المجهد حتى جاوزت الوادى ووصلت إلى جبل «المروة» ، فصعدت عليه ونظرت لترى أحدا لكنها لم تر أحدا . وعادت الأم إلى طفلها فوجدته يبكى وقد اشتد عطشه . . وأسرعت إلى الصفا فوقفت عليه ، وهرولت إلى المروة فنظرت من فوقه . . وراحت تذهب وتجيء سبع مرات بين الجبلين الصغيرين . . سبع مرات وهى تذهب وتعود . . ولهذا يذهب الحجاج سبع مرات ويعودون بين الصفا والمروة إحياء لذكريات أمهم الأولى ونبيهم العظيم إسماعيل . عادت هاجر بعد المرة السابعة وهى مجهدة متعبة تلهث . . وجلست بجوار ابنها الذى كان صوته قد بح من البكاء والعطش .

وفى هذه اللحظة اليائسة أدركتها رحمة الله ، وضرب إسماعيل بقدمه الأرض وهو يبكى فانفجرت تحت قدمه بئر زمزم . . وفار الماء من البئر . . أنقذت حياتا الطفل والأم . . راحت الأم تغرف الماء بيدها وهى تشكر الله . . وشربت وسقت طفلها وبدأت الحياة تدب فى المنطقة . . صدق ظنها حين قالت : لن نضيع مادام الله معنا .

---

(١) من الآية ٣٧ سورة إبراهيم مكية .

وبدأت بعض القوافل تستقر في المنطقة . . وجذب الماء الذى انفجر من بئر زمزم . . عديدا من الناس . . وبدأ العمران يبسط أجنحته على المكان .

وكبر إسماعيل قليلا . . وتعلق به قلب إبراهيم . . جاءه العقب على كبر فأحبه . . وابتلى الله تعالى إبراهيم بلاء مبينا بسبب هذا الحب . حكى الله تبارك وتعالى موقف ابتلاء إبراهيم فى سورة الصافات . قال عز وجل :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

انظر كيف يختبر الله عباده . تأمل أى نوع من أنواع الاختبار . .

نحن أمام نبى قلبه أرحم قلب فى الأرض . اتسع قلبه لحب الله وحب من خلق . . جاءه ابن على كبر . . وقد طعن هو فى السن ولا أمل هناك فى أن ينجب . . ثم ها هو ذا يستسلم للنوم فيرى فى المنام أنه يذبح ابنه وبكره ووحيده الذى ليس له غيره .

أى صراع نشب فى نفسه . أى نوع من الصراع نشب فى نفسه . يخطئ من يظن أن صراعا لم ينشأ قط . لا يكون بلاء مبينا هذا الموقف الذى يخلو من الصراع . . نشب الصراع فى نفس إبراهيم . . صراع أثارته عاطفة الأبوة الحانية . . فكر إبراهيم لماذا . . وجاءه الجواب أنه هكذا أراه الله . . ورؤيا الأنبياء حق . . لقد رأى نفسه فى المنام يذبح ولده الوحيد . . هذا وحى من الله أن يذبح و لده الوحيد .

لماذا . . ؟ أزاحها إبراهيم من تفكيره . . ليس إبراهيم هو الذى يسأل الله لماذا أو لأى سبب ؟ لا يسأل المحب لماذا . . وإبراهيم سيد العاشقين . . فكر إبراهيم فى

---

(١) الآيات من ٩٩ إلى ١١١ مكية .

ولده . . ماذا يقول عنه إذا أرقده على الأرض ليذبحه . الأفضل أن يقول لولده ليكون ذلك أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قهرا ويذبحه قهرا .

هذا أفضل . . انتهى الأمر وذهب إلى ولده :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (١) .

انظر إلى تلطفه فى إبلاغ ولده ، وترك الأمر لينظر فيه الابن بالطاعة . . إن الأمر مقضى فى نظر إبراهيم لأنه وحى من ربه . . فماذا يرى الابن الكريم فى ذلك؟ أجاب إسماعيل بن إبراهيم بنفس جواب إبراهيم . . هذا أمر يا أبى فبادر بتنفيذه . .

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) .

تأمل رد الابن . . إنسان يعرف أنه سيذبح فيمتثل للأمر الإلهى ويقدم المشيئة ويطمئن والده أنه سيجده . . ﴿ إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

هو الصبر على أى حال وعلى كل حال . وربما استعذب الابن أن يموت ذبحا بأمر من الله . . ها هو ذا إبراهيم يكتشف أن ابنه ينافسه فى حب الله . لا نعرف أى مشاعر جاشت فى نفس إبراهيم بعد استسلام ابنه الصابر . لا نعرف . .

ينقلنا الحق نقلة خاطفة فإذا إسماعيل راقد على الأرض ، وجهه فى الأرض رحمة به كيلا يرى نفسه وهو يذبح . وإذا إبراهيم يرفع يده بالسكين . . وإذا أمر الله مطاع . .

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا .. ﴾ (٣) .

استخدم القرآن هذا التعبير . ﴿ فلمَّا أسْلمَا ﴾ . هذا هو الإسلام الحقيقى . تعطى كل شىء فلا يتبقى لك منك شىء .

عندئد فقط . . وفى اللحظة التى كان السكين فيها يتهيأ لإمضاء أمره . . نادى الله إبراهيم . انتهى اختباره ، وفدى الله إسماعيل بذبح عظيم ، وصار اليوم عيدا لقوم لم يولدوا بعد . . هم المسلمون . . صارت هذه اللحظات عيدا للمسلمين . .

عيدا يذكرهم بمعنى الإسلام الحقيقى الذى كان عليه إبراهيم وإسماعيل .

ومضت قصة إبراهيم . ترك ولده إسماعيل وعاد يضرب فى أرض الله داعيا إليه ، خليلا له وحده . ومرت الأيام . . كان إبراهيم قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط

---

(١) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات مكية . (٢) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات مكية .
(٣) من الآية ١٠٣ سورة الصفات مكية .

رأسه في العراق وعبر الأردن وسكن في أرض كنعان في البادية . . ولم يكن إبراهيم ينسى خلال دعوته إلى الله أن يسأل عن أخبار لوط مع قومه ، وكان لوط أول من آمن به ، وقد أثابه الله بأن بعثه نبيا إلى قوم من الفاجرين العصاة .

. . . .

الوقت يقترب من الظهيرة . . إبراهيم بجلس خارج خيمته . . يفكر فى ولده إسماعيل وقصة الرؤيا . وفداء الله له بذبح عظيم . . قلبه يمتلئ بالخشوع والحب . . لا يعرف كيف يحصى ثناءه على ربه . . تفيض عيناه نيابة عنه فى الشكر . انحدرت قطرة كبيرة من دموع إبراهيم ، فتذكر ابتعاد إسماعيل عنه وشوقه إليه .

نفس هذه اللحظة . هبطت على الأرض أقدام ثلاثة من الملائكة : جبريل وإسرافيل وميكائيل . يتشكلون فى صور بشرية . ثلاث صور بشرية من الجمال الخارق . ساروا صامتين . مهمتهم مزدوجة . المـــرور على إبراهيـــم وتبشيره . . ثم زيارة قوم لوط ووضع حد لجرائمهم .

سار الملائكة الثلاثة قليلا . . ألقى أحدهم حصاة أمام إبراهيم . . رفع إبراهيم رأسه . . تأمل وجوههم . . لا يعرف أحدا فيهم . . بادروه بالتحية . قالوا : سلاما . قال : سلام .

نهض إبراهيم ورحب بهم . . أدخلهم بيته وهو يظن أنهم ضـيـوف وغـرباء . . أجلسهم واطمأن أنهم قد اطمأنوا ، ثم استأذن وخرج . . راغ إلى أهله .

نهضت زوجته سارة حين دخل عليها . . كانت عجوزا قد ابيض شعرها ولم يعد يتوهج بالشباب فيها غير وميض الإيمان الذى يطل من عينيها . قال إبراهيم لزوجته : زارنا ثلاثة غرباء . سألته : من يكونون ؟ قال : لا أعرف أحدا فيهم . . وجوه غريبة علـى المكـــان . . لا ريب أنهم من مكان بعيـد . . غير أن ملابسهم لا تشى بالسفر الطويل . . أى طعام جاهز لدينا ؟ قالت : نصف شاة .

قال : وهو يهم بالانصراف ـ نصف شاة . . اذبحى لهم عجلا سمينا . . هم ضيوف وغرباء . . ليست معهم دواب أو أحمـال أو طعـام . . ربمـا كانـوا جـوعى وربمـا كانوا فقراء .

اختار إبراهيم عجلا سمينا وأمر بذبحه ، فذكروا عليه اســم اللــه وذبحوه . . وبدأ شواء العجل على الحجارة الساخنة . . وأعدت المائدة . . ودعـا إبراهيم ضيوفه إلى الطعام ، وأوقف زوجته فى خدمتهم زيادة فـى الإكـرام والحفاوة . . ووضـع العجـل المشـوى أمام الضيوف .

وأشار إبراهيم بيده أن يتفضلوا باسم الله ، وبدأ هو يأكل ليشجعهم . كان إبراهيم كريما يعرف أن الله لا يتخلى عن الكرماء وربما لم يكن فى بيته غير هذا العجل ، وضيوفه ثلاثة ونصف شاة يكفيهم ويزيد ، غير أنه كان سيدا عظيم الكرم - راح إبراهيم يأكل ثم استرق النظر إلى ضيوفه ليطمئن أنهم يأكلون . لاحظ أن أحدا لا يمد يده إلى الطعام . قرب إليهم الطعام وقال : ألا تأكلون؟ عاد إلى طعامه ثم اختلس إليهم نظرة فوجدهم لا يأكلون . . رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام . . عندئذ ﴿أوجس منهم خيفة﴾ . فى تقاليد البادية التى عاش فيها إبراهيم . . كان معنى امتناع الضيوف عن الأكل أنهم يقصدون شرا بصاحب البيت .

ولاحظ إبراهيم بينه وبين نفسه أكثر من ملاحظة تؤيد غرابة ضيوفه . لاحظ أنهم دخلوا عليه فجأة . لم يرهم إلا وهم عند رأسه . لم يكن معهم دواب تحملهم ، لم تكن معهم أحمال . . وجوههم غريبة تماما عليه . كانوا مسافرين وليس عليهم أثر لتراب السفر . ثم ها هو ذا يدعوهم إلى طعامه فيجلسون إلى المائدة ولا يأكلون . . ازداد خوف إبراهيم . . رفع نظره فوجد امرأته سارة تقف فى نهاية الحجرة .

حاول أن يقول لها بنظراته الصامتة إنه خائف من ضيوفه ، فلم تفهم المرأة . . وفكر إبراهيم فى رجاله وخدمه وقومه . إن عدد ضيوفه ثلاثة . . وهم فى مقتبل الشباب ، وهو رجل عجوز وشيخ . كان الملائكة يقرءون أفكاره التى تدور فى نفسه ، دون أن يشى بها وجهه . قال له أحد الملائكة : ﴿لا تخف﴾ . رفع إبراهيم رأسه وقال بصدق عظيم وبراءة : أعترف أننى خائف . لقد دعوتكم إلى الطعام ورحبت بكم ، ولكنكم لا تمدون أيديكم إليه . هل تنوون بى شرا؟

ابتسم أحد الملائكة وقال : نحن لا نأكل يا إبراهيم . . نحن ملائكة الله . . وقد ﴿أرسلنا إلى قوم لوط﴾ .

ضحكت زوجة إبراهيم . . كانت قائمة تتابع الحوار بين زوجها وبينهم ، فضحكت .

التفت إليها أحد الملائكة وبشرها بإسحق . . يبشرك الله بإسحق . .

صكت العجوز وجهها تعجبا وقالت :

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ (١) .

عاد أحد الملائكة يقول لها :

﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (٢) .

---

(١) الآية ٧٢ سورة هود مكية .

(٢) من الآية ٧١ من سورة هود مكية .

جاشت المشاعر في قلب إبراهيم وزوجته . . شف جو الحجرة وانسحب خوف إبراهيم واحتل قلبه نوع من أنواع الفرح الغريب المختلط . . كانت زوجته العاقر تقف هي الأخرى وهي ترتجف . . إن بشارة الملائكة تهز روحها هزا عميقا . . إنها عجوز عقيم . . وزوجها شيخ كبير . . كيف . . كيف يمكن ؟

وسط هذا الجو الندي المضطرب تساءل إبراهيم :

﴿ أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ﴾ (١) .

أكان يريد أن يسمع البشارة مرة أخرى . . ؟ أكان يريد أن يطمئن قلبه ويسمع للمرة الثانية منة الله عليه؟أكان ما بنفسه شعورا بشريا يريد أن يستوثق . . ؟ ويهتز بالفرح مرتين بدلا من مرة واحدة . أكد له الملائكة أنهم بشروه بالحق . .

﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ (٢) .

﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ (٣) .

لم يفهم الملائكة إحساسه البشري ، فنهوه عن أن يكون من القانطين ، وأفهمهم أنه ليس قانطا . . إنما هو الفرح . كان رد الفعل على زوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مدهشا . . عادت للمرة الثانية تتدخل في الحديث . . تساءلت بين الذهول والدهشة :

- ﴿ أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب ﴾ .

رد الملائكة :

﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ (٤) .

لم تكن البشرى شيئا بسيطا في حياة إبراهيم وزوجته . . لم يكن لإبراهيم غير ولد واحد هو إسماعيل ، تركه هناك بعيدا في الجزيرة العربية . ولم تكن زوجته سارة قد أنجبت خلال عشرتها الطويلة لإبراهيم ، وهي التي زوجته من جاريتها هاجر . . ومن هاجر جاء إسماعيل . . أما سارة ، فلم يكن لها ولد . . وكان حنينها إلى الولد عظيما ، لم يطفئ مرور الأيام من توهجه . . ثم دخلت شيخوختها واحتضر حلمها ومات . كانت تقول : إنها مشيئة الله عز وجل .

(١) الآية ٥٤ من سورة الحجر مكية .
(٢) الآية ٥٥ من سورة الحجر مكية .
(٣) الآية ٥٦ من سورة الحجر مكية .
(٤) الآية ٧٣ من سورة هود مكية .

هكذا أراد الله لها . . وهكذا أراد لزوجها . ثم ها هى ذى فى مغيب العمر تتلقى البشارة . ستلد غلاما . .

قالت الملائكة : غلام عليم .

ليس هذا فحسب . . بشرتها الملائكة بأن ابنها سيكون له ولد تشهد مولده وتشهد حياته . . لقد صبرت طويلا ثم يئست ثم نسيت . ثم يجئ جزاء الله مفاجأة تمحو هذا كله فى لحظة . .

فاضت دموعها وهى تقف . . هزتها الفرحة فانخرطت فى بكاء صامت لا تعرف كيف طاوعتها نفسها عليه أمام غرباء . . وأحس إبراهيم عليه الصلاة والسلام بإحساس محير . . جاشت نفسه بمشاعر الرحمة والقرب ، وعاد يحس بأنه إزاء نعمة لا يعرف كيف يوفيها حقها من الشكر . وخر إبراهيم ساجدا على وجهه .

إن ابنه إسماعيل هناك . . بعيدا منه ولا يراه . . وهو موجود هناك بأمر الله . . أمره الله أن يحمله مع أمه ويتركهما فى واد غير ذى زرع وماء . هكذا بغير تفسير أو إيضاح .

وصدع إبراهيم بالأمر . . وعاش يدعو الله وحده . . والآن ، فإن الله تعالى يبشره بعد شيخوخته أنه سينجب إسحق من سارة . . ومن بعده يعقوب . انتهى الأمر واستقرت البشرى فى ذهنيهما معا . . نهض إبراهيم من سجوده فوقعت عينه على الطعام . . أحس أنه لا يستطيع أن يستمر فى الأكل من فرط فرحته . أمرخدمه أن يحملوا الطعام والتفت إلى الملائكة .

ذهب عنه خوفه ، واطمأنت حيرته ، وغادره الروع ،وسكنت قلبه البشرى التى حملوها إليه . وتذكر أنهم أرسلوا إلى قوم لوط . . ولوط ابن أخيه النازح معه من مسقط رأسه ، والساكن على مقربة منه . . وإبراهيم يعرف معنى إرسال الملائكة إلى لوط وقومه . . هذا معناه وقوع عذاب مروع . . وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودود لا تجعله يطيق هلاك قوم فى تسليم . . ربما رجع قوم لوط وأقلعوا وأسلموا وأجابوا رسولهم . . ربما حدث هذا .

وبدأ إبراهيم يجادل الملائكة فى قوم لوط . حدثهم عن احتمال إيمانهم ورجوعهم عن طريق الفجور ، وأفهمه الملائكة أن هؤلاء قوم مجرمون . . وأن مهمتهم هى إرسال حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين . . وعاد إبراهيم ، بعد أن سد الملائكة باب هذا الحوار ، عاد يحدثهم عن المؤمنين من قوم لوط . سألهم : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قال الملائكة : لا . . فراح ينقص من عدد المؤمنين ويسألهم أيهلكون القرية وفيها هذا العدد من المؤمنين . .

ردته الملائكة بقولهم : نحن أعلم بمن فيها . ثم أفهموه أن الأمر قد قضى . . وإن مشيئة الله تبارك وتعالى قد اقتضت نفاذ الأمر وهلاك قوم لوط . . أفهموا إبراهيم أن عليه أن يعرض عن هذا الحوار . . ليوفر حلمه ورحمته . . لقد جاء أمر ربه ، وتقرر عليهم ﴿ عذاب غير مردود ﴾ . . عذاب لن يرده جدال إبراهيم . .

هذا النبى الحليم الأواه المنيب . قال تعالى فى سورة هود :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾[1] .

كانت كلمة الملائكة إيذانا بنهاية الجدال . . سكت إبراهيم . وأسدل الستار على هذا المشهد . . ليرتفع عن نهاية قوم لوط . .

نستأذن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قليلا لنرى ماذا كان من أمر لوط وقوم لوط .

---

(١) الآيات من ٦٩ إلى ٧٦ مكية .

قصة لوط
[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة الشعراء :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (١) .

. . . .

بهذا الرفق الندى و الود المشفق دعا لوط قومه إلى الله .

دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن كسب السيئات والفواحش . واصطدمت دعوته بقلوب قاسية وأهواء مريضة ورفض متكبر . وكان القوم الذين بعث إليهم لوط يرتكبون عددا من الجرائم لا يتسع لها وقت أى مجرم متفرغ . كانوا يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويتواصون بالإثم ، ولا يتناهون عن منكر ، وقد زادوا فى سجل جرائمهم جريمة جديدة كل الجدة على الأرض . وظفوا طاقاتهم الإنسانية ، وروح الابتكار فى جبلتهم ، لابتكار جريمة لم يسبقهم بها أحد من العالمين .

كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء . قال تعالى فى سورة النمل :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٢) .

بم تظن قومه أجابوا إخلاصه فى النصح وصدقه معهم ؟ إجابة مبتكرة هى الأخرى كجريمتهم . .

---

(١) الآيات ١٦٠ـ١٦٣ مكية .   (٢) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ مكية .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾(١) .

أليس شيئا مبتكرا أن يجعلوا غاية المدح ذما يقتضى الطرد والإخراج ؟!

يبدو أن نفسية قوم لوط كانت معكوسة بشكل ما . . ويبدو أن ظلمهم لأنفسهم ، واستكبارهم على الحق ، قد قلبا الأشياء أمام أعينهم . . فصار الرجال أهدافا مرغوبة بدلا من النساء ، وصار النقاء والطهر جريمة تستوجب الطرد . . كانوا مرضى يرفضون الشفاء ويُقاومونه . . ولقد كانت تصرفات قوم لوط تحزن قلب لوط . . كانوا يرتكبون جريمتهم علانية فى ناديهم . . وكانوا إذا دخل المدينة غريب أو مسافر أو ضيف لم ينقذه من أيديهم أحد . . وكانوا يقولون للوط : استضف أنت النساء ودع لنا الرجال . . واستطارت شهرتهم الوبيلة ، وجاهدهم لوط جهادا عظيما ، وأقام عليهم حجته ، ومرت الأيام والشهور والسنوات ، وهو ماض فى دعوته بغير أن يؤمن له أحد . . لم يؤمن به غير أهل بيته . . حتى أهل بيته لم يؤمنوا به جميعا . .

كانت زوجته كافرة مثل زوجة نوح . .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ (٢) .

وإذا كان بيت الإنسان هو راحته التى يسكن إليها ، فقد كان لوط معذبا خارج بيته وداخل بيته . . كانت حياته عذابا متصلا ، وعنتا شديدا ، وكان صابرا على قومه . واستطالت السنوات ولم يؤمن به أحد ، بل راحوا يهزءون برسالته ويقولون له فيما يقولون :

﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣) .

لما وقع هذا يئس لوط منهم ، ودعا الله أن ينصره ويهلك المفسدين . .

خرج الملائكة من عند إبراهيم قاصدين قرية لوط . . وصلوا ساعة العصر . بلغوا أسوار سدوم . . النهر يجرى وسط أرض مشجرة خضراء . . وابنة لوط واقفة تملأ

---

(١) الآية ٥٦ من سورة النمل مكية . (٢) الآية ١٠ من سورة التحريم مدنية .

(٣) من الآية ٢٩ من سورة العنكبوت مكية .

وعاءها من مياه النهر . . رفعت وجهها فشاهدتهم . . أدهشها أن يكون فى الأرض رجال بهذا الجمال الساحر . . سألها أحد الثلاثة : يا جارية . . هل من منزل . . . ؟

قالت [وهى تذكر قومها] : مكانكم لا تدخلوا حتى أخبر أبى وآتيكم . . تركت وعاءها عند النهر وطارت مسرعة نحو أبيها . . أبتاه . . يريدك فتيان على باب المدينة . . ما رأيت مثل وجوههم قط . .

قال لوط لنفسه : ﴿ هذا يوم عصيب ﴾ . . وهرع يجرى نحو ضيوفه . .

لم يكد يراهم حتى :

﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾(١) . .

سألهم : من أين جاءوا ؟ . . وما هى وجهتهم ؟ . . فصمتوا عن إجابته . وسألوه أن يضيفهم . . استحيى منهم وسار أمامهم قليلا ثم توقف والتفت إليهم يقول :

- لا أعلم على وجه الأرض أخبث من أهل هذا البلد . .

قال كلمته ليصرفهم عن المبيت فى القرية ، غير أنهم غضوا النظر عن قوله ولم يعلقوا عليه ، وعاد يسير معهم ويلوى عنق الحديث ويقسره قسرا ويمضى به إلى أهل القرية - حدثهم أنهم خبثاء . . أنهم يخزون ضيوفهم . . حدثهم أنهم يفسدون فى الأرض . وكان الصراع يجرى داخله محاولا التوفيق بين أمرين . . صرف ضيوفه عن المبيت فى القرية دون إحراجهم ، وبغير إخلال بكرم الضيافة . . عبثا حاول إفهامهم والتلميح لهم أن يستمروا فى رحلتهم ، دون نزول بهذه القرية . .

كانوا ضيوفا فى منتهى الغرابة . . ساروا صامتين معظم الوقت . . فلما رأى إصرارهم على المبيت فى المدينة ، سألهم أن يمكثوا بهذا البستان حتى يأتى المغرب وتنزل العتمة على المدينة . . قال لنفسه : آخذهم إلى البيت بعد أن يسقط الظلام فلا يراهم أحد من أهل القرية . . وأسلمهم خارج المدينة فى الفجر . . كان حزينا . . ضيق الصدر . . أنساه الخوف والهم أن يقدم إليهم طعاما . . سقط الليل على المدينة . . صحب لوط ضيوفه الثلاثة إلى بيته . . لم يرهم من أهل المدينة أحد . . لم تكد زوجته تشهد الضيوف حتى تسللت خارجة بغير أن تشعره . .

أسرعت إلى قومها وأخبرتهم الخبر . . وانتشر الخبر مثل شرارة من الكهرباء . . وهرع قومه إليه . . قال تعالى فى سورة هود :

---

(١) الآية ٧٧ من سورة هود.

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (١) . .

ها قد تحققت نبوءة لوط . . بدأ اليوم العصيب . . ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ . . جاءوا محمومين مسرعين . . تساءل لوط بينه وبين نفسه : من الذى أخبرهم ؟ . . وتلفت باحثا عن زوجته فلم يرها . . وزاد حزنا على حزن . . وقف القوم على باب البيت . . خرج إليهم لوط متعلقا بأمل أخير . . ماذا لو ناشدهم العقل؟ . . ماذا لو حدثهم عن الفطرة السليمة؟ . . ماذا لو أيقظ داخلهم هذا الإحساس السوى الذى يوجه للجنس الآخر الذى خلقه الله ؟ . . هؤلاء بناته موجودات فى داره . . هن رمز لكل النساء فى الأرض . . والنساء أطهر للرجال من الرجال للرجال . .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ (٢) .

﴿ هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴾ . . ما الذى تعنيه هذه العبارة ؟ أراد أن يقول لهم : أمامكم النساء فى الأرض . . هن أطهر بمعانى الطهر النفسى والحسى . . هن يلبين الفطرة السوية . . ويشرن مشاعر كذلك نظيفة . . ثم هن أطهر حسيا ، حيث أعدت القدرة الخالقة للحياة الناشئة مكمنا طاهرا . .

﴿ فاتقوا الله ﴾ . . يلمس نفوسهم من جانب التقوى بعد أن لمسها من جانب الفطرة . . اتقوا الله وتذكروا أن الله يسمع ويرى . . ويغضب ويعاقب وأجدر بالعقلاء اتقاء غضبه . .

﴿ ولا تُخزون فى ضيفى﴾ . . هى محاولة يائسة للمس نخوتهم وتقاليدهم كبدو ينبغى عليهم إكرام الضيف لا فضحه . .

﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ . . أليس فيكم رجل عاقل ؟ . . إن ما تريدونه ـ لو تحقق ـ هو عين الجنون . . والعقل أولى بكم وأفضل . . إن الأمر أمر رشد وسفه . . إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة ونخوة . .

انتظر قومه حتى فرغ من موعظته القصيرة وضجوا بالضحك . . لو أنه فجر بينهم قنبلة من النكت ما فعلوا مثلما فعلوا . . لم تلمس كلماته الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا

---

(١) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ مكية .

(٢) من الآية ٧٨ من سورة هود مكية .

القلب الجامد الميت ، ولا العقل المريض الأحمق . . ظلت الفورة الشاذة على اندفاعها المحموم . .

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ (١) .

هكذا بصراحة تختبئ وراء تجهيل الأمر الذى تعرفه الدنيا كلها . . لم يقولوا له ما يريدونه لأن الدنيا تعرف ، وهو بالتالى يعرف . . إشارة سيئة إلى العمل السيئ . .

سقط فى يد لوط . . أحس ضعفه وهو غريب بين القوم . . نازح إليهم من بعيد بغير عشيرة تحميه ، ولا أولاد ذكور يدفعون عنه . . دخل لوط غاضبا وأغلق باب بيته . . وضع المزلاج فى الباب ووقف يستمع إلى الضحكات والضربات التى تنهال على الباب ، فيصر الخشب القديم صريرا مزعجا ، يوحى بأنه سيكف عن مقاومته . . وقف لوط يرتعد وراء الباب خجلا وحزنا وأسفا . . كان الغرباء الثلاثة الذين استضافهم لوط يجلسون هادئين صامتين . . يحف بهم جو من الجلال . . ودهش لوط بينه وبين نفسه من هدوئهم . . وزاد إحساسه بالألم لأنهم وثقوا به واطمأنوا إليه . . لا يعرفون أنه غير قادر على حمايتهم . . وازدادت ضربات القوم على الباب . . بدأت أخشابه تتقوس وتتجه داخل البيت وتئن . . وصرخ لوط فى لحظة يأس خانق . .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٢) ! !

تمنى أن تكون له قوة تصدهم عن ضيفه . . وتمنى لو كان له ركن شديد يحتمى فيه ويأوى إليه . . غاب عن لوط فى شدته وكربته أنه يأوى إلى ركن شديد . . ركن الله الذى لا يتخلى عن أنبيائه وأوليائه . . قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأ هذه الآية : « رحمة الله على لوط . . كان يأوى إلى ركن شديد » . .

عندما بلغ الضيق ذروته . . وقال النبى كلمته فطارت مثل عصفور يائس . . تحرك ضيوفه ونهضوا فجأة . . أفهموه أنه يأوى إلى ركن شديد . .

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ (٣) .

لا تجزع يا لوط ولا تخف . . نحن من الملائكة . . ولن يصل إليك هؤلاء القوم . . انكسر الباب فجأة ، واندفع الإعصار المحموم داخل بيت لوط . . نهض جبريل ،

---

(١) الآية ٧٩ من سورة هود مكية .
(٢) الآية ٨٠ من سورة هود مكية .
(٣) من الآية ٨١ من سورة هود مكية .

عليه السلام ، وأشار بيده إشارة سريعة ، ففقد القوم أبصارهم . . راحوا يتخبطون داخل الجدران فخرجوا من البيت وهم يظنون أنهم يدخلونه . . طمست إشارة جبريل عليه السلام أبصارهم . . قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (١) .

التفت الملائكة إلى لوط وأصدروا إليه أمرهم أن يصحب أهله أثناء الليل ويخرج . . سيسمعون أصواتا مروعة تزلزل الجبال . . لا يلتفت منهم أحد . . كى لا يصيبه ما يصيب القوم . . أى عذاب هذا ؟ . . هو عذاب من نوع غريب ، يكفى لوقوعه بالمرء مجرد النظر إليه . . أفهموه أن امرأته كانت من الغابرين . . امرأته كافرة مثلهم وستلتفت خلفها فيصيبها ما أصابهم . .

اخرج يا لوط فقد جاء أمر ربك . . سأل لوط الملائكة : أينزل العذاب بهم الآن . . أنبئوه أن موعدهم مع العذاب هو الصبح . . ﴿أليس الصبح بقريب﴾ ؟

قال تعالى :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٢) .

خرج لوط مع بناته وزوجته . . ساروا فى الليل وغذوا السير . . واقترب الصبح . . كان لوط قد ابتعد مع أهله . . ثم جاء أمر الله تعالى . .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (٣) . .

قال العلماء : اقتلع جبريل ، عليه السلام ، بطرف جناحه مدنهم السبع من قرارها البعيد . . رفعها جميعا إلى عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، قلب المدن السبع وهوى بها فى الأرض . . أثناء السقوط كانت السماء تمطرهم بحجارة من الجحيم . . حجارة صلبة قوية يتبع بعضها بعضا ، ومعلمة بأسمائهم ، ومقدرة عليهم . . استمر الجحيم يمطرهم . . وانتهى قوم لوط تماما . . لم

---

(١) الأيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة القمر مكية . (٢) من الآية ٨١ من سورة هود مكية .

(٣) الأيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة هود مكية .

يعد هناك أحد . . نكست المدن على رءوسها ، وغارت فى الأرض ، حتى انفجر الماء من الأرض . . هلك قوم لوط ومحيت مدنهم . . تحولوا إلى بحيرة من الموت . .

كان لوط يسمع أصواتا مروعة . . وكان الهواء خلفه يتمزق . . وكان يحاذر أن يلتفت خلفه . . نظرت زوجته نحو مصدر الصوت فانتهت . . تهرأ جسدها وتفتت مثل عمود ساقط من الملح . . قال تعالى عن مدن لوط :

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (١) .

هى آية لم تندثر . . يؤكد ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ (٢) . .

أى بطريق مسلوك إلى الآن .

وقوله تعالى فى الصافات :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(٣) .

يعنى أنها آية ظاهرة . . قال العلماء : إن مكان المدن السبع . . بحيرة غريبة . . ماؤها أجاج . . وكثافة الماء أعظم من كثافة مياه البحر الملحة . . وفى هذه البحيرة صخور معدنية ذائبة . . توحى بأن هذه الحجارة التى ضرب بها قوم لوط كانت شهبا مشعلة . يقال إن البحيرة الحالية التى نعرفها باسم «البحر الميت» فى فلسطين . . هى مدن قوم لوط السابقة . .

. . . .

انطوت صفحة قوم لوط . . امحت مدنهم وأسماؤهم من الأرض . . سقطوا من ذاكرة الحياة والأحياء . . وطويت صفحة من صفحات الفساد . . وتوجه لوط أول ما توجه إلى إبراهيم . . زار إبراهيم وقص عليه نبأ قومه . . وأدهشه أن إبراهيم كان يعلم . . ومضى لوط فى دعوته إلى الله . . مثلما مضى الحليم الأواه المنيب إبراهيم فى دعوته إلى الله . . مضى الاثنان ينشران الإسلام فى الأرض . .

---

(١) الأيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ من سورة الذاريات مكية .
(٢) الآية ٧٦ من سورة الحجر مكية .
(٣) الأيتان ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات مكية .

قصة إسماعيل
[عليه الصلاة والسلام]

كان إسماعيل طفلا حين بدأ سفره القاصد إلى الله . .

حملته أمه وأرقدته على الأرض . . نفس المكان الذى نعرفه الآن باسم بئر زمزم فى الكعبة . .

أيامها لم تكن البئر قد انفجرت تحت قدميه بعد . . كان المكان قفرا . . صحراء يخطف وهجها البصر . . وتمتد الرمال فيها إلى الأفق . . ويشيع اللون الأصفر على امتداد البصر . . وليست هناك قطرة ماء واحدة . .

تعلقت هاجر بثياب إبراهيم وهو يتركها مع رضيعها وينصرف . . يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى المقفر . . ؟ يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا . . ؟ يا إبراهيم أين تذهب . . ؟

راحت الأم تكرر ما تقوله ، وإبراهيم صامت لا يجيب . . لا نعرف على وجه التحقيق ماذا كان إحساس إبراهيم وهو يتركهما بواد غير ذى زرع . . غير ذى ماء . . لقد أمره الله بذلك ، وها هو ذا يصدع بالأمر راضيا . . جاء فى الإسرائيليات أن سارة زوجته الأولى أدركتها الغيرة من هاجر زوجته الثانية فاضطرته اضطرارا لإبعادها وابنها . .

ونعتقد أن هذه القصة موضوعة . . إن تأمل شخصية إبراهيم يقطع بأنه لم يكن يتلقى أوامره من أحد غير الله . .

لا نحسب أنه كان يلتفت لمشاعر الغيرة الأنثوية ، ولا نحسب أنه كان يتصرف بشكل يثير هذه المشاعر ، ولا نحسب أن شخصية سارة نفسها كانت تدور حول ذاتها أنانية . . لقد زوجته من جاريتها هاجر لينجب ، كانت تعلم أنها عجوز عقيم . . زوجته بنفسها وقامت على خدمته . . ومنحت كل وجودها لرجل ليس فى قلبه مكان لحب أحد غير حب خالقه . .

نستبعد أن تكون سارة مسئولة عن رحلة إسماعيل وأمه إلى الجزيرة العربية . . قال الله تعالى عن سارة وهاجر :

﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾(١) . .

ليس الأمر أمر غيرة نسائية . . إنما هو تكليف إلهى أخفيت حكمته ، ولعل سارة دهشت أكثر مما دهشت هاجر ، حين أمرها إبراهيم أن تحمل ابنها إسماعيل وتتبعه . . إلى أين يا إبراهيم ؟

ربما تساءلت هاجر فى البداية ، وربما تساءلت سارة هى الأخرى . . صمت إبراهيم ، فصمتت المرأتان . . ثمة حكمة خافية لا يريد إبراهيم أن يفصح عنها . . لم يفصح له الله عنها ، فهو لا يدرى مثلهما ، وإذن فهما تصمتان بأدب زوجات الأنبياء . .

ها هو ذا الستار يرتفع عن هاجر وهى وحيدة مع ابنها فى الوادى المهجور الخالى ، الجدب . . ها هو ذا إسماعيل رضيعا يبدأ أولى رحلاته إلى الله . . بلاء له وهو طفل . . وبلاء لأبيه وهو شيخ جاءه الطفل على كبر . .

لكنك يا إبراهيم تعلم أن ليس للإنسان فى نفسه شىء . . ومن يحب الله يمنح نفسه لله ، ويمنح ما تحبه نفسه لله بغير سؤال . . ذلك قانون من قوانين الحب العريقة ، تذوب الأسئلة عندما نحب . . ترتفع أعلام الطاعة فحسب . .

لا نعتقد أن إبراهيم كان يعلم لماذا يترك إسماعيل وأمه فى هذا المكان . . لا نظن أن الله تعالى قد أخبره . .

إنما أصدر الله أمره فحسب . . وأطاع إبراهيم فحسب . . هنا تبدو شدة البلاء وصعوبته . . وهنا يكشف الحب عن أعمق أعماقه ، وأعظم أصالته . . يمتحن الله خليله إبراهيم . . يمتحنه فى أحب ما يعتبره الآباء أحب شىء لديهم . . وليس معنى حب الله لإبراهيم ، وحب إبراهيم لله ، أن إبراهيم كان خلوا من المشاعر الإنسانية . . إن طاقته على الحب الإلهى تعنى أنه كان بحرا من المشاعر الإنسانية ، بحرا بغير شطآن . .

كان إحساسه بإسماعيل أعظم وأرق وأحنى من إحساس أى والد بابنه ، ورغم ذلك ألقاه على الأرض فى مكان مهلك ، لأن الله أمره بذلك . .

قام الصراع فى نفسه ، واجتاز محنته ، واختار ربه على ولده . . حين أحب إبراهيم

---

(١) الآية ٧٣ من سورة هود مكية .

ابنه أكثر مما ينبغى ، أمره الله بذبحه . . لا يريد الله أغيارا فى قلب أنبيائه . . من أحب الله فعليه أن يكون محبا في الحقيقة ، والمحب فى الحقيقة من يملأ قلبه حب خالقه وحده .

ورث إسماعيل حلم أبيه . . دعا إبراهيم ربه من قبل :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

قال تعالى :

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ (٢) . .

نفس حلم أبيه . . نفس صلاحه ، وتقواه ، وأدب النبوة . .

التقى إسماعيل بأول محنة له وهو طفل . . وانتهت المحنة بأن فجر الله تحت قدميه زمزم لتشرب الأم ، ويرضع الوليد . . والتقى إسماعيل بالمحنة الثانية فى حياته وهو شاب . .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾(٣) . .

بم تظن الابن أجاب ؟ . . لم يسأل ماذا كانت صفات الرؤيا . . لم يستوثق أهى رؤيا أم مجرد حلم ، لم يناقش والده فى رؤياه . . كل ما قاله :

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾(٤) . .

لا تقلق من جهتى ، ولا يدركك الأسى والجزع . .

﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٥) . .

هكذا يوجه الابن الصالح والده الصالح إلى الصبر . . إن صاحب الشأن . . إن الضحية والذبيح نفسه صابر ، والأولى بالأب أن يصبر . . هو سباق بينهما أيهما يصبر أكثر . . سباق غايته الله . . قال تعالى فى سورة مريم :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (٦) .

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة الصافات مكية . (٢) الآية ١٠١ من سورة الصافات مكية .

(٣ ، ٤ ، ٥) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات مكية . (٦) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ مكية .

بيت الله تعالى

عاش إسماعيل فى شبه الجزيرة العربية ما شاء الله له أن يعيش . . روض الخيل واستأنسها واستخدمها ، وساعدت مياه زمزم على سكنى المنطقة وتعميرها . .

استقرت بها بعض القوافل . . وسكنتها القبائل . . وكبر إسماعيل وتزوج ، وزاره إبراهيم فلم يجده فى بيته ووجد امرأته . . سألها عن عيشهم وحالهم ، فشكت إليه من الضيق والشدة . . قال لها إبراهيم : إذا جاء زوجك مريه أن يغير عتبة بابه . . فلما جاء إسماعيل ، ووصفت له زوجته الرجل . . قال : هذا أبى وهو يأمرنى بفراقك . . الحقى بأهلك . .

وتزوج إسماعيل امرأة ثانية . . زارها إبراهيم ، يسألها عن حالها ، فحدثته أنهم فى نعمة وخير . . وطاب صدر إبراهيم بهذه الزوجة لابنه . . ولعل إبراهيم هنا كان يتصرف بحدس داخلى ونور كاشف . . إن إبراهيم يهيئ إسماعيل لمهمة عظمى . . وهى مهمة تحتاج إلى جهده الإنسانى كله ووقته كله وراحته كلها . . ولو كان إسماعيل منغصا فى بيته لضاع نصف مجهوده . . إنه يفرغه لمهمة لم يكشف عنها الستار بعد . .

كبر إسماعيل . . وبلغ أشده . . وجاءه إبراهيم . . جاءت اللحظة المناسبة لتبرير حكمة الله فيما وقع من أمور غامضة . . قال إبراهيم لإسماعيل : يا إسماعيل . . إن الله أمرنى بأمر . .

حين جاءه أمر ذبحه عرض عليه الأمر صراحة ، وها هو ذا الآن يعرض عليه الأمر مبهما ليحصل على موثق منه أن يعينه فيه . . نحن أمام أمر أخطر من الذبح والتضحية . . أمر لا يمس ذات النبى ، وإنما يمس ملايين الخلق . .

قال إسماعيل : فاصنع ما أمرك به ربك . . قال إبراهيم : وتعيننى ؟ قال : وأعينك . .

قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هنا بيتا . .

أشار بيده لصحن منخفض هناك . . انتهى الأمر . . وصدر الأمر ببناء بيت الله الحرام . . هو أول بيت وضع للناس فى الأرض . . وهو أول بيت عبد فيه الإنسان

ربه . . ولما كان آدم هو أول إنسان هبط إلى الأرض . . فإليه يرجع فضل بنائه أول مرة . . قال العلماء : إن آدم بناه وراح يطوف حوله مثلما يطوف الملائكة حول عرش الله تعالى . .

بنى آدم خيمة يعبد فيها الله . . شيء طبيعي أن يبني آدم - بوصفه نبيا - بيتا لعبادة ربه . . وحفت الرحمة بهذا المكان . . ثم مات آدم ومرت القرون ، وطال عليه العهد فضاع أثر البيت وخفي مكانه . . وها هو ذا إبراهيم يتلقى الأمر ببنائه مرة ثانية . . ليظل في المرة الثانية قائما إلى يوم القيامة إن شاء الله . .

وبدأ بناء الكعبة . . والكعبة مجموعة من الحجارة التي لا تضر ولا تنفع . . ولا تزيد على غيرها من الحجارة ولا تقل ، لكنها رغم ذلك رمز للتوحيد الإسلامي ، وتنزيه الله . . كان آدم على التوحيد الرفيع والإسلام والتنزيه المطلق . . وكان إبراهيم حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين . .

ولقد بنيت حجارتها من طمأنينة قلب آدم ، وسكينة إبراهيم وحبه ، وحلم إسماعيل وصدقه . . لا تكاد تدخل المسجد الحرام حتى يفيض داخلك تيار من الأمن العميق والسلام . . تشف ذاتك . . تدور حول الكعبة . . مثل حركة الذرات وهي تمضي حول النواة . .

سلام عظيم يملأ المكان والزمان ، ويملؤك كجزء من المكان والزمان . . قد ترى نفسك في المرة الأولى ولا ترى البيت ولا ربه . . . وربما رأيت البيت في المرة الثانية ، ولم تر نفسك ولا ربك . . فإذا ذهبت إلى الحج ، فلم تر نفسك ولا البيت . . ورأيت رب البيت وحده ، فهذا هو الحج الحقيقي . . وهذه هي الحكمة الأولى من بناء الكعبة . . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1] . .

---

(١) الآيات ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، من سورة البقرة مدنية .

الكعبة حجرة جبارة من الحجارة . . تمتد فى الأرض لعمق الأساس القديم الذى حفره إبراهيم وإسماعيل . . هدمت فى التاريخ أكثر من مرة ، وكان بناؤها يعاد فى كل مرة . . فهى باقية منذ عهد إبراهيم إلى اليوم . . وحين بعث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تحقيقا لدعوة إبراهيم . . وجد الرسول الكعبة حيث بنيت آخر مرة ، وقد قصر الجهد بمن بناها فلم يحفر أساسها كما حفره إبراهيم . .

نفهم من هذا أن إبراهيم وإسماعيل بذلا فيها وحدهما جهدا استحالت ـ بعد ذلك ـ محاكاته على آلاف الرجال . . ولقد صرح الرسول بأنه يحب هدمها وإعادتها إلى أساس إبراهيم ، لولا قرب عهد القوم بالجاهلية ، وخشيته أن يفتن الناس هدمها وبناؤها من جديد . . بناؤها بحيث تصل إلى قواعد إبراهيم وإسماعيل . .

أى جهد شاق بذله النبيان الكريمان وحدهما ؟ كان عليهما حفر الأساس لعمق غائر فى الأرض ، وكان عليهما قطع الحجارة من الجبال البعيدة والقريبة ، ونقلها بعد ذلك ، وتسويتها ، وبناؤها ، وتعليتها . . وكان الأمر يستوجب جهد جيل من الرجال ، ولكنهما بنياها معا .

لا نعرف كم هو الوقت الذى استغرقه بناء الكعبة ، كما نجهل الوقت الذى استغرقه بناء سفينة نوح ، المهم أن سفينة نوح والكعبة كانتا معًا ملاذا للناس ومثوبة وأمنا . . والكعبة هى سفينة نوح الثابتة على الأرض أبدا . . وهى تنتظر الراغبين فى النجاة من هول الطوفان دائما . .

لم يحدثنا الله عن زمن بناء الكعبة . . حدثنا عن أمر أخطر وأجدى . . حدثنا عن تجرد نفسية من كان يبنيها . . ودعائه وهو يبنيها . .

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(١) .

ها هو ذا الرمز يسفر عن أقنعته الشفافة لنرى وجه الحقيقة الخالد وراءه . . الغرض الأصلى هو الرجوع إلى الله . . أن يتقبل السميع العليم . . وتلك غاية إخلاص المخلصين . . وطاعة الطائعين . . وخوف الخائفين . . وعشق العاشقين . .

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (٢) .

إن أعظم مسلمين على وجه الأرض يومها يدعوان الله أن يجعلهما مسلمين له . . يعرفان أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ـ سبحانه ـ ولا يأمن أحدهما مكر

---

(١) من الآية ١٢٧ سورة البقرة مدنية . (٢) من الآية ١٢٨ سورة البقرة مدنية .

الله تعالى ، وهما يعبدان الله أصفى ما تكون العبادة ، ويبنيان بيته المعمور ، ويسألانه أن يتقبل عملهما . . ويسألانه بعدها الإسلام وتبلغ الرحمة بهما أن يسألا الله أن يخرج من ذريتهما أمة مسلمة له سبحانه . . يريدان أن يزيد عدد العابدين الموجودين والطائفين والركع السجود . .

إن دعوة إبراهيم وإسماعيل تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن . . إنه يبنى لله بيته ، ومع هذا يشغله أمر العقيدة . . ذلك إيحاء بأن البيت رمز العقيدة . .

﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

أرنا أسلوب العبادة الذى ترضاه . . أرنا كيف تحب أن نعبدك فى الأرض . . وتب علينا . . إنك أنت التواب الرحيم . .

بعدها يتجاوز اهتمامهما هذا الزمن الذى يعيشان فيه . . يجاوزانه بالحدس ويدعوان الله . .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) . .

تحققت هذه الدعوة الأخيرة . . حين بعث محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم . . تحققت بعد أزمنة وأزمنة . .

انتهى بناء البيت ، وأراد إبراهيم حجرا مميزا ، يكون علامة خاصة يبدأ منها الطواف حول الكعبة . . أمر إبراهيم إسماعيل أن يأتيه بحجر مميز يختلف عن لون حجارة الكعبة . .

كان إسماعيل قد بذل جهدا فوق طاقة البشر . . كان جسده محطما من العمل . . وسار على قدر ما وسعه الجهد ، تلبية لأمر والده . . حين عاد ، كان إبراهيم قد وضع الحجر الأسود فى مكانه . . من الذى أحضره إليك يا أبت ؟ قال إبراهيم : أحضره جبريل عليه السلام . .

انتهى بناء الكعبة . . وبدأ طواف الموحدين والمسلمين حولها . . ووقف إبراهيم يدعو ربه نفس دعائه من قبل . . أن يجعل ﴿ أفئدة من الناس تهوى ﴾ إلى المكان . . قال تعالى :

---

(١) من الآية ١٢٨ سورة البقرة مدنية . (٢) الآية ١٢٩ سورة البقرة مدنية .

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ (١) . .

انظر إلى التعبير . . إن الهوى يصور انحدارا لا يقاوم نحو شيء . . وقمة ذلك هوى الكعبة . .

من هذه الدعوة ولد الهوى العميق فى نفوس المسلمين ، رغبة فى زيارة البيت الحرام . .

وصار كل من يزور المسجد الحرام ويعود إلى بلده . . يحس أنه يزداد عطشا كلما ازداد ريا منه ، ويعمق حنينه إليه كلما بعد منه ، وتجيء أوقات الحج فى كل عام . . فينشب الهوى الغامض أظافره فى القلب نزوعا إلى رؤية البيت ، وعطشا إلى بئر زمزم . .

وأخطر من هذا وذاك . . ودا عميقا لرب البيت والبئر . . رب العالمين . .

. . . .

قال تعالى حين جادل المجادلون فى إبراهيم وإسماعيل :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) . .

عليه الصلاة والسلام . . استجاب الله دعاءه . . وكان إبراهيم أول من سمانا المسلمين . .

قال تعالى فى سورة الحج :

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (٣) .

---

(١) من الآية ٣٧ من سورة إبراهيم مكية .
(٢) الآية ٦٧ من سورة آل عمران مدنية .
(٣) من الآية ٧٨ مدنية .

قصة إسحاق ويعقوب
[عليهما الصلاة والسلام]

لا يذكر القرآن الكريم غير ومضات سريعة عن قصة إسحق . . كان ميلاده حدثا خارقا ، بشرت به الملائكة ، وورد فى البشرى اسم ابنه يعقوب . . وقد جاء ميلاده بعد سنوات من ولادة أخيه إسماعيل الذى لم تكتحل به عين الأب طوال طفولته . . ولقد قر قلب سارة بمولد إسحق ومولد ابنه يعقوب ، عليهما الصلاة والسلام . . غير أننا لا نعرف كيف كانت حياة إسحق ، ولا نعرف بماذا أجابه قومه . . كل ما نعرفه أن الله أثنى عليه كنبى من الصالحين . .

أما يعقوب فأول نبى من صلبه . وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . . إسمه إسرائيل . . كان نبيا إلى قومه . . ذكر الله تعالى ثلاثة أجزاء من قصته . . بشارة ميلاده . . وقد بشر الملائكة به إبراهيم جده . . وسارة جدته . . أيضا ذكر الله تعالى وصيته عند وفاته . . وسيذكره الله فيما بعد - بغير إشارة لا سمه - فى قصة يوسف . .

نعرف مقدار تقواه من هذه الإشارة السريعة إلى وفاته . . نعلم أن الموت كارثة تدهم الإنسان فتنسيه رسمه ، ولا يذكر غير همه ومصيبته . . غير أن يعقوب لا ينسى وهو يموت أن يدعو إلى ربه . . قال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) . .

إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه فى ساعة الموت ولحظات الاحتضار ، مشهد عظيم الدلالة . . نحن أمام ميت يحتضر . . ما القضية التى تشغل باله ساعة الاحتضار . . . ؟ ما الأفكار التى تعبر ذهنه الذى يتهيأ للانزلاق مع سكرات الموت . . . ؟ ما الأمر

---

(١) الآية ١٣٣ من سورة البقرة مدنية .

الخطير الذى يريد أن يطمئن عليه قبل موته . . . ؟ ما التركة التى يريد أن يخلفها لأبنائه وأحفاده . . . ؟ ما الشىء الذى يريد أن يطمئن ـ قبل موته ـ على سلامة وصوله للناس . . كل الناس . . . ؟

ستجد الجواب عن هذه الأسئلة كلها فى سؤاله هو :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾ (١) .

هذا ما يشغله ويؤرقه ويقلقه ويحرص عليه فى سكرات الموت . . قضية الإيمان بالله . .

هى القضية الأولى والوحيدة ، وهى الميراث الحقيقى الذى لا ينخره السوس ولا يفسده . . وهى الذخر والملاذ . .

قال أبناء إسرائيل : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ، ونحن له مسلمون . . والنص قاطع فى أنهم بعثوا على الإسلام . . إن خرجوا عنه ، خرجوا من رحمة الله . . وإن ظلوا فيه ، أدركتهم الرحمة .

. . . .

مات يعقوب وهو يسأل أبناءه عن الإسلام ، ويطمئن على عقيدتهم . . وقبل موته ، ابتلى بلاء شديدا فى ابنه يوسف . .

وكان يوسف نبيا مثل يعقوب . . وقد أرسله الله تعالى إلى أهل مصر . .

---

(١) الآية ١٣٣ من سورة البقرة مدنية .

قصة يوسف
[عليه الصلاة والسلام]

أنزلت قصة يوسف فى القرآن الكريم فى سورة كاملة بالاسم نفسه . . روى فى أسباب نزولها أن اليهود سألوا الرسول أن يحكى لهم عن يوسف . . أحد أنبيائهم القدامى . . وكانت قصته تهرأت فى أجزاء وبليت فى أجزاء وأضيفت إليها أجزاء ونقصت منها أجزاء . . فنزلت فى كتاب الله كاملة بتفصيلاتها الصغيرة الدقيقة . . قال تعالى فى سورة يوسف :

﴿ نحْنُ نقُصُّ عليْك أحْسن الْقصص بما أوْحيْنا إليْك هذا الْقُرْآن وإن كُنت من قبْله لمن الْغافلين ﴾ (١) . .

واختلف العلماء لم سميت هذه القصة أحسن القصص ؟ قيل إنها تنفرد من بين قصص القرآن باحتوائها على عالم كامل من العبر والحكم . . وقيل لأن يوسف تجاوز عن إخوته وصبر عليهم وعفا عنهم . . وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين ، والعفة والغواية ، وسير الملوك والممالك ، والرجال والنساء ، وحيل النساء ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه ، وتعبير الرؤيا وتفسيرها ، فهى سورة غنية بالمشاهد والانفعالات . . وقيل : إنها سميت أحسن القصص لأن مال من كانوا فيها جميعا كان إلى السعادة . .

ومع تقديرنا لهذه الأسباب كلها . . نعتقد أن ثمة سببا مهما يميز هذه القصة . . إنها تمضى فى خط واحد منذ البداية إلى النهاية . . يلتحم مضمونها وشكلها ، ويفضى بك لإحساس عميق بقهر الله وغلبته ونفاذ أحكامه رغم وقوف البشر ضدها . .

﴿ واللّهُ غالبٌ علىٰ أمْره . . ﴾ (٢) .

---

(١) الآية ٣ مدنية .

(٢) من الاية ٢١ من سورة يوسف مكية .

هـذا ما تثبته قصة يوسف بشكل حاسم ، لا ينفى حسمه أنه تم بنعومة وإعجاز .

لقد تعرض يوسف طوال حياته لمؤامرات كانت تأتيه من ألصق الناس به . . إخوته . . كاد له إخوته جريمة قتل للتخلص منه ، ثم عدلوا عنها واختاروا نفيه . . وقع هذا وهو صبى . . وبيع يوسف فى سوق العبيد فى مصر ، واشتراه من اشتراه بثمن بخس . . ثم تعرض لإغواء زوجة رجل مهم . . فلما رفض إغواءها ألقى به فى السجن . . وظل سجينا فترة . . ورغم هذا الهوان كله ، فقد وصل أخيرا إلى حكم مصر . . اعتلى عرشها وصار وزير الملك الأول . . وبدأ دعوته إلى الله من موقع السلطة الحاكمة . . ونفذ تدبير الله ، وقضى أمره . .

هذا مضمون القصة . . أما الشكل الذى قدمت به فكان آية فى العجب . . قدمت القصة صورا متعاقبة مثل فيلم سينمائى معجز . . يسلمك المشهد إلى المشهد ، ويجىء النقل أو القطع موحيا ذكيا مثيرا للخيال ، وثمة فجوات فنية تترك لخيال المشاهد أن يكملها هو ، وثمة عمق فى الصورة يعجز أى فنان بشرى أن يأتى بمثله . .

والقصة تبدأ بحلم . . وتنتهى بتفسير هذا الحلم . .

وليس حلم الأنبياء غير رؤيا صادقة يكشف الله لهم فيها أحداثا لم تقع بعد . . غير أننا فى بداية القصة لا نعرف أن يوسف نبى . . أيضا يخفى السياق القرآنى اسم أبيه ، وهو يعقوب ، كما حدث المصطفى ، عليه الصلاة والسلام . .

من حقنا إذن أن نتأمل الحلم بالدهشة . . تضىء شاشة العقل أول ما تضىء بمشهد حلم . . وانظر إلى تحدى الفيلم الذى يبدأ بحلم . . إن الحلم مرادف للنوم . . وبداية أى قصة بالنوم أمر يوحي بالنعاس . . غير أن ما يقتضى الانصراف هو نفسه أحد أسباب جاذبية القصة ، وأحد عوامل جذبها . . يتجاوز القرآن الحلم إلى مشهد يوسف وهو صبى صغير يحدث والده عن رؤياه . .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَت إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (١) .

تصور نوع التحدى الذى يفرضه وجود الحلم على المخيلة ، وتأمل طاقة الخيال كيف تنشط لتصوره . . إن الذهن البشرى مطالب بأن يخلق داخله صورة لسجود الشمس والقمر والكواكب . . ليستطيع أن يمضى فى القصة . . بهذه الصورة المعجزة التى

---

(١) الآية ٤ من سورة يوسف مكية .

تتحدى خيال أعظم الفنانين السينمائيين . . تبدأ قصة يوسف . . أو يبدأ الشريط المرئى من قصة يوسف كما عرضه الله تبارك وتعالى فى كتابه . .

رأى يوسف حلما . . وها هو ذا يحكيه الآن لأبيه . .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

حذر الأب ولده أن يظهر رؤياه لإخوته . . إن إخوة يوسف لا يحبونه ، ولا يحبون التصاقه بأبيه ، وينكرون امتلاء قلب الأب به . . لم يكن يوسف أخا شقيقا لهم ، تزوج يعقوب زوجة ثانية غير التى أنجبت له أبناءه ، وأنجب منها يوسف وشقيقا له . . ويوسف بن يعقوب ، ويعقوب بن إسحق ، وإسحق بن إبراهيم . . حلقات طاهرة فى سلسلة طاهرة . .

ويحس يعقوب من رؤيا ابنه أنه سيكون له شأن . . بحكم جو النبوة الذى يحيط به . . وبحكم نقائه الداخلى وشفافيته . .

يقول بعض العلماء : أحس يعقوب أن الله يختار يوسف بهذه الرؤيا . .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ (٢) .

وكذلك يختارك ربك . . كذلك يصطفيك .

﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (٣) .

معنى التأويل هو معرفة المآل ، وكشف النتيجة . . وإدراك أسرار لم تقع بعد . . فما الأحاديث ؟

قالوا إنها الرؤى والأحلام . . سيستطيع يوسف فيما بعد أن يفسر الأحلام والرؤى فيرى من رموزها الغامضة ما سيقع من أحداث . . وقالوا إن الأحاديث هى الأحداث . . سيعرف مآل الأحداث التى تنتهى إليه من بداياتها وأوائلها . . سيلهمه الله إلهاما أن يعرف . .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤) .

---

(١) من الآية ٥ من سورة يوسف مكية .
(٢) من الآية ٦ من سورة يوسف مكية
(٣) من الآية نفسها .
(٤) من الآية نفسها .

رد النبى العلم والحكمة إلى الله فى ختام حديثه . . فجاء ذلك مناسبا للبدء . .

. . . .

وفى العلماء من يقول إن الآية السابقة ليست جزءا من حوار يعقوب مع ابنه يوسف . . وإنما هى ثناء من الله تعالى على يوسف . . أدخلت فى نسيج القصة منذ بدايتها . . وهى ليست منها . . فالمفروض ألا يعرف يوسف ويعقوب تأويل الحلم وتفسيره منذ البداية . . ونحن نختار هذا الرأى [ذهب إليه القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن] . .

وإذن نفهم الحوار فهما آخر . . إن الله يتحدث هنا عن اختياره ليوسف . . وهذا يعنى نبوة يوسف . . وليس تعليمه تأويل الأحاديث ، وإطلاعه على حقائق الرموز التى تقع فى الحياة أو الحلم ، غير معجزات له كنبى . . والله أعلم حيث يجعل رسالته . . تجد حكمته أسبابها ، وعلمه محيط . .

استمع الأب إلى رؤيا ابنه وحذره أن يحكيها لإخوته . .

استجاب يوسف لتحذير أبيه . . لم يحدث إخوته بما رأى ، وأغلب الظن أنهم كانوا يكرهونه إلى الحد الذى يصعب فيه أن يطمئن إليهم ويحكى لهم دخائله الخاصة وأحلامه . .

يختفى مشهد يعقوب وابنه . . وتضيء الشاشة بمشهد آخر . . ثمة قطع ونقلة . . ها هم أولاء إخوة يوسف يتآمرون عليه . .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٨ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝٩ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (١) .

تقول أوراق العهد القديم إن يوسف حدثهم عن رؤياه . . ولا يفيد السياق القرآنى أن ذلك وقع . . ولو وقع لجاء ذكره على ألسنتهم . . ولكان أدعى أن يهيج حقدهم عليه فيقتلوه . . إن يوسف استسلم لأمر أبيه ولم يحدث إخوته عن رؤياه . . ومع ذلك

---

(١) الآيات ٧ـ١٠ من سورة يوسف مكية .

جلس الإخوة يكيدون له ويدبرون له مؤامرة . . ذلك أدعى لاتصافهم بالظلم . . قال أحدهم : لماذا يحب أبونا يوسف أكثر منا ؟ قال الثانى : ربما لجماله . . قال الثالث : يوسف وأخوه . . احتل الاثنان قلب الأب . . قال الأول : ضل أبونا ضلالا مبينا . .

اقترح أحدهم حلا للموضوع . . ﴿ اقتلوا يوسف﴾ . .

لماذا نقتله . . ؟ نبعده عن هذه الأرض . . نطرحه فى أرض بعيدة . . ولماذا لا نقتله ونستريح . . ؟ نريد أن يخلو لنا وجه أبينا . .

قال قائل منهم ـ حرك الله أعماقه بشفقة خفية ، أو أثار الله فى أعماقه رعبا مهولا من القتل . قال هذا القائل : ما الداعى لقتله . . ؟ أنتم تريدون الخلاص منه . . عظيم جدا . . تعالوا نلقه في بئر تمر عليها القوافل . . ستلتقطه قافلة وترحل به بعيدا . . سيختفى عن وجه أبيه . . ويتحقق غرضنا من إبعاده . . ثم نتوب بعد ذلك من جريمتنا ونعود قوما صالحين .

استمر الحوار بعد فكرة البئر . . غير أنه كان يعود إليها كحلّ من أسلم الحلول . . انهزمت فكرة القتل ، واختيرت فكرة النفى والإبعاد . . كانت أذكى فكرة . .

نفهم من هذا أن الإخوة ، رغم شرهم وحسدهم ، كان فى قلوبهم ، أو فى قلوب بعضهم ، بعض خير لم يمت بعد . .

استقر الرأى على إلقائه فى البئر والتخلص منه . . وتم الاتفاق على موعد التنفيذ . .

وها هى ذى النقلة التالية تكشف عن مشهد جديد بينهم وبين الأب . .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ (١) . .

دار الحوار بينهم وبين أبيهم بنعومة وعتاب خفى ، وإثارة للمشاعر . . ﴿ ما لك لا تأمنا على يوسف ﴾ . . ؟

أيمكن أن يكون يوسف أخانا ، وأنت تخاف عليه بيننا ولا تستأمننا عليه ، ونحن نحبه وننصح له ونرعاه . . ؟ لماذا لا ترسله معنا غدا يرتع ويلعب . . ؟ أفضل لصحته

---

(١) الآيات من ١١ إلى ١٤ من سورة يوسف مكية .

الخروج واللعب والانطلاق . . انظر إلى وجهه الأصفر من فرط البقاء فى البيت . . إن لون الطفل يشحب لأنه لا يمارس فى طفولته اللعب . .

وأثار يعقوب نقطة لم ترد فى حوارهم . . المسألة أنه يخاف عليه من ذئاب الصحراء . . أكان يقصد الذئاب الداخلية فيهم ، أم ذئاب الوحوش . . ؟ لا أحد يدرى . .

وراودوه عن اصطحاب يوسف ، وفندوا فكرة الذئب الذى يخاف أبوه أن يأكله . . أهذا معقول ؟ . . نحن عشرة من الرجال . . فهل نغفل عنه ونحن كثرة ؟ . . نكون خاسرين غير أهل للرجولة لو وقع ذلك . . لن يأكله الذئب ولا داعى للخوف عليه . .

وافق الأب تحت ضغط أبنائه . .

صحبوا يوسف فى اليوم التالى وذهبوا به إلى الصحراء . ابتعدوا أكثر مما يفعلون فى كل مرة . . اختاروا بئرا لا ينقطع عنها مرور القوافل وحملوه وهموا بإلقائه فى البئر . . وأوحى الله إلى يوسف أنه ناج فلا يخاف . . وأنه سيلقاهم بعد يومهم هذا وينبئهم بما فعلوه . .

يذوب المشهد ويضيء مشهد آخر . .

ثمة فجوة هنا . . لا نراهم وهم يلقون يوسف فى البئر . . نستطيع أن نتخيل أنه قاومهم فضربوه . . أمروه أن يخلع قميصه وألقوه عاريا فى البئر . . ثم أوحى الله إليه أنه ناج فلا يجزع . . كان فى البئر ماء فتلقى جسم يوسف فلم يصب بسوء . . جلس وحده فى مياه البئر ثم تعلق بصخرة ناتئة واعتلاها . .

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ (١) . .

المشهد هنا ليل خارجى أسود . . يقطعه صوت بكاء عشرة رجال . . والأب يجلس فى بيته فيدخل عليه أبناؤه أثناء الليل . . حيث تخفى ظلمة الليل ظلمة القلوب ، وظلمة الأكذوبة التى تتهيأ للظهور . . تساءل يعقوب : لماذا تبكون ؟ . . هل جرى فى الغنم شيء ؟ . . قالوا وهم يزدادون بكاء :

﴿ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (٢) . .

---

(١) الآية ١٦ من سورة يوسف مكية .

(٢) الآية ١٧ من سورة يوسف مكية .

فوجئنا بعد عودتنا من السباق بأن يوسف قد استقر في بطن الذئب . . لم نجد يوسف . . إنك لن تصدقنا ولو كنا صادقين ، ولكننا نحكي لك ما حدث . . لا نكذب عليك . . لقد أكل يوسف ذئب . . هـا هـو ذا قميص يوسف . . وجدنا القميص ملطخا بالدم ولم نجد يوسف .

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ (١) .

ذبحوا شاة أو غزالا ولطخوا قميص يوسف بالدم الكاذب ، ونسوا في انفعالهم أن يمزقوا قميص يوسف . . جاءوا بالقميص كما هو سليما ، ولكن ملطخا بالدم . . وألقى أحد الأبناء ما يتصور أنه دليل البراءة . .

ألقى قميص يوسف أمام أبيه الذى كان يجلس . . وأمسك يعقوب بقميص ابنه . . ورفعه وتأمله في ضوء المشعل الموجود في الغرفة . . راح يقلبه في يده فوجده سليما بغير خدش واحد . . أي ذئب هذا الذى أكل يوسف ؟ . . هل أكله من داخل القميص بغير أن يمزق قميصه ؟!

لو كان يوسف يرتدى قميصه والذئب يأكله لتمزق القميص . ولو كان قد خلع قميصه ليلعب مع إخوته فكيف تلطخ القميص بالدم ولم يكن يرتديه ساعتها . . ؟ أدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، ومن الأكذوبة الواضحة ، أن يوسف لم يأكله الذئب . . لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك أكذوبتهم . . ولو كانوا أهدأ أعصابا لما التقطوا حكاية الذئب من فم أبيهم في حواره معهم ليلة الأمس ، ليقوموا الليلة بتمثيلها أمامه . .

أدرك الأب أنهم يكذبون . . وعبر عن هذا بقوله :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾(٢) .

تصرف نبى حكيم . . يسأل الصبر الجميل الذى يخلو من الشكاة . . ويستعين بالله على ما دبروه له ولابنه . .

ينطفئ هذا المشهد وتضيء صورة للبئر التى ألقى فيها يوسف . . صورة عريضة لصحراء عريضة يبدو هناك في آخرها خط طويل من الإبل والخيل والرجال . . قافلة في طريقها إلى مصر . . قافلة كبيرة . . سارت طويلا حتى سميت سيارة . . القافلة

---

(١) من الآية ١٨ سورة يوسف مكية .

(٢) من الآية ١٨ سورة يوسف مكية .

كلها تتجه إلى البئر . . توقفوا للتزود بالماء . . أدلى الدلو فى البئر . . تعلق يوسف به . . ظن من دلاه أنه امتلأ بالماء فسحبه . . يا للبشرى . . هذا غلام . . حكمه حكم الأشياء المفقودة التى يلتقطها أحد . يصير عبدا لمن التقطه . . هكذا كان قانون ذلك الزمان البعيد .

فرح به من وجده فى البداية ، ثم زهد فيه حين فكر فى همه ومسئوليته ، وزهد فيه لأنه وجده صبيا صغيرا ، وربما قال لنفسه إنه لن يباع بشىء يذكر . . وعول على التخلص منه لدى وصوله إلى مصر . . ولم يكد يصل إلى مصر حتى باعه فى سوق الرقيق بثمن بخس دراهم معدودة . ومن هناك اشتراه رجل تبدو عليه الأهمية .

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

انظر كيف يكشف الله تعالى مضمون القصة البعيد فى بدايتها . .

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

لقد انطبقت جدران العبودية على يوسف .

ألقى فى البئر . أهين . حرم من أبيه . التقط من البئر . صار عبدا يباع فى الأسواق . اشتراه رجل من مصر . . صار مملوكا لهذا الرجل . انطبقت المأساة ، وصار يوسف بلا حول ولا قوة . . هكذا يظن أى إنسان . . غير أن الحقيقة شىء يختلف عن الظن تماما . .

ما نتصور نحن أنه مأساة ومحنة وفتنة . . كان هو أول سلم يصعده يوسف فى طريقه إلى مجده . . ﴿والله غالب على أمره﴾ . . ينفذ تدبيره رغم تدبير الآخرين . . ينفذ من خلال تدبير الآخرين فيفسده ويتحقق وعد الله ، وقد وعد الله يوسف بالنبوة .

---

(١) الآيات ١٩ ـ ٢١ سورة يوسف مكية .　　(٢) من الآية ٢١ سورة يوسف مكية

وها هو ذا يلقى محبته على صاحبه الذى اشتراه . وها هو ذا السيد يقول لزوجته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . وليس هذا السيد رجلا هين الشأن . إنما هو رجل مهم . رجل من الطبقة الحاكمة فى مصر . . سنعلم بعد قليل أنه وزير من وزراء الملك . وزير خطير سماه القرآن «العزيز» ، وكان قدماء المصريين يطلقون الصفات كأسماء على الوزراء . فهذا العزيز . وهذا العادل . وهذا القوى . إلى آخره . وأرجح الآراء أن العزيز هو رئيس وزراء مصر .

وهكذا مكن الله ليوسف فى الأرض . سيتربى كصبى فى بيت رجل يحكم . وسيعلمه الله من تأويل الأحاديث والرؤى . وسيحتاج إليه الملك فى مصر يوما . ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. تم هذا كله من خلال فتنة قاسية تعرض لها يوسف .

كان يوسف أجمل رجل فى عصره . . كان وجهه يحمل طاقة من الجمال البشرى المدهش . . وكان نقاء أعماقه وصفاء سريرته يضفيان على وجهه مزيدا من الجمال .

وتمر الأيام . . يكبر يوسف . .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] .

أوتى صحة الحكم على الأمور . وأوتى علما بالحياة وأحوالها . وأوتى أسلوبا فى الحوار يخضع قلب من يستمع إليه . . وأوتى نبلا وعفة ، جعلاه شخصية إنسانية لا تقاوم .

وأدرك سيده أن الله قد أكرمه بإرسال يوسف إليه . اكتشف أن يوسف أكثر من رأى فى حياته أمانة واستقامة وشهامة وكرما . وجعله سيده مسئولا عن بيته وأكرمه وعامله كابنه .

وكانت امرأة العزيز ترقب يوسف يوما بعد يوم . كانت تجلس إليه وتتحدث معه وتتأمل صفاء عينيه وتسأله وتسمع ، ويزداد إعجابها به لحظة بعد أخرى . حتى جاء اليوم الذى اكتشفت فيه المرأة أنها عاشقة . . وبدأت تظهر حبها ليوسف . يرفع القرآن الستار عن المشهد الختامى فى هذا الحب المشوب بالصراع والتهالك من جانب امرأة العزيز . قال تعالى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ

---

(٢) الآية ٢٢ سورة يوسف مكية .

بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

لا يذكر السياق القرآنى شيئا عن سنها وسنه ، فلننظر فى ذلك من باب التقدير . لقد أحضر يوسف صبيا من البئر ، كانت هى زوجة فى الثالثة والعشرين مثلا ، وكان هو فى الثانية عشرة . بعد ثلاثة عشر عاما صارت هى فى السادسة والثلاثين ووصل عمره إلى الخامسة والعشرين . . أتكون الحادثة قد وقعت فى هذه السن . . ؟ أغلب الظن أن الأمر كذلك . إن تصرف المرأة فى الحادثة وما بعدها يشير إلى أنها مكتملة جريئة ، ولقد كان هذا المشهد الذى يرفع القرآن الستار عنه ، ذروة فى مشاهد قديمة يتركها السياق لخيالنا نحن . .

لقد أحبت زوجة العزيز يوسف . .

﴿وراودته﴾ صراحة ﴿ عن نفسه ﴾، وأغلقت ﴿ الأبواب وقالت هيت لك﴾ . لن تفر منى هذه المرة . هذا يعنى أنه كانت هناك مرات سابقة فر فيها منها . مرات سابقة لم تكن الدعوة فيها بهذه الصراحة وهذا التعرى .

لقد تربى يوسف فى قصر كبير وزراء مصر . . تصور أنت بيئة مترفة وفراغا عريضا ، وامرأة حسناء وصغيرة ، وفتى اشتراه زوجها وصار عبدا لها . . فهى تستدعيه إلى حجرة نومها ، وتأمره أن يحضر لها كوبا من الماء مثلا . . أو تظهر عليه بملابسها الشفافة ، أو تظهر له مفاتنها كأنها لا تقصد شيئا أو تغريه بما تغرى به النساء الرجال ، تصور أنت هذا كله فترة تمتد لسنوات . سنوات وهما يعيشان فى بيت واحد . . تحت سقف واحد . .

وهى تستميله إليها وتغريه وتغويه . . وهو على تقواه ، وهى على هواها . . ثم جاء يوم أخير . .

سئمت المرأة هذا التجاهل المستمر والإباء . قررت أن تغير خطتها . . خرجت من التلميح إلى التصريح . . أغلقت الأبواب ومزقت أقنعة الحياء وصرحت بحبها وطالبته بنفسه . لعلها قالت : يوسف . . ما أجمل وجهك .

وربما قال : هكذا صورنى ربى قبل أن أخلق . لست مسئولا عن ذلك .

قالت وهى تقترب منه : يوسف . . ما أشد نعومة شعرك . قال : أول شىء يبلى فى القبر منى . قالت : يوسف . . ما أصفى عينيك . قال : بهما أنظر إلى ما خلق ربى .

---

(١) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة يوسف مكية .

قالت : ألست شيئا خلقه ربك ؟ . . ارفع بصرك فانظر فى وجهى . قال : أخاف يوم القيامة .

قالت : أدنو منك وتتباعد عنى . . قال : أريد القرب من ربى .

قالت : ملأنى حبك . . صرت جزءا من الهواء الذى أتنفسه . . أحببتك حبا صرت بعده أراك من حقى . . لن تفلت منى . وأدرك يوسف أنها تدعوه إليها وقال : ﴿معاذَ الله﴾ . أستغفر الله العظيم . . لقد أكرمنى رب العالمين بهذا البيت . وأكرمنى سيد هذا البيت بثقته . فأيهما أخون ؟ وأى نجاح أنتظره لنفسى لو فعلت ؟

قال تعالى :

﴿ ولقدْ همّتْ به وهَمّ بها لَوْلا أن رَّأىٰ بُرْهَانَ رَبّه ﴾(١) .

اتفق المفسرون حول همها بالمعصية ، واختلفوا حول همه . . فمن قائل : إنها همت به تقصد المعصية وهم بها يقصد المعصية ولم يفعل . ومن قائل : إنها همت به لتقبله وهم بها ليضربها ، ومن قائل : إن هذا الهم كان بينهما قبل هذا الحادث . . كان حركة نفسية داخل نفس يوسف فى السن التى اجتاز فيها فترة المراهقة . . ثم صرف الله عنه . وأفضل تفسير تطمئن إليه نفسى أن هناك تقديما وتأخيرا فى الآية . .

قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على أبى عبيدة ، فلما أتيت على قوله تعالى :

﴿ ولقدْ همّتْ به وهمّ بها ﴾(٢) .

قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير . بمعنى ولقد همت به . . ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها . يستقيم هذا التفسير مع عصمة الأنبياء . . كما يستقيم مع روح الآيات التى تلحقه مباشرة :

﴿ كذلك لنصْرف عنهُ السُّوءَ والْفحْشاء إنَّهُ منْ عبَادنَا الْمُخْلَصينَ ﴾(٣) .

وهذه الآية التى تثبت أن يوسف من عباد الله المخلصين ، تقطع فى نفس الوقت بنجاته من سلطان الشيطان . قال تعالى لإبليس يوم الخلق :

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾(٤) .

(١ ، ٢ ، ٣) من الآية ٢٤ سورة يوسف مكية . (٤) من الآية ٤٢ من سورة الحجر مكية .

وما دام يوسف من عباده المخلصين ، فقد وضح الأمر بالنسبة إليه . لا يعنى هذا أن يوسف كان يخلو من مشاعر الرجولة ، ولا يعنى هذا أنه كان فى نقاء الملائكة وعدم احتفالهم بالحس . إنما يعنى أنه تعرض لإغراء طويل قاومه فلم تمل نفسه يوما ، ثم أسكنها تقواها كونه مطلعا على برهان ربه ، عارفا أنه يوسف بن يعقوب النبى ، ابن اسحق النبى ، ابن إبراهيم جد الأنبياء وخليل الرحمن . .

وقع تطور على الصراع بينهما . تطور الحوار من الكلمات إلى الأيدى . مدت امرأة العزيز يديها إليه وحاولت أن تحتضنه .

استدار يوسف مصفر الوجه يجرى إلى الباب . انطلقت وراءه امرأة العزيز وهى تتعلق بقميصه مثل غريق يتشبث بسفينة . وصلا إلى الباب معا . انفتح الباب عن مفاجأة . زوجها وأحد أقاربها .

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ (١) .

لم تكد العاشقة ترى زوجها يبرز على مسرح الحادثة . . حتى تصرفت بدهاء وسرعة .

كان واضحا أن هناك صراعا . . يوسف يرتعش حياء وينعقد العرق على جبينه . . وهي محلولة الشعر متضرجة الوجنتين مضطربة . . وقبل أن يفتح زوجها فمه بكلمة ليسأل ، بادرته بإلقاء التهمة على يوسف .

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢) .

اتهمته أنه راودها عن نفسها . قالت إنه حاول اغتصابها . . نظر يوسف فى وجهها ببراءة وحلم . كان ينوى أن يكتم سرها ويستر عليها ، فلما اتهمته اضطر اضطرارا للدفاع عن نفسه .

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ (٣) .

يمر السياق على رد الزوج . ونحسب أنه قال : اخفضا صوتيكما . إن فى البيت عديدا من العبيد والخدم . هذه مسألة خاصة .

(١ ، ٢) من الآية ٢٥ من سورة يوسف . (٣) من الآية ٢٦ من سورة يوسف .

كان رئيس وزراء مصر شيخا هادئ الأعصاب . والطبقة التى تجرى فيها أحداث القصة طبقة مترفة وليست رجعية ، وهى تعامل الجنس معاملة عاقلة . . وهكذا جلس رئيس الوزراء وفتح تحقيقا : فسأل زوجته وسأل يوسف ثم التفت إلى قريبها واستنار برأيه .

قال قريبها : إن دليل القضية يكمن فى قميص يوسف . إذا كان ممزقا من الأمام كان هذا معناه أنه حاول اغتصابها . من الطبيعى أن تمزق قميصه دفاعا عن نفسها .

قال الزوج : فإن كان قميصه ممزقا من الخلف؟ قال الشاهد من أهلها : تكون هى التى راودته عن نفسه .

مشهد خاص للقميص . . القميص ينتقل بين أيديهم وهى تقلب فيه . نظر فيه الشاهد من أهلها . فوجده مقطوعا من الخلف . ونظر فيه رئيس الوزراء فوجده ممزقا من الخلف . ثبتت التهمة على الزوجة . .

حكى الله تعالى هذا المشهد فى قوله :

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾(١) .

لما تأكد الزوج من خيانة زوجته . لم يثر دمه فى عروقه ولم يصرخ ولم يغضب . فرضت عليه قيم الطبقة الراقية التى وقع فيها الحادث أن يواجه الموقف بلباقة وتلطف . ﴿ قال إنه من كيدكن ﴾ . نسب ما فعلته إلى كيد النساء عموما . وصرح بأن كيد النساء عموما عظيم . وهكذا سيق الأمر كما لو كان ثناء يساق .

ولا نحسب أنه يسوء المرأة أن يقال لها : ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ . فهو دلالة فى حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى الكاملة على الكيد .

بعدها التفت الزوج إلى يوسف قائلا له :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ (٢) .

---

(١) من الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة يوسف مكية . (٢) من الآية ٢٩ سورة يوسف مكية .

أهمل هذا الموضوع ولا تعره اهتماما ولا تتحدث به .

هذا هو المهم . . المحافظة على الظواهر . . لا نريد ثرثرة حول هذا الموضوع . ثم يحس الزوج أنه لم يقل شيئا لزوجته غير تصريحه المتصل بكيد النساء عموما .

ويحاول أن يقول لها شيئا خاصا . يحاول أن يعنفها ولكن التعنيف ينتهى به إلى لين يتمثل فى قوله :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (١) .

بعد التصريح الأول . . والعظة الأخيرة . أنهى الزوج الموضوع وصرف يوسف .

لم يفصل سيد البيت بين المرأة وفتاها . . كل ما طلبه هو إغلاق الحديث فى هذا الموضوع . غير أن هذا الموضوع بالذات . فى هذه الطبقة الراقية بالتحديد . لم يكن ممكنا أن يغلق .

للقصور جدران وآذان وعبيد وخدم وحشم . وربما حدث أحد خدم القصر خادمة يحبها فى قصر آخر . ربما حكت هذه الخادمة لخادم تحبه فى قصر ثالث . وربما حكت الزوجة لوصيفتها من باب استشارتها فى الخطوة التالية . .

المهم أن الموضوع بدأ ينتشر . . خرج من القصر إلى قصور الطبقة الحاكمة أو الراقية يومها . . ووجدت فيه نساء هذه الطبقة مادة شهية للحديث . إن خلو حياة هذه الطبقات من المعنى ، وانصرافها إلى اللهو ، يخلعان أهمية قصوى على الفضائح التى ترتبط بشخصيات شهيرة . وزاد حديث المدينة .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

ها نحن أولاء نعرف للمرة الأولى أن المرأة هى امرأة العزيز . وأن الرجل الذى اشتراه من مصر هو عزيز مصر - أى كبير وزرائها - ربما كان مجرد وزير حين اشتراه ثم ترقى . .

المهم أنه الآن عزيز مصر .

وانتقل الخبر من فم إلى فم . ومن بيت إلى بيت . . حتى وصل لامرأة العزيز .

ربما قيل لها : تتحدث المدينة عن قصة غرامك .

---

(١) من الآية ٢٩ سورة يوسف مكية .

(٢) الآية ٣٠ من سورة يوسف مكية .

قالت : غرامى بمن ؟

قيل : بيوسف .

قالت : لا أنكر أننى أحبه .

قيل : تتحدث نساء الوزراء عن تهالكك عليه . .

قالت : ماذا يقلن ؟

قيل : إنك ﴿ فى ضلال مبين ﴾ .

قالت وقد بدأت تثور : أى ضلال . . ؟ إن يوسف لا يقاوم . . من الذى يقول إننى فى ضلال؟ هل رأين يوسف؟ هل يعرفن مقدار سحره ؟ من القائلات؟ حدثونى بأسماء من يثرثرن .

اعتكفت زوجة العزيز فترة وراحت تفكر . انتهت إلى قرار : أصدرت أوامرها بإحضار الطهاة . وصل طهاة القصر . أنبأتهم أنها تعد مأدبة كبيرة فى القصر . . واختارت ألوان الطعام والشراب وأمرت أن توضع السكاكين الحادة إلى جوار التفاح المقدم . . وأن توضع المفارش البيضاء إلى جوار أطباق التفاح . وأن توضع الوسائد والحشايا على عادة الشرق فى ذلك الزمان . ووجهت الدعوة لكل من تحدثت عنها ، ولاكت قصة حبها ليوسف .

وجاء يوم المأدبة . وهرعت نساء الطبقة الراقية إلى قصر رئيس الوزراء . كانت المناسبة فرصة لاستعراض أفتن الثياب وأحدثها ، وأعظم أدوات الزينة والتبرج ، واقتصرت الدعوة على النساء فاستمتعن بحرية أكبر . وجلسن متكئات على الوسائد والحشايا يأكلن ويشربن . .

واستمرت المأدبة ، وفعل الطعام الجيد والشراب البارد فعل السحر فى النفوس ، فانطلقت على سجيتها ، وارتفعت الضحكات ودارت الثرثرة . . ونحسب أن كل امرأة فى الحاضرات كانت تمسك لسانها أن ينحرف إلى قصة يوسف . كن يعلمن جميعا وتخفى كل واحدة فيهن أنها تعلم . . هكذا تقضى الأصول فى الطبقات الراقية!

ولذلك وقعت كلمات المضيفة عليهن وقعا مثيرا حين فتحت هى الموضوع : سمعت من يردد أننى واقعة فى هوى الفتى العبرانى يوسف . .

سقط الصمت على المائدة فجأة . وتوقفت أيدى المدعوات . وسرقت زوجة العزيز المشهد منهن تماما . . قالت وهى تأمر بإحضار التفاح . . أعترف أنه فتى ساحر . . لا أنكر أننى أحبه . . لقد أحببته من زمان بعيد . .

أزاح اعترافها عن الحاضرات إحساسا ثقيلا بالحرج ، فعادت النفوس إلى ارتياحها السابق وعادت المدعوات إلى طعامهن فى هدوء . بدأن تقشير التفاح . كانت الحضارة فى مصر قد بلغت شأوا بعيدا ، وكان الترف فى القصور عظيما . .

وكان اعتراف زوجة العزيز قد أطلق ارتياحا عاما فى الغرفة . . إذا كانت زوجة العزيز تعترف بأنها تحب ، فهذا يعنى أن الحب من حقهن هن الأخريات . . ورغم أن امرأة منهن قد قالت جملة تعنى أن زوجة العزيز لا ينبغى أن تحب . . إنما ينبغى أن تكون موضع حب . المفروض أن يتهالك عليها الرجال . . وذابت المجاملة فى جو الغرفة مثلما ذابت أبخرة المر والعنبر التى كان يطوف بها الخدم . . رفعت امرأة العزيز يدها وأشارت أن يدخل يوسف .

ودخل يوسف حجرة الطعام . استدعته سيدته فجاء . كانت النساء ما زلن يقشرن الفاكهة . لم يكد يدخل الغرفة حتى وقع ما توقعته امرأة العزيز .

بهتت كل المدعوات فجأة .

إن وجهه يتلألأ برجولة نادرة وجمال ملائكى . . وتعكس عيناه تعبيرا من الصفاء المطلق حتى ليرى الإنسان أعلام الحنو وهى ترفرف فى أعماق روحه البعيدة . .

بهتت النساء وأكبرنه . . واستمر تقطيع الفاكهة بالسكاكين . . هذه المرة كانت النظرات مسلطة كلها على يوسف . . لم تكن أى امرأة فيهن تنظر إلى الفاكهة التى تقطعها بالسكين .

وبدأت النساء يقطعن أيديهن فى ذهول وبغير أن يشعرن . كان حضور يوسف على مسرح المكان قويا إلى الحد الذى أذهلهن عن الألم والدم طوال لحظات .

قالت إحدى النساء بصوت خفيض : سبحان الله .

وقالت امرأة أخرى بصوت ناعم تسجنه الدهشة : ﴿ ما هذا بشرا ﴾!

وتمتمت امرأة ثالثة وهى تزيح خصلة من شعرها ارتمت على عينيها وكادت تعوق الرؤية :

- ﴿ إن هذا إلا ملك كريم﴾ . .

وقفت امرأة العزيز فجأة وقالت : هذا الذى وجه إلى اللوم بسببه . . لا أنكر أننى راودته عن نفسه . . أمامكن مناشف بيضاء لتضميد الجراح . . لقد استولى عليكن يوسف فانظرن ما حدث لأيديكن .

ينتقل المشهد بين يوسف والأصابع التى حزت فيها السكاكين فلم تشعر صاحباتها بشيء . . نحسب أن يوسف كان ينظر فى الأرض أو يمد نظراته أمامه فى اتجاه

لا شيء . . فلما جاء ذكر الدماء نظر إلى المأدبة وفوجىء بأن الدماء تسيل إلى جوار التفاح من أصابع النسوة . . وأسرع يوسف لإحضار الضمادات والماء كفتى يعمل فى القصر . . نحسب أن امرأة العزيز قالت وهو يضمد جراح امرأة . .

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ . . نحسب أن يوسف ابتلع كلماتها فى نفسه ولم يعلق . . إنه نبى . . مأساة هذه المرأة أنها أحبت نبيا . نحسب أيضا أن النساء راودنه عن نفسه فى المأدبة .

قالت امرأة خارقة فى الجمال من المدعوات ليوسف وهو يضمد جراحها :

- إن مجرد نظرتك إلى يدى يا يوسف تكفينى عن أصابعى التى قطعت . .

أو قيل له : يوسف . . ألا تريد جارية تنظف نعلك وتغسل قميصك وتسجد لك . . ؟

وربما كانت نساء هذه الحقبة يملكن أسلوبا مختلفا من الإغراء . . ربما استخدمت إحداهن سلاح العينين أو سلاح الأهداب أو سلاح الجسد . .

لا نعرف ماذا وقع فى المأدبة . ندع خيالنا يتمثل ما حدث . . ويبدو أن الإغراء وجه إليه من كل النساء المدعوات . . ويبدو أن الدعوة ألقيت تحت قدميه من كل الحاضرات . ويبدو أنهن رحن يهددنه هن الأخريات . .

ووقف يوسف وسط هذه الفتنة الثقيلة محرجا حائرا .

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (١) .

لم يقل مما تدعونى إليه . واضح أن مجرد ظهوره على النساء جعل الدعوة جماعية .

اشتركن جميعا فى الدعوة سواء باللفتات أو الحركات أو التلميح أو التصريح . . واستنجد يوسف بالله أن ينقذه من كيدهن . دعا الله كبشر يعرف بشريته ، ولا يغتر بعصمته ونبوته . . دعا الله أن يصرف عنه كيدهن ، كيلا يميل إليهن ويكون من الجاهلين .

واستجاب له الله . . فبدأت الأيدى المقطوعة النازفة توجع بالألم . . وانصرف هو من صالة الطعام . . وانشغلت كل امرأة فيهن بتضميد جراحها ، والتفكير فى حجة تقولها لزوجها الوزير إذا سألها لماذا قطعت يدها . . وأين كانت .

---

(١) الآية ٣٣ من سورة يوسف مكية .

حكى الله تعالى مشهد المأدبة فى قوله :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [١] .

صرف الله عن يوسف كيد النساء . . أوقع فى قلوب النسوة يأسا كاملا منه ومن حبه . صار حبهن له نوعا من أنواع الرغبات المستحيلة . . وأججت هذه الرغبات المستحيلة ذكرى يوسف أكثر من ذى قبل . . راحت النساء يتحدثن عنه وعن تأثيره ومهابته ونبله . . ويحكين كيف قطعن أيديهن بالسكاكين حين رأينه . . وانتشر الخبر من الطبقة العليا إلى طبقات الشعب . . بدأ الناس يتحدثون عن الفتى العبرانى الذى رفض زوجة كبير الوزراء ، وقطعت زوجات الوزراء أيديهن بسببه . ولو اقتصر الأمر على ردهات القصور وغرفها المغلقة لما اهتم أحد ، لكن الأمر يتسرب إلى الشعب . . هيبة الحكم كله فى الميزان . . وتحرك الجهاز الحاكم واعتقل يوسف .

أدخل السجن . . إسكاتا للألسنة . وإسباغا لظلال الشبهات عليه . . ومحاولة للقضاء على القصة برمتها . ولقد قال يوسف حين دعته النساء إلى الخطيئة إن السجن أهون عليه وأحب إليه مما يدعونه إليه . ها هى ذى يد العناية العليا تمضى به فى التجربة إلى نهايتها . . وها هو ذا يدخل السجن رغم براءته .

يدخله رغم ظهور الآيات على براءته ، ووضوح الأدلة على إدانة غيره . . لا نعتقد أن امرأة العزيز هى السبب فى إدخاله السجن ، نعرف أن رفضه الحاسم لها أثار كبرياءها ، وطعن كرامتها طعنة عميقة ، لكننا نعتقد أنها أحبته حبا عظيما .

وربما كان دخول يوسف السجن نقطة تحول أساسى فى علاقتها به . . كانت تهفو إليه وتحبه ، فلما ابتعد عنها أنشب الحنين إليه أظافره فى قلبها ، وتمنت لو كان خارج السجن ولو لم تنله هى . .

---

(١) الآيات من ٣١ إلى ٣٤ سورة يوسف مكية .

ولعل دليلنا على تحول حبها له ، وصدقها بعد ذلك في الحب ، أنها اعترفت بعدذلك أنها حاولت إيقاعه فرفض . وبررت اعترافها بقولها : ﴿ ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ . . كان حرصها على صورتها في قلبه أهم من سلامها مع زوجها أو احتفاظها بمقعدها كسيدة ثانية في مصر . وكأن حبها له ـ وهو غائب ـ كان يختلف في نوعه وعمقه عن حبها له وهو فتى يخدمها في القصر بالأمر . . حين استطالت بينهما المسافة . . وامتد البعد . . وحرمت من رؤيته . . أحبته نوعا من الحب لا يجعلها تخونه ـ حتى في غيابه . كم تعذبت امرأة العزيز بحبها البشرى . . إن مأساتها أنها اختارت بقلبها الذى يقف على الأرض . رجلا . . قلبه أبحر في بحار الحب الإلهى منذ أزمنة . .

دخل يوسف السجن . قال تعالى في سورة يوسف :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(1) .

ظهر لهم . . واستقر رأيهم . . رغم براءته وظهور آيات البراءة استقر رأيهم على سجنه حتى حين . . إلى أجل غير مسمى . . إلى مدة غير محددة ، حتى ينطفئ الحديث عن القصة ، وتخبو النيران التي أشعلتها وسط الناس . وإذا كان الوزراء وكبيرهم قد عجزوا عن كبح جماح نسائهم ، فإنهم ليسوا عاجزين عن سجن برىء . . هذه مهنتهم ولعبتهم التي يجيدونها بإتقان ويسر .

وهكذا ترسم الآية الموجزة جو هذا العصر بأكمله . . جو الفساد الداخلي في القصور ، جو الأوساط الأرستقراطية . . وجو الحكم المطلق .

إن حلول المشكلات في الحكم المطلق هي السجن . . ولو نظرنا في نوع المجتمع المصري يومها ، ورأينا ماذا كان يعبد ، لعرفنا لماذا أظله الحكم المطلق . .

كان المصريون يعبدون آلهة متعددة . كانوا على عبادة غير الله . . ولقد رأينا من قبل كيف تضيع حريات الناس حين ينصرفون عن عبادة الله إلى عبادة غيره ، وها نحن أولاء نرى في قصة يوسف شاهدا حيا يصيب حتى الأنبياء . صدر قرار باعتقاله وأدخل السجن . بلا قضية ولا محاكمة ، ببساطة ويسر . . نحن في مجتمع يعبد آلهة متعددة ، وبالتالي تحكمه آلهة متعددة ، ولذلك لا يصعب فيه سجن برىء . . بل لعل الصعوبة تكمن في محاولة شيء غير ذلك . دخل يوسف السجن ثابت القلب هادئ الأعصاب أقرب إلى الفرح لأنه نجا من إلحاح زوجة العزيز ، ومن أسئلة الوزراء ،

---

(1) الآية ٣٥ من سورة يوسف مكية

وتطفلات الكهنة ، وثرثرة الخدم ، وهذا الصداع الغريب الذى حاصره فى الفترة الأخيرة ، بسبب حب امرأة العزيز وتقطيع النسوة لأيديهن .

كان السجن بالنسبة إليه مكانا هادئا يخلو فيه ويفكر فى ربه .

لقد أحس يوسف فى الفترة الأخيرة أن أشرعة الهوى البيضاء التى نشرها فى سفينته لم تعد تمتلئ بالهواء . لم يتوقف إبحاره إلى الله لكن المحنة شوشت عليه اتصاله بربه . .

وها هو ذا الهدوء يعود . وها هى ذى أجهزة استقبال فى وجدانه تنصت وتتسمع ويزداد امتلاؤها بالحب والرحمة والوحى .

وانتهز يوسف فرصة وجوده فى السجن ، بين قوم أبرياء يحسون بظلم الأبرياء . . ليقوم بالدعوة إلى الله . إن الظلم البشرى يجعل النفوس أقرب إلى سماع الهدى ، ويجعل استجابتها أعمق فى التوجه إلى الله مفرج الكروب . كان يحدث الناس عن رحمة الخالق وعظمته وحبه لمخلوقاته ، كان يسأل الناس : أيهما أفضل . . أن ينهزم العقل ويعبد أربابا متفرقين . أم ينتصر العقل ويعبد رب الكون العظيم؟ وكان يقيم عليهم الحجة بتساؤلاته الهادئة وحواره الذكى وصفاء ذهنه ، ونقاء دعوته .

ودخل معه السجن فتيان : أحدهما رئيس الخبازين عند الملك . . والثانى رئيس السقاة الذى يتناول منه الملك كئوس الخمر لشربها .

وشاهد الخباز حلما رأى نفسه فيه يقف فى مكان يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه .

وشاهد الساقى حلما رأى نفسه فيه يسقى الملك خمرا .

وذهب الاثنان إلى يوسف . حدثه كل واحد عن حلمه وطلب تفسير ما رآه . وانتهز يوسف الفرصة وراح يدعو إلى الله ، ثم حدث الخباز أنه سيصلب ويموت ، أما الساقى فسوف يخرج من السجن ويعود إلى الملك ، وقال للساقى : إذا ذهبت إلى الملك فاذكرنى عنده . . قل له : إن هناك سجينا مظلوما اسمه يوسف .

ووقع ما تنبأ به يوسف تماما . قتل الخباز وعفى عن الساقى وعاد إلى القصر . . غير أنه نسى أن يحدث الملك عن يوسف . أنساه الشيطان أن يذكر يوسف . . ومكث يوسف فى السجن سنوات . قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا

نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(١) .

بعد هذه الدعوة العميقة إلى الله . بعد إثبات حجته على السائلين . . فسر لهما يوسف ما رأياه من أحلام :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (٢) .

لا حظ كيف يقص السياق القرآنى القصة ، فنرى يوسف لا يحدد صاحب البشرى وصاحب المصير السيئ . تحرجا وتلطفا منه بهما . . غير أنهما فهما قصده حين نفذ الحكم فى أحدهما وحكم ببراءة الثانى . .

يسقط السياق القرآنى أن التأويل قد تحقق . وأن الأمر قد قضى على ما أوله يوسف . ويترك هنا فجوة للخيال يسيح فيها ليعرف أن هذا كله قد كان . . ويخرج الناجى إلى القصر . . عاد يسقى الملك مرة ثانية . كان المفروض أن يذكر يوسف الذى تنبأ له بالنجاة . . غير أن قصة يوسف سقطت تماما من ذاكرته . . نسى تأويله لرؤياه ودعوته لله . شغله ترف القصر الملكى . وأنساه انشغاله بسيده الملك أو [ربه]

---

(١) الآيات من ٣٦ إلى ٤٠ من سورة يوسف مكية .

(١) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة يوسف مكية .

كما كانوا يسمون سادتهم فى ذلك العصر . أنساه هذا كله ذكر يوسف . وأسدل الشيطان ستارا سابغا على موضوع يوسف فى ذهنه .

ولبث يوسف فى سجنه بضع سنين . تحملها صابرا راضيا داعيا غير قانط . يظلم المنظر فى السجن ويضىء فى حجرة الملك .

الملك نائم يحلم . تنتقل الصورة إلى حلمه . رأى نفسه يقف على شاطئ النيل . كان ماء النيل يهبط أمام عينيه . راح ماؤه يغيض حتى تحول النهر إلى خيط من الطين الخالى من الماء .

وراحت الأسماك تقفز وتتواثب حتى اختفت فى طين النهر . خرجت من النهر سبع بقرات سمان . خرجت وراءهن سبع بقرات هزيلة . هاجمت الأبقار الهزيلة الأبقار السمينة ، تحولت الأبقار الهزيلة إلى وحوش والتهمت الأبقار السمينة . . كان الملك واقفا يشهد بالرعب صرخات الأبقار السمينة ، وهى تغيب فى جوف الأبقار الهزيلة . نبتت على شاطىء النيل سبع سنبلات خضر . . ثم غابت السنابل الخضر فى الطين ونبتت فى نفس الموضع سبع سنبلات يا بسات . . استيقظ الملك فزعا من نومه . .

أحس بانقباضة لا يدريها فى صدره .

أرسل إلى العرافين والكهنة وكبير الوزراء . قص عليهم حلمه وطلب تفسير رؤياه .

قال العراف : هذه أشياء مختلطة . كيف تأكل سبع بقرات هزيلة سبع بقرات سمينة . هذه ﴿ **أضغاث أحلام** ﴾ .

قال الكاهن : لعل مولاى أثقل على نفسه فى العشاءقليلا ، فتحدث عن موضوع السنابل الخضر واليابسة . .

وقال كبير الوزراء : أيكون مولاى يقذف غطاءه بقدميه ويتعرى أثناء الليل؟ تقول النساء إن ذلك يستدعى الأحلام .

وقال مهرج الملك له وهو يمازحه : بدأ مولاى يكبر فى السن وتختلط أحلامه .

وهكذا اتفقت آراء الخبراء على أن حلم الملك بلا معنى . . وأنه أضغاث أحلام . .

وصل الخبر إلى الساقى . . تداعت أفكاره وذكره حلم الملك بحلمه الذى رآه فى السجن . وذكره السجن بتأويل يوسف لحلمه . وأسرع إلى الملك وحدثه عن يوسف . . قال له : إن يوسف هو الوحيد الذى يستطيع تفسير رؤياك . لقد أوصانى أن أذكره عندك ولكننى نسيت .

وأرسل الملك ساقيه إلى السجن ليسأل يوسف . قال تعالى :

﴿ وقالَ الْمَلكُ إنّي أرَىٰ سَبْع بقراتٍ سمانٍ يأكُلُهُنّ سبْعٌ عجافٌ وسبْعَ سُنْبُلات خُضْرٍ وأُخرَ يابسات يأيُّها الْملأُ أفْتوني في رُءْياي إن كُنتُمْ للرُّءْيا تَعْبُرُون (٤٣) قالُوا أضْغاثُ أحْلام وَما نَحْنُ بتأْويل الأحْلام بعالمين (٤٤) وَقال الّذي نجا منْهُما وادّكر بعْد أُمّة أنا أُنبّئُكُم بتأْويله فأرْسلُون (٤٥) يُوسُفُ أيُّها الصّدّيقُ أفْتنا في سبْع بقرات سمانٍ يأكُلُهُنّ سبْعٌ عجافٌ وَسبْع سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخر يابسات لّعلّي أرْجعُ إلى النّاس لعلّهُمْ يَعْلمُون ﴾ (١) .

أظلمت حجرة الملك وأضاءت الشاشة بمشهد السجن . يوسف فى سجنه . . ساقى الملك يلجأ إليه . .

جاء الوقت واحتاج الملك إلى رأيه . . ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . سئل يوسف عن تفسير حلم الملك . فلم يشترط خروجه من السجن مقابل تفسيره . . لم يساوم ولم يتردد ولم يقل شيئا غير تفسير الرؤيا . . هكذا ببراءة النبى حين يلجأ إليه الناس فيغيثهم . . وإن كان هؤلاء أنفسهم سجانيه وجلاديه .

قال يوسف لساقى الملك :

﴿ قالَ تزْرعُونَ سبْعَ سنين دأبًا فما حصَدتُّمْ فذَرُوهُ في سُنْبُله إلاّ قليلا مّمّا تأْكُلُون (٤٧) ثُمّ يأْتي منْ بعْد ذلك سبْعٌ شدادٌ يأْكُلْن ما قدّمْتُمْ لهُنّ إلاّ قليلاً مّمّا تُحْصنُونَ (٤٨) ثُمّ يأْتي منْ بعْد ذلك عامٌ فيه يُغاثُ النّاسُ وفيه يَعْصرُونَ ﴾ (٢) .

أفهم يوسف رسول الملك أن مصر ستمر عليها سبع سنوات مخصبة تجود فيها الأرض بالغلات . وعلى المصريين ألا يسرفوا فى هذه السنوات السبع . لأن وراءها سبع سنوات مجدبة ستأكل ما يخزنه المصريون ، وأفضل خزن للغلال أن تترك فى سنابلها كى لا تفسد أو يصيبها السوس أو يؤثر عليها الجو .

---

(١) الآيات ٤٣ إلى ٤٦ من سورة يوسف .

(٢) الآيات ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ نفس السورة .

بهذا انتهى حلم الملك . وزاد يوسف تأويله لحلم الملك بالحديث عن عام لم يحلم به الملك . عام من الرخاء . عام يغاث فيه الناس بالزرع والماء ، وتنمو كرومهم فيعصرون خمرا ، وينمو سمسمهم وزيتونهم فيعصرون زيتا .

كان هذا العام الذى لا يقابله رمز فى حلم الملك . . علما خاصا أوتيه يوسف . فبشر به الساقى ليبشر به الملك والناس . عاد الساقى إلى الملك . أخبره بما قال يوسف . دهش الملك دهشة شديدة . ما هذا السجين . . ؟ إنه يتنبأ لهم بما سيقع ، ويوجههم لعلاجه . . دون أن ينتظر أجرا أو جزاء . . أو يشترط خروجا أو مكافأة . .

أصدر الملك أمره بإخراج يوسف من السجن وإحضاره فورا إليه . ذهب رسول الملك إلى السجن . لم يكن هو الساقى هذه المرة . كان شخصية رفيعة . أغلب الظن أنه كان أحد الوزراء . ذهب إليه فى سجنه . رجا منه أن يخرج للقاء الملك . . فهو يطلبه على عجل . رفض يوسف أن يخرج من السجن إلا إذا ثبتت براءته . يبدو أنهم كانوا قد اتهموه بشىء يدور حول النساء اللاتى قطعن أيديهن . . لعلهم قالوا مثلا إنه حاول الاعتداء عليهن فدافعن عن أنفسهن ومزقن أيديهن بالسكاكين . . لعلهم افتروا عليه أى افتراء متهافت يستحيل هضمه . كل شىء جائز فى القصور والحكم المطلق !

لا نعرف ماذا قيل بالضبط أمام الناس فى تبرير دخول يوسف السجن . . كل ما نعرفه أن يوسف رفض أن يخرج من السجن إلا إذا ثبتت براءته . . وهاهو ذا يحيل الملك إلى سؤال النسوة . . بطلات معركة المأدبة الشهيرة التى انتهت بتقطيع أيديهن .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

عاد الرسول إلى الملك . صرخ الملك حين رآه : أين يوسف؟ قال رسول الملك : فى السجن .

نهض الملك من مقعده وقال : ألم آمرك بإحضاره ؟ قال رسول الملك : رفض أن يخرج من السجن إلا إذا ثبتت براءته ، وحققتم جلالتكم فى موضوع النسوة اللاتى قطعن أيديهن .

قال الملك : استدع زوجات الوزراء وأحضروا امرأة العزيز . . الآن . ليحضر الجميع على الفور . .

---

(١) الآية ٥٠ سورة يوسف مكية .

كان الملك مهتاجا يحس أن يوسف قد تعرض لمحنة لا يدريها الملك على وجه التحقيق . . ربما سمع الملك شائعات قديمة تتردد عن زوجة كبير وزرائه وقصة حبها لفتى عبرانى اشتراه زوجها . . غير أن الملك لم يعر ما سمع اهتماما ، فقد كانت هذه القصص شيئا معتادا مكررا ولا يبدو غريبا فى دنيا القصور . حضرت امرأة العزيز ونساء المأدبة .

سأل الملك : ما قصة يوسف . . ؟ ما الذى تعرفنه عنه . . ؟ هل صحيح أنه . . ؟

قاطعت إحدى النساء الملك قائلة : ﴿حاش لله ﴾ . وقالت امرأة أخرى : لا نعرف أنه ارتكب سيئة واحدة . . وقالت امرأة ثالثة : كان فى طهر الملائكة .

التفتت الأنظار لامرأة العزيز . . كانت شاحبة الوجه قد نقص وزنها إلى النصف . . هدها الحزن على يوسف وهو فى سجنه . . وزادت حنينا إلى رؤيته . وتغير نوع حبها له بعد محنته . اعترفت بشجاعة العاشقة أنها كانت كاذبة وهو صادق . لقد راودته عن نفسه فرفض . أكدت أنها تقول ما تقول لا خوفا من الملك أو من النساء ، وإنما ليعلم يوسف أنها لم تخنه بالغيب . لم يزل ذهنها يدور حول يوسف ، هو الذى يعنيها وحده دون سائر الخلق . وثبتت براءة يوسف أمام الجميع . حكى الله نبأ هذا التحقيق والمحاكمة فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾[(١)] .

يصور السياق القرآنى لنا اعتراف امرأة العزيز ، بألفاظ موحية ، تشى بما وراءها من انفعالات ومشاعر عميقة .

﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ .

شهادة كاملة بإثمها هى ، وبراءته ونظافته وصدقه هو .

شهادة لا يدفع إليها خوف أو خشية أو أى اعتبار آخر . . يشى السياق القرآنى بحافز أعمق من هذا كله . حرصها على أن يحترمها الرجل الذى أهان كبرياءها الأنثوية ، ولم

---

(١) الأيتان ٥١ ، ٥٢ سورة يوسف مكية .

يعبأ بفتنتها الجسدية . ومحاولة يائسة لتصحيح صورتها فى ذهنه . لا تريده أن يستمر على تعاليه واحتقاره لها كخاطئة . تريد أن تصحح فكرته عنها .

ـ ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب﴾. لست بهذا السوء الذى يتصوره فى .

لعلها بدأت تبكى وهى تقول :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) .

إن تأمل الآيات يوحى بأن امرأة العزيز قد تحولت إلى دين يوسف . تحولت إلى التوحيد . إن سجن يوسف كان نقلة هائلة فى حياتها . آمنت بربه واعتنقت ديانته ، وأحبته على البعد ، ومازالت هى المرأة العاشقة التى لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه . أو خاطرة ارتياح . .

ولو بالغيب . . وعلى البعد . . ودون لقاء أو أمل فى لقاء .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾(٢) .

. . . .

يهمل السياق القرآنى بعد ذلك قصة امرأة العزيز تماما ، يسقطها من المشاهد ، فلا نعرف ماذا كان من أمرها بعد شهادتها الجريئة التى أعلنت فيها ضمنا إيمانها بدين يوسف . .

وقد لعبت الأساطير دورها فى قصة المرأة . . قيل : إن زوجها مات وتزوجت من يوسف ، فاكتشف أنها عذراء ، واعترفت له أن زوجها كان شيخا لا يقرب النساء . . وقيل : إن بصرها ضاع بسبب استمرارها فى البكاء على يوسف ، خرجت من قصرها وتاهت فى طرقات المدينة ، فلما صار يوسف كبيرا للوزراء ، ومضى موكبه يوما هتفت

---

(١) الآية ٥٣ سورة يوسف مكية .

(٢) الآيات ٥٤ ـ ٥٧ من سورة يوسف مكية .

به امرأة ضريرة تتكفف الناس : سبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية ، وجعل العبيد ملوكا بالطاعة . .

سأل يوسف : صوت من هذا؟ . . قيل له : هذه امرأة العزيز . انحدر حالها بعد عز . . واستدعاها يوسف وسألها : هل تجدين فى نفسك من حبك لى شيئا؟

قالت : نظرة إلى وجهك أحب إلى من الدنيا يا يوسف . . ناولنى نهاية سوطك . . فناولها . فوضعته على صدرها ، فوجد السوط يهتز فى يده اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها . .

وقيلت أساطير أخرى عديدة ، يبدو فيها أثر المخيلة الشعبية وهى تنسج قمة الدراما بانهيار العاشقة إلى الحضيض . . غير أن السياق القرانى تجاوز تماما نهاية المرأة . . أغفلها من سياق القصة ، بعد أن شهدت ليوسف . . وهذا يخدم الغرض الدينى فى القصة ، فالقصة أساسا قصة يوسف وليست قصة المرأة . . وهذا أيضا يخدم الغرض الفنى . . لقد ظهرت المرأة ثم اختفت فى الوقت المناسب . . اختفت فى قمة مأساتها . . وشاب اختفاءها غموض فنى معجز . . ولربما بقيت فى الذاكرة باختفائها هذا زمنا أطول مما كانت تقضيه لو عرفنا بقية قصتها . .

﴿وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى﴾ . .

دخل يوسف على الملك ، تحدث معه الملك بلغته وأجاب يوسف . . تحدث الملك بلغة ثانية ، فجاوبه يوسف بالعربية . . سأله الملك : أى لسان هذا ؟ . . قال يوسف : هذا لسان إسماعيل عم أبى . . تحدث مع الملك بالعبرانية . . سأله الملك ما هذا اللسان؟ . . قال : هذا لسان ابائى إبراهيم وإسحق ويعقوب . . وكان الملك يتكلم بأكثر من لسان ، كان يجيد أكثر من لغة . . ووجد يوسف يجيد أكثر من لغة . .

أدهشت الملك ثقافة يوسف . . ومعرفته العميقة . . ودلف الحديث إلى الحلم . . ونصح يوسف الملك بأن يبدأ تخطيطا صارما لجمع الطعام وخزنه ، لمواجهة سنوات القحط . . وأفهم الملك أن المجاعة ستعم مصر وما حولها من الديار . . وينبغى أن تستعد مصر لمواجهة الموقف بالنسبة لها وغيرها من البلاد المحيطة بها . . نفهم من هذا أن مركز مصر الممتاز كان حقيقة تاريخية قديمة . .

وتساءل الملك عن تنفيذ الخطة . . قال فيما قاله ، كما أورد تفسير القرطبى :

ـ لو جمعت أهل مصر ما أطاقوا هذا الأمر . . ولم يكونوا فيه أمناء .

كان الملك يقصد الطبقة الحاكمة وما حولها من طبقات . . إن العثور على الأمانة فى الطبقة المترفة شديد الصعوبة . .

بعد اعتراف الملك ليوسف بهذه الحقيقة . . قال يوسف : ﴿ **اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾ . لم يكن يوسف فى كلمته يقصد النفع أو الاستفادة . . على العكس من ذلك . . كان يحتمل أمانة إطعام شعوب جائعة لمدة سبع سنوات . . شعوب يمكن أن تمزق حكامها لو جاعت . . كان الموضوع فى حقيقته تضحية من يوسف . .

* * *

لا يثبت السياق القرآنى أن الملك وافق . . فكأنما يقول القرآن الكريم إن الطلب تضمن الموافقة . . زيادة فى تكريم يوسف ، وإظهار مكانته عند الملك . . يكفى أن يقول ليجاب . . بل ليكون قوله هو الجواب ، ومن ثم يحذف رد الملك . . ويفهمنا شريط الصور المعروضة أن يوسف قد صار فى المكان الذى اقترحه . .

وهكذا مكن الله ليوسف فى الأرض . . صار مسئولا عن خزائن مصر واقتصادها . . صار كبيرا للوزراء . . ولعل الجمع بين وظيفتى رئيس الحكومة ورئيس الخزانة قد أرسيت تقاليده يومها . . ولا ينبئنا السياق القرآنى كيف تصرف فى مصر . . نعرف أنه حكيم عليم . . نعرف أنه أمين وصادق . . لا خوف إذن على اقتصاد مصر . .

دارت عجلة الزمن . . طوى السياق دورتها ، ومر مرورا سريعا على سنوات الرخاء ، وجاءت سنوات المجاعة . . وهنا يغفل السياق القرآنى ذكر الملك والوزراء . . كأن الأمر كله قد صار ليوسف . . وها هو ذا القرآن لا يذكر لنا أن المجاعة بدأت . . لا يصف لنا بدءها ، إنما يعرض مشهدا مصورا لإخوة يوسف وقد جاءوا من فلسطين لابتياع طعام من مصر . . طعام كان يوزع بنظام يشبه نظام البطاقات ، وهو نظام لم يعرفه العالم إلا فى قمة حضارته ، بعد نشوء علم التخطيط والاقتصاد الموجه ، وكان قصد يوسف أن يوازن بين حاجات المحتاجين والزمن الطويل الذى يضطلع فيه بالتموين . . ولم يكن كل من يملك الشراء يشترى المقادير التى يستطيع شراءها ليخزنها ويموت الآخرون . . وقيل إنه كان يعطى كل فرد فى الفترة الواحدة حمل بعير . .

جاء إخوة يوسف من الصحراء . . جاءوا يبتاعون طعاما من مصر . .

تقول الأمثال العامية المصرية : «لو شبعت مصر وجاع العالم . . فإن مصر تطعمه . . ولو جاعت مصر لم يشبعها العالم» . . هى الأم الأولى ، ويدها الممدوة بالخير على الأرض قديمة وعريقة . .

جاء الإخوة الذين ألقوه فى البئر . . جاء أولاد يعقوب فى صفوف الجماهير الطويلة صاحبة الحاجة . . وهو يجلس على عرش مصر . . حاكما مطاعا يأمر وينهى . . ويتحكم فى لقمة عيش الناس . . يحف من حوله وزراؤه ورجاله وجنده وأبهته . .

عرف يوسف إخوته على الفور . . ولم يعرفوه هم . . يستحيل أن يعبر طيف يوسف أفكارهم الآن . . لقد تخلصوا منه من زمان بعيد . . وضاق بهم الحال فجاءوا من فلسطين يبحثون عن الطعام فى مصر . . وأجرى يوسف حواره مع إخوته ، بغير أن يكشف لهم عن نفسه . .

كان عدد الإخوة عشرة . . وكان معهم أحد عشر بعيرا . . سألهم يوسف - مستخدما أحد المترجمين - لكى لا يتحدث لغتهم العبرانية :

- نظامنا يقضى بإعطاء كل إنسان قدر بعير من الطعام . . كم عددكم ؟

قالوا : نحن أحد عشر . .

قال يوسف للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا . . وزيكم يخالف زينا . . فلعلكم جواسيس . .

قالوا : والله ما نحن بجواسيس . . بل نحن بنو أب واحد . . شيخ طيب . .

سأل يوسف : قلتم إن عددكم أحد عشر . . ولكنكم عشرة . . ؟

قالوا : كنا اثنى عشر أخا . . هلك لنا أخ فى البرية . . ولنا أخ اخر يحبه أبونا ، ولا يستطيع أن يصبر على فراقه . . جئنا ببعيره بدلا منه . .

قال يوسف : كيف أتأكد من صدقكم ؟

قالوا : اختر شيئا تسكن إليه نفسك . .

قال يوسف : يقضى النظام ألا نصرف لأحد غير موجود . . ائتونى بأخيكم لأصرف له طعامه . . ﴿ ألا ترون أنى أوفى الكيل ﴾ . . . ؟

استمر الحوار بين إخوة يوسف ويوسف . . أفهمهم يوسف أنه سيستثنيهم هذه المرة . . فإذا جاءوا فى المرة القادمة بغير أخيهم فلن يصرف لهم . . قالوا له سنحاول إقناع والده بأن يتركه معنا . .

قال تعالى :

﴿ وجاء إخْوةُ يُوسُف فدخلُوا عليْه فعرفهُمْ وهُمْ لهُ مُنكرُون (٥٨) ولمَّا جهَّزهُم بجهازهمْ قال ائْتُوني بأخٍ لكُم منْ أبيكُمْ ألا ترونْ أني أوفي

﴿الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [1] . .

يذوب المشهد فى مصر ، ويضىء فى أرض كنعان . .

رجع الإخوة إلى أبيهم . . قبل أن ينزلوا أحمال الجمال ويفكوا متاعهم ، دخلوا على أبيهم . .

- منع منا الكيل . .

- وقع هذا بسبب احتفاظك بابنك . .

- قالوا لن نصرف طعاما لمن لا يحضر . .

- لماذا لا تأمنا عليه ؟ . . أرسله معنا ﴿ وإنا له لحافظون﴾ . .

كان واضحا أن الحوار يستهدف إحراج الأب وتحميله مسئولية عدم صرف الطعام لهم . .

ورد الأب بأدب الأنبياء :

قال إنه لا يأمنهم على ابنه الصغير إلا كما أمنهم على يوسف من قبل ، وإنه لا يعبأ بقولهم : ﴿ إنا له لحافظون ﴾ . . ﴿ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ﴾ . .

وفتح الأبناء أوعيتهم ليخرجوا ما فيها من غلال . . فإذا هم يجدون فيها بضاعتهم التى ذهبوا يشترون بها . . مردودة إليهم مع الغلال والطعام . . ورد الثمن يشير إلى عدم الرغبة فى البيع ، أو هو إنذار بذلك . . وربما كان إحراجا لهم ليعودوا لسداد الثمن مرة أخرى . .

وأسرع الأبناء إلى أبيهم . .

﴿ قالوا يا أبانا ما نبغى ﴾ . . لم نكذب عليك . . لقد رد إلينا الثمن الذى ذهبنا نشترى به . .

هذا معناه أنهم لن يبيعوا لنا إلا إذا ذهب أخونا معنا . .

---

(١) الآيات من ٥٨ إلى ٦٢ سورة يوسف مكية .

واستمر حوارهم مع الأب . . أفهموه أن حبه لابنه والتصاقه به يفسدان مصالحهم ، ويؤثران على اقتصادهم ، وهم يريدون أن يتزودوا أكثر ، وسوف يحفظون أخاهم أشد الحفظ وأعظمه . . وانتهى الحوار باستسلام الأب لهم . . بشرط أن يعاهدوه على العودة بابنه ، إلا إذا خرج الأمر من أيديهم وأحيط بهم . . نصحهم الأب ألا يدخلوا - وهم أحد عشر رجلا - من باب واحد من أبواب بمصر . . كي لا يستلفتوا انتباه أحد . . وربما خشي عليهم أبوهم شيئا كالسرقة أو الحسد . . لا يقول لنا السياق ماذا كان الأب يخشى ، ولو كان الكشف عن السبب مهما لقيل . .

توكل يعقوب على الله وأسلمهم ولده . . قال تعالى :

﴿ فلمّا رجعُوا إلىٰ أبيهمْ قالُوا يا أبانا مُنع منّا الْكيْلُ فأرْسلْ معنا أخانا نكْتلْ وإنّا لهُ لحافظُون (٦٣) قال هلْ آمنُكُمْ عليْه إلاّ كما أمنتُكُمْ علىٰ أخيه من قبْلُ فاللّهُ خيْرٌ حافظا وهُو أرْحمُ الرّاحمين (٦٤) ولمّا فتحُوا متاعهُمْ وجدُوا بضاعتهُمْ رُدّتْ إليْهمْ قالُوا يا أبانا ما نبْغي هذه بضاعتُنا رُدّتْ إليْنا ونميرُ أهْلنا ونحْفظُ أخانا ونزْدادُ كيْل بعيرٍ ذلك كيْلٌ يسيرٌ (٦٥) قال لنْ أُرْسلهُ معكُمْ حتّىٰ تُؤْتُون موْثقا مّن اللّه لتأْتُنّني به إلاّ أن يُحاط بكُمْ فلمّا آتوْهُ موْثقهُمْ قال اللّهُ علىٰ ما نقُولُ وكيلٌ (٦٦) وقال يا بنيّ لا تدْخُلُوا منْ بابٍ واحدٍ وادْخُلُوا منْ أبْوابٍ مُتفرّقة وما أُغْني عنكُم مّن اللّه من شيْءٍ إن الْحُكْمُ إلاّ للّه عليْه توكّلْتُ وعليْه فلْيتوكّل الْمُتوكّلُون (٦٧) ولمّا دخلُوا منْ حيْثُ أمرهُمْ أبُوهُم مّا كان يُغْني عنْهُم مّن اللّه من شيْءٍ إلاّ حاجة في نفْس يعْقُوب قضاها وإنّهُ لذُو علْمٍ لّما علّمْناهُ ولكنّ أكْثر النّاس لا يعْلمُون ﴾[1] .

عاد إخوة يوسف الأحد عشر هذه المرة . .

﴿ ولمّا دخلُوا علىٰ يُوسُف آوىٰ إليْه أخاهُ قال إنّي أنا أخُوك فلا تبْتئسْ بما كانُوا يعْملُون ﴾[2] .

---

(١) الآيات ٦٣ إلى ٦٨ سورة يوسف مكية .   (٢) الآية ٦٩ سورة يوسف مكية .

يقفز السياق قفزا إلى مشهد يوسف وهو يحتضن أخاه ويكشف له وحده سر قرابته ، ولا ريب أن هذا لم يحدث فور دخول الإخوة على يوسف ، وإلا لانكشفت لهم قرابة يوسف، إنما وقع هذا فى خفاء وتلطف ، فلم يشعر إخوته ، غير أن السياق المعجز يقفز إلى أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه ورؤيته لأخيه . . وهكذا يجعله القرآن أول عمل ، لأنه كان أول خاطر ، وهذه من دقائق التعبير فى هذا الكتاب العظيم . .

يطوى السياق كذلك فترة الضيافة ، وما دار فيها بين يوسف وإخوته ، ويعرض مشهد الرحيل الأخير . . ها هو ذا يوسف يدبر شيئا لأخوته . . يريد أن يحتفظ بأخيه الصغير معه . .

يعلم أن احتفاظه بأخيه سيثير أحزان أبيه ، وربما حركت الأحزان الجديدة أحزانه القديمة ، وربما ذكره هذ الحادث بفقد يوسف . . يعلم يوسف هذا كله . . وها هو ذا يرى أخاه . . وليس هناك دافع قاهر لاحتفاظه به ، لماذا يفعل ما فعل ويحتفظ بأخيه هكذا؟!

يكشف السياق عن السر فى ذلك . . إن يوسف يتصرف بوحى من الله . . يريد الله تعالى أن يصل بابتلائه ليعقوب إلى الذروة . . حتى إذا جاوز به منطقة الألم البشرى المحتمل وغير المحتمل ، ورآه صابرا رد إليه ابنيه معا ، ورد إليه بصره . . .

انتهى يوسف من تدبيره . .

أمر رجاله أن يخفوا كأس الملك الذهبية فى متاع أخيه خلسة . . وكانت الكأس تستخدم كمكيال للغلال . . وكانت لها قيمتها كمعيار فى الوزن إلى جوار قيمتها كذهب خالص . .

أخفى الكأس فى متاع أخيه . . وتهيأ إخوة يوسف للرحيل ، ومعهم أخوهم . . ثم أغلقت أبواب العاصمة . . . ﴿ ثم أذّن مؤذّن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ . . !!

كانت صرخة الجند تعنى وقوف القوافل جميعا . . وانطلق الاتهام فوق رءوس الجميع كقضاء خفىّ غامض . . أقبل الناس ، وأقبل معهم إخوة يوسف . . ﴿ ماذا تفقدون ﴾؟

هكذا تساءل إخوة يوسف . . قال الجنود : ﴿ نفقد صُواع الملك ﴾ . . ضاعت كأسه الذهبية . . ولمن يجىء بها مكافأة . . سنعطيه حمل بعير من الغلال . .

قال إخوة يوسف ببراءة : لم نأت لنفسد فى الأرض ونسرق . . قال ضباط يوسف [وكان يوسف قد وجههم لما يقولونه] : أى جزاء تحبون توقيعه على السارق ؟

قال إخوة يوسف : فى شريعتنا نعتبر من سرق عبدا لمن سرقه . .

قال الضابط : سنطبق عليكم قانونكم الخاص . . لن نطبق عليكم القانون المصرى الذى يقضى بسجن السارق . .

كانت هذه الإجابة كيدا وتدبيرا من الله تعالى ، ألهم يوسف أن يحدث بها ضباطه . . ولولا هذا التدبير الإلهى لامتنع على يوسف أن يأخذ أخاه . . فقد كان دين الملك أو قانونه لا يقضى باسترقاق من سرق . .

التفت كبير الضباط وأمر : ابدءوا التفتيش . .

كان يوسف يرقب هذا كله من مكانه على العرش . . كان قد أصدر أمره لضباطه أن يبدءوا تفتيش إخوته أولا . . فلا يخرجوا كأس الملك إلا فى التفتيش الأخير . . تم تفتيش الأخ الأول ، والثانى ، حتى وصلوا إلى العاشر . . لم يجدوا شيئا . .

اطمأن إخوة يوسف إلى براءتهم من السرقة وتنفسوا الصعداء ، وقالوا لم يبق إلا أخونا الصغير . .

قال يوسف [وهو يتدخل للمرة الأولى] : لا داعى لتفتيشه . . لا يبدو أنه سارق . .

قال إخوة يوسف : لن نرحل إلا إذا فتش متاعه . . لتطمئن قلوبنا وتطمئن قلوبكم . . إننا أبناء شيخ طيب ، ولسنا سارقين . . وامتدت أيدى الضباط إلى رحل أخيه ، وأخرجت كأس الملك . .

صار أخو يوسف عبدا ليوسف بمقتضى قانونهم الذى طبقه القضاء على الحادث . .

أعقب ذلك مشهد عنيف المشاعر . . إن إحساس الإخوة براحة الإنقاذ والنجاة من التهمة ، جعلهم يستديرون باللوم على شقيق يوسف . . ﴿ **قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾ . .

إنهم يتنصلون من تهمة السرقة ، ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب . .

سمع يوسف بأذنيه اتهامهم له ، وأحس بحزن عميق . . كتم يوسف أحزانه فى نفسه ولم يظهر مشاعره . . قال بينه وبين نفسه . . ﴿ **أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون** ﴾ . .

لم يكن هذا سبابا لهم ، بقدرما كان تقريرا حكيما لقاعدة من قواعد الأمانة . .

أراد أن يقول بينه وبين نفسه : إنكم بهذا القذف شر مكانا عند الله من المقذوف ، لأنكم تقذفون بريئين بتهمة السرقة . . والله أعلم بحقيقة ما تقولون . .

سقط الصمت بعد تعليق الإخوة الأخير . . ثم انمحى إحساسهم بالنجاة ، وتذكروا يعقوب . . لقد أخذ عليهم عهدا غليظا ، ألا يفرطوا فى ابنه . .

وبدءوا استرحام يوسف : يوسف أيها العزيز . . يوسف أيها الملك . . ﴿ إن له أبا شيخا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴾ . .

قال يوسف بهدوء : كيف تريدون أن نترك من وجدنا كأس الملك عنده . . ونأخذ بدلا منه إنسانا آخر . . ؟! هذا ظلم . . ونحن لا نظلم . .

حاول الإخوة أن يستمروا فى استرحامه ، ولكن الضباط والجنود أفهموهم أن عزيز مصر . . يوسف الصديق . . قد تكلم وانتهى الأمر . . لينصرفوا ويتركوا أخاهم عبدا عنده . .

وتحرك إخوة يوسف . . لا يدرون كيف يتصرفون فى مصيبتهم الجديدة . . ولا كيف يواجهون أباهم بما حدث . .

جلس أكبرهم على الأرض وقال : لن أتحرك من مكانى . . لقد فرطتم من قبل فى يوسف . . وها أنتم أولاء تفرطون فى أخيه . . ارجعوا إلى أبيكم بغيرى . . فقولوا له ما حدث . . قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا
الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ
صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ
عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن
كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن
يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِن
يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ
قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا
شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ

أن نّأْخذ إلاّ من وجدْنا متاعنا عندهُ إنّا إذا لّظالمُون (٧٩) فلمّا اسْتيْأسُوا منْهُ خلصُوا نجيّا قال كبيرُهُمْ ألمْ تعْلمُوا أنّ أباكُمْ قدْ أخذ عليْكُم مّوْثقا مّن الله ومن قبْلُ ما فرّطتُمْ في يُوسُف فلنْ أبْرح الأرْض حتّىٰ يأذن لي أبي أوْ يحْكُم اللهُ لي وهُو خيْرُ الْحاكمين ﴾[1] . .

استقر رأى الإخوة على العودة بغير شقيقهم الكبير وأخيهم الصغير . . دخلوا على أبيهم فقالوا : ﴿ يا أبانا إن ابنك سرق﴾ . .

تساءل الأب مندهشا ، وكأنه يكذب سمعه : ماذا تقولون ؟!

حدثوه عما وقع . . أخبروه أنهم يقولون له ما شهدوه بأعينهم ، وليسأل من كانوا معهم فى مصر . . ليسأل القافلة التى جاءوا فيها . . إنهم صادقون هذه المرة فقد كان هناك شهود طيلة الوقت . .

استمع يعقوب إليهم وقال بحزن صابر ، وعين دامعة : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم﴾ . .

لم يصدق يعقوب . . جربهم من قبل فلم ير لهم صدقا . . انتهى الأمر وأغلقت عليه أبواب الوحدة . . صار وحيدا بغير ابنيه اللذين أحبهما أكثر مما أحب بقية أبنائه . . كان يعقوب شيخا عجوزا ، والأن فإن الله يبتليه فى شيخوخته بوحدة موحشة . . غير أن يعقوب يوصى نفسه بالصبر ، ويتوكأ عليه ، وينوى أن يكون صبره جميلا بغير شكاة لأحد . . إلا الله . . وهو يؤمل فى الله خيرا ، ويرجوه أن يأتيه بأبنائه جميعا . . إنه هو العليم بحاله ، الحكيم ، الرءوف ، الودود . .

انكفأ يعقوب عائدا لغرفته . . لم يكد يستدير ويمضى حتى هاج الحادث الجديد حزنه القديم على يوسف . . ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ . . خرجت من قلبه مرتعشة ترتجف بالحب . . وامتلأت عيناه بدموع كبيرة راحت تزيد حزنه اشتعالا ، بدلا من تسكينه وإطفائه . .

يطلعنا الله على حوار الإخوة ولقائهم بأبيهم فى قوله تعالى :

﴿ ارْجعُوا إلىٰ أبيكُمْ فقُولُوا يا أبانا إنّ ابْنك سرق وما شهدْنا إلاّ بما علمْنا وما كُنّا للْغيْب حافظين (٨١) واسْأل الْقرْية الّتي كُنّا فيها والْعير الّتي

---

(١) الآيات من ٧٠ إلى ٨٠ سورة يوسف مكية .

أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾(١).

أسلمه البكاء الطويل إلى فقد بصره . . أو ما يشبه فقد بصره . .

هناك من يقول : كان نبيا ويبكى هذا البكاء . . أليس البكاء لونا من ألوان اليأس؟ . . ونقول ردا على ذلك : إن الأنبياء هم أعظم الناس إحساسا بالمشاعر ، وأعمقهم تأثرا ، وأشدهم استجابة للمؤثرات . .

والبكاء درجة من درجات الحب . . ولون من ألوان الشكوى إلى الله . . ولقد كان يعقوب يبكى لأنه صاحب قلب كبير . . ولم يكن يبكى أمام أحد . . كان بكاؤه شكوى إلى الله لا يعلمها إلا الله . . ثم لاحظ أبناؤه أنه لم يعد يبصر ورجحوا أنه يبكى على يوسف ، وهاجموه فى مشاعره الإنسانية كأب . . حذروه بأنه سيهلك نفسه . .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

ردهم جواب يعقوب إلى حقيقة بكائه . . إنه يشكو همه إلى الله . . ويعلم من الله ما لا يعلمون . . فليتركوه فى بكائه وليصرفوا همهم لشىء أجدى عليهم . .

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣) .

إنه يكشف لهم فى عمق أحزانه عن أمله فى روح الله . . إنه يشعر بأن يوسف لم يمت كما أنبئوه . . لم يزل حيا ، فليذهب الإخوة بحثا عنه . . وليكن دليلهم فى البحث ، هذا الأمل العميق فى الله . .

---

(١) الآيات من ٨١ ـ ٨٤ سورة يوسف مكية . (٢) الآيتان ٨٥ ، ٨٦ سورة يوسف مكية .

(٣) الآية ٨٧ سورة يوسف مكية .

تحركت القافلة فى طريقها إلى مصر . . إخوة يوسف فى طريقهم إلى العزيز . . تدهور حالهم الاقتصادى وحالهم النفسى . . إن فقرهم وحزن أبيهم ومحاصرة المتاعب لهم ، قد هدت قواهم تماما . . ها هم أولاء يدخلون على يوسف . . معهم بضاعة رديئة . . جاءوا بثمن لا يتيح لهم شراء شيء ذى بال . . قال تعالى :

﴿ فلمّا دخلُوا عليْه قالُوا يأيها الْعزيزُ مسّنا وأهْلنا الضُّرُّ وجئْنا ببضاعة مُزْجاة فأوْف لنا الْكيْل وتصدّقْ علينا إنّ الله يجْزي الْمتصدقين ﴾(١) . .

انتهى الأمر بهم إلى التسول . . إنهم يسألونه أن يتصدق عليهم . . ويستميلون قلبه ، بتذكيره أن الله يجزى المتصدقين . .

عندئذ . . وسط هوانهم وانحدار حالهم . . حدثهم يوسف بلغتهم ، بغير واسطة ولا مترجم . .

﴿ قال هلْ علمْتُم ما فعلْتم بيُوسُف وأخيه إذْ أنتُمْ جاهلُون (٨٩) قالُوا أئنك لأنت يُوسُفُ قال أنا يُوسُفُ وهذا أخي قد منّ اللّهُ علينا إنّهُ من يتّق ويصبرْ فإنّ الله لا يُضيعُ أجْر الْمُحْسنين (٩٠) قالُوا تالله لقدْ آثرك اللّهُ علينا وإن كُنّا لخاطئين ﴾ (٢) .

يكاد الحوار يتحرك بأدق تعبير عن مشاعرهم الداخلية . . فاجأهم عزيز مصر بسؤالهم عما فعلوه بيوسف . . كان يتحدث بلغتهم فأدركوا أنه يوسف . . وراح الحوار يمضى فيكشف لهم خطيئتهم معه . . لقد كادوا له ﴿والله غالب على أمره ﴾ . .

مرت السنوات ، وذهب كيدهم له . . ونفذ تدبير الله المحكم الذى يقع بأعجب الأسباب . . كان إلقاؤه فى البئر هو بداية صعوده إلى السلطة والحكم . . وكان إبعادهم له عن أبيه سببا فى زيادة حب يعقوب له . . وها هو ذا الستار يفتح عنهم . . وهو يملك رقابهم وحياتهم ، وهم يقفون فى موقف استجداء عطفه . . إنهم يختمون حوارهم معه بقولهم :

- ﴿تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ . .

إن روح الكلمات واعترافهم بالخطأ يشيان بخوف مبهم غامض يجتاح نفوسهم . .

---

(١) الآية ٨٨ من سورة يوسف مكية . (٢) الآيات من ٨٩ إلى ٩١ من سورة يوسف مكية .

ولعلهم فكروا فى انتقامه منهم وارتعدت فرائصهم . . ولعل يوسف أحس ذلك منهم فطمأنهم بقوله :

﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1] . .

لا مؤاخذة ، ولا لوم ، انتهى الأمر من نفسى وذابت جذوره . . لم يقل لهم إننى أسامحكم أو أغفر لكم ، إنما دعا الله أن يغفرلهم ، وهذا يتضمن أنه عفا عنهم وتجاوز عفوه ، ومضى بعد ذلك خطوات . . دعا الله أن يغفر لهم . . وهو نبى ودعوته مستجابة . . وذلك تسامح نراه آية الآيات فى التسامح . .

ها هو ذا يوسف ينهى حواره معهم بنقلة مفاجئة لأبيه . . يعلم أن أباه قد ابيضت عيناه من الحزن عليه . . يعلم أنه لم يعد يبصر . . لم يدر الحوار حول أبيه لكنه يعلم . . يحس قلبه . . خلع يوسف قميصه وأعطاه لهم . .

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2] . .

وعادت القافلة إلى فلسطين . .

يذوب المشهد فى مصر ، ويضىء فى فلسطين . . نحن فى بيت يعقوب . . يجلس الرجل فى حجرته ، أبيض العينين ، قد حفر البكاء أخدودين فى وجهه . .

ينهض الرجل فجأة . . ثمة تحول فى وجه الشيخ المحزون الأعمى . . ها هو ذا يبدل ثيابه ويخرج على زوجات أبنائه . .

وقف فى فناء الدار ، رفع رأسه إلى السماء ، وتشمم الهواء بقوة . . ملأ صدره من الرياح القادمة من مصر . . ثم استدار عائدا لغرفته . .

قالت زوجة الابن الأكبر لزوجات الأبناء الآخرين : خرج يعقوب اليوم على غير عادته . . قلبى يحدثنى بشىء . هجر عزلته ووقف فى الفناء . . نظر إلى السماء وهو أعمى ، فكيف نظر إلى السماء . . ؟ لا أعرف . . ولكننى أقسم أننى لمحت ظل ابتسامة فى وجهه . .

تساءلت نساء الأبناء بالدهشة : تقولين إنه ارتدى ثيابا جديدة ؟ . . وتقولين إنه ابتسم ؟

وتهرع النساء إليه . لا ظل لابتسامة فى وجهه . . أكان وهما ما رأته المرأة . . ؟

---

(١) الآية ٩٢ سورة يوسف.
(٢) الآية ٩٣ سورة يوسف مكية .

سألته النسوة : بم تحس اليوم أيها الجليل ؟

قال الشيخ : ﴿ إنى لأجد ريح يوسف ﴾ . .

وزامت النسوة . . فأضاف : ﴿ لولا أن تفنّدون ﴾ . .

انفضت عنه زوجات الأبناء ، ودار بينهن الحوار :

- لا أمل فى الشيخ . . سيهلكه البكاء على يوسف . .

- هل تحدث عن قميصه ؟

- لا أعرف . . قال : إنه يجد ريحه . .

- تتآكل ذاكرة الشيوخ مع الوقت ، وهذا على العكس . . تزداد ذاكرته مضاء وحدة . .

- لم يزل الحادث طريا فى ذهنه . .

- تقولين إنه بدل ثيابه . . ؟

- لعله جن . .

- الجنون وحده هو الذى يبعث صور من نحب ، ورائحتهم . .

يومها طلب الشيخ كوبا من اللبن . . كان صائما فأفطر عليه ، ولأول مرة يطلب الطعام ولا يفرض عليه . . وراح فى المساء يبدل ثيابه ببطء . .

القافلة تسير بقميص يوسف . . كان القميص مخبأ فى القمح . . كان مختلطا بندى الحقول ورائحة الأرض الطيبة وعطر يوسف ودفء الشمس التى أنضجت القمح .

وتقترب القافلة من قرية الشيخ . . الشيخ يدور فى غرفته . . يصلى طويلا ، ويرفع يديه للسماء ، ويعاود استنشاق الهواء ، والبكاء . . بينما القميص المندى بالشمس ورائحة يوسف فى طريقهما إليه .

﴿ ولمّا فصلت العيرُ قال أبوهُم إني لأجدُ ريح يُوسُف لولا أن تُفندُون (٩٤) قالُوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم (٩٥) فلمّا أن جاء البشيرُ ألقاهُ علىٰ وجهه فارتد بصيرا قال ألمْ أقُل لّكُم إني أعلمُ من الله ما لا تعلمُون (٩٦) قالُوا يا أبانا استغفر لنا ذُنوبنا إنا كُنا خاطئين (٩٧) قال سوف أستغفرُ لكُمْ ربي إنّهُ هُو الغفورُ الرحيمُ ﴾ [١] . .

---

(١) الآيات من ٩٤ إلى ٩٨ سورة يوسف مكية .

ها هو ذا المشهد الأخير فى قصة يوسف . . بدأت قصته برؤيا . . وها هو ذا الختام تأويل رؤياه . .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

تأمل الآن مشاعره ورؤياه تتحقق . . إنه يدعو ربه . .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

هى دعوة واحدة . . ﴿ توفنى مسلما ﴾ . .

لا نريد أن نترك قصة يوسف الكريم ابن يعقوب الكريم ، قبل أن نلاحظ هذه الملاحظة . .

فى قصة سيدنا إبراهيم ، ينزع الحب الغريزى من قلبه لابنه سيدنا إسماعيل ، حتى يصير القلب خالصا لله وحده ، فإذا تحقق الأمر يرفع أمر الذبح ويأتى الفداء . .

وثمة مماثلة فى قلب سيدنا يعقوب . . بالنسبة لابنه يوسف ، أحب يوسف فابتلى بضياعه ، فلما صار قلبه خالصا لله دون أغيار من يوسف وأخيه ، رد الله إليه ولديه . .

وثمة مماثلة فى قصة الإفك . . إذ ينزع ميل سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، إلى السيدة عائشة ، رضى الله تعالى عنها ، حتى يصير القلب خالصا لله دون أغيار . . بعدها تنزل براءتها وتحتل مكانتها باسم الله . . بكلمة الله .

---

(١) الأيتان ٩٩ ، ١٠٠ سورة يوسف مكية . (٢) الآية ١٠١ سورة يوسف مكية .

قصة شعيب
[عليه الصلاة والسلام]

يعتقد كثير من الناس في زماننا أن الدين مجموعة من القضايا المجردة ، والقيم الأخلاقية . . وهذا اعتقاد قديم وخاطئ . . إن الدين في حقيقته الثانية أسلوب للحياة والتعامل . . حقيقته الأولى أنه صلة بالله . .

ولهذا كان الفصل بين قضايا التوحيد والألوهية ، والقيم الأخلاقية ، وسلوك الناس في حياتهم اليومية ، يعني تجريد الدين من حياته ، وتحويله إلى مجموعة من الطقوس المزركشة والمراسيم الميتة . .

لقد أبرزت قصة شعيب هذا المعنى بشكل واضح . . أرسل الله تعالى شعيبا إلى أهل «مدين» . .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾(١) . .

نفس الدعوة التي يدعوها كل نبي . . لا تختلف من نبي إلى آخر . . لا تتبدل ولا تتردد . .

هي أساس العقيدة . . وبغير هذا الأساس يستحيل أن ينهض بناء . .

بعد وضع الأساس . . يبدأ شعيب في تفصيل دعوته . .

﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾(٢) . .

بعد قضية التوحيد مباشرة . . ينتقل النبي إلى قضية المعاملات اليومية . . قضية الأمانة والعدالة . . كان أهل مدين ينقصون المكيال والميزان ، ولا يعطون الناس

---

(١) من الآية ٨٤ سورة هود مكية .

(٢) من الآية ٨٤ سورة هود مكية .

حقهم . . وهى رذيلة تمس نظافة القلب واليد . . كما تمس كمال المروءة والشرف ، وكان أهل مدين يعتبرون بخس الناس أشياءهم . . نوعا من أنواع المهارة فى البيع والشراء . . ودهاء فى الأخذ والعطاء . . ثم جاء نبيهم وأفهمهم أن هذه دناءة وسرقة . . أفهمهم أنه يخاف عليهم بسببها من عذاب يوم محيط . . انظر إلى تدخل الإسلام الذى بعث به شعيب فى حياة الناس ، إلى الحد الذى يرقب فيه عملية البيع والشراء .

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١) . .

لم يزل شعيب ماضيا فى دعوته . . ها هو ذا يكرر نصحه لهم بصورة إيجابية بعد صورة النهى السلبية . . إنه يوصيهم أن يوفوا المكيال والميزان بالقسط . . بالعدل والحق . . وهو يحذرهم أن يبخسوا الناس أشياءهم . .

وليس بخس الناس أشياءهم أو حقوقهم مقصورا على البيع والشراء ، إنما هو أمر عام يمس علاقات العمل . . ويحكمها بمعيار جديد كل الجدة . . هو معيار الأمانة . . وهكذا تبدو عقيدة التوحيد طفرة ضخمة فى طريق الأمانة والعدالة وتغيير أسلوب الناس وسلوكهم وتصرفاتهم فى الحياة اليومية ، سواء فى علاقات العمل والإنتاج ، أو علاقات التبادل ، أو التصرفات الشخصية البحت . .

إن التعبير القرآنى يقول :

﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ (٢) . .

وكلمة الشيء تطلق على الأشياء المادية والمعنوية . . وتدخل فيها الأعمال وعلاقات الإنتاج ، أو التصرفات الشخصية البحت . .

ويعنى النص تحريم الظلم ، سواء كان ظلما فى وزن الفاكهة أو الخضراوات ، أو ظلما فى تقييم مجهود الناس وأعمالهم . . ذلك أن ظلم الناس يشيع فى جو الحياة مشاعر من الألم واليأس واللامبالاة ، وتكون النتيجة أن ينهزم الناس من الداخل ، وتنهار علاقات العمل ، وتلحقها القيم . . ويشيع الاضطراب فى الحياة . . ولذلك يستكمل النص تحذيره من الإفساد فى الأرض . .

---

(١) الآية ٨٥ من سورة هود مكية .

(٢) نفس الآية السابقة .

﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١] . .

العثو . . هو تعمد الإفساد . . والقصد إليه . . ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ . . لا تفسدوا فى الأرض متعمدين قاصدين . . ﴿ بقيةُ الله خير لكم ﴾ . . ما عند الله خير لكم . . ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ . .

بعدها يخلى بينهم وبين الله الذى دعاهم إليه . . ينحى نفسه ويفهمهم أنه لا يملك لهم شيئا . . ليس موكلا عليهم ولا حفيظا عليهم ولا حارسا لهم . . إنما هو رسول يبلغهم رسالات ربه . .

﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[٢] .

بهذا الأسلوب يشعر شعيب قومه بأن الأمر جد ، وخطير ، وثقيل . . وهو يرفع الستار عن عاقبة إفسادهم ويتركهم أمام العاقبة وحدهم . .

انتهى الجزء الأول من حوار شعيب . .

كان هو الذى يتكلم . . وكان قومه يستمعون . . توقف هو عن الكلام وتحدث قومه . .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[٣] . .

كان أهل مدين كفارا يقطعون السبيل ، ويخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة . . وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها . . وكانوا من أسوإ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما ، ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص . . انظر بعد هذا كله إلى حوارهم مع شعيب : ﴿ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك ﴾ . . . ؟

كأن هذه الصلاة قعيدة هناك تدفع شعيبا وتوسوس له وتأمره فيطيع دون تردد ودون تفكير . . لقد تحول شعيب ـ بسبب صلاته ـ إلى آلة متحركة وأداة لا تعى . .

---

(١) من الآية ٨٥ ومن آية ٨٦ من سورة هود مكية .
(٢) من الآية ٨٦ سورة هود مكية .
(٣) الآية ٨٧ من سورة هود مكية .

﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (١) .

بهذا التهكم الخفيف والسخرية المندهشة . . واستهوال الأمر . . لقد تجرأت صلاة شعيب وجنت وأمرته أن يأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم . . ولقد كان آباؤهم يعبدون الأشجار والنباتات . . وصلاة شعيب تأمرهم أن يعبدوا الله وحده . . أى جرأة من شعيب . . ؟! أو فلنقل أى جرأة من صلاة شعيب . . ؟! بهذا المنطق الساخر الهازئ وجه قوم شعيب خطابهم إلى نبيهم . . ثم عادوا يتساءلون بدهشة ساخرة :

﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ (٢) .

تخيل يا شعيب أن صلاتك تتدخل فى إرادتنا ، وطريقة تصرفنا فى أموالنا . . ما هى علاقة الإيمان والصلاة بالمعاملات المادية ؟

بهذا التساؤل الذى ظنه قوم شعيب قمة فى الذكاء . . طرحوا أمامه قضية الإيمان ، وأنكروا أن تكون لها علاقة بسلوك الناس وتعاملهم . . واقتصادهم . . هى قضية قديمة إذن . .

هذه المحاولة للتفريق بين الحياة الاقتصادية والإسلام ، وقد بعث به كل الأنبياء ، وإن اختلفت أسماؤه . هذه المحاولة قديمة من عمر قوم شعيب . .

لقد أنكروا أن يتدخل الدين فى حياتهم اليومية ، وسلوكهم ، واقتصادهم ، وطريقة إنفاقهم لأموالهم بحرية . . إن حرية إنفاق المال أو إهلاكه أو التصرف فيه شىء لا علاقة له بالدين . . هذه حرية الإنسان الشخصية . . وهذا ماله الخاص ، ما الذى أقحم الدين على هذا وذاك ؟ هذا هو فهم قوم شعيب للإسلام الذى جاء به شعيب ، وهو لا يختلف كثيرا أو قليلا عن فهم عديد من الأقوام فى زماننا الذى نعيش فيه . .

ما للإسلام وسلوك الناس الشخصى ، وحياتهم الاقتصادية ، وأسلوب الإنتاج ، وطرق التوزيع ، وتصرف الناس فى أموالهم كما يشاءون . . ؟ ما للإسلام وحياتنا اليومية . . . ؟

﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٣) .

يريدون أن يقولوا له ، لو كنت حليما رشيدا لما قلت ما تقول . .

إنهم يعودون إلى السخرية منه والاستهزاء بدعوته . .

---

(١) من الآية ٨٧ من سورة هود مكية . (٢) من الآية ٨٧ سورة هود مكية .
(٣) من الآية ٨٧ سورة هود مكية .

ولو أنك سألت قوم شعيب عن تصورهم للدين : ما داموا ينكرون أنه أسلوب فى الحياة يجعلها أرشد وأنظف وأعدل وأجدر بخلافة الله فى الأرض . . لو أنك سألتهم عن الدين لأنبئوك أنه مجموعة من القيم الروحية الطيبة التى لا تتدخل فى الحياة اليومية . . وبهذا الفهم يتحول الدين إلى حلية من حلى الزينة . . وهذا فهم مضحك . . لأن الله لا يرسل الأنبياء والرسالات للزينة أو اللهو . . سبحانه وتعالى علوا كبيرا على ذلك . . إنما يرسل الله أنبياءه بأسلوب جديد للحياة . . أسلوب ينطوى على قيم وأفكار لا يكون لها أى معنى إذا لم تتحول إلى نظام يحكم الحياة العامة ، ويحكم الحياة الخاصة . . يحكم هذه وتلك على امتداد الوقت . .

بهذا الفهم يستقيم معنى الدين . . وبهذا التصور نفهم تدخل الدين فى أمور الحياة اليومية ، ابتداء من علاقات الحب ، إلى نظم الزواج ، إلى أسلوب قضاء الإجازات على الشواطئ ، إلى طريقة إنفاق النقود وتوظيفها ، إلى نظام توزيع الثروات وإنمائها ، واستغلال العمل البشرى وتهيئة الظروف للإنتاج . .

يحكم الدين هذا كله . . إذا فهم الناس هذا ، صار الدين دينا بحق ، وإلا كان الأمر هزلا فى هزل . . ولقد أدرك شعيب أن قومه يسخرون منه لاستبعادهم تدخل الدين فى الحياة اليومية . . ولذلك تلطف معهم تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذى معه ، وتجاوز سخريتهم لا يباليها ، ولا يتوقف عندها ، ولا يناقشها . . تجاوز السخرية إلى الجد . . أفهمهم أنه على بينة من ربه . . إنه نبى يعلم . . وهو لا يريد أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، إنه لا ينهاهم عن شيء ليحقق لنفسه نفعا منه . . إنه لا ينصحهم بالأمانة ليخلو له السوق فيستفيد من التلاعب . . إنه لا يفعل شيئا من ذلك . . إنما هو نبى . . وها هو ذا يلخص لهم كل دعوات الأنبياء هذا التلخيص المعجز :

﴿ إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإصْلاحَ ما اسْتَطعْتُ ﴾ (١) . .

إن ما يريده هو الإصلاح . . هذه هى دعوات الأنبياء فى مضمونها الحقيقى وعمقها البعيد . . إنهم مصلحون أساسا ، مصلحون للعقول . . والقلوب . . والحياة العامة . . والحياة الخاصة . .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٢) . .

---

(١) من الآية ٨٨ سورة هود مكية .

(٢) الآية ٨٨ من سورة هود مكية .

بعد أن أوضح أهدافه لهم ، وكشف عن حقيقة دعوته . . استعار لعقولهم أجنحة وطاف بها فى كتاب التاريخ البشرى ، أراهم مصارع من كان قبلهم من الناس . . قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح . . وما قوم لوط ببعيد . .

ويبدأ شعيب حواره معهم بأن ينبههم إلى أن عنادهم معه قد يحملهم على تكذيبه ومخالفته . . ومخالفة الأنبياء تنتهى إلى نتائج مؤسفة . . يهلك المكذبون دائما . .

﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾(١) .

بعد دعوتهم إلى الله وبيان أسلوب الإصلاح ، وتحذيرهم من العناد ، وتخويفهم من مصارع المكذبين السابقين . . يفتح لهم النبى باب الاستغفار والتوبة . . ويستلفتهم بالرفق إلى ربه الرحيم الودود . .

ويبدو أن قوم شعيب كانوا قد اختاروا العذاب . . إن قسوة قلوبهم وإصرارهم على مكاسبهم الحرام ، ورضاء النظام الحاكم عن نفسه ، وإصراره على الوقوف ضد شعيب ، نجح هذا كله فى أن يصوغ الجواب التالى على ألسنة الكفار :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ (٢) .

لا نفهم عنك . . أنت تخرف . . لا تقول ما يفهم . .

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ (٣) .

ضعيف لأن الفقراء والتعساء هم الذين آمنوا به ، أما الأغنياء والكبراء وأتباعهم فقد وقفوا جميعا ضده . . وهو بالحساب البشرى لا يملك قوة كافية لفرض دعوته . . هو إذن ضعيف . .

﴿ وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ (٤) .

لولا أهلك وقومك ومن يتبعك لحفرنا لك حفرة وقتلناك ضربا بالحجارة . .

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (٥) .

---

(١) الأيتان ٨٩ ، ٩٠ سورة هود مكية .

(٢) من الآية ٩١ سورة هود مكية .

(٣) من الآية السابقة (٩١) من سورة هود مكية .

(٤ ، ٥) الآية ٩١ من سورة هود مكية .

انتقل القوم من السخرية به إلى الهجوم عليه . . أقام عليهم الحجة بعد سخريتهم الجاهلة ، فغيروا أسلوبهم فى الحوار . . أفهموه أنهم لا يفهمون ما يقول ، وأنهم يرونه ضعيفا وذليلا ، ولولا أنهم يخافون من أهله أو يصعب عليهم أهله لقتلوه . . كشفوا عن كراهيتهم له وتمنيهم قتله لولا أسباب تتصل بأهله . .

وتلطف معهم شعيب . . تجاوز عن إساءتهم إليه وسألهم سؤالا كان هدفه إيقاظ عقولهم . .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾(١) .

أمن العقل أن يتصور ذلك . . ؟ إنهم يسيئون تقدير حقيقة القوى التى تتحكم فى الوجود . . إن الله هو وحده العزيز . . وهو وحده القوى . . والمفروض أن يدركوا ذلك . . المفروض ألا يقيم الإنسان وزنا فى الوجود لغير الله . . ولا يخشى فى الوجود غير الله . . ولا يعمل حسابا فى الوجود لقوة غير الله . . إن الله هوالقاهر فوق عباده . .

ويبدو أن قوم شعيب ضاقوا ذرعا بشعيب . .

واجتمع رؤساء قومه . .

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (٢) .

دخلوا مرحلة جديدة من التهديد . . هددوه بالقتل ، وها هم أولاء يهددونه بالطرد من قريتهم . . خيروه بين التشريد ، والعودة إلى ديانتهم وملتهم التى تعبد الأشجار والجمادات . . وأفهمهم شعيب أن مسألة عودته فى ملتهم مسألة ليست ضمن المسائل الواردة فى المفاوضات . . لقد نجاه الله من ملتهم ، فكيف يعود إليها ؟ . . إنه هو الذى يدعوهم إلى ملة التوحيد . . فكيف يدعونه إلى الشرك والكفر ؟ . . ثم أين تكافؤ الفرص؟ . . إنه يدعوهم برفق ولين وحب . . وهم يهددونه بالقوة . .

واستمر الصراع بين قوم شعيب ونبيهم . . حمل الدعوة ضده الرؤساء والكبراء والحكام . . وبدا واضحا أن لا أمل فيهم . . لقد أعرضوا عن الله . . أداروا ظهورهم لله . .

---

(١) من الآية ٩٢ سورة هود مكية .

(٢) من الآية ٨٨ من سورة الأعراف مكية .

﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (١) .

نفض شعيب يديه منهم . .

لقد هجروا الله ، وكذبوا نبيه ، واتهموه بأنه مسحور وكاذب . . فليعمل كل واحد . . ولينتظروا جميعا أمر الله . .

وانتقل الصراع إلى تحد من لون جديد . .

راحوا يطالبونه بأن يسقط عليهم كسفا من السماء إن كان من الصادقين . . راحوا يسألونه عن عذاب الله . . أين هو ؟ . . وكيف هو ؟ . . ولماذا تأخر . . . ؟ سخروا منه . . وانتظر شعيب أمر الله . .

وأوحى الله إليه أن يخرج المؤمنين ويخرج معهم من القرية . . وخرج شعيب . . وجاء أمره تعالى . .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ (٢) .

هى صيحة واحدة . . صوت جاءهم من غمامة أظلتهم . . ولعلهم فرحوا بما تصوروا أنها تحمله من المطر . . ثم فوجئوا أنهم أمام عذاب عظيم ليوم عظيم . . انتهى الأمر . .

أدركتهم صيحة جبارة جعلت كل واحد فيهم يجثم على وجهه فى مكانه الذى كان فيه فى داره . . صعقت الصيحة كل مخلوق حى . . لم يستطع أن يتحرك أو يجرى أو يختبئ أو ينقذ نفسه . . جثم فى مكانه مصروعا بصيحة . .

وأسدل الستار على القوم . .

---

(١) من الآية ٩٢ ، وآية ٩٣ من سورة هود مكية . (٢) الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة هود مكية .

إلياس
[عليه الصلاة والسلام]

هو نبى الله إلياس ، عليه الصلاة والسلام . . جرى الصراع بينه وبين قومه حول صنم يقال له « بَعْل » . . دعاهم إلى الله . . فأبوا إلا أن يدعوا بعلا . . وانطوت صفحة الحياة واختصر السياق فترة الحياة الدنيا ، فإذا هم محضرون أمام الله يوم القيامة . .

قال تعالى فى سورة الصافات :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١] . .

. . . .

هذه الآيات القصار هى كل ما يذكره الله تعالى من قصة إلياس . . وأرجح الآراء أن إلياس هو النبى المسمى إيليا فى التوراة . . ويورد القديس برنابا نص نصائح إيليا ، وهو نص غير معروف فى التوراة . . وهو نص نورده لما يضمه من حكمة عميقة وصفاء خالص ، وهو نص يبدأ من الآية ٢٣ إلى الآية ٤٩ من إنجيل برنابا . .

يبدأ الكتيب هكذا : « إيليا عبدالله يكتب هذا لجميع الذين يبتغون أن يسيروا مع الله خالقهم . إن من يحب أن يتعلم كثيرا يخاف الله قليلا ، لأن من يخاف الله يقنع بأن يعرف ما يريده الله فقط . .

---

(١) الآيات من ١٢٣ إلى ١٣٢ من سورة الصافات مكية .

إن من يطلب كلاما مزوقا لا يطلب الله الذى لا يفعل إلا توبيخ خطايانا . .

على من يشتهون أن يطلبوا الله أن يحكموا إغلاق أبواب بيتهم ونوافذه ، لأن السيد لا يرضى أن يوجد خارج بيته ، حيث لا يحب ، فاحرسوا مشاعركم واحرسوا قلبكم ، لأنه لا يوجد خارجا عنا فى هذا العالم الذى يكرهه . . على من يريدون أن يعملوا أعمالا صالحة ، أن يلاحظوا أنفسهم ، لأنه لا يجدى المرء نفعا أن يربح كل العالم ويخسر نفسه . .

على من يريدون تعليم الآخرين أن يعيشوا أفضل من الآخرين ، لأنه لا يستفاد بشىء ممن يعرف أقل منا نحن ، فكيف إذن يصلح الخاطئ حياته وهو يسمع من هو شر منه يعلّمه . .

على من يطلبون الله أن يهربوا من محادثة البشر ، لأن موسى لما كان وحده على جبل سيناء ، وجد الله وكلمه كما يكلم الخليل خليله . على من يطلبون الله أن يخرجوا مرة كل ثلاثين يوما إلى حيث يكون أهل العالم ، لأنه يمكن أن يعمل فى يوم واحد أعمال سنتين من خصوص شغل الذى يطلب الله . . عليه متى تكلم ، ألا ينظر إلا إلى قدميه . . عليه متى تكلم ، ألا يقول إلا ما كان ضروريا . .

وعليهم متى أكلوا ، أن يقوموا عن المائدة وهم دون الشبع . . مفكرين كل يوم أنهم لا يبلغون اليوم التالى . . وصارفين وقتهم كما يتنفس المرء . .

ليكن ثوب واحد من جلد الحيوانات كافيا . . على كتلة التراب أن تنام على الأديم . . ليكف كل ليلة ساعتان من النوم . . عليه ألا يبغض أحدا إلا نفسه . .

وعليهم أن يكونوا واقفين أثناء الصلاة بخوف ، كأنهم أمام الدينونة الآتية . .

فافعلوا إذن هذا فى خدمة الله مع الشريعة التى أعطاكم إياها الله على يد موسى . . لأنه بهذه الطريقة تجدون الله ، وإنكم ستشعرون فى كل زمان ومكان أنكم فى الله ، وأن الله فيكم » . . .

انتهى ما أورده إنجيل برنابا عن كتيب إيليا .

قصة إدريس
[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة مريم :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[1] .

لا نعرف متى عاش إدريس . ولا من كان قومه . ولا كيف رفعه الله مكانا عليا .

إن الأساطير تقول إن إدريس هو أوزيريس بطل الأسطورة المصرية القديمة . وقد كان إلها وثنيا مزقه « ست » . . ولعبت إيزيس زوجته دورا فى إعادته إلى الحياة . وليس بين أيدينا ما نطمئن إليه من مصادر لنحكم برأى فى موضوع إدريس .

ربما كان إدريس نبيا كريما بعث فى مصر ورفعه الله إليه مثل عيسى بن مريم ، فلما رفع افتتن قومه به وصار إلها فى الأسطورة . . وربما كان ما حدث شيئا آخر تماما . لم يرد فى كتاب الله عنه ما يكشف الغموض الذى أحاط به . ونحن لا نعرف إلا أنه كان صديقا نبيا . . رفعه الله مكانا عليا .

---

(١) الآيتان ٥٦ ، ٥٧ من سورة مريم مكية .

قصة اليسع
[عليه الصلاة والسلام]

من أنبياء الله تعالى ، الذين يذكر الحق أسماءهم ويثنى عليهم ، ولا يحكى قصصهم . . نبى الله تعالى « اليسع » .

قال تعالى فى سورة ص :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾[1] . .

وأرجح الأقوال أن اليسع هو اليشع الذى تتحدث عنه التوراة . . ويذكر القديس برنابا أنه أقام من الموت إنسانا كمعجزة . .

---

(١) الآيات ٤٥ إلى ٤٨ مكية .

قصة ذى الكفل
[عليه الصلاة والسلام]

أدخل الله تعالى ذا الكفل فى رحمته .

أثنى عليه كعبد صابر . وذكره مع إسماعيل وإدريس .

قال تعالى فى سورة الأنبياء :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) . .

قيل إنه تكفل لبنى قومه أن يقضى بينهم بالعدل ويكفيهم أمرهم . . ففعل . . فسمى ذا الكفل . .

نسجت الأساطير حوله عديدا من الحكايات . وذكره القرآن مجرد ذكر وأثنى عليه بغير أن يقدم قصته . .

حتى زمن دعوته مجهول . . لا نعرف من كان قومه ، ولا كيف بعث إليهم ، ولا بماذا أجابوه .

---

(١) الآيتان ٨٥ ، ٨٦ مكية .

أنبياء قوم ياسين
[عليهم الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة [يس] :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (١) . .

يحكى الحق تبارك وتعالى قصة أنبياء ثلاثة بغير أن يذكر أسماءهم . كل ما يذكره السياق أن القوم كذبوا رسولين فأرسل الله ثالثا يعززهما . وأنكر الناس أنهم رسل ، كذبوهم ، فلما أقام الرسل عليهم الحجة ، قال قومهم إنهم تشاءموا منهم . وهددوهم بالرجم والقتل والعذاب الأليم . ورفض الأنبياء هذا التهديد ، واتهموا قومهم بالإسراف . . إسرافهم فى ظلم أنفسهم .

لا يقول لنا السياق ماذا كان من أمر هؤلاء الأنبياء ، إنما يذكر ما كان من أمر إنسان آمن بهم. آمن بهم وحده . ووقف بإيمانه أقلية ضعيفة ضد أغلبية كافرة .

إنسان جاء من أقصى المدينة يسعى . .

جاء وقد تفتح قلبه لدعوة الحق . لم يكد يعلن إيمانه حتى قتله الكافرون .

---

(١) الآيات من ١٣ إلى ١٩ مكية .

قال تعالى :

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾(١) . .

اختصر السياق القرآنى ذكر القتل ، وكشف الستار عن لحظة ما بعد الموت .

لم يكد الرجل المؤمن يلفظ آخر أنفاسه حتى صدر إليه أمر الله تعالى :

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢) .

تجاوز السياق أسماء الأنبياء وقصصهم ليبرز قصة رجل آمن . . لم يذكر لنا السياق اسمه .

اسمه لا يهم . . المهم ما وقع له . . لقد آمن بأنبياء الله . . قيل له ادخل الجنة .

ليكن ما كان من أمر تعذيبه وقتله .

ليس هذا فى الحساب النهائى شيئا له قيمته .

تكمن القيمة فى دخوله فور إعلانه أنه آمن . فور قتله .

﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ (٣) .

---

(١) الآيات من ٢٠ إلى ٢٥ سورة يس مكية . (٢) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ سورة يس مكية .

(٣) من الآيتين ٢٥ ، ٢٦ سورة يس مكية .

قصة أيوب
[عليه الصلاة والسلام]

يقول البشر عن صبر أعظم الصابرين فيهم حين يبلغ ذروته . . إنه كصبر أيـــوب ، وقـد ذهب أيوب مثالا على الصبر في كل لغة ودين وثقافة . . وقــد أثنـى الله تبارك وتعالــى على عبده أيوب فى محكم كتابــه . . قــال تعالــى :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[1] . .

والأوبة هى العـودة إلى الله تعـالى . وقد كـان أيوب دائم العـودة إلى الله بالذكـر والشكر والصبر . وكـان صبره سبب نجاته وسر ثناء الله عليه . والقرآن يسكت عن نوع مرضه فلا يحدده . . وقد نسجت الأساطير عديدا من الحكايات حـول مرضـه . . قيل إنه مرض مرضا جلديا منفرا تجنب الناس الاقتراب منه بسببه .

يقول سفر أيوب فى التوراة : فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح ردىء من باطن قدمه إلى هامته . فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالــس فــى وسـط الرماد . ص ٢ . وقال هذا السفر نفسه على لسان أيوب : «لأنه مثل خبـزى يأتينى أنينى ، ومـثل المياه تنسكب زفـرتى» . ص ٣ . وقـال هذا السفـر نفسـه : قـد كرهت نفسى حياتى . أسبب شكواى . أتكلم فى مرارة نفسى . ص ١٠ .

ونحن نرفض هذا كله كحقيـقة واقعة ، ولا نرى بأسا من قبوله كعمل فنى حكـاه بعـد ذلك الشعراء على لسانه ، وبالغوا فى وصف إحساسه هذه المبالغة الأدبية التى نراهــا فــى قول القائل:

فطوفان نوح عند نوحى كأدمعى ∴ وإيقـاد نيران الخـليـل كلوعتى
فلولا زفيرى أغــرقتنى مدامعى ∴ ولولا دموعى أحرقتنى زفرتى

إن ابن الفـارض فى البيتين السابقين يتحدث عن إحساسه ، فيرى أن دموعه أعظم من طوفـان نوح أو هى مـثله ، ويرى أن نيـران هواه تشبـه النار التى ألقى فـيهـا إبراهيم

---

(١) الآية ٤٤ سورة ص مكية .

الخليل عليه الصلاة والسلام . . وهذا كله من الصور الفنية الساحرة التى لا يعول عليها فى نطاق الحقائق، ولا يلتفت إليها خارج منطقة الأدب والفن .

انظر إلى تعبير التوراة : فخرج الشيطان من حضرة الرب .

نعلم ـ كمسلمين ـ أن الشيطان قد خرج من حضرة الرب منذ أن خلق الرب أدم عليه الصلاة والسلام . . فمتى عاد الشيطان إلى حضرة الرب ؟! نحن أمام تعبير أدبى ولسنا أمام حقيقة مادية .

ما حقيقة مرض أيوب وما قصته . . ؟ إن أشهر رواية عن فتنة أيوب وصبره هى الرواية التالية . . تحدث ملائكة الأرض فيما بينهم عن الخلق وعبادتهم . . قال قائل منهم :

ـ ما على الأرض اليوم خير من أيوب . . هو أعظم المؤمنين إيمانا وأكثرهم عبادة لله، وشكرا على نعمه ، ودعوة له .

وسمع الشيطان ما يقال . . فساءه ذلك . . وطار إلى أيوب محاولا إغواءه . . ولكن أيوب نبى . . قلبه هو الصفاء لله والحب لله . . وليس للشيطان عليه سبيل . حين يئس الشيطان من إغواء أيوب ، قال لله تعالى :

ـ يارب . . إن عبدك أيوب الذى يعبدك ويقدسك . . لا يعبدك حبا وإنما يعبدك لأغراض. يعبدك ثمنا لما منحته من مال وبنين ، وما أعطيته إياه من ثروة وعقار . . وهو يطمع أن تحفظ عليه ماله وثراءه وأولاده . . وكأن النعم العديدة التى منحتها له هى السر فى عبادته . . إنه يخاف أن يمسها الفناء أو تزول . . وعلى ذلك فعبادته مشوبة بالرغبة والرهبة . . يشيع فيها الخوف والطمع . . وليست عبادة خالصة ولا حبا خالصا .

وتقول الرواية إن الله تعالى قال لإبليس : إن أيوب عبد مؤمن خالص الإيمان . . وليكون أيوب قبسا فى الإيمان ومثلا عاليا فى الصبر . . قد أبحتك ماله وعقاره . . افعل ما تريد . . ثم انظر إلى ما تنتهى .

وهكذا انطلقت الشياطين فأتت على أرض أيوب وأملاكه وزروعه ونعيمه ودمرتها جميعا . . وانحدر أيوب من قمة الثراء إلى حضيض الفقر فجأة . . وانتظر الشيطان تصرف أيوب . . وقال أيوب :

عارية لله استردها . . ووديعة كانت عندنا فأخذها ، نعمنا بها دهرا ، فالحمد لله على ما أنعم ، وسلبنا إياها اليوم ، فله الحمد معطيا وسالبا ، راضيا وساخطا ، نافعا وضارا ، وهو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء .

ثم خر أيوب ساجدا . . وترك إبليس وسط دهشته المخزية . وعاد الشيطان يقول لله تعالى :

ـ يا رب . . إذا كان أيوب لم يقابل النعمة إلا بالحمد ، والمصيبة إلا بالصبر ، فليس ذلك إلا اعتدادا بما لديه من أولاد . . إنه يطمع أن يشتد بهم ظهره ويسترد بهم ثروته . .

تقول الرواية إن الله أباح للشيطان أولاد أيوب . . فزلزل عليهم البيت الذى يسكنون فيه ، قتلهم جميعا . . وهنا قال أيوب داعيا ربه :

ـ الله أعطى . . والله أخذ . . فله الحمد معطيا وسالبا ، ساخطا وراضيا ، نافعا وضارا .

ثم خر لله ساجدا وترك إبليس وسط دهشته المخزية . . وعاد إبليس يدعو الله : إن أيوب لم يزل صابرا لأنه معافى فى بدنه . ولو أنك سلطتنى يارب على بدنه . . فسوف يكف عن صبره . .

تقول الرواية إن الله تعالى أباح جسد أيوب للشيطان يتصرف فيه كيف يشاء . فضرب الشيطان جسد أيوب من رأسه حتى قدميه ، فمرض أيوب مرضا جلديا راح لحمه فيه يتساقط ويتقيح . . حتى هجره الأهل والصحاب ، لم يعد معه إلا زوجته . .

وظل أيوب على صبره وشكره لله تعالى . . حمد الله على أيام الصحة ، وحمده تعالى على بلاء المرض . . وشكره فى الحالتين . .

وازداد غيظ الشيطان فلم يعرف ماذا يفعل . . وهنا جمع إبليس مستشاريه من الشياطين وحدثهم بقصة أيوب وطلب رأيهم بعد أن أعلن يأسه من إغوائه أو إخراجه من صبره وشكره . وقال أحد الشياطين : لقد أخرجت آدم أبا البشر من الجنة . فمن أين أتيته؟

قال إبليس : آه . . تقصد حواء . .

وانقدحت فى عقل إبليس [لو كان له عقل] فكرة جديدة . . ذهب إلى امرأة أيوب وملأ قلبها باليأس حتى ذهبت إلى أيوب تقول له : حتى متى يعذبك الله؟ أين المال والعيال والصديق والرفيق؟ أين شبابك الذاهب وعزك القديم؟

وأجاب أيوب امرأته : لقد سول لك الشيطان أمرا . . أتراك تبكين على عز فات وولد مات . . ؟!

قالت : لماذا لا تدعو الله أن يزيح بلواك ويشفيك ويكشف حزنك ؟

قال أيوب : كم مكثنا فى الرخاء ؟

قالت : ثمانين سنة .

قال : كم لبثنا فى البلاء ؟

قالت : سبع سنوات . .

قال : أستحى أن أطلب من الله رفع بلائى ، وما قضيت فيه مدة رخائى .

لقد بدأ إيمانك يضعف . . وضاق بقضاء الله قلبك . . لئن برئت وعادت إلى القوة لأضربنك مائة عصا . . وحرام بعد اليوم أن آكل من يديك طعاما أو شرابا أو أكلفك أمرا . . فاذهبى عنى . .

وذهبت زوجته وبقى أيوب وحيدا صابرا . . يحتمل ما لا تحتمله الجبال . . أخيرا فزع أيوب إلى الله داعيا متحننا لا متبرما ولا متسخطا . . ودعا الله أن يشفيه فاستجاب له الله . .

هذه أشهر رواية عن فتنة أيوب وصبره ، ونحن نحس أنها موضوعة لأنها تتفق مع نص التوراة حول مرض أيوب . . أيضا نستبعد أن يكون مرضه منفرا أو مشوها كما تقول أساطير القدماء . . نستبعد ذلك لتنافيه مع منصب النبوة . . كل ما نستطيع أن نقطع به هو ما حدثنا عنه القرآن . وهو وحده الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال تعالى فى سورة [الأنبياء] :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ (١) .

نفهم مما سبق أن أيوب كان عبدا صالحا من عباد الله . أراد الله امتحانه فى ماله وأهله وجسمه . ضاع ماله وأصبح فقيرا بعد أن كان أغنى الأغنياء . وفقد أهله وبدأ يعرف معنى الوحدة . ومرض جسمه مرضا عظيما كان يتألم له . ولكنه صبر على هذا كله وشكر .

وطال مرضه واستطال بلاؤه وعظم هجران الناس له ، حتى صار يقضى أيامه كلها وحيدا مع المرض والحزن والوحدة ، وانطبقت أضلاع المثلث الكئيب على حياته :

---

(١) الآيتان ٨٣ ، ٨٤ مكية .

المرض والحزن والوحدة ورغم ذلك لم ينس الصبر . . كان صبره متجاوزا لبلائه ومتفوقا عليه .

وجاءته يوما إحدى الأفكار الشيطانية . . راحت تحوم حول قلبه . قالت له الفكرة : يا أيوب : هذا الألم وهذا العذاب اللذان تحسهما بسبب مس منى . ولو أنك توقفت عن الصبر يوما واحدا لذهب عنك الألم وشفيت . وتهامس الناس حول أيوب فقالوا : لو كان الله يحبه ما ابتلاه بكل ما ابتلاه به . وكلتا الفكرتين متهافتتان، فإن الشيطان لا يستطيع أن يمس أحدا إلا بإذن الله . كما أن الله تبارك وتعالى لا يجعل حبه للناس مرادفا لسلامتهم ، إنما يمتحنهم كما يشاء ويبتليهم كما يحب .

. . . .

راحت فكرة الشيطان تدور حول قلب أيوب مثلما تدور ذبابة صيف حول رأس إنسان محنق . وأزاح أيوب بيده الفكرة وهو يبتسم لنفسه ويقول : اخرج أيها الشيطان . لن أتوقف عن الصبر والشكر أو العبادة .

وخرجت الفكرة يائسة من عقل أيوب . وجلس أيوب غاضبا لأن الشيطان تجرأ عليه وتصور أنه يمكن أن يغريه أو يغويه ، مستغلا وحدته وأساه ومرضه .

وحضرت زوجة أيوب متأخرة فوجدت أيوب غاضبا . كانت تلف رأسها بغطاء . . وكانت قد أحضرت إليه طعاما طيبا . . وسألها أيوب : من أين جاءتك النقود؟ وأقسم أيوب أن يضربها مائة ضربة بالعصا عندما يشفى . كان صبره واسعا مثل نهر عظيم . ثم اكتشف فى المساء أن زوجته قد قصت شعرها لتحضر إليه طعاما يأكله .

وخرج نبى الله تعالى إلى الجبال يدعو ربه . قال تعالى فى سورة [ص] :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (١) .

كيف نفهم قول أيوب :

﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (٢)؟

---

(١) الآيات من ٤١ إلى ٤٤ مكية .

(٢) من الآية ٤١ من سورة ص مكية .

يريد أيوب أن يشكو لربه جرأة الشيطان عليه وتصوره أنه يستطيع أن يغويه . ولا يعتقد أيوب أن ما به من مرض قد جاء بسبب الشيطان . هذا هو الفهم الذى يليق بعصمة الأنبياء وكمالهم .

أمره الله تعالى أن يستحم فى عين من عيون المياه فى الجبل . . أمره أن يشرب من ماء هذه العين . . وجرى أيوب فاغتسل وشرب . . ولم يكد يشرب آخر جرعة من الماء حتى أحس أنه شفى فجأة . . زايلته الحمى ، وذهب عنه الألم ، وعادت حرارته إلى درجة الحرارة العادية . . ووهب الله لأيوب أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده سبحانه . . ولم يعد أيوب وحيدا .

وهبه الله أضعاف ثروته كرما من عنده ، فلم يعد أيوب فقيرا . . عادت إليه صحته بعد طول المرض . . وشكر أيوب الله ، وكان قد أقسم أن يضرب امرأته مائة ضربة بالعصا عندما يشفى ، وها هو ذا قد شفى ، وكان الله سبحانه وتعالى يعلم أنه لا يقصد ضرب امرأته . . ولكى لا يحنث فى قسمه أو يكذب فيه ، أمره الله أن يجمع حزمة من أعواد الريحان عددها مائة ، ويضرب بها امرأته ضربة واحدة ، وبذلك يكون قد بر فى قسمه ولم يكذب . . وجزى الله أيوب على صبره أن مدحه فى القرآن الكريم وقال عنه :

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١) .

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة ص مكية .

قصة يونس
[عليه الصلاة والسلام]

هو النبى الكريم يونس بن متى . قال عنه سيد الخلق وإمام البشر والرحمة المهداة للعالمين . . محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم : «لا تفضلونى على يونس بن متى » .

كانوا يسمونه يونس . . وذا النون . . ويونان . وكان نبيا كريما أرسله الله إلى قومه فراح يعظهم ، وينصحهم ، ويرشدهم إلى الخير ، ويذكرهم بيوم القيامة ، ويخوفهم من النار ، ويحببهم فى الجنة ، ويأمرهم بالمعروف ، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده . وظل ذو النون ينصح قومه فلم يؤمن منهم أحد . .

وجاء يوم على يونس فأحس باليأس من قومه . . وامتلأ قلبه بالغضب عليهم لأنهم لا يؤمنون ، وخرج مغاضبا وقرر هجرهم . حكى الله تعالى حكايته مبتدئا بقوله :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. ﴾ (١) .

لا أحد يعرف عنف المشاعر والأحاسيس التى راحت تعتمل فى نفس يونس غير الله وحده . . كان يونس غاضبا من قومه ، كان حانقا آسفا وحزينا فخرج . .

ذهب إلى شاطئ البحر وقرر أن يركب سفينة تنقله إلى مكان آخر . .

لم يكن الأمر الإلهى قد صدر له بأن يترك قومه أو ييأس منهم ، وظن يونس أن الله لن يقدر عليه عقوبة لأنه ترك قومه ، غاب عن يونس عليه السلام أن النبى مأمور بالدعوة إلى الله فقط ، ولا عليه أن تنجح الدعوة أو لا تنجح . . المفروض أن يدعو لله ويترك مسألة النجاح أو عدمه لخالق الدعوة .

كانت السفينة ترسو فى الميناء الصغير ، والشمس تنحدر نحو الغروب ، والأمواج تضرب الشاطئ وتتكسر على الصخور ، ولاحظ يونس أن سمكة طفلة تقاوم الموج ولا

---

(١) من الآية ٨٧ من سورة الأنبياء مكية . .

تعرف كيف تتصرف ، وأقبلت موجة كبيرة فرفعت السمكة وحطمتها على الصخور ، وأحس يونس فى قلبه بالحزن والأسف على السمكة الصغيرة . قال لنفسه لو كانت معها سمكة كبيرة فربما نجت .

وتذكر حاله وكيف يترك قومه . وزاد إحساسه بالغضب والحزن . ركب يونس السفينة .

كان مضطربا لا يعرف أنه يفر من قدر الله إلى قدر الله .

لم يكن معه طعام ولا كيس أمتعة ولا أصدقاء يصحبونه إلى الرصيف مودعين .

كان وحده تماما . خطا بقدميه على سطح السفينة ، فصر الخشب صريرا مزعجا زاد فى انقباضة قلبه . سأله القبطان وهو يجلس إلى طاولة عمله : ماذا تريد ؟

وقع السؤال على يونس وقوع الصاعقة . أود أن أسافر على سفينتكم . . هل بقى على إبحاركم وقت طويل ؟

كان صوت يونس مضطربا يشى بالغضب والخوف والرهبة والقلق .

قال القبطان وهو يرفع رأسه : نبحر مع ارتفاع المد التالى .

لم يزل القبطان يحدق فى وجه يونس .

قال يونس بنفاد صبر وقلق : ألا تبادرون بالإبحار قبل ذلك ياسيدى؟

قال القبطان : إبحارنا مع المد مبادرة يرضى بها كل مسافر شريف .

واها لك يا يونس . . ها هى ذى طعنة أخرى . .

أسرع يونس يحول فكر القبطان عن ريبته بأن تساءل :

- سأسافر معكم . كم تبلغ أجرة السفر ؟ سأدفع على التو .

قال القطان ، لا نقبل غير الذهب .

قال يونس : لا بأس .

نظرالقبطان إلى يونس . كان قبطان السفينة حصيفا ألمعيا يستطيع أن يستشف بنافذ بصره خوف الناس أو قلقهم ، وكان تردده على الموانئ وزيارته للعالم ورؤيته للعالم وللناس قد جعلته رجلا يستطيع أن يخمن مشاعر الناس . . وأدرك القبطان أن يونس يفر من شىء ما . . وتصور القبطان أن يونس قد ارتكب جريمة ما . . ولم يكن جشع القبطان يسمح له بأن يفضح أى جريمة لدى مرتكبها ، إلا إذا كان مقترفها مفلسا .

إن الخطيئة التى تتمكن من دفع الأجرة فى عالم القبطان . . . تستطيع أن تسافر حرة

طليقة دون جواز سفر . فإذا كانت الفضيلة مسكينا مدقعا أوقفوه عند كل الحدود . لذلك أراد القبطان أن يختبر يونس قبل أن يسمح له بركوب السفينة .

سأله ثلاثة أضعاف الأجرة التي يدفعها غيره من المسافرين . وكان يونس في حالة من ضيق الصدر والغضب العنيف والرغبة في الخروج من هذا البلد فدفع ما طلبه منه القبطان . وأمسك القبطان القطع الذهبية وراح يعضها بأسنانه ويحاول أن يجد فيها قطعة مزيفة . . فلم يجد . ووقف يونس يتلقى هذه الطعنات كلها وصدره يعلو ويهبط مثل المرجل . . وأخيرا سمح له القبطان بالسفر .

قال يونس : حدد لي غرفتي ياسيدي ، فإنني متعب أريد أن أرتاح قليلا .

قال القبطان : ذلك يبدو من ملامحك . . هاك غرفتك .

أشار القبطان بيده .

ألقى يونس نفسه على الفراش بملابسه كما هو . . وحاول النوم عبثا . كانت صورة السمكة الصغيرة وهي تتمزق على الصخور لا تريد أن تغادر مخيلته . وأحس يونس أن سقف الغرفة جاثم على جبهته . أخذ يتنهد ضيق الصدر في هواء محصور راكد . وكان في غرفة يونس قنديل معلق يتأرجح تأرجحا واهنا وقد شد عند وسطه إلى الجدار بلولب . وعندما ترنحت السفينة بسبب ثقل الرزم الأخيرة التي ألقيت فيها بقي القنديل واللهب وكل ما يتصل بهما في وضع انحراف مستمر بالنسبة للغرفة . . ومع أنه كان في الحقيقة مستقيما استقامة لا تخطئها العين ، فإنه بدا للعين منحرفا في المستويات الخادعة التي كان معلقا بينها . وراح يونس وهو راقد على فراشه يدور بعينيه في سقف الغرفة ، لم تجد نظراته القلقة أي ملاذ لها . . إن أرض الغرفة وسقفها وجوانبها تبدو جميعا مائلة . والقنديل معلق ومائل فيها . . ويئن يونس قائلا :

كذلك هو ضميري معلق داخل نفسي على استقامة ، وهو يتوهج مضيئا ، إلا أن الغرفة التي تحتلها روحي مائلة . وبعد صراع أليم نشب في نفس يونس وهو ملقى على فراشه ، أثقله عبء تعاسته الباهظة ، وهوى به غريقا متخبطا في نوم قلق لا يكاد يستسلم فيه للنعاس حتى يفيق فزعا بلا سبب مفهوم . .

وحان وقت المد . . ورفعت السفينة حبالها ، وانسابت على وجه الماء مبتعدة عن الرصيف . مضت السفينة طوال النهار وهي تشق مياها هادئة وتهب عليها ريح طيبة .

وجاء الليل على السفينة . . وانقلب البحر فجأة . . هبت عاصفة مخيفة كادت تشق السفينة . . وبدت الأمواج كمن فقدت عقلها فراحت ترتفع كالجبال وتهبط كالوديان وتلعب بأخشاب المركب . راحت الأمواج تكتسح سطح المركب وتصدم الواقفين فوقه وتغرق ملابسهم بالمياه .

ووراء السفينة كان حوت عظيم يشق المياه وهو يفتح فمه . . صدرت الأوامر إلى أحد الحيتان العظيمة فى قاع البحر أن يتحرك إلى السطح . وأطاع الحوت الأمر الصادر إليه من الله وأسرع إلى سطح البحر . . مضى يتعقب السفينة كما تقضى الأوامر . واستمرت العاصفة . وأهاب رئيس النوتية بالأيدى أن تخفف أحمال السفينة ، وطرحت الصناديق والرزم والجرار فضاع صوت جلبتها وهى تلقى فى الماء . وزاد صراخ الرياح وهب يونس فزعا من نومه فرأى كل شىء يهتز فى الغرفة . عبثا حاول أن يقف معتدلا فلم يستطع . صعد إلى السطح لم يكد يراه القبطان حتى تذكر شكوكه وصرخ .

ـ لقد ثارت العاصفة فى غير وقتها المعهود . . معنا على سطح السفينة رجل خاطئ ثارت بسببه العاصفة . . سنجرى القرعة على الركاب . . من خرج اسمه ألقيناه فى البحر . .

كان يونس يعرف أن هذا تقليد من تقاليد السفن عندما تواجه العواصف ، وهو تقليد وثنى غريب ، ولكنه كان متبعا أيامه . وبدأ بلاء يونس ومحنته . فها هو ذا النبى الكريم يتعرض للخضوع للقوانين الوثنية التى كانت تعتبر أن للبحر آلهة تثور وللريح آلهة تفور ولابد من إرضاء هؤلاء وهؤلاء .

وساهم يونس كارها فوضع اسمه مع أسماء الركاب . . وأجريت القرعة فخرج اسمه .

وأعيدت القرعة مرة ثانية كما هى العادة فخرج اسم يونس . .

لم يعد هناك غير إجراء القرعة مرة ثالثة ثم يستقر الرأى على من يلقونه فى البحر . وأحاطت الأنظار بيونس . . التفت حوله نظرات الشك مثل ثوب من النار . . وأجريت القرعة للمرة الثالثة . . ودق قلب يونس وقبطان السفينة يقرأ اسمه للمرة الثالثة . .

انتهى الأمر وتقرر أن يرمى يونس نفسه فى البحر . . أدرك يونس وهو يعتلى خشب السفينة أنه قد أخطأ حين ترك قومه غاضبا وظن أن الله لن يوقع عليه عقوبة . .

أخطأ يونس لأنه ترك قومه بغير إذن الله . . والآن فإن الله سبحانه وتعالى يعاقبه . . وقف يونس على حاجز السفينة ينظر إلى البحر الهائج والأمواج السوداء . . كانت الدنيا ليلا ، وليس هناك قمر ، والنجوم تختفى وراء ضباب أسود . . ولون المياه أسود ، والبرد ينفذ إلى العظام . . والمياه تغطى كل شىء . .

وصرخ صوت القبطان : اقفز أيها المسافر المجهول . .

واشتد عواء العاصفة الغاضبة . . وجاهد يونس ليحتفظ بتوازنه ويسقط فى البحر معتدل القامة محتفظا بشجاعته . وخيل إلى بحارة السفينة أنه يتباطأ فى إلقاء نفسه . . فرفعوا إلى آلهة البحر يدا داعية ، وأمسكوا يونس بالأخرى وطرحوه فى البحر وهم مشفقون .

هوى يونس كأنه المرساة المطروحة . وجد الحوت أمامه يونس وهو يطفو على الموج . . ابتسم الحوت . ها قد أرسل الله إليه طعام العشاء . . تلقف الحوت يونس من جوف الهياج الجامح . وأغلق أنيابه العاجية عليه كأنها مزاليج بيضاء يقفل بها باب سجنه . وعاد الحوت إلى أعماق البحر . عاد راضيا قد ملأ معدته .

وفوجئ يونس بنفسه فى بطن الحوت ، والحوت يجرى به فى جوف البحر ، والبحر يجرى به فى جوف الليل . . ظلمات ثلاث . . بعضها فوق بعض . ظلمة جوف الحوت . . وظلمة قاع البحر . . وظلمة الليل . . تصور يونس أنه مات . . حرك حواسه فوجد نفسه يتحرك . . هو حى إذن . . لكنه سجين وسط ظلمات ثلاث . .

وبدأ يونس يبكى . . ويسبح لله . . بدأ رحلة العودة إلى الله وهو سجين وسط الظلمات الثلاث . تحرك قلبه بالتسبيح لله وتحرك بعدها لسانه بقوله :

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . . ﴾

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . . ﴾

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . . ﴾ (١) .

كان يونس منكفئا على وجهه فى بطن الحوت . ورغم ذلك فقد راح يسبح لله . . وكأن الحوت قد تعب من السباحة فرقد على بطنه فى قاع البحر واستسلم للنوم . . واستمر يونس فى تسبيحه لله . . لا يتوقف ولا يهدأ ولا ينقطع بكاؤه . لم يكن يأكل أو يشرب أو يتحرك . كان صائما طعامه هو التسبيح .

وسمعت الأسماك والحيتان والنباتات وكل المخلوقات التى تعيش فى أعماق البحر صوت تسبيح يونس . . كان التسبيح يصدر من جوف هذا الحوت دون غيره . . واجتمعت كل هذه المخلوقات حول الحوت وراحت تقوم بتسبيح الله هى الأخرى . كل واحد بطريقته الخاصة ولغته الخاصة . واستيقظ الحوت الذى ابتلع يونس على أصوات التسبيح هو الآخر . . فشاهد فى قاع البحر مهرجانا عظيما من الحيتان

---

(١) من الآية ٨٧ من سورة الأنبياء مكية .

والأسماك والحيوانات البحرية والطحالب والصخور والرمال وهى تسبح الله . . واشترك الحوت فى التسبيح وأدرك أنه ابتلع نبيا . . أحس الحوت بالخوف ولكنه قال لنفسه : لماذا أخاف . . ؟ الله هو الذى أمرنى بابتلاعه . .

ومكث يونس فى بطن الحوت زمنا لا نعرف مقداره . . ظل طوال الوقت يقوم بتسبيح الله ويقول بقلبه ولسانه ودموعه :

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

ورأى الله سبحانه وتعالى صدق يونس فى توبته . . سمع الله تعالى تسبيحه فى جوف الحوت . . وصدرت الأوامر للحوت أن يخرج إلى سطح البحر ويقذف بيونس من جوفه عند جزيرة حددتها الأوامر . . وأطاع الحوت . . كان الحوت قد أرسى جسده على أقصى عظام المحيط .

ثم سمع الله عز وجل من الظلمات نداء النبى السجين التائب . . وأمر الله تعالى الحوت فجاء من عالم البرد الزمهرير وظلمة البحر يضرب صعدا نحو الدفء والشمس المنعشة ومتع الأرض . وقذف يونس إلى البر فوق جزيرة عارية .

إن جسده ملتهب بسبب الأحماض فى معدة الحوت . وكان هومريضا ، وأشرقت الشمس فلسعت أشعتها جسده الملتهب فكاد يصرخ من الألم لولا أنه تماسك وعاد للتسبيح .

وأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين . . وهو نبات أوراقه عريضة تقى من الشمس . . ثم شفاه الله تعالى وعفا عنه . وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون . وأفهمه الله تعالى أنه لولا التسبيح لظل فى جوف الحوت إلى يوم القيامة .

قال تعالى فى سورة الصافات :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢) .

---

(١) من الآية٨٧ من سورة الأنبياء مكية .

(٢) الأيات ١٣٩ إلى ١٤٨ من سورة الصافات مكية .

وقال تعالى فى سورة الأنبياء :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) .

نريد الآن أن ننظر فيما يسميه العلماء ذنب يونس . هل ارتكب يونس ذنبا بالمعنى الحقيقى للذنب . . وهل يذنب الأنبياء ؟ الجواب أن الأنبياء معصومــون . . غير أن هــذه العصمة لا تعنى أنهم لا يرتكبون أشياء هى عند الله أمور تستوجب العتاب . المسألة نسبية إذن . .

يقول العارفون بالله : إن حسنات الأبرار سيئات المقربين . . وهذا صحيح . فلننظر فى فرار يونس من قريته الجاحدة المعاندة . لو صدر هذا التصرف من أى إنسان صالح غير يونس . . لكان ذلك منه حسنة يثاب عليها . فهو قد فر بدينه من قوم مجرمين . .

ولكن يونس نبى أرسله الله إليهم . والمفروض أن يبلغ عن الله ولا يعبأ بنهاية التبليغ أو ينتظر نتائج الدعوة . . ليس عليه إلا البلاغ . .

خروجه من القرية إذن . . فى ميزان الأنبياء . . أمر يستوجب تعليم الله تعالى له وعقابه .

إن الله يلقن يونس درسا فى الدعوة إليه ، ليدعو النبى إلى الله فقط .

إنما أرسله ليدعو فحسب . . هذه حدود مهمته وليس عليه أن يتجاوزها ببصره أو قلبه ثم يحزن لأن قومه لا يؤمنون . . إن لوطا مكث فى قومه يدعوهم سنوات عديدة فلم يؤمن فيهم أحد . . ورغم ذلك لم يخرج لوط فرارا بأهله ونفسه ودينه من قريته . . ظل يدعوهم حتى جاءه أمر الله وأرسل إليه ملائكته بإذن الخروج . ساعتها خرج لوط . . لو خرج قبلها لعوقب مثل يونس .

ولقد خرج يونس بغير إذن فانظر ماذا وقع لقومه . لقد آمنوا به بعد خروجه . . قال تعالى فى سورة يونس :

---

(١) الآيتان ٨٧ ، ٨٨ مكية .

﴿ فلوْلا كانتْ قرْيةٌ آمنتْ فنفعها إيمانُها إلاَّ قوْم يُونُس لمّا آمنُوا كشفْنا عنْهُمْ عذاب الْخزْي في الْحياة الدُّنْيا ومتّعْناهُمْ إلىٰ حينٍ ﴾ (١) .

وهكذا آمنت قرية يونس . .

ولو أنه مكث فيهم لأدرك ذلك وعرفه واطمأن قلبه وذهب غضبه . غير أنه كان متسرعا . . وليس تسرعه هذا سوى فيض فى رغبته أن يؤمن الناس ، وإنما اندفع إلى الخروج كراهية لهم لعدم إيمانهم . . فعاقبه الله وعلمه أن على النبى أن يدعو لله فحسب . .

ليس عليه أن يؤمن الناس . ليس عليه هداهم .

---

(١) الآية ٩٨ مكية .

قصة موسى وهارون
[عليهما الصلاة والسلام]

مكث يعقوب أو إسرائيل فى مصر مذ جاءها ليلتقى بابنه يوسف . . حتى إذا حضرته الوفاة دفنوه حيث ولد فى فلسطين . . وفضل أبناء إسرائيل أن يعيشوا فى مصر فى ظل يوسف . شدهم إلى الحياة فى مصر خيرها الكثير واستواء أرضها واعتدال المناخ . عاش أبناء إسرائيل فى مصر زمنا . تزوجوا وتكاثروا وزاد عددهم . ومرت سنوات . . ومات يوسف . .

كان يوسف قد حول مصر إلى دين الإسلام أثناء حكمه . كان يوسف على الإسلام . وكل أنبياء الله تعالى على الإسلام ، ابتداء من آدم إلى محمد . وينصرف الإسلام هنا إلى معنى توحيد الله تعالى بالعبادة والقصد والسؤال . وإسلام الوجه والعمل والنية لله . هذا ما نقصده من كلمة الإسلام إذا أطلقت ، ولا نقصد النظام الاجتماعى الذى جاء به خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم . فقد كان هذا النظام متقدما عن الأنظمة الاجتماعية التى جاء بها الأنبياء ، وإن بقى جوهر العقيدة واحدا لا يختلف من آدم إلى محمد .

وحين صار يوسف عزيزا لمصر وكبيرا للوزراءفيها تحولت ديانة مصر إلى التوحيد والإسلام، لقد كان يدعو للإسلام فى سجنه بقوله :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (١) .

ودعا يوم تحقيق رؤياه بقوله :

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

وحين مات يوسف هجرت مصر نظام التوحيد إلى تعدد الآلهة مرة أخرى . وأغلب الظن أن هذا تم بكيد الطبقة الحاكمة وتدبيرها ، فقد كانت هذه الطبقة فى ظل نظام

---

(١) من الآية ٣٩ من سورة يوسف مكية .
(٢) الآية ١٠١ سورة يوسف مكية .

التوحيد لا تكاد تتميز بشيء عن الجماهير العريضة . . وكان من مصلحتها إذن أن يعود نظام الأرباب المتفرقين . . ويعود نظام الفرعون الإله . . وهكذا توالت على مصر أسر من الفراعنة الذين زعموا أنهم آلهة أو يمثلون الآلهة أو ينطقون باسمها .

والأصل فى الشعب المصرى أنه شعب متحضر ، يعنيه بناء الحضارة ، ويملك وجدانا دينيا عميقا ، وربما آمنت طبقات عديدة من الشعب المصرى أن الفرعون ليس إلها ، غير أن إيمان المصريين الكامن فى أعماقهم لم يكن يعنى الحاكم ، طالما أنه لا يتحول إلى الظهور أو الثورة ويسفر عن وجهه . كان الفرعون لا يريد من قومه غير الطاعة . ليؤمنوا فى قرارة أنفسهم بما يحبون من آلهة . الآلهة الوثنية المتعددة فى مصر كثيرة . أهم شيء أن يكون مفهوما أن الفرعون يهيمن على جميع أنواع الآلهة ويرمز لها ويتكلم باسمها . وكان هذا مفهوما فى مصر . .

وعلى حين تعددت آلهة الشعب المصرى . مع إيمانه بإله مركزى هو الفرعون . . كانت الطبقة الحاكمة تقتصر على عبادة الفرعون وإنفاذ أوامره وتصديق استبداده . . ومطاوعة أعظم نزواته جنونا . . ولسوف نحس ونحن نتصفح معا أوراق موسى عليه الصلاة والسلام ، كيف كان الشعب المصرى يعيش فى عصره . كانت الجماهير مستذلة مستعبدة تطيع الفرعون ، وتمضى خانعة تحت ظل وزرائه وقادة جنده وتسمع إلى ادعائه الألوهية دون أن تحرك ساكنا .

حكى الله تعالى فى قرآنه الكريم عن فرعون موسى قال فى سورة النازعات :

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ (١) .

وحنى الناس رءوسهم للكلمة الكافرة وأطاعوا ـ ربما على كره ـ مقالة الفرعون . ودفع الشعب ثمن خنوعه لفرعون . . وقد كان ثمنا باهظا لو قيس بالثورة عليه . عادت مصر إلى نظام تهدد الآلهة بعد فترة التوحيد المضيئة القصيرة التى قضاها فيها يوسف .

أما أبناء يعقوب ، أو أبناء إسرائيل ، فقد انحرفوا عن التوحيد وقلدوا المصريين . . لولا بعض أسر ظلت على التوحيد وإن أخفت ذلك . . وقد جاء وقت على أبناء إسرائيل تزايدوا فيه وتكاثروا واشتغلوا فى عديد من الحرف وملئوا أسواق مصر .

مرت أيام . . وحكم مصر ملك جبار كان المصريون يعبدونه . ورأى هذا الملك بنى إسرائيل يتكاثرون ويزيدون ويملكون . . سمعهم يتحدثون عن نبوءة غامضة تقول

---

(١) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ مكية .

إن واحدا من أبناء إسرائيل سيسقط فرعون مصر عن عرشه ، وربما كانت النبوءة حلما من أحلام اليقظة التى تجيش بها قلوب الأقلية المضطهدة ، وربما كانت بشارة فى صحفهم . مهما يكن من أمر ، فقد بلغت هذه النبوءة أسماع الفرعون وأصدر الفرعون أمره العجيب ألا يلد أحد من بنى إسرائيل . كان معنى هذا الأمر ببساطة أن يقتل كل من يولد من الأولاد الذكور .

وبدأ تطبيق النظام ، ثم قال خبراء الاقتصاد لفرعون إن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذبحون ، وهذا سينتهى إلى إفناء بنى إسرائيل فتضيع على الفرعون ثروة بشرية تعمل له ويستعبدها ويستحيى نساءها . . والأفضل أن تنظم العملية بالشكل التالى . . يذبحون الذكور فى عام ويتركونهم فى العام الذى يليه .

ووجد الفرعون أن هذا الحل أسلم من الناحية الاقتصادية . وحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يقتل فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة . فلما جاء العام الذى يقتل فيه الغلمان ولد موسى . حمل ميلاده خوفا عظيما لأمه . . خافت عليه من القتل . . راحت ترضعه فى السر . ثم جاءت عليها ليلة مباركة أوحى الله إليها فيها . .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) .

لم يكد وحى الله ينتهى حتى أطاعت أم موسى هذا النداء الرحيم المقدس . . أمرت بصنع صندوق صغير لموسى . . أرضعته ووضعته فى الصندوق . . وذهبت إلى شاطئ النيل وألقته فى المياه . . كان قلب الأم ، وهو أرحم القلوب فى الدنيا ، يمتلئ بالألم وهى ترمى ابنها فى النيل ، لكنها كانت تعلم أن الله أرحم بموسى منها ، إن الله يحبه أكثر منها ، والله هو ربه ورب النيل . . لم يكد الصندوق يلمس مياه النيل حتى أصدر الخالق أمره إلى الأمواج أن تكون هادئة حانية وهى تحمل هذا الرضيع الذى سيكون نبيا فيما بعد ، ومثلما أصدر الله تعالى أمره للنار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم ، كذلك أصدر أمره للنيل أن يحمل موسى بهدوء ورفق حتى يسلمه إلى قصر فرعون . . وحملت مياه النيل هذا الصندوق العزيز إلى قصر فرعون . . وهناك أسلمه الموج للشاطئ وأوصى عليه الشاطئ . .

وقالت الرياح للعشب الذى يرقد بجوار الصندوق : لا تتحرك كثيرا فإن موسى نائم . . وأطاع العشب أمر الرياح وظل موسى نائما . . أشرقت الشمس فى ذلك

---

(١) الآية ٧ سورة القصص مكية .

الصباح على قصر فرعون . وخرجت زوجة فرعون تتمشى فى حديقة القصر كعادتها كل يوم . . لا نعرف ما الذى جعلها تمشى مسافة أطول مما تمشيه عادة كل يوم فى الحديقة . .

كانت زوجة فرعون تختلف كثيرا عن فرعون . . كان هو كافرا وكانت هى مؤمنة . . كان هو قاسيا وكانت هى رحيمة . . كان جبارا وكانت رقيقة وطيبة . . وأيضا كانت حزينة . . لم تكن تلد . . وكانت تتمنى أن يكون عندها ولد . توقفت زوجة الفرعون عند حديقة من أشجار الفل . . حملت الرائحة المعطرة إليها إحساسا محزنا بالوحدة . فى نفس هذا الوقت . . كان جواريها يملأن الجرار من النهر . .

كان الصندوق يرقد عند أقدامهن . . حملن الصندوق كما هو إلى زوجة فرعون . . أمرتهن أن يفتحنه ففتحنه . . رأت موسى داخله فأحست أنها تحبه كابنها ، ألقى الله فى قلبها محبته فانهمرت دموعها وحملته من الصندوق ، راحت تقبله وهى تبكى . استيقظ موسى وبدأ يبكى هو الآخر . . كان جائعا يحتاج إلى رضعة الصباح فبكى . .

جلس فرعون على مائدة الإفطار ينتظر زوجته فلم تحضر . . خرج غاضبا يبحث عنها . . فوجئ بها تحمل موسى وهى تغرقه بالقبلات والدموع . . سأل فرعون من أين جاء هذا الرضيع ، فحدثوه أنهم وجدوه فى صندوق بجوار الشاطئ . . قال فرعون بغباء : آه . . هذا أحد أطفال بنى إسرائيل . . أليس المفروض أن يقتل أطفال هذه السنة ؟

صرخت زوجته وهى تضم موسى إلى صدرها أكثر :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾(١) .

دهش فرعون كثيرا وهو يرى زوجته تضم لصدرها هذا الرضيع الذى وجدوه على الشاطئ. دهش أكثر لأن زوجته كانت تبكى من الفرح وهو لم يرها تبكى قبل ذلك من الفرح ، وأحس فرعون أن زوجته تتمسك بهذا الطفل كما لو كان ابنها ، قال فى نفسه لعلها تذكرت أنها لا تنجب أطفالا وتريد هذا الطفل . . أخيرا وافق فرعون على ما تقوله زوجته . . استجاب لرغبتها وسمح لها أن تربى هذا الطفل فى قصره .

لم يكد فرعون يستجيب لزوجته حتى شاهد وجهها يضىء من الفرح . لم ير فرعون زوجته فرحة قبل ذلك أبدا . . كان يحضر لها الهدايا والجواهر والعبيد فلا

---

(١) من الآية ٩ سورة القصص مكية .

تبتسم ابتسامة واحدة ، وظن فرعون أنها لا تعرف معنى الابتسام ، وها هو ذا يراها الآن وكل وجهها ابتسامة مضيئة واحدة . . بكى موسى من الجوع فانتبهت زوجة فرعون إلى أنه جائع . . قالت لفرعون : ابنى الصغير جائع . .

قال فرعون : أحضروا له المراضع . . حضرت مرضعة من القصر وأخذت موسى لترضعه فرفض أن يرضع منها . .

ـ أحضروا مرضعة ثانية !

حضرت مرضعة ثانية وثالثة وعاشرة وموسى يبكى ولا يريد أن يرضع . . وبدأت زوجة فرعون تبكى هى الأخرى بسبب بكائه ، ولم تكن تعرف ماذا تفعل .

لم تكن زوجة فرعون هى وحدها الحزينة الباكية . . كانت أم موسى هى الأخرى حزينة باكية . . لم تكد ترمى موسى فى النيل حتى أحست أنها ترمى قلبها فى النيل . غاب الصندوق فى مياه النهر واختفت أخباره . . وجاء الصباح على أم موسى فإذا قلبها فارغ يذوب حزنا على ابنها ، وكادت تذهب إلى قصر فرعون لتبلغهم نبأ ابنها وليكن ما يكون . . لولا أن الله تعالى ربط على قلبها وملأ بالسلام نفسها فهدأت واستكانت وتركت أمر ابنها لله . . كل ما فى الأمر أنها قالت لأخته : اذهبى بهدوء إلى جوار قصر فرعون وحاولى أن تعرفى ماذا حدث لموسى . . وإياك أن يشعروا بك . .

وذهبت أخت موسى بهدوء ورفق فإذا بها تسمع القصة الكاملة . . رأت موسى من بعيد وسمعت بكاءه ، ورأتهم حائرين لا يعرفون كيف يرضعونه ، سمعت أنه يرفض كل المراضع . . وقالت أخت موسى لحرس فرعون : هل أدلكم على أهل بيت يرضعونه ويكفلونه ويهتمون بأمره ويخدمونه ؟

قالت زوجة فرعون : لو أحضرت لنا مرضعة يقبل الرضاعة منها فسوف أمنحك جائزة عظيمة . أى شىء تطلبينه ستحصلين عليه . .

وعادت أخت موسى وأحضرت أمه . . وأرضعته أمه فرضع . . وتهللت زوجة فرعون وقالت : « خذيه حتى تنتهى فترة رضاعته وأعيديه إلينا بعدها ، وسنعطيك أجرا عظيما على تربيتك له » . وهكذا رد الله تعالى موسى لأمه كى تقر عينها ويهدأ قلبها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق وأن كلماته سبحانه تنفذ رغم أى شىء . . ورغم كل شىء !

قال تعالى فى سورة القصص :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ

وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(١) .

أتمت أم موسى رضاعته وأسلمته لبيت فرعون . . كان موضع حب الجميع . . قال تعالى فى سورة طه :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾(٢) .

كان أحد لا يراه إلا أحبه . . وها هو ذا فى أعظم قصور الأرض يتربى بحفظ الله وعنايته . . بدأت تربية موسى فى بيت فرعون . . وكان هذا البيت يضم أعظم المربين والمدرسين فى ذلك الوقت . . كانت مصر أيامها أعظم دولة فى الأرض ، وكان فرعون أقوى ملك فى الأرض ، ومن الطبيعى أن يضم قصره أعظم المدرسين والمثقفين والمربين فى الأرض . . وهكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يتربى موسى أعظم تربية وأن يتعهده أعظم المدرسين ، وأن يتم هذا كله فى بيت عدوه الذى سيصطدم به فيما بعد تنفيذا لمشيئة الخالق . .

وكبر موسى فى بيت فرعون . . تعلم الحساب والهندسة والفلك والكيمياء والطبيعة واللغات . . كان ينام فى حصة الدين ، لهذا لم يكن يسمع الكلام الفارغ الذى يقوله المدرس عن ألوهية فرعون ، وفى المرات القليلة التى سمع فيها أن فرعون إله ، كان يسخر فى نفسه من هذا الكلام ، فهو يعيش مع فرعون فى بيت واحد ويعرف أكثر من غيره أن فرعون مجرد إنسان ولكنه ظالم .

كان موسى يعلم أنه ليس ابنا لفرعون ، إنما هو واحد من إسرائيل . . وكان يرى كيف يضطهد رجال فرعون وأتباعه بنى إسرائيل . . وكبر موسى وبلغ أشده . . ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ . وراح يتمشى فيها .

وجد موسى رجلا من أتباع فرعون وهو يقتتل مع رجل من بنى إسرائيل ، واستغاث به الرجل الضعيف فتدخل موسى وأزاح بيده الرجل الظالم فقتله . كان موسى قويا إلى الحد الذى يكفى فيه أن يضرب بيده ضربة واحدة ليزيح خصمه فإذا هو يقتله . . ولم

---

(١) الآيات من ١٠ إلى ١٣ سورة القصص مكية . (٢) من الآية ٣٩ مكية .

يكن موسى يقصد قتل الرجل الآخر ، وفوجئ به وقد مات . . قال موسى لنفسه : ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾ . .

ودعا موسى ربه : ﴿قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ﴾ . وغفر الله تعالى له ، ﴿إنه هو الغفور الرحيم ﴾ . .

قال تعالى فى سورة القصص :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

أصبح موسى ﴿ فى المدينة خائفا يترقب ﴾ . . تعبير مصور لهيئة معروفة . . هيئة إنسان مطارد يتوقع الشر فى كل خطوة ، ويلتفت لأوهى الحركات وأخفاها . . ويبدو أن موسى كان نموذجا لمزاج عصبى مندفع . إن موسى يندفع لنجدة الإسرائيلى . يده تندفع بوكزة هدفها إبعاد المصرى وتنحيته . . فإذا هو يقتله .

يعتبر هذا القتل فى القوانين الوضعية أنه قتل خطأ . لا يقصده من فعله ولا تنعقد عليه نيته ، وبالتالى لا يكون الجزاء فيه عسيرا . . إنما ينظر القضاء بالتخفيف إلى الواقعة باعتبارها قتلا خطأ . لا يمكن اعتبار الواقعة بالتكييف القانونى ضربا أفضى إلى موت . . لأن الضرب لم يكن مقصودا هو الآخر . لم يكن موسى يضرب الرجل . كل ما فعله أنه وكزه [بمعنى دفعه بيده أو أزاحه بيده] . ولسوف نلاحظ أن موسى يكاد يكون هو الوجه الآخر لإبراهيم .

كلاهما من أولى العزم الكبار . غير أن إبراهيم نموذج للحلم والرقة ، وموسى نموذج للاندفاع والقوة . هو تكوين نفسى خلقه الله تعالى عليه . .

---

(١) الآيات من ١٤ إلى ١٧ سورة القصص مكية .

أصبح موسى ﴿ فى المدينة خائفا يترقب ﴾ . . وعد بالأمس أنه لن يكون ظهيرا للمجرمين . . لن يتدخل فى المشاجرات بين المجرمين والمشاغبين ليدفع عن أحد من شيعته .

وفوجئ موسى أثناء سيره بنفس الرجل الذى أنقذه موسى بالأمس وهو يناديه ويستصرخه اليوم . . كان الرجل مشتبكا فى عراك مع أحد المصريين . . وأدرك موسى بأن هذا الإسرائيلى مشاغب . . أدرك أنه من هواة المشاجرات . وصرخ موسى فى الإسرائيلى يعنفه قائلا : ﴿إنك لغوى مبين ﴾ .

قال موسى كلمته واندفع نحوهما يريد البطش بالمصرى . واعتقد الإسرائيلى أن موسى سيبطش به هو . . دفعه الخوف من موسى إلى استرحامه صارخا . **﴿يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾** .

لم تكد كلمات الإسرائيلى تقع من فمه أمام موسى حتى توقف موسى . سكت عنه الغضب وتذكر ما فعله بالأمس ، وكيف استغفر وتاب ووعد ألا يكون ظهيرا للمجرمين . . استدار موسى عائدا ومضى وهو يستغفر ربه .

وأدرك المصرى الذى كان يتشاجر مع الإسرائيلى أن موسى هو قاتل المصرى الذى عثروا على جثته أمس . وكانت سلطات الشرطة المصرية قد فشلت فى معرفة قاتله . . وطار المصرى عدوا إلى رجال الأمن . . وانكشف سر موسى . . ظهر أمره . . وجاء رجل مصرى مؤمن من أقصى المدينة مسرعا . . همس فى أذن موسى أن هناك اتجاها لقتله . نصحه أن يخرج من مصر على عجل .

قال تعالى :

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [١] .

---

(١) الآيات من ١٨ إلى ٢٠ سورة القصص مكية .

يخفى الله عنا اسم الرجل الذى جاء يحذر موسى . ونرجح أنه كان رجلا مصريا [من ذوى الأهمية] بنص الآيات ، فقد اطلع على مؤامرة تحاك لموسى من مستويات عليا ، ولو كان شخصية عادية لما عرف . . يعرف الرجل أن موسى لم يكن يستحق القتل على ذنبه بالأمس . . لقد قتل الرجل خطأ . . والجريمة فى القانون المصرى القديم عقوبتها السجن . . ما الذى أبرز فكرة قتل موسى إذن . . إن هناك عبارة فى نصيحة المصرى لموسى تضع يدنا على الجواب .

هذه العبارة هى قوله ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ .

الملأ هم الرؤساء المسئولون عن الأمن . وهم يعدون له مؤامرة . . إن الجريمة عادية ، لا تقتضى غير عرض الأمر على القضاء والحكم بالسجن فيها . ما الذى أدخل الملأ هنا ؟ وجعلهم طرفا شخصيا فى النزاع ، ودفعهم للتآمر على قتله؟ نحسب أن مدير الشرطة المصرى لم يكن يحب موسى . كان يعلم أنه من أبناء إسرائيل . وكان يرى فى وصول الصندوق إلى قصر الفرعون مكيدة دبرها له أعداؤه الطامعون فى منصبه . . كيف أفلت منه أحد أبناء إسرائيل فى العام الذى لا ينبغى أن يفلت فيه أحد؟!

هذا يعنى تراخيه وتراخى رجاله . . وكم نصح الرجل بقتل موسى ، وكان الفرعون يحبذ الفكرة فإذا حان التنفيذ تقهقر أمام حب زوجته لموسى وحنوها عليه وتعلقها به . . أخيرا جاءت الفرصة . قال له أحد رجاله إن موسى هو قاتل المصرى الذى عثروا على جثته بالأمس . . انتهى الأمر وجاءته فرصته فى قتل موسى . من يدافع الآن عنه؟ لقد جاء بموسى فى جناية قتل عمد . . استخف الفرح كل من كانوا يكرهون موسى من رجال القصر . . وتقرر قتله . . ثم أرسل الله لموسى مصريا عاقلا يحذره وينصحه بالفرار من وجه الظالمين .

قال تعالى :

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

صورة أخرى لموسى وهو مطارد . . خرج على الفور . . خائفا يتلفت ويتسمع ويترقب . . فى قلبه دعاء لله . . ﴿ رب نجنى من القوم الظالمين ﴾ . . وكان القوم ظالمين حقا . . ألا يريدون تطبيق عقوبة القتل العمد عليه ، وهو لم يفعل شيئا أكثر من أنه مد يده وأزاح رجلا فقتله خطأ ؟

---

(١) الآية ٢١ من سورة القصص مكية .

خرج موسى من مصر على عجل . . لم يذهب إلى قصر فرعون ولم يغير ملابسه ولم يأخذ طعاما للطريق ولم يعد للسفر عدته . . لم يكن معه من دواب الأرض دابة تحمله على ظهرها وتوصله . . ولم يكن فى قافلة . . إنما خرج بمجرد أن جاءه الرجل المؤمن وحذره من فرعون ونصحه أن يخرج . اختار طريقا غير مطروق وسلكه . دخل فى الصحراء مباشرة واتجه إلى حيث قدرت له العناية الإلهية أن يتجه . لم يكن موسى يسير قاصدا مكانا معينا . . هذه أول مرة يخرج فيها ويعبر الصحراء وحده . .

ظل يسير بنفسية المطارد حتى وصل إلى مكان . . كان هذا المكان هو مدين . . جلس يرتاح عند بئر عظيمة يسقى الناس منها دوابهم . .

لم يكن له طعام سوى ورق الشجر ، وكان يشرب من الآبار التى يجدها فى الطريق . . وكان خائفا طوال الوقت أن يرسل فرعون وراءه من يقبض عليه .

لم يكد موسى يصل إلى « مدين » حتى ألقى بنفسه تحت شجرة واستراح . نال منه الجوع والتعب ، وسقطت نعله بعد أن ذابت من مشقة السير على الرمال والصخور والتراب . . لم تكن معه نقود لشراء نعل جديدة . ولم تكن معه نقود لشراء طعام أو شراب . لاحظ موسى جماعة من الرعاة يسقون غنمهم ، وتذكر أنه جائع وعطشان ، قال لنفسه : أملأ بطنى من الماء ما دمت لا أملك ثمن الطعام . . سار موسى إلى مكان الماء . . قبل أن يصل وجد امرأتين تكفان غنمهما أن تختلط بغنم القوم ، أحس موسى بما يشبه الإلهام أن الفتاتين فى حاجة إلى المساعدة . نسى عطشه وتقدم منهما وسأل هل يستطيع أن يساعدهما فى شىء . . قالت الفتاة الكبرى :

ـ نحن ننتظر أن ينتهى الرعاة من سقى غنمهم لنسقى .

سأل موسى : ولماذا لا تسقيان ؟

قالت الصغرى : لا نستطيع أن نزاحم الرجال .

اندهش موسى لأنهما ترعيان الغنم . . المفروض أن يرعى الرجال الأغنام . هذه مهمة شاقة ومتعبة وتحتاج إلى اليقظة .

سأل موسى : لماذا ترعيان الغنم . . ؟

قالت الصغرى : ـ أبونا شيخ كبير لا تساعده صحته على الخروج كل يوم للرعى .

قال موسى : سأسقى لكما .

سار موسى نحو الماء . . اكتشف أن الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة ضخمة لا يستطيع أن يحركها غير عشرة رجال . . احتضن موسى الصخرة ورفعها من فم

البئر . . نفرت عروق رقبته ويديه وهو يرفع الصخرة . . كان موسى قويا . . سقى لهما الغنم وأعاد الصخرة إلى مكانها ، وتركهما وعاد يجلس تحت ظل الشجرة . .

وتذكر لحظتها أنه نسى أن يشرب . . وكان بطنه ملتصقا بظهره من الجوع . تذكر الله وناداه فى قلبه :

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (١) .

قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (٢) .

ندع موسى جالسا تحت ظل الشجرة . . لنرى ماذا كان من أمر الفتاتين اللتين سقى لهما .

عادت الفتاتان إلى أبيهما الشيخ . سأل الأب :

ـ عدتما اليوم سريعا على غير العادة ؟!

قالت الكبرى : كان حظنا اليوم عظيما يا أبى . . . تقابلنا مع رجل كريم سقى لنا الغنم قبل أن يسقى الرعاة .

قال الأب : الحمد لله .

قالت البنت الصغرى : أعتقد يا أبى أنه قادم من سفر بعيد . . وجائع ! رأيت وجهه مجهدا رغم قوته .

قال الأب لابنته : اذهبى إليه وقولى له : ﴿ إن أبى يدعوك ﴾ ليعطيك ﴿ أجر ما سقيت لنا ﴾ . وطارت البنت تجرى لموسى وقلبها يخفق .

وقفت أمام موسى وأبلغته رسالة أبيها ، ونهض موسى وبصره فى الأرض . إنه لم يسق لهما الغنم وهو ينتظر منهما أجرا ، وإنما ساعدهما لوجه الله ، غير أنه أحس فى

---

(١) من الآية ٢٤ سورة القصص مكية . (٢) الآيات من ٢٢ إلى ٢٤ سورة القصص مكية .

داخله أن الله هو الذى يوجه قدميه فنهض . . سارت البنت أمامه . . هبت الرياح فضربت ثوبها فخفض موسى بصره حياء وقال لها : سأسير أنا أمامك ونبهينى أنت إلى الطريق .

وصلا إلى الشيخ . قال بعض المفسرين إن هذا الشيخ هو النبى شعيب . عمر طويلا بعد موت قومه . وقيل إنه ابن أخى شعيب . وقيل ابن عمه ، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب الذين آمنوا به .

لا نعرف أكثر من كونه شيخا صالحا .

قدم له الشيخ طعام الغداء وسأله : من أين هو قادم وإلى أين هو ذاهب؟ حدثه موسى عن قصته . قال له الشيخ : ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ . هذه البلاد لا تتبع مصر ، ولن يصلوا إليك هنا . اطمأن موسى ونهض لينصرف .

قالت ابنة الشيخ لأبيها همسا : ﴿ **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾ .

سألها الأب : كيف عرفت أنه قوى ؟

قالت : رفع وحده صخرة لا يرفعها غير عشرة رجال .

سألها : وكيف عرفت أنه أمين ؟

قالت : رفض أن يسير خلفى وسار أمامى حتى لا ينظر إلى وأنا أمشى . . وطوال الوقت الذى كنت أكلمه فيه كان يضع عينيه فى الأرض حياء وأدبا .

وعاد الشيخ لموسى وقال له : أريد يا موسى أن أزوجك إحدى ابنتى على أن تعمل فى رعى الغنم عندى ثمانى سنوات ، فإن أتممت عشر سنوات ، فمن كرمك ، لا أريد أن أتعبك ، ﴿ **ستجدنى إن شاء الله من الصالحين** ﴾ .

قال موسى : هذا اتفاق بينى وبينك . . والله شاهد على اتفاقنا . . . سواء قضيت الثمانى السنوات أو العشر السنوات فأنا حر بعدها فى الذهاب . .

قال تعالى فى سورة القصص :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ

عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[١] .

تنصرف كثير من الأقلام حين تجيء إلى هذا الموضع ، إلى أسئلة لا تنم إلا عن الفضول . يتساءلون : أى ابنتى الشيخ تزوج موسى : أهى الكبرى أم الصغرى ؟ وأى الأجلين قضى موسى عشر سنوات أم ثمانى سنوات ؟ . وهم يضربون فى تيه من الأقاصيص والروايات ، والثابت أن موسى تزوج إحدى ابنتى الشيخ . لا نعرف من كانت ، ولا ماذا كان اسمها . نعتقد أنه تزوج التى ذهبت إليه تدعوه لأبيها ، ثم حثت أباها على استئجاره بعد ذلك . يكشف السياق القرآنى عن لون من ألوان الإعجاب الراقى الذى يجيش بنفسها تجاهه . .

ولعل الشيخ أدرك بحكمته أن ابنته قد اختارت بقلبها وانتهى الأمر ، ولعله حين حدث موسى عن تزويجه ترك له حرية الاختيار حياء ، ولعل موسى اختار من اختارته ، ولعل هذا تم بنفس اندفاع موسى وسرعته . أما من كانت هذه البنت : أكانت الكبرى أم الصغرى . فهذه مسألة سكت عنها السياق القرآنى ، وإن كان قد أشار إليها إشارة موحية معجزة بقوله :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾[٢] .

أيضا يسكت السياق القرآنى عن الأجل الذى قضاه موسى ، هل قضى السنوات العشر أم اقتصر على ثمانى سنوات؟ وإن كنا نعتقد . . استنادا إلى طبيعة موسى وكرمه ونبوته وكونه من أولى العزم . . أنه قضى الأجل الأكبر . وهذا ما يؤكده حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وهكذا عاش موسى يخدم الشيخ عشر سنوات كاملة .

وكان عمل موسى ينحصر فى الخروج مع الفجر كل يوم لرعى الأغنام والسقاية لها . . ونحسب أن فترة السنوات العشر التى قضاها موسى فى مدين كانت تدبيرا إلهيا من الله له . .

إن موسى على دين يعقوب . أبوه البعيد هو يعقوب .

ويعقوب هو حفيد إبراهيم . . وموسى إذن من أحفاد إبراهيم . . وكل نبى بعد إبراهيم جاء من صلبه

---

(١) الآيات من ٢٥ إلى ٢٨ سورة القصص مكية . (٢) من الآية ٢٥ سورة القصص مكية .

نفهم من هنا أن موسى كان على دين آبائه وأجداده . . كان على الإسلام والتوحيد .

وها هو ذا الوقت يجيء عليه فيعتزل عشر سنوات بعيدا عن أهله وقومه . . وفترة السنوات العشر هذه كانت فترة مهمة فى حياته . كانت فترة من فترات التأهيل الكبرى .

قطعا كان ذهن موسى يدور مع النجوم كل ليلة . وكان يتبع شروق الشمس وغروبها كل نهار ، وكان يتأمل النبات كيف يشق التربة ويظهر ، وينظر للماء كيف يحيى الأرض بعد موتها فتزدهر . . قطعا كان يسبح بذهنه فى كتاب الله المفتوح للأبصار والأفئدة . . كان يسبح بذهنه فى كون الله ، وتدركه الدهشة ويدركه العجب . غير أن هذا كله ظل كامنا فى نفسه مستقرا بها . لقد تربى موسى فى قصر الفرعون المصرى .

هذا معناه أنه كان مصريا بثقافته ، مصريا بطعامه وشرابه ، مصريا بجسده وقوته . هذا الوعاء المصرى بالميلاد والتربية . . كان يهيأ ليتلقى وحيا إلهيا من لون جديد . . وحيا إلهيا مباشرا يجيء بغير رسول من الملائكة . . إنما يكلمه الله تكليما بغير واسطة . . لا بد إذن من فترة إعداد عقلى ونفسى . . انتهت فترة الإعداد الجسمانى فى مصر ، وتربى موسى فى قصر أعظم ملوك الأرض ، فى دولة هى أغنى دولة فى الأرض . وشب عملاقا قويا يكفى أن يمد يده ليزيح أحدا حتى يقتله . . بقى إذن أن يضاف إلى الإعداد البدنى إعداد روحى مماثل . إعداد يتم فى عزلة تامة ، وسط صحراء ومراع لا يعرفها موسى قبل ذلك . وسط أناس غرباء لم يرهم من قبل . . وذلك ما وقع . كان الصمت طريقه . . وكانت العزلة مركبه . . وكان الله يستكمل لنبيه وكليمه أدواته ليتحمل موسى بعد ذلك أمانة الأمر بالحق .

. . . .

جاء على موسى يوم . . انتهت الفترة المحددة . . واستيقظ فى قلب موسى حنين غامض إلى مصر . يريد أن يعود إلى مصر . . لقد سقطت عقوبته بمضى المدة . . يعلم ذلك . . لكنه يعلم أيضا أن القانون فى مصر رهن إشارة الحاكم ، إن شاء إدخاله فى العقوبة فعل ، ولو لم يكن مستوجبا لها ، وإن شاء العفو عنه - رغم استحقاقه للعقوبة - فعل . . كان موسى يعلم ذلك ، ولم يكن واثقا من نجاته فى مصر مثل ثقته من نجاته هنا . .

رغم ذلك ، حركته الأقدار العليا وزينت له الرحيل . . كان موسى سريعا وحاسما فى اتخاذ القرارات . قال لزوجته : غدا نبدأ سفرنا إلى مصر .

قالت زوجته لنفسها : فى الرحيل ألف خطر لم يسفر عن وجهه بعد . غير أنها أطاعت .

لم يكن موسى نفسه يعرف السر فى قراره السريع المفاجئ بالعودة إلى مصر . . منذ عشر سنوات خرج هاربا . . رأسه مطلوب فى مصر . . فلماذا يعود إليها اليوم . . هل اشتاق إلى أمه وأخيه ؟ . . هل فكر فى زيارة زوجة الفرعون التى ربته كأم وأحبته كأم؟ . . لا أحد يعرف ماذا دار فى نفس موسى وهو عائد إلى مصر . . كل ما نعرفه أن طاعة صامتة لأقدار الله دفعته لاتخاذ القرار فاتخذه . وها هى ذى الأقدار العليا توجه خطواته لأمر شديد الأهمية عظيم الخطر .

خرج موسى مع أهله وسار . . اختفى القمر وراء أسراب من السحاب الكثيف وساد الظلام . اشتد البرق والرعد وأمطرت السماء وزادت حدة البرد والظلام . . وتاه موسى أثناء سيره . . التقط قطعتين من الصخر وراح يضرب إحداهما بالأخرى ليشعل نارا يرى فى ضوئها أين يسير ، ولكنه لم يستطع . كانت الرياح القوية تطفئ الشرارة الضعيفة . . ووقف موسى حائرا يرتعش من البرد وسط أهله . . ثم رفع رأسه فشاهدها عن بعد . .

شاهد نارا عظيمة تشتعل عن بعد . . امتلأ قلبه بالفرح فجأة . . قال لأهله : إنى رأيت نارا هناك . . أمرهم أن يجلسوا مكانهم حتى يذهب إلى النار لعله يأتيهم منها بخبر ، أو يجد أحدا يسأله عن الطريق فيهتدى إليه ، أو يحضر إليهم بعض أخشابها المشتعلة لتدفئتهم .

ونظر أهله إلى النار التى يشير إليها موسى فلم يروا شيئا . . أطاعوه وجلسوا ينتظرونه . . وتحرك موسى نحو النار . . سار موسى مسرعا ليدفئ نفسه . . يده اليمنى تمسك عصاه . . جسده مبلل من المطر . . ظل يسير حتى وصل إلى واد يسمونه طوى . . لاحظ شيئا غريبا فى هذا الوادى . . لم يكن هناك برد ولا رياح . . ثمة صمت عظيم ساكن . . واقترب موسى من النار . . لم يكد يقترب منها حتى نودى :

﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) .

توقف موسى فجأة . . وارتعش . . كان الصوت يجيء من كل مكان ولا يجيء من مكان محدد . . نظر موسى فى النار وعاد يرتعش . . وجد شجرة خضراء من الشوك وكلما زاد تأجج النار زادت خضرة الشجرة . المفروض أن تتحول الشجرة إلى اللون الأسود وهى تحترق . . لكن النار تزيد واللون الأخضر يزيد . . راح موسى

---

(١) من الآية ٨ سورة النمل مكية .

يرتعش رغم الدفء والعرق . . كانت الشجرة فى جبل غربى عن يمينه ، وكان الوادى الذى يقف فيه هو وادى طوى . . ووضع موسى يديه على عينيه من شدة النور مهابة وخوفا على بصره . .

وتساءل فى نفسه : نار أم نور ؟!

ثم ارتجت الأرض بالخشوع والرهبة والله عز وجل ينادى :

﴿ يَا مُوسَىٰ ﴾ .. (١)

رفع موسى رأسه وقال : نعم .

قال الله عز وجل :

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ (٢) .

ازداد ارتعاش موسى وقال : نعم يارب .

قال الله عز وجل :

﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (٣) .

انحنى موسى راكعا وجسده كله ينتفض وخلع نعليه .

عاد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾(٤) .

زاد انتفاض جسد موسى وهو يتلقى الوحى الإلهى ويستمع إلى ربه وهو يخاطبه . . قال الرحمن الرحيم :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ (٥) ؟

---

(١) من الآية ١١ سورة طه مكية .
(٢) من الآية ١٢ سورة طه مكية .
(٣) من الآية ١٢ سورة طه مكية .
(٤) الآيات ١٣ إلى ١٦ مكية .
(٥) الآية ١٧ سورة طه مكية .

ازدادت دهشة موسى . . إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يخاطبه ، والله يعرف أكثر منه أنه يمسك عصاه . . لماذا يسأله الله إذن إذا كان يعرف أكثر منه . . ؟ لا شك أن هناك حكمة عليا لذلك .

أجاب موسى وصوته يرتعش :

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾(1) .

قال الله عز وجل :

﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ .. ﴾ (2) .

رمى موسى العصا من يده وقد زادت دهشته . . وفوجئ بأن العصا تتحول فجأة إلى ثعبان عظيم الحجم هائل الجسم . . وراح الثعبان يتحرك بسرعة . . ولم يستطع موسى أن يقاوم خوفه . . أحس أن بدنه يتزلزل من الخوف ، فاستدار موسى فزعا وبدأ يجرى . . لم يكد يجرى خطوتين حتى ناداه الله !

﴿ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (3) .

﴿ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ (4) .

عاد موسى يستدير ويقف . . لم تزل العصا تتحرك . . لم تزل الحية تتحرك . .

قال الله سبحانه وتعالى لموسى :

﴿ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴾ (5) .

مد موسى يده للحية وهو يرتعش . . لم يكد يلمسها حتى تحولت فى يده إلى عصا . عاد الأمر الإلهى يصدر له :

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ (6) .

---

(1) من الآية 18 سورة طه مكية .
(2) من الآية 19 سورة طه مكية .
(3) من الآية 10 سورة النمل مكية .
(4) من الآية 31 سورة القصص مكية .
(5) من الآية 21 سورة طه مكية .
(6) من الآية 32 سورة القصص مكية .

وضع موسى يده فى جيبه وأخرجها فإذا هى تتلألأ كالقمر . . زاد انفعال موسى بما يحدث، وضع يده على قلبه كما أمره الله فذهب خوفه تماما . .

اطمأن موسى وسكت . . وأصدر الله إليه أمرا بعد هاتين المعجزتين ـ معجزة العصا ومعجزة اليد ـ أن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى الله برفق ولين ، ويأمره أن يخرج بنى إسرائيل من مصر . . وأبدى موسى خوفه من فرعون . قال إنه قتل منهم نفسا ويخاف أن يقتلوه . . توسل إلى الله أن يرسل معه أخاه هارون . . طمأن الله موسى أنه سيكون معهما يسمع ويرى، وأن فرعون رغم قسوته وتجبره لن يمسهما بسوء . أفهم الله موسى أنه هو الغالب . . ودعا موسى وابتهل إلى الله أن يشرح له صدره وييسر أمره ويمنحه القدرة على الدعوة إليه . .

قال تعالى فى سورة طه :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ

سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (١) .

لا نعرف ماذا نقول تعليقا على قول الله تعالى لعبد من عباده . .

﴿ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٢) .

اختار الله موسى واصطنعه لنفسه . . سبحانه . . وتلك قمة من قمم التشريف لا نعرف أحدا بلغها في ذلك الزمان البعيد غير موسى عليه الصلاة والسلام . قفل موسى راجعا لأهله بعد اصطفاء الله له واختياره رسولا إلى فرعون . . انحدر موسى بأهله قاصدا مصر .

يعلم الله وحده أي أفكار عبرت ذهن موسى وهو يحث خطاه قاصدا مصر . انتهى زمان التأمل ، وانطوت أيام الراحة ، وجاءت الأوقات الصعبة أخيرا ، وها هو ذا موسى يحمل أمانة الحق ويمضى ليواجه بها بطش أعظم جبابرة عصره وأعتاهم . يعلم موسى أن فرعون مصر طاغية . . يعلم أنه لن يسلمه بنى إسرائيل بغير صراع . . يعلم أنه سيقف من دعوته موقف الإنكار والكبرياء والتجاهل . لقد أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون . أن يدعوه بلين ورفق إلى الله . أوحى الله لموسى أن فرعون لن يؤمن . . ليدعه موسى وشأنه . وليركز على إطلاق سراح بنى إسرائيل والكف عن تعذيبهم . قال تعالى لموسى وهارون :

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾(٣).

---

(١) الآيات ٩ إلى ٤١ مكية . (٢) الآيتان ٤٠ ، ٤١ سورة طه مكية .

(٣) من الآية ٤٧ سورة طه مكية .

هذه هى المهمة المحددة . وهى مهمة سوف تصطدم بآلاف العقبات . إن فرعون يعذب بنى إسرائيل ويستعبدهم ويكلفهم من الأعمال مالا طاقة لهم به ، ويستحيى نساءهم ، ويذبح أبناءهم ، ويتصرف فيهم كما لو كانوا ملكا خاصا ورثه مع ملك مصر .

يعلم موسى أن النظام المصرى يقوم فى بنيانه الأساسى على استعباد بنى إسرائيل واستغلال عملهم وجهدهم وطاقاتهم فى الدولة ، فهل يفرط الفرعون فى بناء الدولة الأساسى ببساطة ويسر؟ ذهبت الأفكار وجاءت ، فاختصرت مشقة الطريق . . ورفع الستار عن مشهد المواجهة .

واجه موسى فرعون بلين ورفق كما أمره الله .

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (١) .

حدثه عن الله . عن رحمته وجنته . عن وجوب توحيده وعبادته .

حاول إيقاظ جوانبه الإنسانية فى الحديث . ألمح إليه أنه يملك مصر ، ويستطيع لو أراد أن يملك الجنة . وما عليه لذلك إلا أن يتقى الله . . استمع فرعون إلى حديث موسى ضجرا شبه هازئ وقد تصوره مجنونا تجرأ على مقامه السامى . . ثم رفع يده وتحدث . ماذا تريد ؟ قل : ماذا تريد؟ واختصر .

قال موسى : أريد أن ترسل معنا بنى إسرائيل .

سأل فرعون : بأى صفة أرسلهم معك وهم عبادى ؟

قال موسى : إنهم عباد الله رب العالمين .

تساءل فرعون ـ هازئا ـ: ألم تقل إن اسمك موسى ؟

قال موسى : بلى .

قال فرعون : ألست موسى الذى التقطناه من النيل طفلا لا حول له ولا قوة؟! ألست موسى الذى ربيناه فى هذا القصر وأكل من طعامنا وشرب من مائنا وأغرقه خيرنا وأحسنا إليه؟! ألست موسى القاتل فيما بعد . . الفار فيما بعد . . قاتل الرجل المصرى لو لم تخنى الذاكرة ؟! ألا يقولون إن القتل كفر؟! كنت كافرا وأنت تقتل إذن . . أنت موسى إذن . . الفار من القانون المصرى . . الهارب من وجه العدالة . . ثم تجىء إلى وتحدثنى . . فيم كنت تحدثنى يا موسى . . ؟ لقد نسيت .

---

(١) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ سورة طه مكية .

فهم موسى أن فرعون يذكره بماضيه ويمن عليه أنه رباه وأحسن إليه ، فهم أيضا أن الفرعون يهدده بحادث القتل القديم . . وتجاوز موسى سخرية فرعون وأفهمه أنه لم يكن كافرا حين قتل المصرى . وإنما كان ضالا لم يوح الله إليه . أفهمه أنه فر من مصر لأنه خاف انتقامهم منه رغم أن القتل كان خطأ ولم يكن يقصده . أفهمه أن الله وهبه حكما وجعله من المرسلين .

حكى الله تعالى فى سورة الشعراء جزءا من الحوار بين موسى وفرعون . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) .

وتغلبت طبيعة موسى المندفعة عليه . . إن مَنَّ الفرعون عليه وتذكيره بإحسانه عليه يثيران طبيعته المندفعة . . فإذا هو يخاطب فرعون قائلا :

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٢) .

يريد موسى أن يقول له . . هل تظن أن النعمة التى تمنها على . . من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل . . هل تظن هذه النعمة تقابل ما استخدمت هذا الشعب الكبير بأكمله ، واستعبدتهم فى أعمالك وخدمتك وأشغالك؟ إن كان هذا بذاك وطاوعك المنطق على ذلك فنحن متعادلون إذن . . ليس فينا دائن ومدين ، وإن لم يكن هذا بذاك فأيهما أكبر؟ . وعلى أى الحالات فالأمر أمر دعوة إلى الله .

أمر لم آتك به من تلقاء نفسى . لست موفدا من شعب بنى إسرائيل . لست موفدا من قبل نفسى . . إنما أنا موفد من الله تعالى . . أنا رسول رب العالمين .

---

(١) الآيات من ١٠ إلى ٢١ مكية .

(٢) الآية ٢٢ سورة الشعراء مكية .

عند هذا الحد تدخل الفرعون فى الحديث .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (1) .

قال موسى :

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (2) .

التفت فرعون لمن حوله وقال هازئا :

﴿ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴾ (3) .

قال موسى متجاوزا سخرية الفرعون :

﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ (4) .

قال فرعون مخاطبا من جاءوا مع موسى من بنى إسرائيل :

﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾(5) .

عاد موسى يتجاوز اتهام الفرعون وسخريته ويكمل :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (6) .

حكى الله تعالى فى سورة الشعراء جزءا من حوار فرعون وموسى . . قال تعالى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(7) .

يذكر الله تعالى فى سورة طه جزءا من مشهد لقاء فرعون بموسى . .

---

(1) آية ٢٣ سورة الشعراء مكية .
(2) من الآية ٢٤ سورة الشعراء مكية .
(3) من الآية ٢٥ سورة الشعراء مكية .
(4) من الآية ٢٦ سورة الشعراء مكية .
(5) من الآية ٢٧ سورة الشعراء مكية .
(6) من الآية ٢٨ سورة الشعراء مكية .
(7) الآيات ٢٣ إلى ٢٨ سورة الشعراء مكية .

قال تعالى :

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾(1) .

نلاحظ أن فرعون لم يكن يسأل موسى عن رب العالمين أو رب موسى وهارون بقصد السؤال البرىء والمعرفة . إنما كان يهزأ . ولقد أجابه موسى إجابة جامعة مانعة محكمة .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

هو الخالق . خالق الأجناس جميعا والذوات جميعا . وهو هاديها بما ركب فى فطرتها وجبلتها من خواص تهديها لأسباب عيشها . وهو الموجه لها على أى حال . وهو القابض على ناصيتها فى كل حال . . وهو العليم بها والشاهد عليها فى جميع الأحوال .

توحى العبارة القرآنية بهذا كله وأكثر . . فتأمل إيجازها المعجز .

﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (2) .

انزلقت العبارة على ذهن فرعون السميك مثلما تنزلق قطرة من الزئبق على سطح من الزجاج . لم تترك أثرا أو علامة . وها هو ذا فرعون يسأل :

- ﴿ فما بال القرون الأولى﴾ لم تعبد ربك هذا ؟

لم يزل فرعون ماضيا فى استكباره واستهزائه . ويرد موسى ردا يستلفته إلى أن القرون الأولى التى لم تعبد الله ، والتى عبدته معا ، لن تترك بغير مساءلة وجزاء . كل شىء معلوم عند الله تعالى . . هذه القرون الأولى ﴿ علمها عند ربى فى كتاب﴾ . أحصى الله ما عملوه فى كتاب . ﴿ لا يضل ربى ﴾ . . أى لا يغيب عنه شىء . ﴿ ولا ينسى ﴾ . . أى لا يغيب عن شىء . . ليطمئن الفرعون بالا من ناحية القرون الأولى

---

(1) الآيات ٤٧ إلى ٥٢ مكية .　　(2) من الآية ٥٠ سورة طه مكية .

والأخيرة وما بينهما . . إن الله يعرف كل شيء ويسجل عليها ما عملته ولا يضيع شيئا من أجورهم .

عاد موسى يكمل حديثه عن ربه .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (١) .

استلفت موسى نظر فرعون إلى آيات الله فى الكون . ودار به مع حركة الرياح والمطر والنبات وأوصله مرة ثانية إلى الأرض ، وهناك أفهمه أن الله خلق الإنسان من الأرض ، وسيعيده إليها بالموت ، ويخرجه منها بالبعث . إن هناك بعثا إذن . . وسيقف كل إنسان يوم القيامة أمام الله تعالى . . لا استثناء لأحد . . سيقف كل عباد الله وخلقه أمامه يوم القيامة . بما فى ذلك الفرعون . بهذا جاء موسى مبشرا ومنذرا .

لم يعجب فرعون هذا النذير ، وتصاعد الحوار بينه وبين موسى . .

كان الحوار يعبر عن الصراع بينهما . سخنت حدة الصراع فتغيرت لهجة الحوار . . أقام موسى الحجة الدامغة على فرعون ، أقام عليه الحجة العقلية . . ولكن فرعون ينفلت خارجا من دائرة الحوار الذى بنى على المنطق ، ويبدأ حوارا من نوع جديد . نوع لا يطيق موسى مجاراته فيه . . إنه يهاجم موسى ويهدده ويحتقره ويسبه .

أعطى فرعون ظهره للحق الذى جاء به موسى . وتجاهل دعوته . وبدأ يهاجمه فى شخصه وملابسه وطريقة نطقه للكلمات . . أشار لمن حوله إلى فقر موسى . . وملابسه الصوفية الخشنة . وهذا التردد الذى يجتاح لسانه عند نطق بعض الكلمات . بعد هذا التحقير لموسى . . عمد الفرعون إلى أسلوب الحكم المطلق . .

سأل موسى : كيف يجرؤ على عبادة غيره . . ؟ ألا يعرف موسى أن فرعون إله ؟ كيف يجهل موسى هذه الحقيقة رغم أنه تربى فى قصر الفرعون ويعرف ؟ !

بعد أن أعلن فرعون عن ألوهيته بصفة مبدئية . سأل موسى كيف تجرأ على عبادة غيره . . إن هذا معناه السجن . . ليس عندنا لمن يتخذ إلها غير الفرعون . . سوى السجن . .

---

(١) الآيات من ٥٣ إلى ٥٥ من سورة طه مكية .

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (١) .

أدرك موسى أن الحجج العقلية لم تفلح . إن الحوار الهادئ ينقلب من السخرية إلى المن إلى التحقير إلى التهديد بالسجن . أدرك موسى أن وقت إظهار المعجزة قد جاء .

قال للفرعون بعد تهديده له بالسجن . .

﴿ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

إنه يتحدى الفرعون . . وها هو ذا يقبل تحديه . . ويعلق صدقه على أن يأتيه بهذا الشيء المبين .

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣) .

ألقى موسى عصاه فى رَدْهة القصر العظيمة . فى البداية ، خيل إلى فرعون أن العصا سقطت من موسى بسبب ارتباكه بعد أن طالبه بإظهار الدليل على صدقه .

تحولت أنظار الواقفين جميعا إلى العصا وهى ترتطم بأرض الرَّدْهة الرخامية .

لم تكد العصا تلمس الأرض حتى تحولت إلى ثعبان هائل يتحرك بسرعة . اتجه الثعبان الهائل نحو فرعون . شحب وجه فرعون من الخوف ، وانكمش فى كرسيه ، وصرخ أن يبعدوا عنه الثعبان . مد موسى يده إلى الثعبان فعاد فى يده إلى عصا كما كان . سقط الصمت بعد هذه الآية . .

عاد موسى يكشف أمام الواقفين معجزته الثانية . أدخل يده فى جيبه وأخرجها فإذا هى بيضاء كالقمر . شحبت كل أضواء القصر وشموعه أمام هذا النور الجديد . وظهر وجه فرعون أخضر من الخوف . قال تعالى :

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾(٤).

صمتت الأصوات فى القصر . وانغرس تأثير المعجزتين فى النفوس يحمل تيارا من الخوف أول ما يحمل . . ثم أعاد موسى يده إلى جيبه فعادت كما كانت .

ذاب النور المدهش الذى حملته الآية الثانية إلى المكان . قال فرعون ممتقع الوجه : اذهبا الآن . . نتحدث فيما بعد .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الشعراءمكية .
(٢) الآية ٣٠ سورة الشعراء مكية .
(٣) الآية ٣١ سورة الشعراء مكية .
(٤) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ مكية .

استدار موسى وخرج من القصر . كان فرعون ذاهلا . . جال تفكيره فيما يمكن أن يقع فى المملكة لو انتشر فيها خبر المعجزتين وتحدث الناس عن موسى وهارون . أصدر الفرعون أمره بإسدال الصمت على الموضوع ، ولكن خدم القصر وجواريه وجزءا من بنى إسرائيل شهدوا المعجزتين . وملئوا الدنيا حديثا عنهما . بهت فرعون مصر تماما حين واجه المعجزتين . فلما خرج موسى من قصره تحول من الذهول والخوف إلى الغضب العنيف . . انفجرت ثورته فى وزرائه ورجاله وراح يعنفهم بلا سبب . أمرهم بالخروج من مجلسه وخلا بنفسه . . حاول أن يفكر فى الموضوع بهدوء أكثر .

شرب عدة كئوس من الخمر فلم يذهب غضبه . . ثم أصدر أمره باجتماع خطير يدعى إليه كل وزراء مصر وقادتها ومسئوليها . وأصدر الفرعون أمره لهامان ، كبير وزرائه ، أن يشرف بنفسه على عقد الاجتماع . واجتمع الملأ من قوم فرعون .

دخل فرعون الاجتماع ووجهه متصلب . كان واضحا أنه لن يستسلم بسهولة ، إنه يقيم ملكه على أساس أنه إله يعبده المصريون . وهو يستبد بهم ويتحكم فيهم ويستغلهم طبقا لهذه الفكرة . . وها هو ذا موسى يجىء ليهدم كل ما بناه . . أبسط شىء أن موسى يقول إن هناك إلها واحدا لا إله غيره فى الكون . معنى هذا أن فرعون كاذب .

لم تكد هذه الفكرة تستقر فى رأس فرعون . . حتى التفت إلى كبير وزرائه هامان . . كانت الجلسة التاريخية منعقدة . . ولم يكن هناك من تجرأ على فتح فمه بعد . افتتح فرعون الجلسة بأن ألقى على هامان سؤاله المفاجىء : هل أنا كاذب يا هامان ؟

ركع هامان مندهشا وتساءل : من الذى تجرأ على الكفر بالفرعون؟ !

قال فرعون مقطبا : موسى . ألم يقل إن هناك إلها فى السماء ؟

قال هامان مؤكدا : موسى يكذب يا مولاى .

قال فرعون نافد الصبر وهو يدير وجهه إلى الجهة الأخرى : أعرف أنه يكذب .

ثم ملتفتا إلى هامان :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [١] .

---

(١) الآية ٣٦ وجزء من آية ٣٧ سورة غافر مكية .

أصدر الفرعون أمره الملكى ببناء صرح شاهق يفترض فى ارتفاعه أن يصل إلى السماء . استند الأمر الفرعونى إلى حضارة مصر وولعها بالبناء ، غير أنه تجاهل القوانين الهندسية الحاكمة ، ورغم ذلك رد هامان منافقا وهو يعرف باستحالة بناء مثل هذا الصرح :

ـ سأصدر أمرا ببنائه على الفور . . لكنك يا مولاى . . واسمح لى بالاعتراض للمرة الأولى على الفرعون . . لن تجد شيئا فى السماء . ليس هناك إله غيرك .

استمع فرعون إلى اعتراض رئيس وزرائه راضيا كأنه يستمع إلى حقيقة مقررة . . ثم أعلن فى اجتماعه الشهير كلمته التاريخية :

﴿ يَأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾(١) .

حتى الجميع رءوسهم موافقين . كان بينهم اثنان أو ثلاثة . لم يزل فى رءوسهم عقل . وكان هؤلاء الثلاثة يعرفون أن فرعون هو الذى يكذب . ورغم ذلك سكتوا على الكذب ووافقوه . وقد كلفت هذه الموافقة الشعب المصرى غاليا . دفع الجنود المصريون من دمهم فيما بعد ثمن نفاق قادتهم وموافقة وزرائهم وخضوع كهنتهم لجنون الفرعون .

قال فرعون وهو يسأل مستشاريه : ماذا قلتم فى موسى ؟

قال هامان : هو كاذب . وقال وزير آخر : أعتقد أنه مجنون .

وقال كاهن أشيب ـ خشى أن يضيع بينهم لو لم يقل شيئا ـ : أتصور أن مسا أصابه . .

قاطع الفرعون : أنتم تصفون موسى ، ولكنكم لم تجيبوا عن سؤالى بعد . ما هى حقيقة موسى . . ؟ ما هى المؤامرة التى يخفيها وراء ظهره ؟

سكت المستشارون خوفا ونفاقا من فرعون . وانتظروا أن يضع هو الكلمات فى أفواههم ليرددوها بعده كالببغاوات .

قال فرعون بعد لحظة صمت فلسفى مضحك : أعتقد أن موسى .

﴿ لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾(٢) .

---

(١) من الآية ٣٨ سورة القصص مكية .

(٢) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ سورة الشعراء .

من المعروف فى أنظمة الحكم المطلق أن اجتماع وجوه القوم وكبارهم لإبداء الرأى أمام الحاكم المطلق لا يعنى أكثر من اجتماعهم لتلقى الرأى وترديده بعد ذلك .

قال المستشارون بعد أن أعطاهم فرعون حبل الكلمات :

ـ صدق فرعون . إن موسى ساحر ، لقد انحلت المشكلة ، سنرجئ موسى وأخاه ونبعث بأمر الفوعون فى مصر كلها ليحضر السحرة ، فإذا حضر السحرة وقفوا أمام موسى وأثبتوا أنه ساحر وهزموه . . وبذلك نكشفه أمام المصريين وأبناء إسرائيل . .

تم الاتفاق فى هذه الجلسة التاريخية على ذلك . وخرج من قصر الفرعون عشرة رجال ركبوا مركباتهم وأسرعوا يتفرقون فى مصر . . ونودى ثانى يوم فى أسواق مصر كلها : إن على جميع السحرة الماهرين التوجه إلى قصر فرعون لأمر مهم . . واستدعى فرعون نبى الله موسى وحاول تهديده وإخافته ، ولكن موسى ظل على هدوئه .

قال فرعون لموسى : أنت ساحر يا موسى . . ولقد قررت أن أكشفك أمام الجميع وبعد أيام قليلة يحضر السحرة .

سأل موسى : متى ألتقى بالسحرة ؟

قال فرعون : هناك مناسبة قريبة لحشد الناس واجتماعهم . . هى يوم الزينة . . يوم شم النسيم . . يوم تتزين الأرض لقدوم الربيع . . سيكون الاجتماع هائلا . . وسوف تهزم . . وأنا أعطيك حق التراجع من الآن . . إننى أمنحك فرصة أخيرة لإنقاذ ماء وجهك .

قال موسى متجاهلا كلام الفرعون الأخير : اتفقنا على الموعد ﴿ موعدكم يومُ الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ . .

سأل فرعون : أى وقت ستحضر ؟

قال موسى : سأحضر إن شاء الله قبل الضحى . . فى بداية النهار . .

قال تعالى فى سورة طه :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ (١) .

---

(١) الآيات من ٥٦ إلى ٥٩ مكية .

انصرف موسى مطمئنا . .

وبدأت وفود السحرة تصل إلى قصر فرعون . وحين اجتمعوا جميعا أمر فرعون بإدخالهم عليه . سجد السحرة لفرعون حين دخلوا عليه . أمرهم فرعون بالوقوف ، وراح يتمشى بينهم ويتأمل وجوههم وملابسهم وهو صامت يفكر ، ثم وقف فجأة وقال : أيها السحرة . . نحن نواجه مشكلة صغيرة ، وقد أمرت بإحضاركم لحلها . .

حنى السحرة رءوسهم واستمعوا . عاد الفرعون يتحدث : جاءنا رجل يدعى أنه رسول من الله ، رجل اسمه موسى ، ومعه أخوه هارون . . وموسى هذا ساحر أمهر منه وأقدر . . يجب أن تهزموه هزيمة مطلقة لا يستطيع رفع رأسه بعدها . .

حنى السحرة رءوسهم وظلوا صامتين . قال فرعون : لماذا لم يسألنى أحدكم عن سحر موسى ؟ !

رد أحد السحرة بهدوء : نحن ننتظر من فرعون العظيم أن يحدثنا بنفسه . . لا نريد أن نقاطعك يا مولانا .

قال فرعون بغضب : ألقى عصاه فإذا هى ثعبان كبير ، ونزع يده فإذ هى بيضاء للناظرين .

لمعت الابتسامات فى وجوه السحرة وقال أحدهم :

- ليطمئن قلب الفرعون . . هذه لعبة قديمة ، لعبة العصا التى تتحول إلى ثعبان . . إنها لا تتحول إلى ثعبان . . إنما يُخيل إلى الناس أنها تتحرك وهى ثابتة . .

قال فرعون : لا أريد أن أدخل فى نقاش حول أصول صنعة السحر . . أريد أن تهزموا موسى . . لقد اتفقنا على اللقاء يوم الزينة . سيجتمع الشعب المصرى كله ويشاهدكم وأنتم تهزمونه . يجب أن تغلبوه . .

انتهى كلام فرعون وانتظر أن ينصرف السحرة ولكنهم ظلوا واقفين . . تساءل أحدهم :

- لم يحدثنا مولانا الفرعون عن أهم شىء لو غلبنا له موسى .

سأل فرعون مندهشا : ما هو أهم شىء هذا ؟ !

قال أحد السحرة : أجرنا ﴿إن كنا نحن الغالبين﴾ .

قال فرعون ضاحكا : سأرضى عنكم ، وستكونون من المقربين . سننشئ وظائف جديدة فى القصر للسحرة . . اطمئنوا تماما للأجر . .

ابتسم فرعون وهو يرى وثوق السحرة من أنفسهم ، وأمرهم بالانصراف وانصرف

هو إلى مائدة الغداء . . انفتحت نفسه فجلس يأكل . . قال وهو يلتهم فخذ خروف سمين :

ـ انسدت نفسى عن الأكل من يوم أن جاء موسى . . اقتربت نهايته على أى حال .

قال تعالى في سورة الأعراف :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١) .

وجاء يوم الزينة . . وخرج الناس من بيوتهم وهم يتحدثون عن اللقاء بين موسى وفرعون .

بدأ الناس يتوجهون إلى مكان الاحتفال منذ الصباح المبكر . . لم يكن هناك أحد فى مصر لم يعرف قصة التحدى واللقاء . . وهلل الناس حين وصل السحرة . . كما هللوا حين وصل فرعون . . ثم ساد صمت ثقيل حين وصل موسى وهارون .

كان مكان الاحتفال مكشوفا إلا من مظلة فرعونية لتقى رأس الفرعون من حرارة الشمس . . ووقف فرعون وسط أبهته وجنوده وقواده وهو يرتدى الذهب والجواهر ، ووقف موسى مطأطئ الرأس يذكر الله فى نفسه . . صمتت الأصوات تماما وتقدم السحرة إلى موسى . . قال السحرة لموسى :

﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ (٢) . .

---

(١) الآيات من ١٠٤ إلى ١١٤ مكية

(٢) الآية ٦٥ سورة طه .

قال موسى :

﴿ بَلْ أَلْقُوا ﴾[1] .

قال السحرة :

﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [2] . .

قال موسى :

﴿ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾[3] .

قال بعض أهل الحقائق . . التفت موسى فإذا جبريل على يمينه يقول له : يا موسى . . ترفق بأولياء الله . . قال موسى لنفسه : هؤلاء سحرة جاءوا ينصرون دين فرعون . . عاد جبريل يقول : ترفق بأولياء الله . هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك ، وبعد صلاة العصر فى الجنة .

رمى السحرة بعصيهم وحبالهم فإذا المكان يمتلئ بالثعابين فجأة . .

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[4] . .

وهلل المصريون . . وابتسم الفرعون ابتسامة واسعة وقال فى نفسه :

ـ لقد تم القضاء على موسى الآن . . إن معجزته أن العصا تتحول فى يده إلى حية . . هاهو ذا فرعون يحضر له عشرات السحرة الذين تتحول العصى والحبال فى أيديهم إلى حيات . .

زادت ابتسامة فرعون . .

ونظر موسى عليه السلام إلى حبال السحرة وعصيهم وشعر بالخوف . .

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [5] .

تذكر ما قاله له جبريل وأحس بالخوف . . كيف يمكن أن يدخل هؤلاء السحرة الجنة ويكونوا أولياء الله . . مثلما يطفأ النور ثانية أو ثانيتين ويسود الظلام . . شعر موسى بذلك . . ولا أحد يعرف حقيقة الأفكار التى عبرت ذهن موسى وهو يقف فى ملابسه

---

(١) الآية ٦٦ سورة طه.

(٢) الآية ٤٤ سورة الشعراء.

(٣) الآية ٦١ سورة طه.

(٤) الآية ١١٦ سورة الأعراف.

(٥) الآية ٦٧ سورة طه.

الفقيرة مع أخيه أمام كل هذا الحشد العظيم من حرس الفرعون وجنوده . . لم يستمر إحساس موسى بالخوف ، عاد النور يضيء داخله والله سبحانه وتعالى يقول له :

﴿ لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ (١) .

اطمأن موسى حين سمع رب العالمين يطمئنه . . كفت يده عن ارتعاشتها الخفيفة ، ورفع موسى عصاه وألقاها فجأة . . لم تكد عصا موسى تلامس الأرض حتى وقعت المعجزة .

شاهد الناس والسحرة وفرعون وجنوده شيئا لم يشاهده أحد من قبل فى العالم . . المعروف أن الساحر يستطيع أن يخدع أعين الناس ويوهمهم أن الثعبان يتحرك وهو ثابت ، أن العصا تتحرك وهى ثابتة . .

لكن ما حدث ساعتها كان شيئا مختلفا تماما . .

لم تكد عصا موسى تلمس الأرض حتى تحولت إلى ثعبان جبار سريع الحركة ، وتقدم هذا الثعبان فجأة نحو حبال السحرة وعصيهم التى كانت تتحرك وبدأ يأكلها واحدا بعد آخر . . راحت عصا موسى تأكل حبال السحرة وعصيهم بسرعة مخيفة . .

لم تكد تمضى دقائق حتى كانت الساحة خالية تماما من كل حبال السحرة وعصيهم . . اختفت الحبال والعصى فى بطن عصا موسى . . وتحرك الثعبان العظيم نحو موسى ومد موسى يده فتحول الثعبان إلى عصا . .

وأدرك السحرة أنهم ليسوا أمام ساحر . . إنهم سادة السحر وأعظم العلماء فى زمانهم . . وما رأوه منذ لحظات لا يدخل فى باب السحر أو العلم . . إنما هذه معجزة من الله . . وألقى السحرة أنفسهم على الأرض ساجدين . .

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾(٢) .

شهد المصريون وأبناء إسرائيل هذه المعجزة المفاجئة . . شهدوا سجود السحرة لموسى وهارون . . وأحس فرعون أن الأمر يفلت من يده فنهض واقفا وصاح فى السحرة : كيف تؤمنون به قبل أن أعطيكم إذنا بذلك ؟ .

قال السحرة : لا يحتاج الإيمان إلى إذن .

---

(١) جزء من آية ٦٨ وآية ٦٩ سورة طه مكية . (٢) الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ سورة الأعراف.

قال فرعون : إنها مؤامرة واضحة . .

﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾[1] . .

ستقطع أيديكم وأرجلكم . . ستصلبون فى جذوع النخل ، إنها مؤامرة واضحة .

قال السحرة : افعل ما تريد أن تفعله يا فرعون . . لن نفضلك على هذه المعجزة الإلهية . . ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾ وما أجبرتنا .

﴿ عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[2] . .

ولو عذبتنا وقتلتنا وصلبتنا فإنك تعذبنا فى هذه الحياة . . وهى لا شىء بجانب الآخرة . . ونحن نطمع فى مغفرة الله ودخول الجنة . .

وأصدر الفرعون أمره بصلب السحرة جميعا . .

ووقف الناس يتفرجون على ما يحدث . . لم تكن شهادة السحرة لموسى شيئا يستهان به . . إن هؤلاء هم صفوة المجتمع المصرى . . هم علماؤه . . وقد سجد علماء مصر للحق، فخذلهم الناس وتركوهم لمصيرهم . كان الحق واضحا ورغم ذلك اكتفى الناس بالفرجة ، ولو أن كل واحد من المصريين انحنى على الأرض وتناول قطعة من الطوب وقذف بها فرعون لسقط فرعون وتغير تاريخ مصر . . ولكن الذى حدث أن أحدا لم يتحرك من مكانه ، اكتفى الناس بالفرجة ، ودفع الناس فيما بعد ثمن هذه الفرجة . .

غرق الناس فيما بعد ثمنا لجبن يوم واحد . وأسدل الستار على هذا اليوم العظيم . . وانصرف موسى وهارون . . وعاد الفرعون لقصره . .

حكى الله تعالى فى سورة الأعراف ما كان من أمر السحرة وموسى . . قال تعالى :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَىٰ

---

(1) الآية 71 سورة طه. (2) الآية 73 سورة طه.

وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (١) .

. . . .

انقلب السحرة المصريون إلى الإسلام الذى جاء به موسى . . آمنوا بالله . . وصعدوا بهم إلى جذوع النخل لصلبهم وتقطيع أيديهم وأرجلهم ، وهم يسألون الله أن يتوفاهم مسلمين . وفهم موسى معنى كلمات جبريل عليه السلام : « هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك . . وبعدها فى الجنة » . لم يكد العصر يدخل حتى كانت أجسام السحرة . . علماء مصر وخيرة عقولها . . كانت أجسادهم تشخب دماء وهى مصلوبة يثبتها جنود الفرعون بالسهام القوية .

انكفأ فرعون على مشكلته الجديدة . .

بدأت سلسلة اجتماعات خطيرة فى قصره . . استدعى المسئول عن الجيش والشرطة . . واستدعى ـ ما نسميه اليوم ـ مدير الاستخبارات ، واستدعى الوزراء والأمراء والكهنة . . وراح يستدعى كل من يملك قوة للتأثير فى سير الحوادث ، أو يتصور أنه يملك هذه القوة .

سأل الفرعون مدير استخباراته : ماذا يقول الناس ؟

قال : نشر رجالى بينهم أن كسب موسى للمباراة كان مؤامرة دبرها معه كبير السحرة . وقد تم اكتشاف المؤامرة التى يعتقد أن جهات مجهولة تمولها .

سأل الفرعون مدير الشرطة : ماذا تم فى جثث السحرة؟

قال : علقها رجالى فى الميادين العامة والأسواق لإرهاب الناس . ونحن نشيع أن الفرعون يقتل كل من له علاقة بالمؤامرة .

سأل الفرعون قائد الجيش : ماذا يقول الجيش ؟

قال : يتمنى أن تصدر له الأوامر للحركة فى أى اتجاه يحدده الفرعون .

---

(٢) الآيات من ١١٥ إلى ١٢٦ مكية .

قال فرعون : لم يأت دور الجيش بعد . سيأتى دوره .

سكت فرعون . . وتحرك هامان كبير الوزراء ورفع يده يطلب الكلمة .

سمح له فرعون فقال هامان :

ـ هل سنترك موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويتركوا عبادتك؟

قال فرعون : أنت تقرأ أفكارى يا هامان . سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون .

أصدروا التعليمات بذلك . وانطلق رجال الفرعون يقتلون الأبناء وينتهكون النساء ويسجنون من يعترض . . ووقف موسى يشهد ما يحدث دون أن يملك التدخل أو يقوى على دفعه . . كل ما فعله أنه أمر قومه بالصبر . أمرهم أن يستعينوا بالله ويصبروا على المحنة . ضرب لهم مثلا بالسحرة المصريين الذين احتملوا فى الله ما احتملوه بغير شكاة . أفهمهم أن جنود فرعون يتصرفون فى الأرض كما لو كانت الأرض ملكا خاصا لهم ، غير أن هذا ليس صحيحا . . سيرث هذه الأرض من يتقى الله . .

وأشاع إرهاب الفرعون فى نفوس بنى إسرائيل روحا من الانهزام والتشاؤم . وقالوا لموسى : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا . كأنهم يقولون له إن وجودك لا يؤثر فى شىء . . نحن وحدنا تماما . . ورد موسى جهلهم وأفهمهم أن الله سيهلك عدوهم ثم يستخلفهم فى الأرض فيرى كيف يعملون . . غير أنهم استمروا على شكايتهم وتأذيهم .

وبدا موقف موسى صعبا . . إنه يواجه غضب الفرعون ومؤامراته ، وتذمر قومه فى الوقت نفسه . ووسط هذه الظروف تحرك قارون . كان قارون من أبناء إسرائيل . ﴿كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾ . إن ثراءه وظروفه جعلاه أقرب طبقيا وعاطفيا إلى نظام الفرعون .

يحدثنا الله عن كنوز قارون فيقول ـ سبحانه وتعالى ـ إن مفاتيح الحجرات التى تضم الكنوز ، كان يصعب حملها على مجموعة من الرجال الأشداء . ولو عرفنا عن مفاتيح الكنوز هذه الحال ، فكيف كانت الكنوز ذاتها ؟! كان لقارون عدد عظيم من الخيل والمركبات والرجال والحرس ، وكانت مركباته مطعمة بالفضة والذهب . وكانت سروج خيله المطهمة مصنوعة من الجلد المزين بالذهب والفضة وبالبرونز والنحاس . . وكان قارون إذا خرج فى زينته ، ومشى موكبه تحت الشمس ، تلألأ الذهب والنحاس تحت أشعة الشمس ، وخطف الوهج أبصار أهل الدنيا . .

وكان طبيعيا أن يملك قارون مع أمواله كبرياء لا يفلح معها نصح . ويبدو أن ثراءه وكبرياءه أسلماه معا لإحساس متصل بالفرح . . صارت ضحكته أشهر ضحكة فى بنى إسرائيل ، وصار موكبه أشهر المواكب بعد موكب الفرعون وموكب هامان . كان الاثنان يملكان مصر كلها ، ولم يكن قارون يملك غير جزء من مصر على أى حال .

ويبدو أن العقلاء من قومه نصحوه أن يفكر قليلا فى آخرته ، ولعلهم قالوا له : إن أحدا لا ينصحك بترك الدنيا كلها والانخراط فى سلك الزاهدين . إنما نصحوه ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، وكان هذا النصح مأخوذا به ولا حاجة إليه ، كما نصحوه ألا ينسى نصيبه من الآخرة . ويبدو أن قارون اكتفى بنصيبه من الدنيا ، وأوهمه عقله أن هذا الثراء جاءه بسبب علمه ، كما أوهمه ثراؤه أن الله يحبه . وذهبت به الظنون إلى أنه أفضل من موسى . . إن موسى فقير وقارون شديد الثراء . كيف يكون الفقير الذى لا يرتدى أسورة واحدة من الذهب ، أفضل عند الله من الغنى الذى يصنع سروج خيله من الذهب ؟!

هكذا اتفق قارون مع فرعون فى نظرته إلى موسى . . وكان فرعون يحكم على الأفراد من واقع ثرائهم المادى ، كدأب الجاهلين .

﴿ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ (١) .

كانت هذه كلمة فرعون عن موسى . . اتفق رأيا فرعون وقارون بالنسبة لموسى . . وكان قارون بحكم مركزه وثرائه صديقا لفرعون ونظام حكمه . ويبدو أن قارون وفرعون وهامان لم يكونوا وحدهم سجناء هذا الوهم . كان قوم فرعون . . أى المصريون ينظرون إلى موسى نظرتهم إلى ساحر هزم سحرتهم . . ولا يعنى هذا أن مصر أجدبت أو خلت من الفضل ، كان فى المصريين من يؤمن بموسى ، ويخفى إيمانه خشية بطش الفرعون . وكان فى قوم موسى من ينظر إلى موسى وقارون ويقارن بينهما ، وكان هناك من يتساءل ببلادة : إذا كان الله يحب موسى حقا فلماذا جعله فقيرا؟!

ويبدو أن قارون كان فتنة لقومه ، وللمصريين على السواء . كان إذا خرج فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا .

﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الزخرف مكية . (٢) من الآية ٧٩ من سورة القصص مكية

وكان العقلاء ـ رغم قلتهم ـ يرون أن ثراء قارون العظيم لا يعنى شيئا فى ميزان الله ، لا يرى الله الفضل فى الذهب والكنوز واللآلئ والدرر والماشية ، إذا كانت النفوس قد أظلمت من الداخل . وكان موقف موسى صعبا وسط هذه الظروف كلها .

وفى هذه اللحظات الحرجة ، تحرك قارون ضد موسى . كان موسى ـ كنبى ـ رجلا يتصف بالنقاء العظيم . ويبدو أن قارون اتفق مع فرعون على محاولة إسقاط موسى فى عيون أتباعه ، عن طريق اتهامه بتهمة تخل بالنقاء . وهكذا فوجئ موسى يوما وهو يقف وسط قومه ، ويدعوهم إلى الله ، فوجئ بامرأة بغى تقذفه بتهمة مؤداها أنه كان فى فراشها أمس .

ونحسب أن موسى فوجئ بهذه التهمة ، ولم يعرف ماذا يقول فيها ، أو كيف يدفع عن نفسه اتهام البغى . . وأغلب الظن أنه صلى لله ثم أقبل عليها فسألها : لماذا تتهمه بما لم يحدث؟ وانهارت المرأة باكية مستغفرة تحدثه أن قارون أعطاها نقودا مقابل إلصاق هذا الإفك بموسى . ودعا موسى على قارون . .

وشاء الله تعالى أن تقع معجزة تضع الأمور فى أماكنها الصحيحة وتبين للناس أن الله هو القادر القاهر ، وأن المال فتنة وليس فضلا تقاس به أقدار الناس .

وكانت هذه المعجزة هى خسف الله لقارون وداره وكنوزه .

خرج قارون على قومه فى زينته . . فانشقت الأرض تحت قدميه وهوى فى الأرض . لا نعرف أكان ذلك زلزالا ينتظر منذ خلق الأرض لحظة ميلاده ليقع ، أم كان ذلك زالزالا أمره الله أن يقع فى هذه اللحظة . . كل ما نعرفه أن الأرض انشقت وابتلعت قارون . . وابتلعت معها أرضه وقصوره وماشيته وذهبه وفضته وكنوزه ورجاله . . وتقول بعض الأساطير إن ذلك كان فى الفيوم . وإن بحيرة قارون التى يعرفها المصريون بهذا الاسم . . كانت هى موضع أرض قارون وقصوره وكنوزه . . وعلى أى حال . . إن النص القرآنى لا يحدد مكان هذا الخسف ، ولا يحدد زمانه . . إنما يحكى ما وقع فحسب . . وليس تحديد المكان أو الزمان يعنى شيئا إلى جوار العبرة المستخلصة مما حدث .

قال تعالى فى سورة القصص :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ

الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

وقف كثير من القدماء أمام هذا العلم الذى ادعى قارون أنه قد أوتيه . قال بعضهم إن هذا هو علم الكيمياء الذى يتحول بسببه النحاس إلى ذهب ، وقال بعضهم إنه كان يعرف اسم الله الأعظم ، فاستخدمه فى تحويل المواد إلى ذهب . وأنكر عليه العقلاء من القدماء أن يعرف اسم الله الأعظم ، وهو منافق ، كما أنكروا عليه صنعة الكيمياء . .

ونحسب أن هذا كله أساطير لا تصلح لتفسير أسباب ثرائه ، نعتقد أنه كان رجلا ظالما ، ورث ضياعا واسعة فاستغلها فى تنمية ثروته ، ولا بأس بعمل غير مشروع هنا أو هناك ، ولا بأس من صداقة الفرعون والتسهيلات التى تتيحها مثل هذه الصداقة . ولا بأس من الوقوف ضد موسى ، إذا كان ذلك يتفق مع المصلحة . . ولا بأس من ظلم هنا وظلم هناك . . بعدها يكون من المنطقى أن يقول إنه أوتى أمواله على علم عنده . . لقد أجهد الرجل نفسه فى الكذب والظلم حتى صنع ثروته .

---

(١) الآيات من ٧٦ إلى ٨٣ مكية .

إن الانحراف عن الإيمان بالله . . ولو شعرة واحدة . . ينتهى بالإنسان إلى كبرياء تضطرب معها الحقائق ، وتختلط الأمور ، ويصبح الادعاء الكاذب شيئا منطقيا ومفهوما ولا حاجة لتحليله . . لم يكد خسف قارون يتم ، حتى ارتفعت رءوس المؤمنين بموسى وانقشع غمهم بعد طول استياء . عاين المصريون وأبناء إسرائيل هذه المعجزة . وعاد الصراع بين موسى وفرعون يصل إلى ذروته . . وأيقن فرعون أن موسى يهدده فى ملكه . .

كان موسى - مثل كل الأنبياء - يحمل برسالته حكما بالإعدام على شرور عصره ومراكز القوة الظالمة . . واتحدت شرور العصر فى قصر الفرعون . . هناك طرح فرعون مصر فكرة قتل موسى . . كان فرعون قد صار إلى اقتناع بأن قتل موسى هو الكفيل بحل مشكلاته . .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (١) .

سنلاحظ أن فرعون يرتدى مسوح الداعين إلى الحق ، إنه يختلس لنفسه مهام الأنبياء ، ويخاف على الناس أن يضلهم موسى . . وهو يقترح على وزرائه وكبار رجاله أن يتركوه يقتل موسى . . والمفهوم الطبيعى أنه لن يقتل موسى بيديه ، وإنما هو يطرح فكرة قتله أمامهم ، لتقوم سلطات الدولة بتنفيذها . ونعتقد أن هامان حبذ الفكرة ، وتكونت جبهة من المنافقين الذين يؤيدون فكرة الفرعون . .

كادت الفكرة تحصل على التصديق ، لولا رجل من آل فرعون . . رجل من رجال الدولة الكبار ، لايذكر القرآن اسمه ، لأن اسمه لا يهم ، لم يذكر صفته أيضا لأن صفته لا تعنى شيئا . إنما ذكر القرآن أنه رجل مؤمن . . ذكره بالصفة التى لا قيمة لصفة بعدها .

تحدث هذا الرجل المؤمن ، وكان ﴿ يكتم إيمانه ﴾ ، تحدث فى الاجتماع الذى طرحت فيه فكرة قتل موسى وأثبت عقم الفكرة وسطحيتها . قال إن موسى لم يقل أكثر من أن الله ربه ، وجاء بعد ذلك بالأدلة الواضحة على كونه رسولا ، وهناك احتمالان لا ثالث لهما : أن يكون موسى كاذبا ، أو يكون صادقا ، فإذا كان كاذبا ﴿فعليه كذبه ﴾ ، وهو لم يقل ولم يفعل ما يستوجب قتله . وإذا كان صادقا وقتلناه ، فما هو الضمان من نجاتنا من العذاب الذى يعدنا به؟

---

(١) الآية ٢٦ من سورة غافر مكية .

تحدث المؤمن الذى يكتم إيمانه فقال لقومه : إننا اليوم فى مراكز الحكم والقوة ، مثلما كان قارون بالأمس فى مركز الثراء والقوة ، ثم أصابه ما أصابه . . من ينصرنا من بأس الله إذا جاء؟ ومن ينقذنا من عقوبته إذا حلت . ؟ إن إسرافنا وكذبنا قد يضيعاننا . .

وبدت كلماته مقنعة . إنه رجل ليس متهما في ولائه للفرعون . . وهو ليس من أتباع موسى . . والمفروض أنه يتكلم بدافع الحرص على عرش الفرعون . . ولا شيء يسقط العروش كالكذب والإسراف وقتل الأبرياء .

ومن هذا الموضع استمدت كلمات الرجل المؤمن قوتها . . بالنسبة إلى فرعون ووزرائه ورجاله . . ورغم أن فرعون وجد فكرته فى قتل موسى ، صريعة على المائدة . . رغم تخويف الرجل المؤمن لفرعون . . رغم ذلك قال الفرعون كلمته التاريخية التى ذهبت مثلا بعده لكل الطغاة .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾[1] .

هذه كلمة الطغاة دائما حين يواجهون شعوبهم . . ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ . . هذا رأينا الخاص . وهو رأى يهديكم سبيل الرشاد . وكل رأى غيره خاطئ . . وينبغى الوقوف ضده واستئصاله . حدثنا الله عن هذا الموقف فى سورة غافر .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾[2] .

لم تتوقف المناقشة عند هذا الحد . . قال فروعون كلمته ولكنه لم يقنع بها الرجل المؤمن . . وعاد الرجل المؤمن يتحدث :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ

---

(١) من الآية ٢٩ سورة غافر مكية .

(٢) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ نفس السورة .

(٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم
مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ
يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ
قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ
(٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ
وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (١) .

سنلاحظ فى هذا الحديث اختلافا عن الحديث السابق . . إن الرجل المؤمن يغوص فى حديثه الأخير فى أعماق التاريخ وهو يقدم لفرعون وقومه أدلة كافية على صدق موسى . . وهو يحذرهم من المساس به . لقد سبقتهم أمم كفرت برسلها ، فأهلكها الله : قوم نوح ، قوم عاد ، قوم ثمود . .

لماذا نذهب بعيدا ؟ إن تاريخ مصر فيه الدليل على صحة قوله ، لقد جاء يوسف بالبينات فشك فيه الناس ثم آمنوا به بعد أن كادت النجاة تفلت منهم ، ما الغرابة فى إرسال الله للرسل؟ . . إن التاريخ القديم ينبغى أن يكون موضع نظر . لقد انتصرت القلة المؤمنة ـ حين أصبحت مؤمنة ـ على الكثرة الكافرة . . وسحق الله تعالى الكافرين . أغرقهم بالطوفان ، وصعقهم بالصرخة . . أو خسف بهم الأرض . . ماذا ننتظر إذن ؟ ومن أين نعلم أن وقوفنا وراء الفرعون لن يضيعنا ويهلكنا جميعا ؟

كان حديث الرجل المؤمن المثقف ينطوى على عديد من التحذيرات المخيفة . . ويبدو أنه أقنع الحاضرين بأن فكرة قتل موسى فكرة غير مأمونة العواقب . . وبالتالى فلا داعى لها . .

بعدها حاول أن يستلفتهم إلى الحق الذى جاء به موسى . . إنه ينتقل من التلميح إلى التصريح . . إلى الجهر بالحق :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا
هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا
يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) .

---

(١) الآيات ٣٠ إلى ٣٥ نفس السورة . (٢) الآيات من ٣٨ إلى ٤٠ سورة غافر مكية .

انتهى الأمر وانكشف إيمان الرجل المؤمن . . انكشف أنه مؤمن لم يعد يكتم إيمانه . أعلن إيمانه فى نهاية الحديث صراحة . . قال :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١) .

أنهى الرجل المؤمن حديثه بهذه الكلمات الشجاعة . . بعدها انصرف . . انصرف فتحول الجالسون من موسى إليه . . بدءوا يمكرون له . . بدءوا يتحدثون عما صدر منه . . أيندرج هذا تحت الخيانة العظمى للنظام أم لا يندرج . . ؟ لقد اتهم فرعون ووزراءه بأنهم سيهلكون فى النار .

نحسب أن الله أرسل هذا الرجل المؤمن من رجال فرعون ، ليشغل فرعون عن موسى . يكشف سياق النص القرآنى أن هذا الرجل . . يمثل المثقفين المصريين الذين كانوا يعرفون التاريخ ويحللونه ، ويملكون قدرة على ربط الأحداث ومعرفة الأسباب واستخلاص النتائج . . ثم تهديهم عقولهم إلى الحق . وقد انشغل فرعون بهذا الرجل عن موسى فترة . كان الرجل المؤمن من أهل فرعون . قريبه وأحد رجال دولته ، وإيمانه يجعل قصر الفرعون يبدو منقسما بالنسبة لموسى . . وهو يعنى انتصارا عظيما لموسى . وقتله قد يثير طبقة المثقفين المصريين - بوصفه واحدا منهم - وهكذا واجه فرعون مشكلته المستحيلة الحل . . إن قتل الرجل المؤمن غير مأمون العاقبة ، والإبقاء عليه غير مأمون العاقبة . . وراحوا يمكرون له ويدبرون . . وتدخلت عناية الله تعالى :

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾(٢) .

انشغل فرعون فترة بهذه القضية الجديدة . غير أنه لم يتنازل عن كبريائه ويرسل بنى إسرائيل مع موسى . ظل على عذابه وتسخيره لهم واستحيائه للنساء وقتله للأبناء .

وشاء الله تعالى أن يشدد على آل فرعون . . ابتلاءً لهم وتخويفا ، ولكى يصرفهم عن الكيد لموسى والرجل المؤمن ، وإثباتا لنبوة موسى وصدقه فى الوقت نفسه .

---

(١) الآيات من ٤١ إلى ٤٤ سورة غافر مكية .
(٢) من الآية ٤٥ سورة غافر .

وهكذا سلط الله على المصريين أعوام الجدب . أجدبت الأرض وشح النيل ونقصت الثمار وارتفعت الأسعار وجاع الناس ، واشتد القحط وأخذ بخناق الأمة المصرية . ومن المعروف أن هذه العقوبة تصيب الناس دائما حين ينصرفون عن الإيمان والتقوى . . يقول الله تعالى فى محكم كتابه فى سورة الأعراف :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (1) .

انطبق القانون القديم على أهل مصر لسببين : وقوفهم موقف المتفرج من قتل السحرة . . ووقوفهم موقف المتفرج من طغيان حاكمهم . .

ومن المدهش أن قوم فرعون أرجعوا هذا الجدب والقحط والجوع إلى سبب غريب . قالوا إنهم تشاءموا من موسى . . إن ما أصابهم من جوع وفقر ونقص فى الثمرات أصابهم بسبب وجود موسى بينهم . واشتد فقرهم واشتد بعدهم عن إدراك الحق ، فاعتقدوا أن سحر موسى هو المسئول عما أصابهم من قحط . وصور لهم حمقهم أن هذا الجدب الذى أصاب أرضهم، آية جاء بها موسى ليسحرهم بها ، وهى آية لن يؤمنوا بها .

ومن المفهوم ضمنا أن هذه لم تكن أفكار العامة من الناس ، إنما هى أفكار الطبقة الحاكمة التى أشاعت هذا الرأى ، وروجت له ، فردده الناس بعد ذلك . . ولقد استتبع بقاء الصراع وامتداده ، أن يعاقبهم الله تعالى ويشدد عليهم أكثر وأكثر .

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (2) .

---

(1) من الآية 96 سورة الأعراف مكية .

(2) الآيات 130 إلى 133 سورة الأعراف مكية .

شدد الله عليهم مع اختلاف الأساليب لعلهم يرجعون إلى الله ، ويطلقون بنى إسرائيل ويرسلونهم معه .

أرسل عليهم الطوفان ، بعد سنوات الجدب العديدة . . جاءت سنة فاض فيها النيل وأغرق الأرض فاستحالت الزراعة . وبعد أن كان عذابهم وجوعهم ينبعان من قلة المياه ، نبع عذابهم وجوعهم هذه المرة من زيادة المياه . . وهرعوا إلى موسى . .

كانت المشكلة تستدعى تدخله .

﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١) .

ودعا موسى ربه فكشف عنهم عذاب إغراق الأرض . توقف تدفق المياه وشربت الأرض ماءها وعادت صالحة للزراعة . وطالبهم موسى بتحقيق وعدهم له بإطلاق سراح بنى إسرائيل ، فلم يجيبوه .

ووقعت آية الجراد . . أرسل الله أسرابا من الجراد حطت على الزروع والثمار ، فلما طارت عنها كانت الزروع والثمار قد اختفت . أكل الجراد طعام المصريين فهرعوا إلى موسى يسألونه أن يدعو ربه ليكشف عنهم هذا العذاب . . وسوف يرسلون معه بنى إسرائيل هذه المرة . . ودعا موسى ربه فكشف عنهم العذاب ورحل الجراد عائدا من حيث جاء . . وعادوا يزرعون الأرض . . وطالبهم موسى بإطلاق سراح بنى إسرائيل فراحوا يماطلونه ، حتى تأكد أنهم ليسوا جادين فى وعودهم له .

ووقعت آية القُمَّل . . انتشر القمل بما يحمله من أمراض . . وتكرر لجوءهم إلى موسى وتكررت وعودهم له وتكرر دعاؤه لله . . وتكرر إخلافهم لوعدهم .

ثم وقعت آية الضفادع . . امتلأت الأرض بالضفادع فجأة . . كانت تتواثب فى أطعمة المصريين وتشاركهم بيوتهم وتزعجهم أعظم الإزعاج . . وذهبوا إلى موسى ووعدوه فسأل ربه فكشف عنهم فأخلفوا وعدهم .

ثم وقعت آخر الآيات وهى الدم . تحولت مياه النيل إلى دم لا يستطيع أن يسيغه أحد . .

ونلاحظ أن الآيات السابقة كانت آيات من النوع المتوقع فى بيئة زراعية تقوم حياتها على النهر . . فيضا أو إمساكا .

---

(١) من الآية ١٣٤ سورة الأعراف مكية .

إن نقص مياه النيل أو زيادته أو هجوم الجراد أو القمل أو الضفادع . . هذه كلها أمور ليست جديدة على المصريين . . الجديد هو وقوعها بهذا العنف المفاجئ واختفاؤها بنفس العنف المفاجئ . أما آخر الآيات فكانت من لون لم تألفه البيئة المصرية . . كانت آية أكبر من كل ما سبقها من الآيات . . تحولت مياه النيل إلى دم . . وتم هذا التحول بالنسبة للمصريين وحدهم ، فكان موسى وقومه يشربون مياها عادية وكان أى مصرى يملأ كأسه ليشرب ، يكتشف أن كأسه مملوءة بالدم .

واهتز المصريون كما اهتز قصر الفرعون أمام هذه الآية الرهيبة الجديدة . وهرعوا إلى موسى يتوسلون إليه أن يدعو ربه وسوف يطلقون سراح الإسرائيليين هذه المرة . ودعا موسى ربه فانكشف العذاب عن المصريين ، ورغم ذلك رفض قصر الفرعون أن يسمح له باصطحاب قومه والرحيل .

على العكس من ذلك . . اشتد الفرعون صلابة وقحة . . وأعلن فرعون فى قومه أنه إله . . أليس له ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحته ، أعلن أن موسى ساحر كاذب . . ورجل فقير لا يرتدى أسورة واحدة من الذهب .

قال تعالى فى سورة الزخرف :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [1] .

---

(١) الآيات من ٤٦ إلى ٥٤ مكية إلا ٥٤ فمدنية .

انظر إلى التعبير القرآنى : ﴿ فاستخف قوم فأطاعوه ﴾ . استخف بعقولهم . واستخف بحريتهم . واستخف بمستقبلهم . واستخف بآدميتهم . . فأطاعوه . . أليست هذه طاعة غريبة . . تنمحى الغرابة حين نعلم أنهم كانوا قوما فاسقين . إن الفسق يصرف الإنسان عن الالتفات لمستقبله ومصالحه وأموره ، ويورده الهلاك . وذلك ما وقع لقوم فرعون .

يقول تعالى :

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ (١) .

بدا واضحا أن فرعون لن يؤمن لموسى . . ولن يكف عن تعذيبه لبنى إسرائيل ، ولن يكف عن استخفافه بقومه . . هنالك دعا موسى وهارون على فرعون .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وجاء الإذن لموسى بالخروج من مصر واصطحاب قومه معه .

وكان موقف قومه غريبا . . لم يؤمن كل قومه بعد . قال تعالى فى سورة يونس :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣) .

انتهى الأمر وقرر الله وضع حد لجرائم فرعون بعد بأن أملى له . صدر الأمر لموسى بالخروج . . واستأذن بنو إسرائيل فرعون فى الخروج إلى عيد لهم ، فأذن لهم وهو كاره . وتجهزوا للخروج وتأهبوا له ، وحملوا معهم حليهم واستعاروا من حلى المصريين شيئا كثيرا . . وجاء الليل عليهم ، فتقدمهم موسى وسار بهم نحو البحر

---

(١) الآيتان ٥٥ ، ٥٦ من سورة الزخرف مكية .
(٢) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ سورة يونس مكية .
(٣) الآية ٨٣ من سورة يونس مكية .

الأحمر قاصدا بلاد الشام . وتحركت رسل فرعون ومخابراته ، وبلغت الأخبار فرعون أن موسى قد صحب قومه وخرج .

وأرسل فرعون أوامره فى مدن المملكة لحشد جيش عظيم . . وساق فرعون فى أسباب جمع الجيش هذه الحجة الغريبة . . قال بالنص . . كما قال عز وجل فى كتابه :

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ (١) .

لقد غاظنى موسى . . غاظنى شخصيا . . وعددهم قليل . . وغيظنا عليهم كبير . . وهى الحرب إذن . كان فرعون طاغية صريحا . . لم يحاول إخفاء نياته وراء كلمات كبيرة فيقول مثلا إن أمن المملكة مهدد ، أوإن النظام الاقتصادى يمكن أن يتعرض للانهيار لو خرجت كل هذه الأيدى العاملة الرخيصة . . أبدا . . لم يقل ذلك واكتفى بالتصريح بأنه مغتاظ . . لقد غاظه موسى . . وهذا سبب كاف لحشد الجيش .

وصدق الناس فرعون للمرة الألف بعد كذبه . . لم يعارضه أحد ، ولم يستلفت نظره أحد إلى تفاهة السبب الذى جمع له الجيش . . كان كبرياء فرعون الشخصى هو الأمر الوارد . . وكان يكفى تماما .

تحرك جيش فرعون فى أبهته وعظمتــه وسلاحه وخرج وراء موسى . . جلس فرعون فى مركبته الحربية يتأمل الجنود حولــه ويبتســم . . ماذا لو أنه فعل ذلك مــن أول لحظــة وانتــهى من موسى وقتله . . ؟ عــلى أى حال . . ها هــو ذا فــى طريقه لقتل موسى وإنهاء المشكلة كلها . .

وقف موسى أمام البحر الأحمر . . من بعيد . . ثار غبار قوى يشى بأن جيش الفرعون يقترب . . بعدها ظهرت أعلام الجيش . . وامتلأ قوم موسى بالرعب . كان الموقف حرجا وخطيرا . . إن البحــر أمامهم والعدو وراءهم وليست أمامهم فرصة واحدة للقتــال . . إنهـم مــجــمــوعــة من النســاء والأطفــال والرجــال غــيــر المسلحين . سيذبحهم فرعون عن آخــرهــم . . صرخت بعض الأصوات من قوم موسى : سيدركنا فرعون .

قال موسى : ﴿كلا إن معى ربى سيهدينِ﴾ .

لا نعرف كيف كان موسى يحس أو يفكر ساعتها . . غير أنه لم يكد يلجأ إلى الله بهذه الثقة ، حتى أوحى الله تعالى إليه أن يضرب بعصاه البحر . . لاحظ انعدام الصلة

---

(١) الآية ٥٥ من سورة الشعراء .

المنطقية بين ظهور جيش فرعون ، وضرب البحر بالعصا . . غير أن مشيئة الله تنفذ لأغرب الأسباب المتعارضة مع المنطق البشرى . لقد أراد الله تعالى أن تقع المعجزة . . فأوحى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر . كان ضرب البحر بالعصا مجرد « سبب» رتب عليه الحق انشقاق البحر . . لم يكد موسى يرفع عصاه حتى نزل جبريل عليه السلام إلى الأرض . ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق البحر نصفين . . انشق عن طريق صلب يابس عن يمينه الأمواج وعن يساره الأمواج .

وتقدم موسى قومه وسار بهم حتى عبر البحر . . كانت المعجزة هائلة . . إن الأمواج كانت تصطرع وتعلو وتهبط حتى إذا جاءت إلى الطريق بدت كأن يدا خفية تمنعها من أن تغرقه أو حتى تبلله . انتهى عبور موسى البحر مع قومه . .

ووصل فرعون إلى البحر . . شاهد هذه المعجزة . . شاهد فى البحر طريقا يابسا يشقه نصفين . . أحس فرعون بالخوف ولكنه زاد فى عناده وأمر عربته الحربية بالتقدم فتقدم الجيش وراءه . . حين انتهى موسى من عبور البحر . . التفت إلى البحر وأراد أن يضربه بعصاه ليعود كما كان . ولكن الله أوحى إليه أن يترك البحر على حاله . كان موسى يريد أن يفصل البحر بينه وبين فرعون لينجو قومه . . ولو أنه ضرب البحر بعصاه فعاد كما كان لنجا موسى ونجا فرعون . . وكان الله تعالى قد شاء إغراق الفرعون . ولهذا أمر موسى أن يترك البحر على حاله . . أوحى إليه سبحانه :

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ (١) .

وصل فرعون بجيشه إلى منتصف البحر . . تعدى منتصفه وكاد يصل إلى الضفة الأخرى . . وأصدر الله تعالى أمره إلى جبريل فحرك جبريل الموج . انطبقت الأمواج على فرعون وجيشه . وغرق فرعون وجيشه . غرق العناد ونجا الإيمان بالله . .

ورأى فرعون وهو يغرق مقعده فى النار . . أدرك وقد انكشف عنه الحجاب ، ودخل فى سكرات الموت ، أن موسى كان صادقا وأنه ضيع نفسه بمعاداته وحربه . . وآمن فرعون .

قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الآية ٢٤ من سورة الدخان مكية .
(٢) من الآية ٩٠ من سورة يونس مكية .

وقد كانت توبته غير مقبولة ولا صحيحة . فهى توبة تجىء بعد معاينة العذاب والدخول فى الموت . قال له جبريل :

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [1] . بمعنى لا توبة . .

انتهى وقت التوبة المحدد لك وهلكت . انتهى الأمر ولا نجاة لك . سينجو جسدك وحده . . ستموت وتقذف الأمواج جثتك إلى الشاطىء . لتكون آية لمن خلفك .

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[2] .

كان ما وقع لفرعون تحقيقا لسنة أزلية خلت فى عباد الله . . لا ينفع الإيمان بعد العذاب . قال تعالى فى سورة غافر :

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [3] .

قص الله تعالى موقف المواجهة بين فرعون وموسى فى قوله تعالى فى سورة الشعراء :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا

(١) الآية ٩١ سورة يونس مكية . (٢) الآية ٩٢ سورة يونس مكية .
(٣) الآية ٨٤ سورة غافر مكية .

ثُمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[١] .

أسدل الستار على طغيان الفرعون . ولفظت الأمواج جثته إلى الشاطىء . لا نعرف على أى شاطىء لفظت الأمواج جثة الرجل الذى يدعى الألوهية . الرجل الذى لم يعارضه أحد ! أغلب الظن أن الأمواج لفظت جثته على الشاطىء الغربى . . فرآه المصريون وأدركوا أن إلههم الذى عبدوه وأطاعوه كان عبدا لا يقدر على دفع الموت عن رقبته .

بعد ذلك . . نزل الستار تماما على المصريين . . لا يحدثنا القرآن الكريم عما فعلوه بعد سقوط نظام الفرعون وغرقه مع جيشه . لا يحدثنا عن ردود فعلهم بعد أن دمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ويشيدون .

يسكت السياق القرآنى عنهم . . ويستبعدهم تماما من التاريخ والأحداث .

ويلتفت السياق إلى موسى وهارون . . وماذا كان من أمر بنى إسرائيل معهما . . لقد مات فرعون مصر . . غرق أمام عيون المصريين وبنى إسرائيل . . ورغم موته ، فقد ظل أثره باقيا فى نفوس المصريين وبنى إسرائيل . من الصعب على سنوات القهر الطويلة والذل المكثف أن تمر على نفوس الناس مر الكرام .

لقد صنع فرعون فى نفوس بنى إسرائيل شيئا سندركه من الآيات بعد قليل . . لقد عودهم الذل لغير الله . كسر فى نفوسهم شيئا من الداخل .

هزم أرواحهم ، فانطووا شأن المهزومين على الإعجاب بمن هزمهم . . أفسد فطرتهم فعذبوا موسى عذابا شديدا بالعناد والجهل . . كانت معجزة شق البحر لم تزل طرية فى أذهانهم .

كانت رمال البحر الرطبة لم تزل عالقة بنعال بنى إسرائيل ، حين مروا على قوم يعبدون الأصنام . . وبدلا من أن يظهروا استياءهم لهذا الظلم للعقل ، ويحمدوا الله أن هداهم للإيمان . . بدلا من ذلك التفتوا إلى موسى وطلبوا منه أن يجعل لهم إلها يعبدونه مثل هؤلاء الناس . . وليس هناك أحد أحسن من أحد . .

---

(١) الآيات ٥٢ إلى ٦٨ سورة الشعراء مكية .

أدركتهم الغيرة لمرأى الأصنام ، ورغبوا فى مثلها ، وعاودهم الحنين لأيام الشرك القديمة التى عاشوها فى ظل فرعون . واستلفتهم موسى إلى جهلهم هذا .

قال تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

سار موسى بقومه فى سيناء . . وهى صحراء ليس فيها شجر يقى من الشمس ، وليس فيها طعام ولا ماء . . وأدركتهم رحمة الله فساق إليهم المن والسلوى وظللهم الغمام . . والمن مادة يميل طعمها إلى الحلاوة وتفرزها بعض أشجار الفاكهة ، حملت الرياح إليهم هذه المادة مغلفة في أوراق الشجر . وساق الله إليهم السلوى، وهو نوع من أنواع الطيور يقال إنه (السمّان) . وحين اشتد بهم الظمأ إلى الماء ، وسيناء مكان يخلو من الماء ، ضرب لهم موسى بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا من المياه. . وكان بنو إسرائيل ينقسمون إلى ١٢ سبطا . فأرسل الله المياه لكل مجموعة . ورغم هذا الإكرام والحفاوة ، تحركت فى النفوس التواءاتها المريضة . . واحتج قوم موسى عليه بأنهم سئموا من هذا الطعام ، واشتاقت نفوسهم إلى البصل والثوم والفول والعدس ، وكانت هذه الأطعمة أطعمة مصرية تقليدية . . وهكذا سأل بنو إسرائيل نبيهم موسى أن يدعو الله ليخرج لهم من الأرض هذه الأطعمة .

وعاد موسى يستلفتهم إلى ظلمهم لأنفسهم ، وحنينهم لأيام هوانهم فى مصر ، وكيف أنهم يتبطرون على خير الطعام وأكرمه ، ويريدون بدله أدنى الطعام وأسوأه .

قال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ

---

(١) الآيات من ١٣٨ إلى ١٤١ سورة الأعراف مكية .

أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (١) .

سار موسى بقومه فى اتجاه بيت المقدس . . أمر موسى قومه بدخولها وقتال من فيها والاستيلاء عليها .

ها قد جاء امتحانهم الأخير . . بعد كل ما وقع لهم من المعجزات والآيات والخوارق . جاء دورهم ليحاربوا ـ بوصفهم مؤمنين ـ قوما من عبدة الأصنام . .

ورفض قوم موسى دخول الأرض المقدسة . وحدثهم موسى عن نعمة الله عليهم . كيف جعل فيهم أنبياء ، وجعلهم ملوكا يرثون ملك فرعون ، وآتاهم ﴿ ما لم يؤت أحدا من العالمين ﴾ .

وكان رد قومه عليه أنهم يخافون من القتال . قالوا : إن فيها قوما جبارين ، ولن يدخلوا الأرض المقدسة حتى يخرج منها هؤلاء .

وانضم لموسى وهارون اثنان من القوم . . تقول كتب القدماء إنهم خرجوا فى ستمائة ألف . . لم يجد موسى من بينهم غير رجلين على استعداد للقتال . . وراح هذان الرجلان يحاولان إقناع القوم بدخول الأرض والقتال . . قالا : إن مجرد دخولهم من الباب سيجعل لهم النصر . ولكن بنى إسرائيل جميعا كانوا يتدثرون بالجبن ويرتعشون فى أعماقهم . .

مرة أخرى تعاودهم طبيعتهم التى عاودتهم قبل ذلك حين رأوا قوما يعكفون على أصنامهم . . فسدت فطرتهم ، وانهزموا من الداخل ، واعتادوا الذل ، فلم يعد فى استطاعتهم أن يحاربوا . . وإن بقى فى استطاعتهم أن يتوقحوا على نبى الله موسى وربه . .

وقال قوم موسى له كلمتهم الشهيرة :

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٢) .

هكذا بصراحة وبلا التواء .

أدرك موسى أن قومه ما عادوا يصلحون لشىء . مات الفرعون ، ولكن آثاره فى النفوس باقية يحتاج شفاؤها لفترة طويلة . عاد موسى إلى ربه يحدثه أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه . . دعا موسى على قومه أن يفرق الله بينه وبينهم . .

---

(١) من الآية ٦١ من سورة البقرة مدنية . (٢) من الآية ٢٤ من سورة المائدة مدنية .

وأصدر الله تعالى حكمه على هذا الجيل الذى فسدت فطرته من بنى إسرائيل . . كان الحكم هو التيه أربعين عاما . . حتى يموت هذا الجيل أو يصل إلى الشيخوخة . ويولد بدلاً منه جيل آخر ، جيل لم يهزمه أحد من الداخل ، ويستطيع ساعتها أن يقاتل وأن ينتصر . قال تعالى فى سورة المائدة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[(١)] .

بدأت أيام التيه . . بدأ السير فى دائرة مغلقة . . تنتهى من حيث تبدأ ، وتبدأ من حيث تنتهى . بدأ السير إلى غير مقصد . . ليلا ونهارا وصباحا ومساء . دخلوا البرية عند سيناء . .

عاد موسى إلى نفس المكان الذى التقى فيه بكلمات الله أول مرة . . نزل بنو إسرائيل حول الطور وصعد موسى الجبل وحده . . وهناك أنزلت عليه التوراة . وكلمه ربه تعالى . . قبل أن يصعد موسى إلى ميقات ربه ، استخلف أخاه هارون فى قومه . تركه مسئولا عنهم ومضى إلى ربه .

قال تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

---

(١) الآيات من ٢٠ إلى ٢٦ سورة المائدة مدنية .

وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

قال القدماء إن موسى صام ثلاثين يوما ليلا ونهارا بغير أن يذوق طعاما قط ، ثم كره أن يكلم ربه وريح فمه ، ريح فم الصائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربه : لماذا أفطرت؟ وهو أعلم بما كان . قال : أى رب ، كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح . قال أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندى أطيب من ريح المسك؟ ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتنى . ففعل عليه السلام ما أمره ربه به . .

ونحن لا نعرف - معرفة يقينية - لماذا صام موسى أربعين ليلة بدلا من ثلاثين .

كل ما نعرفه أن الله تعالى قد زاد على الثلاثين ليلة عشر ليال أخرى من الصوم وأنزلت التوراة على موسى . أنزلت عليه الوصايا العشر . وكانت هذه الوصايا العشر هى :

١ - الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له .

٢ - النهى عن الحلف بالله كذبا .

٣ - الأمر بالمحافظة على السبت [بمعنى تفريغ يوم من أيام الأسبوع للعبادة] .

٤ - الأمر بإكرام الأب والأم .

٥ - معرفة أن الله وحده هو الذى يعطى ويمنح .

٦ - لا تقتل .

٧ - لاتزن .

٨ - لا تسرق .

٩ - لا تشهد شهادة زور .

١٠ - لا تمدن عينيك إلى بيت صاحبك أو امرأته أو عبده أو ثوره أو حماره .

قال علماء السلف إن مضمون هذه الوصايا العشر قد تضمنته آيتان من القرآن ، هما قوله تعالى فى سورة الأنعام :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا

---

(٢) الآية ١٤٢ مكية .

الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

يقص الله تبارك وتعالى علينا ماذا كان من أمر موسى حين ذهب لميقات ربه . كان موسى بصومه ـ أربعين ليلة ـ يقترب من ربه أكثر . . وكان موسى بتكليم الله له يزداد حبا فى ربه أكثر . . ونحن لا نعرف أى مشاعر كانت تجيش فى قلب موسى عليه الصلاة والسلام حين سأل ربه الرؤية . أحيانا كثيرة يدفع الحب البشرى الناس إلى طلب المستحيل . . فما بالك بالحب الإلهى ، وهو أصل الحب . . ؟ إن عمق إحساس موسى بربه ، وحبه لخالقه ، واندفاعه الذى لم يزل يميز شخصيته . . دفعه هذا كله إلى أن يسأل الله الرؤية . قال تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

هكذا باندفاع العاشقين الكبار سأل موسى ربه ما سأل . وجاءه رد الحق عز وجل :

﴿ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ (٣) .

ولو أن الله تبارك وتعالى قالها ولم يزد عليها شيئا ، لكان هذا عدلا منه سبحانه ، غير أن الموقف هنا موقف حب إلهى من جانب موسى . موقف اندفاع يبرره الحب ولهذا أدركت رحمة الله تعالى موسى . . أفهمه أنه لن يراه ، لأن أحدا من الخلق لا يصمد لنور الله . . أمره أن ينظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف يراه .

قال تعالى :

﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ (٤) .

---

(١) الآيتان ١٥١ ، ١٥٢ مدنية .
(٢) من الآية ١٤٣ مكية .
(٣) من الآية نفسها .
(٤) من الآية ١٤٣ سورة الأعراف مكية .

لا يصمد لنور الله أحد . أدرك موسى هذه الحقيقة وعاينها بنفسه . . والصعق هو الموت أو الإغماء . ونحن لا نعرف الفترة التى قضاها موسى غائبا عن حياته أو وعيه . . غير أنه حين أفاق . .

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وقف المفسرون القدماء كثيرا أمام هذه الآيات . تساءلوا مثلا : كيف يطلب موسى رؤية الله مع علمه بأنها غير ممكنة ؟

وتنازعوا فى ذلك فذهب المعتزلة إلى رأى ، وذهب أهل السنة إلى رأى ، وكان مدار الحديث كله كيف لا يعلم النبى وهو أقرب خلق الله إليه أن رؤية الله مستحيلة . . وهكذا انصرفنا عن عمق الآيات البعيد ، ورحنا نبحث حول جزئيات لا تغنى ولا تسمن . .

أعتقد أن هذا الموقف من موسى يمثل قمة من قمم الحب ، وعمقا من أعماق الوجد ـ لا مثيل له فى كل سيرة موسى . نحن أمام ذروة الحب لله . .

والمحب لا يريد غير الرؤية ، ورؤية الله عز وجل مستحيلة ، هذا هو منطق العقل والأعصاب ، لكن . . متى كان الحب يعبأ بالمنطق أو يستمع للأعصاب . . ؟! وهكذا يندفع موسى إلى التجربة وهى تجربة قام بها بدلا عنا جميعا . . كان أجرأنا فى الطلب ، وكان أسبقنا إلى الصعق ، وأثبت لنا بجسده الكريم وروحه الطاهر أن أحدا لا يصمد لنور الله . .

ها هو ذا يفيق فيمجد الله ويتوب إليه ويستغفره . .

﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

من أى شىء كان موسى يتوب . . ؟ قال الصوفية كان يتوب من اندفاعة عاشق عظيم سأل المحال وهو يعلم أنه محال . .

وذلك تفسير مقنع . . يؤيد ذلك سياق الآيات . . انظر إلى آيات الله وكيف يستلفته إلى ما أنعم عليه من نعم ، قال تعالى لموسى :

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) من الآية ١٤٣ سورة الأعراف مكية . (٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف مكية .

مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

وقف كثير من المفسرين أمام قوله تعالى لموسى :

﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ (٢) .

وأجريت مقارنات بينه وبين غيره من الأنبياء . فقيل إن هذا الاصطفاء كان خاصا بعصره وحده ، ولا ينسحب على العصر الذى سبقه لوجود إبراهيم فيه ، وإبراهيم خير من موسى ، أيضا لا ينطبق هذا الاصطفاء على العصر الذى يأتى بعده ، لوجود محمد بن عبد الله فيه ، وهو أفضل منهما .

ونحب أن نبتعد عن هذا الجدال كله . لا لأننا نعتقد أن كل الأنبياء سواء . . إذ إن الله سبحانه وتعالى يحدثنا أنه فضل بعض النبيين على بعض ، ورفع درجات بعضهم على البعض . . غير أن هذا التفضيل ينبغى أن يكون منطقة محرمة علينا ، ولنقف نحن فى موقع الإيمان بجميع الأنبياء لا نتعداه . ولنؤد نحوهم فروض الاحترام على حد سواء . لا ينبغى أن يخوض الخاطئون فى درجات المعصومين المختارين من الله . . ليس من الأدب أن نفاضل نحن بين الأنبياء . الأولى أن نؤمن بهم جميعا .

انتهى ميقات موسى مع ربه تعالى . . وعاد غضبان أسفا إلى قومه . . لم يكن فى الوجود كله إنسان فى مثل رضاه . . لكنه يعلم من ربه أنباء تسوءه فينقلب إلى قومه غضبان أسفا . .

قال تعالى فى سورة طه :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ (٣) .

انحدر موسى من قمة الجبل وهو يحمل ألواح التوراة ، قلبه يغلى بالغضب والأسف . نستطيع أن نتخيل انفعال موسى وثورته وهو يحث خطاه نحو قومه .

---

(١) الآيتان ١٤٤ ، ١٤٥ سورة الأعراف مكية .
(٢) من الآية ١٤٤ سورة الأعراف مكية .
(٣) الآيات ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ سورة طه مكية .

لم يكد موسى يغادر قومه إلى ميقات ربه . . حتى وقعت فتنة السامرى . وتفصيل هذه الفتنة أن بنى إسرائيل حين خرجوا من مصر ، صحبوا معهم كثيرا من حلى المصريين وذهبهم ، أخذوه للتمتع به فى احتفالهم الذى ادعوه ، ثم نجوا بعد معجزة شق البحر ، وانطبق البحر على فرعون وجنوده فغرقوا ، وصار ما معهم من الذهب ملكا لهم . . ويبدو أن هارون عليه السلام ، أدرك أن هذا الذهب ليس من حقهم ، فأخذه منهم ودفنه فى الأرض . . لم يكن القوم فى حاجة إليه . . كانوا يعيشون فى التيه . . يسيرون وسط صحراء لا ينفعهم فيها الذهب . حفر هارون شقيق موسى حفرة وألقى فيها الذهب وأهال عليه التراب . ورآه السامرى وهو يدفن الذهب فاستخرجه بعد ذلك وصهره ، وصنع منه تمثالا لعجل يشبه العجل أبيس ، معبود المصريين ، وكان السامرى فيما يبدو نحاتا محترفا أو صائغا سابقا ، فصنع العجل مجوفا من الداخل ، ووضعه فى اتجاه الريح ، بحيث يدخل الهواء من فتحته الخلفية ويخرج من أنفه فيحدث صوتا يشبه خوار العجول الحقيقية . .

ويقال إن سرّ هذا الخوار ، أن السامرى كان قد أخذ قبضة من تراب سار عليه جبريل عليه السلام حين نزل إلى الأرض فى معجزة شق البحر . . أى أن السامرى أبصر بما لم يبصروا به ، فقبض قبضة من أثر الرسول - جبريل عليه السلام - فوضعها مع الذهب وهو يصنع منه العجل . . وكان جبريل عليه السلام لا يسير على شىء إلا دبت فيه الحياة . . فلما أضاف السامرى التراب إلى الذهب ، ثم صنع منه العجل ، خار العجل كالعجول الحقيقية . . .

هذه قصة السامرى التى ألقاها لموسى ، ونعتقد أنه كاذب . . إن كفره يرجح عندنا كذبه . نعلم الآن أن الترا ب إذا أضيف إلى الذهب وصهر ، انفصل التراب من الذهب وترك تجويفا فى مكان انفصاله . وأغلب الظن أن السامرى استخدم هذا التراب ، كأى تراب آخر ، فى صنع تجويف داخل العجل ، بحيث تحول التمثال إلى تمثال له صوت . .

بعد ذلك ، خرج السامرى على بنى إسرائيل بما صنعه . .

سألوه : ما هذا يا سامرى ؟

قال : هذا إلهكم وإله موسى !

قالوا : لكن موسى ذهب لميقات إلهه .

قال السامرى : لقد نسى موسى . ذهب للقاء ربه هناك ، بينما ربه هنا .

وهبت موجة من الرياح فدخلت من دبر العجل الذهب وخرجت من فمه فخار العجل . وعبد بنو إسرائيل هذا العجل . . لعل دهشة القارئ تثور لهذه الفتنة . . كيف

يمكن الاستخفاف بعقول القوم لهذه الدرجة . . ؟! لقد وقعت لهم معجزات هائلة . . فكيف ينقلبون إلى عبادة الأصنام فى لحظة . . ؟! تزول هذه الدهشة لو نظرنا فى نفسية القوم الذين عبدوا العجل . لقد تربوا فى مصر ، أيام كانت مصر تعبد الأصنام وتقدس فيما تقدس العجل أبيس ، وتربوا على الذل والعبودية ، وانكسر داخل أنفسهم شىء ، التوى فى فطرتهم شىء ، ومرت عليهم معجزات الله فصادفت نفوسا تالفة الأمل . لم يعد هناك ما يمكن أن يصنعه لهم أحد . إن كلمات الله لم تعدهم إلى الحق ، كما أن المعجزات الحسية لم تقنعهم بصدق الكلمات ، ظلوا داخل أعماقهم من عبدة الأوثان . كانوا وثنيين مثل سادتهم المصريين القدماء . ولهذا السبب انقلبوا إلى عبادة العجل . .

ولم يكن انقلابهم هذا مفاجأة لنا نحن أهل هذا الزمان ، فإنهم بعد خروجهم من معجزة شق البحر شاهدوا قوما يعبدون الأصنام فسألوا موسى أن يجعل لهم آلهة يعبدونها مثل هؤلاء القوم . المسألة إذن قديمة ومزمنة . . والرغبة فى عبادة الأصنام ، هى نفسها عبادة الأصنام ، ولقد كان كل ما فعله السامرى ، أنه استغل حنين القوم إلى عبادة الأوثان ، استغل حاجة نفسية شبه عامة وحققها لهم حين قدم إليهم عجله . واختار أن يكون العجل ذهبا لأنه يعلم ضعف بنى إسرائيل إزاء الذهب عموما . .

وهكذا انتشرت فتنة السامرى ، وفوجئ هارون عليه الصلاة والسلام يوما بأن بنى إسرائيل يعبدون عجلا من الذهب . انقسموا إلى قسمين : الأقلية المؤمنة أدركت أن هذا هراء . والأغلبية الكافرة طاوعت حنينها لعبادة الأوثان . ووقف هارون وسط قومه وراح يعظهم . قال لهم : إنكم فتنتم به ، هذه فتنة ، استغل السامرى جهلكم وفتنكم بعجله . . ليس هذا ربكم ولا رب موسى .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ (١) .

ورفض عبدة العجل موعظة هارون . كانوا مجموعة من الجاهلين الذين مرت عليهم الكلمات مرور النسيم بالحجارة . . لم تفعل فيها شيئا . . وعاد هارون يعظهم ويذكرهم بمعجزات الله التى أنقذهم بها ، وتكريمه ورعايته لهم ، فأصموا آذانهم ورفضوا كلماته ، واستضعفوه وكادوا يقتلونه ، وأنهوا مناقشة الموضوع بتأجيله حتى عودة موسى . . كان واضحا أن هارون أكثر لينا من موسى ، لم يكن يهابه القوم للينه وشفقته . وخشى هارون أن يلجأ إلى القوة ويحطم لهم صنمهم الذى يعبدونه فتثور فتنة بين القوم . ويحدث ما يشبه الحرب الأهلية . آثر هارون تأجيل الموضوع إلى أن يحضر موسى .

---

(١) من الآية ٩٠ سورة طه مكية .

كان يعرف أن موسى بشخصيته القوية ، يستطيع أن يضع حدا لهذه الفتنة دون إراقة دماء .

واستمر القوم يرقصون حول العجل . .

كان السامرى ـ لعنه الله تعالى ـ هو صاحب هذه الفتنة القديمة . . فتنة الرقص والتواجد حول الأوثان وهى فتنة لم تزل مظاهرها حية إلى اليوم رغم اندثار عبادة الأوثان ، يقوم بها الناس فى زماننا بحسن نية دون أن يدركوا أصلها القديم وكونها ديانة الكفار وعباد العجل .

أورد القرطبى فى الجزء الحادى عشر فى تفسيره لفتنة السامرى . . هذه المسألة .

قال : « سئل الإمام أبو بكر الطرطوشى : ما يقول سيدنا الفقيه فى جماعة من رجال ، يكثرون من ذكر الله تعالى ، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم . . ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه . ويحضرون شيئا يأكلونه . . ؟ هل الحضور معهم جائز أم لا . أفتونا مأجورين » .

أجاب القرطبى عن هذه المسألة نقلا عن أستاذه قال : « مذهب الصوفية [يقصد الراقصين] بطالة وجهالة وضلالة . وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله . وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثهما أصحاب السامرى . لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون . فهو دين الكفار وعباد العجل .

وإنما كان النبى صلى الله عليه وسلم يجلس مع أصحابه كأنما على رءوسهم الطير من الوقار . فينبغى للسلطان ونوابه أن يمنعوهم من الحضور فى المساجد وغيرها . ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم . ولا أن يعينهم على باطلهم . هذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين ، وبالله التوفيق » .

انتهى كلام القرطبى المتصل بهذه المسألة . فتأمل مضاء ذهنه وتقواه ، وربطه لبدعة الرقص الصوفى الحديث بعبادة العجل القديم والرقص حوله .

انحدر موسى عائدا لقومه فسمع صياح القوم وجلبتهم وهم يرقصون حول العجل . . توقف القوم حين ظهر موسى وساد صمت . . صرخ موسى يقول :

﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾ (١) .

---

(١) من الآية ١٥٠ سورة الأعراف مكية .

اتجه موسى نحو هارون وألقى ألواح التوراة من يده على الأرض . . كان إعصار الغضب داخل موسى يتحكم فيه الآن تماما .

مد موسى يديه وأمسك هارون من شعر رأسه وشعر لحيته وشده نحوه وهو يرتعش . قال موسى :

﴿ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾[1] .

إن موسى يتساءل هل عصى هارون أمره . كيف سكت على هذه الفتنة ؟ كيف طاوعهم على البقاء معهم ولم يخرج ويتركهم ويتبرأ منهم ؟كيف سكت عن مقاومتهم أصلا ؟ . . إن الساكت عن الخطإ مشترك فيه بشكل ما . زاد الصمت عمقا بعد جملة موسى الغاضبة . وتحدث هارون إلى موسى . . رجا منه أن يترك رأسه ولحيته . . بحق انتمائهما لأم واحدة . . وهو يذكره بالأم ولا يذكره بالأب ليكون ذلك أدعى لاستثارة مشاعر الحنو فى نفسه .

﴿ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي ﴾[2] .

أفهمه أن الأمر ليس فيه عصيان له . . وليس فيه رضاء بموقف عبدة العجل . . إنما خشى أن يتركهم ويمضى ، فيسأله موسى كيف لم يبق فيهم وقد تركه مسئولا عنهم ، وخشى لو قاومهم بعنف أن يثير بينهم قتالا فيسأله موسى كيف فرق بينهم ولم ينتظر عودته .

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[3] .

أفهم هارون أخاه موسى برفق ولين أن القوم استضعفوه ، وكادوا يقتلونه حين قاومهم . رجا منه أن يترك رأسه ولحيته حتى لا يشمت به الأعداء ، ويستخف به القوم زيادة على استخفافهم به . أفهمه أنه ليس ظالما مثلهم حين سكت على ظلمهم .

﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[4] .

---

(١) الآيتان ٩٢ ، ٩٣ سورة طه مكية .
(٢) من الآية ٩٤ سورة طه مكية .
(٣) من الآية ٩٤ سورة طه مكية .
(٤) من الآية ١٥٠ سورة الأعراف مكية .

أدرك موسى أنه ظلم هارون فى غضبه الذى أشعلته غيرته على الله تعالى وحرصه على الحق . . أدرك أن هارون تصرف أفضل تصرف ممكن فى هذه الظروف . ترك رأسه ولحيته واستغفر الله له ولأخيه . . التفت موسى لقومه وتساءل بصوت لم يزل يضطرب غضبا :

﴿ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ (١) .

إنه يعنفهم ويوبخهم ويلفتهم بإشارة سريعة إلى غباء ما عملوه .

عاد موسى يقول ـ غاضبا أشد الغضب :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ (٢) .

لم تكد الجبال تبتلع أصداء الصوت الغاضب حتى نكس القوم رءوسهم وأدركوا خطأهم . . كان افتراؤهم واضحا على الحق الذى جاء به موسى .

أبعد كل ما فعله الله تعالى لهم ، ينكفئون على عبادة الأصنام . . ؟! أيغيب عنهم موسى أربعين يوما ثم يعود ليجدهم يعبدون عجلا من الذهب . .

أهذا تصرف قوم ، عهد الله إليهم بأمانة التوحيد فى الأرض ؟

التفت موسى إلى السامرى بعد حديثه القصير مع هارون . . لقد أثبت له هارون براءته كمسئول عن قومه في غيبته ، كما سكت القوم ونكسوا رءوسهم أمام ثورة موسى ، لم يبق إلا المسئول الأول عن الفتنة . . لم يبق إلا السامرى .

تحدث موسى إلى السامرى وغضبه لم يهدأ بعد .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ (٣) .

إنه يسأله عن قصته ، ويريد أن يعرف منه ما الذى حمله على ما صنع . . قال السامرى :

---

(١) من الآية ٨٦ سورة طه مكية .
(٢) الآية ١٥٢ سورة الأعراف مكية .
(٣) الآية ٩٥ سورة طه مكية .

﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ (1) . .

رأيت جبريل وهو يركب فرسه فلا تضع قدمها على شيء إلا دبت فيه الحياة . .

﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ (2) .

أخذت حفنة من التراب الذى سار عليه جبريل وألقيتها على الذهب . .

﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ (3) . .

هذا ما ساقتنى نفسى إليه . .

لم يناقش موسى ، عليه السلام السامرى فى ادعائه . . إنما قذف فى وجهه حكم الحق . . ليس المهم أن يكون السامرى قد رأى جبريل ، عليه السلام ، فقبض قبضة من أثره . . ليس المهم أن يكون خوار العجل بسبب هذا التراب الذى سار عليه فرس جبريل ، أو يكون الخوار بسبب ثقب اصطنعه السامرى ليخور العجل . . المهم فى الأمر كله جريمة السامرى ، وفتنته لقوم موسى ، واستغلاله إعجاب القوم الدفين بسادتهم المصريين ، وتقليدهم لهم فى عبادة الأوثان . . هذه هى الجريمة التى حكم فيها موسى، عليه السلام ، بحكمه المزدوج :

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ (4) . .

حكم موسى على السامرى بالوحدة فى الدنيا . . يقول بعض المفسرين : إن موسى دعا على السامرى بأن لا يمس أحدا ، معاقبة له على مسه ما لم يكن ينبغى له مسه . .

ونعتقد أن الأمر أخطر كثيرا من هذه النظرة السريعة . . إن السامرى أراد بفتنته ضلال بنى إسرائيل وجمعهم حول عجله الوثنى والسيادة عليهم ، وقد جاءت عقوبته مساوية لجرمه ، لقد حكم عليه بالنبذ والوحدة . هل مرض السامرى مرضا جلديا بشعا صار الناس يأنفون من لمسه أو مجرد الاقتراب منه ؟ . . هل جاءه النبذ من خارج جسده ؟ . . لا نعرف ماذا كان من أمر الأسلوب الذى تمت به وحدة السامرى ونبذ المجتمع له . . كل ما نعرفه أن موسى أوقع عليه عقوبة رهيبة ، كان أهون منها القتل ،

(1 ، 2 ، 3) من الآية 96 سورة طه مكية .
(4) الآية 97 سورة طه مكية .

فقد عاش السامرى منبوذا محتقرا لا يلمس شيئا ولا يمس أحدا ولا يقترب منه مخلوق . . هذه هى عقوبته فى الدنيا ، ويوم القيامة له عقوبة ثانية ، يبهمها السياق لتجىء ظلالها فى النفس أخطر وأرعب .

نهض موسى بعد فراغه من السامرى إلى العجل الذهب وألقاه فى النار . . لم يكتف بصهره أمام عيون القوم المبهوتين ، وإنما نسفه فى البحر نسفا . . تحول الإله المعبود أمام عيون المفتونين به إلى رماد يتطاير فى البحر . . ارتفع صوت موسى :

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (١) .

هذا هو إلهكم ، وليس ذلك الصنم الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا . .

بعد أن نسف موسى الصنم ، وفرغ من الجانى الأصلى ، التفت إلى قومه ، وحكم فى القضية كلها فأفهمهم أنهم ظلموا أنفسهم وترك لعبدة العجل مجالا واحدا للتوبة . . وكان هذا المجال أن يقتل من اتبعوا العجل أنفسهم . .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) . .

كانت العقوبة التى قررها موسى على عبدة العجل مهولة ، وتتفق مع الجرم الأصلى . إن عبادة الأوثان إهدار لحياة العقل وصحوته ، وهى الصحوة التى تميز الإنسان عن غيره من البهائم والجمادات ، وإزاء هذا الإزهاق لصحوة العقل ، تجىء العقوبة إزهاقا لحياة الجسد نفسه ، فليس بعد العقل للإنسان حياة يتميز بها . . ومن نوع الجرم جاءت العقوبة . .

جاءت قاسية ثم رحم الله تعالى وتاب . . ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ . . أخيرا . . ﴿سكت عن موسى الغضب﴾ . تأمل تعبير القرآن الكريم الذى يصور الغضب فى صورة كائن يقود تصرفات موسى ، ابتداء من إلقائه لألواح التوراة ، وشده للحية أخيه ورأسه . وانتهاء بنسف العجل فى البحر ، وحكمه بالقتل على من اتخذوه ربا . أخيرا سكت عن موسى الغضب . زايله غضبه فى الله ، وذلك أرفع أنواع الغضب وأجدرها

---

(١) الآية ٩٨ سورة طه مكية . (٢) الآية ٥٤ من سورة البقرة مدنية .

بالاحترام والتوقير . . التفت موسى إلى مهمته الأصلية حين زايله غضبه فتذكر أنه ألقى ألواح التوراة . . وعاد موسى يأخذ الألواح ويعاود دعوته إلى الله .

قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عن مُوسَى الْغَضبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (١) . .

وقد استدل بعضهم بقوله ﴿ وفى نسختها ﴾ على أنها تكسرت ، ونحن لا نعرف أكانت الألواح من مادة يجوز عليها الكسر أم لا . . كما ينفى ابن كثير هذا الاستدلال، ويرى أنها بقيت على حالها . . ومهما يكن من أمر . . فقد عاد موسى إلى هدوئه ، واستأنف جهاده فى الله ، وقرأ ألواح التوراة على قومه . أمرهم فى البداية أن يأخذوا بأحكامها بقوة وعزم .

ومن المدهش أن قومه ساوموه على الحق. قالوا : انشر علينا الألواح فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها . فقال موسى : بل اقبلوها بما فيها . فراجعوا مرارا ، فأمر الله تعالى ملائكته فرفعت الجبل على رءوسهم حتى صار كأنه غمامة فوقهم ، وقيل لهم : إن لم تقبلوها بما فيها سقط ذلك الجبل عليكم ، فقبلوا ذلك ، وأمروا بالسجود فسجدوا . . وضعوا خدودهم على الأرض وراحوا ينظرون إلى الجبل فوقهم هلعا ورعبا . .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) . .

وهكذا أثبت قوم موسى أنهم لا يسلمون وجوههم لله إلا إذا لويت أعناقهم بمعجزة حسية باهرة تلقى الرعب فى القلوب وتثنى الأقدام نحو سجود قاهر يدفع الخوف إليه دفعا . . وهكذا يساق الناس بالعصا الإلهية إلى الإيمان ، يقع هذا فى طفولة الجنس البشرى ، وغياب الوعى والنضج الكافيين لقيام الاقتناع العقلى . ولعلنا هنا نشير مرة أخرى إلى نفسية قوم موسى ، وهى المسئول الأول عن عدم اقتناعهم إلا بالقوة الحسية والمعجزات الباهرة. . لقد تربى قوم موسى ونشئوا وسط هوان وعسف، أهدرت فيهما

---

(١) الآية ١٥٤ من سورة الأعراف مكية . (٢) الآية ١٧١ من سورة الأعراف مكية .

إنسانيتهم والتوت فطرته . . ولم يعد ممكنا بعد ازدهار الذل فى نفوسهم واعتيادهم إياه، لم يعد ممكنا أن يساقوا إلى الخير إلا بالقوة . لقد اعتادوا أن تسيرهم القوة القاهرة لسادتهم القدامى ، ولابد لسيدهم الجديد [وهو الإيمان] من أن يقاسى الأهوال لتسييرهم ، وأن يلجأ مضطرا إلى أسلوب القوة لينقذهم من الهلاك . لم تمر جريمة عبادة العجل دون آثار . .

أمر موسى علماء بنى إسرائيل وخيارهم أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه . . اختار منهم سبعين رجلا ، الخير فالخير ، وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم . صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . .

خرج موسى بهؤلاء السبعين المختارين لميقات حدده له الله تعالى . . دنا موسى من الجبل، فإذا عمود من الغمام يتغشى الجبل كله . . دخل موسى فى الغمام ، وقال للقوم ادنوا فدنوا . . وكلم الله تعالى موسى ، وكان موسى إذا كلم اللــه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه أو يطيق احتماله ، وضرب الحجاب على موسى وهو يكلم ربه ، وسمع السبعون الذين اختارهم موسى . . سمعوا موسى وهو يكلم ربه . .

ولعل معجزة كهذه المعجزة تكون الأخيرة ، وتكون كافية لحمل الإيمان إلى القلوب مدى الحياة . غير أن السبعين المختارين لم يكتفوا بما استمعوا إليه من المعجزة . . إنما طلبوا رؤية الله تعالى . .

قالوا سمعنا ونريد أن نرى . .

قالوا لموسى ببساطة :

﴿ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (١) . .

هى مأساة تثير أشد الدهشة . . وهى مأساة تشير إلى صلابة القلوب واستمساكها بالحسيات والماديات . . كوفئ الطلب المتعنت بعقوبة صاعقة . . أخذتهم رجفة مدمرة صعقت أرواحهم وأجسادهم على الفور . ماتوا . .

أدرك موسى ما أحدثه السبعون المختارون فملأه الأسى وقام يدعو ربه ويناشده أن يعفو عنهم ويرحمهم ، وألا يؤاخذهم بما فعل السفهاء منهم ، وليس طلبهم رؤية الله تبارك وتعالى وهم على ما هم فيه من البشرية الناقصة وقسوة القلب غير سفاهة كبرى . . سفاهة لا يكفر عنها إلا الموت . .

---

(١) من الآية ٥٥ سورة البقرة مدنية .

قد يطلب النبى رؤية ربه ، كما فعل موسى ، ورغم انطلاق الطلب من واقع الحب العظيم والهوى المسيطر ، الذى يبرر بما له من منطق خاص هذا الطلب ، رغم هذا كله يعتبر طلب الرؤية تجاوزا للحدود ، يجازى عليه النبى بالصعق ، فما بالنا بصدور هذا الطلب من بشر خاطئين ، بشر يحددون للرؤية مكانا وزمانا ، ويشترطون أن تكون جهرة . . بشر يعلقون إيمانهم على هذه الرؤية ، بعد كل ما لقوه من معجزات وآيات . . ؟! أليس هذا سفاهة كبرى . . . ؟ وهكذا صعق من طلب الرؤية . . ووقف موسى يدعو ربه ويستعطفه ويترضاه . . قال تعالى :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ (١) . .

هذه كانت كلمات موسى لربه وهو يدعوه ويترضاه . . ورضى الله تعالى عنه وغفر لقومه فأحياهم بعد موتهم ، واستمع المختارون فى هذه اللحظات الباهرة من تاريخ الحياة إلى النبوءة بمجىء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . . قال تعالى :

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) . .

---

(١) الآية ١٥٥ وجزء من آية ١٥٦ سورة الأعراف مكية .
(٢) بقية الآية ١٥٦ وآية ١٥٧ سورة الأعراف مكية .

سنلاحظ طريقة الربط بين الحاضر والماضى فى الآية ، إن الله تعالى يتجاوز زمن مخاطبة الرسول فى الآيات إلى زمنين سابقين ، هما نزول التوراة ونزول الإنجيل ، ليقرر أنه [تعالى] بشر بمحمد فى هذين الكتابين الكريمين . . نعتقد أن إيراد هذه البشرى جاء يوم صحب موسى من قومه سبعين رجلا هم علماء بنى إسرائيل وأفضل من فيهم ، لميقات ربه . .

فى هذا اليوم الخطير بمعجزاته الكبرى ، تم إيراد البشرى بآخر أنبياء الله عز وجل . .

يقول ابن كثير فى كتابه قصص الأنبياء ، نقلا عن قتادة . . إن موسى قال لربه : يا رب إنى أجد فى الألواح أمة هى خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . . رب اجعلهم أمتى .

قال : تلك أمة أحمد . .

قال : ربى إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرءونها . . وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرا ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه . . وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم . . رب اجعلهم أمتى . .

قال : تلك أمة أحمد . .

قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فضول الضلالة . . فاجعلهم أمتى . .

قال : تلك أمة أحمد . .

قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ، ويؤجرون عليها ، وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق أحدهم بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلتها ، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير . وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم . . رب فاجعلهم أمتى . .

قال : تلك أمة أحمد . .

قال : رب فإنى أجد فى الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم عملها كتبت له عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . . رب اجعلهم أمتى . .

قال : تلك أمة أحمد . .

. . . .

مكث موسى فى قومه يدعوهم إلى الله . . ويبدو أن نفوسهم كانت ملتوية بشكل لا تخطئه عين الملاحظة ، وتبدو لجاجتهم وعنادهم فيما يعرف بقصة البقرة . . فإن

الموضوع لم يكن يقتضى كل هذه المفاوضات بينهم وبين موسى ، كما أنه لم يكن يستوجب كل هذا التعنت . . وأصل قصة البقرة أن قتيلا ثريا وجد يوما فى بنى إسرائيل ، واختصم أهله ولم يعرفوا قاتله ، وحين أعياهم الأمر لجئوا لموسى ، ويبدو أن هذا القتيل كان رجلا له مركزه فى بنى إسرائيل ، ويبدو أن خفاء قتله كان دافعا لشىء يشبه الفتنة ، ولجأ بنو إسرائيل لموسى ليلجأ لربه . . ولجأ موسى لربه فأمره أن يأمر قومه أن يذبحوا بقرة . . وكان المفروض هنا أن يذبح القوم أول بقرة تصادفهم . . غير أنهم بدءوا مفاوضاتهم باللجاجة . . اتهموا موسى بأنه يسخر منهم ويتخذهم هزوا ، واستعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين ويسخر منهم . . أفهمهم أن حل القضية يكمن فى ذبح بقرة . .

إن الأمر هنا أمر معجزة ، لا علاقة لها بالمألوف فى الحياة ، أو المعتاد بين الناس . . ليست هناك علاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل فى الجريمة الغامضة التى وقعت ، لكن متى كانت الأسباب المنطقية هى التى تحكم حياة بنى إسرائيل؟ إن المعجزات الخارقة هى القانون السائد فى حياتهم ، وليس استمرارها فى حادث البقرة أمرا يوحى بالعجب أو يثير الدهشة . .

لكن بنى إسرائيل هم بنو إسرائيل . . مجرد التعامل معهم عنت . . تستوى فى ذلك الأمور الدنيوية المعتادة ، وشئون العقيدة المهمة . . لابد أن يعانى من يتصدى لأمر من أمور بنى إسرائيل . وهكذا يعانى موسى من إيذائهم له واتهامه بالسخرية منهم ، ثم ينبئهم أنه جاد فيما حدثهم به ، ويعاود أمره أن يذبحوا بقرة ، وتعود الطبيعة المراوغة لبنى إسرائيل إلى الظهور ، تعود اللجاجة والالتواء ، فيتساءلون : أهى بقرة عادية كما عهدنا من هذا الجنس من الحيوان ؟ . . أم أنها خلق آخر تفرد بمزية ، فليدع موسى ربه ليبين لهم ما هى . . ويدعو موسى ربه فيزداد التشديد عليهم ، وتحدد البقرة أكثر من ذى قبل ، بأنها بقرة وسط . . ليست بقرة مسنة ، وليست بقرة فتية . . بقرة متوسطة . .

إلى هنا كان ينبغى أن ينتهى الأمر ، غير أن المفاوضات لم تزل مستمرة ، ومراوغة بنى إسرائيل لم تزل هى التى تحكم مائدة المفاوضات . . والأسئلة الغريبة لم تزل تترى . . ما هو لون هذه البقرة ؟ . . لماذا يدعو موسى ربه ليسأله عن لون هذه البقرة؟ . . لا يراعون مقتضيات الأدب والوقار اللازمين فى حق الله تعالى وحق نبيه الكريم ، وكيف أنهم ينبغى أن يخجلوا من تكليف موسى بهذا الاتصال المتكرر حول موضوع بسيط لا يستحق كل هذه اللجاجة والمراوغة . . ويسأل موسى ربه ثم يحدثهم عن لون البقرة المطلوبة . . فيقول إنهابقرة صفراء ، فاقع لونها ، تسر الناظرين . .

وهكذا حددت البقرة بأنها صفراء ، لونها مشرب بحمرة ، ورغم وضوح الأمر ، فقد عادوا إلى اللجاجة والمراوغة ، فشدد الله عليهم كما شددوا على نبيه وآذوه . . عادوا يسألون موسى أن يدعو الله ليبين ما هى ، فإن البقر تشابه عليهم . . وحدثهم موسى عن بقرة ليست معدة لحرث ولا لسقى ، سلمت من العيوب ، صفراء لا شية فيها ، بمعنى خالصة الصفرة . . انتهت بهم اللجاجة إلى التشديد . . وبدءوا بحثهم عن بقرة بهذه الصفات الخاصة . . أخيرا وجدوها عند يتيم فاشتروها منه وذبحوها . .

وأمسك موسى ذيل البقرة وضرب به القتيل فنهض من موته . . سأله موسى عن قاتله فحدثهم عنه ثم عاد إلى الموت . . وشاهد بنو إسرائيل معجزة إحياء الموتى أمام أعينهم ، استمعوا بآذانهم إلى اسم القاتل . . انكشف غموض القضية التى حيرتهم زمنا طال بسبب لجاجتهم وتعنتهم . . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] . .

نود أن نستلفت انتباه القارئ إلى سوء أدب القوم مع نبيهم وربهم ، ولعل السياق القرآنى يورد ذلك عن طريق تكرارهم لكلمة « ربك » التى يخاطبون بها موسى . . وكان الأولى بهم أن يقولوا لموسى ، تأدبا ، لو كان لابد أن يقولوا : ادع لنا ربنا . . أما أن يقولوا له : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ . . فكأنهم يقصرون ربوبية الله تعالى على

---

(١) الآيات من ٦٧ إلى ٧٣ من سورة البقرة مدنية .

موسى . . ويخرجون أنفسهم من شرف العبودية لله . . انظر إلى الآيات كيف توحي بهذا كله . . ثم تأمل سخرية السياق منهم لمجرد إيراده لقولهم :

﴿ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ (١) . .

بعد أن أرهقوا نبيهم ذهابا وجيئة بينهم وبين الله عز وجل ، بعد أن أرهقوا نبيهم بسؤاله عن صفة البقرة ولونها وسنها وعلاماتها المميزة ، بعد تعنتهم وتشديد الله عليهم، يقولون لنبيهم حين جاءهم بما يندر وجوده ويندر العثور عليه فى البقر عادة . .

ساعتها قالوا له : « الآن جئت بالحق » . . كأنه كان يلعب قبلها معهم ، ولم يكن ما جاء به هو الحق من أول كلمة لآخر كلمة . . ثم انظر إلى ظلال السياق وما تشى به من ظلمهم :

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾(٢) .

ألا توحى لك ظلال الآيات بتعنتهم وتسويفهم ومماراتهم ولجاجتهم فى الحق . . ؟ هذه اللوحة الرائعة تشى بموقف بنى إسرائيل على موائد المفاوضات . . هى صورتهم على مائدة المفاوضات مع نبيهم الكريم موسى . . .

قاسى موسى من قومه أشد المقاساة ، وعانى عناء عظيما ، واحتمل فى تبليغهم رسالته ما احتمل فى سبيل الله . . ولعل مشكلة موسى الأساسية أنه بعث إلى قوم طال عليهم العهد بالهوان والذل ، وطال بقاؤهم فى جو يخلو من الحرية ، وطال مكثهم وسط عبادة الأصنام ،ولقد نجحت المؤثرات العديدة المختلفة في أن تخلق هذه النفسية الملتوية الخائرة المهزومة التى لا تصلح لشىء . . إلا أن تعذب أنبياءها ومصلحيها . .

وقد عذب بنو إسرائيل موسى عذابا نستطيع ـ نحن أبناء هذا الزمان ـ أن ندرك وقعه على نفس موسى النقية الحساسة الكريمة . ولم يقتصر العذاب على العصيان والغباء واللجاجة والجهل وعبادة الأوثان ، وإنما تعدى الأمر إلى إيذاء موسى فى شخصه . .

قال تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾(٣) . .

---

(١) من الآية ٧١ من سورة البقرة مدنية .
(٢) من الآية ٧١ سورة البقرة مدنية .
(٣) الآية ٦٩ سورة الأحزاب مدنية .

ونحن لا نعرف كنه هذا الإيذاء ، ونستبعد رواية العلماء التى يقولون فيها إن موسى كان رجلا حييا يستتر دائما ولا يحب أن يرى أحد من الناس جسده فاتهمه اليهود بأنه مصاب بمرض جلدى أو برص ، فأراد الله أن يبرئه مما قالوا ، فذهب يستحم يوما ووضع ثيابه على حجر ، ثم خرج فإذا الحجر يجرى بثيابه وموسى يجرى وراء الحجر عاريا حتى شاهده بنو إسرائيل عاريا وليس بجلده عيب . . نستبعد هذه القصة لتهافتها ، فإنها إلى جوار خرافة جرى الحجر بملابسه ، لا تعطى موسى حقه من التوقير ، وهى تتنافى مع عصمته كنبى . .

ونعتقد أن اليهود آذوا موسى إيذاء نفسيا ، هذا هو الإيذاء الذى يدمى النفوس الكريمة ويجرحها حقا ، ولا نعرف كيف كان هذا الإيذاء ، ولكننا نستطيع تخيل المدى العبقرى الآثم الذى يستطيع بلوغه بنو إسرائيل فى إيذائهم لموسى . .

ولعل أعظم إيذاء لموسى ، كان نكول بنى إسرائيل عن القتال من أجل نشر عقيدة التوحيد فى الأرض ، أو على أقل تقدير ، السماح لهذه العقيدة أن تستقر على الأرض فى مكان ، وتأمن على نفسها ، وتمارس تعبدها فى هدوء . . لقد رفض بنو إسرائيل القتال . . وقالوا لموسى كلمتهم الشهيرة :

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (١) . .

وبهذه النفسية . . حكم الله عليهم بالتيه . . وكان الحكم يحدد أربعين عاما كاملة ، وقد مكث بنو إسرائيل فى التيه أربعين سنة ، حتى فنى جيل بأكمله . . فنى الجيل الخائر المهزوم من الداخل ، وولد فى ضياع الشتات وقسوة التيه ، جيل جديد . . جيل لم يترب وسط مناخ وثنى ، ولم يشل روحه انعدام الحرية . . جيل لم ينهزم من الداخل ، جيل لم يعد يستطيع الأبناء فيه أن يفهموا لماذا يطوف الآباء هكذا بغير هدف فى تيه لا يبدو له أول ولا تستبين له نهاية . . إلا خشية من لقاء العدو . . جيل صار مستعدا لدفع ثمن آدميته وكرامته من دمائه . . جيل لا يقول لموسى **﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾** . .

جيل آخر يتبنى قيم الشجاعة العسكرية ، كجزء مهم من نسيج أى ديانة من ديانات التوحيد . . أخيرا ولد هذا الجيل وسط تيه الأربعين عاما . .

ولقد قدر لموسى . . زيادة فى معاناته ، ورفعا لدرجته عند الله تعالى . . قدر له ألا تكتحل عيناه بمرأى هذا الجيل . . فقد مات موسى عليه الصلاة والسلام ، قبل أن

---

(١) الآية ٢٤ من سورة المائدة.

يدخل بنو إسرائيل الأرض التى كتب الله عليهم دخولها . . قال الله تبارك وتعالى عن موسى فى سورة مريم :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ (١) . .

وقال تعالى عنه فى سورة الأعراف بعد طلب رؤية الله :

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) . .

وقال عز وجل عنه فى سورة النساء :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (٣) . .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين كان قومه يؤذونه فى الله : قد أوذى موسى بأكثر من ذلك فصبر . .

مات هارون قبل موسى بزمن قصير . . واقترب أجل موسى ، عليه الصلاة والسلام . . وكان لم يزل فى التيه . . قال يدعو ربه : رب أدننى إلى الأرض المقدسة رمية حجر . .

أحب أن يموت قريبا من الأرض التى هاجر إليها . . وحث قومه عليها . . ولكنه لم يستطع ، ومات فى التيه . . ودفن عند كثيب أحمر حدث عنه آخر أنبياء الله فى الأرض حين أسرى به . . قال محمد ، صلى الله عليه وسلم : لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر . .

تروى الأساطير عديدا من الحكايات حول موت موسى ، وتحكى أنه ضرب ملك الموت حين جاء يستل روحه ، ففقأ عينه . . وأمثال هذه الخرافات كثيرة . . ومن المؤسف أن يتداولها علماء لهم احترامهم ، وإن كانوا لا يميزون بين الذهب والتراب ،

---

(١) الأيات ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ سورة مريم مكية . (٢) الآية ١٤٤ سورة الأعراف مكية .
(٣) الآية ١٦٤ سورة النساء مدنية .

فهم يبدون كحاطب ليل يضم الغث إلى النفيس ، ويكوم الهراء على الحقائق حتى لتختفى الحقائق . .

مات موسى عليه الصلاة والسلام ، ميتة طيبة كريمة ، أغلب الظن أنه اشتاق إلى رؤية الله عز وجل ، وقد دفعه الحب إلى طلبها فى حياته ، وها هى ذى فرصته تزيد فيها بعد موته . .

وإذن يستقبل كليم الله موته بنفس راضية وقلب مطمئن وروح تهفو إلى الحق وتتعجل لقاءه وتستبشر . . عليه الصلاة والسلام . .

الخضـــر
[عليه الصلاة والسلام]

من أعجب قصص القرآن وأعظمه غموضا ، قصة عبد أتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه من لدنه علما . .

ترد القصة فى سورة الكهف . وتبدأ بهذه الآيات التى تحكى عن موسى ما عقد عليه نيته . .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (١) . .

الكلمة الغامضة تشير إلى أن موسى قد عقد عزمه على الاستمرار فى السير أحقابا طويلة ، إلا إذا بلغ مجمع البحرين . . ثمة موعد مهم ينتظره موسى عند مجمع البحرين . . تأمل غموض المكان . .

أجهد المفسرون أنفسهم طويلا لتبديد الضباب المحيط بهذا المكان ، فقيل إنه بحر فارس والروم ، وقيل بل بحر الأردن أو القلزم ، وقيل عند طنجة ، وقيل فى إفريقيا ، وقيل هو بحر الأندلس . . ولا يقوم الدليل على صحة مكان من هذه الأمكنة ، ولو كان تحديد المكان مطلوبا لحدده الله تعالى . . وإنما أبهم السياق القرآنى المكان ، كما أبهم الزمان ، كما ضبب أسماء الأشخاص لحكمة عليا . .

إن القصة تتعلق بعلم ليس هو علمنا القائم على الأسباب . . وليس هو علم الأنبياء القائم على الوحى . . إنما نحن أمام علم من طبيعة غامضة أشد الغموض . . علم القدر الأعلى ، وذلك علم أسدلت عليه الأستار الكثيفة . . مكان اللقاء مجهول كما رأينا . . وزمان اللقاء غير معروف هو الآخر . . لا نعرف متى تم لقاء موسى بهذا العبد . .

---

(١) الآية ٦٠ سورة الكهف مكية .

وهكذا تمضى القصة بغير أن تحدد لك سطورها مكان وقوع الأحداث ، ولا زمانه ، يخفى السياق القرآنى أيضا اسم أهم أبطالها . . يشير إليه الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (١) .

هو عبد أخفى السياق القرآنى اسمه . . هذا العبد هو الذى يبحث عنه موسى ليتعلم منه . .

إن موسى كليم الله عز وجل ، وأحد أولى العزم من الرسل ، وصاحب معجزة العصا واليد ، والنبى الذى أنزلت عليه التوراة دون واسطة ، وإنما كلمه الله تكليما . . هذا النبى العظيم يتحول فى القصة إلى طالب علم متواضع يحتمل أستاذه ليتعلم . . ومن يكون معلمه غير هذا العبد الذي يتجاوز السياق القرآنى اسمه ، وإن حدثتنا السنة المطهرة أنه هو الخضر . . عليه السلام . ويسير موسى مع العبد الذى يتلقى علمه من الله بغير أسباب التلقى التى نعرفها . فى البداية يرفض الخضر صحبة موسى . . يفهمه أنه لن يستطيع معه صبرا . .

ثم يوافق على صحبته بشرط . . ألا يسأله موسى عن شىء حتى يحدثه الخضر عنه . .

والخضر هو الصمت المبهم ذاته ، إنه لا يتحدث ، وتصرفاته تثير دهشة موسى العميقة . إن هناك تصرفات يأتيها الخضر وترتفع أمام عينى موسى حتى لتصل إلى مرتبة الجرائم والكوارث . وهناك تصرفات تبدو لموسى بلا معنى . . وتثير تصرفات الخضر دهشة موسى ومعارضته . . ورغم علم موسى ومرتبته ، فإنه يجد نفسه فى حيرة عميقة من تصرفات هذا العبد الذى آتاه الله من لدنه علما . .

إن علم موسى بالشريعة ، يقف حائرا أمام علم هذا العبد بالحقيقة . . كأن الشريعة جزء من الحقيقة ، وأحيانا تكون الحقيقة غامضة أعظم الغموض ، خفية أشد الخفاء ، حتى لتستعصى على فهم الأنبياء . . إن السحاب الكثيف الذى أحاط بهذه القصة فى القرآن ، قد تساقط فيما بعد أمطارا غزيرة شربت منها كل المذاهب الصوفية فى الإسلام ، بل لقد نشأ الاعتقاد فى وجود عباد لله ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، ويغبطهم الأنبياء والشهداء على علمهم . . نشأ هذا الاعتقاد من هذه القصة . .

وقد اختلف العلماء فى الخضر : فيهم من يعتبره وليا من أولياء الله ، وفيهم من يعتبره نبيا . . وقد نسجت الأساطير نفسها حول حياته ووجوده ، فقيل إنه لا يزال حيا

---

(١) من الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .

إلى يوم القيامة ، وهى قضية لم ترد بها نصوص أو آثار يوثق فيها ، فلا نقول فيها إلا أنه مات كما يموت عباد الله . . وتبقى قضية ولايته ، أو نبوته . . وهى قضية محيرة حقا . . نرجئها حتى ننظر فى قصته كما أوردها القرآن الكريم . .

قام موسى خطيبا فى بنى إسرائيل ، يدعوهم إلى الله ويحدثهم عن الحق ، ويبدو أن حديثه جاء جامعا مانعا ، رائعا ، فبدا كما لو كان يلخص حكمة الدنيا فى السطور المضيئة التى فاه بها . . بعد أن انتهى من خطابه سأله أحد المستمعين من بنى إسرائيل :

ـ هل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله ؟

قال موسى مندفعا : لا . .

وساق الله تعالى عتابه لموسى حين لم يرد العلم إليه ، فبعث إليه جبريل يسأله :

يا موسى . . ما يدريك أين يضع الله علمه؟

أدرك موسى أنه تسرع . . وعاد جبريل ، عليه السلام ، يقول له :

إن لله عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . .

تاقت نفس موسى الكريمة إلى زيادة العلم ، وانعقدت نيته على الرحيل لمصاحبة هذا العبد العالم . . سأل كيف السبيل إليه . . فأمر أن يرحل ، وأن يحمل معه حوتا فى مكتل ، أى سمكة فى سلة . . وفى المكان الذى ترتد فيه الحياة لهذا الحوت ويتسرب فى البحر ، سيجد العبد العالم . . انطلق موسى ـ طالب العلم ـ ومعه فتاه . . وقد حمل الفتى حوتا فى سلة . . انطلقا بحثا عن العبد الصالح العالم . . إن المكان الذى يبحثان عنه غامض . . والأمر معلق بمعجزة ارتداد الحياة للسمكة القابعة فى السلة وتسربها إلى البحر . . وكل شىء مضبب . . ولكن موسى يعقد عزمه على العثور على هذا العبد العالم ولو اضطره الأمر إلى أن يسير أحقابا وأحقابا . .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (١) . .

قال موسى لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت . .

قال فتاه : ما كلفتنى بشىء كبير . .

وصل الاثنان إلى صخرة جوار البحر . . رقد موسى واستسلم للنعاس ، وبقى الفتى ساهرا . . وألقت الرياح إحدى الأمواج على الشاطىء فأصاب الحوت رذاذ

---

(١) الآية ٦٠ سورة الكهف .

فدبت فيه الحياة وقفز إلى البحر . . ﴿ فاتخذ سبيله فى البحر سَرَبًا ﴾ . . وكان تسرب الحوت إلى البحر علامة أعلم الله بها موسى لتحديد مكان لقائه بالرجل الحكيم الذى جاء موسى يتعلم منه . .

نهض موسى من نومه فلم يلاحظ أن الحوت تسرب إلى البحر . . ونسى فتاه الذى يصحبه أن يحدثه عما وقع للحوت . . وسار موسى مع فتاه بقية يومهما ، وقد نسيا حوتهما . . ثم تذكر موسى غداءه وحل عليه التعب . . ﴿ قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَبًا ﴾ . . ولمع فى ذهن الفتى ما وقع . .

ساعتئذ تذكر الفتى كيف تسرب الحوت إلى البحر هناك . . وأخبر موسى بما وقع ، واعتذر إليه بأن الشيطان أنساه أن يذكر له ما وقع ، رغم غرابة ما وقع ، فقد اتخذ الحوت ﴿سبيله فى البحر عجبا﴾ . . كان أمرا عجيبا ما رآه فتى موسى . . لقد رأى الحوت يشق الماء فيترك علامة وكأنه طير يتلوى على الرمال . .

سعد موسى من مروق الحوت إلى البحر ، و﴿قال ذلك ما كنا نبغى﴾ . . هذا ما كنا نريده . . إن تسرب الحوت يحدد المكان الذى سنلتقى فيه بالرجل العالم . . ويرتد موسى وفتاه يقصان أثرهما عائدين . . انظر إلى بداية القصة ، وكيف تجىء غامضة أشد الغموض ، مبهمة أعظم الإبهام . . لا تكاد ترفع ستارا أمامك حتى تكتشف وجود أستار أخرى . .

أخيرا وصل موسى إلى المكان الذى تسرب منه الحوت . . وصلا إلى الصخرة التى ناما عندها ، وتسرب عندها الحوت من السلة إلى البحر . . وهناك وجدا رجلا . .

لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شكله ، ولا ندرى عن ملابسه شيئا . . ولا نعرف سنه أو ملامحه ، كل ما ندريه عنه هو هذا الوصف الداخلى البحت الذى يصفه به السياق القرآنى .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾(1) . .

هذا هو الجانب المهم فى القصة . . إن القصة كلها تقع داخل النفوس ، وليس رسم الإطار أو تحديد الملامح والظلال بأمر ذى بال . . قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ

---

(١) الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .

أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (١) . .

يقول البخارى إن موسى وفتاه وجدا الخضر على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه . . وقد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه . . فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال :

ـ هل بأرضك سلام . . ؟ من أنت ؟

قال موسى : أنا موسى . .

قال الخضر : موسى بنى إسرائيل . . عليك السلام يا نبى بنى إسرائيل . .

قال موسى : وما أدراك بى . . . ؟

قال الخضر : الذى أدراك بى ودلك على . . ماذا تريد يا موسى . . ؟

قال موسى ملاطفا مبالغا فى التوقير : ﴿هل أتَّبعك على أن تعلمنى مما عُلِّمت رُشْدا﴾ . . . ؟

قال الخضر : أما يكفيك أن التوراة بيديك . . وأن الوحى يأتيك . . ؟ يا موسى ﴿إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ . .

نريد أن نتوقف لحظة لنلاحظ الفرق بين سؤال موسى الملاطف المغالى فى الأدب . . ورد الخضر الحاسم ، الذي يفهم موسى أن علمه لا ينبغى لموسى أن يعرفه ، كما أن علم موسى هو علم لا يعرفه الخضر . . يقول المفسرون إن الخضر قال لموسى : إن علمى أنت تجهله . . ولن تطيق عليه صبرا ، لأن الظواهر التى ستحكم بها على علمى لن تشفى قلبك ولن تعطيك تفسيرا ، وربما رأيت فى تصرفاتى ما لا تفهم له سببا أو تدرى له علة . . وإذن لن تصبر على علمى يا موسى . .

احتمل موسى كلمات الصد القاسية وعاد يرجوه أن يسمح له بمصاحبته والتعلم منه . . وقال له موسى فيما قال إنه سيجده إن شاء الله صابرا ولا يعصى له أمرا . .

تأمل كيف يتواضع موسى كليم الله ويؤكد للعبد المدثر بالخفاء أنه لن يعصى له أمرا . .

---

(١) الآيات من ٦١ إلى ٦٥ سورة الكهف مكية .

قال عبد الله الذى لا يشى السياق القرآنى باسمه ، قال لموسى إن هناك شرطا يشترطه لقبول أن يصاحبه موسى ويتعلم منه . استفسر موسى عن هذا الشرط فحدده العبد الصامت العالم بالصمت . . ألا يسأل موسى عن شىء حتى يحدثه عبد الله عنه . .

وافق موسى على الشرط وانطلقا . . انظر قوله تعالى فى سورة الكهف :

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [1] . .

انطلق موسى مع الخضر يمشيان على ساحل البحر . . مرت سفينة فكلماهم أن يحملوهما ، وعرف أصحاب السفينة الخضر فحملوه وحملوا موسى بغير أجر ، إكراما للخضر ، وفوجئ موسى حين رست السفينة وغادرها أصحابها وركابها . . فوجئ بأن الخضر يتخلف فيها ، لم يكد أصحابها يبتعدون حتى بدأ الخضر يخرق السفينة . . اقتلع لوحا من ألواحها وألقاه فى البحر فحملته الأمواج بعيدا . .

كان موسى يصاحب الخضر ويرقب تصرفاته ويفكر . . ما الذى جئت أصنعه هنا بمصاحبة هذا الرجل ؟ . . لماذا لم أبق فى بنى إسرائيل أتلو عليهم كتاب الله فيطيعونى؟ . . لقد حملنا أصحاب السفينة بغير أجر . . أكرمونا . . وها هو ذا معلمى يخرقها ويفسدها . .

كان التصرف من وجهةنظر موسى شيئا معيبا . . وغلبت طبيعة موسى المندفعة عليه ، كما حركته غيرته على الحق ، فاندفع يحدث أستاذه ومعلمه وقد نسى شرطه الذى اشترطه عليه .

﴿ قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ﴾ .

وهنا يلفت العبد الربانى نظر موسى إلى عبث محاولة التعلم منه ، لأنه لن يستطيع الصبر عليه ، ويعتذر موسى بالنسيان ويرجوه ألا يؤاخذه وألا يرهقه . . ويسيران معا . . يمران على حديقة يلعب فيها الصبيان . . حتى إذا تعبوا من اللعب انتحى كل واحد منهم ناحية واستسلم للنعاس . . فوجئ موسى بأن العبد الربانى يقتل غلاما . .

---

(١) الآيات من ٦٦ إلى ٧٠ سورة الكهف مكية .

ويثور موسى سائلا عن الجريمة التى ارتكبها هذا الصبى ليقتله هكذا . . يعاود العبد الربانى تذكيره بأنه أفهمه أنه لن يستطيع الصبر عليه . . ويعتذر موسى بأنه نسى ولن يعاود الأسئلة ، ويسأله العبد الربانى . . ماذا لو عاود الأسئلة ولم يلجأ إلى الصمت كما اتفقا ؟

ويقول موسى : يكون هذا آخر عهدى بمصاحبتك . . ويمضى العبد ، ويمضى معه موسى . . يدخلان قرية بخيلة . . لا يعرف موسى لماذا ذهبا إلى القرية ، ولا يعرف لماذا يبيتان فيها . . نفد ما معهما من الطعام ، فاستطعما أهل القرية فأبوا أن يضيفوهما . . وجاء عليهما المساء ، وأوى الاثنان إلى خلاء فيه جدار يريد أن ينقض . . جدار يتهاوى ويكاد أن يهم بالسقوط . . وفوجئ موسى بأن الرجل العابد ينهض ليقضى الليل كله فى إصلاح الجدار وبنائه من جديد . . ويندهش موسى من تصرف رفيقه ومعلمه ، إن القرية بخيلة ، لا يستحق من فيها هذا العمل المجانى . .

﴿قال لو شئت لاتَّخذت عليه أجرا﴾ . . انتهى الأمر بهذه العبارة . . قال عبد الله لموسى : ﴿ هذا فراقُ بينى وبينك ﴾ . .

لقد حذر العبد الربانى موسى من مغبة السؤال ، وأنذره أن يكون السؤال الثالث هو خاتمة اللقاء . .

ويكشف العبد الربانى لموسى عن السر الذى غمض عليه وحيره ، ودفعه إلى الأسئلة . .

إن كل تصرفات العبد الربانى التى أثارت موسى وحيرته لم يكن حين فعلها تصدر عن أمره . . كان ينفذ إرادة عليا . . وكانت لهذه الإرادة العليا حكمتها الخافية ، وكانت التصرفات تشى بالقسوة الظاهرة ، بينما تخفى حقيقتها رحمة حانية . . وهكذا تخفى الكوارث أحيانا فى الدنيا جوهر الرحمة ، وترتدى النعم ثياب المصائب وتجيد التنكر ، وهكذا يتناقض ظاهر الأمر وباطنه ، ولا يعلم موسى ، رغم علمه الهائل غير قطرة من علم العبد الربانى ، ولا يعلم العبد الربانى من علم الله إلا بمقدار ما يأخذ العصفور الذى يبلل منقاره فى البحر ، من ماء البحر . .

قال تعالى :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا

لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[1] . .

كشف العبد الربانى لموسى شيئين فى الوقت نفسه . . كشف له أن علمه [أى علم موسى] محدود . . كما كشف له أن كثيرا من المصائب التى تقع على الأرض تخفى فى ردائها الأسود الكئيب رحمة عظمى . . إن أصحاب السفينة سيعتبرون خرق سفينتهم مصيبة جاءتهم ، بينما هى نعمة تتخفى فى زى المصيبة . . نعمة لن تكشف النقاب عن وجهها إلا بعد أن تنشب الحرب ويصادر الملك كل السفن الموجودة غصبا ، ثم يفلت هذه السفينة التالفة المعيبة . . وبذلك يبقى مصدر رزق الأسرة عندهم كما هو ، فلا يموتون جوعا . .

أيضا سيعتبر والد الطفل المقتول وأمه أن كارثة قد دهمتهما لقتل وحيدهما الصغير البرىء . . غير أن موته يمثل بالنسبة لهما رحمة عظمى ، فإن الله سيعطيهما بدلا منه غلاما يرعاهما فى شيخوختهما ولا يرهقهما طغيانا وكفرا كالغلام المقتول . .

---

(١) الآيات من ٧١ إلى ٨٢ سورة الكهف مكية .

وهكذا تختفى النعمة فى ثياب المحنة ، وترتدى الرحمة قناع الكارثة ، ويختلف ظاهر الأشياء عن باطنها حتى ليحتج نبى الله موسى على تصرف يجرى أمامه ، ثم يستلفته عبد من عباد الله إلى حكمة التصرف ومغزاه ورحمة الله الكلية التى تخفى نفسها وراء أقنعة عديدة . .

عاد موسى إلى فتاه وصحبه عائدا إلى بنى إسرائيل . .

يمتلئ موسى الآن بيقين الصوفيين الهادئ . . لقد تعلم منهم شيئين : ألا يغتر بعلمه فى الشريعة ، فهناك علم الحقيقة . . وألا يتجهم قلبه لمصائب البشر ، فربما تكون يد الرحمة الخالقة تخفى سرها من اللطف والإنقاذ ، والإيناس وراء أقنعة الحزن والآلام والموت . .

هذا هو الدرس الذى تعلمه موسى كليم الله عز وجل ورسوله من هذا العبد المدثر بالخفاء ، لقد خرجت شخصية هذا العبد الربانى من ضباب الزمن ثم عادت تختفى كما جاءت فى ضباب الزمن . . بعد أن مضى العبد اكتشف موسى أنه اطلع على بحر جديد من العلم ليس هو بحر الشريعة الذى يشرب منه أنبياء الله ، عليهم صلاة الله وسلامه . .

نحن أمام بحر الحقيقة هنا . . أمام علم القدر الأعلى . .

أمام هذا العلم الذى لا يمكن النظر فيه بعقولنا البشرية ، أو منطقنا المعتاد فى النظر إلى العلوم . . فليس هذا العلم هو العلم التجريبى الذى نعرفه على الأرض ، وليس هو بعلم الأنبياء الذى يوحى الله به إليهم ، إنما نحن أمام نوع من العلم جديد . .

من يكون صاحب هذا العلم إذن . . . ؟ أهو ولى أم نبى . . . ؟

يرى كثير من الصوفية أن هذا العبد الربانى ولى من أولياء الله تعالى ، أطلعه الله على جزء من علمه اللدنى بغير أسباب انتقال العلم المعروفة . ويرى بعض العلماء أن هذا العبد الصالح كان نبيا . . ويحتج أصحاب هذا الرأى بأن سياق القصة يدل على نبوته من وجوه :

١ ـ أحدها قوله تعالى :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾(١) . .

---

(١) الآية ٦٥ سورة الكهف مكية .

٢ـ والثانى قول موسى له :

﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (١) . .

فلو كان وليا ولم يكن بنبى ، لم يخاطبه موسى هذه المخاطبة ، ولم يرد على موسى هذا الرد . ولو أنه كان غير نبى ، لكان هذا معناه أنه ليس معصوما ، ولم يكن هناك دافع لموسى ، وهو النبى العظيم ، وصاحب العصمة ، أن يلتمس علما من ولى غيرواجب العصمة . . .

٣ ـ والثالث أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام بوحي من الله وأمر منه . . وهذا دليل مستقل على نبوته ، وبرهان ظاهر على عصمته ، لأن الولى لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى فى خلده ، لأن خاطره ليس بواجب العصمة . . إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق . . وإذن ففى إقدام الخضر على قتل الغلام دليل نبوته . .

٤ ـ والرابع قول الخضر لموسى

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ (٢) . .

يعنى أن ما فعلته لم أفعله من تلقاء نفسى ، بل أمر أمرت به من الله وأوحى إلى فيه . .

هذه آراء العلماء والزهاد . . اختار العلماء أن يكون الخضر نبيا ، واختار العباد والزهاد والصوفية أن يكون وليا من أولياء الله . .

ومن كلمات الخضر التى أوردها الصوفية عنه . . قول وهب بن منبه : قال الخضر : ياموسى إن الناس معذبون فى الدنيا على قدر همومهم بها . . وقول بشر بن الحارث الحافى . . قال موسى للخضر : أوصنى . . قال الخضر : يسر الله عليك طاعته . . وتخاصم العلماء والزهاد حول الخضر . . فادعاه كل فريق لنفسه . .

ونشأ هذا الخصام من اعتبار العلماء أنفسهم ورثة الأنبياء ، وأهل الشريعة ، ومن اعتبار الصوفية لأنفسهم أهل الحقيقة ، التى كان يمثلها الخضر . .

---

(١) الآيات من ٦٦ إلى ٧٠ سورة الكهف مكية . (٢) من الآية ٨٢ سورة الكهف مكية .

ونمسك نحن عن رأينا فيه ، حيرة وعجزا عن الوصول إلى يقين . . فنحن نميل إلى اعتباره نبيا لعلمه اللدنى ، غير أننا لا نجد نصا فى سياق القرآن على نبوته ، ولا نجد نصا مانعا من اعتباره وليا آتاه الله بعض علمه اللدنى . . ولعل هذا الغموض حول شخصه الكريم جاء متعمدا ، ليخدم الهدف الأصلى للقصة . . ولسوف نلزم مكاننا فلا نتعداه ونختصم حول نبوته أو ولايته . . وإن أوردناه فى سياق أنبياء الله ، لكونه معلما لموسى . . وأستاذا له فترة من الزمن . .

أنبياء لبني إسرائيل
من بعد موسى

لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى . . سوى اثنين . . هما الرجلان اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بدخول قرية الجبارين . ويقول المفسرون : إن أحدهما يوشع بن نون . وهذا هو فتى موسى في قصته مع الخضر . . صار الآن نبيا من أنبياء بني إسرائيل ، وقائدا لجيش يتجه نحو الأرض التي أمرهم الله بدخولها . .

وكان الله قد أمر موسى أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء . . كما قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾(١) . .

وهكذا نرى العهد مشروطا بميثاق أخذه الله عليهم ، أن يقاتلوا ولا يفروا ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا برسله . . ابتداء من موسى الذي أنزل الله عليه التوراة ، وانتهاء بمحمد الذي بشر الله به في التوراة . . حين كانت هي توراة الله الحقة التي لم تمتد إليها أيدي التبديل والتحريف .

خرج يوشع بن نون ببني إسرائيل من التيه ، وقصد بهم الأرض المقدسة .

قطع بهم نهر الأردن وانتهى إلى أريحا ، وكانت من أحصن المدائن سورا وأعلاها قصورا وأكثرها أهلا . فحاصرها ستة أشهر . . ثم أحاطوا بها يوما وهم يضربونها

---

(١) الآية ١٢ سورة المائدة مدنية .

بالأبواق . . فتفسخ سورها وسقط دفعة واحدة . . وسنلاحظ أن السلاح الذى استخدم فى أول معاركهم كان متقدما لدرجة مذهلة ، فقد استغل المهاجمون قوة الصوت لأول مرة كسلاح . إن ذبذبات الصوت الخارج من الأبواق هى التى حطمت أسوار المدينة . ولسنا نعلم هل أوحى الله ليوشع بن نون بهذا التصرف ، أم أنه رأى ارتآه القائد ، أم أن الأمر جاء محض مصادفة . . ظلوا ينفخون فى الأبواق والقرون طوال ستة أشهر هى فترة الحصار ، حتى فوجئوا بسقوط الأسوار . .

تروى الأساطير هنا حكايات عن الشمس التى توقفت عن الدوران حتى انتهى يوشع بن نون من فتح الأرض المقدسة . وهى أساطير نسجتها المخيلة الشعبية لليهود ، وهى متهافتة إلى الحد الذى لا يصمد للنقاش ، فالشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يتوقفان لموت أحد ولا لحياته ، ورغم عظمة الخوارق والمعجزات التى وقعت لبنى إسرائيل ، فقد كانت كلها معجزات لا تتعارض مع ناموس الكون ونظامه . . لم تكن هناك معجزة تتعلق بالشمس أو القمر . . لم تجاوز المعجزت أديم الأرض أو البحر أو الجبل .

صدر الأمر الإلهى لبنى إسرائيل أن يدخلوا المدينة سجدا . . أى راكعين مطأطئى رءوسهم شاكرين لله عز وجل ما من به عليهم من الفتح . أمروا أن يقولوا حال دخولهم .

﴿ حِطَّةٌ ﴾[1] .

بمعنى حط عنا خطايانا التى سلفت ، وجنبنا الذى تقدم من آبائنا . . وخالف بنو إسرائيل ما أمروا به قولا وفعلا . .

دخلوا الباب متعالين متكبرين ، وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم . وأصابهم عذاب من الله بما ظلموا . كانت جريمة الآباء هى الذل ، وأصبحت جريمة الأبناء الكبرياء والافتراء . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾[2] .

---

(١) لفظ من الآية ١٦١ سورة الأعراف مكية . (٢) الآيتان ١٦١ ، ١٦٢ سورة الأعراف مكية .

ولم تكن هذه الجريمة هي أول جرائم بني إسرائيل ولا آخر جرائمهم ، فقد عذبوا رسلهم كثيرا بعد موسى ، وتحولت التوراة بين أيديهم إلى قراطيس يبدون بعضها ويخفون كثيرا . . وامتد هذا اللعب إلى العقيدة . . وسجل القرآن عليهم هذا في سورة الأنعام :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (١) . .

وإذا كان الخطاب ينطبق على أحفاد بني إسرائيل الذين عاشوا في الجزيرة العربية ، فقد كان واضحا من تاريخ بني إسرائيل ذاته ، أن التوراة لم تسلم من هذا العبث ، بإخفاء بعضها وإظهار البعض ، حسبما تقضي الأحوال وتدفع المصلحة المباشرة ، وكان هذا الجحود هو المسئول عما أصاب بني إسرائيل من عقوبات .

عاد بنو إسرائيل إلى ظلمهم لأنفسهم . . اعتقدوا أنهم شعب الله المختار ، وتصوروا انطلاقا من هذا الاعتقاد أن من حقهم ارتكاب أي شيء وكل شيء . . وعظمت فيهم الأخطاء وتكاثرت الخطايا وامتدت الجرائم بعد كتابهم إلى أنبيائهم ، فقتلوا من قتلوا من الأنبياء . .

﴿ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (٢) . .

وسلط الله عليهم بعد رحمة الأنبياء قسوة الملوك الجبارين ، يظلمونهم ويسفكون دماءهم ، وسلط الله أعداءهم عليهم ومكن لهم من رقابهم وأموالهم . . وكان معهم تابوت الميثاق . . وهو تابوت يضم بقية مما ترك موسى وهارون ، ويقال إن هذا التابوت كان يضم ما بقي من ألواح التوراة التي أنزلت على موسى ونجت من يد الزمان . . وكان لهذا التابوت بركة تمتد إلى حياتهم وحروبهم ، فكان وجود التابوت بينهم في الحرب . . يمدهم بالسكينة والثبات ، ويدفعهم إلى النصر ، فلما ظلموا أنفسهم ورفعت التوراة من قلوبهم لم يعد هناك معنى لبقاءنسختها معهم ، وهكذا ضاع منهم تابوت العهد ، وضاع في حرب من حروبهم التي هزموا فيها .

وساءت أحوال بني إسرائيل بسبب ذنوبهم وتعنتهم وظلمهم لأنفسهم . .

ومرت سنوات وسنوات . . واشتدت الحاجة إلى ظهور نبي ينتشلهم من الوهدة السحيقة التي أوصلتهم إليها فواجع الآثام وكبائر الخطايا .

---

(١) الآية ٩١ سورة الأنعام مكية والآية مدنية . (٢) من الآية ١٥٥ سورة النساء مدنية .

داود
[عليه الصلاة والسلام]

مرت سنوات عديدة على وفاة موسى عليه السلام ، وجاء بعده أنبياء وماتوا . . وانهزم أبناء إسرائيل بعد موسى . وضاع منهم كتابهم المقدس وهو التوراة . . حين غربت التوراة من الصدور ، نزعت من الأيدى . .

استولى أعداؤهم على تابوت العهد وفيه بقية مما ترك آل موسى وهارون . وتشرد بنو إسرائيل وطردوا من ديارهم وأرضهم وساءت حالهم . وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حامل ، جعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولدا ذكرا . فولدت غلاما فسمته أشموئيل . . ومعناه بالعبرانية إسماعيل . . أى سمع الله دعائى . . فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته لرجل صالح ليتعلم منه الخير والعبادة . فكان عنده ، فلما بلغ أشده ، بينما هو ذات ليلة نائم : إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعورا ظانا أن الشيخ يدعوه ، فهرع إليه يسأله : أدعوتنى . . ؟ فكره شيخه أن يفزعه فقال : نعم . . نم . . فنام .

ثم ناداه الصوت مرة ثانية . . وثالثة .

وانتبه إلى جبريل عليه السلام يدعوه .

ـ إن ربك قد بعثك إلى قومك .

لهذا النبى الكريم ذهب بنو إسرائيل يوما . .

سألوه : ألسنا مظلومين ؟

قال : بلى . .

قالوا : ألسنا مشردين ؟

قال : بلى . .

قالوا : ابعث لنا ملِكا يجمعنا تحت رايته كى نقاتل فى سبيل الله ونستعيد أرضنا ومجدنا .

قال نبيهم وكان أعلم بهم :

ـ هل أنتم واثقون من القتال لو كتب عليكم القتال ؟

قالوا : ولماذا لا نقاتل فى سبيل الله ، وقد طردنا من ديارنا ، وتشرد أبناؤنا ، وساء حالنا؟

﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ﴾ .

قالوا : كيف ﴿ يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ﴾ وليس غنيا وفينا من هو أغنى منه ؟

قال نبيهم :

ـ ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ .

قالوا : ما هى آية ملكه ؟

قال :

ـ ستعود إليكم التوراة التى سلبها منكم العدو . . سيحملها الملائكة إليكم . . هذه هى آية ملكه . .

ووقعت هذه المعجزة . وعادت إليهم التوراة يوما . وبدأ تكوين جيش « طالوت» وكان طالوت قد جهز جيشه ليحارب « جالوت» . . وكان جالوت مبارزا جبارا لا يهزمه أحد ، ولا يناله أحد . . ثم تجهز جيش طالوت ، وسار الجيش طويلا وسط صحراء وجبال حتى أحس الجنود بالعطش . . قال الملك طالوت لجنوده : سنصادف نهرا فى الطريق ، من شرب منه فليخرج من الجيش، ومن لم يذقه وبل ريقه بيده فقط فليبق معى فى الجيش . .

وجاء النهر فشرب معظم الجنود ، وخرجوا من الجيش ، وكان طالوت قد أعد هذا الامتحان ليعرف من يطيعه من الجنود ومن يعصاه ، وليعرف أيهم قوى الإرادة ويتحمل العطش ، وأيهم ضعيف الإرادة ويستسلم بسرعة ، وقال طالوت لنفسه : الآن عرفنا الجبناء ولم يبق معى إلا الشجعان . .

صحيح أن عدد الجيش قد انكمش ولكن المهم فى الجيش هو الشجاعة والإيمان لا العدد والسلاح . . وجاءت اللحظة الحاسمة ، ووقف جيش طالوت أمام جيش عدوه جالوت . .

وكان عدد أفراد جيش طالوت قليلا ، وكان جيش العدو كبيرا وقويا . . وقال بعض الضعفاء من جنود طالوت : كيف نهزم هذا الجيش الجبار . . ؟!

قال المؤمنون من جيش طالوت : المهم فى الجيش هو الإيمان والشجاعة . . ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ .

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

وبرز جالوت فى دروعه الحديدية ، ومعه سيفه وفأسه وخنجره ، وهو يطلب أحدا يبارزه . . وخاف منه جنود طالوت جميعا . . وهنا برز من جيش طالوت راعى غنم صغير هو «داود» . . كان «داود» مؤمنا بالله ، وكان يعلم أن الإيمان بالله هو القوة الحقيقية فى هذا الكون ، وأن العبرة ليست بكثرة السلاح ، ولا ضخامة الجسم ومظهر الباطل .

---

(١) الآيات ٢٤٦ ـ ٢٤٩ سورة البقرة مدنية .

وتقدم داود يطلب من الملك طالوت إذنه لمبارزة جالوت . .

ورفض الملك فى اليوم الأول . . لم يكن داود جنديا إنما كان راعى غنم صغيرا، ولم تكن له خبرة فى القتال أو الحرب ، ولم يكن عنده سيف ، كل سلاحه كان قطع الطوب التى يهش بها على غنمه . . ورغم هذا كله كان داود يعرف أن الله هو مصدر القوة الحقيقية فى هذه الدنيا . . ولما كان مؤمنا بالله فهو إذن أقوى من جالوت .

وجاء اليوم الثانى وطلب «داود» الإذن بقتال جالوت ، وأذن له الملك ، قال له : لو قتلته فسوف تصير قائدا على الجيش وتتزوج ابنتى . . ولم يكن داود يهتم كثيرا لهذا الإغراء . كان يريد أن يقتل جالوت لأن جالوت رجل جبار وظالم وعدو ولا يؤمن بالله . . وسمح الملك لداود أن يبارز جالوت . .

وتقدم داود بعصاه وخمسة أحجار ومقلاعه « وهو نبلة يستخدمها الرعاة » . . تقدم جالوت المدجج بالسلاح والدروع . . وسخر جالوت من داود وأهانه وضحك منه ومن فقره وضعفه ، ووضع داود حجرا قويا فى مقلاعه وطوح به فى الهواء وأطلق الحجر .

كانت الرياح صديقة لداود لأنه يحب الله ، وحملت الرياح الحجر نحو جبهة جالوت فقتله الحجر . سقط جالوت المدجج بالسلاح على الأرض وتقدم منه الراعى الطيب داود فأخذ سيفه ، وبدأت الحرب بين الجيشين .

بدأت بين جيش قتل قائده واستقر طائر الرعب فى قلوب جنوده ، وجيش آخر يقوده راعى غنم بسيط .

قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١) . .

بعد أن قتل داود جالوت : قفز إلى قمة الشهرة فى قومه فجأة . صار أشهر رجل فى بنى إسرائيل ، صار قائدا للجيش، وزوجا لابنة الملك ، غير أن داود لم يكن ليفرح بهذا كله ، لم يكن من أسرى الشهرة أو المجد أو الرئاسة . . كان أسيرا قديما لحب الله

---

(١) الآيتان ٢٥٠ ، ٢٥١ سورة البقرة مدنية .

عز وجل . . وكان داود قد أوتى صوتا خارقا فى جماله . . وكان داود يسبح الله ويمجده بصوته العذب المعجز . . ولهذا اختفى داود بعد أن هزم جالوت . .

ذهب إلى الجبل والصحراء . . وهناك وجد نفسه بين أحضان الوجود البكر . . فى عزلة ساهرة يحييها بالإنابة إلى الله وتمجيده . قال تعالى فى سورة سبأ :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[١] . .

وقال تعالى فى سورة الأنبياء :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[٢] . .

نحن أمام معدن بشرى من لون خاص . إنسان بلغ من شفافية النفس والتجرد أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات ، فاستجابت عصارة النباتات وهى تصعد فى سيقان الشجر لصوت ترنيمه . . واتصلت ذرات الجبال بذبذبات صوته وهو يسبح ، وذابت الحدود بين ضمير المخلوق والطير والوحش وصخور الجبال ، فاتسقت كلها فى نغم واحد يتجه إلى الله بالتسبيح والتمجيد والذكر . . كان داود يملك نفسا تستطيع أن تمتزج امتزاجا صوفيا بغيرها من نفوس الكائنات ، حتى ما نتصور أنه لا يملك نفسا كالجبال والصخور . .

كان داود إذا جلس يسبح الله ، ويمجده . . تعرت الكائنات من إطار الوجود الجامد ، وانكشف باطنها المترنم بمجد الله ، واستجاب هذا الباطن للنغم الصادر من داود .

واختار الله داود نبيا . . وآتاه الزبور . . قال تعالى :

﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾[٣] .

والزبور كتاب مقدس كالتوراة . ويقرأ داود من كتابه ويسبح الله تشترك معه الجبال فى التسبيح . . وتحشر له الطير . . قال تعالى :

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ مكية . (٢) الآيتان ٧٩ ، ٨٠ مكية .
(٣) من الآية ٥٥ سورة الإسراء مكية .

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾[1].

الصحراء تمتد حتى تلتقى بالأفق . هذا يوم صيام داود .

يصوم النبى الملك يوما ويفطر يوما . . هذا صيام الدهر . . دوابه تسرج ، وهو يقرأ من كتابه . . يرتل آيات من الزبور . . تسبح الجبال معه . . ليس صدى صوته هو الذى يسمعه . إن صدى الصوت هو الصوت نفسه مكررا . . أما الجبال فهى تكمل له ترتيل الآيات . . وأحيانا يسكت هو فتكمل هي التسبيح . . ولم تكن الجبال وحدها هي التى تسبح معه . . كانت الطيور أيضا تشترك في التسبيح . كان داود إذا بدأ قراءة كتابه المقدس اجتمعت حوله الطيور والوحوش والأشجار وسبحت الجبال .

لم يكن صدق داود هو وحده المسئول عن تسبيح الجبال معه أو الطير . . لم تكن عذوبة صوته هى المسئولة عن تسبيح بقية المخلوقات معه . . إنما كان هذا معجزة من الله له كنبى عظيم الإيمان ، صادق الحب لله . . ولم تكن هذه وحدها كل معجزاته . . إنما أعطاه الله قدرة على فهم لغة الطيور والحيوانات . . كان يتأمل يوما فسمع عصفورا يخاطب عصفورا آخر . . واكتشف أنه يفهم لغة العصفورين . . قذف الله فى قلبه نورا ففهم لغة الطيور ولغة الحيوانات، وكان داود يحب الحيوانات والطيور ويعطف عليها ويطعمها ويداويها إذا مرضت، وكانت الطيور والحيوانات تحبه وتقصده. ومع لغة الطيور علم الله داود الحكمة . . وكان داود إذا علمه الله شيئا أو أعطاه معجزة زاد فى حبه لله ، وزاد من شكره لله ، وزاد من إيمانه بالله ، وزادت عبادته لله . . حتى أصبح يصوم يوما ويفطر يوما . .

وأحب الله داود ومنحه ملكا عظيما . . وكانت مشكلة قومه هى كثرة الحروب فى زمانهم، وكانت الدروع الحديدية التى يصنعها صناع الدروع ثقيلة ولاتجعل المحارب حرا يستطيع أن يتحرك كما يشاء أو يقاتل كما يريد . .

يقولون إن داود جلس يوما يفكر فى هذه المشكلة ، وأمامه قطعة من الحديد يعبث بها بيديه . . ثم اكتشف فجأة أن يده تغوص فى الحديد . . ألان الله له الحديد ، فراح يقطعه ويشكله قطعا صغيرة يصلها بعضها ببعض ، حتى إذا انتهى كان أمامه درع جديد من الحديد . . درع يتكون من حلقات حديدية تسمح للمحارب بحرية الحركة ،

---

(١) الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ من سورة ص مكية .

وتحمى جسده من السيوف والفئوس والخناجر . . أفضل من الدروع الموجودة أيامها . .

ويقال فى ذلك إن الله ألان له الحديد بمعنى أنه كان أول من اكتشف أن الحديد ينصهر بالنار ويمكن تشكيله آلاف الأشكال . . ونطمئن لهذا التفسير أكثر .

وسجد داود شكرا لله . وبدأت المصانع تعمل فى صناعة الدروع الجديدة . . حتى إذا انتهت منها سلمت لجيشه . . واكتشف أعداء داود وجيوشهم أن سيوفهم لا تؤثر فى هذه الدروع ، وأن دروعهم ثقيلة ، وتنفذ منها السيوف . . إنها تمنعهم من الحركة ولا تحميهم من القتل ، بعكس الدروع التى صنعها داود . وفى كل المرات التى حارب فيها جيش داود أعداءه ، كان النصر ينعقد لداود وجيشه . . . لم يدخل داود معركة إلا انتصر فيها ، وكان يعلم أن هذا النصر من عند الله . . وكان يزيد من شكره لله ويزيد من تسبيحه لله ويزيد حبا لله .

وعندما يحب الله نبيا من أنبيائه أو عبدا من عباده ، يجعل الناس يحبونه ويضع له القبول فى الأرض . . وأحب النا س د اود مثلما أحبته الطيور والحيوانات والجبال . . وكان داود أيامها أكثر مخلوق يحبه الناس وتحبه الطيور والجبال .

ورأى الملك هذا فثارت فى نفسه الغيرة . . وبدأ يحاول إيذاء داود وقتله . . وجهز جيشا ليقاتل داود . وفهم داود أن الملك يغار منه . . ولهذا لم يحارب الملك . كل ما فى الأمر أنه أخذ سيف الملك وهو نائم ، وقطع جزءا من ثيابه بالسيف ثم أيقظ الملك وقال له :

- أيها الملك . . لقد خرجت لقتلى ، وأنا لا أكرهك ولا أريد قتلك ، ولو كنت أريد أن أقتلك لفعلت هذا وأنت نائم ، هذه قطعة من ثيابك قطعتها وأنت نائم وكنت أستطيع أن أقطع رقبتك بدلا منها ، ولكنى لم أفعل . . أنا لا أحب أن أؤذى أحدا . . إن رسالتى هى الحب وليست الكراهية .

وأحس الملك أنه أخطأ وطلب من داود العفو وتركه ومضى . .

ثم مرت الأيام وقتل هذا الملك في حرب لم يشترك فيها داود ، لأن الملك كان يغار منه ورفض الاستعانة به . . وصار داود بعد ذلك ملكا . . تذكر الناس كل ما فعله من أجلهم واختاروه ملكا عليهم ، وبذلك كان داود نبيا أرسله الله وملكا فى نفس الوقت . . ولم يزد الملك داود إلا شكرا لله ، وعبادة لله ، وحبا فى الخير وفعلا للخير ، وإحسانا إلى الفقراء ، ورعاية لمصالح الناس وراحتهم .

وشد الله ملك داود . . جعله الله منصورا على أعدائه دائما ، وجعل ملكه قويا عظيما يخيف الأعداء حتى بغير حرب . . وزاد الله من نعمه على داود فأعطاه الحكمة

وفصل الخطاب ، أعطاه الله مع النبوة والملك حكمة وقدرة على تمييز الحق من الباطل ومعرفة الحق ومساندته .

وكان لداود ابن سماه سليمان . . وكان سليمان ذكيا من طفولته وصباه . كان عمر سليمان إحدى عشرة سنة حين وقعت هذه القصة . . قال تعالى فى سورة الأنبياء :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[١] . .

جلس داود كعادته يوما يحكم بين الناس فى مشكلاتهم . . وجاءه رجل صاحب حقل ومعه رجل آخر . . وقال له صاحب الحقل : سيدى النبى . . إن غنم هذا الرجل نزلت حقلى أثناء الليل ، وأكلت كل عناقيد العنب التى كانت فيه . . وقد جئت إليك لتحكم لى بالتعويض .

قال داود لصاحب الغنم : هل صحيح أن غنمك أكلت حقل هذا الرجل ؟

قال صاحب الغنم : نعم ياسيدى . .

قال داود : لقد حكمت بأن تعطيه غنمك بدلا من الحقل الذى أكلته .

قال سليما ن . . وكان الله قد علمه حكمة تضاف إلى ما ورث من والده :

عندى حكم آخر يا أبى . .

قال داود : قله يا سليمان . .

قال سليمان : أحكم بأن يأخذ صاحب الغنم حقل هذا الرجل الذى أكلته الغنم . . ويصلحه له ويزرعه حتى تنمو أشجار العنب ، وأحكم لصاحب الحقل أن يأخذ الغنم ليستفيد من صوفها ولبنها ويأكل منه ، فإذا كبرت عناقيد العنب وعاد الحقل سليما كما كان أخذ صاحب الحقل حقله وأعطى صاحب الغنم غنمه . .

قال داود : هذا حكم عظيم يا سليمان . . الحمد لله الذى وهبك هذه الحكمة . . أنت سليمان الحكيم حقا .

وكان داود رغم قربه من الله وحب الله له ، يتعلم دائما من الله ، وقد علمه الله يوما ألا يحكم أبدا إلا إذا استمع لأقوال الطرفين المتخاصمين . .

---

(١) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ مكية .

جلس داود يوما فى محرابه الذى يصلى لله ويتعبد فيه ، وكان إذا دخل حجرته أمر حراسه ألا يسمحوا لأحد بالدخول عليه أو إزعاجه وهو يصلى . . ثم فوجئ يوما فى محرابه بأنه أمام اثنين من الرجال . . وخاف منهما داود لأنهما دخلا رغم أنه أمر ألا يدخل عليه أحد . . سألهما داود : من أنتما ؟

قال أحد الرجلين : لا تخف ياسيدى . . بينى وبين هذا الرجل خصومة وقد جئناك لتحكم بيننا بالحق .

سأل داود : ماهى القضية ؟ قال الرجل الأول : ﴿ إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ﴾ . . وقد أخذها منى . قال أعطها لى وأخذها منى . .

وقال داود بغير أن يسمع رأى الطرف الآخر وحجته : ﴿ لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ . . وإن كثيرا من الشركاء يظلم بعضهم بعضا إلا الذين آمنوا .

وفوجئ داود باختفاء الرجلين فجأة من أمامه . . اختفى الرجلان كما لو كانا سحابة تبخرت في الجو وأدرك داود أن الرجلين ملكان أرسلهما الله إليه ليعلماه درسا . . فلا يحكم بين المتخاصمين من الناس إلا إذا سمع أقوالهم جميعا ، فربما كان صاحب التسع والتسعين نعجة معه الحق . . وخر داود راكعا ، وسجد لله ، واستغفر ربه . .

قال تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾[1] .

نسجت أساطير اليهود قصصا مريبة حول فتنة داود عليه السلام . قيل إنه اشتهى امرأة أحد قواد جيشه فأرسله فى معركة يعرف من البداية نهايتها ، واستولى على

---

(١) الآيات ٢١ إلى ٢٥ سورة ص مكية

امرأته . . وليس أبعد عن تصرفات داود من هذه القصة المختلقة . . إن إنسانا يتصل قلبه بأبعد نجوم السماء ويتصل تسبيحه بتسبيح الكائنات والجمادات ، يستحيل عليه أن يرى أو يلاحظ جمالا بشريا محصورا فى وجه امرأة أو جسدها .

إن من يرى الجمال الأصيل فى الكون ويتصل مباشرة به ويخضعه لتسبيحه ، يستحيل عليه أن يخضع لغريزة اقتناء امرأة . كان داود عبدا لله وحده . ولم يكن ممكنا له أن يصير عبدا لغرائزه كما تحكى الإسرائيليات عنه .

عاد داود يعبد الله ويسبحه ويتغنى بحبه ويمجده حتى مات . . كان داود يصوم يوما ويفطر يوما . . قال رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم عن دواد : « أفضل الصيام صيام داود . كان يصوم يوما ويفطر يوما . وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتا ، وكانت له ركعة من الليل يبكى فيها نفسه ويبكى ببكائه كل شىء ويشفى بصوته المهموم والمحموم » . .

مات داود عليه السلام فجأة كما تقول الروايات . وشيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب فى أرديتهم التقليدية ، مع آلاف غيرهم من الناس . ولم يمت فى بنى إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كان بنو إسرائيل أشد جزعا عليه . . منهم على داود . وآذت الشمس الناس فدعا سليمان الطير قال : أظلى على داود .

فأظلته حتى أظلمت عليه الأرض . وسكنت الريح . وقال سليمان للطير : أظلى الناس من ناحية الشمس وتنحى من ناحية الريح . وأطاعت الطير . فكان ذلك أول ما رآه الناس من ملك سليمان .

سليمان
[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة النمل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾[١] .

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾[٢] .

ورثه فى النبوة والملك . ليس المقصود وراثته فى المال، لأن الأنبياء لا يورثون . إنما تكون أموالهم صدقة من بعدهم للفقراء والمحتاجين ، لا يخصون بها أقرباءهم. قال محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم: « نحن معشر الأنبياء لا نورث». وورث سليمان داود فى النبوة، وهذا مفهوم، فقد اختاره الله عز وجل نبيا إلى بنى إسرائيل ، أيضا منحه الله الملك عليهم، ولعل أخطر شىء ورثه سليمان عن داود تلك التقاليد العسكرية التى أرساها داود.

وهذا التقدم الساحق الذى انتقل إلى سليمان من ملك داود. كان داود في الأصل راعى غنم فقيرا. لكنه تحول مع الوقت إلى قائد عسكرى ليس له مثيل، وتم هذا التحول بإلهام من الله وعون منه وتأييد. كان داود فى البداية يدرك أن القوة الحقيقية الحاكمة فى الوجود هى قوة الله تعالى. . وحين مد يده وأمسك بقطعة الحجر وقذفها بمقلاعه نحو جالوت، كان هذا إيذانا بتحول موازين القوة . . وتغير وضع الجيش فى بنى إسرائيل من شراذم تفر أمام أعدائها إلى جيش حقيقى له وجوده.

وقد وقعت فى حياة داود معارك عسكرية عديدة، لا يحدثنا القرآن عنها بالتفصيل،

---

(١) من الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة النمل مكية. (٢) الآية ١٦ من سورة النمل مكية.

فالقرآن كتاب دعوة إلى الله، وليس كتابا فى التاريخ، غير أن القرآن يكتفى بأن يقول عنه .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ (١) .

وتعنى الآية أنه لم ينكسر فى معركة من معاركه أبدا . وإلى جوار تأييد الله تعالى لداود . . وجيشه وشعبه، بوصفهم موحدين قد أسلموا وجوههم لله . . كشف الله تعالى لداود عن أمور جعلت لجيشه ميزة تفوق ساحق على غيره من جيوش الأرض وقتئذ .

قال تعالى :

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ (٢) . .

إن مسألة الدروع الحديدية التى تصنع من حلقات تتيح للمقاتل حرية الحركة . . كانت فى ذلك الزمان البعيد طفرة هائلة فى الحروب . . وتصور أنت اثنين من المحاربين، أحدهما يتحرك بدرعه فى حرية كاملة كأنه لا يرتدى شيئا من الدروع، بينما يئن المحارب الثانى تحت ثقل دروع تعوقه وتشل حركته .

هذا التقدم الخطير الذى منحه الله تعالى لداود وجيشه . . انتقل إلى ملك سليمان . .

وهكذا ورث سليمان جيشا متقدما على غيره من جيوش الأرض . كما ورث دولة قوية . . وزاد الله سليمان .

﴿ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾(٣) .

ولسوف نحس ونحن نمضى على الصفحات المشرقة التي أوردها القرآن عن سليمان . . أننا نواجه العصر الذهبي لبنى إسرائيل . . عصر نبيهم وملكهم سليمان . .

لم يكتف سليمان بما ورثه من داود، حركه الطموح النبيل نحو ما هو أكثر .

ومد يديه يوما لله وسأل . . وليس بين قلب النبى وبين الله حاجز أو مسافة أو زمن . لا يكاد أحد الأنبياء يدعو الله حتى تتحقق دعوته .

---

(١) من الآية ٢٠ من سورة ص مكية . (٢) من الآية ١٠ سورة سبأ مكية .

(٣) من الآية ١٦ سورة النمل مكية .

إن صفاء القلب حين يبلغ درجة معينة يستطيع دائما أن يجد طريقه إلى الله .

قال سليمان فى دعائه :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾(١) .

كان سليمان يريد من الله تعالى ملكا لا يعطيه لأحد من خلقه بعد ذلك .

وقد استجاب الله تعالى لعبده سليمان ومنحه هذا الملك .

من حق أبناء هذا الزمان أن يسألوا : لماذا أراد سليمان هذا الملك العريض الذى لا ينبغى لأحد من بعده ؟ أكان سليمان بمنطق عصرنا رجلا مولعا بالسلطة ، حريصا على المجد الذى توفره ، تواقا إلى الحكم والتحكم؟ لن نجد فى قلب سليمان شيئا من هذا كله .

إن طموح سليمان للملك كان طموح نبى أولا وأخيرا . . ولا يتعلق قلب النبى إلا بما يحقق لدعوته الانتشار فى الأرض . . ولم يكن سليمان عاشقا للملك المجرد ، تواقا إلى الكبرياء والعظمة ، إنما كان يريد الملك ليحارب الظلام الذى انتشر فى الأرض ، وينشر نور الإسلام الذى تتكرم به السماء على الأرض حين تبعث رسولا . . تأمل كلمة سليمان لبلقيس وهو يحاورها حول عرشها فى سورة النمل :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (٢) . .

هذه كلمة سليمان الحكيم . . وهى الكلمة التى تبرر فى اعتقادنا طلبه للملك والرياسة والقوة . . لقد سخر سليمان كل مجده وملكه للدعوة إلى الله . . ونشر الإسلام . . ألم تقل ملكة سبأ فى ختام قصتها مع سليمان :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

بعد هذه المقدمة الأساسية . نقلب صفحات النبى الملك سليمان . .

ورث سليمان داود فى الملك والنبوة والحكمة . . أطلق عليه الناس اسم «سليمان الحكيم» . ولم تكن حكمة سليمان مقصورة على عدله بين الناس ، ورحمته بهم ،

---

(١) من الآية ٣٥ سورة ص مكية . (٢) الآية ٤٢ مكية .

(٣) من الآية ٤٤ من سورة النمل مكية .

وحكمه فى قضاياهم بالحق، إنما تجاوزت حكمته عالم البشر إلى عالم الطيور والحيوانات . .

كان داود يعرف لغة الطيور، لكن سليمان كان يتكلم مع الطيور ويوظفها فى خدمته .

وكان داود إذا سبح . . سبحت معه الجبال والوحوش والطيور، وتوقفت الرياح لتستمع إلى هذا التسبيح العظيم . أما سليمان فزاده الله على ذلك أن سخر معه الوحوش وأخضع له الرياح والطيور . . قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (١) . .

كان سليمان يستطيع أن يسمع همس نملة تحدث نملة أخرى . . كما كان يستطيع أن يأمر هذه النملة فتطيع أوامره . . وكان جيش سليمان أرهب الجيوش فى العالم ، لن يعرف العالم جيشا بهذه القوة ، ولئن كانت الجيوش تستمد قوتها من تماثل جنودها فقد استمد جيش سليمان قوته من اختلاف جنوده ، كان الجيش يتكون من خليط مدهش يجعله جيشا لا يقاوم .

كان جيشه يتكون من البشر . . ومن الجن ، ومن الطير . ونحن نعرف أن الجن مخلوقات خلقها الله وليس فى استطاعة البشر رؤيتها أو استحضارها أو الاستعانة بها . . أما سليمان النبى عليه السلام فقد أعطاه الله وحده هذه القدرة . . القدرة على تسخير الجن وتوظيفهم جنودا فى جيشه أثناء الحرب ، وعمالا فى مملكته أثناء السلام ، والجن مخلوقات لا تظهر فتخيل أنت جيشا جنوده غير ظاهرين . . .

إن قتال مثل هذا الجيش مستحيل ، كان جيشه يضم أيضا الطيور . . وكانت الطيور فى جيش سليما تلعب نفس الدور الذى تلعبه أجهزة الاستطلاع والمخابرات فى الجيوش الحديثة . . ونحن نعرف أن دور الاستطلاع فى الحرب هو أهم دور، فمن هذه الأجهزة يعرف الجيش المقاتل حقيقة عدوه . . وكان هذا دور الطيور فى جيش سليمان، كانت تطير إلى جيوش الأعداء ، ثم تعود لسليمان بأخبار أعدائه كلها . .

ومع الجن والطيور . . سخر الله سبحانه وتعالى الرياح لسليمان . . كان يتحكم فيها ويستطيع أن يركبها هو وجنوده . . ونحن نعرف الآن أن فكرة الطائرات هى

---

(١) الآيتان ١٥ ، ١٦ سورة النمل مكية .

استغلال الهواء بحيث يمكن للطائرة أن تطير فيه رغم أنها أثقل منه . وقديما . . أعطى الله لسليمان هذه القدرة على تسخير الرياح له واستخدامها فى أغراضه . وبذلك كان جيش سليمان يضم جنودا طائرين فى وقت لم يكن هناك من يحلم بالطيران فيه . ولعل هذه المعجزة التى وهبها الله لسليمان كانت سببا فى مجده العسكرى . . فقد صار جيشه لا يقاوم . .

قال تعالى :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (1) .

وقال تعالى :

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (2) .

سنعرف أن سليمان سيهجر فكرة استخدام الخيل فى الجيش ، بعد أن تعطله الخيل يوما عن الصلاة . حين ترك سليمان الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله عنها بالريح التى تجرى بأمره إلى أى بقعة يريدها من البلاد . ومع سلاح الطيران الذى أوتيه سليمان ، أعطى الله تعالى لسليمان مقدرة لم يعطها لأحد من أنبيائه قط . هى المقدرة على التحكم فى الشياطين . والشياطين نوع من الجن . هو النوع الشقى من الجن . وهذا نوع لا يستطيع البشر التحكم فيه ، ولا يستطيع الجن الصالح نفسه التحكم فيه . أما سليمان فقد وهبه الله قدرة على تسخير الشياطين وتشغيلها وتقييدها بالسلاسل وتعذيبها إذا عصت أوامره . وكانت الشياطين تبنى له القصور والدور والقدور والتماثيل والمحاريب . . وكانت تغوص له فى أعماق البحار وتستخرج اللؤلؤ والمرجان والياقوت . .

وكان من يتمرد من الشياطين يقيد فى الأصفاد ليكون إشارة إلى مجد سليمان وقدرته على التحكم فى الكائنات . . وهى قدرة أوتيها بإذن ربه كمعجزة منه سبحانه .

قال تعالى :

﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ

---

(1) الآية 17 من سورة النمل مكية . (2) الآيات من 36 إلى 40 من سورة ص مكية .

مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾[1].

وجاء على الأرض وقت . . فإذا سيدها بغير منازع هو سليمان الحكيم .

ومع هذه النعم المثيرة الخاصة التى أنعم الله بها على سليمان . كان سليمان أكثر الناس ذكرا لله ، وأكثر الناس شكرا لله فى زمانه . قال تعالى عن سليمان :

﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[2].

والأوبة هى العودة الدائمة إلى الله بالصلاة والصيام والتسبيح والبكاء والاستغفار والحب . والعبد الأواب هو العبد المتجه إلى الله دائما . ولقد كانت أوقات الصلاة عند سليمان أمرا خطيرا لايشغله عنه شىء . . وفى المرة الوحيدة التى فاته فيها وقت الصلاة . . كان هذا رغم إرادته . .

كان مشغولا ساعتها بأمر خطير هو الإعداد للحرب . . كان الوقت عصرا ، وراح سليمان يستعرض خيل الجنود والضباط . وكانت الخيل سلاحا مهما فى جيشه . ومر سليمان على الخيل وهو يفحصها حتى كادت صلاة العصر تفوت . وسجد سليمان لله ، وصلى ثم أمر أن يردوا إليه الخيل ، فراح يمسح على أعناقها وأرجلها بيده وهو يعتذر لله من أن الإعداد للجهاد والحرب والغزو كاد يفوت عليه وقت الصلاة . من يومها استغنى سليمان عن الخيل فى جيشه . . فعوضه الله عنها بالريح التى تحمله وتحمل جنوده حيث يشاء . قال تعالى فى سورة [ص] :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾[3].

وكان سليمان يعرف أمراض الخيل ويستطيع أن يتحدث معها بلغتها ويفهم منها وتطيع أوامره .

وأنعم الله تعالى على سليمان بنعمة أخرى . . قال تعالى :

---

(١) الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة سبأ مكية .

(٢) من الآية ٣٠ سورة ص مكية .

(٣) الآيات من ٣٠ إلى ٣٣ مكية .

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾(١) . .

والقطر هو النحاس المذاب . . مثلما أنعم على والده داود بأن ألان له الحديد وعلمه كيف يصهره . . وقد استفاد سليمان من النحاس المذاب فائدة عظيمة فى الحرب والسلم ، فى الحرب كان يمزج النحاس بالحديد ويصنع البرونز ، وكانوا يستخدمون الأسلحة البرونزية فى الحروب ، كالسيوف والدروع والخناجر ، وكانت هذه الأسلحة أقوى الأسلحة أيامها . . وفى السلم كان النحاس يدخل فى صناعات المبانى وصناعات التماثيل وغيرهما . . .

ورغم كل هذه النعم العظيمة والمنح الخاصة ، فقد فتن الله تعالى سليمان . . اختبره وامتحنه ، والفتنة امتحان دائما ، وكلما كان العبد عظيما كان امتحانه عظيما ، فتن الله سليمان بالمرض . . وقال الله تعالى فى ذلك :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ (٢) .

اختلف المفسرون فى فتنة سليمان عليه السلام . ولعل أشهر رواية عن هذه الفتنة هى نفسها أكذب رواية . . قيل إن سليمان عزم على الطواف على نسائه السبعمائة فى ليلة واحدة ، وممارسة الحب معهن حتى تلد كل امرأة منهن ولدا يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل سليمان إن شاء الله ، فطاف على نسائه فلم تلد منهن غير امرأة واحدة . . ولدت طفلا مشوها ألقوه على كرسيه . . والقصة مختلقة من بدايتها لنهايتها ، وهى من الإسرائيليات الخرافية .

وحقيقة هذه الفتنة ماذكره الفخر الرازى . قال : إن سليمان ابتلى بمرض شديد حار فيه الطب . مرض سليمان مرضا شديدا حار فيه أطباء الإنس والجن . . وأحضرت له الطيور أعشابا طبية من أطراف الأرض فلم يشف ، وكل يوم كان المرض يزيد عليه حتى أصبح سليمان إذاجلس على كرسيه جلس كأنه جسد بلا روح . . كأنه ميت من كثرة الإعياء والمرض . . واستمر هذا المرض فترة كان سليمان فيها لا يتوقف عن ذكر الله وطلب الشفاء منه واستغفاره وحبه . . وانتهى امتحان الله تعالى لعبده سليمان ،

---

(١) من الآية ١٢ سورة سبأ مكية . (٢) الآيات من ٣٤ إلى ٣٧ سورة ص مكية .

وشفى سليمان . . عادت إليه صحته بعد أن عرف أن كل مجده وكل ملكه وكل عظمته لا تستطيع أن تحمل إليه الشفاء إلا إذا أراد الله سبحانه . هذا هو الرأى الذى نرتاح إليه ، ونراه لائقا بعصمة نبى حكيم وكريم كسليمان . .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ (١) .

حوله المرض إلى شىء كالجسد . . ولفظ الجسد فى اللغة يطلق على ما فارقته الحياة أو الصحة . ولقد تحول سليمان إلى جسد من فرط المرض .

﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (٢) .

ثم رجع إلى الصحة . . استجار برحمة الله فشفاه الله ورحمه . .

وكان سليمان قد بنى لله مسجدا أو معبدا ليعبد الناس فيه الله تعالى وحده .

وقد كان هذا البيت آية من آيات فن العمارة وفن النحت .

إن ورش الحدادة كانت المطارق فيها تدق بلا انقطاع ، وورش صهر المعادن كانت تعمل أربعا وعشرين ساعة كل يوم ، وكان البرونز المصهور يجرى من مئات القنوات فى الرمل ليأخذ بعد ذلك أشكال الأبواب والنوافذ وتماثيل الأسود والنمور والطيور التى كانت تزين الطريق نحو مسجد سليمان .

وكان عدد العاملين فى بناء هذا البيت عشرات الألوف . . كان هناك من يصهر المعادن ، وهناك النحاتون ، وهناك من يكسر الأحجار ، وهناك قاطعو الأخشاب ، وهناك من يحضر أخشاب الأرز من لبنان ، وهنا من يصهر الذهب ويجعل منه رقائق لامعة لتغطية الأخشاب . . وتغطية الجدران . .

وكانت الجن تعمل هى الأخرى ، طبقا لتعليمات سليمان وأوامره . . كانت تصنع تماثيل عظيمة ، وكانت تصنع قدورا لطعام الجنود والعمال ، قدورا كالجبال من فرط ثقلها وعظمتها ، وكانوا يصنعون أوعية للشرب تبدو كأنها أحواض كبيرة لسعتها . . وكان سليمان يلاحظ عماله ويراعى شعبه ويعرف مشكلاته ويحلها له ، كما كان يراقب جيشه من الحيوانات والطيور ، ويعرف هل غاب أحد منهم وأين كان ولماذا غاب . .

ولم يكن سليمان يعرف مشكلات جنوده الآدميين ويعرف جيشه من الطيور فقط ، وإنما كان أيضا رحيما بالنمل يسمع همسه ولا يدوسه بقدميه .

---

(١) من الآية ٣٤ سورة ص مكية .
(٢) من الآية ٣٤ سورة ص مكية .

كان سليمان يسير منكس الرأس ، دائم النظر إلى الأرض تواضعا ، دائم الشكر لله .

كان يسير يوما فى مقدمة جيشه حين سمع نملة تقول لزميلاتها من النمل :

﴿ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

سمع سليمان كلام النملة فتبسم ضاحكا من قولها . . ما الذى تتصوره هذه النملة !رغم كل عظمته وعظمة جيشه فإنه رحيم بالنمل . يسمع همسه وينظر دائما أمامه ولا يمكن أبدا أن يدوسه . وكان سليمان يشكر الله أن منحه هذه النعمة . . نعمة الرحمة ونعمة الحنو والشفقة والرفق . . أيضا كان سليمان أغنى إنسان فى الدنيا . . كانت أرض قصوره أحيانا من خشب الصندل ذى الرائحة المعطرة ، وأحيانا من الذهب وأحيانا من الكريستال . . كان له كرسى عظيم صنع من الذهب والجواهر . كانت له أعظم قصور فى الدنيا ، وكان يرتدى ملابس من الذهب والجواهر . . ورغم هذا كله فقد كان سليمان متواضعا لله وللناس . . وكان يخرج على الناس وهو يرتدى ثيابه الذهب فيقول لهم : إن أى زهرة من زهور الحقول ترتدى أجمل مما أرتدى أنا سليمان الملك .

صنع الله ألوان الزهرة وأوراقها ، ويصنع الإنسان ملابسه ، وما يصنعه الله أجمل آلاف المرات .

أجمل وأرق وأحلى . . حتى الأشجار العارية ترتدى أعظم مما يرتديه سليمان . .

هكذا كان النبى المتواضع يقول وهو يسجد لله . . ومثلما كان والده يسبح لله . . كان سليمان ينشد لله إنشاداً ويتغنى بالحب الإلهى ويمجد الله وحده .

وجاء يوم . . وأصدر سليمان أمره لجيشه أن يستعد . . بعدها ، خرج سليمان يتفقد الجيش ، ويستعرضه ويفتش عليه . . مر على البشر أولا ولاحظ استعدادهم ، واجتمع مع القواد والضباط والجنود ، وأفهمهم أوامره . ثم مر على الجن وأصدر تعليماته إليهم ، وسجن جنيا لاحظ عليه أنه يتكاسل فى العمل . . ثم مرّ على

---

(١) الآيتان ١٨ ، ١٩ من سورة النمل مكية .

الحيوانات وسألها عما إذا كانت تأكل جيدا ، وتنام جيدا ، وعماإذا كانت هناك شكوى من حيث مواعيد تقديم الطعام ، وعما إذا كانت هناك حالات مرضية . ولما اطمأن على كل شيء ، دخل خيمة الطيور العظيمة . . ولم يكد يدخل الخيمة ويدير بصره فيها حتى اكتشف غياب الهدهد . .

كان المفروض أن يقف الهدهد في مكان معين . . هناك في أعلى الخيمة ، ولكن الهدهد لم يكن هناك . .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ (١) . . ؟

سكتت بقية الطيور ، احتراما لما سيقوله قائدها الأعلى . . وأدار سليمان بصره في الطيور جميعا ، وقرأ في عيون الطيور أن الهدهد ليس موجودا ، وليس معروفا أيضا أين هو . . قال سليمان وقد بدأ يغضب :

﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾؟ (٢) . .

تجرأ عصفور صغير هناك وقال لسليمان : أيها النبي الكريم . . كان المفروض أن يكون الهدهد موجودا معي بالأمس في مهمة استطلاع . . كان هو قائد المهمة ، ولم يأت الهدهد ، ولهذا لم أذهب أنا . .

كان العصفور يرتعش من الخوف . . وأدرك سليمان أن الهدهد غائب بغير أن يعلم بغيابه أحد ، ودون أن يستأذن أيضا . . ودون أن يقول أين هو . .

قال سليمان غاضبا :

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾(٣) .

فهمت الطيور أن سليمان غاضب . . فقد قرر تعذيب الهدهد ، أو ذبحه ، أو العفو عنه ، بشرط أن يأتي بحجة تنجيه من هذه الورطة ، بمعنى أن يثبت الهدهد أنه كان يؤدي عملا . .

كان غضب سليمان عظيما . . يلقي الخوف في القلوب . . لأن سليمان ـ رغم رحمته ـ إذا غضب فغضبه على حق ، وهو عادل في غضبه ، ثم إنه قادر على تنفيذ تهديده ببساطة . .

---

(١) من الآية ٢٠ سورة النمل مكية . (٢) من الآية ٢٠ سورة النمل مكية .
(٣) الآية ٢١ سورة النمل مكية .

ارتعش العصفور ارتعاشة شديدة بسبب غضبة سليمان . . ومد سليمان يده وربت على رأس العصفور ، فذهب عنه الخوف . . انصرف سليمان من خيمة الطيور وذهب إلى قصره . . كان مشغولا بالهدهد ، المفروض أن الهدهد جزء من جهاز الاستطلاع . . هل ذهب يستطلع شيئا ؟ . . أم أنه يلعب ؟!

كان سليمان قد لاحظ على هذا الهدهد أنه ذكي وفصيح ، ويميل إلى الشقاوة قليلا . . وقد ضبطه مرة أو مرتين يلعب بعض الوقت ثم يؤدى العمل فى الساعات الأخيرة . . وقد نظر إليه سليمان نظرة فهم منها الهدهد أن هذا لايصح . . فهناك وقت للجد ووقت للعب ، والمفروض على الهدهد ، كما هو مفروض على الإنسان ، ألا يخلط وقت الجد بوقت اللعب، لأن هذا يضيع الجد واللعب معا . .

وصل الهدهد إلى خيمة الطيور بعد غيبة ليست طويلة . . قالت له الطيور : اذهب إلى سيدنا سليمان فورا قبل أن يعرف أنك وصلت ولم تسلم نفسك .

طار الهدهد فدخل على سليمان وهو جالس يتناول طعامه . . وقف الهدهد . . وقرر أن يبدأ الكلام مع سليمان قبل أن يسأله أين كان . . كدليل على براءته . .

قال الهدهد :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (١) . .

كان كلام الهدهد هجوميا . . ما معنى أن يقول لسليمان : أنا الهدهد المسكين أعرف مالا تعرفه أنت . . وقدجئتك من مملكة سبإ بنبإ غاية فى الأهمية . . ؟

سكت سليمان وانتظر أن يكمل الهدهد حديثه . .

قال الهدهد :

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) . .

سكت الهدهد قليلا ، وأحس سليمان أن الهدهد يستجمع كل فصاحته ، وينتقى كلماته جيدا ويحدث سليمان . . عاد الهدهد يقول لسليمان ما كان سليمان يقوله للناس والطيور . .

---

(١) من الآية ٢٢ سورة النمل مكية .

(٢) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ سورة النمل مكية .

قال الهدهد :

﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) . .

كان واضحا أن الهدهد يردد كلام سيدنا سليمان . . فى محاولة أخيرة لكسب عطف سليمان وإقناعه . . قال سليمان ، وظل ابتسامة خفيفة يطوف بملامحه :

﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾(٢) . .

أراد الهدهد أن يقول : أنا لا أكذب أيها النبى الكريم . . لكن صمت سليمان أخافه فسكت . . كان سليمان صامتا يفكر ، انتهى إلى قرار ، فرفع رأسه ، وأمر بإحضار ورقة وقلم ، وكتب رسالة سريعة موجزة ومد يده إلى الهدهد وأصدر تعليماته إليه . . قال :

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾(٣) . .

يختصر السياق القرآنى فى سورة النمل ما كان من أمر ذهاب الهدهد وتسليمه الرسالة ، وينتقل مباشرة إلى الملكة ، وسط مجلس المستشارين ، وهى تقرأ على رؤساء قومها ووزرائها رسالة سليمان . .

﴿ قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾(٤) . .

هذا هو نص خطاب الملك سليمان لملكة سبأ . .

إنه يأمر فى خطابه أن يأتوه مسلمين . . هكذا مباشرة . . إنه يتجاوز أمر عبادتهم للشمس . . ولا يناقشهم فى فساد عقيدتهم . . ولا يحاول إقناعهم بشىء . . إنما يأمر فحسب . . أليس على الحق ؟ . . أليس مؤيدا بقوة تسند الحق الذى يؤمن به ؟ . . لا عليه إذن أن يأمرهم بالتسليم . .

كان هذا كله واضحا من لهجة الخطاب القصيرة المتعالية المهذبة فى نفس الوقت .

---

(١) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ سورة النمل مكية .

(٢) الآية ٢٧ سورة النمل مكية .

(٣) الآية ٢٨ سورة النمل مكية .

(٤) الآيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ سورة النمل مكية .

طرحت الملكة على رؤساء قومها الرسالة . .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾[1] . .

كان رد فعل الملأ ـ وهم رؤساء قومها ـ هو التحدى . . أثارت الرسالة بلهجتها المتعالية المهذبة غرور القوم ، وإحساسهم بالقوة . . أدركوا أن هناك من يتحداهم ويلوح لهم بالحرب والهزيمة ويطالبهم بقبول شروطه قبل وقوع الحرب والهزيمة . .

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾[2] . .

أراد رؤساء قومها أن يقولوا : نحن على استعداد للحرب . . ويبدو أن الملكة كانت أكثر حكمة من رؤساء قومها . . فإن رسالة سليمان أثارت تفكيرها أكثر مما استنفرتها للحرب .

فكرت الملكة طويلا فى رسالة سليمان . . كان اسمه مجهولا لديها ، لم تسمع به من قبل ، وبالتالى كانت تجهل كل شيء عن قوته ، ربما يكون قويا إلى الحد الذى يستطيع فيه غزو مملكتها وهزيمتها .

ونظرت الملكة حولها فرأت تقدم شعبها وثراءه ، وخشيت على هذا الثراء والتقدم من الغزو . . ورجحت الحكمة فى نفسها على التهور ، وقررت أن تلجأ إلى اللين ، وترسل إليه بهدية . . وقدرت فى نفسها أنه ربما يكون طامعا قد سمع عن ثراء المملكة ، فحدثت نفسها بأن تهادنه وتشترى السلام منه بهدية . . قدّرت فى نفسها أيضا أن إرسالها بهدية إليه ، سيمكن رسلها الذين يحملون الهدية من دخول مملكته ، وإذن سيكون رسلها عيونا فى مملكته . . يرجعون بأخبار قومه وجيشه ، وفى ضوء هذه المعلومات ، سيكون تقدير موقفها الحقيقى منه ممكنا . .

أخفت الملكة ما يدور فى نفسها ، وحدثت رؤساء قومها بأنها ترى استكشاف نيات الملك سليمان ، عن طريق إرسال هدية إليه ، انتصرت الملكة للرأى الذى يقضى بالانتظار والترقب . . وأقنعت رؤساء قومها بنبذ فكرة الحرب مؤقتا ، لأن الملوك إذا دخلوا قرية انقلبت أوضاعها وصار رؤساؤها هم أكثر من فيها تعرضا للهوان والذل . .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة النمل مكية.

(٢) الآية ٣٣ من سورة النمل مكية.

واقتنع رؤساء قومها حين لوحت الملكة بما يتهددهم من أخطار . .

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[١] . .

وصلت هدية الملكة بلقيس إلى الملك النبى سليمان .

جاءته أجهزة استطلاعه بنبإ وصول رسل بلقيس وهم يحملون الهدية . . وأدرك سليمان على الفور أن الملكة أرسلت رجالها ليعرفوا معلومات عن قوته لتقرر موقفها بشأنه . . ونادى سليمان فى المملكة كلها أن يحتشد الجيش . ودخل رسل بلقيس وسط غابة كثيفة مدججة بالسلاح . . فوجئ رسل بلقيس بأن كل غناهم وثرائهم يبدو وسط بهاء مملكة سليمان . . شيئا مخجلا كالرقعة الفقيرة .

وصغرت هديتهم فى أعينهم . . وكانت من الذهب ، وهم يسيرون على أرضية قصور الملك سليمان وكانت تصنع من خشب الصندل المعطر المزين بالذهب .

ووقف رسل بلقيس مع سليمان ريثما ينتهى من استعراض جيشه ، وراحت أذهانهم تسجل عدد الجنود ونوعيتهم وكثرتهم ، ثم فوجئوا بأن فى الجيش أسودا ونمورا وطيورا وجنودا تنتقل عن طريق الطيران . . وتدلت أفواههم من الدهشة وأدركوا أنهم أمام جيش لا يقاوم . انتهى استعراض الجيش فدعى سفراء الملكة إلى الغداء على مائدة الملك سليمان . وفوجئ السفراء بأنهم أمام أطعمة من أرجاء الأرض المختلفة . وتصدرت المائدة أطعمة تشتهر بلادهم بصنعها ولكنهم يرون لها مذاقا خاصا . كانت الأطباق التى يأكلون فيها من الذهب . وكان يخدمهم رجال يتحلون بذهب لا تتحلى به ملكتهم نفسها . . وكانت مائدة الطعام تضم طيورا وأسماكا بحرية ولحوم أشياء لم يستطيعوا تمييزها . ولم يكن سليمان يشاركهم طعامهم، كان يأكل فى طبق من الخشب ، ويغمس الخبز الجاف فى الزيت . . هذه وجبة طعامه المفضل .

أكل سليمان معهم صامتا مقطبا ، فأحسوا أن له حضورا قويا ومهابة صاعقة .

وانتهى الطعام فقدموا لسليمان هدية الملكة بلقيس على استحياء شديد . كانت الهدية من الذهب . وكانت هدية قيمة بالنسبة إليهم ، لكنها هنا تبدو باهتة وفقيرة وسط هذا الثراء المدهش . نظر سليمان إلى هدية الملكة وأشاح ببصره .

---

(١) الآيتان ٣٤ و ٣٥ من سورة النمل مكية .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (١) . .

كشف الملك سليمان بكلماته القصيرة عن رفضه لهديتهم ، قوض مهمة السفراء وأفهمهم أنه لا يقبل شراء رضاه بالمال . يستطيعون شراء رضاه بشيء آخر . .

﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٢) . .

أحال إلى رسالته الأولى وعاد يتحدث ببطء . .

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(٣) . .

صرف الملك رسل الملكة بعد تهديده الذى بدا أمام أعينهم فاجعا وحاسما فى نفس الوقت . ورجا رسل الملكة بعد ما رأوه أن ينتظر الملك سليمان زيارة بلقيس بنفسها . . رجوه أن ينتظر حتى تجيئه الملكة فى مهمة سلام . وصل رسل بلقيس إلى سبأ . . وهناك هرعوا إلى الملكة وهم بتراب السفر وحدثوها أن بلادهم فى أزمة . . حدثوها عن قوة سليمان واستحالة صد جيشه . . أفهموها أنها ينبغى أن تزوره وتترضاه . . وجهزت الملكة نفسها وبدأت رحلتها نحو مملكة سليمان . .

جلس سليمان فى مجلس الملك وسط رؤساء قومه ووزرائه وقادة جنده وعلمائه . .

كان يفكر فى بلقيس . . يعرف أنها فى الطريق إليه . . تسوقها الرهبة لا الرغبة ، ويدفعها الخوف وليس الاقتناع . . ويفكر سليمان قليلا فى عبادتها للشمس ، يفكر فى المعلومات التى حملتها إليه أجهزة مخابراته عن تقدمها فى الفنون والعلوم . . ويتساءل سليمان بينه وبين نفسه أيكون التقدم هو الذى عاقها عن الحق؟

أتكون قد فرحت بما وصلت إليه من قوة وتصورت أن القوة هى التقدم . . ؟

ويقرر سليمان بينه وبين نفسه أن يبهرها بتقدمه ، لتعرف أن الإسلام الذى يدعوها إليه ، هو الذى يستطيع احتواء التقدم الحقيقى والقوة الحقيقية ، ولتقارن بين عقيدتها فى عبادة الشمس ، وبين النقطة التى وصلت إليها فى الصناعة والفنون والعلوم ، وتعقد موازنة بين هذا كله ، وعقيدة سليمان وما وصل إليه من تقدم .

---

(١) الآية ٣٦ سورة النمل مكية .

(٢) الآية ٣١ سورة النمل مكية .

(٣) الآية ٣٧ سورة النمل مكية .

كانت أجهزة مخابرات الملك سليمان قد حدثته أن أعجب العجائب فى مملكة سبأ ، هو عرش الملكة بلقيس . . كان مصنوعا من الذهب والجواهر الكريمة ، وكانت حجرة العرش وكرسى العرش آيتين فى فنى الصناعة والسبك . . وكانت الحراسة لا تغفل عن العرش لحظة . . وإذن . . يحضر لها سليمان عرشها هنا . . فى مملكته ، لتجلس عليه حين تجيء ، يريد أن يبهرها بقدرته التى يستمدها من إسلامه . . لتسلم هى الأخرى . . دارت هذه الخواطر فى نفس سليمان فرفع رأسه والتفت لرجاله .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (١) . .

انظر كيف تشى عبارته بما يفكر فيه . . إن أفكاره كلها تدور حول إسلام عبدة الشمس . . حول هدايتهم إلى الله . كان أول من أجاب سليمان عفريتا من الجن الذى سخرهم الله تعالى له :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾(٢) .

كان سليمان يقوم من مقامه بعد ساعة أو ساعتين . . وقد تعهد الجنى أن يحضره قبل ذلك . . ونحن مع مجلس سليمان فى فلسطين . . والعرش فى اليمن ، والمسافة بين العرش ومجلس سليمان تزيد على آلاف الأميال . . وأقوى الطائرات النفاثة التى نعرفها اليوم لا تستطيع أن تذهب وتجيء فى ساعة .

غير أن الأمر هنا يتعلق بقوة الجن المجهولة .

لم يعلق سليمان بشيء على ما قاله عفريت الجن . . ويبدو أنه كان ينتظر أن يسمع عرضا يحضر فيه عرش بلقيس أسرع من ذلك . . التفت سليمان نحو واحد هناك يجلس فى الظل .

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾(٣) .

---

(١) الآية ٣٨ سورة النمل مكية . (٢) الآية ٣٩ سورة النمل مكية .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النمل .

لم يكد « الذى عنده علم من الكتاب » يقول جملته حتى كان العرش مستقرا عند سليمان . . استغرق إحضاره أقل من رمشة العين حين تغلق وتفتح . .

لم يكشف السياق القرآنى عن شخصية من أحضر العرش . . اكتفى بالنص على أنه عنده علم من الكتاب . . لم يبين لنا أهو أحد الملائكة ، أو إنسان أو جن ، أيضا أبهم السياق القرآنى كنه هذا الكتاب الذى يؤدى العلم بما فيه لمثل هذه القدرات الخارقة .

ترك السياق القرآنى الاسم وحقيقة الكتاب غارقين فى غموض كثيف مقصود . . نحن أمام سر معجزة كبرى وقعت من واحد كان يجلس فى مجلس سليمان . . والأصل أن الله يظهر معجزاته فحسب ، أما سر وقوع هذه المعجزات فلا يدريه إلا الله . . وهكذا يورد السياق القرآنى القصة لإيضاح قدرة سليمان الخارقة ،وهى قدرة يؤكدها وجود هذا العالم فى مجلسه ، بعدها يصير من الفضول أن يسأل أحد : من يكون هذا الذى عنده علم من الكتاب؟ أهو جبريل عليه السلام أم آصف بن برخيا أم مخلوق آخر؟ من الفضول أيضا أن نسأل عن هذا الكتاب . . وهل استخدم من يعلم بما فيه اسم الله الأعظم لإحضار العرش أم لا . . ؟

كل هذه الأبحاث فضول وترف عقلى وقد أبهمها السياق القرآنى فلا معنى للخوض فى تفاصيلها الغامضة . هذا هو العرش ماثل أمام سليمان . تأمل تصرف سليمان بعد هذه المعجزة . . لم يستخفه الفرح بقدرته ، ولم يزهه الشعور بقوته ، وإنما أرجع الفضل لمالك الملك . . وشكر الله الذى يمتحنه بهذه القدرة ، ليرى أيشكر أم يكفر .

شكر سليمان خالقه أولا . . ثم تأمل عرش الملكة بعد ذلك . . كان العرش آية فى فن الصناعة ، لكنه كان فى نهاية الأمر يبدو شيئا عاديا إلى جوار عظمة الصناعة التى يقوم بها الإنس والجن فى مملكة سليمان .

تأمل سليمان عرش الملكة طويلا ثم أمر بتغييره . . أمر بإجراء بعض التعديلات عليه ، ليمتحن بلقيس حين تأتي ، ويرى هل تهتدى إلى عرشها أم تكون من الذين لا يهتدون .

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴾(١) .

---

(١) الآية ٤١ سورة النمل مكية .

أمر سليمان ببناء قصر يستقبل فيه بلقيس .

اختار مكانًا رائعًا على البحر وأمر ببناء القصر بحيث يقع معظمه على مياه البحر ، وأمر أن تصنع أرضية القصر من زجاج ثمين شديد الصلابة ، وعظيم الشفافية فى نفس الوقت ، لكى يسير السائر فى أرض القصر ويتأمل تحته الأسماك الملونة وهى تسبح ، ويرى أعشاب البحر وهى تتحرك .

تم بناء القصر ، ومن فرط نقاء الزجاج الذى صنعت منه أرض حجراته ، لم يكن يبدو أن هناك زجاجًا . تلاشت أرضية القصر فى البحر وصارت ستاراً زجاجيا خفيا فوقه .

أخبر الهدهد سليمان أن بلقيس قد بلغت مشارف مملكته . . جاءت بلقيس أخيراً . .

يتجاوز السياق القرآنى استقبال سليمان لها إلى موقفين وقعا لها بتدبيره :

- موقفها أمام عرشها الذى سبقها بالمجىء ، وقد تركته وراءها وعليه الحراس .
- موقفها أمام أرضية القصر البللورية الشفافة التى تسبح تحتها الأسماك .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (١) . .

تصور الآية موقف الحوار بين سليمان وبلقيس . نظرت بلقيس إلى عرشها فرأته عرشها تمامًا . . وليس عرشها تمامًا . إذا كان عرشها فكيف سبقها إلى المجىء . . ؟ وإذا لم يكن عرشها فكيف أمكن تقليده بهذه الدقة . . ؟ قال سليمان وهو يراها تتأمل العرش : ﴿أهكذا عرشك﴾ ؟

قالت بلقيس بعد حيرة قصيرة : ﴿كأنه هو﴾ !

قال سليمان : ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ .

توحى عبارته الأخيرة إلى الملكة بلقيس أن تقارن بين عقيدتها وعلمها ، وعقيدة سليمان المسلمة وحكمته . . إن عبادتها للشمس ، ومبلغ العلم الذى هم عليه ، يصابان بالخسوف الكلى أمام علم سليمان وإسلامه .

لقد سبقها سليمان إلى العلم بالإسلام ، بعدها سار من السهل عليه أن يسبقها فى العلوم الأخرى ، هذا ما توحى به كلمة سليمان لبلقيس . .

---

(١) النمل : ٤٢ .

أدركت بلقيس أن هذا هو عرشها ، قد سبقها إلى المجيء ونكرت فيه أجزاء وغيرت أجـزاء وهى لـم تزل تقطع الطريق لسليـمـان . . أى قـدرة يملكهـا هذا النبي الملك سليمان؟!

انبهرت بلقيس بما شاهدته من إيمـان سليمان وصلاته لله ، مثلما انبهرت بما رأتـه من تقـدمـه فى الصناعـات والفنون والعلوم . . وأدهشـهـا أكـثـر ، هـذا الاتـصـال العميق بين إسلام سليمـان وعلمـه وحـكمته :

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾[1] .

انتهى الأمر واهتزت داخل عقلها آلاف الأشياء . . رأت عقيدة قومها تتهاوى هنا أمام سليمان ، وأدركت أن الشمس التى يعبدها قومها ليست غير مخلوق خلقه الله تعالى وسخره لعباده ، وانكسفت الشمس للمرة الأولى فى قلبها ، أضاء القلب نور جديد لا يغرب مثلما تغرب الشمس . . صارت مسألة إعلانها لهذا الإيمان مسألة وقت . وقد أحسنت بلقيس اختيار الوقت الذى أعلنت فيه إسلامها . قال تعالى :

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

قيل لبلقيس ادخلى القصر . فلما نظرت لم تر الزجاج ، ورأت المياه ، وحسبت أنها ستخوض البحر ، ﴿وكشفت عن ساقيها﴾ حتى لا يبتل رداؤها .

نبـهـهـا سليـمـان ـ دون أن ينظر ـ ألا تخـاف على ثيـابهـا من البلل . ليـست هناك مياه . ﴿إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ . . إنه زجاج ناعم لا يظهر من فرط نعومته .

اختارت بلقيس هذه اللحظة لإعلان إسلامها . اعترفت بظلمها لنفسها وأسلمت ﴿مع سليمان لله رب العالمين﴾ . وتابعها قومها على الإسلام .

أدركت أنها تواجه أعظم ملوك الأرض ، وأحد أنبياء الله الكرام .

أضاء وجه سليمان بابتسامة راضية للمرة الأولى منذ زارته بلقيس . .

ها هو ذا يحقق مجده الحقيقى ، وينشر نور الإسلام فى الأرض .

---

(١) الآية ٤٣ سورة النمل مكية .
(٢) الآية ٤٤ سورة النمل مكية .

يسكت السياق القرآنى عن قصة بلقيس بعد إسلامها . . ويقول المفسرون إنها تزوجت سليمان بعد ذلك . . ويقال إنها تزوجت أحد رجاله . . أحبته وتزوجته ، ويقال إن بعض ملوك الحبشة من نسل هذا الزواج . . ونحن لا ندرى حقيقة هذا كله . لقد سكت القرآن الكريم عن ذكر هذه التفاصيل التى لاتخدم قصة سليمان . . ولانرى نحن داعيًا للخوض فيما لا يعرف أحد .

عاش سليمان وسط مجد دانت له فيه الأرض . . ثم قدر الله تعالى عليه الموت فمات . ومثلما كانت حياة سليمان قمة فى المجد الذى يمتلئ بالعجائب والخوارق . . كان موته آية من آيات الله تمتلئ بالعجائب والخوارق . وهكذا جاء موته منسجمًا مع حياته ، متسقًا مع مجده ، جاء نهاية فريدة لحياة فريدة وحافلة . قال تعالى فى سورة سبأ عن موت سليمان :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (١) .

كان تسخير الجن لسليمان واشتغالهم له واتصالهم به ورؤية الناس لهذا كله سببًا فى فتنة الناس فى موضوع معين ، وقد وضع موت سليمان حدا لهذه الفتنة .

لا نعرف من الذى ادعى أن الجن تعلم الغيب . أهو شيطان شقى ، أم جنى ساذج ، أم بشر مخدوع . . ؟ لا نعرف المسئول عن انطلاق هذه الشائعة الخاطئة . . كل مانعرفه أنها انتشرت واستفحلت ووجدت آذانا صاغية من بعض الناس والجن . . ولعل الناس قالوا لأنفسهم : مادامت الجن تقوم بكل هذه الأعمال الخارقة ، فما الذى يمنعهم من معرفة الغيب، وهو عمل خارق . . ؟ وأغفل الناس أن معرفة الغيب مسألة تستحيل على الجن والإنس والأنبياء وكل الخلائق .

لا يعرف الغيب إلا صاحبه ، سبحانه وتعالى ، وحده . . وقد قدر الله تعالى أن يكون موت سليمان عليه الصلاة والسلام منطويا على نسف هذه الفكرة . فكرة معرفة الجن للغيب . . وكان الجن يعملون لسليمان طالما هو حى . . فلما مات انكسر تسخيرهم له ، وأعفوا من تبعة العمل معه .

وقد مات سليمان دون أن يعلم الجن ، فظلوا يعملون له ، وظلوا مسخرين لخدمته ، ولو أنهم كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين .

---

(١) الآية ١٤ سورة سبأ مكية .

دخل سليمان يوما محرابه للاعتكاف والعبادة والصلاة . لم يكن هناك أحد يجرؤ على اقتحام خلوته فى محرابه . . وكان المحراب يقع على قمة جبل ، وقد صنعت جدرانه من البللور الذى يكشف ما وراءه . وجلس سليمان يوما متكئا على عصاه واستغرق فى التفكير . .

راح يذكر الله تعالى حتى نعس . . هى لحظة واحدة وبعدها خرج ملك الموت عليه السلام من محرابه . .

مات سليمان . . كان متكئا على عصاه فظل على وضعه متكئًا على العصا . ورآه الجن فظنوا أنه يصلى واستمروا فى عملهم . . ومرت أيام طويلة . . ثم جاءت دابة الأرض ، وهى نملة تأكل الخشب ، وبدأت تأكل عصا سليمان . كانت جائعة فأكلت جزءا من العصا . استمرت النملة تأكل العصا أيامًا . . كانت تأكل الجزء الملامس للأرض ، فلما ازداد ما أكلته منها اختلت العصا وسقطت من يد سليمان . . اختل بعدها توازن الجسد العظيم فهوى إلى الأرض . . ارتطم الجسد العظيم بالأرض فهرع الناس إليه . .

أدركوا أنه مات من زمن . . تبين الجن أنهم لا يعلمون الغيب . . وعرف الناس هذه الحقيقة أيضًا . لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ، مالبثوا يعملون وهم يظنون أن سليمان حى ، بينما هو ميت منذ فترة . .

وهكذا مات نبى الله سليمان . . وهو جالس يصلى ويذكر الله فى محرابه . . انتشر الخبر كالحريق فى الأرض . . وشيعت الناس والطيور والوحوش جنازة النبى الملك سليمان . .

أظللت نعشه آلاف الطيور الباكية . . وسارت فى جنازته الوحوش وقد انكسر شرها من الحزن . . كانت الطيور تبكى سليمان ، وتبكى نفسها فى الوقت نفسه . .

انتهى الأمر ولن يعرف لغتها بعد الآن فى الأرض أحد . . مات من كان يفهم منطق الطير . . وما أقسى الحياة وسط من لا يفهم منطقنا . .

هيكل سليمان

كان هيكل سليمان فى أورشليم هو مركز العبادة اليهودية، ورمز تاريخ اليهود، وموضع فخارهم وزهوهم . . وقد شيده الملك سليمان وأنفق ببذخ عظيم على بنائه وزخرفته . . حتى لقد احتاج فى ذلك إلى أكثر من ١٨٠ ألف عامل [سفر الملوك الأول] . وقد أتى له سليمان بالذهب من ترشيش ، وبالخشب من لبنان ، وبالأحجار الكريمة من اليمن ، ثم بعد سبع سنوات من العمل المتواصل تكامل بناء الهيكل ، فكان آية من آيات الدنيا فى ذلك الزمان .

وامتدت يد الخراب إلى الهيكل مرات عدة ، إذ كان هدفا دائمًا للغزاة والطامعين ينهبون ما به من كنوز ، ثم يشيعون فيه الدمار [سفر الملوك الثانى] . . ثم قام أحد الملوك بتجديد بنائه تحببا فى اليهود . . فاستغرق بناء الهيكل هذه المرة ٤٦ سنة ، أصبح بعدها صرحا ضخما تحيط به ثلاثة أسوار هائلة . . وكان مكونا من ساحتين كبيرتين : إحداهما خارجية والأخرى داخلية ، وكانت تحيط بالساحة الداخلية أروقة شامخة تقوم على أعمدة مزدوجة من الرخام ، وتغطيها سقوف من خشب الأرز الثمين . وكانت الأروقة القائمة فى الجهة الجنوبية من الهيكل ترتكز على ١٦٢ عمودا ، كل منها من الضخامة بحيث لا يمكن لأقل من ثلاثة رجال متشابكى الأذرع أن يحيطوا بدائرته . وكان للساحة الخارجية من الهيكل تسع بوابات ضخمة مغطاة بالذهب . وبوابة عاشرة مصبوبة كلها ـ على الرغم من حجمها الهائل ـ من نحاس كورنثوس . وقد تدلت فوق تلك البوابات كلها زخارف على شكل عناقيد العنب الكبيرة المصنوعة من الذهب الخالص ، وقد استمرت هدايا الملوك للهيكل حتى آخر زمانه [سفر الملوك الأول]، فكان يزخر بالكنوز التى لا تقدر بثمن . .

كان الغرض الأصلى من بناء هيكل سليمان هو عبادة الله سبحانه وتعالى فيه . كان الهيكل مسجدا للموحدين المؤمنين . . ولم يكن رونقه وعظمة بنائه ليصرفا الناس حين أقامه سليمان عن عبادة الله ودعوته فيه . . .

ولعل عظمة البناء كانت رمزا لقوة الدولة وعظمة عقيدتها . .

غير أن تتابع الأيام وتوالى الليالى لا يترك شيئا على حاله . . والعادة أن الدعوات لله تبدأ وليدة ثم تكبر ثم تزدهر ثم تبدأ خط انحدارها نحو التمسك بالقشور وهجر الجوهر .

ولقد حدث لهيكل سليمان ما حدث لغيره من أماكن العبادة .

كان الهيكل رمزا للتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له . . ثم مرت السنوات وتحول الهيكل إلى قشرة لامعة من الذهب تخفى تحتها ما صار إليه أمر الديانة اليهودية .

اعتدى اليهود على قدسية الهيكل . وأهانوا رونقه وبهاءه ، وأحالوه إلى سوق للبيع والشراء . فتزاحم فى ساحته بائعو الثيران والكباش والحمام ، حى امتلأ بهم الرواق وأصبح لقذارته أشبه بمربط البهائم ، واكتنفت مداخل الهيكل مكاتب الصيارفة التى يتعالى منها رنين النقود مختلطا بصوت المساومات والناس يستبدلون ما بيدهم من دراهم [إنجيل متى] . .

وكان اليهود يقيمون وزنا كبيرا للنقود فى حياتهم ، وساعدت قسوة القلوب وصلابتها وسقوط الإيمان باليوم الآخر من النفوس . . ساعد هذا كله على دمغ المجتمع بمادية صارخة ، وتسللت هذه المادية إلى عبادة اليهود ، فصار تقديم القرابين وشراؤها من الهيكل هما طريق الغفران الوحيد . . وحين فقد الهيكل حقيقة جوهره . وصار سوقا تجارية ، بعث الله عليه من دمر الديار ودمره معها . قال تعالى فى شأن خراب بيت المقدس وهدم هيكل سليمان :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾[1] .

---

(١) الآيات ٤ إلى ٨ سورة الإسراء مكية .

تشير آيات الحق إلى قانون أزلى لا يتخلف فى حياة الشعوب والأمم . . تظل هذه الأمم قوية ما ظلت صلتها بالله صحيحة وقوية ؛ فإذا هجر الناس جوهر القوة، وهو الاستمداد من الله، وانصرفوا إلى مظاهر العبادة دون حقيقتها ، وخطف أبصارهم بريق الترف ، وتاجروا بالديانة بدل خضوعهم لله . . إذا وقع هذا بدأ عصر انحدار الأمم . . وساق الله إليها من يجوس خلال الديار .

وتأمل أنت جرس التعبير وموسيقاه . . وكيف يوحى بالخراب العظيم الشامل .

يذكر المفسرون ما كان من أمر هدم هيكل سليمان وخراب بيت المقدس فيقولون : أوحى الله تعالى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له أرميا حين ظهرت فيهم المعاصى : أن قم بين قومك فأخبرهم أن لهم قلوبا ولا يفقهون وأعينا ولا يبصرون ، وآذانا ولا يسمعون .

ويمضى الوحى إلى النبى فيخبره أن يسأل بنى إسرائيل :

هل سعد أحد ممن عصى الله بمعصيته؟ وهل شقى أحد ممن أطاع الله بطاعته ؟

إن الدواب تذكر أوطانها وتعود إليها ، أما هؤلاء القوم فهم يهجرون وطنهم الحقيقى ، وهو جوهر التوحيد . هم إذن شر من الدواب . .

ويمضى الوحى مصورا ما كان عليه أمر بنى إسرائيل فيقول : إن الأحبار أنكروا حق الله تعالى . والقراء عبدوا غير الله تعالى . والنساك لم ينتفعوا بما علموا . .

أما الولاة فكذبوا على الله وعلى أنبيائه . خزنوا المكر فى قلوبهم وعودوا ألسنتهم الكذب . . وتمضى الكلمات الإلهية مفصلة ما كان عليه الأحبار والقراء والنساك والولاة :

اصطنع الأحبار آلهة من عباد الله ، وأقنعوا الناس، بعبادة الناس فدان لهم عباد الله بطاعة لا تنبغى إلا لله عز وجل . أما الملوك والأمراء فبطروا نعمة الله وأمنوا مكره وغرتهم الدنيا، فنبذوا كتاب الله ونسوا عهده ، فهم يحرفون كتاب الله [يقصد التوراة] ويفترون على رسله ويقتلونهم بغير الحق .

أما القراء والفقهاء فيدرسون ما يتخيرون ، يأخذون بعض الكتاب ويتركون بعضه ، وينقادون للملوك ويتابعونهم على البدع التى يخترعونها فى دين الله ويطيعونهم فى معصية الله . ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهد الله عز وجل .

أما أولاد الأنبياء فمقهورون مفتونون ، يخوضون مع الخائضين ويتمنون أن ينصرهم الله مثلما نصر آباءهم ، ولا يذكرون ورع آبائهم ولا كيف بذلوا دماءهم وصبروا وصدقوا حتى أعز الله أمره وأظهر دينه .

تمضى نبوءة أرميا فيحدث قومه أن الله تعالى يعطيهم فرصة أخيرة لليقظة والعودة لدينه وتوحيده . . وإلا بعث الله تعالى عليهم ملكا جبارا، عساكره كقطع السحاب يعيدون العمران خرابا ويتركون القرى موحشة . .

يقول ابن كثير نقلا عن لفظ ابن عساكر : « فيا ويل إيليا وسكانها ، كيف أذللهم للقتل ، وأسلط عليهم الأسر ، وأعيد بعد لجب الأعراس صراخا ، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد شرفات القصور مساكن السباع ، ولأدوسنهم بألوان العذاب ، ثم لآمرن السماء فتكون طبقا من حديد ، والأرض سبيكة من نحاس ، فإن أمطرت لم تنبت الأرض ، وإن أنبتت شيئا فى خلال ذلك فبرحمتى للبهائم ، فإن زرعوا فى خلال ذلك شيئا سلطت عليه الآفة ، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة ، فإن دعوا لم أجبهم ، وإن سألوا لم أعطهم ، وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرعوا صرفت وجهى عنهم » .

ساق إيليا نبوءته لقومه ودعاهم إلى الله وخوفهم بالخراب الشامل ، واستقبل اليهود دعوته بالتكذيب والعصيان ، واتهموه بالكذب وقالوا له : كيف تكذب وتزعم أن الله سيعطل أرضه ومساجده ؟! فمن يعبده حين لا يبقى على الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب ؟! لقد جننت يا إيليا . وانتهى الصراع بين إيليا وقومه إلى سجنه . . فى هذا الوقت نفسه . . كان جيش بختنصر ينحدر نحوهم . . واستيقظ اليهود يوما على وقع سنابك الخيل وأزيز السهام ورائحة الحرائق . وحاصر الجيش المهاجم أسوار المدن . . ثم تهاوت الأبواب تحت نعال المهاجمين ، ودخلوا القرى والمدن . . جاسوا خلال الديار . حكم قائد الجيش المهاجم فى اليهود بحكم الجاهلية وبطش بهم بطش الجبارين . قتل منهم الثلث ، وأسر الثلث ، وترك العجائز والشيوخ ، وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس ودمر الهيكل ، وقتل الرجال وخرب الحصون ، وهدم دور العبادة وحرق التوراة وقتل علماءها وفقهاءها فلم يبق منهم أحد . وقذف الكناسات فى بيت المقدس وذبح فيه الخنازير وأشعل النار فى كل شيء ، ثم استدار عائدا يسوق الأسرى أمامه . . مئات الألوف من النساء والأطفال .

وران الخراب على المنطقة كلها . . لم تعد مساكن اليهود تصلح لأحد غير البوم والوحوش . . وتفرق من فر من بنى إسرائيل فى البلاد فى ذلك الزمان . وظل المكان مقفرا لزمن طويل حتى أذن الله تعالى لمن بقى من أحفاد القوم بالعودة فعادوا . وخلال هذه الأحداث الدامية كلها . . كان عزير نائما وميتا . . وكان هو الوحيد الذى يحفظ التوراة .

عزير
[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١) .

الشهير عند جمهور السلف والخلف أن عزيرا هو بطل هذه القصة التى يحكيها الحق تبارك وتعالى . . ويقال إن عزيرا كان نبيا من أنبياء بنى إسرائيل . وكان يحفظ التوراة ، ثم وقعت له قصة مدهشة ، فقد أماته الله مائة عام ثم بعثه . وخلال هذا القرن الكامل الذى نام فيه عزير ، وقعت حرب بختنصر ، التى أحرق فيها التوراة ، فلم يبق منها شىء إلا ما حفظت الرجال . وقد كانت معجزة عزير مصدر فتنة بالغة لقومه .

كان اليوم حارا . . أحس فيه كل شىء بالعطش . . وكانت القرية التى يعيش فيها « عزير » تمضى يوما هادئا من أيام الصيف الذى تقل فيه الحركة . . وفكر « عزير » أن حديقته تحتاج إلى الرى . . وكانت الحديقة بعيدة ، والطريق إليها شاقا ، تتوسطه مقبرة كانت قبل ذلك مدينة عامرة بسكانها ثم امتدت إليها يد الموت فذهب ضجيج الحياة وبقى صمت القبور .

وفكر « عزير » فى نفسه : إن أشجار حديقته لابد أنها تحس العطش ، وقرر أن يخرج ليسقيها . . وخرج العبد الحكيم الصالح أحد أنبياء بنى إسرائيل من قريته والشمس فى أول النهار . . ركب حماره وبدأ رحلته . .

---

(١) الآية ٢٥٩ مدنية .

ظل يسير حتى وصل إلى الحديقة . . اكتشف أن أشجارها عطشى ، وأرضها مشققة وجافة . . سقى الحديقة ، وقطف من حقل التين بعض ثمار التين ، وأخذ من تكعيبة العنب بعض العنب ، ووضع التين فى سلة ، والعنب فى سلة ، وانصرف عائدا من الحديقة .

راح الحمار يسير فى الحر وهو يحمل « عزيرا » . وكان « عزير » يفكر أثناء سيره فى مهامه التى عليه أن يؤديها غدا . كانت أول هذه الواجبات هى إخراج التوراة من مخبئها ووضعها فى المعبد . . فكر أن عليه أن يحمل طعام الأبقار إليها ، وفكر فى ابنه الطفل وتذكر ابتسامته الحلوة حين يراه ، وراح يسرع فى سيره ويستحث الحمار حتى قطع نصف الطريق ، ووصل إلى المقبرة . .

كانت الحرارة قد اشتدت لدرجة كبيرة ، وكان الحمار قد تعب من السير ، وراح جسده المغطى بالعرق يلمع تحت أشعة الشمس ، فيبدو الحمار كما لو كان خارجا من النهر . .

وتباطأ الحمار فى سيره حين وصل إلى المقابر . . وقال « عزير » لنفسه : أهبط قليلاً لأستريح وأريح الحمار وأتناول طعام الغداء . .

وهبط « عزير » فى إحدى المقابر الخربة المهدمة ، وكانت كل القرية مقابر خربة مهدمة . وأخرج صحنا كان معه وجلس فى الظل . ربط الحمار فى حائط قريب وأخرج بعض الخبز الجاف ووضعه إلى جواره وعصر فى صحنه العنب ، ثم ألقى الخبز الجاف فى العصير وأسند ظهره للحائط ومدد قدميه قليلاً ، وجلس ينتظر أن يفقد الخبز قسوته وجفافه وهو فى عصير العنب . . وطاف « العزير » ببصره حوله ، وراح يتأمل المنظر . .

كل شىء صامت وميت وخراب . . البيوت تهدمت معظم جدرانها ، وبقيت أعمدة هناك تتهيأ للسقوط . . الأشجار القليلة فى المنطقة صفراء يقتلها العطش . . عظام الموتى الباقية ممن دفنوا هناك تحولت إلى ما يشبه التراب . . والصمت يعشش فى المكان ، وينشر أجنحته الساكنة على الأرض . وأحس « عزير » بقسوة الموت وثقل الخراب . . فتساءل داخل نفسه :

﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[1] ؟!

تساءل كيف يحيى الله هذه العظام بعد موتها ، وتحولها إلى مايشبه التراب . لم يكن

---

(١) من الآية ٢٥٩ سورة البقرة مدنية .

«عزير» يشك فى أن الله سيحيى هذه العظام ، إنما قالها تعجبا ودهشة . . ولم يكد «عزير» يقول كلماته حتى مات . .

أرسل الله إليه ملك الموت عليه السلام ، فقبض روحه . . وتمدد الحمار فى مكانه حين رأى صمت صاحبه وسكون جسده . . وظل الحمار ممددا فى مكانه حتى غربت الشمس وجاء الصباح . . وحاول الحمار أن ينهض وينصرف ولكنه كان مقيدا ، وظل فى مكانه لايستطيع التخلص من قيده حتى مات من الجوع . وتمدد الحمار على الأرض إلى جوار صاحبه ، واستبطأ أهل القرية « عزيرا » . . خرجوا يبحثون عنه . .

ذهبوا إلى حديقته فلم يجدوه هناك . عادوا إلى القرية فلم يعثروا له على أثر ، وقرروا تكوين جماعات للبحث عنه ، وراحت هذه الجماعات تبحث فى كل اتجاه فلم تجد «عزيرا» ولم تجد حماره . . وكانت هذه الجماعات تمر على المقابر التى مات فيها «عزير» فلا تتوقف عندها . إن كل شىء صامت هنا وميت ولو كان «عزير» موجودا لسمعوا صوته ، ثم إن هذه المقابر المهدمة تخيفهم ، ولهذا لم يبحثوا فيها بجد . ومرت أيام وأيام ، ويئس الناس من عودة «عزير» ، وتأكد أبناؤه أنهم لن يروه مرة ثانية ، وعرفت زوجته أنها ستحرم رعايته لأبنائه وحبه لها ، وجلست تبكيه طويلا . غير أن الزمن بطبيعته يجفف الدموع كما يخفف الألم ، ومسح الناس دموعهم ، وبدءوا ينسون عزيرا وينشغلون فى مشكلات الحياة اليومية .

ومرت سنوات ، ونسى الناس « عزيرا » ما عدا أصغر أبنائه ، وامرأة كانت تعمل شغالة فى بيتهم ، كان «عزير» يعطف عليها ، وكان عمرها عشرين عاما حين خرج «عزير» من القرية . ومرت عشر سنوات ، عشرون سنة ، ثمانون سنة ، تسعون سنة ، حتى انتهى قرن بأكمله . . مرت مائة عام . وشاء الله تعالى أن يستيقظ «عزير» . أرسل الله إليه ملكا أضاء النور فى قلبه ، ليرى كيف يبعث الله الموتى .

كان «عزير» ميتا منذ مائة عام . . وبرغم ذلك فها هو ذا يتحول من التراب إلى العظام إلى اللحم ، إلى الجلد ، ثم يبعث الله فيه الحياة بالأمر فينهض جالسا فى مكانه .

جلس «عزير» فى مكانه ، فرك عينيه ، استيقظ من موت استمر مائة عام . . تجول ببصره حوله فرأى المقابر حوله ، وتذكر أنه نام . . آه . . كان عائدا من حديقته إلى القرية فنام فى المقابر . . نعم . . هذا ماحدث تماما . . كانت الشمس تتهيأ للغروب ، وكان هو قد نام فى الظهيرة ، . قال لنفسه : لقد نمت طويلا ، ربما من الظهيرة إلى المغرب .

سأله الملك الذى أمره الله بإيقاظه :

﴿ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ ؟ (1) .

إن الملك يسأله : كم ساعة نام ؟ وأجابه :

﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾(2) .

قال له الملك الكريم :

﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾ . . (3) .

أنت نائم منذ مائة سنة . . ميت منذ مائة عام . . أماتك الله وبعثك لتعرف الجواب عن سؤالك حين تعجبت ودهشت من بعث الموتى .

أحس «عزير» بالدهشة تنسحب من نفسه ويحل بدلها إيمان عميق بقدرة الخالق .

قال الملك وهو يشير إلى طعام «عزير» :

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾(4) .

نظر «عزير» إلى التين فوجده كما هو . . لم يتغير لونه ولا طعمه ولم يفسد . لقد مرت عليه مائة سنة فكيف بقى الطعام على حاله ؟! ونظر «عزير» إلى الصحن الذى عصر فيه العنب ووضع فيه الخبز الجاف ، فوجده على حاله الذى تركه عليه . . كما هو . . مازال شراب العنب صالحا للشرب ، وما زال الخبز ينتظر أن يفقد قسوته وجفافه وهو مغموس فى عصير العنب .

وامتلأ «عزير» بالدهشة . . كيف تمر مائة سنة على عصير العنب ويظل على حاله بغير تغيير . . بينما هو يتغير بعد ساعات ويفسد . . ؟! وكأنما أحس الملك أن «عزيرا» لم يصدق ماقاله . . ولهذا أشار الملك إلى الحمار . . قال «لعزير» :

﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾(5) .

ونظر «عزير» إلى حماره فلم يجد غير تراب عظام حماره . قال له الملاك : هل تريد أن ترى كيف يحيي الله الموتى . . ؟

انظر إلى الأرض . . إلى التراب الذى كان قبل ذلك حمارك . .

نادى الملك عظام الحمار ، فأجابت ذرات التراب ، وراحت تتجمع وتتسابق من كل

(1، 2، 3، 4) من الآية 259 ، سورة البقرة . (5) من الآية 259 ، سورة البقرة .

ناحية حتى تكونت العظام . . أمر الملاك العروق ، والأعصاب ، واللحم ، أن تتكون . . وراح اللحم يكسو عظام الحمار و «عزير» ينظر . .

انتهى تكوين اللحم فنبت فوقه الجلد ، والشعر ، وعاد الحمار كما كان لحظة الموت . . جسدا بغير روح . . وأمر الملاك روح الحمار أن تعود إليه ، فعادت إليه ، ونهض الحمار واقفا ، رفع ذيله وبدأ ينهق . كان الحمار ميتا من الجوع هذه المرة . .

شاهد «عزير» هذه الآية الكبرى تقع أمامه ، شاهد معجزة الله فى بعث الموتى بعد تحولهم إلى عظام وتراب . . قال «عزير» بعد أن رأى المعجزة تقع أمامه :

﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١) . .

نهض «عزير» وركب حماره ، وانصرف عائدا إلى قريته . كان الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يجعل «عزيرا» آية للناس ، ومعجزة حية على صدق البعث وقيامة الأموات .

دخل «عزير» قريته ساعة الغروب . . أنكر فى قلبه هذا التحول الذى وقع فى القرية . . تغيرت البيوت والشوارع ، والناس ، والوجوه ، والأطفال . . لا يعرف أحدا هنا ولا يعرفه أحد . خرج «عزير» من القرية وعمره أربعون سنة ، ويعود إليها وعمره أربعون سنة ، عاد إليها كما خرج . . بعثه الله من موته كما كان عند موته ، شابا فى الأربعين ، لكن قريته عاشت مائة عام ، فتهدمت البيوت وتغيرت الشوارع والوجوه .

قال «عزير» لنفسه أبحث عن رجل عجوز أو امرأة عجوز تذكرنى .

ظل يبحث حتى عثر على خادمته التى تركها فى العشرين من عمرها . . كان عمرها الآن ١٢٠ سنة ، تهدمت قواها وسقطت أسنانها ، وراح بصرها ، وكانت تشبه مجموعة من العظام المكسوة بالجلد .

سألها «عزير» : أيتها العجوز الطيبة . . أين منزل عزير ؟

بكت المرأة وقالت : لم يعد أحد يذكره . . خرج منذ مائة عام فلم يعد . . فليرحمه . . الله . . قال «عزير» للمرأة : إننى أنا عزير . . ألا تعرفيننى . . ؟! لقد أماتنى الله مائة عام وبعثنى من الموت . .

قالت المرأة وهى لا تصدقه : كان عزير مستجاب الدعوة . . ادع الله لى أن أبصر وأمشى لأراك وأعرفك . .

---

(١) من الآية ٢٥٩ ، سورة البقرة .

ودعا لها «عزير» أن تبصر وتمشي ، فرد الله إليها بصرها وقوتها فعرفت أنه «عزير» . . وأسرعت تجرى فى البلدة كلها وهى تصرخ : إن عزيرا قد عاد . . ودهش الناس وظنوا أنها قد جنت . ثم اجتمع مجلس الحكماء والعلماء ، وكان فيهم ابن لابن عزير ، كان أبوه قد مات وكان الحفيد فى السبعين من عمره . . وكان جده وهو «عزير» فى الأربعين من عمره .

اجتمع مجلس العلماء والحكماء ، واستمعوا لقصة «عزير» ، ولم يعرفوا هل يصدقونه أم يكذبونه . ثم سأله أحد الحكماء : نسمع من آبائنا وأجدادنا أن «عزيرا» كان نبيا ، وكان يحفظ التوراة فى صدره . . وقد ضاعت التوراة فى حرب بختنصر . . أحرقها وقتل العلماء والقراء . . وقع هذا فى مائة العام التى تقول إنك مت فيها أو نمت . . لو كنت تحفظ التوراة لصدقنا أنك عزير .

أدرك عزير أنه لم يبق فى بنى إسرائيل من يحفظ التوراة . أدرك أن تواترها قد انقطع . . وكان عزير قد خبأها حماية من الأعداء . وجلس عزير في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فنسخ لهم التوراة . . نسخها حرفا بحرف حتى انتهى منها ، ثم قال لنفسه : أستخرج الآن التوراة التى دفنتها لأضاهيها على ماحدثت عنه القوم .

انطلق إلى ذلك الموضع فاستخرج التوراة ، وكان الورق قد تحلل وتعفن . . وأدرك لماذا أماته الله مائة عام ثم بعثه .

انتشرت أخبار معجزة عزير بين بنى إسرائيل . . وحملت المعجزة معها فتنة قاسية لقومه . ادعى ناس من قومه أن عزيرا ابن الله . .

قال تعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (١) . .

فى البداية ، قارنوا بين عزير وموسى وقالوا : لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب . أما عزير فجاءنا بها من غير كتاب . .

بعد هذه المقارنة الظالمة ، انتهوا إلى نتيجة خاطئة فنسبوا نبيهم بالبنوة إلى الحق عز وجل . . سبحان الله وتعالى علوا كبيرا على ذلك .

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾ (٢) . .

---

(١) من الآية ٣٠ سورة التوبة مدنية .

(٢) من الآية ٣٥ سورة مريم مكية .

زكـــريا
[عليه الصلاة والسلام]

كان لهذا العصر طعم غريب . صنعته آلاف الأشياء المختلفة المتعارضة التى عاشت معا فى صراع لا يهدأ . الإيمان بالله يضىء المسجد العظيم فى بيت المقدس ، على حين يعشش الكذب فى سوق اليهود المجاور ، الذى يبعد خطوات عن المسجد .

وكعادة الدنيا كان كل شىء يتصارع مع ضده . . الخير والشر ، النور والظلام ، الحقيقة والكذب ، الأنبياء والطغاة . . كل شىء كان يعيش صراعه من أجل البقاء .

وفى هذا العصر القديم . . كان هناك نبى . . وعالم عظيم يصلى بالناس . . كان اسم النبى «زكريا» عليه السلام . . أما العالم العظيم الذى اختاره الله للصلاة بالناس . فكان اسمه «عمران» . . عليه السلام . وكان عمران زوجا ، وكانت زوجته تتمنى أن تلد . .

وأشرق هذا الصباح على المدينة ، فخرجت زوجة «عمران» تطعم الطيور وشاهدت منظرا وقفت أمامه طويلا تتأمل . . كان هناك طائر يطعم ابنه الطفل فى فمه . . ويسقيه . ويأخذه تحت جناحه خوفا عليه من البرد . . وذكرها هذا المشهد بنفسها فتمنت على الله أن تلد . . ورفعت يديها وراحت تدعو خالقها أن يرزقها بطفل . واستجابت لها رحمة الله فأحست ذات يوم أنها حامل ، وملأها الفرح والشكر لله فنذرت ما فى بطنها محررا لله . .

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) . .

كان معنى هذا أنها نذرت لله أن يكون ابنها خادما للمسجد طوال حياته . . يتفرغ لعبادة الله وخدمة بيته . . وجاء يوم الوضع ووضعت زوجة عمران بنتا ، وفوجئت

---

(١) الآية ٣٥ سورة آل عمران مدنية .

الأم . كانت تريد ولدا ليكون فى خدمة المسجد والعبادة ، فلما جاء المولود أنثى قررت الأم أن تفى بنذرها لله برغم أن الذكر ليس كالأنثى . .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾(١) . .

سمع الله سبحانه وتعالى دعاء زوجة عمران ، والله يسمع مانقوله ، وما نهمس به لأنفسنا ، وما نتمنى أن نقوله ولا نفعل . . يسمع الله هذا كله ويعرفه . . سمع الله زوجة عمران وهى تخبره أنها قد وضعت بنتا ، والله أعلم بما وضعت ، الله هو وحده الذى يختار نوع المولود فيخلقه ذكرا أو يخلقه أنثى . . سمع الله زوجة عمران تسأله أن يحفظ هذه الفتاة التى سمتها مريم ، وأن يحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم .

﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾(٢) . .

واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء زوجة عمران ، وأم مريم ، تقبل الله مريم بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ، وشاءت رحمته أن تكون هذه الفتاة أفضل نساء العالمين ، وأن تكون أما لنبي يجيء ميلاده معجزة كميلاد آدم . . جاء آدم عليه السلام من غير أب أو أم ، وجاء عيسى عليه السلام من غير أب . . جاء من أم طاهرة لم تتزوج ولم يمسسها بشر .

أثار ميلاد مريم بنة عمران مشكلة صغيرة فى مبدإ الأمر . كان عمران قد مات قبل ولادة مريم . . وأراد علماء ذلك الزمان وشيوخه أن يربوا مريم . .

كل واحد يتسابق لنيل هذا الشرف . . أن يربى ابنة شيخهم الجليل العالم وصاحب صلاتهم وإمامهم فيها . . قال «زكريا» : أكفلها أنا . . هى قريبتى . . زوجتى هى خالتها . . وأنا نبى هذه الأمة وأولاكم بها . وقال العلماء والشيوخ : ولماذا لا يكفلها أحدنا . . ؟ لا نستطيع أن نتركك تحصل على هذا الفضل بغيراشتراكنا فيه .

وكادوا يختصمون لولا أن اتفقوا على إجراء قرعة . أى واحد يكسب القرعة هو الذى يكفل مريم ، ويربيها ، ويكون له شرف خدمتها ، حتى تكبر هى وتخدم المسجد وتتفرغ لعبادة الله . وأجريت القرعة . . وضعت مريم وهى مولودة على الأرض ، ووضعت إلى جوارها أقلام الذين يرغبون فى كفالتها . . وأحضروا طفلا صغيرا فأخرج الطفل قلم زكريا . .

---

(١) من الآية ٣٦ سورة آل عمران مدنية .

(٢) من الآية ٣٦ وآية ٣٧ سورة آل عمران مدنية .

قال زكريا : حكم الله لى بأن أكفلها .
قال العلماء والشيوخ : لا . . القرعة ثلاث مرات .
وراحوا يفكرون فى القرعة الثانية . . حفر كل واحد اسمه على قلم خشبى ، وقالوا : نلقي بأقلامنا فى النهر . . من سار قلمه ضد التيار وحده فهو الغالب .
قال تعالى :
﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (١) .

وألقوا أقلامهم فى النهر ، فسارت أقلامهم جميعا مع التيار ماعدا قلم «زكريا» . سار وحده ضد التيار . . وظن «زكريا» أنهم سيقتنعون ، ، لكنهم أصروا على أن تكون القرعة ثلاث مرات . قالوا : نلقى أقلامنا فى النهر ، القلم الذى يسير مع التيار وحده يأخذ صاحبه مريم .
وألقوا أقلامهم فسارت جميعا ضد التيار ما عدا قلم زكريا . .
وسلموا لـ «زكريا» ، وأعطوه مريم ليكفلها . .
وبدأ «زكريا» يخدم مريم ، ويربيها ويكرمها حتى كبرت . .
كان لها مكان خاص تعيش فيه فى المسجد . . كان لها محراب تتعبد فيه . . وكانت لا تغادر مكانها إلا قليلا . . يذهب وقتها كله فى الصلاة والعبادة . . والذكر والشكر والحب لله . .
وكان «زكريا» يزورها أحيانا فى المحراب . . وكان يفاجأ كلما دخل عليها أنه أمام شيء مدهش . يكون الوقت صيفا فيجد عندها فاكهة الشتاء ، ويكون الوقت شتاء فيجد عندها فاكهة الصيف . . ويسألها زكريا من أين جاءها هذا الرزق . . ؟
فتجيب مريم : إنه من عند الله . .
وتكرر هذا المشهد أكثر من مرة . .

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾(٢) . .

كان «زكريا» شيخا عجوزا ضعف عظمه ، واشتعل رأسه بالشعر الأبيض ، وأحس أنه لن يعيش طويلا . . وكانت زوجته وهى خالة مريم عجوزا مثله ولم تلد من قبل فى حياتها لأنها عاقر . . وكان «زكريا» يتمنى أن يكون له ولد يرث علمه ويصير نبيا ويستطيع أن يهدى قومه ويدعوهم إلى كتاب الله ومغفرته . .

---

(١) من الآية ٤٤ سورة آل عمران مدنية . (٢) من الآية ٣٧ سورة آل عمران مدنية

وكان «زكريا» لا يقول أفكاره هذه لأحد . . حتى لزوجته . . ولكن الله تعالى كان يعرفها قبل أن تقال . ودخل «زكريا» ذلك الصباح على مريم فى المحراب ، فوجد عندها فاكهة ليس هذا أوانها . .

سألها زكريا :

﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾؟

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [1] . .

قال «زكريا» فى نفسه : سبحان الله . . قادر على كل شىء . . وغرس الحنين أعلامه فى قلبه وتمنى الذرية .

وتذكرت رحمة الله «زكريا» فدعا ربه . .

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [2] .

سأل «زكريا» خالقه بغير أن يرفع صوته أن يرزقه طفلا يرث النبوة والحكمة والفضل والعلم . . وكان «زكريا» خائفا أن يضل القوم من بعده ولم يبعث فيهم نبى . .

واستجاب الله تعالى لزكريا .

لم يكد «زكريا» يهمس فى قلبه بدعائه لله حتى نادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب . . ونادته رحمة ربه .

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [3] .

فوجئ «زكريا» بهذه البشرى . . أن يكون له ولد لا شبيه له أو مثيل من قبل . . أحس «زكريا» من فرط الفرح باضطراب . . تساءل من موضع الدهشة :

---

(١) من الآيتين ٣٧ ، ٣٨ سورة آل عمران مدنية .

(٢) الآيات ٢ إلى ٦ سورة مريم مكية .

(٣) الآية ٧ من سورة مريم مكية .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾[1] . .

أدهشه أن ينجب وهو عجوز وامرأته لا تلد . .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾[2] . .

أفهمته الملائكة أن هذه مشيئة الله وليس أمام مشيئة الله إلا النفاذ . . وليس هناك شيء يصعب على الله سبحانه وتعالى . . كل شيء يريده الله يأمره بالوجود فيوجد . . وقد خلق الله «زكريا» نفسه من قبل ولم يكن له وجود . . وكل شيء يخلقه الله تعالى بمجرد المشيئة . .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[3] . .

امتلأ قلب «زكريا» بالشكر لله وحمده وتمجيده . . وسأل ربه أن يجعل له آية أو علامة .

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[4] . .

أخبره الله أنه ستجيء عليه ثلاثة أيام لا يستطيع فيها النطق . . سيجد نفسه غير قادر على الكلام . . سيكون صحيح المزاج غير معتل . . إذا حدث له هذا أيقن أن امرأته حامل ، وأن معجزة الله قد تحققت . . وعليه ساعتها أن يتحدث إلى الناس عن طريق الإشارة . . وأن يسبح الله كثيراً فى الصباح والمساء . .

وخرج «زكريا» يوما على الناس وقلبه مليء بالشكر ، وأراد أن يكلمهم فاكتشف أن لسانه لا ينطق . . وعرف أن معجزة الله قد تحققت . . فأومأ إلى قومه أن يسبحوا الله فى الفجر والعشاء . . وراح هو يسبح الله فى قلبه . .

البيضاء وهو يصلى لله شكرا على استجابته لدعوته ومنحه يحيى .

ولم يكن يحيى قد ولد بعد . . وكان موعد ولادته يقترب .

---

(١) الآية ٨ من سورة مريم مكية .
(٢) الآية ٩ من سورة مريم مكية .
(٣) الآية ٨٢ سورة يس مكية .
(٤) الآيتان ١٠ ، ١١ سورة مريم مكية .

يحيى
[عليه الصلاة والسلام]

قال تعالى فى سورة آل عمران :

﴿ هُنالك دعا زكريّا ربّهُ قال ربّ هبّ لي من لّدْنك ذُرّيّة طيّبة إنّك سّميعُ الدُّعاء (٣٨) فنادتْهُ الْملائكةُ وهُو قائمٌ يُصلي في الْمحْراب أنّ اللّه يُبشّرُك بيحْيىٰ مُصدّقا بكلمة مّن اللّه وسيّدا وحصُورا ونبيّا مّن الصّالحين ﴾[١] . .

وقال تعالى فى سورة مريم :

﴿ يا يحْيىٰ خُذ الْكتاب بقُوّة وآتيْناهُ الْحُكْم صبيّا (١٢) وحنانا مّن لّدُنّا وزكاة وكان تقيّا (١٣) وبرا بوالديْه ولمْ يكُن جبّارا عصيّا (١٤) وسلامٌ عليْه يوْم وُلد ويوْم يمُوتُ ويوْم يُبْعثُ حيا ﴾[٢] .

وقال تعالى فى سورة مريم :

﴿ يا زكريّا إنّا نُبشّرُك بغُلام اسْمُهُ يحْيىٰ لمْ نجْعل لّهُ من قبْلُ سميّا ﴾ [٣] .

هذا هو يحيى ، نبي الله الذى شهد الحق عز وجل له أنه لم يجعل له من قبل شبيها ولا مثيلا ، وهو النبي الذى قال الحق عنه : ﴿ وحنانا من لدنا ﴾

. . ومثلما أوتى الخضر علما من لدن الله ، أوتى يحيى حنانا من لدن الله ، والعلم

---

(١) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة آل عمران .

(٢) الأيات ١٢-١٥ ، سورة مريم مكية .

(٣) الآية ٧ من سورة مريم .

مفهوم، والحنان هو العلم الشمولى الذى يشيع فى نسيجه حب عميق للكائنات ورحمة بها ، كأن الحنان درجة من درجات الحب الذى ينبع من العلم .

ولقد كان يحيى فى الأنبياء نموذجا لا مثيل له فى النسك والزهد والحب الإلهى . . هو النبى الناسك .

كان يضىء حبا لكل الكائنات ، وأحبه الناس وأحبته الطيور والوحوش والصحارى والجبال ، ثم أهدرت دمه كلمة حق قالها فى بلاط ملك ظالم ، بشأن أمر يتصل براقصة بغى .

يذكر العلماء فضل يحيى ويوردون لذلك أمثلة كثيرة .

كان يحيى معاصرا لعيسى وقريبه من وجهة الأم [ابن خالته]. وتروى السنة أن يحيى وعيسى التقيا يوما فقال عيسى ليحيى : ـ استغفر لى يا يحيى . أنت خير منى .

قال يحيى : استغفر لى يا عيسى . أنت خير منى . قال عيسى : بل أنت خير منى . . سلمت على نفسى وسلم الله عليك .

تشير القصة إلى فضل يحيى حين سلم الله عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

ويقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه يوما فوجدهم يتذاكرون فضل الأنبياء . قال قائل : موسى كليم الله .

وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته .

وقال قائل : إبراهيم خليل الله .

ومضى الصحابة يتحدثون عن الأنبياء ، فتدخل الرسول عليه الصلاة والسلام حين رآهم لا يذكرون يحيى . أين الشهيد ابن الشهيد ؟ يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب . أين يحيى بن زكريا؟

وجاء الربيع فى فلسطين . . واشتدت خضرة الأرض واشتد صفاء السماء . . غسل القمر بأشعته الفضية قمم الأشجار والحقول . وتفتحت أزهار الورد ، والبرتقال ، وانتشر عطرها فى الجو . .

وغنى طير مهاجر أغنية تمتلىء بالفرح . . وامتلأ الجو بإحساس عميق بالجمال .

وولد « يحيى » عليه السلام . .

كان ميلاده معجزة ، فقد جاء لأبيه زكريا بعد عمر طال حتى يئس فيه الشيخ من الذرية . . وجاء بعد دعوة نقية تحرك بها قلب النبى « زكريا » . . وجاء وسط عصر

يمتلئ بقمم النقاء كما يمتلئ بقمم الطغيان . وكانت مريم تمثل قمة النقاء في هذا العصر . . إن محرابها المعطر المغلق يكاد يضيء بكلمات الصلاة المستمرة ، والذكر الخاشع والقلب الطاهر .

والمسجد يموج بالمصلين والذاكرين والمؤمنين . . وبعيدا عنه يدق الظلم أعلامه الخاطئة .

ولد « يحيى » عليه السلام ، فجاءت طفولته غريبة عن دنيا الأطفال . .

كان معظم الأطفال يمارسون اللهو ، أما هو فكان جادا طول الوقت .

كان بعض الأطفال يتسلى بتعذيب الحيوانات ، وكان «يحيى» يطعم الحيوانات والطيور من طعامه رحمة بها ، وحنانا عليها ، ويبقى هو بغير طعام . . . أو يأكل من أوراق الشجر أو ثمارها . وكلما كبر «يحيى» في السن زاد النور في وجهه وامتلأ قلبه بالحكمة وحب الله والمعرفة والسلام . وكان «يحيى» يحب القراءة ، وكان يقرأ في العلم من طفولته . . فلما صار صبيا نادته رحمة ربه :

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (١) . .

صدر الأمر لـ «يحيى» وهو صبي أن يأخذ الكتاب بقوة ، بمعنى أن يدرس الكتاب بإحكام . . كتاب الشريعة . . رزقه الله الإقبال على معرفة الشريعة والقضاء بين الناس وهو صبي . . كان أعلم الناس وأشدهم حكمة في زمانه درس الشريعة دراسة كاملة ، ولهذا السبب آتاه الله الحكم وهو صبي . . كان يحكم بين الناس ، ويبين لهم أسرارالدين ، ويعرفهم طريق الصواب ويحذرهم من طريق الخطإ . .

وكبر «يحيى فزاد علمه ، وزادت رحمته ، وزاد حنانه بوالديه ، والناس ، والمخلوقات ، والطيور ، والحيوانات ، والأشجار . . حتى عم حنانه الدنيا وملأها بالرحمة .

كان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب ، وكان يغسلهم في نهر الأردن ليغسلوا أنفسهم بعدها بالتوبة . . وكان يدعو الله لهم . . ولم يكن هناك إنسان يكره «يحيى» أو يتمنى له الضرر . .

كان محبوبا لحنانه ، وزكاته ، وتقواه ، وعلمه ، وفضله . ثم زاد «يحيى» على ذلك بالتنسك . كان يخرج إلى الجبال والحقول والصحراء فيمكث فيها شهورا متعاقبة يعبد الله ويبكي بين يديه ، ويصلي له . . وكان يحس بالأنس في البراري ، ولا يهتم

---

(١) الآية ١٢ من سورة مريم .

بطعامه فيأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد أحيانا ، ويأكل العشب أحيانا أخرى . . وكان ينام فى أى مغارة يجدها فى الجبل . . أو أى حفرة يجدها فى الأرض . . وأحيانا كان يدخل مغارة فى الجبل فيجد فيها وحشا . . أسدا أو نمرا أو ذئبا ، وكان من فرط انشغاله فى ذكر الله والصلاة لا يلتفت إلى الذئب أو الأسد، وكان ينظر إليه فيعرف أن هذا نبى الله «يحيى» الذى يعطف على المخلوقات ، ويدفئها بحنانه ويحكم بينها بعلمه . . وكان الوحش المفترس يخفض رأسه ثم يغادر المكان برفق دون أن يحس به يحيى .

وكان يحيى أحيانا أخرى يطعم الوحوش حنانا بها ويبيت هو بغير عشاء ، يكتفى بالصلاة والذكر غذاء لقلبه قبل جسده ، ويأكل من أوراق الشجر ، ويبيت دامع العين، ذاكر القلب، محبا لله ، شاكرا نعمته حامدا فضله .

وكان «يحيى» إذا وقف بين الناس ليدعوهم إلى الله أبكاهم من الحب والخشوع . . وأثر فى قلوبهم بصدق الكلمات وكونها قريبة العهد من الله وعلى عهد الله . .

وجاء صباح خرج فيه «يحيى» على الناس . . امتلأ المسجد بالناس ، ووقف «يحيى بن زكريا» وبدأ يتحدث . قال : إن الله عز وجل أمرنى بكلمات أعمل بها ، وآمركم أن تعملوا بها . .

أن تعبدوا الله وحده بلا شريك . . فمن أشرك بالله وعبد غيره فهو مثل عبد اشتراه سيده فراح يعمل ويؤدى ثمن عمله لسيد غير سيده . . أيكم يحب أن يكون عبده كذلك . . ؟

وآمركم بالصلاة فإن الله نظر إلى عبده وهو يصلى ، ما لم يلتفت عن صلاته . . فإذا صليتم فاخشعوا . وآمركم بالصيام . . فإن مثل ذلك كمثل رجل معه «صرة» من مسك جميل الرائحة ، كلما سار هذا الرجل فاحت منه رائحة المسك المعطر .

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرا ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه أعداؤه فأسرع لحصن حصين فأغلقه عليه . . وأعظم الحصون ذكر الله . . ولا نجاة بغير هذا الحصن .

انتهى «يحيى» من كلامه ، فهبط من المنبر وسار عائدا إلى الصحراء .

هناك حيث تمتد الرمال وتلتقى بالأفق ، وحيث لا صوت غير صوت الرياح ، وتنفس الأشجار ، وأصوات أقدام وحوش الجبال . . هناك كان «يحيى» يقف وسط هذا الخلاء ، ويأخذ فى الصلاة والبكاء . ووقع الصدام بين «يحيى» والسلطات الحاكمة فى ذلك الوقت . .

كان أحد ملوك ذلك الزمان طاغية ضيق العقل غبى القلب يستبد برأيه ، وكان الفساد منتشرا فى بلاطه . . وكان يسمع أنباء متفرقة عن «يحيى» فيدهش لأن الناس يحبون أحدا بهذا القدر ، وهو ملك ورغم ذلك لا يحبه أحد .

وكان هذا الملك يريد اغتصاب زوجة أخيه ، وكانت لها ابنة جمعت مع فتنة الأنوثة شهرة ذائعة فى الرقص ، وتقول الحكايات إنها كانت ترقص وهى ترتدى سبعة أردية . . تخلع رداء مع كل رقصة . . حتى ترقص رقصتها الأخيرة عارية .

. . وسأل الملك «يحيى» هل يجوز له أن يتزوج زوجة أخيه؟ فقال «يحيى» عليه السلام : «لا يجوز» . . وراح الملك يحدث «يحيى» بأنه يريد الزواج منها . . وعلى «يحيى» أن يجد له فتوى ترضيه ، ورفض «يحيى» أن يوافق الملك على رغبته . قال له حكم الشريعة ، وتركه وانصرف . . وزاد غضب الملك على «يحيى» فأمر بسجنه .

واغتصب الملك زوجة أخيه . وكانت ابنتها الراقصة قد شاهدت «يحيى» وهو يحدث الملك . . وأحست بنبل وجهه وجمال روحه وجلال شخصيته . وأحبته الراقصة ، وذهبت إليه فى سجنه وشاهدته يجلس منخرطا فى الصلاة والبكاء . . راقبته وهو يصلى حتى فرغ . . ألقت بنفسها تحت قدميه وسألته أن يحبها كما تحبه . .

قال يحيى : « ليس فى قلبى مكان لحب غير حب الله » . نهضت المرأة يائسة ، وانصرفت عنه وقد امتلأ قلبها بكراهيته . . عادت إلى قصر الملك . .

كان العشاء قد انتهى ، وبدأ الملك يشرب الخمر . . بدأت تسقيه حتى أحس أن رأسه مثل بالونة ضخمة وأنه سيطير بعد قليل . . هنالك نهضت الراقصة وأسرعت ترتدى ثياب الرقص وعادت إلى الملك . . نظر الملك إليها وأحس أن رأسه يزداد تهوية ويخلو أكثر وأكثر ، وبدأت ترقص . بدأ العزف ودق الطبول وراحت المرأة ترقص . . فى الرقصة السابعة توقفت ، وكشرت وجهها وقالت للملك : أريد أن أسأل مولاى شيئا . .

قال الملك المخمور الطاغية : كل شىء تطلبينه سأعطيه لك الآن .

قالت المرأة : أريد رأس «يحيى بن زكريا» !

أفاق الملك من سكره ، وأحس الخوف . . قال لها وهو يتأرجح فى مقعده : اسألينى شيئا آخر .

قالت : أريد دم «يحيى بن زكريا» . .

كانت هذه المرأة فى نهاية الأمر رمزا للشر الأسود .

وقال الملك وهو يتناول كأسه الرابعة بعد الأربعين : اقتلوا «يحيى بن زكريا» .

وأصدر قائد الحرس الملكى أمره إلى فرسانه . . وأسرع الفرسان إلى سيوفهم وخناجرهم . .

وارتفعت الأيدى الآثمة بالسيوف وهبطت على العنق النبيل . . وتشقق قلب الصخور حنانا على النبى العظيم وهو يمضى إلى الشهادة . يورد إنجيل متى فى الفصل الرابع عشر رواية تقول :

« كان هيرودس قد قبض على يوحنا وأوثقه ثم ألقى به فى السجن بسبب هيروديا زوجة أخيه فيلبس ، لأن يوحنا كان يقول له لا يحل لك أن تأخذها زوجة لك . وقد كان يريد قتله ، لكنه خاف من الشعب ، لأنهم كانوا يعدونه نبيا . فلما كان الاحتفال بميلاد هيرودس رقصت ابنة هيروديا فى الوسط أمام المدعوين فأعجبت هيرودس . ومن ثم أقسم واعدا إياها بأنها مهما طلبت يعطها . وإذا كانت أمها قد سبق أن لقنتها قالت : أعطنى هنا رأس يوحنا المعمدان فى طبق . فاكتأب الملك ، ولكنه من أجل القسم والجالسين معه إلى المائدة أمر بإعطائها إياه . وأرسل فقطع رأس يوحنا فى السجن . وجىء برأسه فى طبق وقدم للفتاة فجاءت به إلى أمها » . .

عيسى
[عليه الصلاة والسلام]

انحدرت الشمس نحو الغرب .

حركت الرياح الهواء المعطر حول أشجار التفاح ، وأزهار البرتقال . . وانحدر العطر وبدأ رحلته إلى محراب مريم . . وهناك تسلل من نوافذ المحراب ونشر أجنحته حول العذراء الخاشعة التى تصلى بغير أن يسمع صوتها أحد . وأحست «مريم» أن الجو يمتلىء برائحة العطر فجأة . . وصلت إليها رسالة الطبيعة ، فابتسمت وعادت تنخرط فى صلاة عميقة تؤدى بها الشكر لله . . وحط أحد طيور الكناريا على شباك المحراب . . رفع منقاره لأعلى فى اتجاه الشمس وبسط جناحيه ، ونفض المياه التى استحم فيها فتطاير الرذاذ الخفيف حوله . . وتذكرت «مريم» أنها نسيت أن تسقى شجرة الورد التى نبتت فجأة وسط صخرتين خارج المسجد . . أنهت «مريم» صلاتها ، وخرجت من المحراب فى طريقها إلى الشجرة . .

لم تكد تتهيأ للخروج حتى نادتها الملائكة :

﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾(١) . .

توقفت «مريم» وازداد شحوب وجهها . . أضاء المحراب بكلمات الملائكة . نوع من الضوء تبدو الشمس إلى جواره مثل شمعة مطفأة .

إن «مريم» تشعر فى الأيام الأخيرة بتغيير يشمل روحها وجسمها كله . . ليست عندها مرآة لتنظر فيها ، لكنها تحس أن لون دم القوة والشباب ينسحب تاركا مكانه للون أكثر طهرا وأعمق أصالة . . إنها تحس الشحوب برغم أنها لا تراه . . وتشعر بضعف بشرى وقوة غير عادية ، وكلما زاد جسمها نحولا زادت روحها قوة . . ملأها هذا الاحساس بالتواضع والعظمة . . وتسلل إليها الإشفاق من المسئولية العظيمة التى ألقيت على كتفيها الرقيقتين .

---

(١) من الآية ٤٢ سورة آل عمران مدنية .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) . .

بهذه الكلمات البسيطة فهمت مريم أن الله يختارها ، ويطهرها ويختارها ويجعلها على رأس نساء الوجود . . هذا الوجود ، والوجود الذى لم يخلق بعد . . هى أعظم فتاة فى الدنيا وبعد قيامة الأموات وخلق الآخرة . . وعادت الملائكة تتحدث :

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٢) . .

كان الأمر الصادر بعد البشارة أن تزيد من خشوعها ، وسجودها وركوعها لله . .

ونسيت مريم شجرة الورد وعادت للصلاة . .

لم تعد تحس أنها صغيرة وضعيفة وتقف وحدها فى المحراب . . إنما أحست أنها تضم قرص الشمس فى قلبها ، وتشرب خصلات شعرها من ندى الحقول ، وأحست أن الرحيق الذى يصعد فى سيقان أشجار التفاح يصعد فى عروقها ، وتجمعت كل دموع الأطفال الأبرياء فى الدنيا وانحدرت دمعة واحدة كبيرة من عين العذراء وهى تصلى . .

كانت دمعتها الوحيدة تضم مذاق اللبن وطراوة النسيم ومرارة أحزان البشر . .

وملأ قلب مريم إحساس مفاجئ بأن شيئا عظيما يوشك أن يقع . . كانت تحس ذلك إحساسًا غامضا منذ أيام ، لكن إحساسها يتأكد الآن . . انحدرت الشمس نحو فراشها واستيقظ الليل . وجلس القمر على عرشه الفضى فى السماء ، وحوله رعيته من السحاب الجميل الأبيض . .

وجاء منتصف الليل ومريم منهمكة فى الصلاة . ثم أنهت صلاتها . . وتذكرت شجرة الورد فحملت بعض المياه فى وعاء وخرجت لتسقيها . .

كانت شجرة الورد تنبت بين صخرتين فى مكان يبعد عن المسجد خطوات . . وكان المكان مهجورا من الناس ولا أحد يقترب منه . . كان المعروف أنه محجوز لمريم لتصلى فيه أو تتعبد . اقتربت «مريم» من شجرة الورد وسقتها ، ووضعت الوعاء ، ووقفت تتأمل شجرة الورد التى طال عودها إلى الضعف فى ليلتين . .

وفجأة سمعت «مريم» صوت أقدام تستقر على الأرض . . لم تسمع صوت أقدام تسير . . إنما سمعت صوت أقدام تستقر على الحصى والرمل والتراب . . ملأها الخوف

---

(١) الآية ٤٢ سورة آل عمران مدنية . (٢) الآية ٤٣ سورة آل عمران مدنية

لحظة . . شعرت بأنها ليست وحدها . التفتت إلى جوارها فلم تر شيئا . . ثم بدأت عيناها تتعودان الضوء فشاهدته يقف هناك . . ارتعشت «مريم» ونكست رأسها . . رأت على الأرض خيالا طويلا . . وكان هذا غريبا لدرجة كبيرة ، فقد كان واقفا فى ضوء القمر . . ولم يكن وراءه مصباح ليكون هناك خيال . .

وقالت «مريم» لنفسها : من يكون هذا الذى يقف هناك . . ؟

إن النظرة السريعة التى ألقتها «مريم» على وجهه هى التى أثارت قلقها . . إن وجهه غريب لم تره من قبل ، وجبهته مضيئة أكثر من القمر . . ورغم أن عينيه تشعان بالعزة والجلال ، فقد كان وجهه كله يعبر عن التواضع العظيم . . وبدأ وجهه فى النظرة السريعة التى ألقتها عليه «مريم» كوجه رجل عنده عزة من يعبد الله منذ ملايين السنين .

وتساءلت «مريم» فى نفسها عمن يكون . . وكأنما قرأ الغريب أفكارها فقال :

ـ السلام عليك يا مريم .

فوجئت مريم أنها أمام صوت بشرى يصدر من إنسان . قالت «مريم» قبل أن ترد عليه السلام :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا . . ﴾ [1] . .

أرادت أن تحتمى فى الله . . وسألته هل هو إنسان طيب يعرف الله ويتقيه . . وابتسم الواقف هناك ابتسامة نقية .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . . ﴾[2] .

لم يكد الغريب ينتهى من كلمته ، حتى أضاء المكان بضوء غريب لا يشبه ضوء الشمس ولا ضوء القمر ولا ضوء المصابيح ولا الشموع ولا النار . . كان هناك نور شديد الصفاء . . وراح هذا النور يتجمع حول الواقف فى شكل أجنحة راحت تزيد حتى ملأت الأفق حول «مريم» ودارت فى رأس مريم كلماته . . ﴿ إنما أنا رسول ربك﴾ . . آه . . هذا سيد الملائكة ، الروح الأمين جبريل عليه السلام ، وقد تمثل لها بشرا سويا . .

رفعت مريم رأسها وهى ترتعش انفعالاً . . كان الروح الأمين يقف أمامها فى صورته البشرية . . تأملت مريم صفاء جبهته ، ونقاء وجهه ، وجلال عينيه . . صدق ظنها . . لديه عزة من يعبد الله ملايين السنين . . ثم تذكرت بقية جملته فجأة . . لقد

---

(١) من الآية ١٨ سورة مريم مكية .

(٢) الآية ١٩ سورة مريم.

قال إنه رسول ربها . . وإنه جاء كى يهبها غلاما زكيا . . تذكرت مريم أنها عذراء . . لم يمسسها بشر . . لم تتزوج ، ولم يخطبها أحد ، كيف تنجب بغير زواج . . ؟!

دارت هذه الأفكار فى رأس مريم فقالت للروح الأمين :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾(1) . . !

قال الروح الأمين :

﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾(2) . .

استقبل عقل «مريم» كلمات الروح الأمين . . ألم يقل لها إن هذا هو أمر الله . . ؟ وكل شىء ينفذ إذا أمر الله . . ثم أى غرابة فى أن تلد بغير أن يمسسها بشر . . ؟! لقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم من غير أب أو أم ، لم يكن هناك ذكر وأنثى قبل خلق آدم . وخلقت حواء من آدم فهى قد خلقت من ذكر بغير أنثى . . ويخلق ابنها من غير أب . . . يخلق من أنثى بغير ذكر . والعادة أن يخلق الإنسان من ذكر وأنثى . . العادة أن يكون له أب وأم ، لكن المعجزة تقع عندما يريد الله تعالى أن تقع . .

عاد جبريل عليه السلام يتحدث :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(3) .

زادت دهشة مريم . . قبل أن تحمله فى بطنها تعرف اسمه . . وتعرف أنه سيكون وجيها عند الله وعند الناس ، وتعرف أنه سيكلم الناس وهو طفل وهو كبير . . وقبل أن يتحرك فم مريم بسؤال آخر . . رأت الروح الأمين يرفع يده ويدفع الهواء فى اتجاه مريم . . وجاءت نفحة الهواء مضيئة بنور لم تره «مريم» من قبل . . وتسلل هذا النور إلى جسد مريم وملأه فجأة . .

وقبل أن تسأل «مريم» سؤالا آخر . . كان الروح القدس قد اختفى بغير صوت . .

---

(1) من الآية ٢٠ سورة مريم مكية . (2) من الآية ٢١ سورة مريم مكية .

(3) من الآية ٤٥ وآية ٤٦ سورة آل عمران مدنية .

وهب الهواء البارد فارتعشت مريم . . أحست أن عقلها سيهرب منها هروب الطير الخائف . . وعادت إلى محرابها مسرعة . . وهناك أغلقت عليها الباب وانخرطت فى صلاة عميقة . . وبكاء أعمق . . إنها تحس الفرح . . والدهشة . . والاضطراب . . والسلام العميق . . وإنها ليست وحدها . . لم تعد وحدها . . منذ أن انصرف الروح القدس عليه السلام ، وهى تحس أنه لم يتركها وحيدة . . حركت يده دفعة ملأتها من النور . . هذا النور يتحول داخل بطنها إلى طفل . . طفل سيصبح عندما يكبر كلمة الله وروحه التى ألقاها إلى مريم . .

سيصبح عندما يكبر رسولاً لله ونبيا رسالته هى الحب . .

نامت مريم هذه الليلة نوما عميقا ، أفاقت منه فى الصباح . . لم تكد تفتّح عينيها حتى فوجئت بأن المحراب يمتلئ بفاكهة ليس هذا أوانها . . كانت الفاكهة أكثر مما يأتيها فى العادة . .

وأدهشها ذلك . . وتذكرت ما حدث لها أمس . . قصة زيارتها لشجرة الورد . . لقاءها بالروح القدس . . كيف نفخ الله فيها كلمته . . عودتها إلى المحراب . . ثم نومها العميق . . قالت «مريم» لنفسها وهى تنظر إلى الفاكهة الكثيرة : هل آكل وحدى هذه الفاكهة . . ؟

قال لها صوت داخلى : لست وحدك الآن «يامريم» . . أنتما اثنان . . أنت وعيسى . . يجب أن تأكلى جيدا . .

وبدأت «مريم» تأكل . .

ومرت الأيام . . كان حملها يختلف عن حمل النساء . . لم تمرض ولم تشعر بثقل ولا أحست أن شيئا زاد عليها ولا ارتفع بطنها كعادة النساء . . كان حملها به نعمة طيبة .

وجاء الشهر التاسع . وفى العلماء من يقول إن الفاء تفيد التعقيب السريع ، بمعنى أن مريم لم تحمل بعيسى تسعة أشهر ، وإنما ولدته مباشرة كمعجزة . .

خرجت مريم ذات يوم إلى مكان بعيد . . إنها تحس أن شيئا سيقع اليوم . . لكنها لا تعرف حقيقة هذا الشيء . . قادتها قدماها إلى مكان يمتلئ بالشجر . . والنخل ، مكان لا يقصده أحد لبعده . . مكان لا يعرفه غيرها . . لم يكن الناس يعرفون أن «مريم» حامل . . وأنها ستلد . . كان المحراب مغلقا عليها ، والناس يعرفون أنها تتعبد فلا يقترب منها أحد .

جلست مريم تستريح تحت نخلة عظيمة مرتفعة . . وراحت تفكر فى نفسها . . كانت تشعر بألم . . وراح الألم يتزايد ويجيء فى مراحل متقاربة . .

وبدأت مريم تلد . .

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [1] . .

إن ألم الميلاد يحمل لنفس العذراء الطاهرة آلاما أخرى تتوقعها ولم تقع بعد : كيف يستقبل الناس طفلها هذا . . ؟ وماذا يقولون عنها . . ؟ إنهم يعرفون أنها عذراء . . فكيف تلد العذراء . . ؟! هل يصدق الناس أنها ولدته بغير أن يمسسها بشر . . ؟ وتصورت نظرات الشك ، وكلمات الفضول ، وتعليقات الناس . . وامتلأ قلبها بالحزن . .

وولدت فى نفس اللحظة من قدر الله عليه أن يحمل فى قلبه أحزان البشرية .

لم تكد «مريم» تنتهى من تمنيها الموت والنسيان ، حتى ناداها الطفل الذى ولد :

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [2] . .

نظرت «مريم» إلى المسيح . . ما أنبل وجهه . . لم يكن وجهه أحمر مجعدا مثل من يولد ، ولكنه كان ناعما أبيض . . وقد ارتسم عليه الطهر والمحبة . . وكان الطفل يرقد على حشائش الأرض الخضراء ويتكلم . . يحدثها أن تكف عن حزنها . . ويطلب إليها أن تهز جذع النخلة لتسقط عليها بعض ثمارها الشهية . . فلتأكل ، ولتشرب ، ولتمتلئ بالسلام والفرح ولا تفكر فى شىء . . فإذا رأت من البشر أحدا فلتقل لهم إنها نذرت للرحمن صوما فلن تكلم اليوم إنسانا . . ولتدع له الباقى . .

ونظرت «مريم» إلى المسيح بحب . . كان طفلا لم يزل مولودا منذ لحظات ، ولكنه يحمل مسئولية أمه على كتفيه . . كما سيحمل بعد ذلك آلام الفقراء على كتفيه .

وظهر لمريم فى وجه الطفل تعبير غريب . . تعبير من جاء إلى العالم لا ليأخذ منه شيئا وإنما ليعطيه كل شىء . . ومدت «مريم» يدها إلى النخلة الضخمة . . ولم تكد

---

(١) الآية ٢٣ سورة مريم .

(٢) الآيات ٢٤ إلى ٢٦ سورة مريم .

تلمس جذعها حتى تساقط عليها رطب شهى . . فأكلت وشربت ولفت الطفل فى ملابسها ، وألصقته بقلبها واستسلمت لعذوبة النوم .

كان عقل «مريم العذراء» مثل طائر لا يكف عن الطيران السريع والهبوط المفاجئ .

إن تفكيرها لا يكاد يستقر على غصن من أغصان السلام والراحة ، حتى يهتز ذهنها بشيء فيطير الهدوء ويعاودها القلق . إن تفكيرها كله يدور حول مركز واحد . . هو عيسى ، وهى تتساءل بينها وبين نفسها : كيف يستقبله اليهود . . ؟ ماذا يقولون فيه . . ؟ ماذا يقولون عنها ؟ هل يصدق أحد من كهنة اليهود الذين يعيشون على الغش والخديعة والسرقة . . ؟ هل يصدق أحدهم وهو بعيد عن السماء أن السماء هى التى رزقتها بطفل؟ إن موعد خلوتها ينتهى ، ولا بد أن تعود إلى قومها . . فماذا يقول الناس . . ؟

كان الوقت عصرا حين عادت مريم . . وكان السوق الكبير الذى يقع فى طريقها إلى المسجد يمتلئ بالناس الذين فرغوا من البيع والشراء وجلسوا يثرثرون ، ويشربون النبيذ . لم تكد «مريم» تتوسط السوق حتى لاحظ الناس أنها تحمل طفلا ، وتضمه لصدرها وتمشى به فى جلال وبطء . .

تساءل أحد الفضوليين : أليست هذه مريم العذراء ؟ . . طفل من هذا الذى تحمله على صدرها ؟!

قال أحد السكارى : هو طفلها . . ترى أى قصة ستخرج بها علينا ؟

وسقطت الكلمة من فم الرجل على الأرض . . وكانت الأرض موحلة بسبب المطر العظيم الذى سقط ليلة الأمس ، وكانت هناك عقول أشد اتساخا من وحل الأرض . . عقول كهنة اليهود . فى البداية حاصرتها الأسئلة . . ابن من هذا يا مريم ؟ لماذا لا تردين ؟ هو ابنك قطعا . . كيف جاءك ولد وأنت عذراء . . ؟!

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾(١)

الكلمة ترمى مريم بالبغاء . . هكذا مباشرة دون استماع أو تحقيق أو تثبت . . ترميها الكلمات بالبغاء وتعيرها وتوبخها بأنها من بيت طيب وليست أمها بغيا ، فكيف صارت هى كذلك . . ؟! راحت الاتهامات تسقط عليها وهى مرفوعة الرأس . . تومض عيناها بالكبرياء والأمومة . . ويشع من وجهها نور يفيض بالثقة . . فلما زادت الأسئلة ، وضاق الحال ، وانحصر المجال ، وامتنع المقال ، اشتد توكلها على ذى الجلال ، وأشارت إليه . .

---

(١) الآية ٢٨ سورة مريم مكية.

أشارت بيدها لعيسى . . واندهش الناس . . فهموا أنها صائمة عن الكلام وترجو منهم أن يسألوه هو كيف جاء . . تساءل الكهنة ورؤساء اليهود كيف يوجهون السؤال لطفل ولد منذ أيام . . هل يتكلم طفل فى لفافته . . . ؟! قالوا لمريم :

﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾(1) ؟ . .

قال عيسى :

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾(2) . .

لم يكد عيسى ينتهى من كلامه حتى كانت وجوه الكهنة والأحبار ممتقعة وشاحبة . . كانوا يشهدون معجزة تقع أمامهم مباشرة . . هذا طفل يتكلم فى مهده . . طفل جاء بغير أب . . طفل يقول إن الله قد آتاه الكتاب وجعله نبيا . . هذا يعنى أن سلطتهم فى طريقها إلى الانهيار . . سيصبح كل واحد فيهم بلا قيمة عندما يكبر هذا الطفل . . لن يستطيع أن يبيع الغفران للناس، أو يحكمهم عن طريق ادعائه أنه ظل السماء على الأرض، أو باعتباره الوحيد العارف فى الشريعة . . شعر كهنة اليهود بالمأساة الشخصية التى جاءتهم بميلاد هذا الطفل . .

إن مجرد مجىء المسيح يعنى إعادة الناس إلى عبادة الله وحده . . وهذا معناه إعدام الديانة اليهودية الحالية . . فالفرق بين تعاليم موسى وتصرفات اليهود كان يشبه الفرق بين نجوم السماء ووحل الطرقات . . وتكتم رهبان اليهود قصة ميلاد عيسى وكلامه فى المهد . . واتهموا مريم العذراء ببهتان عظيم . . اتهموها بالبغاء ، رغم أنهم عاينوا بأنفسهم معجزة كلام ابنها فى المهد . . وأسدل الستار مؤقتا على القصة . .

رغم هذا كله . . فقد تسربت أنباء قصة ميلاد عيسى إلى الحاكم الرومانى هيرودوس . . وكان هذا الحاكم كلبا من كلاب روما المخلصين . . وكان يحكم الفلسطينيين واليهود بقوة السيف ورعب الدماء وكثرة الجواسيس والخوف . .

كان يجلس فى قصره ويشرب النبيذ حين وصلت إليه أخبار غامضة عن طفل ولد بغير أب . . طفل يقال إنه تكلم فى المهد . . وقال كلاما كثيرا يهدد سلطان روما . .

---

(1) من الآية 29 سورة مريم مكية.

(2) الآيات 30 إلى 33 سورة مريم مكية.

ويقلقل الكرسى بالتالى تحت جسم هيرودوس . . وجن جنون الحاكم الرومانى وقذف بكأسه فى وجه من يحدثه ، وأمر بعقد اجتماع مفاجئ لكبار ضباطه وجواسيسه . .

وانعقد الاجتماع على الفور . . جلس هيرودوس بوجهه الأسود اللامع ، وأجال بصره فى جواسيسه ، وسأل :

- ما آخر أخبار الطفل الذى تكلم فى مهده ؟

رد مدير الجواسيس بقوله : يبدو أن الموضوع غير صحيح . . لقد سمعنا شائعات حول طفل يقولون إنه صنع معجزة بكلامه وهو طفل . . وأطلقنا رجالنا للبحث عنه فلم يعثروا عليه ، واتضح لنا من التحريات أن الموضوع مبالغ فيه . .

قال أصغر الجواسيس : بلغنى من مصادر عليمة ، أن ثلاثة من حكماء المجوس جاءوا وراء نجم رأوه يلمع فى السماء . . وأن هذا النجم يشير لميلاد طفل معجزة . . طفل سيخلص شعبه .

سأل الحاكم : يخلص شعبه ممن ؟!

قال الجاسوس : لم يعرف رجالى ، وقد اختفى الحكماء الثلاثة فلم يعثر أحد لهم على أثر .

قال الحاكم : كيف اختفوا ؟ . . وما حكاية هذا الطفل ؟ . . هل هناك مؤامرة ضد روما ؟

قفز الحاكم من مقعده حين ذكر روما وبدأ يتكلم وهو ثائر .

- أريد رأس الحكماء الثلاثة . . وأريد رأس ذلك الطفل . . وأريد معلومات ليست ناقصة . . الموضوع يزداد غموضا أيها الأغبياء .

قال مدير الجواسيس : ربما يكون الموضوع حلما تصور اليهود أنهم رأوه . .

قال الحاكم : إن رءوسكم جميعا ستطير أسرع من الحمام إذا لم تحضروا إلى القصة الكاملة لهذا الطفل . . ما هذه الفوضى . . ؟! تفضلوا بالانصراف .

انصرف رجاله وجواسيسه ، وجلس الحاكم يفكر فى الموضوع . . كان الموضوع يثير قلقه بشكل واضح . . لم يكن يهمه أن ينزل دين جديد للناس ، إنما كان يهمه سلطان روما الذى يمثله هو . . وقرر الحاكم أن يستدعى كبير كهنة اليهود ليسأله فى هذا الموضوع . . وأرسل ضباطه الخصوصيين لاستدعاء الكاهن . .

لم تمض ساعة حتى كان كبير كهنة اليهود ينحنى أمام الحاكم .

قال الحاكم : أريد أن أحدثك فى موضوع يثير قلقى أيها الكاهن .

قال الكاهن : أتمنى أن أخدم جلالتك . .

قال الحاكم : سمعت أخبارا متضاربة عن طفل ولد وتكلم فى مهده ، وقال إنه سيخلص شعبه . . ما حقيقة القصة ؟

قال الكاهن وهو يحس أن السؤال ينطوى على مصيدة لا يعرفها بالتحديد :

- هل تهتم جلالتكم بالديانة اليهودية . . . ؟

قال الحاكم ثائرا : لا أهتم بشىء غير سلطان روما . . أجب عن سؤالى أيها الكاهن!

كان الكاهن قد رأى عيسى يتكلم فى مهده . . وكان يفهم أنه لو قال هذا فسوف يثير المتاعب لنفسه ، واختار أن يكذب نصف كذبة . . فقال للحاكم إنه سمع عن القصة ، ولكنه يشك فيها . .

سأل الحاكم وفضوله يزداد : هل صحيح أن ديانتكم تتحدث عن قدوم مخلص لشعبكم . . ؟

قال الكاهن : هذا صحيح يا صاحب الجلالة .

قال الحاكم : هل تعرف أن هذه مؤامرة ضد أمن الدولة الرومانية . . ؟ هل تدرك أن هذه خيانة . . ؟

قال الكاهن وهو يتراجع : أرجو أن تتركنى أصحح لجلالتكم فكرة بسيطة . . إن هذه النبوءة قديمة . . صدرت عندما كان الشعب أسيرا فى بابل منذ مئات السنين . .

قال الحاكم : هل هناك من يصدق هذه النبوءة الآن ؟ . . هل تصدقها أنت شخصيا؟ . . هل رأيت هذا الطفل الذى يقولون إنه ولد بغير أب . . ؟

قال الكاهن : هل يصدق سيدى الملك أن هناك إنسانا يولد من غير أب ؟ . . هذه أحلام الشعب . .

قال الحاكم : لا شىء يطرد النوم من عيون الحكام غير أحلام الشعب . . انصرف أيها الكاهن ، فإذا سمعت أى أخبار فدعنى أعرفها قبل امرأتك . .

لم يكد الكاهن ينصرف حتى كان هيرودوس يفكر . . ماذا لو كان هذا الكاهن يكذب . . ؟ لقد رأى فى عينيه وميض الكذب . . وهو يعرف هذا الوميض لأنه كاذب هو الآخر . . ثم ما قصة الحكماء الثلاثة الذين يتتبعون نجما ؟ . . هل هناك مؤامرة ضد روما وهو لا يعرف ؟ . . صرخ الحاكم فى كبير ضباطه أن يقبض على كل من سمع هذه القصة أو شاهدها . . وأن يبدأ البحث عن عذراء ولدت طفلا . . وأن يقتل كل الأطفال المولودين فى هذا الوقت نفسه . .

كانت مريم تخرج من فلسطين كلها إلى مصر . . جاءها فى الليلة الماضية إنسان لم تره من قبل . . ألقى عليها السلام وأمرها بأمر :

احملى طفلك يا مريم واخرجى إلى مصر . .

سألت مريم بخوف : لماذا ؟ . . كيف أخرج وحدى إلى مصر ؟ . . كيف أعرف الطريق ؟

قال الغريب : اخرجى تحرسك عناية الله . . إن الحاكم الرومانى يبحث عن طفلك ليقتله . .

سألت مريم : متى أخرج ؟

قال الغريب : الآن . . لا تخافى شيئا فإنك تخرجين بنبى كريم . . وكل الأنبياء يخرجهم قومهم من ديارهم وبلادهم . . هذا قانون من قوانين الحياة . . أن يطرد الشر أنقى ما فى الوجود لفترة . . ثم يعود الخير لعرشه . . اخرجى يا مريم . .

وخرجت مريم إلى مصر . . قطعت صحراء سيناء مع قافلة كانت تتجه إلى مصر . . سارت تحمل عيسى فى نفس الطريق الذى سار فيه موسى من قبل حين ظهرت له النار المقدسة ونودى من جانب الطور الأيمن . .

وصلت إلى مصر بعد رحلة طويلة شاقة . . وكانت مصر بخيرها الكثير ، وسماحتها ، وثقافتها القديمة ، واعتدال جوها خير مكان ينشأ فيه عيسى . .

وفى مصر عاش المسيح طفولته وصباه ، ثم جاء مريم نفس الغريب الذى أمرها أن ترحل من فلسطين ، وأمرها هذه المرة أن تعود لفلسطين . .

قال لها : هلك الملك الظالم فعودى بابنك يا مريم . . جاء الوقت على الخير ليعتلى عرشه . . سيكون عرشه قلوب الفقراء والتعساء والصادقين . . عودى يا مريم . .

وعادت مريم . . ومرت مياه كثيرة فى نهر الأردن . . وكبر عيسى وأدرك الشباب . .

خرج عيسى من بيته فى طريقه إلى المعبد اليهودى . .

كان اليوم هو السبت . . لم يكن هناك بيت يهودى يستطيع أن يوقد نارا أو يطفئها يوم السبت ، أو ينزع قشرة ثمرة . . ممنوع فى هذا اليوم أن تعجن امرأة عجينها . . أو أن يغسل غلام كلبه ، أو أن تضفر فتاة شعرها . .

كان موسى قد أمر باحترام يوم السبت وتخصيصه لعبادة الله . .

وذهبت الحكمة من احترام يوم السبت ، وبقى يوم السبت نفسه . . ميدانا خصبا لتطبيق النصوص الحرفية الجامدة . . صار اليوم مقدسا عند اليهود . . وأحاطوه بسياج من التقاليد الشكلية الجوفاء ، وركزوا كل اهتمامهم فى حفظه حفظا حرفيا لا تهاون فيه ، إذ كانوا يعتقدون أنه كان محفوظا فى السماء قبل أن يخلق الله الإنسان ، كما اعتقدوا - حين سقطت هممهم - أن بنى إسرائيل قد اختيروا لغرض واحد فقط . . هو حفظ السبت . . وكانوا يفخرون بأنهم يحفظونه بحرفية جامدة وتامة . . ولو أدى ذلك إلى هزيمتهم فى الحرب ، أو وقوعهم فى يد الأعداء . . وقد أدى حفظهم له على هذا النحو إلى تسييجهم له بأكبر عدد من المحظورات . . ووضع مجلس اليهود الأعلى تشريعات تحرم مئات الأمور يوم السبت . . محرم لبس الأسنان الصناعية يوم السبت . . ومحرم على المريض أن يضع ضمادة أو يدهن موضع الألم يوم السبت ، أو يستدعى الطبيب . . محرم كتابة حرفين هجائيين يوم السبت . . الدفاع عن النفس محرم يوم السبت . . الحصاد والدراس ممنوعان يوم السبت . . أى رحلة فى يوم السبت ينبغى ألا تزيد على ألفى ياردة . . يحرم حمل شىء خارج البيت يوم السبت . .

وتصور المحافظون على الشريعة أن الغرض الأسمى من وجودهم هو إقامة «السياجات» التى تصون الشريعة ، والأصل أن كثرة التشريعات والمحظورات والقوانين تعنى زيادة الفساد أو تعين عليه فى أبسط الظروف ، وكلما ولد شىء محظور أو محرم ، كان يولد معه فى الوقت نفسه أسلوب للتحايل عليه والنفاذ منه وإبطاله . .

وهكذا امتازت حياتهم بهذا النفاق العميق ، الذى يتمثل فى وجود شكل خارجى تتم المحافظة عليه ، وحقيقة داخلية تهدرها التصرفات تماما . .

ورغم أن طائفة الفريسيين كانت هى المكلفة أساسا بمهمة تطبيق الشريعة وإحاطتها بأكبر قدر من الضمانات ، فسوف نراهم على استعداد تام لابتداع الحيل التى تمكنهم من التخلص من أحكام الشريعة فى الوقت المناسب . .

وكان هذا الوقت المناسب ، هو الوقت الذى تتعارض فيه الشريعة مع مصالحهم الخاصة ، أو تعوق الكسب الحرام الذى يتهيأ ليدخل جيوبهم . .

كانت هناك - مثلا - قاعدة شرعية تقضى بألا تتجاوز أى رحلة فى يوم السبت مسافة ألفى ياردة . . ماذا يفعل الفريسيون فى الولائم التى يدعون إليها يوم السبت ؟ . . وتبعد موائدها عن بيوتهم أكثر من ألفى ياردة . . ؟

المسألة بسيطة . . كانوا يضعون فى عشية السبت بعض الأطعمة على بعد ألفى ياردة من مساكنهم . . وبذلك يخلقون مسكنا مفتعلا يستطيعون أن يسيروا بعده ألفى ياردة أخرى . . ومن ثم يتاح لهم أن يضاعفوا المسافة المفروضة . .

كما أنهم لكى يتخلصوا من عقبة تحريم حمل أى شىء يوم السبت إلى خارج البيت، كانوا يحتالون بخدعة أخرى . . وهى أن يضعوا قوائم وعوارض أبواب ونوافذ فى مختلف الشوارع . . فتصير المدينة كلها بمثابة بيت كبير يحل فى داخله حمل الأشياء والحركة . .

من أمثلة تلاعبهم في الشريعة [وهم حفظتها !] . . أن الشريعة الموسوية كانت تلزم الابن أن يعول والديه فى حالتى الشيخوخة والحاجة ، ولكن الفريسيين كانوا يتيحون للأبناء فرصة التهرب من هذا الالتزام بحيلة بسيطة . . يذهب الابن إذا طالبه أبواه بنفقة إلى الكهنة ويتفق معهم على أن يوقف كل أمواله وممتلكاته على الهيكل . . وعندئذ يعجز الوالدان عن أخذ شىء منه . . فإذا يئسا منه وتوقفا عن مطالبته ، ذهب واسترد كل ممتلكاته من الكهنة نظير دفع نسبة معينة من المال . . فيستمر الوقف صوريا فقط وغير نافذ المفعول . . [إنجيل متى] . .

وسط هذا الجو من البغاء الفكرى . . كان هناك تعنت وجمود فى كل خطوة يخطوها اليهودى . . كانت هناك سبع درجات للطهارة . . وست وعشرون صلاة ينبغى تلاوتها أثناء غسل الأيدى قبل تناول الطعام ، وكانوا يعدون إهمال قراءة هذه الصلوات بمثابة قتل النفس انتحارا ، والحرمان من الحياة الأبدية . . وقد خصص التلمود [وهو مجموعة التفاسير والشروح والإضافات التى كتبت بعد التوراة] ، خصص أربعة أبواب يتوه فيها العقل لإجراءات الغسل والتطهير . . وكان هذا التشديد الظاهرى يقابله تسيب داخلى . .

وهكذا كانت قشرة المجتمع اليهودى تلتئم على مجتمع قد تهرأ تماما من الداخل ، وساده نفاق لا مثيل له . . ورغم أن الناس كانوا يتبعون التعاليم الحرفية للشريعة ، فقد كانت القلوب تموج بالشرور . . وتضطرب بالكراهية ، كما كانت العقول موانىء تستريح فيها سفن الخرافات والأكاذيب . .

سار عيسى قاصدا المعبد . . يسير الناس فى الشوارع حوله وهم يتخايلون فى ملابسهم الملونة الثمينة . . وهو يسير فى ردائه الصوفى الأبيض . .

شعره الناعم يصل إلى كتفيه ويبدو مغسولا فى مياه سحابة أمطرت رذاذا خفيفا . . وقدماه تمشيان على التراب فيمتلئ التراب برائحة عطر مجهول المصدر . . وملابسه المصنوعة من الصوف الفقير الخشن ، تبدو عليه أعظم بهاء من ملابس ملوك الرومان وكهنة المعبد . .

ورغم أن اليوم هو السبت . . فقد مد عيسى يده إلى ثمار حقل وأخذ منه ثمرتين أعطاهما لطفل فقير جائع . . كان هذا التصرف فى الديانة اليهودية يعد خروجا على الديانة اليهودية . .

وكان عيسى يعرف أن الديانة الحقيقية ليست هى طاعة الشكل الخارجى ، بينما القلب بعيد عن التواضع . . ولهذا السبب كان عيسى ينزع قشور الثمار ويطعم المخلوقات يوم السبت . . وكان يشعل النار للعجائز حتى لا يقتلهم البرد . . وكان يزور المعبد اليهودى كثيرا ، ويقف داخله يتأمل الكهنة والناس . .

وصل عيسى إلى المعبد ووقف داخله ، وطاف ببصره حوله . . إن حيطان المعبد صنعت من خشب الصندل ذى الرائحة المعطرة . . والستائر من القماش الفاخر المنسوج بالذهب . . والمصابيح الفضية تتدلى من السقف . . . . والشموع تملأ المكان بالضوء . . ورغم ذلك كان الظلام يملأ القلوب . .

وفى مكانه البعيد الذى وقف فيه ، كان عيسى يشبه نقطة الضوء الوحيدة فى المكان . . وكان الله لم يأمره بعد أن يفرش هذا الضوء لأكبر عدد من الفقراء والتعساء والحزانى . .

طالت وقفة عيسى فى المعبد . . كلما أدار وجهه حوله وجد كهنة . . كان هناك عشرون ألف كاهن ، أسماؤهم مسجلة فى الهيكل . . يتعيشون منه ، ويقبضون مرتباتهم من خزائنه ، وكانت حجرات المعبد تمتلئ بالآلاف منهم فى ملابس الحفلات . . هؤلاء هم اللاويون بقبعاتهم المدببة وجيوبهم العريضة التى يحملون فيها كتب الشريعة ، وهؤلاء هم الفريسيون بملابسهم البنفسجية الواسعة ذات الأطراف المنسوجة بالذهب . . وهؤلاء هم خدم الهيكل الرسميون فى ملابسهم البيضاء ، وهؤلاء هم الصدوقيون ، وهم طائفة الكهنة الأرستقراطيين التى تتحالف مع السلطة الحاكمة وتثرى عن طريق هذا التحالف . . لاحظ عيسى أن عدد زوار الهيكل أقل من عدد الكهنة ورجال الدين . . كان المعبد يمتلئ بالخراف والحمام التى يشتريها زوار المعبد لتقديمها قرابين إلى الله . . قرابين تذبح داخل المعبد فوق المذبح . .

كانت كل خطوة داخل المعبد تكلف السائر نقودا . . هنا فى المعبد اليهودى ينكشف جوهر الحياة اليهودية . . إن القيمة الوحيدة التى عبدها الناس فى هذا الزمان كانت هى النقود . . صار الترف المادى أو الثراء هو القيمة الوحيدة التى يتصارع عليها الناس جميعا ، لا فرق فى ذلك بين رجال الشريعة أو رجال الحياة . .

إن الصدوقيين والفريسيين يتعاملون فى الهيكل كأنهم داخل سوق يستغلونه للإثراء على حساب الضحايا الذين يوقعهم حظهم فى دخوله . .

وكثيرا ما كان الصدوقيون والفريسيون يتشاجرون فى أمور الشريعة العليا ، ومثال ذلك مشاجراتهم بشأن توريد الأضحية اللازمة للذبيحة اليومية فى الهيكل . .

كان الفريسيون يرون أنه يجب شراء هذه الضحايا من مال الهيكل ، على حين كان الصدوقيون يعتبرون مال الهيكل من حقهم ، ومن ثم كانوا يرون أنه يجب شراء

الضحايا باكتتابات مستقلة . . كذلك كان الفريسيون يوجبون حرق الذبيحة على المذبح ، أما الصدوقيون فكانوا يأخذون هذه الذبيحة لأنفسهم . . وقد ورد فى التلمود أن الصدوقيين إذ كانوا يبيعون الحمام فى حوانيت يملكونها ، عمدوا إلى مضاعفة المناسبات التى ينبغى فيها تقديم الحمام ذبيحة ، حتى وصل سعر الحمامة الواحدة إلى بضعة دنانير ، ولاحظ الفريسيون هذا الإثراء الذى أصابته طائفة الصدوقيين ، فأفتى أحد شيوخ الفريسيين ، وهو سمعان بن عمالائيل ، بإنقاص المناسبات التى يقدم فيها الحمام ذبيحة ، وبذلك وصل سعر الحمامة إلى ربع دينار ، فكانت تلك ضربة عنيفة لأصحاب حوانيت الحمام ، التى كان يملكها الكهنة ولاسيما أولاد رئيس الكهنة . .

طاف عيسى بعينيه فى المكان . . لاحظ الفقراء الذين لا يستطيعون شراء الأضحية ولا تقديم القرابين . . لاحظ كيف يعاملهم الكهنة ويهشونهم كالذباب . .

وفكر عيسى بينه وبين نفسه . . لماذا يحرقون الحيوانات ويذهب لحمها دخانا فى الهواء . . وهناك آلاف الفقراء يموتون جوعا خارج المذبح ؟! . . لماذا يظنون أن الله يرضى عندما تتلطخ المذبحة بالدماء وتذهب الأضحية إلى بيوت الكهنة ودكاكينهم لبيعها بعد ذلك ؟ . . لماذا يجب على الفقراء أن يستدينوا ليصرفوا نقودهم فى شراء حيوانات الذبيحة ؟ . . ولماذا لا تصلح إلا الذبائح التى يربيها الكهنة ؟ . . وماذا يفعل الكهنة بهذه النقود ؟ . . وأخيرا . . . أين مكان الفقراء فى المعبد . . ؟ إن كل من هنا أغنياء معهم نقود . . أليس غريبا أن يدخل الإنسان بيت الله ومعه نقود . . . ؟!

وانصرف عيسى من المعبد وخرج من المدينة كلها إلى الجبل . .

كان صدره يشتعل بغيرة مقدسة على الحق ، وكان وجهه يزداد شحوبا ونقاء وحزنا على امتلاء الدنيا بالشرور . . ووقف عيسى فوق تلال الناصرة وصف قدميه وبدأ يصلى . . انحدرت دموعه من عينيه إلى خديه إلى الأرض . . طالت وقفته واشتد بكاؤه . . كانت هناك بذرة زهرة تموت عطشا فى الأرض ، فشربت دموع المسيح وشقت طريقها إلى الحياة . . أنقذتها دموع المسيح مثلما قدر له فيما بعد أن ينقذ الناس بدعوته . .

وفى هذه الليلة المباركة . . قبضت من الأرض روحا نبيين كريمين . . هما : يحيى وزكريا . . قتل الاثنان بيد السلطة الحاكمة . .

ونقصت الأرض كثيرا من الخير حين قبضا . . فى الليلة نفسها . . نزل الوحى على عيسى بن مريم ، وصدر له أمر الله تبارك وتعالى أن يبدأ دعوته إلى ملكوت السماء . .

انتهى الأمر ، وأغلق عيسى بن مريم الصفحة الناعمة من حياته . . صفحة التأمل والعبادة، وبدأت رحلته الشاقة المليئة بالألم . . بدأت رحلته للدعوة إلى الله . . إلى

مملكة جديدة لا يستطيع السوس أن ينخر ما فيها من قمح ذهبى تقتات عليه الروح ، مملكة ليست الشريعة فيها هى توابيت الكلمات الميتة وحروفها الباردة ، وليس الصدق فيها هو شراء الغفران بالذهب . .

مملكة تقوم على التواضع والحب . . مملكة هدف سيدها وراعيها هو خلاص الروح . .

التواضع والحب . . خلاص الروح . . الإيمان بقيامة الأموات ووجود يوم يقدم فيه البشر حسابا عما فعلوا . . تلك قيم وأفكار كانت حياة اليهود تخلو منها تماما .

إن الشريعة الموسوية تنص على القصاص . . من ضربك على خدك الأيمن فاضربه على خده الأيمن . كيف كان اليهود يطبقون شريعة القصاص؟

إذا كان المضروب قادرا . . نسف بيت الضارب ولم يكتف بضربه على خده الأيمن . وإذا كان غير قادر . . ضربه على خده الأيمن وامتلأ قلبه بالحقد لأنه لم يدمر بيته .

كانت الكراهية هى المرفأ الذى رست فيه شريعة موسى ، رغم أنه كان رجلا من رجال الحب الإلهى الكبار ، وها هى ذى شريعته ينتهى بها الأمر على أيدى القلوب الميتة ، إلى موانئ الحقد . كيف يتصرف عيسى إزاء هذا كله ؟

لقد بعث عيسى مؤيدا للتوراة كما أنزلها الله عز وجل على موسى .

لا يهدم نبى عمل نبى سابق . كل الأنبياء حلقات في سلسلة واحدة هدفها النقاء والحق وتوحيد الأحد . كيف يتصرف عيسى إزاء شريعة القصاص الموسوية ؟ كان تصرفه إلهاما من خالقه سبحانه . .

رد عيسى القوم إلى الغرض الأصلى من الشريعة ، ردهم إلى حكمتها الداخلية الأصيلة . . ردهم إلى الحب .

لن يقول المسيح لمن يضربه على خده الأيمن شيئا . . لن يسعى إلى ضربه على خده الأيمن . . سيدير المسيح عليه الصلاة والسلام له خده الأيسر . .

هذه هى شريعة عيسى . . لا تختلف شيئا عن شريعة موسى . . هى عمق بعيد من أعماق شريعة موسى . هى العمق الأخير لهذه الشريعة .

يريد عيسى أن يثبت للقوم حوله شيئا مهما ، يريدهم أن يفهموا أن الشريعة ليست أن تنتقم لنفسك وتضرب . الشريعة الحقيقية أن تسامح وتعفو وتحب . تصير قادرا على الحب . ليست القدرة على الحب أمرا فى طاقة البشر جميعا ، وليست حاسة تولد بميلادهم ، إنما هى نهاية طريق من المعاناة والألم . وهى بداية الوجود الإنسانى الحقيقى .

إن عديدا من وحوش الغاب والدواب تحب أنفسها ، وتقاتل من أجل الطعام والشراب ، وتطعم أبناءها وتدخر لهم . الفرق بين الإنسان والحيوان هو فارق في درجة الحب . . لا يستطيع الحيوان أن يتجاوز ذاته بالحب إلى ذوات الآخرين ، أما الإنسان ، فهو الكائن الذى يستطيع ذلك . . وفى ذلك يكمن مجده وإنسانيته .

أفهم المسيح قومه أن الإنسان لا يصير إنسانا إلا إذا انخلع من ذاته وأحب الآخرين . وكلما ازداد القلب الإنساني اقترابا من أبعد الناس عنه ، هنالك يقترب الإنسان من إنسانيته .

[سمعتم أنه قيل فلتحب قريبك ولتبغض عدوك . أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . وصلوا من أجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم] . إنجيل متى . .

من النقيض إلى النقيض . جاءت دعوة عيسى نقيضا لشريعة موسى . . فى الشكل الخارجى . . إذا نظرنا إلى الشريعتين نظرة سطحية .

وفى الحقيقة . . جاءت دعوة عيسى نقضا لما استحدثه الفريسيون والصدوقيون فى شريعة موسى . . وإحياء لحقيقة هذه الشريعة وأهدافها العليا .

ووسط عصر مادى مترف شديد الاهتمام بالغنى . . وسط عالم يعبد الذهب وتسوده القسوة ويحكمه الجشع وتمضى به الشكليات . . ظهرت دعوة المسيح كرد فعل مثالى عظيم السمو والنقاء . . كان المسيح يعرف أنه يدعو الناس لاتخاذ سلوك مثالى فى الحياة ، كان المسيح يعرف أن دعوته مثالية . لكن هذه المثالية - فى ذلك الوقت بالتحديد - كانت هى الحل الوحيد لشفاء الحياة من بؤسها وأمراضها الحاكمة .

وكان المسيح يعرف أن الناس جميعا لا يستطيعون الوصول إلى القمة التى يشير إليها ويبشر بها ويتحدث عنها ويدعو إليها ، ولكن كان يكفيه أن يبذل كل واحد جهده فى الصعود قليلا حتى ينجو . كانت الحياة تغرق تماما ، وكانت المثالية هى سبيل النجاة الوحيدة .

تميزت دعوة عيسى - منذ بدايتها إلى النهاية - بالشفافية والنقاء البالغين ، وبكونها دعوة تستهدف خلاص الروح ، أو دعوة تعتبر دستورا للسلوك الفردى ، وليست نظاما للحياة وقانونا للمجتمع وتشريعات محددة . لن نجد فى دعوة عيسى مثلا نظاما تشريعيا للميراث ، أو الوصية ، أو الزكاة . . لن نجد نظاما تشريعيا يقرر عقوبة للقتل أو السرقة أو الزنا . . لن نجد تشريعا للزواج والطلاق والنفقة .

تجاوزت دعوته كل هذه التفصيلات الدقيقة إلى النبع الأصيل وهو الروح . .

كان عيسى يريد إحياء الروح الإنسانى ، وقيادته إلى النور الخالق . ولهذا السبب جاء عيسى مؤيدا بالروح القدس . والروح القدس هو جبريل عليه السلام .

ونحن لا نعرف الكيفية التى أيد الله تعالى بها عيسى . . هل صحبه جبريل ولازمه طوال بعثته ؟ . . إن جبريل عليه السلام يتنزل على الأنبياء بالرسالات ، أو بالمعجزات ، أو ينزل على قومهم بالعقوبات . . لكنه لا يمكث معهم طيلة الوقت ، فهل لازم جبريل عيسى حتى رفع عيسى . . ؟ يكاد القلب يطمئن لهذا التفسير ، فقد كان فى حياة عيسى شيء ملائكى . . وكانت لديه قدرة خارقة على المعجزات ، وبلغت قدرته حد إحياء الموتى بإذن الله ، كما بلغت قدرته حد النفخ فى طين صنع كهيئة الطير فإذا هو يطير بإذن الله .

لم يكن عيسى يقرب النساء أيضا . . عاش حياته حتى رفعه الله لم يمس امرأة ولم يتزوج . . وهذه صفة ملائكية أيضا ، فقد كان معظم أنبياء الله تعالى يتزوجون ويملكون عديدا من النساء ، وتقدر كتب اليهود عدد نساء بعض أنبيائهم [كسليمان مثلا] بألف امراة ، ولا نريد أن نتوقف عند الرقم لأن معظم الأرقام تعرضت لعوامل التعرية والمحو والتبديل . غير أننا نريد أن نشير الى طبيعة عيسى التى ارتفعت على دواعى الجسد ورغباته المشروعة .

لقد عاش حياته متبتلا كابن خالته يحيى . . وإذا كان يحيى ناسكا يعيش فى الجبال والصحارى ويبيت فى المغارات والكهوف ، فالأمر يبدو طبيعيا بالنسبة له . أما عيسى فعاش وسط مجتمع المدينة . . وليس لاستغنائه عن النساء كلية ، وليس لمعجزاته الباهرة المتصلة بالروح فى رأينا غير تفسير واحد ، هو تأييده بروح القدس طيلة الفترة التى استغرقتها دعوته .

وتلك نعمة لا نعرف أحدا من الأنبياء أوتيها من قبل . قال تعالى فى سورة المائدة :

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[١] . .

---

(١) الآيتان ١١٠ ، ١١١ سورة المائدة .

تحدد الآيات السابقة خمس معجزات لعيسى . الأولى : تكليمه للناس فى المهد . الثانية : تعليمه التوراة . . وكانت التوراة التى أنزلت على موسى قد اختفت تحت ركام التحويرات والتبديلات والتفسيرات والتخريجات المتعاقبة لفقهاء اليهود . الثالثة : تصويره من الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيه فيكون طيراً . الرابعة : إحياؤه الموتى . الخامسة : إبراؤه الأكمه (من ولد أعمى) والأبرص . [المريض بجلده ولا شفاء له) .

وهناك معجزة سادسة يذكرها القرآن الكريم فى سورة المائدة . . فى قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾[(١)] .

وكانت المعجزة السادسة هى إنزال المائدة من السماء بطلب الحواريين . وهناك معجزة سابعة وردت فى سورة آل عمران ، وهى إخباره عليه السلام بأمور غائبة عن حسه ولم يعاينها ، فقد كان ينبئ صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم :

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[(٢)] .

هذه هى معجزاته السبع . . تسبقها معجزة ميلاده من غير أب . . وتليها معجزة رفعه من الأرض حين حاولت السلطات الحاكمة صلبه . من حق القارئ أن يتساءل : لماذا جاءت معجزات عيسى من هذا النوع ؟ . . نعرف أن المعجزة أمر خارق يؤيد به الله تعالى نبيه ، ولكى يكون التأييد متكاملا ينبغى أن تجىء المعجزة مناسبة لعصرها متفقة مع زمانها بحيث تؤثر فى نفوس القوم وتهز أعماقهم وتجعلهم يؤمنون أن صاحب هذه

---

(١) الآيات من ١١٢ إلى ١١٥ سورة المائدة مدنية . (٢) من الآية ٤٩ سورة آل عمران مدنية .

المعجزة نبى أرسله الله تعالى . والمعجزة هى الأمر الخارق . . وبرغم أن الأمر الخارق يكفى وحده للإقناع . . خاصة فى طفولة البشرية . . فإن حكمة الله تعالى اقتضت أن يجىء هذا الأمر الخارق مناسبا لزمانه ومكانه .

وهكذا اختلفت معجزات الرسل . . بعث صالح وسط قوم يرون النوق وهى تلد ، لم ير أحدهم ناقة ولدت من جبل ، أو تنشق عنها صخور الجبل . . وكانت معجزة صالح هى ناقة الله التى خرجت يوما من صخور الجبل . وبعث موسى لقوم شاع فيهم السحر ، وكان للسحرة مكان مرموق ، فكانت معجزته تشبه السحر فى مظهرها الخارجى ، ولكنها فى حقيقتها كانت إبطالا للسحر ونسفا له (العصا التى تحولت إلى ثعبان يأكل عصىّ السحرة) .

وبعث عيسى لقوم ماديين ينكرون الروح تماما ، وينكرون البعث كلية ، ويزعمون أن الإنسان جسم بلا روح . قوم يعتقدون أن دم المخلوق هو روحه أو نفسه . تقول التوراة التى بأيدى اليهود فى تفسير النفس . . إنها الدم . جاء فيها : «لا تأكلوا دم جسم ما ، لأن نفس كل جسد هى دمه » . .

بعث عيسى وسط قوم سادتهم فلسفة أساسها أن خلق الكون كان له مصدر أول . . كالعلة عن معلومها . . وكان له وجود سابق .

وسط هذا العصر المادى الذى أنكر الروح تماما . . كان منطقيا أن تجىء معجزات عيسى إعلانا لعالم الروح .

وهكذا ولد عيسى من غير أب . تكفى هذه المعجزة لإقناع القوم أن خلق الكون لم يكن له مصدر أول . لم يكن له وجود سابق . . نحن أمام خالق أوجد نظاما لكل شىء ، وجعل أسبابا لكل شىء ، جعل نظام ولادة الأطفال هو المجىء من اتصال رجل بامرأة . .

لكن هذا الخالق - سبحانه وتعالى - يخلق الأسباب فتخضع له الأسباب ولا يخضع هو لها . . سبحانه . . وهو بمشيئته الطليقة الحرة يستطيع أن يأمر بميلاد صبى من غير أب فيولد .

وهكذا ولد عيسى . . بلا أب . تكفى نفخة الروح . .

﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[1] .

وهكذا جاءت ولادة عيسى معجزة خارقة تؤكد أمرين :

---

(١) من الآية ٩١ سورة الأنبياء مكية .

١ ـ حرية المشيئة الإلهية ، وعدم تقيدها بالأسباب ، لأنها بداهة هى خالقة الأسباب .

٢ ـ خطورة الروح ، وإعلان قيمتها وشأنها بين قوم التصقوا بالأجساد وسادهم إنكار الروح .

ولو نظرنا فى معظم معجزات عيسى ، فسوف نراها تؤيد وجهة النظر هذه .

هناك معجزة تصوير عيسى من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيها فتكون طيرا .

هذه المعجزة تؤكد وجود الروح . لقد كانت قطعة الطين جسدا لا يمكن وصفه بالحياة . فلما نفخ فيها عيسى تحولت قطعة الطين إلى طير فيها حياة . . إن شيئا غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه . هذا الشىء المنفصل عن الجسم هو الروح . . دبت الروح فى الصلصال فصار طيرا . . كأن الروح هى القيمة الحقيقية وليس الجسد . .

وهناك معجزة إحياء الموتى . . أليست إعلانا قارعا عن الروح ووجود اليوم الآخر ووجود قيامة للأموات وبعث؟ هذا ميت قد أكلته الأرض . تحللت أحشاؤه وعظامه ، أوشكت أن تصير رميما أو صارت . . وها هو ذا المسيح يناديه . فإذا هو حى ينهض من موته .

لو كان هذا الميت جسدا فقط كما يقول اليهود ، لما كان ممكنا له أن ينهض من الموت ، لأن الجسد قد تحلل . . لكن الميت ينهض من الموت . يعود جسده إلى الحياة وينهض من مقبرته ويتحدث . . ما الذى حدث هنا . . غير أن عيسى استدعى روحه ـ بإذن الله ـ فعادت إلى الجسد فنهض الجسد . . ؟ تحول من تراب إلى جسد .

كأن الروح هى القيمة الحقيقية وليس الجسد . . كأن هناك بعثا إذن وقياما يوم القيامة .

ليست المسألة مستحيلة كما يقول اليهود ، لأن الأجساد تتحول إلى تراب يتطاير فى الهواء بعد الموت . ليست مستحيلة وإنما هى ممكنة . . ودليل ذلك قيام هؤلاء الموتى أمام أعينهم الآن . . لقد أحياهم عيسى ليثبت لقومه أن قيامة الأجساد من الموت حق ، وأن اليوم الآخر حق . هناك معجزة إخبار القوم بما يدخرون فى بيوتهم بغير أن يدخل بيوتهم أو يحدثه عنها أحد . هذه المعجزة تثبت أن الحواس ليست هى القيمة الحقيقية . . إن عيسى لم ينظر لما فى بيوتهم ، ولكن روحه تستطيع أن تنظر وتحدثهم .

كأن الروح هى القيمة الحقيقية وليس الجسد . . وهكذا جاءت معجزات عيسى عليه السلام إعلانا عن خطورة الروح وطلاقة المشيئة الإلهية .

جاءت معجزاته ـ كما يقول أستاذنا محمد أبو زهرة ـ من جنس دعايته ، وتناسب هدف رسالته ، وهو الدعوة إلى تربية الروح ، والإيمان بالبعث والنشور ، وأن هناك

حياة أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وهل ترى أن معجزة إحياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار فى إنكاره؟ أو تسمح لجاحد البعث والنشور بأن يستمر فى جحوده ؟ وقد أسلفنا لك القول بأن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة . وعدم الإيمان باليوم الآخر ، فكان إحياء الموتى صوتا قويا يحملهم على الإيمان ، ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون .

أغلق عيسى الصفحة الناعمة من حياته وبدأ دعوته إلى الله ، مؤيدا بالروح القدس ، ومعجزاته الباهرة . . يحدثنا القرآن الكريم أن دعوة المسيح لا تختلف فى جوهرها عن دعوة غيره من الأنبياء . . وهى الإسلام بمعناه الأصيل عند الأنبياء . . بمعنى التوحيد الكامل ، وإسلام الوجه لله . .

- ﴿ اعبدوا الله ربى وربكم ﴾ .

يحدثنا القرآن أن قائل هذه الكلمة هو عيسى . وهى نفسها الكلمة التى يقولها الأنبياء جميعا . تختلف أسماؤهم وصفاتهم ومعجزاتهم وملابسهم ولغاتهم وأعمارهم وأشكالهم وألوانهم . . لكنهم يتفقون جميعا فى إسلام الوجه والقلب لله وإسلام الروح لله ، والإيمان بأن الله هو ربهم ورب العالمين . لا شريك له فى الملك ، ولا مثيل له فى الكون . هو واحد أحد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

لم يقل عيسى فى مسألة التوحيد أقل أو أكثر مما قاله أنبياء الله جميعا . ولقد جاء القرآن بعد خمسمائة عام على التقريب من رفع عيسى . ولعلم الله الأزلى بما سيصير إليه أمر المسيحية من اختلاف حول طبيعة عيسى حرص القرآن الكريم على أن يكشف عن حوار لم يقع بعد . . قال تعالى فى سورة المائدة :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] .

---

(١) المائدة : ١١٦ ، ١١٧ .

يفيد النص القرآنى صراحة أن الدعوة المسيحية التى نزل بها عيسى كانت دعوة إلى التوحيد، يفيد النص تبرؤ عيسى من كل ما قيل حول بنوته أو ألوهيته . .

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾(1) .

انطلق عيسى فى دعوته إلى الله . قامت دعوته على أساس أنه لا توسط بين الخالق والمخلوق ، لا توسط بين العابد والمعبود. وأنزل الله تبارك وتعالى عليه الإنجيل ، وهو كتاب مقدس ، جاء تصديقا للتوراة، وجاء إحياء لشريعتها الأولى ، وجاء مؤيدا للصحيح من أحكامها ، وكان الإنجيل نورا وهدى وموعظة للمتقين .

وقد اصطدم عيسى بتفسير اليهود الحرفى للشريعة ، وطمأن عيسى الغيورين على الشريعة والحقيقة ، بأنه لم يأت لينقض الشريعة ، وإنما جاء يكملها ويتمم نبوءات الأنبياء. غير أنه فى تفسيره للشريعة ، تجاوز قشورها وحرفيتها إلى حقيقة جوهرها .

أفهم عيسى اليهود أن الوصايا العشر لموسى تنطوى على معان أعمق مما يتصورون . إن الوصية السادسة لا تنهى عن القتل المادى فقط كما فهموها ، وإنما تنسحب على كل اعتداء وكل إساءة للآخرين مهما يقل شأنها . والوصية السابعة لا تنهى عن الزنا (بمعنى اتصال رجل بامرأة ليست من حقه) ، وإنما تنسحب على كل أنواع الزنا ، وتستطيع العين أن تزنى لو نظرت لما ليس من حقها باشتهاء ورغبة . .

وقال عيسى : إنه أفضل للإنسان أن يستغنى عن عينه التى تستطيع أن تهلكه ، بدلا من أن يهلك معها . كانت الشريعة تنهى عن الحنث باليمين ونكث العهد ، فأفهم عيسى قومه أنه ينبغى الامتناع عن الحلف والقسم امتناعا تاما ، لأنه «خطأ عظيم أن يصير اسم الله تعالى مبتذلا على ألسنة الناس» . (إنجيل متى ٢١ـ٤٨) .

اصطدم عيسى أيضا بذلك التيار المادى السائد فى المجتمع ، ولهذا حذر الناس من النفاق والرياء والطمع فى مدح الناس ، كما حذرهم من الطمع فى ثروة العالم ، فلا ينبغى أن يكنزوا لأنفسهم كنوزا فى الأرض ، أى لا ينبغى أن يحصروا اهتماماتهم فى الأرضيات لأنها فانية زائلة ، وإنما ينبغى أن يحصروا اهتماماتهم فى السمائيات لأنها باقية أبدية .

أشار عيسى على الناس أن يكونوا حكماء فى اختيار كنزهم ، لأن طابع عقولهم وبالتالى لون حياتهم سوف يكون تبعا لذلك إما جسديا وإما روحيا ، لأنه حيث يكون كنز الإنسان ، يكون هناك قلبه كذلك . فإذا كان القلب متجها إلى نور السماء ،

---

(١) الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .

أضاءت حياة الإنسان كلها ، فإذا اتجه القلب إلى ظلام الأرض صارت حياته كلها مظلمة . .

حذر عيسى قومه من الرياء ومحبة العالم ، ودعاهم إلى التدقيق فى اختيار السيد الذى يخدمونه ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يخدم سيدين فى وقت واحد . فإما أن يجعل المال سيدا له ، وإما أن يكون الله عز وجل سيدا له . فإذا عبد المال ابتعد ذلك به عن عبادة ربه ، ومن ثم ينبغى ألا يهتم الناس بأمور هذا العالم ، كالمأكل والملبس ، بحيث يسيطر عليهم القلق والانزعاج والشك فى رعاية الله لهم . فقد وعد الله أن يوفر لعبـاده كل ما يلزم لحياتهم ، فإذا سيطر عليهم القلق والشك والانزعاج ، فإنما ينشأ ذلك من شكهم فى رعاية الله لهم ، وعدم ثقتهم بوعوده ورحمته ورعايته للبشر . فالله هو الذى خلقهم وهو الذى يعولهم ويرعاهم ، لأنه يعول ويرعى حتى أقل الكائنات شأنا كطيور السماء وزنابق الحقل .

أفهم عيسى قومه أن الاهتمام بالعالم خطيئة وثنية لا تليق بالمتدينين ، لأن الوثنيين يقبلون هذه الأمور بسبب أنهم لا يعرفون ما هو أفضل منها . وأما المتدينون فيعرفون أن هناك عناية إلهية تدعوهم إلى الثقة بالله ، واحتقار العالم .

الله يعلم احتياجاتهم أكثر مما يعلمونها ، وهو كفيل بإجابتها ، فالأحرى بهم إذن أن يطلبوا ملكوت الله وبره . أى حياة الروح وما تكفله من سعادة أبدية . ومن ثم ينصح عيسى بألا يربك الناس أنفسهم بحوادث المستقبل ولا بأمور الغد . لأن « الغد يهتم بشأن نفسه » . وإذا كانت الاحتياجات والمتاعب تتجدد كل يوم ، فإن المعونة والزاد الإلهى يتجددان كذلك .

اصطدم عيسى أيضا بتلك الثنائية التى يعامل بها الناس بعضهم بعضا ، فبينما يقبل الناس لأنفسهم الخير ، نراهم يقدمون الشرور لغيرهم . وكانت حياة اليهود وسط هذه الثنائية قد خنقت العدالة البشرية تماما ، وأوصى عيسى بن مريم الناس بأن يسيروا فى معاملة الناس على مقتضى القاعدة الذهبية التى تقول : « كل ماتريدون أن يفعل الناس بكم ، فافعلوه أنتم أيضا بهم » . استمر عيسى فى دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما استمر يدعو الناس إلى تنقية الأرواح وتطهير القلوب وغسل الضمائر والدخول فى ملكوت السماء .

وأثارت دعوته كهنة اليهود ، فقد كانت كل كلمة من كلمات عيسى ترفع السلاح فى وجوههم وتعلن الحرب عليهم وتعريهم وتكشف نفاقهم ، وابتعدت السلطات الرومانية المحتلة عن النزاع فى بدايته على أساس أنه خلاف داخلى بين طوائف اليهود ، خلاف يرضى السلطات الحاكمة إذ يصرف المحكومين بمشكلاتهم ونزاعاتهم عن قضايا الاحتلال

وبدأت المؤامرات تدبر لعيسى من الكهنة . أرادوا إحراجه ، وإثبات أنه جاء يحطم شريعة موسى . . وكانت شريعة موسى تقضى برجم الزانية . وأحضر كهنة اليهود امرأة خاطئة تستحق الرجم . . التفوا حول عيسى يسألونه :

ـ ألا تقضى الشريعة برجم الخاطئة ؟

قال عيسى : بلى .

قالوا : هذه المرأة خاطئة .

نظر عيسى إلى المرأة ، ونظر إلى الكهنة ، كان يعلم أن الكهنة أعظم خطأ من المرأة ، كان يعرف أنهم أشد ظلما منها . وكان الكهنة ينتظرون جوابه : فإن قال إنها لا تستحق القتل ، فهو يقف ضد شريعة موسى ، وإن قال إنها تستحق الموت فقد هدم بنفسه شريعة الحب والتسامح التى جاء بها . فهم عيسى المؤامرة . . وابتسم فأضاء وجهه ، ونظر إلى الكهنة ، وعاد ينظر إلى المرأة وقال لهم : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر . .

ارتفعت كلمته وسط سكون المعبد تضع قانونا جديدا للحكم على الخطإ . . ليحكم على الخطإ من لا يخطىء . . لا يستحق أحد من البشر الخطاة أن يدين غيره من البشر أو يحكم عليه . . إنما يحكم الله المنزه المتعالى وحده . . والله أرحم الراحمين .

خرج عيسى من المعبد فأسرعت المرأة وراءه . . أخرجت من ثيابها زجاجة من العطر الثمين ووقفت أمام عيسى . . وهوت على قدميه تقبلهما وتغسلهما بالعطر والدموع . .

بعدها جففت قدميه بشعرها . كان المسيح يمثل لها ـ كما يمثل للملايين غيرها ـ ذلك الأمل الأخير فى الخلاص . . وتلك القدرة اللامتناهية على الرحمة . . .

وخرج وراء عيسى كبير كهنة اليهود . وقف يشهد المنظر ويعجب بينه وبين نفسه من رحمة عيسى وسماحته . ونظر عيسى إليه وسأله : دائن له مدينان : أحدهما مدين بخمسمائة دينار ، والآخر بخمسين .

قال الكاهن : نعم .

قال عيسى : لم يكن مع أى واحد منهما ما يفى بدفع دينه . . وسامحهما الدائن .

قال الكاهن : نعم .

ـ أيهما يكون أكثر حبا له . . ؟

قال الكاهن : الذى سامحه فى الأكثر .

قال عيسى : حكمت بالصواب . . انظر لهذه المرأة . . لقد دخلت أنا بيتك فلم تقدم لى ماء لغسل وجهى . . ولكنها غسلت قدمى بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها . . كذلك لم تقبلنى أنت قبلة واحدة ، لكنها لم تكف عن تقبيل قدمى . . قلبك أنت عظيم القسوة ، ولكنها تحمل قلبا يمتلئ بالحب . . ومن أحب كثيرا غفرت له خطاياه .

استدار عيسى إلى المرأة وأمرها أن تنهض من الأرض وهو يقول :

ـ اللهم اغفر لها خطاياها .

أفهم عيسى كهنة اليهود ، أن الدعاة إلى الله ليسوا جلادين منتدبين لتطبيق حكم الشريعة دون نظر الى المجتمع الذى تجرى فيه الخطيئة . إنما يجىء الدعاة إلى الله أساسا رحمة بالناس . والرحمة هى هدف كل هذه الدعوات الإلهية . .

إن إرسال النبى هو ذاته يعنى رحمة الله تعالى بقومه وزمانه . .

استمر عيسى يدعو الله أن يرحم قومه ، ويدعو قومه أن يرحموا أنفسهم ويؤمنوا بالله .

كانت حياته آية من آيات الزهد والنسك .

قال معتمر بن سليمان . . فيما يرويه ابن عساكر : خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف . . خرج حافيا باكيا مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش ، فقال : السلام عليكم يابنى إسرائيل ، أنا الذى أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر .

ـ أتدرون أين بيتى ؟

قالوا : أين بيتك يا روح الله ؟

قال : بيتى المساجد ، وعطرى الماء ، وطعامى الجوع ، وسراجى القمر بالليل ، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس ، وريحانى بقول الأرض ، ولباسى الصوف ، وشعارى خوف رب العزة ، وجلسائى الفقراء والمرضى والمساكين . أصبح وليس لى شىء ، وأمسى وليس لى شىء . وأنا طيب النفس غير مكترث . فمن أغنى منى وأربح ؟!

مضى عيسى فى دعوته . . مؤيدا بمعجزات الله له . صنع لقومه من الطين كهيئة الطير ثم نفخ فيه فصار طيرا بإذن الله . . كان طرف ثوبه البسيط المتواضع إذا مس مريضا شفى هذا المريض . وكان عيسى إذا وضع يديه فوق أعمى أو أبرص شفى على الفور . كان عيسى مؤيدا بمعجزة هائلة . . هى القدرة على دعوة الموتى من قبورهم فإذا هم يخرجون أحياء بإذن الله .

يقول المفسرون إن عيسى أحيى أربع أنفس : ألعازر ، وكان صديقا له . وابنا لعجوز . . وبنتا كانت وحيدة أمها . . وهم ثلاثة ماتوا فى أيامه . . فلما رأى اليهود ذلك قالوا له : إنك تحيي من كان موتهم قريبا فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة ، وطلبوا منه أن يبعث من الموت سام بن نوح .

يقول المفسرون إنه سألهم أن يدلوه على قبر سام بن نوح . . فخرج القوم وهو معهم حتى انتهوا إلى قبره ، فدعا الله أن يحييه . فخرج سام بن نوح من قبره وقد شاب رأسه .

قال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن فى زمانكم شيب . . ؟!

قال سام : ياروح الله . إنك دعوتنى فسمعت صوتا يقول : أجب روح الله . فظننت أن القيامة قد قامت . فمن هول ذلك شاب رأسى .

ومهما يكن من أمر القصص التى تروى عن إحياء عيسى للموتى ، فنحن لا نعرف من السياق القرآنى تفصيلات محددة لذلك ، كل مايذكره الله تعالى أن عيسى أحيى الموتى بإذنه ، ونحن نصدق أنه أحياهم ، وإن كنا لا نعرف هل عادوا بعدها إلى الموت أم عاشوا فترة .

استمر عيسى يدعو الناس الى الله . ويضع لهم ما يمكن تسميته بدستور الروح . . صعد إلى الجبل . . ووقف حوله أتباعه . . أدار عيسى بصره فيمن آمن به . . كانوا مجموعة من الفقراء والتعساء والحزانى ومساكين الروح . . كان العدد قليلا شأن أتباع الأنبياء دائما .

وغطت الجبل سحابة رقيقة وهبط رذاذ خفيف . . وأنشأ عيسى يتحدث :. طوبى للمساكين بالروح . . فإن لهم ملكوت السماوات . طوبى للحزانى . فإنهم سيتعزون . طوبى للودعاء ، فإنهم سيرثون الأرض . طوبى للجياع والعطاش إلى البر . . فإنهم سيشبعون . طوبى للرحماء ، فإنهم سيرحمون . طوبى لأنقياء القلب فإنهم سيعاينون الله . طوبى للمضطهدين من أجل الحق . فإن لهم ملكوت السماوات . أنتم ملح الأرض . . فاذا فسد الملح ، فأى شىء يرده ملحا من جديد . .

تأمل عمق المعنى فى عبارته «أنتم ملح الأرض» . إن الملح هو الذى يمنح الأشياء طعمها المميز ومذاقها الخاص ، وبغير الملح يبدو الطعام بلا معنى . . أو غير محتمل . .

وبغير المؤمنين يبدو طعم الحياة ذاته بلا معنى . . وبغير المسلمين وجوههم وقلوبهم وأعمالهم لله تبدو الحياة قاسية وغير محتملة . . ويضيع معنى استخلاف الله للإنسان فى الأرض ، ويضيع معنى عظمة الإنسان المتمثل في كونه عبد الله . . وتمتلئ الحياة بقسوة الشرور المنتصرة . ولهذا كان عيسى حريصا على حفنة الملح القليلة التى تتبعه . .

كـان حـريصـا على نقـاء هذا الملح . . أفـهـمـهم أنهم «مـعنى» الحـيـاة . . و «طعم» الأرض . . و «مذاق» الوجود . . إنهم مسلمون . . يمثلون الخير . . فإذا فسدوا هم . . وهم أصلا مكلفون بمنح الحياة طعمها النقى . . فأى شىء يمنح الحياة نقاءها إذا فسد النقاء ذاته .

وأوحى الله تعالى إلى ملح الأرض أن يؤمن بعيسى . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

اعترف الحواريون بالإسلام . . كما اعترفت ملكة سبأ بإسلام سليمان وأسلمت معه .

كما اعترف كل أنبياء الله بالإسلام . . تنحصر حقيقة رسالات الأنبياء فى الإسلام . . ويدعو كل أنبياء الله إلى التوحيد والإسلام . . والإسلام - فى رأينا - معنى أدق من التوحيد . . إن اعترف الإنسان بالله تعالى والإيمان بوحدانيته فى خلق الكون ، لا يمنع الإنسان كإنسان من ارتكاب الخطايا . . أما إسلام القلب والجوارح والفكر لله . . فدرجة أعلى قليلا . . هذه درجة خضوع الخاضعين وقمة توحيد الموحدين ، وهى اتساق الفعل مع الفكر وتناغمه . . وهى ابتعاد الإنسان عن الخطيئة وخلوصه لله . .

ينبئنا القرآن الكريم أن الله تعالى أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا به وبرسوله عيسى . .

نتوقف قليلا عند « وحى » الله تعالى للحواريين . . نعلم أن الله تعالى يوحى إلى البشر والمخلوقات . .

قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾(٢) . .

وقال تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾(٣) . .

---

(١) الآية ١١١ سورة المائدة مدنية . (٢) من الآية ٦٨ سورة النحل .

(٣) من الآية ٧ سورة القصص .

والمراد بالوحى هنا هو إلهام هذه المخلوقات أن تتجه بفطرتها التى فطرها الله عليها إلى ما أراده الله لها .

ألا تذكر إجابة موسى عن سؤال فرعون :

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾(١) ؟ . .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾(٢) . .

إن المعنى واحد هنا وهناك . . وينطبق نفس المعنى على الحواريين . . كان وحى الله لهم إلهاما ألهمهم إياه لخيرهم وسعادتهم . . ولا ينافى هذا الوحى اختيارهم وإرادتهم ولا يتعارض مع حريتهم .

لقد نظر الله فى قلوبهم فرآها على الخير . . رآهم ملح الأرض حقا . . فأوحى إليهم أن يؤمنوا به وبرسوله فآمنوا . . وشهدوا أنهم مسلمون . . ويبدو أن الحواريين كتموا إيمانهم حتى أحس عيسى الكفر من قومه فنادى فيهم : من أنصارى إلى الله ؟ قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٣) . .

يوحى النص القرآنى أن عيسى دعاهم إلى الإسلام فأسلموا . . ويؤكد النص القرآنى أن عيسى بشر برسول يأتى من بعده اسمه أحمد . يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(٤) .

لا نعرف على وجه التحديد متى بشر عيسى بهذا الرسول الذى سيأتى من بعده (وهو أحمد صلى الله عليه وسلم) . . أكان تبشيره به فى بداية بعثته إلى الناس ؟ أم

---

(١) من الآية ٤٩ سورة طه .
(٢) من الآية ٥٠ سورة طه .
(٣) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ سورة آل عمران مدنية .
(٤) الآية٦ من سورة الصف مدنية .

كان تبشيره به فى ختام دعوته وقبل رفعه الى السماء ؟ يوحى سياق النص القرآنى أن هذا التبشير كان فى بداية دعوته . . لقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) . .

والضمير هنا يعود لعيسى عليه السلام . والآية إذن توحى أن عيسى بشر بمحمد أو أحمد (عليه الصلاة والسلام) حين بعثه الله لقومه ثم أجرى على يديه المعجزات الخارقة فى إحياء الموتى والنفخ فى الطين . . فلما جاءهم بهذه البيانات اتهموه بالسحر . . ويدرك عيسى عليه السلام أن التهمة وجهت لمعظم الأنبياء قبله ، يعرف أنها ستوجه لآخر الأنبياء بعده ، ولذلك يمضى النبى الكريم فى دعوته متجاوزا اتهام قومه له بالسحر . . وتزداد حدة الصراع بينه وبين بنى إسرائيل . كانوا غلاظ القلوب قساة تجمدوا على القشور وضاع منهم جوهر التوحيد . . ها هو ذا عيسى يجيئهم بما يهدم كل أفكارهم وحياتهم ونظمهم . . إن دعوته إلى الحق والعدالة والسلام . . كانت تعنى فى نفس الوقت إعلان الحرب على الحياة الظالمة القائمة التى تفتقر إلى الحق والعدالة والسلام .

يقول إنجيل متى على لسان عيسى : لا تظنوا أنى جئت لأحمل سلاما إلى الأرض . ما جئت لأحمل سلاما . بل سيفا .

إن معنى الكلمات يكشف حقيقة مهمة من حقائق دعوات الأنبياء . إنهم محاربون أساسا . تختلف أسلحتهم التى يستخدمونها فى الحرب ، لكنهم فى نهاية الأمر محاربون . يبدءون حروبهم بفكرة . فكرة تشهد أن لا إله إلا الله .

وتصطدم الفكرة بكل الآلهة البشرية والذهبية والحجرية . . وتقلق الفكرة هدوء الطغاة والجبابرة وتهدد مصالحهم . . ويتحرك الملوك والحكام والقادة عادة ضد النبى إلا من هدى الله . . يقف الملأ من القوم ضد النبى . والملأ هم الرؤساء كما تبينا فى قصة نوح ومن بعده .

ثم يستمر النبى فى حربه الفكرية . . لقد وضع أساس الحرب بإعلان ألوهية الله وحده . بعد هذا الأساس المكين ، يرسى النبى أساس العدالة . ليس من حق أحد أن يستذل أحدا أو يستعبده لأن العبودية لا تكون إلا لله وحده . وفى عالم البشر ليس هناك آلهة . . البشر متساوون فيما بينهم . . وإذن ليس من حق أحد أن يستغل طاقة الناس لبناء مجده الشخصى أو الإثراء على حسابهم أو هضم حقوقهم أو الإساءة إليهم بأى صورة من صور الإساءة .

---

(١) من الآية ٦ سورة الصف مدنية .

وإذن تعنى الدعوة (دعوة أى نبى) فى عمقها البعيد . . تعنى الثورة على كل الأنظمة الفاسدة التى يقيمها رؤساء القوم . .

هى دعوة حرب إذن . وعلى النبى أن يحمل السلاح . . بعد إرساء الفكرة تبدأ الحرب . . ويلجأ النبى للسيف . يلجأ للسلاح . ويختلف نوع السلاح من نبى لآخر . .

فى البداية . . لا يستخدم النبى فى معاركه غير سلاح الإقناع الهادئ والعقل .

وتستمر المعركة . ويجد النبى نفسه مضطرا لاستخدام السلاح ، يفرض عليه الأعداء موقفا يضطره لاستخدام السلاح ، ويلجأ النبى للسلاح ، وهنا يختلف نوع السلاح من نبى لآخر . قد يكون سلاح النبى معجزة تضع حدا لحياة أعدائه وتفنيهم كالطوفان (نوح) ، أو الريح (هود) . وقد يكون سلاح النبى معجزة تعينه على انتصاره على أعدائه بشكل حاسم كتسخير الجن والطير له (سليمان) . وقد يكون سلاح النبى معجزة تنجيه من كيد أعدائه ، كتحول النار إذا ألقى فيها إلى برد وسلام (إبراهيم) . وقد يكون سلاح النبى معجزة خارقة تؤيده فى دعوته كإحياء الموتى (عيسى) . وقد يكون سلاح النبى سيفا يمسكه فى يده ويحارب به عن دعوته (محمد) .

تختلف أسلحة الأنبياء فى النوع . . والكيف ، والكم . يعرف الله تعالى ظروفهم أفضل مما نعرف ، وهو الذى يختار نوع السلاح لأنبيائه . وليس هناك نبى قبع فى مكانه ولم يقاتل ولم يتحرك ولم يضطهد ولم يخرجه قومه ولم يحتمل فى الله غاية العناء . وبقدر احتمال الأنبياء وقتالهم عن دعوة الله يستحقون مراكزهم عند الله .

ولقد أعلن عيسى بن مريم عليه السلام أنه مقاتل جاء يحمل السلاح . . إن كلماته وحدها تعنى هدم المجتمع القائم من أساسه .

لقد كان المجتمع . . أيام عيسى . . يقوم على الشرك والخطيئة والكذب والنفاق والمادية والرياء والشكليات والظلم وانعدام الحرية .

وجاء عيسى فهدم بكلماته هذا كله . . أفهم عيسى قومه أن دعوته إلى الله ليست فى جوهرها دعوة سلام ، إنما هى دعوة إلى الحرب . لا قيمة لشىء لا يدافع صاحبه عنه حتى آخر قطرة من دمه . إن الأفكار والقيم والمبادئ لا تستمد قيمتها من مثاليتها فحسب ، وإنما تستمد قيمتها من الجهد الذى يبذله أصحابها الأوائل دفاعا عنها ، وتستمد قيمتها من تحول الأفكار إلى حياة نظيفة . وبغير الحرب وحمل السلاح . . تبقى دعوات الأنبياء أفكارا مجردة مثالية ، لا تحرك أحدا ولا تزعج أحدا ولا تثير أحدا للانقضاض عليها .

ولقد رأينا فى معظم قصص الأنبياء كيف وقفت أغلبية المجتمع ضد النبى وحاربته . ابتداء من السخرية وانتهاء بمحاولات القتل أو القتل نفسه .

ومن المفهوم ضمنا أن الأنبياء يدافعون عن الحق الذى يحملونه . ولقد أحسسنا فى قصص الأنبياء بهجوم المجتمعات والرؤساء على الأنبياء ، ولم نحس - بنفس القوة - بهجوم الأنبياء في الحرب . وتفسير ذلك يسير . . فإن الحرب التى يشنها الباطل على الأنبياء تصاحبها أجهزة دعاية قوية ، وتصاحبها اتهامات وشتائم وضجيج ، أما الأنبياء فيصدرون عن منطق الواثق من الحق . وهو منطق لا يلجأ إلى السباب أو الاتهامات أو الضجيج . . إنما يستمر الأنبياء في دعوتهم التى تقوم على استثارة العقل وإيقاظ القلب وتنقية الروح ، وهذا الاستمرار يمثل لأعداء النبى وأعداء الله مشكلة حقيقية .

إن دعوة النبى تغوص فى أعماق الأسرة الواحدة . . يؤمن الأب ويكفر الابن ، أو يؤمن الابن ويكفر الأب . أو تؤمن الزوجة ويكفر الزوج . أو يؤمن الزوج وتكفر الزوجة .

ويبدأ اختلاف الابن مع أبيه والزوجة مع زوجها . . تصل الخصومة إلى البيوت ذاتها .

بوقوع هذا الأمر يتحرك المجتمع ضد النبى أكثر وأكثر . . تزداد حدة العداوة والكراهية والحرب ضد هذا الذى جاء يفرق الأب عن ابنه بالحق ، أو جاء يفرق البنت عن أمها بالحق . ويضع النبى (أى نبى) دستورا لمن يتبعه . .

والدستور هو القانون الأساسى الذى يبطل القوانين لو لم تكن توافقه ، يتمثل هذا الدستور في كلمة النبى . (حب الله والنبى أولا . .) . وبعد ذلك يأتى حب البشر . .

هذه المعانى تنعكس بوضوح كاف فى كلمات عيسى التى أوردهاإنجيل متى فى الفصل العاشر . قال السيد المسيح : لا تظنوا أنى جئت أحمل سلاما الى الأرض . ما جئت لأحمل سلاما بل سيفا . جئت لأجعل الابن يختلف مع أبيه . والابنة مع أمها . . وزوجة الابن مع حماتها . فيكون خصوم المرء من أهل بيته . من أحب أباه وأمه أكثر منى فلا يستحقنى . . ومن أحب ابنه أو بنته أكثر منى فلا يستحقنى . من ربح حياته خسرها . . ومن خسر حياته من أجلى ربحها .

يقول شراح الإنجيل : « كانت فكرة اليهود عن المسيح أنه حين يأتى سيهب كل أتباعه ثروة ومجدا فى هذا العالم ويمنحهم الطمأنينة والسلام . فلما جاء المسيح أفهم تلاميذه أن هذا لن يكون . لأنه إذا كان سيهب أتباعه سلاما مع الله ومع أخوتهم ومع ضمائرهم ، فإنهم سيكونون معرضين للاضطهاد ولأن يموتوا بحد السيف . فليس لهم أن يتوقعوا سلاما . بل حربا . وليس لهم أن يتوقعوا وئاما . بل انقساما » .

وهكذا انقسم المجتمع اليهودى إلى قسمين : الفقراء والضعفاء وأنقياء القلب مع عيسى . . والأغلبية الكافرة ضد عيسى . ولقد آذته الأغلبية الكافرة كثيرا . .

يحكى إنجيل متى عن آلام المسيح فى الفصل الحادى عشر ، فيتحدث عن استياء المسيح ممن لم ينتفعوا بخدمة يوحنا (يحيى عليه الصلاة والسلام) أو بخدمته هو شخصيا .

يقول إنجيل متى على لسان عيسى : بمن أشبهه هذا الجيل ، إنه يشبه صبية جالسين فى الأسواق يصيحون بأصحابهم قائلين : زمرنا لكم فلم ترقصوا . نحنا لكم فلم تبكوا . فقد جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فقالوا : إن به شيطانا . وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فقالوا : هو ذا رجل أكول وشريب خمر محب للعشارين والخطاة . ولكن الحكمة بأعمالها تتزكى .

ثم بدأ يسوع يوبخ المدن التى جرت فيها أكثر معجزاته لأنها لم تتب ، قائلا : الويل لك ياكورازين . الويل لك يا بيت صيدا ، لأنه لو جرت فى صور وصيدون المعجزات التى جرت فيكما لتابتا من قديم متشحتين بالمسوح والرماد . ولكنى أقول لكما إنه ستكون لصور وصيدون فى يوم الدينونة حالة أكثر احتمالا مما لكما . وأنت يا كفر ناحوم . أتحسبين أنك ترتفعين إلى السماء . إنك سيهبط بك إلى الجحيم . لأنه لو جرت في سدوم المعجزات التى جرت فيك لظلت قائمة إلى اليوم . ولكنى أقول لك إنه ستكون لأرض سدوم فى يوم الدينونة حالة أكثر احتمالا مما لك .

يكشف هذا النص عن آلام المسيح ومعاناته ، ويكشف الحرب التى تعرض لها ، والآلام التى انسكبت فى قلبه الطاهر من تصرفات الجيل الذى بعث فيه هاديا ومبشرا بملكوت السماء . إنه يشبه جيل اليهود فى عصره بصبية يجلسون فى الأسواق ويصيحون بأصحابهم قائلين : زمرنا لكم فلم ترقصوا . ونحنا لكم فلم تبكوا . . مشيرا بذلك إلى ما يفعله الأطفال وهم يلعبون . إذ يقلدون الكبار فى أفراحهم فيرقصون ، وفى أحزانهم فيبكون ، وهكذا يترددون سريعا بين الفرح والحزن . فى سطحية وتسرع . ودون وعى أو تعمق .

كان هذا حال اليهود إزاء خدمة يحيى عليه الصلاة والسلام . ثم إزاء خدمة المسيح عليه الصلاة والسلام . فقد جاء إليهم يحيى نائحا باكيا لا يأكل ولا يشرب مما يأكلون ويشربون ولا يخالط الناس ، جاءهم نبيا ناسكا فرفضه الكثيرون قائلين إن به شيطانا . ثم جاء إليهم المسيح يأكل ويشرب مع العشارين والخطاة فى الولائم والأعياد ، فرفضوه كذلك قائلين إنه أكول وشريب خمر ، محب للعشارين والخطاة ، مع أنه كان المثل الأعلى فى نبذ الشهوات والعصمة الكاملة . ومن ثم كان ذلك الجيل عابثا عبث

الأطفال ، لا يؤثر فيه شيء . ولا يغريه بالتوبة شيء . ومع ذلك فإن ثمة قلة قليلة من الناس تتأثر وتتوب . لأن الحكمة بأعمالها تتزكى .

وبعد أن وبخ المسيح ذلك الجيل بصفة عامة ، لعدم إيمانه وتوبته ، بدأ يوبخ المدن التى جرت فيها أكثر معجزاته بصفة خاصة ، لأنها مع ذلك لم تؤمن ولم تتب . وقد خص بالذكر مدينتى (كورازين) و (بيت صيدا) قائلا إنه لو جرت في مدينتى (صور) و (صيدون) المعجزات التى جرت فيهما لتابتا توبة عميقة وصادقة ومفعمة بالندم . على الرغم من أن اليهود كانوا يضربون بهما المثل فى الفساد والضلال ، وقد أدى فسادهما وضلالهما من قبل إلى خرابهما ، ولذلك فإن (صور) و (صيدون) ستكون لهما فى يوم القيامة حالة أخف وطأة وأقل عذابا مما (لكورازين) و (بيت صيدا) . ثم وجه المسيح توبيخا عنيفا إلى مدينة (كفر ناحوم) التى كان قد أقام فيها أكثر مما أقام فى أى مدينة أخرى من مدن اليهود . وما أكثر ما لقى فيها من تكذيب وعناء ، فقال لها : أتحسبين أنك ترتفعين إلى السماء ، إنك سيهبط بك إلى الجحيم . ويقارن عيسى عليه السلام بين المعجزات التى جرت فى مدينة (سدوم) اليهودية القديمة والمعجزات التى جرت فى مدينة كفر ناحوم المعاصرة له ، فيرى أن معجزاته تفوق ما حدث كثيرا . ورغم ذلك ، فسيكون جزاء سدوم يوم القيامة ، أخف من جزاء كفر ناحوم . . وأشار عيسى إلى هلاك سدوم ، وشهرتها بالآثام والخطايا ، وانتهت مقارنته إلى أن كفر ناحوم المعاصرة أعظم آثاما من سدوم . .

ويبدو لنا من النص عناء عيسى إزاء الجيل المعاصر كله . . يكشف النص عذابه فى تبليغ دعوته ، وشقاءه وسط قوم لم ينضجوا بعد عن نفسية الأطفال العابثين . قوم لا تهزهم الكلمات الطيبة ولا تهزهم المعجزات الخارقة ، وإن سألوا المزيد منها رغم ذلك .

وعاد الله عز وجل يؤيد عيسى بالمعجزات الباهرة . والمعجزة هنا سلاح يعطيه الله تعالى لنبيه كى يصدقه ويؤيده ويزيد الذين آمنوا إيمانا ، ويزيد الذين كفروا كفرا اختياريا حرا . . حتى يقع جزاء الله تعالى على الفريقين معا . ولقد كان من المعجزات التى أيد الله بها عيسى بن مريم ، استجابته لطلب الحواريين فى انزال مائدة من السماء .

قال تعالى فى سورة المائدة :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ

(١١٣) قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين (١١٤) قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ﴾ (١) .

نتوقف بالدهشة عند قول الحواريين : ﴿ يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك ﴾ ؟

إن أول ما يتبادر إلى الذهن من معاني الآية . هو شك الحواريين في قدرة الله تعالى . فكيف يجوز منهم ذلك وهم تلاميذ عيسى الذين أسلموا لله ؟

يختلف موقف العلماء في تفسير هذه الآية . قال بعض العلماء بما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى . قالوا : إن سؤالهم هل يستطيع ربك ؟ يعني . . هل يقدر ربك ؟ والتمسوا للحواريين عذرا بأن السؤال كان في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل . ولهذا قال عيسى في إجابته عن سؤالهم ﴿ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ . بمعنى لا تشكوا في قدرة الله تعالى .

ويرد القرطبي هذا التفسير ويرفضه . فالحواريون هم أنصار الله تعالى بنص القرآن ، ولا يجوز على أنصار الله تعالى أن يجهلوا قدرته أو يشكوا فيها .

ويقول بعض العلماء : إن هذه الكلمات كانت قول من كان مع الحواريين من بني إسرائيل . ولم يكن الحواريون فيها إلا ناقلي رسالة .

وقيل إن هذه الآيات لا تقرأ « هل يستطيع ربك » وإنما تقرأ كما قرأتها عائشة وكما قرأها النبي « هل تستطيع ربك » . . والمعنى هل تستطيع استدعاء طاعة ربك فيما تسأله . وقيل : إنها تقرأ « هل تستطيع ربك » بمعنى هل تستطيع أن تدعو ربك أو تسأله . ويرى بعض الصوفية أن الحواريين ماكانوا يجهلون قدرة الله تعالى . . وإنما صدر سؤالهم من منبع الحب لله تعالى ، ومن رغبتهم في شهود قدرته تعالى وهي تعمل . . ويشبه موقفهم هنا (مع فارق الدرجة) موقف إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال :

﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾(٢) . .

---

(١) الآيات من ١١٢ إلى ١١٥ مدنية. (٢) من الآية ٢٦٠ سورة البقرة مدنية.

ولذلك قال الحواريون: ﴿وتطمئنّ قلوبنا﴾.. كما قال إبراهيم: ﴿ليطمئن قلبي﴾.

هذا التفسير الذى يطمئن له قلبنا. ولقد أجابهم عيسى عن سؤالهم بقوله:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (١)..

بمعنى اتقوا كثرة السؤال واختبار الله تعالى.. فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات. وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾.. تنصرف إلى ما جاء به من الآيات.. يقصد أن يقول: إن ماجئتكم به من الآيات فيه الكفاية.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(٢)..

يبين الحواريون لعيسى سبب سؤالهم حين نهاهم عنه. كان عيسى عليه الصلاة والسلام إذا خرج تبعه خمسة آلاف أو أكثر. بعضهم من الحواريين والباقون خليط من أتباعه وأعدائه. ويقال: إنهم صاموا ولم يكن معهم طعام، فقال الأتباع للحواريين: اسألوا عيسى: هل يستطيع أن يدعو ربه فينزل علينا مائدة من السماء؟

وذهب الحواريون برسالة القوم إلى عيسى، فلما دعاهم عيسى للاكتفاء بمعجزاته السابقة، عادوا يقولون له مبررات الطلب.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾(٣)..

كانوا جائعين وليس معهم طعام..

﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ (٤)..

تطمئن قلوب الحواريين مثلما اطمأن قلب إبراهيم.

وتطمئن قلوب الأتباع إلى أن عيسى نبى بعثه الله إليهم.

وتطمئن قلوب الأعداء إلى أنهم على الباطل.. فيكون اختيارهم بعد ذلك متضمنا لمسئوليتهم.

---

(١) من الآية ١١٢ سورة المائدة مدنية.
(٢) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية.
(٣) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية.
(٤) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية.

﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾[1] . .

بمعنى نعلم أنك رسول الله . ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[2] لله بالوحدانية . ولك بالرسالة والنبوة . وللآخرين الذين لم يشهدوها . . فنحدثهم عنها ونحكى لهم أخبارها .

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[3] . .

لما سأل الحواريون عيسى بن مريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ المائدة قام فوضع ثياب الصوف ، ولبس ثياب المسوح ، ثم قام فألزق القدم بالقدم ، وألصق العقب بالعقب ، والإبهام بالإبهام ، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى ثم طأ طأ رأسه ، خاشعا لله ، ثم أرسل عينيه يبكى حتى جرى الدمع على لحيته ، وجعل يقطر على صدره . . ثم قال :

﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾[4] . إلى آخر الآيات .

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾[5] .

نزلت مائدة عظيمة بين غمامتين ، غمامة من فوقها ، وغمامة من تحتها ، والناس ينظرون إليها ، فقال عيسى : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها فتنة . فهبطت بين يدى عيسى عليه الصلاة والسلام وعليها منديل يغطيها . فخر عيسى ساجدا والحواريون معه . وهم يجدون لها رائحة طيبة لم يكونوا يجدون مثلها قبل ذلك .

قال عيسى : أيكم أعبد لله وأجرأ على الله وأوثق بالله فليكشف عن هذه المائدة حتى نأكل منها ونذكر اسم الله عليها ونحمد الله عليها .

قال الحواريون : ياروح الله أنت أحق بذلك .

فقام عيسى عليه الصلاة والسلام فتوضأ وضوءا حسنا ، وصلى صلاة جديدة ، ودعا دعاء كثيرا ، ثم جلس إلى المائدة فكشف عنها ، فإذا عليها سمكة مشوية ليس فيها شوك تسيل سيلان الدسم .

---

(١) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .
(٢) من الآية ١١٣ سورة المائدة مدنية .
(٣) من الآية ١١٤ سورة المائدة مدنية .
(٤) من الآية ١١٤ سورة المائدة مدنية .
(٥) من الآية ١١٥ سورة المائدة مدنية .

سُئل عيسى : ياروح الله . أمن طعام الدنيا أم من طعام الجنة ؟

قال : ألم ينهكم الله عن هذه الأسئلة . . ؟ لقد نزلت من السماء وما عليها طعام من الدنيا ولا من طعام الجنة ، ولكن شيء ابتدعه الله بالقدرة البالغة فقال لها كوني فكانت .

اختلف كثير من المفسرين حول نوع الطعام الذى نزل على المائدة ، هل هو السمك أو اللحم . هل هو الخبز أو الفاكهة . ونرى أن كل هذه الأبحاث لا معنى لها . .

أخطر شيء فى نظرنا كلمات عيسى التى يقول فيها « إنها شيء ابتدعه الله بالقدرة البالغة ، قال لها كونى فكانت » . هذا هو جوهر المائدة . إنها آية من الله . . آية توعد الله من يكفر بها أن يعذبه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين .

اختلف العلماء هل نزلت المائدة أم لا .

والذى عليه الجمهور - وهو الحق - نزولها ، لقوله تعالى :

﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾(١) .

ويقال إن الآلاف أكلوا منها وهى لا تنفد . . فشفى كل أعمى من عماه وشفى كل أبرص من برصه ، وشفى كل كسيح من كساحه ، وشفى كل مريض من مرضه . .

وصار يوم نزول المائدة عيدا من أعياد الحواريين وأتباع عيسى لفترة من الزمن . . ثم ضاع خبرها وأسدلت عليه ستائر النسيان ، فلا نجد خبرها اليوم فى أناجيلهم التى يعترفون بها .

بعد خبر المائدة فى سورة المائدة . . يورد الله تبارك وتعالى موقفا آخر لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام . .

قال تعالى بعد أن قص علينا ما كان من أمر آية المائدة .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ

---

(١) من الآية ١١٥ سورة المائدة.

وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) . .

بهذه الآيات يختم السياق القرآنى سورة المائدة . وهكذا ينقلنا السياق القرآنى نقلة تبدو مفاجئة من خبر نزول المائدة إلى موقف الحوار بين الله تعالى وعيسى بن مريم يوم القيامة . وبرغم المفاجأة البادية فإن السياق المعنوى متصل أشد الاتصال . .

إن عظمة الآيات التى أيد الله بها عيسى كانت فتنة لقومه من بعده . . فاعتبروه إلها . أغفلوا حقيقة معجزاته وافتتنوا به .

يسأل الله تعالى يوم القيامة هذا السؤال :

﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢) . . ؟

اتفق أهل العلم على أن السؤال ليس سؤال استفهام، وإن خرج مخرج الاستفهام . لأن الله تعالى يعرف ماذا قال عيسى . . المقصود من السؤال إذن شىء آخر .

هناك من يقول إن الله تعالى يقصد تعريف عيسى أن قومه قد غيروا تعاليمه من بعده وافتتنوا به . وهناك من يقول إن الله يقصد من السؤال توبيخ من غيروا عقيدته بعده . ونعتقد أن السؤال يستوعب المعنيين ، ويستوعب معنى آخر . . يريد الله تبارك وتعالى أن يكشف للعالمين فى كتابه الأخير براءة عيسى مما أحدث قومه من بعده .

يكشف السياق القرآنى عن غيب لم يقع بعد وإن كان سيقع يوم القيامة ، ولهذا يعرضه بأسلوب الفعل الماضى ، ويعرض هذا الغيب على أهل الدنيا ليعرفوا منه حقيقة عيسى بن مريم . إن الله تعالى يسأله . . وعيسى بن مريم يجيب . . لا يجيب نبى عظيم كعيسى إلا بعد أن يقول سبحانك .

---

(١) من الآيات ١١٦ ـ ١٢٠ سورة المائدة .

(٢) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .

يبدأ بالتسبيح والتنزيه قبل الجواب تنزيها لله وخضوعا لعزته وخوفا من سطوته .

أورد القرطبى فى تفسيره : إن الله تعالى حين قال لعيسى : ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله** ﴾ . . أخذت الرعدة عيسى من ذلك القول حتى سمع صوت عظامه تئن داخل جسده . . فقال :

﴿ **سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ** ﴾ (١) .

ليس لى أن أدَّعى لنفسى ما ليس من حقها . وليس لنفسى أكثر من حق العبد لا المعبود .

﴿ **إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ** ﴾(٢) .

ها هو ذا عيسى يرد العلم إلى الله . وكان الله عالما أنه لم يقله .

﴿ **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** ﴾(٣) .

أى تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه . تعلم سرى وما انطوى عليه ضميرى الذى خلقته ، ولا أعلم شيئا مما استأثرت به من غيبك وعلمك .

﴿ **إنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** ﴾ (٤) .

أنت وحدك العليم بالغيب . أنت وحدك العليم بما سيكون منهم بعد رفعى من الأرض .

﴿ **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ** ﴾ (٥) .

هذه هى الكلمات التى قالها عيسى بن مريم . . دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

﴿ **وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ** ﴾ (٦) .

كنت عليهم حفيظا بما أمرتهم طوال الوقت الذى مكثته بينهم .

---

(١) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
(٢) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
(٣) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
(٤) من الآية ١١٦ سورة المائدة مدنية .
(٥) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .
(٦) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .

﴿ فلمّا توفّيْتني كُنت أنتَ الرَّقيبَ علَيْهمْ ﴾[1] . .

والوفاة فى كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه .

(١) وفاة الموت لقوله تعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[2] .

يعنى حين انقضاء أجلها .

(٢) وفاة النوم لقوله تعالى :

﴿ وَهُو الَّذي يَتَوَفَّاكُم باللَّيْل ﴾[3] .

يعنى الذى ينيمكم .

(٣) وفاة الرفع لقوله تعالى :

﴿ يَا عيسَىٰ إنّي مُتَوَفيكَ ورافعُك إليّ ﴾[4] .

وهكذا يتبرأ عيسى من كل ما قالوه عنه أو نسبوه إليه ، ويعلن أن دعوته لم تزد عن التوحيد ولم تخرج على الإسلام الذى اعترف به أتباعه .

ويعاود عيسى حديثه واستعطافه لله عز وجل :

﴿ إن تُعَذّبْهُمْ فَإنَّهُم عبَادُكَ ﴾[5] .

ليس لأحد من الخلق سلطان عليهم ، وليس هناك خالق غيرك سبحانك ، ولا شريك لك فى الملك والحكم ، وهم فى نهاية الأمر عبيدك ، ولا يملك العبد أمام سيده إلا الخضوع . .

﴿ وَإن تَغْفرْ لَهُمْ فَإنّكَ أنتَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ ﴾[6] .

لم يقل عيسى وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم . . لم يزل روح الإجابة هو التسليم والخضوع والتفويض لعزة الله وجلاله وحكمه .

---

(١) من الآية ١١٧ سورة المائدة مدنية .
(٢) من الآية ٤٢ سورة الزمر مكية .
(٣) من الآية ٦٠ سورة الأنعام مكية .
(٤) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .
(٥) من الآية ١١٨ سورة المائدة مدنية .
(٦) من الآية ١١٨ سورة المائدة مدنية .

إن أتباع عيسى هم فى نهاية الأمر عباد الله الخاضعون ، إن شاء عذبهم بما يستحقون من عذاب ، وإن شاء غفر لهم بما يعلم من استحقاقهم للمغفرة . . بهذا التسليم المطلق أجاب عيسى عن سؤال الحق عز وجل وتبرأ مما قاله القوم من بعده . وأعلن عبوديته لله فى بداية حديثه ، وأعلن تسليمه لله فى نهاية حديثه

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾(١) . .

إن الله عز وجل يثنى على صدق عيسى . . ولأن الحوار يجرى يوم القيامة ، يقول الله . . ﴿هذا يومُ﴾ القيامة الذى ﴿ ينفع الصادقين صدقُهم ﴾ فى الدنيا . . إن صدقهم هناك سيجد ترجمته من الرحمة هنا .

﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (٢) . .

هذا هو جزاء الصادقين . . الجنة وما هو أفضل من الجنة . . رضاء العبد عن الله تعالى ، ورضاء الله تعالى عن العبد . . ومعنى رضاء العبد فرحة بعبوديته لله تعالى ، ومعنى رضاء الله رحمته لعبده . .

﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٣) . .

بعدها يعلن الله حقيقة عيسى وكل أنبيائه .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٤) . .

هو الملك وحده . وهو الخالق وحده . وهو القدير وحده . وما سواه عبيد .

مضى عيسى فى دعوته حتى أدرك الشر أن عرشه مهدد بالزوال . وتحركت جيوش الخطيئة نحوه ، ناوأه اليهود وآذوه ، وكانوا يتهمونه بالسحر وخرق الشريعة وينسبون قواه الخارقة لاتصاله بالشياطين . فلما أعيتهم الحيلة ، ورأوا أن الضعاف والفقراء يجتمعون حول كلماته ، أخذوا يكيدون له ، ويدسون عند الرومان بشأنه . فى البداية لم تتدخل سلطات روما على أساس أن هذه الخلافات بين اليهود من مصلحتهم . وعاد

---

(١) من الآية ١١٩ سورة المائدة مدنية

(٢) من الآية ١١٩ سورة المائدة مدنية .

(٣) من الآية ١١٩ سورة المائدة مدنية .

(٤) من الآية ١٢٠ سورة المائدة مدنية .

مجلس السنهدريم (وهو المجلس التشريعى الأعلى لليهود) يجتمع للتآمر على عيسى . . وعاد التآمر يأخذ شكلا جديدا . حين عجز اليهود عن حرب عيسى . . بدأ التفكير فى قتله . . وراح رؤساء الكهنة يتشاورون سرا فى الطريقة التى يقبضون بها على عيسى بغير إثارة للشغب .

وبينما رؤساء الكهنة يتشاورون ذهب إليهم واحد من تلاميذ المسيح الاثنى عشر ، وهو يهوذا الإسخريوطى ، وقال لهم : ماذا تعطوننى وأنا أسلمه إليكم ؟

وجلست الخيانة على مائدة الكفر وبدأت المساومات .

ساوم يهوذا رؤساء الكهنة فاتفقوا على أن يعطوه ثلاثين قطعة من الفضة وهى التى يسمونها بالشاقل (وتساوى نحو عشرين قرشا) أى أن المبلغ كله لا تتعدى قيمته ستة جنيهات ، وكانت هذه هى قيمة شراء عبد حسب الشريعة اليهودية . . (شرح إنجيل متى) . انتهت المؤامرة وتقرر القبض على عيسى وقتله . .

ويقال إن رئيس كهنة اليهود مزق ثيابه بعد ذلك بطريقة مسرحية فى اجتماع دينى وهو يصرخ : إن عيسى قد جدف (كفر) . وكان تمزيق الثياب عند اليهود عادة مرعية إذا سمعوا أو رأوا شيئا يتضمن إهانة لله . وهكذا تظاهر رئيس الكهنة بالغيرة الشديدة على مجد الله والغضب الشديد على ما زعم من إهانة لحقته بكلمات عيسى وتصرفاته .

لم يكن للكهنة اليهود سلطة إصدار حكم بالإعدام فى ذلك الحين . كان ذلك من سلطة الوالى الرومانى ، غير أنه يبدو أنهم أقنعوا الوالى الرومانى أن عيسى يدبر مؤامرة لأمن الدولة الرومانية ، أو لعلهم أقنعوا الوالى بأن الأمر خاص بتقاليدهم وديانتهم فآثر عدم التدخل فيما اعتزموه . وهكذا تم إحكام المؤامرة . . وتقرر القبض على عيسى وصلبه .

تحدثنا الأناجيل الأربعة المعترف بها من المسيحيين اليوم أن عيسى قتل مصلوبا ثم قام من الموت وصعد إلى السماء . تتفق هذه الأناجيل جميعا على صلب عيسى وموته وقيامته من الموت . كما تتفق على طبيعة عيسى الإلهية التى تمتزج بطبيعته البشرية .

وسوف نورد عقيدة المسيحيين فى عيسى كما يعتقدها معظم النصارى اليوم .

ثم نورد عقيدة الإسلام فى عيسى كما أنبأ بها القرآن الكريم ، وحدث عنها علماء الشريعة والسنة ، وبعد ذلك نتحدث عما ينبغى أن يكون عليه المسلمون فى علاقاتهم بالمسيحيين وعقائدهم .

يقول إنجيل متى : إن عيسى ألقى القبض عليه ، وأصدر مجلس السنهدريم حكمه عليه بالموت ، وبدأ أعضاء ذلك المجلس من رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة يهينونه

ويعتدون عليه ويهزءون به ، راحوا يبصقون فى وجهه ويلكمونه كما راحوا يلطمونه وهم يقولون ساخرين : تنبأ لنا أيها المسيح من الذى ضربك . وهكذا تحققت نبوءة أشعياء النبى القائل : وجهى لم أستر عن العار والبصق . والقائل : بذلت خدى للناتفين (الفصل السادس والعشرون) .

وبعد ذلك ألقى القبض على عيسى وتقرر إعدامه . . ولما كان من عادة الرومان أن يجلدوا المحكوم عليه بالموت قبل تنفيذ الحكم عليه ، أمر بيلاطس بجلد المسيح . وكانت الشريعة الموسوية تقضى بألا يزيد عدد الجلدات على أربعين جلدة . أما الرومان فكانوا لا يقفون عند هذا الحد وإنما كانوا يستمرون فى جلد المحكوم عليه جلدا وحشيا متواصلا حتى يتهرأ ظهره ويكاد يلفظ أنفاسه فلا يبقون منه إلا الرمق ليتمكنوا من تنفيذ حكم الموت عليه . وهذا ما فعله الجنود بمخلصنا (إنجيل متى ٢٦) . انتهت عملية الجلد ، فأسلم الوالى الرومانى عيسى للجنود كى يصلبوه . واتخذه الجنود مادة للتسلية والترفيه ، وأشركوا معهم جند الكتيبة الرومانية ، ونزعوا عن عيسى ثيابه الملطخة بدماء جروحه بعد عملية الجلد ، وألبسوه رداء قرمزيا ليسخروا منه ، فقد كان الملوك يلبسون الأردية القرمزية ، ومضوا فى استخفافهم به وسخريتهم منه ، ضفروا له تاجا من الشوك ووضعوه على رأسه ، ووضعوا قصبة فى يمينه ، كأنها الصولجان ، ثم راحوا يبصقون في وجهه وأخذوا منه القصبة التى وضعوها فى يده وراحوا يضربونه بها على رأسه من فوق تاج الشوك ، فانغرس الشوك فى جبينه وأسال الدم على وجهه . . ثم مضوا به ليصلبوه . وكانت العادة قد جرت على تكليف المحكوم عليه أن يحمل صليبه إلى موضع الصلب إمعانا في التعذيب والتشهير . (متى ٢٦) .

أخيرا بلغوا موضعا يسمى « الجلجثة » أى موضع الجمجمة ، وهو مكان خارج أسوار أورشليم . . وكانت تقاليد اليهود تقضى بإعطاء كأس من الخمر الممزوج بالطيب للمحكوم عليه بالموت قبل تنفيذ الحكم ، كمخدر لتخفيف آلامه . ولكن الجنود خالفوا هذه التقاليد وأعطوا المسيح كأسا من الخل الممزوج بالمرارة ليشرب . وبذلك تحققت النبوءة القائلة عنه ويجعلون فى طعامى علقما ، وفى عطشى يسقوننى خلا . ثم سمروا يديه وقدميه على الصليب ورفعوه وهو معلق عليه بعد أن نزعوا ثيابه واقتسموها بينهم . وإمعانا فى السخرية به صلبوا معه لصين ، ثم وضعوا لافتة على رأسه قالوا فيها : « هذا هو يسوع ملك اليهود » إمعانا فى تعذيبه . (متى ٢٦) .

ويقول نص إنجيل متى - (طبعة ١٩٧٢) فى الفصل السابع والعشرين :

(حتى إذا بلغوا موضعا يسمى الجلجثة ، أى موضع الجمجمة ، أعطوه خمرا ممزوجة بمرارة ليشرب ، فلما ذاقها أبى أن يشربها . ثم صلبوه واقتسموا ثيابه بينهم مقترعين عليها ، ليتم ما قيل بفم النبى القائل : « اقتسموا ثيابى بينهم وعلى ردائى ألقوا

قرعة ». ثم جلسوا هناك يحرسونه ، ووضعوا فوق رأسه تهمته مكتوبة : « هذا هو يسوع ملك اليهود » . وقد صلبوا معه لصين ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وكان المارة يسبونه وهم يهزون رءوسهم قائلين : « يا هادم الهيكل وبانيه فى ثلاثة أيام خلص نفسك . إن كنت أنت ابن الله فانزل عن الصليب » . وكذلك رؤساء الكهنة كانوا يهزءون به مع الكتبة والشيوخ قائلين : « خلص آخرين ولا يستطيع أن يخلص نفسه ، إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به . لقد اتكل على الله فلينقذه الآن إن كان راضيا عنه ، لأنه قال أنا ابن الله » . وبذلك أيضا كان يعيره اللصان اللذان صلبا معه) .

« ومنذ الساعة السادسة صارت ظلمة على الأرض كلها الى الساعة التاسعة . وفى نحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا : « إيلى إيلى لم شبقتنى؟ » ، أى « إلهى إلهى لماذا تخليت عنى ؟ » . فلما سمع ذلك بعض الواقفين هناك قالوا : «إنه ينادى إيليا » . وعلى الفور جرى واحد منهم وأخذ إسفنجة وملأها خلا ووضعها على قصبة وسقاه . فقال الباقون : « دعه ولننظر هل يأتى إيليا ليخلصه ؟ » . ثم صرخ يسوع مرة أخرى بصوت عظيم وأسلم الروح » . « وإذا حجاب الهيكل قد انشق نصفين من أعلاه إلى أسفله ، والأرض تزلزلت والصخور تشققت ، والقبور تفتحت . وقد قام كثير من أجساد القديسين الراقدين . وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين » .

ويقول التفسير الملحق بهذا النص :

« ومنذ الساعة السادسة صارت ظلمة على الأرض كلها الى الساعة التاسعة . وكانت الساعة السادسة عند اليهود توازى الثانية عشرة ظهرا حسب التوقيت الحديث ، كما كانت الساعة التاسعة توازى الساعة الثالثة بعد الظهر . أما تلك الظلمة التى صارت على الأرض كلها فهى مظهر لمشاركة الطبيعة لربها فى آلامه ، وغضبها على الذين أسلموه للموت غدرا وظلما . وفى نحو الساعة التاسعة ، أى الثالثة بعد الظهر ، صرخ فادينا بصوت عظيم قائلا باللغة الآرامية « إيلى إيلى . لم شبقتنى » ؟ ، أى « إلهى إلهى لماذا تخليت عنى؟ » ، وهذه هى العبارة الأولى من المزمور الثانى والعشرين . وهو لا يعنى بهذه العبارة أن الله قد تخلى عنه ، لأنه هو والله الآب واحد ، وإنما يعنى أن المزمور الذى وردت فى بدايته هذه العبارة ينطبق عليه فى ساعة آلامه هذه . وقد كان هذا المزمور نبوءة مفصلة دقيقة عما يحدث له الآن ، ومما جاء به : « كل الذين يرونى يستهزئون بى ، يفغرون الشفاه وينغضون الرأس قائلين : اتكل على الرب فلينجه ، لينقذه لأنه سر به . . أحاطت بى ثيران كثيرة . أقوياء باشان اكتنفتنى . فغروا على أفواههم كأسد مفترس مزمجر . كالماء انسكبت . انفصلت عظامى . صار قلبى

كالشمع ، قد ذاب وسط أمعائى . . ولصق لسانى بحنكى ، وإلى تراب الموت تضعنى . لأنه قد أحاطت بى كلاب . جماعة من الأشرار اكتنفتنى . ثقبوا يدى ورجلى . أحصى كل عظامى ، وهم ينظرون ويتفرسون فى . يقسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون » . وكان فادينا حين صرخ بهذه العبارة فى قمة ألمه وضراعته بصفته الإله المستأنس الذى يتمم عمل الفداء ، فقد كان فى هذه اللحظة إنسانا بالحقيقة، كما كان فى الوقت نفسه إلها بالحقيقة ، وهو كإنسان قد توجع من ألمه وتضرع إلى إلهه لكى لا يتخلى عنه، بل أن يعينه على احتمال ألمه . على أن هذا التخلى ليس معناه مفارقة اللاهوت للناسوت ، وإنما معناه أنه تركه للألم ، فلم يتدخل اللاهوت ليخفف من آلام الناسوت حتى يحتمل المسيح فى جسده الآلام كاملة . أما الواقفون هناك فقد هزءوا من ضراعته هذه ، وإذ سمعوه يقول : « إيلى إيلى » أى « إلهى إلهى » ، أخطئوا فهم قوله ، وقالوا إنه ينادى إيليا النبى ، أو لعلهم افتعلوا هذا الخطأ افتعالا ليمعنوا فى الإساءة إليه والتشهير به ، لأن استنجاده بإيليا معناه أنه ليس هو المسيح ، إذ إن المعروف لدى اليهود أن إيليا ينبغى أن يأتى قبل المسيح . وقد تظاهر أحد الواقفين بالإشفاق عليه بعد أن سمع صرخته فجرى على الفور وأخذ إسفنجة وملأها خلا ووضعها على قصبة وسقاه . وهكذا كانت حتى أداة الإشفاق التى قدموها إليه أداة إهانة وقسوة وتعذيب . وأما الباقون فقالوا : « دعه . ولننظر هل يأتى إيليا فيخلصه ؟ » ، أى اتركه ولا تقدم له أى نجدة ، ما دام يستنجد بإيليا ، فقد كانوا يريدونه أن يتعذب إلى أقصى حد ، وكانوا مطمئنين إلى أن أحدا لن يأتى لإنقاذه .

«وبعد ذلك مباشرة ، أى فى التاسعة ، وهى الثالثة بعد الظهر . صرخ فادينا مرة أخرى بصوت عظيم وأسلم الروح . وقد دلت هذه الصرخة قبل لحظة الموت مباشرة على أن حياة فادينا كانت سليمة فيه بعد كل الآلام التى تكبدها ، وأن روحه لم تغتصب اغتصابا كما يحدث لسائر البشر عند الموت ، وإنما قد سلمها بمحض اختياره وإرادته لأبيه السماوى ، ذبيحة عن خطايا البشر ، فهو الكاهن الذى قدم الذبيحة ، وهو الذبيحة عينها . وإذ أسلم الروح أثبت أنه مات فعلا بالجسد ، لأن قصاص الخطيئة هو الموت ، وبغير الموت لا تكون مغفرة ، فقد تعهد كما تنبأ أشعياء النبى بأن يجعل نفسه ذبيحة إثم . وهذا هو التعهد الذى وفاه عندما أسلم الروح طوعا واختيارا . وفى ذات لحظة موت المسيح وقعت أمور خارقة للطبيعة لتدل على أن الذى مات لم يكن مجرد إنسان ، وإنما كان هو الله ذاته بمعنى يفوق إدراك البشر :

١ ـ فقد انشق حجاب الهيكل نصفين من أعلاه إلى أسفله . وكان هذا الحجاب هو الذى يفصل بين القدس وقدس الأقداس . وقد انشق فى نفس اللحظة التى انفصلت

فيها روح المسيح عن جسده رمزا إلى أن الهيكل كان بمثابة جسد المسيح ، فلما تصدع الجسد الحقيقى تصدع كذلك الجسد الرمزى . وكان هذا الحجاب يستر قدس الأقداس الذى هو مقر الأسرار الإلهية عن عامة الناس ، فلما انشق أصبحت هذه الأسرار بفضل فداء السيد المسيح مكشوفة للجميع ، فلم يعد ثمة حجاب بين الله والناس .

٢ ـ والأرض تزلزلت والصخور تشققت كمظهر من مظاهر حزن الطبيعة ولوعتها على موت إلهها ، واحتجاجها على الأشرار الذين سقوه كأس الموت ظلما وهو برىء» .

(إلى آخر التفسير) .

هذه هى رواية المسيحيين فى الصلب وتفسيرهم له . نقلناها دون تصرف من أحدث طبعة لإنجيل متى ، وهى طبعة أشرف على صياغتها مجموعة من علمائهم ورجال الدين المسيحى . . لتجىء أيسر فى الفهم وأبسط . فكان منها ما عرضناه عليك فى هذه الصفحات . . أما جوهر عقيدتهم ولبها الذى لا اختلاف عليه . . وأصل الدستور الذى أعلنه المجمع النيقاوى ، فقد سجله كتاب (سوسنة سليمان) .

جاء فى كتاب سوسنة سليمان ، لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصرانى : « إن عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس ، وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى ، هى الإيمان بإله واحد ، آب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد ، يسوع الابن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من نور الله ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شىء والذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء تأنس ، وصلب عنا على عهد بيلاطس ، وتألم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم الثالث على ما فى الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتى بمجد ، ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء لملكه ، والإيمان بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب ، الذى هو مع الابن يسجد له» .

جاءت عقيدة الإسلام برواية تختلف عن رواية الأناجيل الحالية .

سواء فيما يتعلق بنهاية عيسى أو طبيعته التى كانت مثار اختلاف بعد رفعه .

حدث القرآن الكريم أن الله تعالى لم يسمح لبنى إسرائيل بقتل عيسى أو صلبه .

وإنما نجاه الله من كفرهم ورفعه إليه ، فما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .

قال تعالى فى سورة النساء :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾[١] .

وقال تعالى فى سورة آل عمران :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[٢] .

يتفق علماء المسلمين على ذلك ، ويختلفون فى منهج التدليل على ما بأيديهم من الحق .

هناك من يؤمن بنص الآيات ولا يبحث لها عن تأييد فى أى كتاب غير القرآن .

وهناك من يبحث لها عن تأييد فى الأسفار القديمة والكتب .

ولكل منهج من المنهجين ما يؤيده . .

يستند أصحاب المنهج الأول إلى نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن النظر فى أوراق اليهود والنصارى . إن للقوم دينهم ولنا ديننا . والله يحكم بيننا يوم القيامة فيما اختلفنا فيه .

ويستند أصحاب المنهج الثانى إلى أن نهى النبى عليه الصلاة والسلام كان فى أول العهد بالإسلام ، وكان المسلمون على قرب عهد بالجاهلية ، فأمروا حرصا على عقيدتهم ألا يشغلوا أذهانهم بغير كتابهم . ولكن العلم والنظرة العلمية يفرضان على العالم أن ينقب فى الأسفار القديمة والكتب عن الحق ، فإذا وجده موافقا لما لديه من الحق . . استراح قلبه وازدادت طمأنينته . .

لا نجد عند أصحاب المنهج الأول الذى يكتفى بالقرآن تفصيلات دقيقة لمحاولات القبض على عيسى ورفعه إلى السماء . . لقد شبه لهم . . كيف شبه لهم . . ألقى الله شبهه على غيره . أما عيسى فرفع إلى السماء . هكذا لا يزيدون .

أما أصحاب المنهج الثانى فيقدمون قصة متكاملة لما وقع . . يقولون إن الله ألقى شبه عيسى على يهوذا ، ويهوذا هذا هو يهوذا الإسخريوطى الذى تقول الأناجيل عنه إنه هو

---

(١) الآية ١٥٧ وجزء من آية ١٥٨ سورة النساء مدنية . (٢) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .

الذى باعه لأعدائه وأرشدهم عنه ودلهم عليه . . وقد كان أحد تلاميذه المختارين فى زعمهم . ولقد وافق هذا إنجيل برنابا موافقة تامة . جاء فيه :

ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جمع غفير ، فلذلك انسحب إلى البيت خائفا . وكان الأحد عشر نياما .

فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل (إسرافيل) وإدريل (عزرائيل) سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم ، فجاء الملائكة الأطهار ، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب . فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة التى تسبح الله إلى الأبد . ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أصعد منها يسوع ، وكان التلاميذ كلهم نياما ، فأتى الله العجيب بأمر عجيب . إذ تغير يهوذا فى النطق وفى الوجه . فصار شبيها بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع . أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ، لذلك تعجبنا . وأجبنا أنت يا سيدى معلمنا . أنسيتنا الآن؟!

هذه هى القصة التى أوردها إنجيل برنابا . . وترن كلمة إنجيل برنابا فى السمع رنينا غريبا . . نحن نعرف أن الأناجيل التى تعترف بها الكنيسة أربعة . إنجيل متى ، وإنجيل مرقص ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا . وتشتمل هذه الأناجيل على العقيدة المسيحية كما يؤمن بها المسيحيون اليوم . فمن أين جاء هذا الإنجيل الذى يتفق فى جوهره مع عقيدة الإسلام ؟

يقول الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه « محاضرات فى النصرانية » :

«إن التاريخ يروى لنا أنه كانت فى العصور الغابرة أناجيل أخرى ، تأخذ بها فرق قديمة ، وتروج عندها ، ولا تعتقد كل فرقة إلا فى إنجيلها . وأجمع مؤرخو المسيحية على كثرة الأناجيل كثرة عظيمة . ثم أرادت الكنيسة فى أوائل القرن الثالث أو أواخر القرن الثانى الميلادى ، أن تحافظ على الأناجيل الصادقة فى اعتقادها ، فاختارت الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرائجة إبان ذلك . فصارت هذه الأناجيل هى المعتبرة عندهم دون سواها . غير أن هناك إنجيلا جديدا كشف عنه البحث العلمى ، وقد حمل من الأمارات ما يدل على أنه يمتد بنشأته إلى أبعد أعماق التاريخ المسيحى . وهو يشبه الأناجيل القائمة فى أنه يحكى قصة المسيح من ولادته إلى اتهامه ، ويحكى محاوراته ومناقشاته وخطبه ، ولكن الكنيسة لم تعترف به ، وأنكرته ، فليس معتبرا عند المسيحيين مصدرا دينيا ، ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوربية . وقد اتجهوا إليه بالبحث والعناية والاهتمام ، ولم يمنعهم من ذلك إنكار الكنيسة له . وذلك الإنجيل هو إنجيل برنابا . ومن الحق علينا أن ندرسه ، ونعرف رأى المسيحيين فيه ، وما يؤدى إليه

النظر العلمى من غير افتيات عليهم ولا تهجم ، ومن غير أن نقحم أنفسنا فيما ليس لنا من إملاء عقيدة على القوم فى دينهم » .

ويقول كتاب محاضرات فى النصرانية :

(إن برنابا قديس من قديسى المسيحيين باتفاقهم ، ورسول من رسلهم ، وركن من الأركان التى قامت عليها الدعاية للمسيحية الأولى ، وقد وجد إنجيل باسمه يدل على أنه كان من الحواريين الذين اختصهم المسيح بالزلفى إليه ، والتقرب منه ، وملازمته فى سرائه وضرائه ، ولكن كتب المسيحيين غير هذا الإنجيل لا تعده من هؤلاء الحواريين ، وإن كانت تعده من الرسل الذين يبلغون مكانة الحواريين في هذا الدين بعد المسيح . ومهما يكن من شيء فى هذا الأمر ، وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم ، فإن برنابا حجة عند المسيحيين ، وهو من الملهمين فى اعتقادهم . فإن صحت نسبة هذا الإنجيل إليه كان مايشمله حجة عليهم ، يدعوهم إلى أن يوازنوا بين ما جاء فيه وما جاء فى غيره من كتبهم ، ويؤخذ بما هو أقرب إلى التصور والتصديق ، وأصح سندا ، وأقرب بالمسيحية الأولى رحما ، فلندرس الآن أقدم نسخة عرفت فى العصر الحديث .

(واتفق المؤرخون على أن أقدم نسخة عثروا عليها لهذا الإنجيل ، نسخة مكتوبة باللغة الإيطالية ، عثر عليها كريمر أحد مستشارى ملك بروسيا ، وذلك فى سنة ١٧٠٩ ، وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار فى سنة ١٧٣٨ إلى البلاط الملكى بفينا . وكانت تلك النسخة هى الأصل لكل نسخ هذا الإنجيل فى اللغات التى ترجم إليها .

(ولكن فى أوائل القرن الثامن عشر ، أى فى زمن مقارب لظهور النسخة الإيطالية ، وجدت نسخة إسبانية ترجمها المستشرق سايل إلى اللغة الإنجليزية ، ولكن لم يعلم من تلك النسخة وترجمتها إلا شذرات أشار إليها الدكتور هوايت فى إحدى الخطب . وقد قيل إن الذى ترجم النسخة الإسبانية إلى تلك اللغة مسلم نقلها من الإيطالية إلى الإسبانية . ولقد رجح المحققون أن النسخة الإيطالية هى الأصل للنسخة الإسبانية ، وذلك أنها قدمت بمقدمة تذكر أن الذى كشف النقاب عن النسخة الإيطالية التى كانت أصلا للنسخة الإسبانية راهب لاتينى اسمه فرامينو وأنه يقص قصصها ، فيقول : « إنه عثر على رسائل لإيريانوس وفيها رسالة يندد فيها بما كتبه بولس الرسول ، ويسند تنديده إلى إنجيل برنابا ، فدفعه حب الاستطلاع إلى البحث عن إنجيل برنابا ، وقد وصل إلى مبتغاه لما صار أحد المقربين إلى البابا سكتس الخامس ، فإنه عثر على ذلك الإنجيل فى مكتبة هذا البابا ، وطالعه ، فاعتنق الإسلام» .

ويظهر أن تلك النسخة هى نفس النسخة التى عثر عليها سنة ١٧٠٩ ، ويقول فى ذلك الدكتور سعادة مترجم إنجيل برنابا إلى العربية : « وإذا تحريت التاريخ وجدت أن زمن البابا سكتس المذكور نحو مغيب القرن السادس عشر ، وقد علمت مما مر بك بيانه أن نوع الورق الذى سطر فيه إنما هو ورق إيطالى يمكن تعيين أصله من الآثار المائية التى فيه ، والتى يمكن اتخاذها دليلا صادقا على تاريخ النسخة الإيطالية . والتاريخ الذى يحدسه العلماء من كل ما تقدم بيانه يتراوح بين منتصف القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وعليه فمن الممكن أن تكون النسخة الإيطالية هى عينها التى اختلسها فرامينو من مكتبة البابا على ما مرت الإشارة إليه » .

(أقدم نسخة معروفة إذن هى النسخة الإيطالية التى عثر عليها فى فجر القرن الثامن عشر ، ولكن وجودها يمتد إلى منتصف القرن الخامس عشر أو أول القرن السادس عشر ، وقد وجدت فى جو مسيحى خالص ، فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم . فأول من عثر عليها فى خزانة كتبه رئيس دينى خطير ، وكاشفها راهب ، ولما تداولتها الأيدى انتقلت إلى مستشار مسيحى من مستشارى ملك بروسيا ، ثم آلت إلى البلاط الملكى بفينا . فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم ، وهى منسوبة لقديس من القديسين هو برنابا ولم يعرف بهذا الاسم سواه ، له مثل مكانته الدينية . ولقد كان وجود إنجيل له أمرا معروفا بين العلماء بهذا الدين . فهذا فرامينو يقول إنه اطلع على رسالة لإريانوس يستنكر فيها ما كتب بولس مستشهدا على استنكاره بإنجيل برنابا .

(ويذكر التاريخ أن هناك أناجيل كثيرة جرمت قراءتها الكنيسة ، كما أشرنا من قبل . ويقول الدكتور سعادة : يذكر التاريخ أمرا أصدره البابا جلاسيوس الأول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها ، وفى عدادها كتاب يسمى إنجيل برنابا . ويذهب بعض العلماء المدققين إلى أن أمر البابا جلاسيوس المنوه عنه إنما هو برمته تزوير .

(ولكن التاريخ أصح وأصدق من قول هؤلاء العلماء ، وإن كانوا محققين ، فأقوال العلماء والمؤرخين تترى فى تحريم قراءة أناجيل كثيرة . فإذا فعل ذلك البابا جلاسيوس فقد سار على سنة أسلافه ، وجرى على سنته من بعده أخلاف . وإذا صح ذلك الأمر ، كما يشهد التاريخ ، وكما تنبئ عنه المقدمات والنتائج ، فإن إنجيل برنابا كان معروفا متداولا قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم بأكثر من قرنين .

(ويرى الدكتور سعادة أن ذلك الإنجيل لو كان معروفا فى ذلك الوقت لعرفه النبى صلى الله عليه وسلم واحتج به ، أو أخذ منه . وهذا زعم باطل لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يقم فى البلاد التى سادتها المسيحية أمادا تمكنه من المعرفة والاطلاع ، ولأن مضى قرنين من الزمان بعد التحريم يجعل التحريم

ينتـج أثـره ، فيخفى ما كان ذائعا ، ويدفن ما كان معلوما مشهورا ، فمائتان من السنين تكـفى لطمس الموجود ، وتعفية آثار المفقود .

(إن المسيحيين يجدون فيما اشتمل عليه ذلك الإنجيل أخبارا دقيقة عن التوراة ، حتى لقد يقـول الدكتور سعادة : « إنك إذا أعملت النظر فى هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إلماما عـجيبـا بأسفار العهد القديم لا تكاد تجد له مـثيلا بين طوائف النصارى إلا فى أفراد قليلين من الإخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفا على الدين ، كالمفسرين ، حتى إنه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضا من له إلمام بالتوراة يقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا » .

(هذه بينات شاهدة - وإن لم تبلغ اليقين والجزم - بأن نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا نسبة يرجح أن تكون صحيحة ، لأنه وجدت نسخته الأولى فى جو مسيحى خالص ، وكان معروفا قبل ذلك بقرون أن لبرنابا إنجيلا ، وهو يدل على أن كاتبه على إلمام تام بالتوراة التى لا يعرفها الرجل المسيحى غير الاخصائى فى علوم الدين ، بل يندر من يعرفها من الإخصائيين ، وأن برنابا كان من الدعاة الأولين الذين عملوا فى الدعوة عملا لا يقل عن عمل بولس ، كما تذكر رسالة أعمال الرسل ، فلابد أن تكون له رسالة أو إنجيل .

(هذه بينات تشهد بأن الإنجيل الذى كشف عنه وعرف صحيح النسبة ، ليس للمسلمين يد فيه ، وأن من ينحله للمسلمين كمن يحمل فى يده شيئا يظن فى حمله اتهاما له ، فيسند ملكيته إلى غيره نفيا للتهمة عن نفسه ، فهل يقبل منه ذلك النفى من غير حجة ولا دليل سوى أن فيه اتهاما له ؟ وهل يقر القضاء ذلك النفى ؟ قد يقول قائل : إن هذه البيانات كلها مرجحة وليست يقينية . ونحن نقول : إن أكثر مسائل التاريخ ترجيح ، وليست يقينية جازمة . فإذا كانت نسبة إنجيل برنابا إليه ظنية تقبل الاحتمال فإنا نأخذ بذلك الظن ، لأنه المأخذ فى أكثر مسائل التاريخ ، والاحتمال الذى لا ينشأ عن دليل . . لا يلتفت إليه ، بجوار الاحتمال الناشئ عن دليل . ووجود ذلك الإنجيل بلغة مسيحية وبين ظهرانى المسيحيين ، وفى مكاتبهم الخاصة ، دليل على أن المسلمين ليست لهم يد فيه ، ولذلك رجح جمهور المحققين أنه ليس لهم يد فى إنشائه . ولكن زعم بعضهم أن أصله عربى ، وهو زعم ليس له دليل ، وعلى مدعى ذلك الدليل أن يبرزه ، ويبين تاريخ تدوينه ومقدار نسبته .

(ولكن الدكتور سعادة يزعم أن أصله عربى بدليل أنه وجد على النسخة الإيطالية تعليقات عربية ، وأنه صرح فى التبشير باسم النبى ، مع أن المعهود فى البشارات الرمز لا النص .

(ونحن نرد الأولى بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرأ هذه النسخة يعرف العربية على ضعف فيها ، لأنه مستقيم التعبير أحيانا قليلة ، وسقيم

العبارة فى أحيان كثيرة : ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الإسلامى ، ولا يتخذ من صلبه الإيطالى دليلا على أصله المسيحى .

(أما كون التبشير بالنبى صلى الله عليه وسلم صريحا فيه وليس بتلميح ، فنحن لا نسلم بأن كل التبشيرات فى الكتب الدينية تلميح . نعم، بعضها رمز وتلميح ، ولكن ليس معنى ذلك نفى التصريح . وعلى فرض أن كل تبشير تلميح لا تصريح ، فالنص الإيطالى الذى بين أيدينا ترجمة لا نص ، وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى ، فلم يسعفه فى لغته التلميح ، فنطق بالصريح كما يفعل المسيحيون فى كثير مما ترجموا من كتب أصلها عبرى .

(ومن المؤكد أن ذلك الإنجيل لم يكن معروفا عند المسلمين فى غابرهم وحاضرهم ، لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة فى كل العصور ، ولم يعرف أن أحدا احتج فى مناظرة المسيحيين بهذا الإنجيل ، مع أنه فيه الحجة الدامغة التى تفلج المسلم عن المسيحى . فدعوى وجود نسخة عربية كانت هى الأصل للنسخة الايطالية ، فوق أنها لا دليل عليها مطلقا ، ولو بطريق الوهم ، فهى تناقض أخبار التاريخ الإسلامى مناقضة تامة ، و إلا احتج المجادل عن الإسلام بها ، ففيها أقوى دليل ، والتاريخ لم يحفظ ذلك ، وهذى سجلاته ليستنبطوها ، وليعرفوا دخائلها ، فلن يجدوا شيئا يمكن دعواهم ويثبت قضيتهم .

(وإنجيل برنابا هذا يمتاز بقوة التصوير ، وسمو التفكير ، والحكمة الواسعة والدقة البارعة، والعبارة المحكمة والمعنى المنسجم ، حتى إنه لو لم يكن كتاب دين لكان فى الأدب والحكمة كتابا من الدرجة الأولى .

(ولماذا أنكره المسيحيون، مع أن قوة النسبة فيه لا تقل عن قوة النسبة فى كتبهم الأربعة كما ذكرنا ؟ الجواب عن ذلك أن المسيحيين رفضوه لأنه خالف أناجيلهم ورسائلهم فى مسائل جوهرية فى العقيدة . ولقد كنا نظن أن ظهور ذلك الإنجيل كان يحمل الكنيسة على التفكير من جديد فى مصادر الدين ، لتعرف أى الكتب أقرب نسبا بالمسيحية الأولى : أذلك الإنجيل بما خلف ، أم الرسائل والأناجيل التى توارثتها ؟ ولكنهم سارعوا إلى الرفض والإنكار ، كما سبق أسلافهم إلى إنكاره من قبل .

(والأمور التى خالف ذلك الإنجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تتلخص فى أربعة أمور :

أولها : أنه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره إلها ، وقد ذكر ذلك فى مقدمته فقال : «أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم ، والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى

التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذى أمر الله به دائما، مجوزين كل لحم نجس ، الذين ضل فى عدادهم أيضا بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى ، وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته » .

ويقول فى آخر الفصل الثالث والتسعين : « أجاب الكاهن : إن اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك حتى إنهم يجاهرون بأنك أنت الله . فاضطررت بسبب الشعب إلى أن آتى إلى هنا مع الوالى الرومانى والملك هيرودس فنرجوك من كل قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التى ثارت بسببك ، لأن فريقا يقول إنك الله ، وآخر يقول إنك ابن الله ، ويقول فريق إنك نبى . أجاب يسوع : « وأنت يا رئيس الكهنة ، لماذا لم تخمد الفتنة ؟ وهل جننت أيضا ؟ وهل أمست النبوات وشريعة الله نسيا منسيا ؟ أيتها اليهودية الشقية التى ضللها الشيطان» . ولما قال يسوع هذا عاد فقال : إنى أشهد أمام السماء . وأشهد كل ساكن على الأرض أنى برىء من كل ما قال الناس عنى ، من أنى أعظم من بشر ، لأنى بشر مولود من امرأة ، وعرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر ، عرضة للشقاء العام » .

ويقول فى الفصل السبعين : « أجاب يسوع : وما قولكم أنتم فى ؟ أجاب بطرس : (إنك المسيح ابن الله) . فغضب حينئذ يسوع . وانتهره بغضب قائلا : اذهب . وانصرف عنى. لأنك أنت الشيطان . وتريد أن تسىء إلى » .

(الأمر الثانى) أن الذبيح الذى تقدم به إبراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو إسماعيل . وليس بإسحق ، كما هو مذكور فى التوراة . وكما يعتقد المسيحيون . وهذا نص ما جاء فى إنجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام : « الحق أقول لكم إنكم إذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال : يا إبراهيم ، سيعلم العالم كله كيف يحبك الله . أجاب ابراهيم : ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله . فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا : « خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة » . فكيف يكون إسحق البكر ، وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين ؟!

(الأمر الثالث) هو كما يقول الدكتور سعادة : أن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع ، بل محمد . وقد ذكر محمدا باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية الذيول، وقال إنه رسول الله . وإن آدم لما طرد من الجنة رأى سطورا كتبت فوق بابها بأحرف من نور « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ولقد قال المسيح كما جاء فى إنجيل برنابا : « إن الآيات التى يفعلها الله على يدى تظهر أنى أتكلم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه لأنى لست أهلا لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسيا ، الذى خلق قبلى، وسيأتى بعدى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه

نهاية ». وإنك لتجد فى الفصلين الثالث والأربعين، والرابع والأربعين، كلاما وافيا فى التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم به ، فصرح بما يعلن حقيقته ، ويبين ما له من شأن .

(الأمر الرابع) أن هذا الإنجيل يبين أن المسيح عليه السلام لم يصلب ، ولكن شبه لهم ، ألقى الله شبهه على يهوذا الإسخريوطى، ويقول فى ذلك برنابا : « الحق أقول إن صوت يهوذا، ووجهه ، وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع . لذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع ، معتقدين أن يسوع كان نبيا كاذبا ، وإنما الآيات التى فعلها بصناعة السحر ، لأن يسوع قال إنه لا يموت إلى وشك انقضاء العالم لأنه سيؤخذ فى ذلك الوقت من العالم » . ثم يبين أن يسوع طلب من الله أن ينزله إلى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه ، فنزل ثلاثة أيام ». ثم يقول : « ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات ، وقام قائلا : « أتحسبوننى أنا والله كاذبين ، لأن الله وهبنى أن أعيش ، حتى قبيل انقضاء العالم ، كما قد قلت لكم ، والحق أقول لكم إنى لم أمت بل يهوذا الخائن . احذروا، لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم . ولكن كونوا شهودى فى كل إسرائيل ، وفى العالم كله ـ لكل الأشياء التى رأيتموها وسمعتموها » .

(هذا هو إنجيل برنابا . وهذا ما خالف فيه بقية الأناجيل من مسائل جوهرية ، وفى الحق أنه خالف المسيحية القائمة فى خصائصها التى امتازت بها، فإن تلك المسيحية امتازت بالتثليث ، وبنوة المسيح وألوهيته ، وكان هذا شعارها الذى به تعرف ، وعلامتها التى بها تتميز . وقد خالف كل هذا . وإذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة فى ذلك الأمر الجوهرى ثابتة ـ وهو ينسب إلى قديس من قديسيهم ـ فقد كان من الحق إذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهرانى المسيحيين وفى مكاتب من لا يتهمون بالكيد للمسيحية ، ومن لا يتهمون بأنهم لا يرجون لها وقارا ـ رجة فكرية عنيفة ، اهتزت بسببها المشاعر والمنازع . فالكنيسة والمتعصبون من المسيحيين يرفضونه رفضا باتا ، مادام قد أتى بما لا يعرفونه هم ، ولا يعنون أنفسهم بدراسته دراسة علمية ، ينتهون فيها إلى نقضه جملة ، أو قبول بعضه ، ورفض بعضه الذى يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بسند أقوى من سنده ، ومتن أقرب إلى العقل والفكر من متنه .

(ولكن العلماء الذين دأبهم التنقيب والبحث عكفوا على دراسته ، وموازنة نصوصه بالتوراة والأناجيل ورسائل رسلهم ، بل القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وانتهت دراسة جلهم بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ، ومما هو مشهور عند المسلمين .

وإن أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية ، أن تعنى الكنيسة بدراسته ونقضه ، وتأتى لنا بالبينات الدالة على هذا النقض ، وتوازن بين ما جاء فيه وما جاء فى رسائل بولس ، ليعرف القارئ والباحث أيهما أهدى سبيلا ، وأقرب إلى الحق ، وأوثق به اتصالا) .

انتهى كلام الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة . قال الله تعالى :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ (١) .

قال العلماء : سمى المسيح لمسحه الأرض وسياحته فيها وفراره بدينه من فتن ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام . ويروى العلماء عن نقاء عيسى آثارا كثيرة . روى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه حكى عن المسيح هذه القصة « رأى عيسى رجلا يسرق ، فقال : يا فلان أسرقت ؟ قال : لا والله ما سرقت . قال : آمنت بالله وكذبت بصرى » .

وهذا يدل على سجية طاهرة . . حيث قدم حلف ذلك الرجل على ما شاهده منه عيانا ، لتصوره أن أحدا لا يحلف بعظمة الله كاذبا . . فقبل كلمته ورجع على نفسه . فقال : آمنت بالله . . أى صدقتك وكذبت بصرى لأنك حلفت .

ويروى عن عيسى أنه مر مع أصحابه بجثة كلب قد صعدت رائحته . . فأشار أصحابه إلى بشاعة الرائحة ، وأشار هو قائلا : « انظروا إلى بياض أسنانه » .

كان عيسى يريد أن يعلم الناس كيف يشيحون بوجوههم عن القبح ويستخرجون من الكائنات أجمل ما فيها . . ولقد كانت دعوته قمة من قمم السمو الروحى والمثالية النبيلة واستخراج الجمال من أنقاض القبح .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأنبياء إخوة . دينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم فليس بينى وبينه نبى .

وقد ورد فى الآثار أن عيسى سوف ينزل فى آخر الزمان . . ويكرم الإسلام عيسى تكريما يليق بنبى من أولى العزم الكبار . فهو يسميه رسول الله . ويسميه كلمة الله . . ألقاها إلى مريم . ويسميه روحا منه . يقول الله تعالى :

﴿ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ

---

(١) من الآية ٧٥ سورة المائدة مدنية .

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾[1].

يقول ابن كثير فى قصص الأنبياء : اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء على أقوال .

قال قائلون منهم : كان فينا عبدًا لله ورسوله . (آريوس) . وقال آخرون : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله .

وقد اختلفوا فى نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل .

وقد حسم القرآن الكريم قضية الألوهية ، فبين أن الله تعالى منزه عن الشريك والولد والشبيه والمثل والحلول والتجسد والبعد والقرب وإدراك الأبصار .

قال تعالى فى سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[2] .

وقال تعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام فى سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[3] .

---

(١) الآيات من ١٧١ إلى ١٧٣ سورة النساء مدنية . (٢) الآيات الأربع لسورة الإخلاص مكية .
(٣) الآية ٥٩ سورة آل عمران مدنية .

وقال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[١] .

وقال تعالى فى سورة التوبة :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٢] .

يشير النص هنا إلى عقائد المصريين وأضرابهم من الأمم القديمة ، وكانت تنطوى على عقائد الصلب والفداء وقيام الإله الذبيح وتكفيره عن أتباعه بموته .

وقال تعالى فى سورة المائدة :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٣] .

وقال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[٤] .

هكذا حسم القرآن الكريم موقف المذاهب المتعارضة التى نشأت بعد رفع المسيح . . وبين أن المسيح كان عبدا لله ورسولا أرسله لبنى إسرائيل . والعبد والرسول كلمتان واضحتان .

---

(١) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ مدنية .

(٢) الآية ٣٠ سورة التوبة .

(٣) الآية ١٧ سورة المائدة مدنية .

(٤) من الآية ٧٣ سورة المائدة مدنية .

أما « الكلمة » و « الروح » . . فيستحقان بعض الإيضاح .

يفهم المسلمون أن الكلمة هى هدى الله ومعجزته ألقاها إلى مريم .

أما الروح فيفهم المسلمون أنها إشارة للروح القدس ، وهو جبريل عليه السلام ، وقد أيد الله تعالى رسوله عيسى بالروح أى جبريل :

﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾(١) .

بعد استعراض عقيدة المسيحيين حول طبيعة عيسى ونهايته . وبعد بيان الحق الذى أنبأنا به الله عن هذه الطبيعة والنهاية . نريد أن نعرف ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون فى علاقاتهم بالمسيحيين وعقائدهم . أورد الإسلام نصوصا صريحة خص بها ديانة المسيحيين من بين جميع الأديان بالمودة . أنكر القرآن ألوهية المسيح وأنكر الصلب والفداء إلا أنه صرح فى نصوصه بأن النصرانية أقرب الأديان مودة إلى الإسلام .

قال تعالى فى سورة المائدة :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٢) .

أثنى الله تعالى على أتباع المسيح الذين ساروا على هديه . .

قال تعالى فى سورة الحديد :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾(٣) .

وليس من تعارض بين الموقفين على الإطلاق . فإن إنكار القرآن لألوهية المسيح . . واعترافه بمودة النصارى ، وثناءه على الذين اتبعوا عيسى . . تعنى أكثر من شىء :

ـ أن المسيحية ديانة توحيد فى أصلها ، ومن الصعب أن يهجر كل أتباعها التوحيد ، والله تعالى هو وحده الذى يعلم حقيقة ما تنطوى عليه القلوب .

---

(١) من الآية ١١٠ سورة المائدة مدنية . (٢) من الآية ٨٢ سورة المائدة مدنية .

(٣) الآية ٢٧ سورة الحديد مدنية .

ـ أن فى النصارى قسيسين ورهبانا لا يستكبرون على الله . . وإنما هم خاضعون له .

ـ أن فى قلوب بعض الذين يتبعون عيسى رأفة ورحمة . . ولا تتولد الرأفة والرحمة إلا من الإيمان باليوم الآخر .

وقد أصدر الله تعالى أوامره إلى المسلمين أن يعاملوا أهل الكتب السابقة عليهم معاملة كريمة ، كما كفل الإسلام حرية العقيدة لغيره من الخلق . .

قال تعالى فى سورة يونس :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

وقال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[2] .

وقال تعالى فى سورة آل عمران :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[3] .

ونلاحظ أن الآيات تتحدث عن معاملة المسيحيين كأفراد . كما تتحدث عن معاملة عقائدهم كعقائد . بالنسبة للمسيحيين كأفراد . . نرى الآيات تأمر بمبادلتهم المودة ، إذ يصرح النص أنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا . . وإذا كان الله تبارك وتعالى هو الذى يصرح بذلك ، فقد وجب على المسلمين أن يبادلوا النصارى ودا بود . أما عقائدهم ففى القرآن آيات تمنع من إكراه الناس بأى صورة من الصور . تأمل قوله تعالى فى سورة الكهف :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[4] .

---

(١) من الآية ٩٩ سورة يونس مدنية .
(٢) من الآية ٢٥٦ سورة البقرة مدنية .
(٣) من الآية ٦٤ سورة آل عمران مدنية .
(٤) من الآية ٢٩ سورة الكهف مكية .

ذلك أن الإيمان بالإكراه ليس إيمانا . ينقصه الاختيار الحر . . وهو شرط الإيمان . ولعل من تمام كمال الإسلام موقفه هذا . . ونحسب دون أن نقحم تفسيرنا على الآيات . . مستغفرين الله من الخطإ والزلل . . نحسب أن الإسلام أراد بموقفه هذا أن يجنب عامة أتباعه هذا الجدل الطويل العريض حول عقائد الآخرين . وهو جدل لا ينتهى إلى شيء ذى بال . ليبحث العلماء كيفما يشاءون فى الأديان ، فهذه مهمتهم أولا وأخيرا . أما عامة المسلمين فعليهم أنفسهم .

ثم إن اختلاف العقائد والفرق والمذاهب عند المسيحيين واليهود . . يجعل من جدال العامة لهذا كله ضياعا للوقت والجهد .

ولقد بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا . . وفى غربة الإسلام الأولى كان المسلمون يبنون الفرد المسلم أولا ، فلما تم بناؤه تم بناء الدولة الإسلامية ، ولم نسمع أن أحدا منهم كان يشتبك فى جدال لا ينتهى حول عقائد الآخرين .

إن هداية الآخرين إلى الله عمل رائع .

ولكن هذه الهداية تستوجب هداية النفس أولا إلى الله .

ولو هدى المسلمون أنفسهم إلى الله ، لهدى الله بهم من يشاء من عباده .

أثبت القرآن لعيسى معجزتين لم يرد بهما خبر فى الأناجيل : معجزة كلامه وهو رضيع فى المهد . ومعجزة المائدة التى أنزلت على الحواريين من السماء . كما أثبت له كرامة إنقاذه من أيدى اليهود فلم يسمح لهم بتعذيبه أو قتله وإنما رفع إلى السماء . . وأوصى النبى عليه الصلاة والسلام بالمسيحيين خيرا ، وتزوج من مارية القبطية .

ويروى ابن جرير نقلا عن ابن عباس ، أن رجلا من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين ، كان له ولدان مسيحيان ، فأسلم وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما إذا كان يجب عليه إكراه ولديه على اعتناق الإسلام ، وهما يرفضان كل دين غير المسيحية ، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة .

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (١) .

وعندما جاء رسل نجران المسيحيون إلى المدينة لمفاوضة النبى صلى الله عليه وسلم ، منحهم نصف مسجده ليؤدوا صلاتهم فيه . وقام رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يوما لجنازة ، فقيل له إنها جنازة يهودى .

---

(١) من الآية ٢٥٦ سورة البقرة مدنية .

فقال : أليست هى نسمة ؟

وقال عليه الصلاة والسلام : من آذى - ظلما - يهوديا أو نصرانيا ، كنت خصمه يوم القيامة . قد يدوم الملك على الكفر ولكنه لا يدوم على الظلم .

اختلف علماء المسلمين بعد رفع عيسى . . عن حاله بعد ذلك . .

يتفقون على أنه لم يصلب . . بل رفعه الله إليه . . وإذا كان لم يصلب ، فما حاله بعد ذلك . . ؟ أهو حى . . ؟ أم مات كما يموت الأنبياء ؟

الجمهور على أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى بجسمه وروحه إليه . . وأخذوا بظاهر قوله تعالى فى مقابل القتل :

﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾(1) .

وببعض آثار وردت فى ذلك . وفريق آخر من المفسرين - وهم الأقل عددا - قالوا إنه عاش حتى توفاه الله تعالى كما يتوفى أنبياءه . ورفع روحه إليه كما ترفع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء ، وأخذوا فى ذلك بظاهر قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾(2) .

ونختار الرأى الأول . . لاتساقه كمعجزة خارقة مع ميلاد عيسى ، وكان معجزة خارقة ، ومع حياته ونقائه ، وكانا معجزتين خارقتين .

---

(1) من الآية ١٥٨ من سورة النساء مدنية .

(2) من الآية ٥٥ سورة آل عمران مدنية .

محمد
(عليه الصلاة والسلام)

حين انطفأت شموع التوحيد فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأوشك الظلام الكثيف أن يطبق على العقل ، ولم يعد هناك غير قلة قليلة من الغرباء الموحدين ، شاءت رحمة الله تعالى أن تبعثه بآخر رسالات السماء إلى الأرض . . ووسط كآبة الحياة وليلها الموحش . . جاء شمس الأنبياء . . جاء استجابة لدعوة إبراهيم خليل الله . . وجاء تصديقا لبشرى عيسى روح الله وكلمته . . يصلى عليه الله عز وجل رحمة وبركة . . وتصلى عليه الملائكة ثناء واستغفارا . . ويصلى عليه المؤمنون تكريما وتعظيما . .

قال الحق فى سورة الأحزاب :

﴿ إنّ اللّه وملائكتهُ يُصلّون على النّبي يأيُها الّذين آمنُوا صلُوا عليّه وسلّمُوا تسْليما ﴾(١) . .

ومن قبله أرسل الله تعالى أنبياءه رحمة لقومهم . . وزمانهم . . وأرسله الله تعالى رحمة للعالمين . . جاء رحمة مطلقة لقومه وزمانه . . ولمن يجىء بعدهم من الأقوام والأزمنة على تعاقب الأيام وتتالى الدهور . .

قال الحق فى سورة الأنبياء :

﴿ وما أرْسلْناك إلاّ رحْمة للْعالمين ﴾ (٢) .

ولقد كان جوهر دعوات الأنبياء السابقين عليه هو الإسلام . . وكان عنوان رسالته هو الإسلام . . فتأمل أنت أى إعجاز أن يكون العنوان جوهرا . . ويكون الجوهر عمقا بلا قاع ، وقمة بلا نهاية . . ذلك هو : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . ابن امرأة من

---

(١) الآية ٥٦ مدنية .

(٢) الآية ١٠٧ مكية

قريش كانت تأكل القديد . . و سيد أبناء آدم و عبد الله و رسوله ، و رحمة الله المهداة للبشر . .

المكان : أرض الجزيرة العربية . . الدنيا ليل . . الهزيع الأخير من الليل . .

تصور عبد المطلب أن الشمس قد أشرقت فجأة . . واستيقظ ليجد نفسه فى جوف الليل ، وقد أطبق على الصحراء الممتدة سكون عظيم . .

أزاح بيده باب الخيمة فشاهد النجوم تلمع فى السماء و الدنيا ليل . . و عاد يغلق باب الخيمة و ينام . . لم يكد يستسلم للنعاس العميق حتى عاد الحلم إلى الظهور مرة أخرى . .

كان كل شيء واضحًا هذه المرة . . إن كائنًا عظيمًا يأمره بأمر حاسم : احفر زمزم . . . !

سأل عبد المطلب فى الحلم . . و ما زمزم . . . ؟!

و عاد الأمر يصدر إليه فى الحلم : احفر زمزم . . . !

لم يكد آخر صدى من أصداء الأمر يختفى ، حتى كان عبد المطلب قد انتصب جالسًا فى فراشه و قلبه يدق بعنف . . نهض عبد المطلب ، و فتح باب الخيمة ، و اندفع إلى الصحراء العريضة . . ما معنى زمزم ؟ . . آه . . أضاء ذهنه فجأة بنور قادم من بعيد . . زمزم . .

زمزم بئر . . لا بد أن تكون زمزم بئرا . . لكن لماذا يريد منه الهاتف أن يحفر بئراً؟ . . ليس هناك غير جواب واحد عن هذا السؤال . . لكى يشرب منها الحجاج الذين يجيئون إلى الكعبة . . لكن أى قيمة لهذه البئر بالذات ؟ . . هناك آبار كثيرة يشرب منها الحجاج . .

جلس عبد المطلب على رمال الصحراء فى قلب الليل ، وراح يتأمل النجوم ويفكر . . كانت هناك قصص قديمة تروى عن البئر التى انفجرت تحت قدم إسماعيل عليه السلام . . وكانت هناك قصة تقول إن هذه البئر قد طمرت و انسدت بفعل الزمن . . وإن الآبار التى حفرت لم تكن فى مكان هذه البئر المباركة . . .

أشرقت الشمس على صحراء الجزيرة العربية ، فخرج عبد المطلب على الناس و حدثهم أنه يريد أن يحفر بئرا فى ذلك المكان المحدد . . أشار بيده إلى المكان الذى حددته الرؤيا . . ورفضت قريش . . إن المكان الذى أشار إليه يقع بين صنمين من الأصنام التى يعبدها الناس . صنم اسمه «أساف» . . وصنم اسمه «نائلة» . .

عبثًا حاول عبد المطلب أن يقنع قومه بأن يسمحوا له بحفر البئر . .

كانوا يعلمون أن عبد المطلب لم يكن له سوى ولد واحد . . هو إذن رجل ليست له عصبية، وليس عنده أولاد يدافعون بالقوة عن رأى أبيهم و يحمون تصرفاته . . . وأيامها كان كل شيء فى بلاد العرب وسط القبائل يتم عن طريق العصبيات و حماية الأهل . .

انصرف عبد المطلب وهو حزين . . وقف أمام الكعبة و نذرلله نذراً . . قال: إذا ولد لى عشرة أولاد ، وبلغوا مبلغ الرجال و كبروا ، حتى استطاعوا حمايتى فى حفر البئر ، فسوف أذبح أحدهم عند الكعبة تضحية و قربانا . .

كان قلب السماء مفتوحًا لكلمته . . لم يكد عام واحد يمضى حتى وضعت زوجة عبد المطلب ابنها الثانى . . و كل عام يمر كانت تلد ولدا من الذكور . . حتى انتهت تسعة أعوام ، و صار عبد المطلب أبا . . لعشرة أولاد . . ومر الزمن و كبر الأولاد ، وصاروا رجالاً . .

صار عبد المطلب صاحب عصبية تمنع الأعداء عنه و تؤيده . . وحفر البئر فى المكان الذى أشار إليه الهاتف . . وتهيأ للتضحية بأحد أولاده وفاء لنذره القديم . .

وأجريت القرعة على أبنائه العشرة، فخرج اسم أصغر أبنائه، وكان اسمه عبد الله . .

لم يكد اسمه يظهر حتى ثار الناس ثورة شديدة . . لا نترك عبد الله يذبح أبدًا . .

كان عبدالله أنقى إنسان فى الجزيرة العربية كلها . .

و لم يكن قد أغضب أحدا فى حياته، أو رفع صوته على أحد، أو كشر فى وجه أحد . . إن ابتسامته هى أرق ابتسامة فى الجزيرة العربية، و روحه أصفى روح فى مكة، و قلبه النبيل يشبه الجنة وسط صحراء القلوب القاسية . . و لهذا ثار الناس جميعا حين جاءت عليه القرعة كى يذبح . . و قال شيوخ قريش ورؤساؤها : نذبح أبناءنا بدلاً منه و نفديه هو . .

ـ لن نجد أحدًا فى طيبته لو ذبحناه . .

ـ أرجئ الأمر و دعنا نستفتى العرافة . .

و استراح عبد المطلب لهذا الضغط، فأرجأ الأمر ، وذهب الناس يستفتون العرافة . .

قالت العرافة : كم الدية عندكم ؟

أجابوا عشرة من الأبل . . قالت : ارجعوا و أحضروا عشرة من الإبل ، و أجروا القرعة عليها و على عبد الله . . فإذا جاءت القرعة عليه فزيدوا الإبل عشرة ، وأعيدوا القرعة، و زيدوها عشرة فعشرة حتى يرضى ربكم . .

وأجريت القرعة على عبد الله وعشرة جمال عظيمة . . . . فجاءت عليه القرعة، فزاد عبد المطلب عشرة من الإبل على العشرة، فجاءت عليه القرعة، و ظلوا يزيدون حتى وصل عدد الإبل إلى مائة . . جاءت عليها القرعة أخيراً بعد عشر مرات . .

وانهمرت دموع الناس فرحًا بنجاة عبد الله ، وذبحت مائة ذبيحة عند الكعبة، وتركت لا يُصد عنها إنسان ولا سبع . كان عبد المطلب سعيدا بنجاة ولده عبد الله، وقرر أن يزوّجه أفضل فتاة في الجزيرة العربية . . وخرج به يومها من الكعبة إلى دار «وهب» . . وهناك خطب له آمنة بنت وهب . .

وتزوجت آمنة بنت وهب من عبد الله بن عبد المطلب، أكرم الفتيان وأحبهم فى قريش!

أشعلت النيران فى جبال مكة كلها ليهتدى إليها المسافرون والضيوف، احتفالاً بزواج عبد الله من آمنة، وذبحت الذبائح وأطعم الناس الغرباء والفقراء والوحوش والطير . . ومكث عبد الله مع زوجته آمنة شهرين اثنين فى بيت العرس . . ثم أذن مؤذن الرحيل فخرج عبد الله إلى رحلته مسافراً مع قافلة قريش التجارية إلى الشام . .

وكان آخر ما شاهدته منه آمنة بنت وهب . . وجهه النبيل وهويودعها قبل أن يرحل . . بعدها اختفى شبحه مع القافلة ، وذابوا فى الأفق البعيد .

وكانت آمنة بنت وهب لا تعرف أنها المرة الأخيرة . . بعد شهرين اثنين من زواجه رحل . . بعد شهر واحد من رحيله زار أخواله من قبيلة بنى النجار فى المدينة ، وهناك وضع جسده على الأرض ومات . . مات عبد الله بن عبد المطلب . . وعمره خمس وعشرون سنة . . انتشر خبر موته مقبضا . . مؤلما كالحريق . . حتى إذا وصل الخبر إلى زوجته آمنة انكفأت العروس تبكى وتنتحب وتسأل سؤالا لم تكن تعرف لحظتها جوابه: لماذا فداه الله بمائة من الإبل إذا كان قد قدر عليه الموت بعدها بقليل ؟ . . وتحرك فى رحمها الجنين حركة خفيفة . .

وعادت تبكى حين أدركت أنها حامل . . بكت مرتين مرة لنفسها، ومرة لهذا الطفل الذى مات أبوه قبل أن يولد . . ولم تكن آمنة تعرف أن هذا اليتيم الذى يتحرك فى بطنها يجب أن يكون يتيمًا . . يجب ألا يبقى أبوه على قيد الحياة، سيكون هذا اليتيم مسئولا عن حمل آلام اليتامى والمساكين والحزانى فى الأرض . . سيكون آخر أنبياء الله ورسله إلى الناس . . سيكون رحمة مهداة إلى البشر . . ولا يعرف الرحمة إلا من ذاق الحزن وعرف الآلام . .

وها هوذا الطفل يتغذى قبل أن يولد من دماء الحزن العميق النبيل ذاته . .

ومرت الأيام . . ونفد دمع الأم، وجفت عيناها، ولكن حزنها كان يشبه شجرة تنمو مع العطش . . راح الحزن يكبر يوما بعد يوم . .

ولم تكن تحس لدهشتها بثقل لهذا الجنين الذى تحمله فى بطنها . . على العكس، كانت تحس أنها خفيفه كهذا الحمام الذى يطوف حول الكعبة . . ولولا حزنها الذى يشدها للأرض، ما كانت هناك امرأة أسعد منها بهذا الحمل الخفيف الذى لا تشعر به، الثقيل الكريم عند رب العالمين . .

واقترب موعد ولادتها . . واقترب زحف أبرهة بجيشه من مكة . .

كان أبرهة حاكما حبشيا لليمن، فى الفترة التى خضعت فيها اليمن للبشر بعد طرد الحاكم الفارسى منها، وكان قد بنى فى اليمن كنيسة جمع لها كل أسباب الوجاهة، على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام فى مكة . وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم لهذا البيت . . فلما رأى كنيسته لا تجذب إليها أحدا من العرب، صح عزمه على هدم الكعبة ليضع الناس أمام الأمر الواقع، فلا يقصدون إلا كنيسته، وهكذا أعد جيشا عظيما مدججا بالسلاح، وشق الجيش طريقه نحوالكعبة . . وكان جيش أبرهة يضم مجموعة من الفيلة العظيمة الشرسة التى يستخدمها كما نستخدم نحن الدبابات هذه الأيام . . وتسامع العرب به وبقصده . . وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم . . وكان العرب وثنيين، ورغم ذلك كان البيت موضع اعتزازهم لاعتقادهم بأنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل صاحبى البيت . .

واعترض مسار الجيش رجل من أشراف أهل اليمن وملوكه، اسمه ذونفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام . . فأجابه إلى ذلك من أجابه . . والتقى أبرهة بهذا الجيش، فانهزمت القلة الشجاعة أمام الكثرة الكافرة، وانكسر ذونفر وصار أسير أبرهة . .

اعترض الجيش نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير، فهزمهم أبرهة وأسر نفيلا . . وقبل هذا أن يكون دليله فى أرض العرب . . حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف وهم يرتعشون جبنا فقالوا له : إن البيت الذى يقصده ليس عندهم، إنما هوفى مكة . . وذلك ليدفعوه عن بيتهم الوثنى الذى بنوه لصنم يقال له «اللات»، وبعثوا معه من يدله على الكعبة . .

فلما كان أبرهة بين الطائف ومكة، بعث قائدا من قواده حتى انتهى إلى مكة، وهناك اغتصب أموالاً من قريش وغيرهم، وكان بين ما اغتصبه مئتا بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهويومئذ كبير قريش وسيدها وصاحب بئر زمزم . .

وأثار وجود رسول أبرهة فى مكة حمية القبائل ، وتحركت قريش، وكنانة ، وهذيل، ومن كان بذلك الحرم لقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك.

وانطلقت فى الجزيرة العربية أخبار الجيش الذى لايقهر . . وبعث أبرهة رسولاً إلى مكة، وهو يحمل رسالة تقول إن الملك لم يأت لحربهم . . وإنما جاء لهدم هذا البيت . . فإن لم يتعرضوا له، فلا حاجة له فى دمائهم . . فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب فليجيئوا به إلى الملك . . والتقى رسول أبرهة بعبد المطلب . . وحدثه عن نوايا الملك. قال عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا من طاقة . . هذا بيت الله الحرام . . وبيت خليله إبراهيم عليه السلام . . فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه . وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفاع عنه . .

فانطلق الرسول مع عبد المطلب إلى أبرهة . . كان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . . وكانت له هيبة واحترام عظيمان . . فلما رآه أبرهة أحس بالاحترام نحوه . . وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساط وأجلس عبد المطلب إلى جانبه . . ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟

قال عبد المطلب : حاجتى أن يرد علىّ الملك مئتى بعير أصابها لى . .

فلما قال ذلك، تغير وجه أبرهة ،وقال لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك . . ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى . . أتكلمنى فى مئتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هودينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمنى فيه ؟!

قال عبد المطلب : أنا رب الإبل . . وللبيت رب يحميه . .

قال أبرهة : لن يحميه منى . .

قال عبد المطلب : أنت وذاك . .

انتهى الحوار بين عبد المطلب وأبرهة . . أعطاه الملك ما اغتصبه من الإبل، وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر . . وأمرهم بالخروج من مكة ، واللجوء إلى كهوف الجبال .

وخلت مكة من سكانها . . وخرجت آمنة بنت وهب إلى الجبال القريبة . . وهبطت الملائكة أرض الجزيرة العربية . .

ووقف عبد المطلب وأمسك بحلقة باب الكعبة . . وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه . . وانهالت السياط على الفيلة التى تتقدم جيش أبرهة . . وأمرت الملائكة الفيلة أن تجمد فى مكانها، فأطاعت . .

وازداد الضرب قسوة وشدة . . واثاقلت الفيلة فى الأرض أكثر وأكثر . . كانت ترتعش فى مكانها وتصرخ . . بيد أنها رفضت أن تتحرك حركة واحدة . .

وتساءل أبرهة : لماذا لا يتحرك الجيش ؟ . . وجاءه الجواب : إن الفيلة ترفض الحركة . . ورفع أبرهة سوطه وهبط به على وجه محدثه ، ثم خرج ثائرا ليرى ماذا أصاب الفيلة . .

كانت الشمس مشرقة وهويجلس فى خيمته . . فلما خرج كانت الشمس تحتجب وراء أسراب من الطيور الزاحفة . . رفع أبرهة بصره إلى السماء . خيل إليه فى بداية الأمر أنه يواجه سحابة سوداء . . ثم دقق النظر ، فاكتشف أنه أمام طيور تسد ضوء الشمس وتشبه السحابة فى تكاثفها . . ﴿ طيرا أبابيل ﴾ . . طيرا كثيرة متعاقبة ، لا تبدولها نهاية . .

وزاد صراخ الفيلة ورعبها . . وسرى الرعب إلى الجيش كله . . وصرخ أبرهة فى جيشه أن يتجاوز الفيلة ويتقدم . . وتقدمت الطيور منقضة على الجيش . . وانفتحت نافذة من نوافذ الجحيم ، والطيور تقذف الجيش بحجارة من سجيل . .

نفس الحجارة التى ألقيت على قوم لوط . .

نفس الأثر المدمر الذى يشبه أثر القنابل الذرية اليوم . .

إنك تقرأ فى الأسفار القديمة وصفا لما أصاب جيش أبرهة ، فيخيل إليك أنك أمام طاقة مدمرة مجهولة ، عرف العالم طرفا منها بعد أربعة عشر قرنا من وقوع الحادث . . تقول هذه الأسفار : إن الجيش أبيد وهلك . . انكفأ جنوده عائدين ولحمهم يتساقط فى الطريق . . وأصيب أبرهة وخرجوا به ولحمه يسقط أنملة أنملة . . كان جسده يتناثر قطعا كل قطعة منها فى حجم أنملة الأصبع الصغيرة . . وانشق صدره ومات .

أسدل الستار على الجيش . . استلقت أسلحته اللامعة على رمال الصحراء ، وتناثرت أجساد الجند كعصف مأكول . . قال المفسرون «العصف المأكول» هوورق الزرع إذا أكلته الدواب ومضغته وهضمته ثم رمت به من أسفل .

بعد ما يقرب من نصف قرن . . ستنزل فى مكة سورة تقص نبأ هذا كله . .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [1] .

---

(١) سورة الفيل : ١ ـ ٥ مكية .

انكسر الجيش الذى استسلمت له الجزيرة بمجرد دخوله . .

أبيد تمامًا، وحمى رب الكعبة بيته الحرام . .

لم تكن هذه الحماية تكريما لمن يعيش فى البيت وقتذاك . . ولا كانت استجابة لدعاء الوثنيين وعباد الأصنام الذين يملئون ساحاته . . حمى رب البيت بيته لحكمة عليا . .

كان سبحانه وتعالى يريد بهذا البيت أمرًا . . يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمنًا . . ليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة . . نحوأرض حرة آمنة . . لا يهيمن عليها أحد من الخارج . . ولا تسيطر عليها حكومة أجنبية قاهرة تحاصر الدعوة . . ذلك أن هناك فى بيت من بيوت مكةجنين لم يولد بعد . . أمه تحمل اسم آمنة بنت وهب . . وأبوه عبد الله من سادات العرب . . والطفل لم يولد بعد . . ولم يكلف بعد بالنبوة . . و لم يحمل الإسلام ثقيلاً على كاهله، ورحمة للعالمين . .

ثم يجىء أبرهة يريد أن يهدم هذا كله . . دون أن يعرف هذا كله . .

إن مأساة أبرهة ـ مع ظلمه ـ أنه حاول اعتراض المشيئة الإلهية . . فسحقته المشيئة الإلهية بمعجزة صامتة وخاطفة . . إن طيرا كثيرة تلقى ما تحمله فى أرجلها ومناقيرها من حجارة طينية . . لا صوت فى السماء غير حركة الرياح الخفيفة . .

ثم تهبط الحجارة الصغيرة فتفعل فعل انفجار آلاف القنابل . . أيضًا بلا صوت . . كان هذا من تدبير الله لبيته ودينه ونبيه قبل أن يعلم أحد أن نبى الإسلام يتهيأ ليغادر فراشه الرحيم فى بطن الأم إلى حياته القاسية على ظهر الأرض .

وسط أفراح مكة بنجاتها ونجاة الكعبة . . رأت آمنة بنت وهب حلما ذات ليلة . .

شاهدت نفسها تقف وحدها وسط الصحراء ، وقد خرج منها نور عظيم أضاء المشرق والمغرب، وامتد حتى السماء . . واستيقظت آمنة من نومها فلم تعرف تفسير رؤياها . . ولم تعش حتى تعرف تفسير رؤياها . .

مرت أيام وأيام من عام الفيل . .

وفى وقت السحر . . من ليلة الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول . . ولدت آمنة بنت وهب طفلها اليتيم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، حفيد إسماعيل ابن إبراهيم بن آدم . .

كانت الدنيا تموت عطشا إليه قبل أن يولد . . كان عطشها عظيما إلى الحب والرحمة والعدالة . .

لقد مر الآن ستمائة عام على ميلاد المسيح، وابتعد المسيحيون فيها عن تعاليم الحب، وتسللت العقائد الوثنية إلى بعض فرقهم، وشاب صفاء التوحيد دنس عظيم.. وهجر اليهود وصايا موسى وعادوا لعبادة العجل الذهب، وفضل كل واحد منهم أن يكون له عجله الذهبى الخاص..

وأغارت الوثنية على الأرض.. كفرت بالعقل، ونسيت الله، واستسلمت لأيدى الدجالين.. وحين بدا واضحا أن قلب الدنيا قد أصيب بالجفاف، نبع من المشرق فجأة ينبوع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم.. وكانت معجزة كبرى أن يخرج هذا الينبوع الصافى من قلب أعظم الصحراوات جفافا فى العالم.. صحراء الجزيرة العربية..

يقول الحديث الشريف فى تصوير هذه الفترة: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم.. عربهم وعجمهم.. إلا بقايا من أهل الكتاب»..

الرمال تمتد صفراء حتى تلتقى بالأفق.. خيام مكة.. فى خيمة خشنة منها يولد طفل يتيم سيصبح فيما بعد مسئولا عن إرواء عطش العالم إلى الحب والعدالة والحرية والحق..

على مسافة خطوات من مكان مولده.. تملأ الأصنام ساحة البيت العتيق، وحول الكعبة التى بناها إبراهيم وإسماعيل لتكون بيتا لله يعبد فيه وحده، ويأمن الناس فيه وحده.. فى هذا البيت القديم الذى بناه قبله آدم..

تملأ تماثيل الآلهة الحجرية والخشبية المكان كله.. دليلاً يشهد على سقوط العقل العربى وانحداره.. وبعيدا عن مكة، كانت يثرب، أوالمدينة التى تمتلئ باليهود الذين جاءوها هربا من اضطهاد الرومان.. وحطوا كالذئاب على أخصب الأرض واحتكروا تجارة المتعة، وشيدوا مستعمراتهم، مستغلين ضعف الوجود العربى وانقسامه على نفسه.. وهووجود كانت لديه القدرة على التناحر والقتال أربعين عاما لأسباب تافهة..

وكان علماء اليهود يتاجرون بكل شىء.. ابتداء من الذهب وانتهاء بالتوراة، فيخفون منها أوراقا ويظهرون أوراقا، ويحرفون أوراقا، ليزدادوا ثراء على ثراء.. وعلى حين كان اليهود يعبدون الذهب، ويجيدون التجارة، ويتفننون فى المؤامرات.. كان العرب يعبدون الحجارة، ويجيدون القتال، ويتفننون فى قرض الشعر وتعليقه على أستار الكعبة.. وكان العرب يعيشون فى ظل نظام القبائل المتخلف.. شيخ القبيلة هوالسيد الحاكم، وقيمته تتحدد بمقدار عدد رجاله وكثرتهم وقدرتهم على القتال.. وفضل المرء ينبع من أصله، وعصبيته هى قيمته، و فخره بالأنساب

هوكرامته ، والتعصب لصنم معين هودينه . . وكانت كل قيم الشهامة والكرم والنجدة والوفاء لا تدور إلا داخل الإطار الضيق للقبيلة الواحدة ، أوالقبائل المتصالحة . .

وبعيداً عن مكان الميلاد . .

كانت «روما» تشبه نسراً عجوزاً لم يفقد قوته . . وكان الرومانيون يعبدون القوة . .

وإلى الشرق من شمالى بلاد العرب ، كان الفرس يعبدون النار والماء . .

إن النار تشتعل فى معابدهم فيركع لها الناس . وهناك «بحيرة ساوة» التى تعتبر فى نظرهم مقدسة . . أما «كسرى» ملكهم فيجلس فى إيوانه للحكم بين الناس فتمضى كلمته كالقضاء النافذ . . لا يناقشها أحد ، ولا يردها أحد . . وكان الفرس قد غلبوا الروم واليونان، وصاروا أكبر القوى الموجودة فى الأرض . . ورغم قوتهم فقد كانت النار التى يعبدونها تكشف عن غباء القوة حين تنخلع من عقلها وتقف عارية بغير الحق . .

كان الظلام يزداد فى كل بقعه من الأرض . . وتحولت الحياة إلى غابة كئيبة يضرب فيها القوى الضعيف ، وينتصر فيها الشر على الخير . . ويعبد العقل فيها قطع الحجارة، أويعبد الخوف الذى يلقيه الطغاة فى قلبه . .

وفى هذا الجو . . ولد فى خيام مكة طفل . . وفى نفس اللحظة التى ولد فيها هذا الطفل العربى ، انطفأت النار المعبودة فى معابد الفرس . . وجفت بحيرة ساوة المقدسة . . وسقطت أربع عشرة شرفة من قصر كسرى ، وأحس الشيطان أن ألما هائلاً يمزق قلبه . .

وكان هذا كله رمزا لبداية انكسار الشر فى العالم . . وتحرير العقل البشرى من عبادة العباد والخرافات ، إلى عبادة الله وحده . .

قال البوصيرى :

أبان مولده عن طيب عنصره
يا طيب مبتدإ منه ومختتم

يوم تفرس فيه الفرس أنهمو
قد أنذروا بحلول البؤس والنقم

وبات إيوان كسرى وهو منصدع
كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

والنـار خـامـدة الأنفـاس من أسـف

عليه .. والنهـر سـاهى العين من سـدم

وسـاء سـاوة أن غاضـت بحيـرتهـا

ورد واردها بـالغـيظ حـين ظـمى

ويعتقد بعض العلماء أن هذا الكلام تعبير خاطئ عن فكرة صحيحة . . فإن ميلاد الرسول كان حقا إيذانا بزوال الظلم واندثار عهده ، مثلما كان ميلاد موسى إيذانا بتخليص بنى إسرائيل من ظلم فرعون . . غير أن رسالة محمد بن عبد الله كانت أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلى والمادى . . وكان جند القرآن أعدل رجال وأجرأهم على كسر شوكة الطغاة ، طاغية أثر طاغية . فلما أحب الناس ، بعد انطلاقهم من قيود العسف ، تصوير هذه الحقيقة ، تخيلوا هذه الإرهاصات وأحدثوا لها الروايات الواهية ، ومحمد صلى الله عليه وسلم غنى عن كل هذا كله . . فإن نصيبه من الواقع المشرف يزهدنا فى هذه الروايات وأشباهها [1] . . رغم إيماننا أن نصيب الرسول من الواقع المشرف يتجاوز هذه الروايات وأشباهها ، إلا أن هذا لا يمنع من وقوع هذه الخوارق .

وسوف نلاحظ فى سيرة الرسول أن الخوارق أحاطت بالكعبة قبل مولده ، ثم وقعت النبوءات الخارقة بعد مولده ، ثم وقعت له خارقة « شق الصدر » فى طفولته ، وأظله الغمام فى صباه ، وصرف صرفا عن لهوالشباب البرىء . . وظلت عناية الله عز وجل تحرس خطاه حتى نزل عليه جبريل بالوحى . .

بعدها أصبحت معجزته الأولى هى شخصيته وأفكاره . . صارت معجزته الكبرى بعد القرآن . . هى هذا البناء الروحى الشامخ الذى احتمل فى الله ما احتمل ، وقاسى فى الحق ما قاسى ، وأدى أمانته بكمال لا يطاول . .

وأجمل ما يقال عن معجزات النبى بعد بعثته ، أنه كان بلا معجزة . . بلا معجزة سوى تحرير العقل . . بلا خوارق سوى إطلاق الفكر . . بلا دليل غير كلمات الله . .

لقد دعا عيسى بن مريم إلى المساواة والأخوة والحب . . أما محمد عليه الصلاة والسلام فوفق إلى تحقيق المساواة والأخوة والحب بين المؤمنين أثناء حياته وبعدها . .

---

(١) راجع كتاب فقه السيرة . . للأستاذ محمد الغزالى . . وهو كتاب عظيم سطره صاحبه بعلم وحب .

وعلى حين أحيا عيسى بن مريم الموتى وأخرجهم من قبورهم . . أحيا محمد بن عبد الله الأحياء من موتهم الذى لا يدركونه ، وذلك أقسى أنواع الموت . . وأخرجهم من ظلمة الجهل إلى طمأنينة العلم ، ومن خبل الشرك والكفر إلى علم التوحيد . .

ولقد كان سليمان نبيا وملكا يشتغل الجن فى خدمته ويطيرون آلاف الأميال لإحضار عروش أعدائه كى ينبهروا بقدرته فيسلموا . . أما محمد فكان يشتغل فى خدمة الإسلام ، بدرجة جندى بسيط ووديع . . وكان يعلم أنه لوغفل عن دعوته لحظة ، أواستسلم جسده لإعياء الكفاح المتصل ، فقد ضاعت فرصته فى نشر الإسلام وتبليغ أمثالى وأمثالك من عباد الله ، ما أراد الله أن يعرفوه عن جلاله ورحمته . .

وفى لحظات الهول الكبرى فى معاركه ، كان وقت الصلاة يجىء . . فيصلى الجيش المقاتل . . لا تنزل الملائكة لتحميه أثناء الصـــلاة . . أوتمنع السهام عن ظهره خلال سجوده . . وإنما على الجيش المحارب أن يحمى نفسه بنفسه . . فليصل الجيش المؤمن بالتناوب . . جزء يصلى ، وجزء يقوم بمهمة الحراسة . . ثم يتبادلان المواقع . .

قال تعالى فى سورة النساء :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (١) .

انتهى الأمر ، ولم يعد مع الجيش ملائكة لحمايته ونصره . . هذا عهد الرشد العقلى ، عهد عناء الأنبياء والمؤمنين . . وعلى قدر العناء فى تبليغ الإسلام ، يكون الجزاء . .

ولقد كان العهد بالأنبياء قبل محمد أن يقدموا معجزاتهم لقومهم عند بدء الدعوة . . ليصدقهم القوم فيما جاءوا به . أما محمد بن عبد الله فلم يقدم لقومه غير شخصه وحده . . وصدقه وحده . . وقد اقتضت عناية الله بموسى أن يرفع الجبل على قومه ليؤمنوا بالتوراة ، أويسقط عليهم الجبل . . وسجد اليهود وقد وضعوا خدا على الأرض وتأملوا بما بقى من وجوههم كتلة الحجارة التى رفعتها يد القدرة الخفية . .

---

(١) من الآية ١٠٢ مدنية .

أما محمد بن عبد الله ، فلم يقهر أحدا على شيء . . آمن به من آمن عن رضا واقتناع ، ومات معه من مات عن رضا واقتناع . . ولم يحمل هو السيف إلا حين اقترب السهم المسموم من قلب الإسلام وهدده . . بعدها لم يكن السيف فى يد الإسلام إلا مشرط جراح يشق الجسم الإنسانى إنقاذا للجسم الإنسانى ورحمة به ورغبة فى شفائه . .

ولقد كانت دعوات الأنبياء السابقين . . تقتضى ما وقع من المعجزات . . إن طفولة البشرية . . وضعف العقول . . وانطلاق الحواس . . اقتضت من رحمة الله أن يكون نوع المعجزة من نوع العصر الذى تتنزل فيه ، ومن نوع الناس الذين تبعث إليهم ، ولم يكن أهل مكة فى ذلك الوقت عقلاء أوحكماء تكفيهم الكلمات . . وإنما جاءت الصعوبة من كون الإسلام لم يبعث لهذا العصر وحده . . إنما أنزل لكل العصور . . وكان الله يعلم أن البشرية تدخل عصر النضج العقلى . . فشاءت حكمته أن تكون أولى كلمات الرسالة : ﴿اقرأ﴾ . .

وأن تكون معجزة الرسالة هى نوعية الفكر الذى تنطوى عليه ، والنظام الذى تقيمه ، والتشريع الذى تضعه . . والحرية التى تحييها . . والإنسان الذى تبنيه . .

وليس ينقص من قدر الأنبياء قبل محمد أنهم لم يبعثوا فى عصور النضج العقلى عليهم صلوات الله وسلامه . . إنما زاد فى قدر محمد أنه بعث لعصر النضج العقلى . . وبعث قبل مجىء هذا العصر . . فاحتمل أضعاف ما احتمله الأنبياء . . وقاسى فى الله أضعاف ما قاسوه . . وتعذب وحده بمثل ما تعذبوا جميعا ، وأحب الله مثلما أحبوه وزاد . . وكرمه الله عليهم حين أمهم فى الصلاة فى رحلة الإسراء والمعراج . . ورغم هذا كله . . خرج يوما على صحابته فوجدهم يفاضلون بين الأنبياء ويقدمونه عليهم فغضب وجهه وتغير . .

قال : « لا تفضلونى على يونس بن متى » . .

وضع بكلمته خطا فكريا يسير عليه المسلمون . . ليكن الأنبياء درجات عند الله . .

ليكن أن هناك أحدا أفضل من أحد . . من الذى يقرر ذلك ؟ . . لا أحد غير الله عز وجل ، أما المسلمون فليقفوا عند حدود الأدب مع الأنبياء جميعا . . وما دام الله تعالى قد صلى على رسولهم تكريما ، وأمرهم بالصلاة عليه إجلالا . . وما دام شأن الرسول كشأن بقية الأنبياء ، فليصلوا على جميع الأنبياء بغير ما تفرقه ، حتى فى عبارة الصلاة . .

تحرك الرضيع المولود فى مكة فى عام الفيل . . انطلقت الأخبار لجده أن حفيدك قد ولد . . وأسرع عبد المطلب وحمل حفيده اليتيم وراح يطوف به الكعبة وهو يفكر فى

تسميته . . لم تعجبه كل التسميات التى عرضت لذهنه . . وأجل اختيار اسمه يوما . . ولم يستطع فى اليوم الثانى أن يهتدى لتسمية ترضيه . . وطالت حيرته ستة أيام حتى تم ختانه صلى الله عليه وسلم . . فلما جن عليه الليل جاءه نفس الهاتف القديم الذى أمره بحفر زمزم . . وهمس له أثناء نومه : اسمه مشتق من الحمد . . محمد . . أوأحمد . .

سألت قريش عبد المطلب :

ـ أى اسم ستسمى حفيدك ؟ قال (وهويذكر كلمات الهاتف) : محمد . .

كان الاسم غير مألوف فى الجاهلية التى يعيش فيها الناس .

سألوه : لماذا رغبت عن أسماء آبائك وتركت أسماء أجدادك ؟

قال عبد المطلب : أردت أن يحمده الله فى السماء ، وأن يحمده الناس فى الأرض .

لا نعرف الآن أى دوافع أملت على عبد المطلب هذه الكلمات . . أكانت هذه الكلمات تصدر من واقع الزهوالعربى الشهير ؟ . . أم من واقع الفخر التقليدى ؟ . . أم من واقع الفرح العميق بالحفيد ؟ . . أم كانت الكلمات لحظة من لحظات الصفاء الروحى واستشفاف الغيب . . . ؟ لا نعرف . . . كل ما نعرفه أن أحدا من خلق الله . . لا يستحق أن يحمده الناس فى الأرض ، ويحمده الله فى السماء ، مثلما يستحق محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه . .

برز إلى الوجود يتيما ، غادر أبوه الدنيا ، وهوجنين فى بطن أمه . . قال تعالى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ (١) . .

آواه الله عز وجل . . يقول الصوفية : إن الأسباب البشرية ، كوجود جده عبد المطلب وكفالته له وإيوائه إياه ، ليست غير ظاهر يمكن تجاوزه ، أما الباطن فهوأننا أمام بشر آواه ربه من طفولته . . ورباه الحق عز وجل من طفولته . . وامتحنه باليتم وهوجنين ، وبالجوع وهوصبى وكهل ، وبفقدان الأم وهوطفل ، وبالوحدة وسط الجماعة ، وباليقظة وسط النيام ، وبآلام تعقبها آلام . .

وكان الحق يعده من طفولته لحمل آخر الرسالات ، وأثقل الأعباء ، وأفدح المغارم . .

ألصقته أمه بصدرها أكثر من ذى قبل ، وهى ترى انصراف المراضع المقبلات من البادية عن حضانته . . كانت التقاليد السائدة فى مكة أن ترسل الأسر الشريفة أبناءها

---

(١) الآية ٦ سورة الضحى مكية .

إلى البادية لانطلاق الهواء ، وتوافر اللعب . . ولم تكن المرضعات يتكالبن إلا على أبناء الأغنياء . .

ولما كان سيد الناس فقيرا . . فقد انصرفت عنه المراضع . . لنستمع الآن إلى مرضعته حليمة بنت أبى ذؤيب ، وهى تحكى قصتها مع الرضيع عليه الصلاة والسلام :

« كانت سنة جدباء ، لم تبق لنا شيئا ، فصيرتنى وزوجى فى فقر مدقع . . فعزمنا على الخروج إلى مكة فى رفقة نسوة من بنى سعد ، نلتمس جميعا الرضعاء ، ليساعدنا آباؤهم على الحياة وضرورياتها . . كانت الدابة التى أركبها من الهزال والضعف الذى سببه عدم وجود القوت ، بحيث خشينا أن تقع فى الطريق فاقدة الحياة . ولم ننم ليلنا كله من صبينا الذى معنا ، فقد راح يبكى لما يجده من ألم الجوع ، ولم يكن فى ثديى ولا فى ثدى الناقة التى يقودها زوجى قطرة من لبن نهدئ بها جوعه . وأدركنى اليأس أثناء الليل . . وتساءلت : كيف أستطيع وأنا فى تلك الحالة ، الزعم بأن فى مقدورى القيام على تنشئة طفل ؟! . . وصلنا أخيرا إلى مكة . . وقد سبقنا إليها النسوة . . فأخذن الأطفال ما عدا واحدا فقط . . هومحمد . . كان والده قد مات . . وكانت أسرته فقيرة رغم مكانتها العليا بين سادة قريش وشرفها فيهم . . لذلك أبت النسوة احتضانه . . وامتنعت أنا وزوجى من أخذه للسبب نفسه ، أعنى اليتم وعدم الثراء . . غير أنى فى النهاية خجلت أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، فأكون فضلا عن الفشل ، موضع سخريتهن . . ثم إنى شعرت بعطف متوقد نحوهذا الطفل البارع الجمال ، الذى سيؤذيه هواء البلدة الفاسد » . .

تقول هذه القصة إنه فى اللحظة التى رضع فيها كل الأطفال الذين ولدوا معه . . كان محمد بن عبد الله يرقد جائعا فى فراشه الخشن بغير أن يرضعه أحد . . شاءت حكمة عليا أن يستقبل هذا الرضيع دنياه باليتم والجوع لكى يتذوق آلام اليتامى والجائعين قبل أن يحمل إليهم الخلاص فيما بعد . .

تقول حليمة إنها ناقشت مع زوجها إحساسها الداخلى بأنها تريد أن تعود لأخذ هذا اليتيم الرضيع . . فقبل زوجها . . لم تدر حليمة سر رغبتها الغامضة فى أن تعود . . لم تكن تعرف أن الله ألقى محبته فى قلبها مثلما ألقى محبة موسى فى قلب امرأة فرعون . .

وإذا كان موسى قد رفض أن يرضع إلا من أمه ، بعد أن حرم الله عليه المراضع . . كى تقر عينها ولا تحزن ، فقد كان محمد بن عبد الله رضيعا وديعا غاية الوداعة . . ترفضه المرضعات ولا يرفض أحدا من الخلق . .

عادت حليمة إليه ، وأعلنت أنها ستحتضنه . .

كان عليه الصلاة والسلام وسنان . وضعت يدها على صدره فابتسم . . فتح عينيه، فأطلت على الدنيا براءة آدم قبل أن يمد يده للشجرة المحرمة . .

قبلته حليمة بين عينيه وعادت به إلى رحلها . . وضعته فى حجرها وألقمته ثديها الأيمن ليرضع ما شاء الله أن يرضع . . كانت تعلم أن ثديها جاف فقالت : ألهيه به . . وجد فيه الرضيع ـ على دهشة منها ـ ما يشبعه . . تدفق اللبن فى صدرها حنانا وحبا وآية من الله . . انتهى من رضاعته فمنحته ثديها الأيسر فرفضه . . تاركا إياه لأخيه من الرضاعة . . واتبع ذلك دائما . . أهى حكمة عليا هذا الاكتفاء بالقليل . . . ؟ أم أن الرضيع كان يربى نفسه على الزهد والقناعة قبل أن يربى الرجال على التضحية والرجولة . . ؟!

عادت حليمة إلى بادية بنى سعد وهى تحمل محمد بن عبد الله . .

لم تكد تعود لأرضها الجدباء ، حتى انفتح لها خير الدنيا كله . . امتلأت الأرض بالخضرة بعد الجفاف . . وأثمرت أشجار التمر بعد أن كانت يابسة ، ودرت أثداء الحيوانات ، وبارك الله فيها فامتلأت وسمنت ، وأعطت أضعاف ما كانت تعطيه من اللبن . .

وأدركت حليمة أن هذا الخير قد جاء مع مجىء هذا الطفل المبارك ، فزاد حبها له . .

ووقع زوجها أسيرا هوالآخر فى حبه . . وقال يوما لزوجته :

ـ تعلمين والله يا حليمة . . لقد أخذت نسمة مباركة . .

وشب محمد بن عبد الله فى بادية بنى سعد . .

تقول حليمة : « كان طفلا لا يبكى ولا يصرخ قط ، إلا إذا تعرى » . .

« وكان إذا قلق أثناء الليل ولم ينم ، خرجت به من الخيمة . . ووقفت معه تحت النجوم ، فيستولى عليه السرور من مشهد السماء ، حتى إذا شبعت عيناه أخذ النوم بمعاقد أجفانه » .

حين بلغ عامه الثانى فطم . . وأرادت أمه أن تأخذه . . ولكن حليمة لم تستطع أن تستسلم لهذا الانفصال القاسى . . فألقت بنفسها عند قدمى الأم وأخذت تقبلهما وهى تسألها أن تتركه معها حتى يشب صحيحا فى هواء البادية . . ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بادية بنى سعد خمس سنوات .

وقد وقع له فى هذه السنوات الخمس ما عرف فيما بعد بحادث شق الصدر . .

أصدرت المشيئة الإلهية حكمها النافذ للروح الأمين جبريل ، عليه السلام ، أن يهبط إلى محمد بن عبد الله ، ويشق صدره بالأمر الإلهى ، ويغسل قلبه بالرحمة ، ويجففه بالنور . . ويستخرج حظ الدنيا منه . .

خرج الرسول كعادته ذات صباح مع أخيه فى الرضاع يقودان القطيع إلى المراعى ، فلما انتصف النهار ، أتى أخوه يعدو، فزعا باكيا ، يصيح بأن محمدا قد قتل . . أخذه رجلان عليهما ثياب بيضاء ، فأضجعاه وشقا صدره . .

جن جنون حليمة . . انطلقت تعدوبكل ما تملك من قوة ، يتبعها زوجها فى الاتجاه الذى أرشد عنه الصبى . . فوجدا محمدا جالسا على الأرض ، وجهه ممتقع ، وعيناه تلمعان . . قبلاه فى رقة وأخذا يلاطفانه . . ثم سألاه : ماذا حدث . . . ؟

قال الصبى : بينما كنت ألاحظ الأغنام وهى ترعى ، فوجئت بصورتين ناصعتى البياض، ظننت أولا أنهما طائران كبيران ، ثم أدركت خطئى ، كانا شخصين لا أعرفهما يلبسان البياض . .

قال أحدهما لصاحبه مشيرا إلىَّ : أهذا هو؟

قال : نعم . .

جمدت من الفزع ، وأخذانى فأضجعانى وشقا صدرى ، والتمسا فيه شيئا ، فوجداه وطرحاه بعيدا ، ثم التأم ما شقاه ، واختفيا كأنهما شبحان . .

روى الحديث أنس . . وأخرجه مسلم وأحمد . . اختلف المفسرون أمام هذه الرمزية العميقة . . يؤولها معظم العلماء . . ويرى القدماء كالقرطبى أنها معنى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) . .

ويرى المحدثون كالغزالى ، أن بشرا ممتازا كمحمد لا تدعه العناية الإلهية عرضة للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من الناس ، فإذا كانت للشر موجات تملأ الآفاق، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها وتتأثر بها ، فقلوب النبيين ـ بتولى الله لها ـ لا تستقبل هذه التيارات ولا تهتز لها . . وبذلك يكون جهد المرسلين هومتابعة الترقى ، لا مقاومة التدلى . . عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الشرح : ١ .

«ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه مـن الملائكـة . . قـالوا : وإياك يا رسول الله . . قال : وإياى . . إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم . . فلا يأمرنى إلا بخير » . .

هذا موقف القدماء والمحدثين من حادث شق الصدر . . ونحسب أن لهذه الخارقة علاقة بإعداده لرحلة الإسراء والمعراج . . وهى رحلة كان على الرسول فيها أن يخترق عالم الفضاء ويرتاده ، ويتجاوزه إلى عوالم السماء ويرتادها . . ثم يتجاوز هذا كله صعودا حتى يصل إلى سدرة المنتهى . . عندها جنة المأوى . . يرجح هذا النظر فى رأينا أن حادث شق الصدر تكرر مرة أخرى والرسول عليه الصلاة والسلام يجاوز الخمسين من عمره . . وقد جاء حادث شق الصدر الثانى ليلة أسرى به . .

أخرج البخارى عن مالك بن صعصعة ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حدثهم عن ليلة أسرى به فقال : بينا أنا فى الحطيم - أوقال فى الحجر - مضطجع بين النائم واليقظان . . أتانى آت ، فشق ما بين هذه إلى هذه - يعنى ثغره إلى بطنه - قال : فاستخرج قلبى ، ثم أتيت بطست من ذهب مملوء ايمانا ، فغسل قلبى ، ثم حشى ، ثم أعيد . .

نحسب أن حادث شق الصدر كان تجسيدا لعصمة الرسول ، وكان إعدادا لرحلة الإسراء والمعراج . . وكان إعلانا إلهيا يعنى أن هذا الصبى سيصل إلى مكانة لم يبلغها من قبله إنسان ، ولن يبلغها بعده إنسان . .

تغيرت حياة الصبى بعد حادث شق الصدر . .

صارت أفضل أوقاته تمضى فى التأمل والصمت . . وعرف وجهه لون الجد العذب الذى يميز وجوه كبار الرجال . .

ومرت الأعوام وانتهت فترة بقائه مع حليمة فى بادية بنى سعد . . وكانت فترة أثرت فى وجدانه تأثيرا عميقا . . روى عن الرسول أنه كان يذكر صباه فى بنى سعد بالفخر ، ويذكر إيثارهم وتصرفاتهم بالرضا . . قال صلى الله عليه وسلم :

أنا من بنى سعد ولا فخر . . كانوا إذا جاع فيهم أحد اقتسموا الطعام فيما بينهم . .

عاد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، إلى مكة وعمره خمس سنوات . .

عاش أياما مع أمه التى كان حزنها على أبيه قد تجسد فى ملامح الوجه أثرا رائعا لنبل الأحزان وشفافيتها . . ورأت أمه ، وفاء لذكرى أبيه الراحل ، أن تزور قبره بيثرب . . والمسافة بين مكة ويثرب أكثر من خمسمائة كيلو متر ، فى صحراء قاسية ، تخلو تماما من الحياة . . وقطع الصبى الرحلة الشاقة . . بعد هذه الرحلة الشاقة . . عاش محمد بن عبد الله عند أخواله فى المدينة شهرا . .

رأى الصبى الصغير البيت الذى مات فيه أبوه قبل أن يولد هو . . زار مع أمه القبر المتواضع الذى دفن فيه والده . . انطبع فى قلبه أول معنى اليتم وهو يرقب دموع الأم الصامتة . . واحتلت المدينة بآلامها جزءا فسيحا فى قلبه . . فلما أذن الله له أن يهاجر إليها بعقيدته فيما بعد، كان يحدث أصحابه عنها وعن رحلته الأولى إليها ، حديث محب للمدينة ، محزون لمن تحوى القبور بها من أهله . .

انقضى الشهر عند أخواله ، فصحبته أمه عائدة به إلى مكة ، بعد رحلة الوفاء . .

وصلا إلى منتصف الطريق . . لم يعرف محمد بن عبد الله سر امتقاع وجه الأم وشحوبه . . وهبط ملك الموت فى بقعة تسمى « الأبواء » . . وحين غادرها كانت آمنة بنت وهب قد لحقت بالرفيق الأعلى . .

ماتت الأم وتركت وحيدها مع خادم يتفتت قلبها على طفل يفقد أباه وهو جنين ، ويفقد أمه وهو ابن ست سنين . . وعاد محمد بن عبد الله وحده دامع العين ، باكى القلب . . قد أدرك نضجه بعد أن صهرته أحزان الحياة وقسوة اليتم . .

سئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بعد بعثته : ما طريقتك ؟

قال : « المعرفة رأس مالى . . والعقل أصل دينى . . والحب أساسى . . وذكر الله أنيسى . . والحزن رفيقى » . .

هى رفقة قديمة ، بدأت من طفولته . . سقاه الله تعالى فى طفولته من أنهار الحزن العميق ، ليمنح الناس بعدها ثمار الخلاص والفرحة . .

عاد الصبى إلى مكة محزونا ، صامتا ، فزاد جده عبد المطلب فى حبه وإعزازه . . بعد عامين اثنين . . حين وصل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إلى الثامنة من عمره . . مات أكبر حصن من حصونه البشرية . . مات جده عبد المطلب . . وسار الصبى وراء نعش الجد صامتا كالكبار . . صلبا كالرجال . . تذوب رمال الطريق تحت قدميه فى دموعه الصابرة المحتسبة الشجاعة . . لا نعرف لماذا حدث ما حدث . .

ما حكمة الله تبارك وتعالى فى حرمان آخر أنبيائه من عطف الأب ، وحنان الأم ، ورعاية الجد . . ؟ أكان الله عز وجل يريد أن يمنح آخر أنبيائه حنانا وحبا من لدنه وحده؟ . . أكان الله يربيه بالحزن ويرهف مشاعره بالألم ؟ . . أكان الله تعالى يصنع قلب رسوله لنفسه؟

قديما قال الحق عز وجل لموسى :

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (١) . .

---

(١) الآية ٤١ من سورة طه مكية .

وقديما بشر الله تعالى موسى فى التوراة ، كما بشر عيسى في الإنجيل ، بنبى يأتى من بعده اسمه أحمد . . وسأل موسى ربه أن يمن عليه وعلى أمته بذروة الفضل ، فحدثه الله أنه كتب هذا الفضل لآخر أنبيائه . . أحمد . . وأمته . .

إذا كان الله تعالى قد اصطنع موسى لنفسه ، ورغم ذلك لم يحرمه من حنان الأم ، ورباه وسط أسرته ، فإنه قد شاء أن يحرم آخر رسله من الحنان البشرى والحب البشرى ، والعطف البشرى ، ليؤثره بالحنان الإلهى ، والحب الإلهى والعطف الإلهى . .

يقول تعالى محدثا آخر رسله :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (١) . .

إن معنى الآيات الحرفى ، أنه كان يتيما فآواه الله . . وكان تائها فهداه الله ، وكان فقيرا فأغناه الله . . استأثر الله بإيوائه وهدايته وإغنائه . . وتلك درجة من درجات الفضل لم يبلغها من العالمين أحد . .

بعد وفاة جده ، كفله عمه أبو طالب ، وألقى الله محبته فى قلب عمه ، فقدمه على أبنائه وأعزه وأكرمه ، وكان يجلسه على فراشه الذى يبسطه أمام الكعبة ولا يجلس عليه غيره . .

وعاش محمد بن عبد الله فى قلب صحراء مكة ، مستيقظ القلب ، صاحى الوجدان ، بين قوم من الغافلين ، والسكارى ، وعبدة الأصنام ، وتجار الخمور والشعراء والمحاربين ، وشيوخ القبائل . . وجو الصحراء يزيد خمول الخامل ، ويزيد حدة اليقظان . . كشعاع الشمس الذى ينمى الأشواك والورود معا . .

وقد كان محمد بن عبد الله فى طفولته صامتا معظم الوقت ، فلما كبرت سنه زاد صمته . . كان لا يتكلم إلا إذا دعاه أحد إلى الكلام . . وكان لا يشارك الفتيان لهوهم ، مدفوعا فى ذلك بحزن داخلى لا كبرياء . . إنه ينفرد بنفسه ، يفتح عينيه على امتداد الرمال . . لسانه يتوقف وعقله يعمل . . يتأمل فى طفولته سجود قومه للأصنام ويعجب . . كيف يسجد العاقلون لحجارة لا تضر ولا تنفع ولا تتكلم ولا تحس . . ورث من جده البعيد إبراهيم كراهيته الفطرية لعالم الأوثان والأصنام . .

---

(١) الآيات من ٦ إلى ١١ سورة الضحى مكية .

وانطوى داخل أعماقه على احتقار عظيم لهذه المعبودات الحجرية ، احتقار جعله لا يقترب منها أبداً، غير أن قلبه الكبير كان ينطوى على حزن أعظم من حزن جده إبراهيم . . كان حزينا لأن العقل الإنسانى يعبد الحجارة والذهب والكبرياء وسلطان الحكام . . وكان يستمع إلى الناس ، ويتأمل شئون الحياة وأحوال الجماعات ، ويلاحظ صراع الناس على الأشياء التافهة والهالكة ، فتزداد دهشته ويعمق حزنه . .

ألا يعرف الناس أنهم سيموتون مثلما مات أبوه وأمه وجده . . . ؟

لماذا يثيرون كل هذا الصراع ليكسبوا مزيدا من الشرور فى النهاية ؟

وكلما تقدمت به السن ، زاد زهده فى الحياة ، وراحت سيرته تضىء فى أنحاء مكة . . إنه لا يشبه أحدا من الفتيان . . ورغم اعتقادنا فى حزنه الذى يعود لأسباب عامة . . لم يكن يبدى دخيلة نفسه لأحد ، ولا كان يتطلع لهداية أحد ، ولا كان يقصد إصلاح حال المجتمع أو الإنسانية . . صحيح أن الأسئلة تثور فى ذهنه مضطربة ملحة تبحث عن جواب ، لكن عقله وحده لم يكن يهتدى إلى الجواب أو الخلاص . .

هذا معنى الآية :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴾ [1] . .

الضلال هنا يعنى حيرة العقل فى تفسير الشر ومقاومته ، لافتقاد السلاح وصغر السن . .

ولقد أدى هذا كله بالصبى إلى مزيد من الانطواء والصمت ، والابتعاد عن هراء العالم الذى ينسكب فى العقول ويشوشها . . ونجا عقله من التشويش وظل على صفائه . .

بقى الصبى بمبعدة عن آثام قومه وانكفائهم على الأصنام وحب السيادة والتفاخر . . واقترب أكثر وأكثر من جوهره النقى ، فراح يؤثر غيره على نفسه . . وامتدت رحمته إلى الناس والحيوانات والطيور . . كان إذا جلس يأكل وحط الحمام على طعامه ترك طعامه للحمام . .

وكان الناس يضربون الكلاب حين تقترب منهم وهم يأكلون ، أما هو فقد كان ينتزع اللقمة من فمه ليطعمها الكلاب والقطط والأطفال والفقراء ، وما أكثر الليالى التى باتها جائعا ، لأنه أعطى طعامه لغيره . . وكان فقيرا لابد أن يشتغل ليأكل . . واشتغل راعيا للغنم مثل داود وموسى وغيرهما من أنبياء الله . . كان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة . .

---

(١) الآية ٧ سورة الضحى مكية .

ثم سافر فى قافلة عمه « أبو طالب » إلى الشام وعمره ١٣ سنة . . ونظر فى أحوال الأمم الأخرى ، فزادت دهشته لهذه الجاهلية . . وكلما شاهد الناس يتخبطون زاد حزنه ورق قلبه واشتد تفكيره عمقا . . وفى هذه الرحلة إلى الشام ، وقع للصبى حادث ، أغلب الظن أنه زاده حيرة على حيرة . .

كان الراهب « بحيرا » يقف فى نافذة الدير الذى يتعبد فيه فى سوريا حين استلفتت نظره سحابة بيضاء من الغيم ، تعترض - على خلاف العادة - زرقة السماء الصافية ، وكان الجو صحوا ، فبدت هذه الغيمة مثيرة للدهشة . . وهبط نظر بحيرا من السماء إلى الأرض ، فوجد السحابة التى تشبه طائرا أبيض ، تحلق فوق قافلة صغيرة تتجه نحو الشمال . . ولاحظ بحيرا أن السحابة تتبع القافلة . . وحين أناخت القافلة لتستريح أسفل الدير ، ولجأت إلى الظل . . تبخرت السحابة . .

دق قلب الراهب بعنف . . يعلم من أوراقه المسيحية الصادقة أن نبيا سيخرج إلى الدنيا بعد عيسى . . نبيا تذكر الأوراق القديمة صفته وتبشر به . .

ترك بحيرا مكانه ، وأسرع يأمر باعداد طعام كثير ، ثم أرسل إلى القافلة رسولا يدعوها إلى تناول الطعام . . عاد الرسول يرافقه المكيون إلى بحيرا . .

قال أحدهم مازحا مع بحيرا : وحق اللات والعزى ، إن لك يا بحيرا لشأنا اليوم . . ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بكم كثيرا . . فما شأنك اليوم ؟

أجاب بحيرا : أنتم ضيوفى اليوم . .

مر على سؤال الأعرابى بغير أن يجيبه عنه أو يكشف له سر هذا الكرم المفاجئ . .

ووفد ضيوفه فراح يطعمهم ويتأمل فيهم باحثا عن العلامات التى قرأها فى أوراقه للرسول المنتظر ، فلم يعثر على شىء . . سألهم : يا معشر قريش . . هل تخلف منكم أحد عن دعوتى ؟ قالوا : نعم . . تخلف منا واحد فقط . . تركناه لحداثة سنه . .

قال بحيرا : لقد دعوتكم جميعا . . ادعوه فليحضر هذا الطعام . .

قال رجل من قريش : واللات والعزى إنه للؤم منا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام دعينا اليه .

اعتذر عمه بأن محمدا لم يزل صبيا ، ثم قام بعضهم فأحضره . . لم يكد بحيرا ينظر فى صفاء العينين ويغوص فى حزنهما النبيل ، حتى أدرك أنه يقترب من هدفه . . ظل صامتا يرقب محمد بن عبد الله حتى أكل القوم وتفرقوا وجلس محمد بن عبد الله وحده . .

قام إليه بحيرا . . قال : يا غلام . . أسألك بحق اللات والعزى أن تخبرنى عما أسألك عنه . .

كان بحيرا يريد أن يعرف موقف هذا الصبى من أوثان قومه وأصنامهم .

أجاب الصبى : لا تسألنى باللات والعزى شيئا . . فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما . .

قال بحيرا : أسألك إذن بالله ؟

قال الصبى : سل ما بدا لك . .

راح بحيرا يسأل الصبى عن أسرته ومكانته فى قومه وأحلامه وآرائه . . وكان الحوار يجرى بعيدا عن القوم . . فإنهم ما كانوا يسكتون عنه لو صرح ببغضه لأصنامهم . .

وجاءت الإجابات مؤكدة ليقين الراهب أنه يجلس أمام النبى الذى بشر به نبيه عيسى كما بشر به نبى بنى إسرائيل موسى . .

بعدها ترك الصبى ونهض إلى أبى طالب . .

سأله : ما هذا الغلام منك ؟

قال أبو طالب : إنه ابنى . .

قال بحيرا : ما ينبغى أن يكون أبوه حيا . .

قال أبو طالب : إنه ابن أخى . . مات أبوه وأمه حبلى به . .

قال بحيرا : صدقت . . ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود . .

تساءل أبو طالب عن السر فيما يقوله الراهب . . أدرك الراهب أنه تحدث أكثر مما ينبغى فقال : سيكون له شأن . .

لم يفصح أكثر . . ولم يحدد هذا الشأن . . ومر الحادث بغير أن يعلق بذهن أحد ، أو يستلفت انتباه أحد . .

لم تترك هذه القصة أثرا فى القافلة أو فى النبى ، عليه الصلاة والسلام . اعتبرت القافلة أن تكريم الراهب لمحمد بن عبد الله وتنبؤه له بشأن عظيم . . هما من قبيل المجاملة التى تقال على موائد الطعام ، حين يمتدح الضيوف كرم مضيفهم ، ويمتدح الداعى أخلاق فتيانهم . . ويتنبأ لهم بالنجاح . . لم تخلف القصة أثرا . . فلا محمد ، عليه الصلاة والسلام ، فهم من كلام الراهب الغامض شيئا محددا ، ولا أصحاب القافلة تناقلوا هذا الحديث أو أشاعوه . .

طوى الحادث وإن زاد حيرة محمد . . ما الذى بينه وبين اليهود ليحذر الراهب عمه منهم . . . ؟ ثم ما هذا الشأن الذى تنبأ به الراهب . . . ؟ ما علاقة هذا كله بأحزانه العميقة وحيرته . . . ؟ طافت الأسئلة قليلا حول ذهنه ثم غاصت خارج منطقة الرؤية . .

وعادت القافلة عودة طبيعية إلى مكة . . وعاد محمد بن عبد الله إلى انفراده بنفسه ، وتأمله فى أحوال الكون ، وشقائه ليكسب لقمة عيشه ، وخدمته العفوية للناس ، وإيثاره لهم على نفسه . . عاد إلى هذا كله فى صمت وسكينة . .

يوما بعد يوم . . كان يفيض بالثقة والرحمة والأمانة والحب . . مثلما يفيض المصباح بالنور . . اشتهر بين قومه بالأمانة والصدق . ولم يكن صدقه أو أمانته موضع شك أو بحث لدى أهل مكة . . وحين جاء برسالته بعد ذلك بسنوات طوال ووقف ضده المجتمع كله ، وانقلب عليه الملأ من قومه . . لم يجرؤ أحدهم أن ينال من أمانته وصدقه . . إنما ادعوا أنه مسحور أو فقد وعيه . . وفى السنة الثالثة عشرة من النبوة . . حين تم الاتفاق على قتله وتفريق دمه بين القبائل . . وحاصروا بيته لاغتياله ، فى هذه الساعات الحرجة . . قرر الهجرة . . ولكنه أوصى على بن أبى طالب - ابن عمه - أن يبقى فى بيته ليرد جميع الأمانات - التى أودعها عنده أعداؤه وأصدقاؤه إلى أصحابها فى الصباح . . فتأمل كيف استأمنه الأعداء على أموالهم ، واثقين من حفاظه عليها . .

يوما بعد يوم . . كانت سنه تزيد . . وكان نقاؤه وصدقه يزيدان . . وفى بحار الصمت الموحشة ، حيث نشر محمد بن عبد الله أشرعته البيضاء ، كان لا بد أن يلتقى بالحقيقة الأزلية التى التقى بها قبله كل أنبياء الله ورسله . . وأدرك محمد بن عبد الله أن لهذا الكون العظيم ربا هو خالقه . . ربا واحدا لا إله غيره . . وعبد قلبه رب العالمين قبل أن يبعثه رب العالمين إلى الناس . . وحيل بينه وبين متع الشباب البرىء أو لهوه العادى الذى لا يعتبر خطيئة فى سن الشباب . . وعلى حين كان شباب مكة يتباهون بعدد الكئوس التى شربوها من الخمر ، وعدد أبيات الشعر التى قالوها فى النساء . . كان محمد بن عبد الله قد عثر على نفسه ، فى كهف هادئ فى جبل عظيم . .

كانت أصفى أوقاته هى التى يقضيها فى هذا الكهف . .

كان يغوص بأعماق قلبه فى الكون ، ويفكر فى عظمة أسراره ورحمة خالقه وجلاله . .

وفى عامه الخامس والعشرين . . تعرف بأم المؤمنين زوجته الأولى خديجة بنت خويلد . . كانت هى فى الأربعين من عمرها . . كانت سيدة ذات شرف ومال ، تعمل فى التجارة . . مات عنها زوجها وطمع فيها الطامعون لثروتها ، وكانت تبحث عن رجل يخرج بمالها إلى الشام تاجرا . . وبلغت أسماعها أخبار عديدة عن صدقه وأمانته ونقائه . . فأرسلت إليه تستأجره ، وخرج فى رحلته الثانية إلى الشام وعمره ٢٥ سنة . . بارك الله فى رحلته فعاد بربح مضاعف لخديجة ، فما تطلع إلى مالها ولا إلى جمالها ، ووقف بكرامته واستغنائه موقف النبل والتجاوز . . وامتلأ قلب السيدة

الكريمة بحبه . . عرضت عليه الزواج فقبل . . ووقف عمه يخطب فى حفل زواجه فقال : إن محمدا لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفا ونبلا . . وفضلا . . وعقلا . . وإن كان فى المال فقيرا ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة . .

وأتاح له الزواج فرصة أكبر للتأمل والانفراد والتعبد . .

ومضت به الحياة تزيد نبله رسوخا ، وفضله انتشارا ، كما تزيد فى عزلته واغترابه . . كان منعزلا بقلبه عن دنيا الصراع المحموم حول ماديات الحياة . .

وكان مغتربا بعقله الصافى فوق دوامات الهراء الجماعى والظلام الوثنى السائد . . وراحت سنه تقترب من الأربعين . . وبعد أن كان يحس الوحدة وسط الناس . . صار يفضلها بعيدا عن الناس . . إن تأملاته الماضية تباعد بينه وبين قومه . .

ويظل دائب البحث حتى يهديه الله إلى غار حراء . . ويحس أن فرحته باكتشاف الغار صادقة . . أخيرا يستطيع أن يخرج من مكة . . يسير أميالا قليلة ثم يبدأ الصعود . . يظل يصعد ويصعد . .

كلما ارتقى الجبل ، انفسح المجال ، ورق الهواء ، وانكشف الحجاب ، وامتدت الرؤية ، وسقط الحس ، وبقى حدس النبوات . . أخيرا يدخل الغار . . الصمت نائم . . والقلب يقظ . . ولا شيء يعترض الرؤية الداخلية العميقة . . ومع العزلة والسهر تولد الأفكار وتنشر أجنحتها وتحلق أولا فى فضاء الغار ثم تنطلق . . لا شيء يحدها أو يعوق انطلاقها الحر . .

لا نعرف أى أفكار كانت تعبر ذهن أعظم الرجال على الأرض وهو يجلس فى غار حراء شهورا متصلة . . فيم كان يفكر ؟ ماذا كان يقلقه ؟ أى أحلام كانت تعبر ذهنه ، وأى مشاعر كانت تولد فى قلبه . . . ؟ ماذا كان إحساس الحجارة به وهو يجلس ساكنا يتحنث ويتعبد . . . ؟ أكانت ذرات الحجارة الدائرة تتجاوب مع تسبيحه الصامت مثلما كانت ذرات الحجارة تتجاوب مع قراءة داود لكتابه «الزبور» . . . ؟

لا نعرف على وجه التحديد نوع الميلاد الذى كان يقع فى نفسه ، صلى الله عليه وسلم . . كل ماندريه أنه لم يكن يفكر فى النبوة ، ولا كان يسعى لهداية الناس . . ولا كان يتشوف لشيء مما يتشوف له الصوفية . . كان صوفيا . . قبل بعثته إلى الناس . . ثم اختاره الحق نبيا ، فهجر عزلته ونزل إلى الميدان وأمسك السلاح ودافع عن الحق حتى أسلم أنفاسه لبارئه . . فى البدء يولد التصوف . . وبعده يولد الجهاد فى سبيل الله . . ليس التصوف غاية أو نتيجة كما يعتقد الناس اليوم ، إنما هو بداية طريق طويل ، ينتهى بصاحبه إلى استخدام السلاح دفاعا عن الإنسان وكرامته . .

كان يجلس فى غار حراء يوما ، حين فوجئ بجبريل يقف على باب الغار . . احتضنه الملك وضمه إلى صدره بشدة وهو يأمره قائلا : ﴿ اقرأ ﴾ . .

قال محمد بن عبد الله : ما أنا بقارئ . .

يريد أن يقول إنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة . . كيف يقرأ إذن ؟

عاد الملك يضمه لصدره ضما شديدا حتى ظن الرسول أنه الموت ، ثم أطلقه الروح الأمين وهو يأمره : ﴿ اقرأ ﴾ . .

وعاد يرد قائلا : ما أنا بقارئ . .

ويعود الملك الكريم لاحتضانه ويعود لأمره أن اقرأ . .

ويجيب مرتجفا : ماذا أقرأ ؟

وتلا جبريل ، عليه السلام ، أول آيات فى آخر رسالات السماء إلى الأرض :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) . .

بعدها اختفى الروح الأمين كما ظهر فجأة . . أحس الرسول نفس الخوف الذى أحسه موسى وهو يستمع إلى النداء الأقدس فى وادى طوى . . ومثلما جرى موسى فزعا ، هرع محمد بن عبد الله عائدا إلى بيته . . هبط إلى الصحراء ، وسار عائدا إلى بيته وزوجته . .

جسده يرتجف بعنف . . وثمة إحساس بالبرد والخوف والقلق . . أيكون هذا اتصالا بالجن وعالم الكهانة ؟ . . أيكون قد خولط فصار يسمع أصواتا ويرى وجوها لا وجود لها فى الحقيقة . . . ؟ خشى الرسول على نفسه لبغضه للكهانة والكهان . . ودخل بيته يرتجف . .

قال لزوجته : زملونى . . زملونى . .

وبدأت تغطيه بأغطية الصوف وتمسح العرق عن جبينه . . فوجئت زوجته بشحوب وجهه وارتعاشه . . سألها : أى خديجة ، ما لى . . ؟

ثم حدثها الخبر . . وأنهى كلامه بقوله لقد خشيت على نفسى . .

وأدركت خديجة أنها أمام أمر هائل . . أمام بشارة لا تدرى كنهها على وجه

---

(١) الآيات من ١ إلى ٥ من سورة العلق مكية .

التحديد . . بشارة ليس فيها ما يستوجب خوفه على نفسه أو قلقه على عقله . . قالت خديجة ردا على تخوفه :

ـ أبشـر . . فـوالله لا يخـزيك الله أبدا . إنك لتـصل الرحم ، وتصـدق الحـديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . .

رغم هذه الكلمات المطمئنة ، لم يزايل الرسول قلقه . . وانطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل . . وهو ابن عمها . . وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، ويعرف أوراق التوراة والإنجيل . . وكان بصره قد ذهب لشيخوخته . .

قالت له خديجة : أى ابن عم . . اسمع من ابن أخيك . .

قال ورقة : يا بن أخى ما ترى ؟

قص عليه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قصته كاملة . .

قال ورقة وهو يرفع وجها يضىء بالدهشة :

ـ هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى . . يا ليتنى فيها جذع . .

أدرك ورقة بن نوفل ـ كعالم ـ أنه أمام النبى الذى بشرت به التوراة والإنجيل . .

عاد يقول بعد لحظة صمت : يا ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك .

تساءل الرسول : أو مخرجىَّ هم ؟

قـال : نعم ، لـم يأت رجـل بمثل مـا جـئت به إلا عـودى . . وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . .

انتهى الأمر وبدأ بعث الإسلام . . نفذت مشيئة الله تعالى ، وتم اختيار آخر أنبياء الله فى الأرض ، وأول المسلمين . .

من حق القارئ أن يسأل : ما الإسلام فى جوهره ؟

وإذا كان محمد آخر أنبياء الله فى الأرض . . وكنا نعرف أن أنبياء الله جميعا مسلمون . . فكيف يسبقونه بالإسلام ويكون هو أول المسلمين ؟ لا يختلف الإسلام الذى جاء به محمد فى مضمونه عن الإسلام الذى جاء به نوح أو موسى أو عيسى أو أى نبى آخر فى مضمونه . .

يختلف الشكل ، وإن ظل المضمون على نفس صفاء التوحيد للواحد الأحد . .

وقد اختلف شكل الإسلام الذى جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، لسبب مهم . . أن هذا الإسلام رسالة عالمية وإنسانية وخالدة . . ليست مقصورة على العرب

دون العجم . . وليست مقصورة على قبيلة أو شعب أو أرض أو بيئة أو زمان . . إنما هى لكل إنسان . .

بتحديد أكثر . .

هى دعوة للعقل الإنسانى . . أينما كان وحيثما كان . . بلا قيد على المكان أو على الزمان . . هذه العالمية لم تكن شيئا معروفا فى الرسالات الإلهية القديمة ، كانت كل رسالة توجه لشعب معين فى زمن معين . .

ولهذا السبب كانت المعجزات الباهرة الوقتية تسند الرسالات القديمة . . فلما جاء الإسلام دعوة للعقل الإنسانى بالانطلاق ، لم يعد هناك مبرر للمعجزات الباهرة . . تكفى كلمة واحدة لتبدأ دعوة العقل الإنسانى إلى المأدبة . . تكفى كلمة اقرأ . .

ولتكن هذه القراءة باسم الله . . ﴿باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق﴾ . . تأمل بداية النشأة وذروة الوصول . . هنا تكمن المعجزة الحقيقية إن كنت تبحث عن معجزة حقيقية . . ﴿ اقرأ وربك الأكرم﴾ . . هو الأكرم الذى أنعم ابتداء بالخلق والرزق ، وحف انتهاء بالرحمة واللطف ، وهو الأكرم ﴿ الذى علّم بالقلم * علّم الإنسان مالم يعْلَم﴾ . .

هذا هو الإسلام فى جوهره . . دعوة إلى القراءة . . وهى دعوة تؤدى بالضرورة إلى العلم . . يقول الله تعالى فى سورة (فاطر) :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١) . .

وخشية الله لا تنبع الا من العلم . . يستحيل أن يلد الجهل بأى صورة من صوره أى خشية من أى نوع . . والعلم فى الإسلام إذن ضرورة أساسية . . وليس ترفا أو حلية . . ولقد عز المسلمون وحكموا الأرض يوم فهموا الإسلام على حقيقته . . فلما سقط منهم هذا الفهم ، عادوا إلى أسوإ ما كانوا عليه فى الجاهلية . . عادوا لا يملكون من أمورهم شيئا ، فضلا عن أمور العالم . .

والعلم فى الإسلام هدف أصيل فى خلق الوجود . . إن قصة آدم وحواء ، كما أنزلت فى القرآن ، ليست هى قصة الخطيئة والأكل من الشجرة فحسب . . إنما هى قصة لها أعماقها البعيدة ومسئولياتها المختلفة ، وكلما غصت فى أعماقها تكشفت لك الرموز عن معان أخطر . . إن حوار الملائكة الداخلى عن سر اختيار آدم لعمارة الأرض والخلافة فيها ، وتعليم آدم الأسماء كلها ، وعرض هذه الأسماء على

---

(١) الآية ٢٨ سورة فاطر مكية .

الملائكة، وعدم معرفتهم لها ، وإخبار آدم ، عليه السلام ، لهم بما يعرفه ولا يعرفونه ، وإدراك الملائكة سر اختيار آدم وذريته لعمارة الأرض واستعمارها . . هذا كله يجعل الهدف من خلق النوع الإنسانى هو العلم أو المعرفة بمعناها العام . . يؤكد هذه النظرة قوله تعالى فى سورة (الذاريات) :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾(١) . .

كيف نفهمها اليوم ؟ . . وكيف فهمها الجيل الأول من المسلمين أصحاب الرسول وأتباعه وجنوده . . . ؟ نفهمها اليوم فهما سطحيا ، فنعتقد أن كلمة ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ . . تعنى طقوس العبادة ، ورسومها الظاهرة كالتلفظ بالشهادتين ، والصلاة والصوم والحج والزكاة . . ولا بأس أن يكون المصلون الصائمون مستعبدين فى أوطانهم ، محتلين فى ديارهم ، يعيشون عالة على أفكار الغرب وصناعاته ، ويتسولون علومه وفنونه ، ويستهلكون منتجاته ولا ينتجون شيئا . . لا يوجهون مصير الحياة لخير ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، شأنهم شأن ريشة تلعب بها الأمواج . .

أما الفهم القديم الأصيل للكلمة . . فكان كالتالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢) . .

قرأها ابن عباس . . إلا ليعرفون . .

تأمل أنت خطورة الفارق بين طقوس العبادة وشكلياتها ، وعمقها البعيد فى المعرفة التى تؤدى لخشية الله . . كان المسلم الأول يؤمن أن الله خلقه ليعرف . . وكان طموح المسلمين الأوائل مثيرا للدهشة . . لقد انطلقوا لتحرير العالم كله . . يد تمسك القرآن ، ويد تمسك السيف لتحطيم أغلال الراسفين فى الأغلال . .

ثم سقط من الإسلام جوهر العلم ، فسقط من المسلمين مقعدهم فى قيادة الحياة وتوجيهها ، وعادوا لذيل القافلة البشرية . . يقول تعالى فى سورة آل عمران :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (٣) . .

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات مكية . (٢) الآية ٥٦ من سورة الذاريات مكية .

(٣) الآية ١٨ وجزء من ١٩ سورة آل عمران مدنية .

بعد شهادة الله . . وشهادة الملائكة . . جاءت شهادة العلماء مباشرة . فأى تكريم للعلم أعظم من هذا التكريم . . . ؟ والعلم فى الإسلام يختلف عن العلم فى الحضارة الغربية . .

صحيح أن الإسلام هو المسئول عن نشوء النظرة العلمية والمنهج التجريبى . . فعلى أساس هذا المنهج . . قامت الحضارة الأوربية بكل ما فيها من صناعة واختراع واكتشاف . . والمنهج التجريبى هو منهج الاستقراء . . هو منهج يتتبع الجزئيات عن طريق التجربة فيما يمكن أن يخضع للتجربة . . وعن طريق الملاحظة فيما لا يخضع للتجربة ، أو عن طريق الرياضة البحتة فيما يحتاج إلى الرياضة البحتة . . وذلك بهدف اكتشاف القوانين الحاكمة للمواد . .

وهذا المنهج مجاله الطبيعة . . وأدواته الحس والعقل . . ويدين هذا المنهج بوجوده الأوربى إلى روجر بيكون . . وهو يعترف بأنه مدين فى منهجه للمسلمين والحضارة الإسلامية . .

يتحدث الأستاذ بريفولت فى كتابه «أبناء الإنسانية» ، عن أصول الحضارة الغربية ، فيقول : « إن روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد ، على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس . . وليس لروجر بيكون ولا لفرنسيس بيكون الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يخجل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة » . .

هذه شهادة علماء الغرب المنصفين . . يعترف بها عالم غربى منصف ، ونسوقها إلى المهزومين روحيا أمام الغرب ، ليعرفوا أنهم هزموا بجزء من سلاحهم الذى ألقوه من أيديهم وهو الإسلام . .

وإذا كان سر نهضة الغرب اليوم ، وتفوقه على الشرق ، يعود لأخذه بأسباب المنهج التجريبى وهو منهج إسلامى . . فإن سر بؤس الغرب وحيرته وتعاساته وقلقه ، يرجع إلى أنه لم يربط هذا المنهج بالله كما ينبغى . .

إن المنهج التجريبى ، كما أخذه الغرب ، يبدأ من الطبيعة وينتهى إليها كغاية . إن دائرة الأبحاث هى المادة . وأدوات البحث هى التجربة والملاحظة والاستقراء . . ليس بعد الطبيعة إلا الموت . . والموت سر مجهول ، ومقاومته مستحيلة ، ونحن لا نعرف ماذا يكون بعد الموت . . لا ندرى شيئا عن الروح . . لا علاقة بين العلم والأخلاق . . لا جواب للعلم عن هدف هذه الحياة . . نحن ندرس الظواهر ونصل إلى قوانينها

فحسب . . هذه نظرة الغرب إلى العلم . . أداة ووسيلة لحكم الطبيعة والانتصار عليها وقهرها . . أما المنهج العلمى فى الإسلام فيربط حركة الذرات بحركة المجموعة الشمسية بيد ذى الجلال الخالق . .

العلم فى الإسلام يقود إلى الله :

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [1] . .

يقود إلى خشية الله تعالى ، كما يقود إلى عبادته وحبه :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[2] . .

جاء الإسلام يدعو إلى القراءة والعلم وخشية الله وعبادته وتوحيده . .

وإذا كان العلم هو أول جناح فى الإسلام . . فإن الجناح الثانى هو الحرية . .

أعلن رسول الإسلام أنه لا إله إلا الله . . لا معبود سوى الله . .

وتعنى هذه الدعوة ببساطة سقوط الآلهة التى تحكم الأرض جميعا . . سواء أكانت آلهة من المصالح الخاصة ، أم من الثراء ، أو الملوك ، أو الحكام ، أو المفاهيم السائدة ، أو قيم الآباء والأجداد ، أو الأصنام الحجرية والخشبية . . إلى آخر سلسلة الآلهة المدعاة والكاذبة . .

يخطئ من يتصور أن (لاإله إلا الله) فى الإسلام . . هى مجرد كلمة يتمتم بها المسلم وكل شيء حوله فى الحياة يكذب تمتمته . .

إن (لا إله إلا الله) . . فى الإسلام صراع عظيم مع قوى الظلام فى النفس . .

صراع إذا انتهى بإسلام النفس . . انتقل الصراع إلى الحياة أشد قسوة وعنفا ، حتى تسلم الحياة . . ويستحيل أن يقع الصراع إلا إذا توافرت الحرية . . حرية العقل فى الشك والرفض، وحريته التى تنتهى به إلى إدراك حدوده ومقدرته ، وحريته التى تسمو به إلى إيمان عميق ثابت ، ومسئوليته عن حريته . . وهى مسئولية تعنى أن عليه أن يحمل السلاح ليحرر الآخرين مثلما حرر نفسه . . هذا هو الإسلام فى جوهره . .

علم يقوم على الحرية . . ومسئولية تتبع الحرية . . وثمرة أخيرة هى التوحيد فى عمقه البعيد . .

---

(١) الآية ٤٢ من سورة النجم مكية .
(٢) من الآية ٢٨ سورة فاطر مكية .

إذا فهم التوحيد على حقيقته ، تحرر الإنسان من عبوديته لغير الله . . وتحرر الإنسان من خوف الموت ، وهم الرزق . . وتحرر الإنسان من شح النفس ، ورعب الأيام القادمة . .

جاء محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليعلن أن الله هو المعبود بحق ، وأن الناس جميعًا عبيده . . وبتحرير الناس من عبوديتهم للناس . . تبدأ الحرية الحقيقية . .

أعلن الرسول أن الموت انتقال من دار إلى دار . . ليس نهاية صامتة غامضة لحياة غير مفهومة . . إنما هو انتقال . . وخشية الموت لا تنجى من الموت . . والحرص على الحياة لا يطيل الأجل ، فلكل أجل كتاب . . وإذن تصبح الشجاعة عنصرا من عناصر الشخصية الإسلامية ، ونسجا من نسيج خلايا جسم المسلم . .

أعلن الرسول أن الرزق فى الدنيا مضمون . . قال تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (١) . .

وأوحى جبريل إلى الرسول : أن نفسا لن تستوفى أجلها حتى تستكمل رزقها . . وإذن ينتفى الخوف من الجوع . . وإذن ينمحى القلق من الغد . .

يقع هذا كله فى دائرة الأخذ بالأسباب . . السعى إلى الرزق واجب المسلم ، والثقة فى كرم الله حق على المسلم أن يؤمن به . . قال تعالى :

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾(٢) . .

ولقد ضمن الله تعالى رزق الدنيا ، وأمر بالسعى نحو رزق الآخرة . .

رزق الدنيا إذن مضمون . . هذا الرزق الذى يتقاتل عليه الناس هو المضمون بغير صراع محموم . . يكفى فيه الجهد الصادق المعتدل . .

رزق الآخرة هو الذى أمر الله بالسعى إليه . . هذا هو الرزق الذى لم يضمنه الله إلا بالجهادين الأكبر والأصغر . . جهاد النفس ، وجهاد العدو . .

وبتحرير المسلم من هم الموت والرزق والخوف . . يعطى الإسلام للمسلم سلاحه وأدواته ، ويأمره أن يبدأ محاربة قوى الظلام فى الأرض . .

قال تعالى عن الأمة الإسلامية :

---

(١) من الآية ٦ سورة هود مكية .

(٢) الآية ٢٢ سورة الذاريات مكية .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (1) . .

تأمل كيف يذكر الله تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قبل الإيمان بالله . . لتنبيه الأذهان إلى أهمية الجهاد فى سبيل الله . .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يتمثلان فى إمساك عصا والهبوط بها على ظهر المسلمين الذين لا يصلون . . ليس هو حبس المسلمين الذين لا يصومون . .

إن الأمر أخطر وأجل من مراعاة المظهر ، بينما الباطن ينطوى على الفجور واللامبالاة . .

إن الآية تعنى حمل السلاح للدعوة إلى الله . . وقتال الظالمين فى الأرض . .

قال أبو بكر ، رضى الله عنه : يأيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾(2) .

وإنى سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه » . .

وتفسير أبى بكر للآية السابقة يعنى بوضوح تام أن العمل بهذه الآية يكون بعد الجهاد فى سبيل الله بالسلاح وضرب الظالمين ومقاومتهم . . بعد ذلك يصبح من حق المسلم أن يقول أديت واجبى . . لا يضرنى من ضل إذا اهتديت . .

هذا هو فهم المسلمين الأوائل . . فقارن أنت بينه وبين فهمنا المعاصر ، المستخذى ، الذى يفتقر إلى الشجاعة ، ويشيع فيه الخوف ، ويؤثر السلامة على قتال الظالمين . .

جاء محمد بن عبد الله فى رسالة الإسلام بالأمر الإلهى بقتال الظالمين . . والدفاع عن المستضعفين من الناس . . قال تعالى فى سورة النساء :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74) وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ

---

(1) من الآية 110 سورة آل عمران مدنية . (2) الآية 105 سورة المائدة مدنية .

يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً ﴾ (١) .

قرأ محمد بن عبد الله على قومه تفسير الحق عز وجل لمعنى الفوز العظيم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٢)

اقرأ الآية مرة ثانية ، وتأمل كرمه تعالى . . إذ يشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . . وهذه الأنفس والأموال ملكه هو فى الحقيقة . . انظر كرم من يشترى ملكه الخالص بالجنة . . وتأمل كيف يحرض الله المسلمين على القتال ، ويفهمهم فى الوقت نفسه أن هذا الأمر بقتال الظالمين المضلين ليس جديدا على المسلمين . . فقد أمر الله به فى الإنجيل والتوراة من قبل ، ومثلما بعث عيسى بالسيف كما تقول أوراق النصارى . . بعث موسى بالسيف كذلك . وحين قال بنو إسرائيل لموسى :

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾(٣) . .

اقتضت المشيئة الإلهية أن يضرب عليهم التيه أربعين سنة ، ليهلك ذلك الجيل المهزوم الخائر الذى يريد من موسى وربه أن يذهبا للقتال ، بينما القتال مهمتهم هم بوصفهم أتباع موسى وربه .

هذا هو جوهر الإسلام كما جاء به محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .

دعوة إلى القراءة والعلم والحرية وصراع قوى الظلام .

دعوة عالمية لا تختص بجنس دون جنس . أو لون دون لون . أو قوم دون قوم . أو أرض دون أرض . دعوة إنسانية شاملة تريد ربط العلم والحرية والجهاد . . بهدف أعلى هو توحيد الله وتنزيهه ، والإيمان باليوم الآخر ، وقيام الناس جميعا لرب العالمين .

---

(١) الآيتان ٧٤ ، ٧٥ سورة النساء مدنية . (٢) الآية ١١١ سورة التوبة مدنية .
(٣) الآية ٢٤ سورة المائدة .

يخطىء من يتصور أن الإسلام يعتبر الحياة الآخرة ، ولا يعبأ بالدنيا .

الدنيا فى الإسلام هى أوراق الإجابة التى تصحح فى الآخرة . . هى امتحان واختبار للإنسان . . ليعرف الإنسان هل يستحق كرامة الله التى منحها لآدم ؟ . . أم يستأهل الصيرورة جزءا من طين الجحيم وحجارته وينطبق عليه قول الحق :

﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾(١)؟

ولقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمة الخلق . . خلق الحياة والموت ، حين روى قوله تعالى فى سورة الملك :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾(٢) .

الدنيا هى دار الصراع . . وقد خلق الله تعالى الحياة والموت ليعرف الناس أى الناس أحسن عملا . .

يعرف الله مسبقا سبحانه . . ولن تزيده هذه المعرفة شيئا فى ملكه سبحانه . .

الإنسان هو الذى يحتاج إلى المعرفة . .

خلقه الله للمعرفة . . وأخطر معرفة هى معرفة الذات . . ويوم القيامة يعرف كل واحد من الناس ذاته على الوجه الأكمل . . ويعرف جزاءه على الوجه الأمثل . .

ولعل هذه المقدمة التى نستنبطها من اليوم الآخر . . تؤدى إلى أن تكون الحياة على الأرض نقية قدر الطاقة . . نظيفة قدر الجهد . . إنسانية متكاملة ورحيمة ، وتستحق أن تعاش. ولقد كان هذا هو الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا أساسه وجوهره ، وهو أساس أو جوهر لم يبدعه محمد ، ولا سبق به الرسل. إن جوهر الرسالات القديمة كلها هو التوحيد ونصر الحق ، والإيمان باليوم الآخر ، وإسلام الوجه والجوارح لله .

الجديد فى الإسلام هو العلم والحرية ، وعالمية الدعوة وشمولها . . وهيمنة العدل المحكم عليها . حتى ليقال بحق إن الطابع الأساسى للإسلام هو العدل .

ولعل هذه النقطة تحتاج إلى اهتمام .

مع أن الديانات السماوية واحدة فى جوهرها ، إلا أن ارادة الله تعالى التى اقتضت نزول أكثر من دين ، وأكثر من نبى ، اقتضت أن يكون لكل دين طابع رئيسى يمثل

---

(١) من الآية ٦ سورة التحريم مدنية أو من آية ٢٤ من سورة البقرة مدنية .

(٢) الآية ٢ سورة الملك مكية .

أصدق تمثيل الاحتياج الأساسى للذين نزل إليهم هذا الدين فى الفترة المعينة لنزوله . فاليهودية مثلا قامت وسط الوثنية المصرية العريقة ، وأنزلت لبنى إسرائيل المستعبدين ، ومن هنا كان طابعها الأساسى هو « الصرامة » ، ليحول دون تأثر هذا الجنس الذليل بمظاهر الوثنية المصرية ، أو يصاب بالاستخذاء أمام الاستبداد الفرعونى ، وبهذه الصرامة نجحت الديانة اليهودية فى أن تكون رسالة إنقاذ وتحرير .

ولكن بنى إسرائيل المستعبدين القساة فى الوقت نفسه . . خرجوا من نير الفراعنة ليدخلوا فى نير الرومان ، وكان أعتى وأقوى من نير المصريين ، ولزم الأمر تحريرا جديدا على يد المسيحية ، ولكن بأسلوب مغاير ، اقتضته ظروف متباينة . كان هذا الأسلوب هو استبعاد المقاومة المسلحة أو القوة أو الفرار ، لأن بطش الرومان فاق كل حد ، وشمل الأرض بأسرها ، وكان الانتصار الممكن هو عن طريق اللاعنف الذى يأخذ أعلى صورة فى الحب . ومرة أخرى انتصرت المسيحية بسلمها وحبها على الإمبراطورية الرومانية بسلاحها وعتادها . .

أما الإسلام ، وقد جاء دينا نهائيا شاملا ، يصلح للأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فقد استلزم هذا أن يكون طابعه العدل .

إن الصرامة قد تصلح لزمن معين ، وجنس معين ، وظروف خاصة . .

والحب مثل أعلى ، ولكنه ليس معيارا تقاس به التصرفات أو تدار عليه الأمور، ولئن بدا معيارا لأهل الأحاسيس المرهفة أو الثقافات الرفيعة ، فإنه لا يصلح معيارا عاما وشاملا . .

أما العدل ، وهو طابع الإسلام ، فذلك هو التوازن فى الفضائل ، ووضع كل فضيلة فى مكانها ، وذلك هو المقياس الشامل ، والمعيار النهائى . .

ولعل عظمة العدل ورسوخه فى نسيج الكون يستندان إلى قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾(١) .

وإذا كان الله عز وجل فى الإسلام مثلا أعلى . . فإن القسط أو العدل الذى شهد به الحق تبارك وتعالى لنفسه ، ينبغى أن يكون طابع الإسلام والمسلمين . .

وليس العدل فى الإسلام فحسب هو العدالة الاقتصادية أو عدالة الحكم أو عدالة الجزاء ، إنما هو هذا كله . . وهو قبل هذا كله وبعده أسلوب فى الحياة ، ومنهج وطابع رئيسى للإسلام . .

---

(١) من الآية ١٨ سورة آل عمران مدنية .

وأينما قلبت النظر فى الإسلام ، وجدت العدل يغلب ما عداه . . هناك عدل بين الأديان السابقـة ، وعدل بين الفرد والمجتمع ، وعدل بين الدنيا والدين ، وعدل بين الرجال والنساء ، وعدل بين الفقراء والأغنياء ، وعدل بين الحاكمين والمحكومين ، بل بالعدل نفسه قامت السماوات والأرض . . والله تعالى يسمى نفسه العدل .

وفيما عدا ذلك التميز الخاص للإسلام . . فالإسلام قديم قدم الأنبياء .

قال نوح عليه الصلاة والسلام فى سورة يونس :

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) . .

وقال إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام فى سورة البقرة ، وهما يبنيان الكعبة :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

ولم ينس إبراهيم أن يوصى بنيه ومنهم يعقوب أن يموتوا على الإسلام .

قال تعالى :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

وحين حضرت الوفاة يعقوب جمع أبناءه حوله وسألهم :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الآية ٧٢ سورة يونس مكية .
(٢) الآيتان ١٢٧ ، ١٢٨ سورة البقرة مدنية .
(٣) الآية ١٣٢ سورة البقرة مدنية .
(٤) من الآية ١٣٣ سورة البقرة مدنية .

ولقد أخبرنا الله تعالى فى سورة يونس بقول موسى لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[1] .

ولقد كان سليمان مسلما بنص الآيات التى روت قصته مع ملكة سبأ . . إذ قالت فى ختام جولتها معه :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

وها هو ذا يوسف يتجه إلى الله بالدعاء فيسأله أن يتوفاه مسلما ويلحقه بالصالحين . . يقول تعالى محدثا عن يوسف فى سورة يوسف :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾[3] .

وجاء فى سورة المائدة أن الله أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا به وبرسوله . . فقالوا :

﴿ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[4] .

كان نوح وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب وموسى وهارون وسليمان ويوسف وعيسى مسلمين بنص الآيات . وكان بقية الأنبياء مسلمين بمفهوم الموافقة . . كيف إذن يكون محمد ـ وهو آخر الأنبياء ـ أول المسلمين ؟ قال تعالى فى سورة الزمر مخاطبا آخر أنبيائه :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[5] .

كيف يكون أول المسلمين ، وتسمية أمته بالمسلمين تسمية قديمة تسبق خلقه ومجيئه إلى العالم ، تسمية تدين بوجودها لإبراهيم جده البعيد ؟ قال تعالى فى سورة (الحج) :

---

(١) من الآية ٨٤ سورة يونس مكية .

(٢) من الآية ٤٤ سورة النمل مكية .

(٣) الآية ١٠١ سورة يوسف مكية .

(٤) من الآية ١١١ سورة المائدة مدنية .

(٥) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ . سورة الأنعام .

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾(١).

لا تعارض بين سبق كثير من الأنبياء المسلمين للرسول . . وكونه أول المسلمين . .

لا تعنى كلمة الأول هنا بعدا زمنيا ، ولا تعبر عن أولوية الظهور على مسرح الأحداث . . إنما تعنى أول المسلمين هنا . . أكمل المسلمين . .

سئلت أم المؤمنين عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كلمتها الموجزة المعجزة : كان خلقه القرآن .

ونحن نعرف أن القرآن يحدد الخلق الكريم فى حده الأدنى . ويرسم الفضيلة فى درجاتها الأولى ، كما يقدم القمة السامقة فى مكارم الأخلاق . فأى نوع من هؤلاء كان الرسول . . ؟

أكان هو « المقتصد » ؟ أكان هو « السابق بالخيرات » ؟ أكان من « أصحاب إليمين »؟ أكان من « المقربين » ؟ لم يكن الرسول هذا كله فحسب . . ارتفع أكثر وأكثر . . حتى كان ذروة الذرى فى مكارم الأخلاق . . حتى استحق قول الحق عز وجل عنه :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

اختلف المفسرون حول معنى الخلق العظيم . قال بعضهم . . هو القرآن . وقال آخرون . . هو الإسلام . وقالوا لم تكن له همة إلا الله . وهذا كله اختلاف يحسمه القرآن ببيان درجته فى ثلاث آيات كريمة ، الآيتان الأولى والثانية هما قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

أولهم بإطلاق . . أولهم كمالا ورفعة ، وشرفا واكتمالا ، وفضلا ورحمة .

رغم كونه جاء آخر الأنبياء . . وربما لأنه جاء آخر الأنبياء . فكان هو اللبنة الأخيرة فى صرح النبوات الشاهق . . وكان لابد لقمة الصرح وآخر لبناته أن يكونا قمة فى بنى الإنسان .

---

(١) الآية ٧٨ سورة الحج . (٢) الآية ٤ سورة القلم مكية .
(٣) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ سورة الأنعام مكية.

الآية الثالثة هى قوله تعالى فى سورة (الأنبياء) :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[1] .

لم يكن رحمة للعرب وحدهم ، ولا لقريش فحسب ، ولا لزمنه فقط ، ولا للجزيرة العربية وحدها . . إنما كان رحمة للعالمين . . كان ولم يزل وسيظل رحمة للعالمين . ابتداء من نزول الوحى عليه بكلمة اقرأ . . حتى يرث الله الأرض ومن عليها وتقوم القيامة . هو الرحمة المهداة للعالمين . . وهو رحمة لا تواكبها معجزات باهرة أو مثيرة . . إنما هو رحمة تبدأ بدعوة العقل إلى أن يقرأ كتابين :

١ ـ يقرأ كتاب الكون . . أو القرآن المخلوق . . أو كلمات الله التى تأخذ ملايين الأشكال والصور . .

٢ ـ ويقرأ القرآن الذى نزل به الروح القدس جبريل . . وهو كلام الله الأزلى .

وكتاب الكون يقرأ بآلاف الطرق . . يقرأ بالسياحة :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾ [2] .

أو يقرأ بالاكتشاف والعقل :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [3] .

أو يقرأ بالعلم والنظر :

﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[4] .

وإذا كانت هناك آلاف الطرق لقراءة كلمات الله المخلوقة فى كتاب الكون . . فإن هناك طريقة واحدة لقراءة كلام الله الأزلى . . وتلك أن يقرأ القرآن من يقرؤه بعين القلب وبصر البصيرة . . حتى يصير القرآن خلقه بقدر الطاقة . وقبل تنزيل القرآن كان الكون ناقصا مادة وروحا ودستورا وتشريعا يحكم الناس .

وقبل بعث الرسول . . أول المسلمين وأكملهم ، لم تكن الكائنات قد وصلت إلى الذروة من إسلام الوجه لله ، أو الذروة من مكارم الأخلاق .

---

(١) الآية ١٠٧ سورة الأنبياء مكية .

(٢) من الآية ٦٩ سورة النمل مكية .

(٣) من الآية ٥٣ سورة فصلت مكية .

(٤) الآية ٦١ سورة النمل مكية .

وحين بعث الرسول استكمل النوع الإنسانى كرامته وعظمته ، وأدرك ذروته ومنتهاه .

وبهذا الكتاب الكريم ، والنبى الرحيم . . أكمل الله للبشر دينهم ، وأتم عليهم نعمته كما حدث فى قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١) .

غير أن هذا كله لكى يحدث ، كان لابد للنبى أن يجاهد جهادًا يجعله أكثر الناس استحقاقا لحمد أهل الأرض وأهل السماء . وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا نعرف نبيا أوذى فى مشاعره كما أوذى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . لانعرف نبيا احتمل الإيذاء وصبر فى الله كما احتمل نبينا . وفى حالتنا لم يكن ممكنا لمن أرسله الله رحمة للعالمين ، أن يدعو على إنسان إلا أن يكون هذا الإنسان من الكافرين العتاة .

كان يدعو لمن يستحق الدعوة . .

ويحتمل حتى يئن الاحتمال . ويصبر حتى يعجز الصبر . . ويقاوم حتى تهلك المقاومة ، بعدها يرفع إلى الله قلبا راضيا ، وعينا دامعة ، ويهمس : إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى . يهون كل شىء إلى جوار رضاه سبحانه .

بعد نزول الوحى على الرسول . . بدأت أول مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية . . بدأت هذه المرحلة سرا . . واستمرت ثلاث سنوات فى الخفاء .

فى البداية آمنت به أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها . . وآمن به صديقه أبو بكر ، كما آمن به ابن عمه على بن أبى طالب ، وكان صبيا يحيا فى كفالته ، وآمن به زيد بن ثابت مولاه . . ثم نشط أبو بكر فى الدعوة إلى الله فأدخل فى الدعوة أصدقاءه عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص ، وآمن المسيحى ورقة بن نوفل ، ورآه الرسول ، صلى الله عليه وسلم بعد موته فى هيئة كريمة تشهد بدرجته عند الله . بعد ذلك أسلم أبو ذر الغفارى والزبير بن العوام ، وعمر بن عنبسة ، وسعيد بن العاص . . وراح الإسلام ينتشر سرا فى مكة .

وترامت أخبار هذه العقيدة الجديدة إلى رؤساء قريش ، فلم يعبئوا بها .

---

(١) من الآية ٣ سورة المائدة مدنية .

ولعلهم توهموا أن محمدا قد تحول بسبب تحنثه فى غار حراء . . إلى أحد هؤلاء المتكلمين فى الإلهيات . . كما فعل أمية بن الصلت ، وقس بن ساعدة . . هكذا نجحت السرية فى أن تضفى نوعا من الحماية على العقيدة الجديدة . وخلال السنوات الثلاث التى استغرقتها مرحلة السرية فى الدعوة . . كان الإيمان ينضج قلوب المسلمين الأوائل ، وكان الرسول يربيهم ويغير نفوسهم ويصنع منهم أول نواة فى جيش الإسلام .

. . . .

نزل جبريل ، عليه السلام يوما بقوله تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (1) . .

وهكذا جاء الأمر الإلهى بإعلان الإسلام . انتهى الأمر والتفت حول النبى كوكبة من الفرسان العظام . . وصدر إليه أمر الحق أن يعلن عن دعوته لله . . وأن ينذر عشيرته الأقربين . . وحين فعل النبى هذا دخلت الدعوة مرحلتها الثانية على الفور . . وبدأ اضطهاد الدعاة وتكذيبهم وتشديد الحصار عليهم . أدركت قريش أن أمر محمد أخطر من مجرد الكلام فى الإلهيات ، إنما هو يدعو لدين جديد ، دين لا مكان فيه لأصنامهم وتماثيلهم وآلهتهم ومراكزهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية . . دين لا آلهة فيه غير الله ، ولا مشرع غير الله ، ولا حاكم فيه سوى الله . .

دين يواجه مكة بما تكره ، ويواجه أولى الأمر بما يقلق .

كان طبيعيا أن تبدأ الحرب فور إعلان الدعوة . .

وقد بدأت الحرب عنيفة من جانب الكبراء والسادة . كان أول المهاجمين للإسلام سيد من سادة الكبرياء فى مكة . . وهو أبو لهب .

أخرج البخارى أن رسول الله صعد على الصفا وراح ينادى بطون قريش وقبائل مكة ، فلما اجتمعوا إليه سألهم :

- أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم . . أكنتم مصدقىّ ؟

قالوا : نعم . . ما جربنا عليك كذبا قط .

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

قال أبو لهب - وكان يقف بين الواقفين : تبا لك سائر اليوم . . ألهذا جمعتنا ؟!

---

(1) الآية ٢١٤ سورة الشعراء مكية .

بهذا التهوين والاستهانة بدأت الحرب ضد الإسلام . . ولما كان المسلمون لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فقد دافع الله عنهم فى البداية ، ونزلت سورة قصيرة ترد على كلمة أبى لهب (تبا لك سائر اليوم) . .

قال تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾(١) . .

بهذه الآيات القصيرة المحكمة ، دخل أبو لهب التاريخ من أقصر أبوابه وأنكرها ، وارتسمت صورته إلى الأبد ، فى إطار من الهزؤ به وبزوجته ، واستحق سخرية أجيال عديدة لم تره ، ولكنها رأت صورته كما رسمها الحق عز وجل . . رجلا يعاند دعوة الحق خوفا على مصالحه المالية أن تهتز باندثار عبادة الأوثان . . لا بأس بهذا كله . . إن ماله الذى يحافظ عليه لن يغنى عنه شيئا من الله ، وها هو ذا يبعث وسط نار ذات لهب ، وامرأته تحمل الحطب لتزيد ناره اشتعالا . . فى جيدها حبل من مسد . . رمز لانتمائها لعالم الدواب التى لا تعى .

ولقد كان معظم المعاندين للدعوة الجديدة من لون ينتمى لعالم الدواب التى لا تعى . .

قال تعالى فى سورة الفرقان :

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٢) . .

ولو تأملنا اليوم ردود أفعال الكافرين والمشركين ، لأحسسنا بالعجب . قال تعالى فى سورة (ص) :

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾(٣) .

---

(١) سورة المسد (١ ـ ٥) مكية .

(٢) الآية ٤٤ سورة الفرقان مكية .

(٣) الآيتان ٤ ، ٥ سورة ص مكية .

تأمل أنت جهل قوم يحسبون أن الأصل تعدد الألهة ، ويدهشهم أن يكون هناك إله واحد . ويرون العجب العجاب فى هذه القضية الفطرية الواضحة .

قال تعالى فى سورة الفرقان :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ (1) . .

انظر إلى جرأة القوم ، إذ يهزءون برسول الله . . وقد جاء ينقذهم من النار ، وتخيل اطمئنانهم لآلهتهم ، وتصورهم أنهم كادوا يضلون عنها لولا أن صبروا عليها . .

إن صور العناد القديم والجديد واحدة . . إن الكفر والشرك والعناد تكرر نفسها لأن الشر عادة محدود الموهبة . . وإن اتسم بالمثابرة . .

وهكذا يهزأ الضلال من الحق ، ويسخر الجهل من العلم ، وينفش الباطل ريشه الملون ، ويتيه عجبا بذكائه الذى أنقذه من ترك آلهته الحجرية والخشبية والبلحية ، وكانوا يصنعون الآلهة من العجوة . . ويعبدونها ثم يأكلونها ويقولون : أنقذتنا آلهتنا من الجوع . أو يقولون إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى . . المسألة كلها مسألة تزلف إلى الله . .

ومضت دعوة النبى . وانغرست فى الأرض أشواك المشركين .

اتهموا النبى بأنه كاهن ، واتهموه بالجنون ، واتهموه بالسحر ، واتهموه بأنه افترى ما جاء به من الحق ، وأعانه عليه قوم آخرون . . وقالوا : هذه أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . وطلبوا منه معجزات من نوع معين . . أعلنوا أنهم لن يؤمنوا له حتى يفجر لهم من الأرض ينبوعا ، أو تكون له جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو يسقط السماء كما زعم عليهم قطعا من العذاب ، أو يأتى بالله والملائكة يضمنون لهم صحة ما يدعو إليه . . أو يكون له بيت من ذهب ، أو يصعد فى السماء ، ولن يؤمنوا لصعوده إذا صعد أمام أعينهم وعاد ، إلا إذا أحضر إليهم كتابا يقرءونه من السماء . .

ومر النبى مر الكرام على تجريحهم له ، كما أفهمهم بلطف أن مايطلبونه من المعجزات لا يتفق مع الإسلام ، دعوة العقل والحرية . . أفهمهم أنه بشر رسول ، جاء ينذرهم يوما لا يغنى فيه والد عن ولده ، ولا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا ينجى فيه من

---

(1) الآيتان ٤١ ، ٤٢ سورة الفرقان مكية .

العذاب ، أن صاحب الفخامة أو السعادة كان جبارا عظيما من جبابرة الأرض ، أو شيخا من شيوخ القبائل ، أو حاكما فى الناس ، أو ملكا عليهم ، أو مدعيا للألوهية فيهم . .

لا يغنى هذا كله شيئا يوم القيامة . . لا يدفع العذاب . . ولا يخففه .

وبدأ الإسلام ـ ككل الأديان قبله ـ يجمع حوله طائفة العقلاء والفقراء والحزانى فى الأرض ، آمن عديد من الفقراء الذين وضعهم النظام الاجتماعى فى مكة عند سفح المجتمع لتستغلهم الطبقات الظالمة ، ولم يكن الإسلام يقدم حلا اقتصاديا لمأساة الحياة أو المجتمع فحسب ، إنما كان يقدم حلا إلهيا لمشكلة الوجود الإنسانى بشكل عام . . وكان الإسلام يؤمن أن الإنسان ليس مجرد معدة تريد أن تمتلئ ، وجسد يريد أن يكتسى ، وغريزة جنسية تريد أن ترتوى ، ليس الإنسان هذا فحسب . . وضع الإسلام الإنسان فى مكانه الحقيقى دون تكبير أو تصغير . . معدة وجسدا ، وغريزة وروحا ، وطموحا وعقلا ، وقبسا من الله فى الروح . .

ليس أعقد من تركيب الجسد الإنسانى ، وليس أعقد من تركيب الروح الإنسانى . . وأحيانا يتقلب الجسد فى نعيم الحياة ، بينما تشقى الروح أشد الشقاء . وإشباع جانب واحد من جوانب الإنسان لا يؤدى إلى الكمال أو السعادة . . ولهذا بدأ الإسلام حل مشكلة الإنسان من داخله . . ووقع عبء هذا التغيير على القرآن ، كان القرآن يتحول إلى الحياة كل يوم . . كانت آياته تتنزل على الرسول ، فيعلمها الرسول للمسلمين ، ويتحول القرآن إلى رجال كثيرين يسيرون فى الأسواق ويهددون عرش الكراهية الذى كان يحكم مكة . .

وزادت ضراوة المشركين فى السخرية والتجريح والاستهانة . . وحزن الرسول ، عليه الصلاة والسلام . . وواساه الله تعالى ، وأفهمه أنهم لا يكذبونه . . ولكنهم ظلموا أنفسهم ابتداء وجحدوا آيات الله . . وليس النبى غير آية من آيات الله . .

قال تعالى فى سورة (الأنعام) :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾(١) .

واستمر إيذاء المشركين للرسول وأتباعه . وانتقل مجال المعركة من الكلمات المتحدية الهازلة ، إلى تعذيب أتباع الرسول وقتلهم .

---

(١) الآية ٣٣ سورة الأنعام مكية .

وتصور أعداء الإسلام يومها أن تشديد الخناق على المسلمين ، سيجعلهم يفلتون دعوتهم، أو يكفون عن اعتناقها ، إيثارا للسلامة ، أو يتهافتون فى نشرها على أقل تقدير ، وفوجئ السادة والملأ من قوم مكة بأن الضغط يزيد الدعوة رسوخا ، وأن التعذيب لم يزحزح أحدا عن موقفه .

ولقد كان يقين المسلمين الذى زرعه الرسول فيهم ، أنهم يحملون رسالة من الله إلى العالم، رسالة تعيد إلى العالم رشده الذى فقده ، وإنسانيته التى ضاعت منه ، وكرامته التى أهدرت ، وحريته التى صودرت . . وكان يقين المسلمين أنهم لا يبنون وطنا صغيرا فى مكة ولا يحاولون إصلاح مجتمع فاسد هو مجتمع الجزيرة العربية ، وإنما كانوا يدركون أنهم ينشئون الإنسان من جديد . . ينشئون الإنسان كما ينبغى أن يكون الإنسان . . ويقدمون للدنيا أول صورة مجردة لعظمة الخالق وجلاله .

وقبل الإسلام . . كان العرب لا شيء . . كانوا بمقياس الحضارات القديمة والحديثة لا شيء . لم يقدموا إلى العالم علما أو فنا أو أثرا له قيمته . . فلما نزل الإسلام عليهم، صاروا هداة البشرية . . وسادتها وعلماءها بالحق . . وأخذ عنهم الغرب ما يريده لتقدمه ، وظل يزحزحهم عن الإسلام حتى عاد الإسلام إلى الكتب ، ولم يعد له وجوده الحى المؤثر فى الناس ، بعدها صار سهلا على الغرب أن يحكم المسلمين بما أخذه منهم من العلم . . وأن يسوقهم قطعانا مدهوشة إلى حظائر منتجاته واكتشافاته ، وهى أشياء كان ينبغى أن تكون من اكتشافهم وإنتاجهم ، لو أدركوا معنى الإسلام وحرصوا على إحيائه .

وفى الأيام الأولى للإسلام . . أدرك المسلمون أنهم يواجهون حربا لن تتوقف طالما بقيت الحياة وبقى فيها الصراع . . ولهذا توهجوا بالإيمان كلما ازداد العذاب ، واستمسكوا بالحق كلما اشتد اضطهاد قريش .

وعذبت مكة عمار بن ياسر . . أحد العبيد الذين كانوا ضحية للنظام الاقتصادى السائد فى العالم يومها ، وهو اقتصاد كان يقوم على نظام العبيد . . عذبت مكة هذا الذى آمن أنه لن يحصل على حريته الحقيقية إلا بالإسلام . وكانوا يخرجونه إلى الصحراء ويعذبونه وزوجته ، واشتد العذاب على زوجته يوما لتكفر ، فلما ظلت على إيمانها وأغلظت القول لأبى جهل ، طعنها بحربة كانت فى يديه . . فماتت . . وقدم الإسلام أول شهدائه . .

كانت امرأة تدعى «سمية» . . زوجة عمار بن ياسر .

لم تكن فى عرف المجتمع امرأة حرة . . كانت زوجة لعبد . . واقتضت مشيئة الله تبارك وتعالى أن تكرم السماء دم العبيد قبل دم الأحرار بالشهادة .

ولقد تحدث الجهلاء كثيرا عن رضاء الاسلام بنظام العبيد . أو سكوته عليه أو قبوله إياه، وأغفلوا أن الإسلام كمبدإ يحرر العبيد جميعا ، ويخرجهم من ملكية الناس إلى ملكية الله .

وإذا كان الإسلام لم ينزل بنصوص مفصلة مباشرة لتحريم نظام العبيد ، فقد كانت أسسه العامة ومبادئه الأساسية تجفف - فعلا لا قولا - منابع هذا النظام . . ولقد علم صاحب الدعوة الإسلامية - جل جلاله - أن نظام العبيد نظام اقتصادى مؤقت سيتغير مع الوقت . . ولما كان الإسلام لم ينزل لهذا الوقت الذى نزل فيه فحسب ، وإنما نزل عاما شاملا لكل الأزمنة القادمة ، فقد تجاوز الإسلام هذه الصورة المؤقتة من صور الاستغلال ، إلى الأصل المنشئ لصور الاستغلال وأشكاله ، فحرمها . . وبهذا الأسلوب حرم الإسلام نظام العبيد تدريجا ، مثلما حرم الخمر على مراحل . . ولقد كانت جدية الإسلام هى المسئول الأول عن تحريمه للمحرمات على مراحل ، فالطبيعة البشرية لا تتغير فى يوم ، والنظم الاقتصادية لا تتحول بقرار .

ولئن قيل لنا إن الإسلام أباح لجنوده استرقاق أسرى الحروب ، فسوف نقول إن الإسلام كان يطبق هنا مبدأ المعاملة بالمثل . . كان أعداء الإسلام يسترقون المسلمين حين يأسرونهم ، فكان طبيعيا أن يسترق المسلمون أسراهم من المشركين ، ولو فعل الإسلام غير هذا لكان أقرب إلى اللهو . . ولسقطت هيبته كنظام جاد ، ولطمع فيه الطامعون وهم كثير .

أخفق التعذيب والاضطهاد فى حصر الدعوة الإسلامية .

وحين ذهب المعذبون يشكون لرسول الله ما يلقونه من العذاب ، أفهمهم بمنطق شديد الوضوح أن على الدعاة أن يدفعوا راحتهم وأمنهم ودماءهم ثمنا لانتشار دعوتهم .

ليست الحرية بلا ثمن . .

وتاريخ الحياة حافل بدماء كثيرة دفعتها الشعوب لمقاومة أعدائها فى الخارج والداخل .

ولئن كان هذا شأن من يطالب بحرية قوم فى زمان ومكان محددين ، فما شأن من يطالب بحرية الجنس الإنسانى كله؟ إن المسلم ينبغى أن يضع فى اعتباره أنه يتعرض ، بمجرد إعلان دعوته ، للمؤامرات والتشريد والاضطهاد والسجن والمطاردة والحصار والاغتيال .

هذا هو ثمن انتشار الدعوة . وهذا هو ثمن الحرية . . وهو ثمن يدفعه أهل الباطل أحيانا بالرضا ، فكيف يتردد أهل الحق فى أدائه ؟

والأصل فى الإنسان أنه محكوم بغريزة البقاء . . محكوم بغريزة الخوف من العذاب والموت . ولعل أخطر ما يميز المسلمين الحقيقيين هو تحررهم من غريزة الخوف وحب البقاء . هذا هو المعيار الذى لا يخطئ لتمييز المسلم الحقيقى ، من المسلم بالاسم أو الوراثة أو الادعاء . يعلم المسلم الحقيقى أن الآجال بيد الله . والأرزاق بيد الله . والأمن بيد الله والقوة بيد الله . . وبهذا الإيمان يبدأ صراعه لنشر دعوته . . ويستعذب الألم فى الله ، ويدفع بدمائه ثمن حرية الآخرين . يفعل هذا كله ببساطة تخلو من الخوف ، يحرره الإسلام من الخوف . وقديما كان الطغاة ينشرون رجال الله بالمناشير وهم أحياء .

ذهب خباب بن الأرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنجدا به من اضطهاد قريش . قال : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين . . ما يصده ذلك عن دينه . والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر ، ولكنكم تستعجلون .

بهذه الكلمات الصابرة الشجاعة . . أفهم الرسول من جاء يستنجد به أن من تمام الإيمان دفع ثمن الحرية .

ولقد بدا واضحا أن الإسلام لم يكن يقدم لمن يدخلون فيه مكاسب من أى نوع .

لم يكن السؤال الذى يطرحه المسلمون الأوائل يقول : ماذا نكسب من وراء هذه العقيدة ؟ على العكس من ذلك . . كانوا يسألون : ماذا ندفع للإسلام ؟ .

وكان الجواب : كل شىء . ابتداء من لقمة الخبز إلى الدم المسفوك .

لقد دفع المسلمون الأوائل كل شىء . وخامرهم اطمئنان هادئ لنصر الله ، وملأتهم ثقة عميقة بغلبة ما جاءوا به من الحق ، وكانوا يعلنون أنهم سيغلبون ملوك كسرى وقيصر ، وأنهم سيصيرون بدعوتهم سادة الأرض .

واستغل المستهزئون هذه الثقة فى سخريتهم وضحكهم . . كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ، يتغامزون ويقولون : قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون ـ غدا ـ ملوك كسرى وقيصر . . ثم يصفرون ويصفقون . . وتجاوز المؤمنون هذه السخرية . واستطالت السخرية إلى منع المسلمين من إعلان دعوتهم .

وعقدت قريش اجتماعا تاريخيا لتوحيد الهجوم على الرسول، كان المشركون يتهمونه مرة بأنه ساحر ، ومرة بأنه كاهن ، ومرة بأنه شاعر ، ومرة بأنه مجنون . . واتفقت الكلمة فى اجتماعهم يومئذ على إلصاق تهمة السحر به . . واستند المؤتمر

الشهير الذى تزعمه الوليد بن المغيرة على رمى الرسول بالسحر ، لأنه يفرق بين الأخ وأخيه ، والمرء وزوجته . . وصنع ملوك الكراهية والظلام من أنفسهم فرقا تحذر القادمين إلى مكة من ساحر يدعى محمد . . ساحر خرج على قومه وأهله وعشيرته الذين يعبدون ما كان يعبد آباؤهم ، واضطروا الرسول إلى أن يعرض نفسه على الخلق فى المواقف فيقول :

ـ ألا رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى ؟

رغم هذا كله ، وربما بسبب هذا كله . . استمرت الدعوة الإسلامية . . تنتشر ببطء وعمق، وراحت كلمات النبى ، عليه الصلاة والسلام تنعش ذاكرة العهد . . وتضع الناس فى نفس الموقف الذى كانوا عليه يوم أخذ الله عليهم عهده وهم ذرات فى ظهر آدم :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾(1) . .

ازداد عدد المسلمين . . وأحست قريش الخوف . . ورأت أن تجرب أسلوبا آخر : ماذا لو لجأت إلى المهادنة والمفاوضات ؟ وأرسلت قريش عتبة بن ربيعة ، وهو رجل يتصف بالعقل والرزانة بين قومه ، ليفاوض الرسول .

قال عتبة لرسول الله : يا بن أخى . . إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها .

قال الرسول : تكلم يا عتبة .

قال عتبة : إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا فلا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا أموالنا حتى تبرأ .

انتهى عتبة من كلامه . . وانتظر رَدَّ النبى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ حمٓ (١) تنزيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحيم (٢) كتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبيًّا لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤)

---

(١) من الآية ١٧٢ سورة الأعراف مكية .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[1] . .

انتهى الرسول من رده على عتبة ، وهو رد آثر أن يواجه العروض والمغريات والمفاوضات بجزء من سورة «فصلت» . . وهى إحدى سور القرآن الذى نزل به الروح الأمين عليه السلام . نهض عتبة حين وصل الرسول إلى قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[2] . .

نهض عتبة فزعا منصرفا إلى قريش ، كأن صواعق الدنيا فى أثره . وحين وصل إلى قريش ، اقترح عليهم أن يتركوا محمدا وشأنه . .

فشلت المفاوضات مع أول المسلمين ، صلى الله عليه وسلم .

وكان فشل المفاوضات إيذانا بعودة الإيذاء والاضطهاد . . وتفنن المشركون والمجرمون فى إيذاء المسلمين . وخامر النبى حزن لهذه المآسى التى تقع لأصحابه . . وحين انتهى المسلمون من دفع الثمن الكامل لعقيدتهم واحتملوا فى الله أقصى الطاقة

---

(١) الآيات من ١ إلى ١٣ من سورة فصلت مكية .
(٢) الآية ١٣ من سورة فصلت مكية .

أوعز الرسول إليهم بالهجرة . أعطى الإذن بالهجرة لمن يريد أن يهاجر . وبدأت موجات الهجرة . وكان ذلك لخمس سنوات من نزول الوحى عليه . . وبعد سنتين من إعلان دعوته . وهاجر إلى الحبشة ستة عشر مسلما . خرجوا فى الخفاء ، واتجهوا صوب البحر ، وركبوا الموج رغم كراهية أهل الصحراء له وخوفهم منه واعتقادهم أن الناس حين تركب البحر تتحول إلى دود على عود سابح .

وتلت موجة الهجرة الأولى موجة ثانية ، حملت هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا وتسع عشرة امرأة . وامتدت يد قريش إلى الحبشة تحاول إيذاء المهاجرين . . أرسلوا إلى النجاشى ملك الحبشة من يثيره ضد المهاجرين ، ويتهمونهم بأنهم فارقوا دين آبائهم فى مكة ، ولم يدخلوا دين النجاشى وهو النصرانية . وطالبت قريش برد المهاجرين لتأديبهم ، ولم تنس قريش أن ترسل إلى النجاشى بهدية . . ترشوه بها .

يبدو أن النجاشى كان رجلا عاقلا ، فأرسل إلى المهاجرين يسألهم عن هذه الديانة الجديدة التى ابتدعوها . وحدثه المهاجرون عن الإسلام . سألهم عن عيسى فقالوا :

- هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

وأخذ النجاشى عودا صغيرا من الأرض وقال : لم يزد عيسى على ما قلتم قدر هذا العود . اذهبوا فأنتم آمنون . ورد هدية قريش وهو يقول : ما أخذ الله الرشوة منى حتى آخذها منكم ، ولا أطاع الناس فى حتى أطيعهم فيه .

وهكذا أقام المهاجرون من المسلمين فى ديار آمنة هى الحبشة . . ديار يحكمها رجل أوتى رشده فآمن بطبيعة المسيح البشرية ، رغم إيمان بطارقة كنيسته بغير ذلك .

ومن عجائب تدبير القدرة الإلهية ، أن هذا النزيف فى جسم المجتمع الإسلامى - متمثلا فى الهجرة - لم يؤد إلى ضعف الإسلام ، وإنما زاده قوة فقد عوض الله تبارك وتعالى الدعوة الإسلامية بإسلام رجلين عظيمين . . هما : حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم . وعمر بن الخطاب . . الفاروق ورجل الحق . ولقد كان الرجلان من ذوى الشخصية القوية فى مكة . كان كل واحد منهما سيدا عظيما فى قومه . . وشاءت إرادة الله عز وجل أن يؤتى أصلب رجلين فى مكة من ينبوع الرحمة الذى كان كامنا فيهما ولا يعلمان .

أسلم حمزة بدافع الغضب والعصبية والرحمة تجاه من لا يدفع عن نفسه الأذى .

قالت إحدى النساء لحمزة يوما : لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد من أبى الحكم بن هشام (أبو جهل) ، فإنه سبه وآذاه ثم انصرف عنه . ومحمد صامت لا يكلمه .

وغلى الدم فى عروق حمزة . . وأسرع مشتعلا بالغضب يبحث عن أبى جهل فرآه

يجلس بين قومه . فرفع حمزة يده بقوس كان يمسكها وضرب بها رأس أبى جهل وهو يزأر : أتشتم محمدا وأنا على دينه ؟!

تلك كانت بداية إسلام حمزة . كان حمزة رجلا كريما بحق .

آذى مشاعره أن يضطهد ابن أخيه فلا يرعى الناس له ذمة ، رغم أنه ابن أخيه . . تلك كانت البداية . أو السبب المحرك للإسلام . أما العمق البعيد فكان هذه الرحمة التى أودعها الله فى نفس حمزة دون أن يدرى حمزة . . وهى رحمة لم تستطع أن تهضم إيذاء رجل يدعو إلى الله ، لمجرد أنه ضعيف وبغير أنصار . . فليكن حمزة إذن نصيره .

أما عمر بن الخطاب . . فكان معروفا بحدة الطبع وقوة الشكيمة وصلابة الرأى . . وطالما لقى منه المسلمون الأذى حين كان على جاهليته .

وكان من بين من يلقون منه البلاء . . عامر بن ربيعة وزوجته . . وقرر عامر وزوجته الهجرة إلى الحبشة . . وأقبل عمر بن الخطاب يوما فوجد زوجة عامر ولم يجد زوجها . . رآها تتهيأ للرحيل والهجرة . . قال (وينبوع الرحمة فى نفسه يتحرك) : أتنطلقون يا أم عبد الله . . . ؟

قالت المرأة ثائرة : نعم والله لنخرجن فى أرض الله ، فقد آذيتمونا وقهرتمونا . . ننطلق حتى يجعل الله لنا فرجا . .

قال عمر : صحبكم الله . .

ورأت المرأة فى وجهه رقة وحزنا . . فلما عاد زوجها حدثته أنها طامعة فى إسلام عمر . . قال زوجها : لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب . .

قالها من شدة ما كان يجد من عمر ، غير أن إحساس المرأة الداخلى ، كان أقوى من رأى الرجل وحكمه السريع على عمر . . فلم تمض أيام على هجرة من كان عمر يعذبهم . . حتى أسلم عمر . .

زحزح المهاجرون غطاء بئر الرحمة فى نفسه . . ولعل عمر أحس الحيرة فقرر حسم الأمر وقتل الرسول . . وذهب إليه متوشحا سيفه . . ويقابله من يقرأ سريرته فيسأله : إلى أين ؟

قال : إلى محمد لأقتله فتستريح العرب . .

ويقول له الرجل ساخرا : ـ ألا تبدأ بأهل بيتك قبل محمد . . ؟!

ويسأل عمر ثائرا : أهل بيتى ؟!

قال الرجل : أختك وزوجها . . أسلما وأنت لا تعرف . .

ويقتحم عمر بيت شقيقته وزوجها ، وعندهما قارئ يقرأ القرآن . . يخبئان الصحيفة والقارئ فيسأل عمر : ما هذه الهينمة التى سمعت ؟

وتنكر أخته ، ويتدخل زوجها فيبطش به عمر . . فتنهض المرأة للدفاع عن زوجها فيضربها عمر فيسيل دمها . ويفجر منظر الدم ينبوع الرحمة داخله . . انتهى الأمر وسقط غلاف الثمرة الجاف الذى يخفى حقيقتها العظيمة . ويتوضأ عمر - قسرا - ليسمحا له بقراءة الصحيفة القرآنية . .

ويقرأ عمر . . لا ينتهى من القراءة حتى يتحسس سيفه ويمضى نحو الرسول . . اختار عمر الإسلام دون تردد . . وليكن سيفه الذى ذهب به لقتل محمد . . هو أصلب السيوف دفاعا عن محمد . .

ويدق الباب على الرسول ومعه أصحابه . . وينظر أحدهم من شق الباب فيرى عمر بن الخطاب متوشحا سيفه . . ويعود إلى النبى بالخبر المزعج . .

هذا ابن الخطاب جاء يقصد شرا . . وينهض الرسول آمرا أن يتركوه له . . يفتح الرسول الباب ويشد عمر بن الخطاب من سيفه وثيابه سائلا إياه عما يريد . . وماذا جاء به ؟ وأجاب عمر بأنه جاء يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . .

وكبر الرسول تكبيرة عظيمة . . ها قد تحققت دعوته : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين . .

وبدأت قريش تحس الخطر بعد إسلام عمر وحمزة . . إن رءوس مكة وأعظم رجالها يسلمون . . وقبل إسلام عمر كان المسلمون يطوفون بالكعبة سرا ، وعلى استحياء ، فلما أسلم عمر جاهر بإسلامه وتحدى أن يعترضه أحد . . وتقاصرت الرقاب تفسح له طريقه للطواف . . وأدركت مكة أنها تواجه دعوة لا تلبث أن تقلب الأوضاع فى الجزيرة العربية . .

وأدرك الخوف سادة قريش المشركين ، وتقرر أن تنتقل الحرب مع المسلمين من مرحلة الاستهزاء والاضطهاد ، إلى مرحلة جديدة كل الجدة . .

تقرر حصار المسلمين اقتصاديا وإنسانيا .

عقد المشركون معاهدة لحصار المسلمين ، وعلقوا المعاهدة فى جوف الكعبة احتراما لنصوصها ، وكان المشركون يوقرون الكعبة رغم أنهم يملئونها بالأصنام التى يعبدونها لتقربهم من الله زلفى ، وكانت نصوص المعاهدة تقضى بألا يبيع أهل مكة للمسلمين أو يبتاعوا منهم شيئا ، وألا يزوجوهم أو يتزوجوا منهم .

وبهذه المعاهدة القاسية ، تقرر نبذ المسلمين وقتلهم اقتصاديا .

واضطر الرسول ومن آمـن معـه إلى اللجـوء لحـى بنى هـاشـم ، وانحاز إليهـم بنو عبد المطلب ، كافرهـم ومؤمنهم باستثناء عدو الله أبى جهل ، فقد وقف مع قريش ضد قومه .

وبدأ تضييق الحصار على المسلمين ، وانقطع عنهم الطعام والشراب ، حتى بلغ الجهد أقصاه . . كان الصحابة إذا قدمت قافلة إلى مكة ، وذهب أحدهم إلى السوق ليشترى الطعام لعياله ، قام أبو لهب يقول للبائع ، يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يبتاعوا منكم شيئا ، وأنا ضامن أن لا خسارة عليكم ، فسوف أبتاع منكم ما يعجزون عن شرائه .

ويغالى التاجر فى السعر أضعافا مضاعفة حتى يرجع المسلم إلى عياله وليس فى يده من القوت شيء . ثم يذهب التجار إلى أبى لهب فيشترى منهم بالأسعار التى عجز المسلمون عن الشراء بها . واستمرت الحرب حتى تعب المؤمنون وجاعوا وتعروا . .

كم تظن الوقت الذى استغرقته الحرب الاقتصادية . . استغرقت هذه الحرب ثلاث سنوات كاملة . . حتى بلغ الأمر بسعد بن أبى وقاص أنه خرج يوما ليقضى حاجته ، فسمع قعقعة تحت البول ، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذها وغسلها ، ثم أحرقها وفتتها وسفها بالماء . . كانت طعامه ثلاثة أيام . وخلال هذه السنوات الثلاث ، كان الوحى يتنزل على الرسول متجاهلا هذا البلاء العنيف .

وكان الله يربى أتباع دينه على احتمال كل الظروف . ورغم أن ضائقة المسلمين استمرت ثلاث سنوات ، لم يتوقف نشاط الإسلام ولا خمد توهجه أو قل انتشاره .

كان المسلمون يلقون غيرهم فى مواسم الحج ، فيحدثونهم عن الله ، ويدعونهم إلى رحمته ومغفرته ، ويزدادون تمسكا بما تضمه قلوبهم من الحق . . وشدت هذه الشجاعة والصلابة أنظار عديد من الناس ، فدخلوا فى الإسلام ، وبدأ المشركون ينقسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب ما فعلوا . وبدأت الغيرة على الحق تغزو القلوب . كما لعبت عصبيات القرابة بين غير المسلمين دورها ، فأبطلت قريش الصحيفة ، بعد جدال واختصام .

وانتهت الحرب الاقتصادية ضد المسلمين باجتيازهم لها ، وصيرورتهم أقوى مما كانوا . فقد المسلمون وفقد أطفالهم كثيرا من الوزن ، وصاروا أشباحا تسير فى الطريق ، ولكن عددهم يزيد ، وإيمانهم يزيد ، وثقتهم بالله تزيد . .

وجاء عام الحزن على الرسول . لم يكد الرسول يتنفس الصعداء بعد أعوام الحصار الثلاثة ، ويعود لاستئناف حياته ودعوته . . حتى فوجيء بوفاة زوجته أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها . . ووفاة عمه أبى طالب على ملة الأشياخ من أجداده .

وكان أبو طالب رجلا عظيم الهيبة فى مكة ، وكان إيذاء النبى محدودا لحماية أبى طالب له . . أما خديجة فهى واحة النبى وملاذه ، وهى القلب الرحيم الذى احتضن تأمله قبل الرسالة ، واحتضن آلامه بعد الرسالة . وكانت له نعم الرفيق والزوج والصديق والخادم .

وحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها حزنا عميقا . حتى سمى المؤرخون هذا العام بعام الحزن . . وفرح المشركون بأحزان الرسول ، سرهم أنه صار بلا شيخ يدفع عنه ويحميه . . وبلا زوجة تخفف متاعبه وتواسيه ، وازداد إيذاء قريش للنبى صلى الله عليه وسلم . . واختار المشركون وقتا ذبحت فيه ذبائح مكة ، وأحضروا أحشاء جمل ذبيح وألقوه على كتفى النبى وهو ساجد لا يرفع رأسه .

وبلغ الخبر ابنته فاطمة ، فجاءت مسرعة تحمل عن أبيها وتدافع عنه ، فى بيئة ينتظر أن تصدر الحماية فيها من الأب . وحز فى نفس النبى أنه صار إلى وضع تدافع فيه عنه ابنته . وصبر النبى فى الله واحتمل .

وفكر يوما أن يتوجه إلى الطائف حيث تقطن ثقيف . . لعله قال لنفسه : إذا كانت القلوب هنا قد تجمدت على الباطل ، فلأذهب إلى ثقيف . . لعل الله يفتح للدعوة ثغرا تنفذ منه .

كان الحصار العام على الدعوة قد اشتد فلم تعد تستطيع أن تخطو خطوة واحدة إلى أمام . . وأزعج هذا النبى صلى الله عليه وسلم . وحاول أن يكسر النطاق المضروب حوله فذهب إلى الطائف . والمسافة بين مكة والطائف تزيد على سبعين كيلو مترا . سارها النبى صلى الله عليه وسلم على قدميه ، ذهابا وعودة .

لا نعرف أى أفكار عبرت ذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب يدعو هذه القبيلة الكافرة إلى الله . كل ما نعرفه أنه ذاهب إليهم يحمل رحمة الدنيا والآخرة ، فلقوه لقاء الجاهلية ، وأساءوا إليه وكذبوه . ومكث عشرة أيام يتردد على المنازل والأسواق والطرقات فلا يستمع إليه أحد ، ولا يؤمن بدعوته أحد ، ويزداد الناس تهجما عليه واستهزاء به .

وجاء اليوم الأخير الذى قرر فيه أن يعود إلى مكة ، ووقف النبى فى الطائف ورجا من الناس أن يكتموا سر زيارته لهم حتى لا تزداد شماتة مكة فى الإسلام وعداوتها له ، ورفض أهل الطائف هذا الرجاء الأخير .

ولم يكتفوا بذلك ، وإنما صنعوا به شر ما يصنع الإنسان بالإنسان . سلطوا العيال والحمقى والأوغاد والأوباش فوقفوا صفين يرمونه بالحجارة ويسخرون منه . وخرج النبى من الطائف والعيال والكبار يضربونه بالحجارة ، وأصيب عليه الصلاة والسلام

فى قدميه ، فسالت منهما الدماء ، واضطره المطاردون إلى أن يلجأ لبستان يملكه اثنان من أغنياء الطائف . وهناك جلس تحت ظل كرمة فيه . وكان صاحبا البستان فيه فصرفا الأوباش عنه ، ورق قلباهما لمرأى المطارد الجريح فأرسلا إليه عنقودا من العنب مع خادم لهما ، وكان خادمهما نصرانيا يدعى عداس .

وضع الخادم عنقود العنب أمام الرسول ، فمد الرسول يده إليه قائلا :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

قال عداس للنبى : ليس هذا كلام أهل هذه البلدة .

سأل النبى : من أى البلاد أنت ؟

قال عداس : أنا نصرانى من نينوى .

قال النبى : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟

قال عداس : ما يدريك ما يونس ؟

قال النبى : ذلك أخى . كان نبيا وأنا نبى .

أكب عداس على قدمى الرسول ويديه يقبلهما ويبكى . .

كان هذا النصرانى المؤمن هو الإضافة الوحيدة التى خرج بها الإسلام من الطائف ، وهى إضافة دفع الرسول ثمنها أسبوعين من وقته وأمنه ودمائه التى سالت من حجارة الرعاع .

وعاد الرسول إلى مكة . عاد مرفوضا من الطائف ليجد نفسه مرفوضا فى مكة . رغم ذلك . . مضى القلب العظيم المثقل بالحزن فى دعوته وجهاده . وكلما ازدادت حرب الكراهية والعناد زاد القلب من جهده ورحمته . وجاءت على النبى أوقات بدا فيها الإسلام غريبا ، وبدا فيها النبى وحيدا لا ناصر له . .

وفى هذا الوقت بالتحديد . . حين بدا أن الناس قد تخلوا عن النبى . . تدخلت السماء ووقعت أعظم معجزات النبى صلى الله عليه وسلم . .

وقعت معجزة الإسراء والمعراج . .

وهى معجزة لا علاقة لها بالدعوة الإسلامية . لم تأت تأييدا لهذه الدعوة أو إثباتا لها . إنما جاءت تأييدا للنبى وحده . . وتشريفا له وحده . . وتكريما له وحده . . وكأنما أراد الحق عز وجل أن يقول للنبى :

إذا كان أهل الأرض لم يحمدوك . . فإن السماء تعرف لك قدرك من الحمد .

وإذا كان الناس يرفضون دعوتك ، ويرفضونك ، فإن الله عز وجل يجتبيك ويشرفك ويدعوك إليه ليريك من آياته الكبرى .

تسطع معجزة الإسراء والمعراج . . فى تاريخ الأنبياء . . كمعجزة فريدة لا مثيل لها فى قصة نبى آخر . . لقد رأينا فى الأنبياء من يسميهم الرحمن أحباءه وأخلاءه ، كإبراهيم . . ورأينا فى الأنبياء من يكلمهم الله تعالى بغير واسطة . . كموسى . ورأينا فى الأنبياء من يؤيدهم الله تعالى بالروح القدس . . كعيسى . . لكننا للمرة الأولى أمام نبى يدعوه الله تبارك وتعالى إليه . .

فيصعد مع جبريل بجسده وروحه حتى يقف جبريل عند مكانته ويتقدم نبينا وحده .

وتلك درجة من درجات التكريم التى تتوقف عندها الأقلام عجزا عن التعبير وإشفاقا من مجرد المحاولة .

ولقد رأينا فى قصص الأنبياء نبيا يسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، ويسأله الله ألم يؤمن بعد ؟ ويرد إبراهيم بأنه مؤمن يريد أن يطمئن قلبه .

ولقد رأينا فى قصص الأنبياء نبيا يندفع بحب الله فيسأله :

﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾[1] .

ويرد الله على موسى باستحالة الرؤية على البشر ويفهم الله موسى أن أى كيان مخلوق . . لا يحتمل تجلى الخالق عليه .

أما محمد بن عبد الله . . فلم يكن يسأل ربه معجزة أو خارقة . . لم يكن يسأل الله الرؤية ، ولم يكن يبحث عن طمأنينة قلبه . كان حبه لله تعالى من نوع يصعب على كبار المحببين وصغارهم على السواء فهمه أو إدراك أعماقه . ولم يكن حبه هذا من نوع يثير الأسئلة . . تجاوز حبه درجة السؤال إلى درجة الإسلام والرضا .

كان كل ما يقلق النبى هو رضا الله تعالى عنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخرج مرفوضا مطرودا جريحا من الطائف : إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى .

انظر إلى درجة الحب ، كيف أسلمته إلى ذروة التواضع ، فهو يقول : إن لم يكن بك غضب على . . كأنه لا يطمع فى الرضا . . حسبه عدم الغضب . .

لقد كان أدب الرسول صلى الله عليه وسلم مع ربه عز وجل هو الأدب اللائق بأول المسلمين وأكملهم . . ومن حق أول المسلمين وأكملهم أن يؤتى سؤله بغير أن يسأل . . وأن يكرم بغير أن يتوقع . . وأن يجاب إلى ما سأله الأنبياء قبله فلم يجابوا إليه . .

---

(١) من الآية ١٤٣ سورة الأعراف مكية .

وتلك كانت معجزة الإسراء والمعراج . وهى معجزة هدفها تكريم الرسول فى شخصه . وهى معجزة تثير دوار العقل والقلب معا . .

إن كل أنبياء الله بلا استثناء . . كانوا يؤيدون بمعجزات تقع على الأرض . . حتى الأنبياء الذين رفعوا إلى السماء كإدريس وعيسى جاء رفعهم إنقاذا لهم من القتل أو الصلب . . وكانت معجزتهم فى الرفع نهاية لنشاطهم على الأرض .

وهذه هى المرة الأولى التى نلتقى فيها بمعجزة مكانها الرئيسى فى السماء . . معجزة تتمثل فى نبى يرفع إلى السماء بجسده وروحه وهو حى . . وهناك يريه الله من آياته الكبرى ، ثم يعود إلى الأرض ، حيث يكون عرضة لما يتعرض له أهل الأرض من شقاء عام .

لقد كان محمد بن عبد الله . . هو أول بشر يتجاوز كوكب الأرض ويتجاوز الأقمار والشموس والنجوم والمجرات ويصعد . . ولقد شهدنا فى عصرنا أول إنسان يرتاد الفضاء . وكان الفضاء الذى استطاع البشر بلوغه بعد ١٤ قرنا من نزول الرسالة المحمدية هو الفضاء بين الأرض والقمر . . أقرب كوكب إلى الأرض . . ومنذ أربعة عشر قرنا ارتاد نبى الإسلام الفضاء وتجاوزه عالما بعد عالم . . حتى وصل إلى سدرة المنتهى . . وصل إلى قمة المنتهى . .

وصل إلى حيث ينتهى الكون المخلوق . . ويبدأ عالم الغيب . أليست الجنة جزءا من عالم الغيب . لقد وصل إلى الجنة . . وهى جنة يسميها الله جنة المأوى . . وصل إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ، ولا يدرى حقيقته إلا الله .

ومعجزة الإسراء غير معجزة المعراج . . وإن وقعا فى ليلة واحدة . . ووردا بعد ذلك فى سورتين مختلفتين فى القرآن الكريم .

قال تعالى عن معجزة الإسراء فى سورة (الإسراء) :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] .

وقال تعالى عن معجزة المعراج فى سورة (النجم) :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ

---

(١) الآية ١ سورة الإسراء مكية

﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾[1] .

فى ليلة الإسراء والمعراج . . طاف النبى عليه الصلاة والسلام حول الكعبة وهو يدعو الله . كان شاحب الوجه دامع العينين . لم يكن يطوف ومعه أحد . كان يطوف وحده . وراح الكافرون والمشركون يرمونه بنظرات الكراهية وهو يطوف ويدعو .

ونظر الله سبحانه وتعالى إلى عبده . وأصدر الحق تبارك وتعالى أمره إلى الروح الأمين جبريل عليه السلام أن يصحب عبده محمدا صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم يصعد به فى السماء ليرى من آيات ربه الكبرى .

فى بيت شريف وفقير من بيوت مكة . كان النبى عليه الصلاة والسلام نائما . . وجاء منتصف الليل . . وصدرت الأوامر الصامتة للسكون أن ينشر أجنحته على الصحراء ، وأن يستعين بالسلام العميق ، وبلغ السكون غاية جلاله ، صمتت طيور الليل مدهوشة ، وأرهفت سمعها . وهدأت الوحوش فى الصحراء وارتعش قلبها بالحب ، وراحت مياه زمزم تسيل برفق وبلا صوت . كانت الرياح تطير فى صمت وقد توقفت عن الصفير وراحت هى الأخرى تستمع ، واهتز قلب الأرض بالرحمة وجبريل يلمس الصحراء ويدخل بيت الرسول .

وقف جبريل عليه السلام عند رأس النبى ونظر إليه بحب .

أيقظت نظرته الرسول ففتح عينيه ونهض من فراشه .

قال جبريل للنبى : السلام عليك أيها النبى الكريم . . يريد الله أن ترى بعض آياته فى الكون .

سار جبريل وسار معه النبى . خرجا من البيت ، وهنا شاهد النبى « البراق » .

مخلوق يشبه الطائر وله أجنحة كأجنحة النسر ، مخلوق صنع من البرق ولهذا سمى البراق . . والبرق كهرباء . . والكهرباء ضوء . . والضوء هو أسرع ما نعرف على الأرض من كائنات . إن شعاع الضوء يقطع فى الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، وأى جسم يسير بسرعة الضوء يتحول إلى ضوء . هذا قانون علمى .

ولقد رجح بعض العلماء أن تكون قوة الضوء وسرعته قد استغلتا فى الرحلة ، ويطمئن قلبنا لهذا الترجيح ، وإن كان الغموض يشيع فى الأسلوب الذى استخدم فى

---

(١) الآيات من ١٣ إلى ١٨ من سورة النجم مكية .

هذه الرحلة . إن القرآن تجاوز وسيلة المواصلات التى استخدمت فى الرحلة إلى عمق الرحلة البعيد . . وهو أن يرى الرسول من آيات ربه الكبرى . . وإن روت السنة المطهرة أن النبى ركب البراق . وهو دابة تضع طرفها عند نهاية نظرها ، وذلك رمز تعبيرى لسرعتها الهائلة .

لن نتوقف عند مركبة الفضاء التى استغلت في الرحلة . . ولن نسأل كيف اخترق النبى عوالم الفضاء دون تدريب سابق ، وكم هو الوقت الذى استغرقه فى الذهاب والعودة . ولن نسأل عن سرعة البراق . . ولن نعجب من هذا الغزو للفضاء وتجاوزه . . لن نسأل عن هذا كله لأن لدينا إجابة واحدة كافية :

لقد شاء الله تبارك وتعالى أن يقع ذلك .

قال لهذا كله : « كن » ، فكان .

اختلف العلماء : هل كان الإسراء والمعراج بالروح وحده ، أم بالروح والجسد معا؟

وأهل الحقيقة على أنه كان بالروح والجسد . ولقد أوقع فى الخلاف اختلاف العقول ، والوقوع فى مصيدة «كيف» . . والتساؤل عن قدرة الله . . ومحاولة إخضاع هذه القدرة لأسبابنا المعتادة أو قوانيننا الحاكمة أو منطقنا البشرى . .

سبحانه وتعالى عن ذلك . أيسأل الناس كيف صعد الرسول بالروح والجسد إلى قمة القمم فى السماء ثم عاد دون أن يبرد فراشه . . ؟ أى معجزة هنا تزيد على معجزة تحوّل النطفة إلى إنسان ، أو معجزة تحول البذرة إلى شجرة . . أو معجزة إحياء الماء للأرض أو ريه للعطش . أو معجزة الحب الذى يربط بين قلبين دون سابق معرفة ؟ !

انحنى البراق للنبى فركبه النبى ومعه جبريل ، وانطلق البراق كسهم من الضوء فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجها إلى الشمال .

أشار جبريل إلى جبل سيناء فتوقف البراق . . قال جبريل : فى هذه البقعة المباركة كلم الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام ، وعاد البراق ينطلق حتى وصل إلى بيت المقدس .

هبط النبى من هذه الطائرة التى تسير أسرع من الضوء ملايين المرات ولا تتحول إلى ضوء . سار النبى مع جبريل ودخل بيت المقدس . دخل المسجد فوجد كل أنبياء الله ينتظرونه هناك . بعث الله صور أنبيائه من الموت وجمعهم فى المسجد الأقصى .

قدم إليه الملائكة إناء فيه لبن وإناء فيه خمر ، فاختار اللبن وشرب .

قيل له : اخترت الفطرة ، وسوف تختار أمتك الفطرة .

التف الأنبياء حول الرسول وحان وقت الصلاة . . تساءل الأنبياء بينهم وبين أنفسهم : أيهم يكون إماما لهم فى الصلاة . . هل هو آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى ؟ . .

وقال جبريل عليه السلام لمحمد : إن الله يأمرك أن تصلى بالأنبياء .

ووقف الرسول ، وصلى بالأنبياء . . كانوا جميعا مسلمين ، وكان هو أول المسلمين . .

من المنطقى أن يكون إماما للأنبياء . . مثلما جاء كتابه مهيمنا على ما سبقه من كتب . . قرأ لهم القرآن ، وبكى وهو يقرؤه ، وأبكى خشوعه الأنبياء . وحين سجد الأنبياء وراء إمامهم ، سجدت الأشجار والنجوم . .

انتهت الصلاة فاختفى الأنبياء . . عاد كل نبى إلى السماء التى يعيش فيها . . خرج النبى من المسجد مع جبريل فركبا البراق . .

مثل سهم من الضوء ارتفع البراق إلى أعلى . . ثم إلى أعلى . .

مر على السماء الأولى ، فشاهد النبى ادم . .

ونادى رب العالمين : ليرتفع عبدى أكثر . .

وارتفع عبد الله محمد بن عبد الله . . تجاوز السماوات سماء سماء . . تجاوزها مكانا ماديا ، وتجاوزها مكانة روحية . . كان يتهيأ ليقف فى الحضرة الإلهية ، وكان يرتفع ويترقى روحيا فى سرعة تقل عنها سرعة البرق . تجاوز مكانة آدم عليه السلام الروحية فى السماء الأولى . . وتجاوز مكانة يحيى وعيسى ، عليهما السلام ، فى السماء الثانية . ونادى رب العزة : ليرتفع عبدى أكثر . .

وارتفع عبد الله ونبيه أكثر وأكثر . . تجاوز السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، وتجاوز الكون كله مادة وروحا وجوهرا وحقيقة وواقعا وحكما ، وراح يرتفع . .

أخيرا وصل إلى سدرة المنتهى . . وصل إلى المكان المقدس الذى يسميه الله تعالى سدرة المنتهى . . وهناك شاهد النبى جنة المأوى . .

وشاهد ما لا نعرف ولا نفهم ولا نتصور . .

﴿ إذْ يغْشَى السِّدْرة ما يغْشَىٰ ﴾(١) . .

---

(١) الآية ١٦ سورة النجم مكية .

لقد وقع لهذا المكان ما وقع له . . بهذا الجلال الغامض الموحى ، يخبرنا الله عز وجل أن أمورا قد وقعت . . وإن كان يخفى عنا كنه ما حدث . .

هذا الذى أخفاه الله علينا . . شاهده الرسول بنفسه . . هو معجزة خاصة به . . هو درجة من درجات الحب لا يكشف الستار عنها ، لارتفاعها عن مستوى الإدراك البشرى . .

ونادى رب الجنة والنار : ليرتفع عبدى أكثر . .

وارتفع عبد الله محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - أكثر . . نظر إلى جبريل من خلفه فوجده يقف فى مكانه مسبحا الله . . لم يكن جبريل الآن على صورته البشرية التى شاهده النبى عليها فى الأرض . . عاد الروح الأمين ، عليه السلام ، إلى صورته الملائكية التى خلقه الله عليها . . وحدق النبى فى جبريل عليه السلام . . وهو آية الله الكبرى التى وعد الحق أن يريه إياها . .

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[1] . .

كانت الرؤية بالقلب والعين والحواس المعروفة وغير المعروفة . . كانت رؤية واضحة . . ليس هناك حلم . . ولا استجماع ذهنى لوحدة الوجود . . ولا فترة تألق نفسانى فذ . . ولا تخيل ولا تصور . . ولا جهد ولا قصد . .

لا شىء من هذا كله ، لأن الأمر أبعد وأخطر من هذا كله . .

لقد رأى الرسول بجسده وروحه . .

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[2] . .

وعاد النبى يرتفع أكثر . . وأكثر . . راح يصعد حتى وقف بين يدى جبار السماوات والأرض ورحمن الدنيا ورحيم الآخرة . .

سجد أول المسلمين لرب الكون وهو يقول : التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله . .

قال الحق عز وجل : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . .

سبحت الملائكة بقولها : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . .

هذه العبارات هى بداية «التحيات» التى يرددها المسلمون فى صلاتهم كل يوم . .

---

(١) الآية ١٧ سورة النجم مكية.

(٢) الآية ١٧ سورة النجم مكية.

ولقد فرضت الصلاة على المسلمين فى هذا الموقف العظيم . . فرضت فى لحظة ترقى النبى وصعوده فى السماء صعودا إلى الله بالروح ، خمس مرات فى اليوم . .

ومن الشهير عند عامة المسلمين أن الله فرض على النبى خمسين صلاة فى اليوم ، فنزل النبى فلقى موسى فسأله عن عدد الصلوات التى فرضها الله على أمته ، فحدثه أنها خمسون ، فقال موسى : إن أمتك لن تطيق فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنهم . .

وعاد النبى إلى ربه فخفف عن أمته عشر صلوات ، وعاد النبى إلى موسى ، فعاد يحذره ، فعاد إلى الله حتى انتهى الأمر بالصلوات الخمسين إلى خمس صلوات . . وللخمس ثواب خمسين . .

وليس لهذه القصة سند فى كتابات العلماء المدققين . . ونعتقد ـ اعتمادا على الحدس الداخلى ـ أن القصة السابقة من اختراع اليهود الذين أسلموا وملئوا الكتب حكايات خرافية نسبوها إلى الرسول . . يؤيد هذا الظن ، اختيار موسى ليكون هو النبى الذى يقترح التخفيف عن أمة محمد ، ويكون هو النبى الذى أدرك ما لم يدركه محمد . .

ويدعونا لرفض القصة . . يقين بأن لقاء الحق عز وجل أو الوقوف بين يديه سبحانه له من الجلال والمهابة ما يمنع النبى إذا انصرف أن يعود . .

ويقوى ظننا فى نسبة القصة إلى اليهود . . أنها تحمل نفسية أحفاد اليهود الذين أمرهم موسى بذبح بقرة ، فراحوا يعذبونه بكثرة الأسئلة ، وكثرة دعائه لربه وسؤاله إياه ولجوئه إليه . .

إن البناء الداخلى لقصة بقرة اليهود ومفاوضاتهم مع موسى ، يتفق مع البناء الداخلى لقصة الخمسين صلاة التى تحولت إلى خمس صلوات . . مما يوحى أن مؤلف القصة الأخيرة من أحفاد المفاوضين ذوى اللجاجة القديمة . .

القصة لدينا مستبعدة إذن . .

ومعظم ما حفلت به الكتب مما رآه النبى فى رحلته مستبعد هو الآخر . .

كان الموقف مزيجا من الجلال والمهابة والرحمة . . شاهد النبى ورأى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها ، وتفوق كل ما يحيط به فهم الإنسان وإدراكه . .

ولقد تجاوز السياق القرآنى عامدا ما رآه النبى ـ لأنه سر بين النبى وربه ، ومعجزة خاصة بالنبى وتكريم لشخصه وحده ـ تجاوز السياق هذا ليؤكد أنه رأى من آيات ربه الكبرى . .

ونحن لا نعرف ماذا رأى النبى . . كل ما نستطيعه أن نتصور أن النبى سجد خشوعا لربه وبكى من الفرح . . ذهبت أحزان قلبه إلى الأبد ، وسكنه عصفور الفرح الأزلى . .

بعدأن رأى النبى السر . . بعد هذا التشريف والتعظيم ، عاد النبى إلى البراق وركبه وانطلق به جبريل عليه السلام عائدا إلى الأرض . . عاد فوجد فراشه لم يبرد بعد . . كيف ذهب وجاء وفراشه لم يبرد بعد . . ؟ كم من الوقت استغرقته هذه الرحلة . . ؟ الله وحده هو العليم . . كل ما نعرفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد إلى فراشه بعد الإسراء والمعراج . . قلبه هو الفرح . . وصدره يمتلئ بسكينة راضية وفناء فى الله مستطاب . .

وجاء الصباح عليه . . حدث النبى عن رحلته فآمن به من آمن ، وكذبه من كذبه فلم يعبأ . .

عاود النبى كفاحه الصابر لنشر دعوة الله فى الأرض . .

وجاء عليه وقت أدرك فيه أن الدعوة الإسلامية قد حوصرت فى مكة . .

وبدا الموقف متجمدا لغير صالح المسلمين . . وتحرك الرسول بدعوته خطوة . . أوحى الله إليه أن يهاجر . . انتهى الأمر ، وبدأت رحلة المهاجر إلى الله . . بعد ثلاثة عشر عاما فى مكة . . .

يريد الإسلام أن يبنى دولته ويتحول من الحصار والدفاع إلى كسر الحصار والهجوم . .

وليس كالهجوم وسيلة للدفاع عن النفس والعقائد . .

فى البداية وقع تحول صغير فى موقف المسلمين . .

انكسر الحصار حولهم حين وفدت قبائل من المدينة ودعاها الرسول إلى الإسلام فأجابت ، وكان عرب المدينة يجاورون اليهود ويسمعون منهم عن نبى تبشر به صحف التوراة . .

وخرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى موسم الحج ليعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم . .

كان عند العقبة . . فلقى جماعة من الخزرج . .

قال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج . .

قال : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعم . .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : نعم . .

جلسوا معه فدعاهم إلى الله . وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . .

استمع إليه الرجال الستة صامتين ، فلما انتهى صدقوه وآمنوا به وقبلوا ما عرضه من الإسلام عليهم ، وحدثوه بأنهم تركوا قومهم يخوضون رمال الكراهية والحرب ، فعسى الله أن يجمعهم بهذا الرسول الكريم . . أخبروه أنهم سيحدثون قومهم عنه ، ويدعونهم إلى ما دعاهم إليه . . وانصرف الرجال الستة عائدين إلى المدينة التى صار من حقها أن تسمى المدينة المنورة . . كان اسمها يثرب فى الجاهلية ، ثم تغير اسمها إلى المدينة المنورة . .

شاء الله أن ينورها بالإسلام ، وانطلقت الشرارة من مكة المحاصرة ، إلى المدينة المنورة ، الطيبة الودود . . ولم يكد الرجال الستة يعودون إلى المدينة وهم يحملون الإسلام فى قلوبهم ، حتى دخل الإسلام أكثر من بيت .

واستدار العام ، وأقبل موسم الحج ، وخرج من المدينة اثنا عشر رجلا ، من الذين أسلموا - فيهم الستة الذين كلمهم الرسول فى الموسم السابق - ولقيهم النبى بالعقبة . . وعقد معهم بيعته على الإيمان بالله وحده ، والدفاع عن دعوة الحق وإنسانية الإنسان . .

وعاد الرجال إلى المدينة ومعهم أحد الثقات الأكفاء من رجال الإسلام . . وهو مصعب ابن عمير ، ليكون رسول رسول الله فى المدينة يفقه الناس فى دينهم ، ويقرأ عليهم القرآن ، ويدعوهم إلى الحق . . وانتشر الإسلام فى المدينة . وبدأ أهل المدينة يتساءلون :

لماذا يستضعف إخواننا المسلمون فى مكة ؟ . . ولماذا يخرج الرسول ليدعو إلى الرحمة فلا يتلقى غير الكراهية ؟ . . وحتى متى نترك رسول الله مضطهدا ، مطاردا فى جبال مكة ؟ . . وأى خير فينا إذا لم نصنع من جلدنا طريقا يمشى فوقه هنا فى المدينة ؟ . .

وهكذا رحل سبعون رجلا إلى مكة . . سبعون رجلا من أهل المدينة المنورة . .

تسللوا إلى العقبة فرادى وجماعات . . أثمر الإسلام ثمرته الأولى فى قلوبهم ، فامتلأت حبا لله ورسوله والمسلمين . . وصار ألم المسلمين يعينهم على تنائى الأمصار والديار ، ويؤثر فى نفوسهم ويحرمهم نعمة النوم ، ومذاق اللقمة ، ومعنى الحياة . .

جاء هؤلاء الأبرار يبايعون الرسول على الدفاع عنه ونصرته وحمايته والموت فى سبيله . .

جاءوا بعد أن غزا الإسلام قلوبهم ، لا يريدون أن يأخذوا . .

جاءوا يعطون بلا حدود . . ويقدمون بلا تحفظ . ويمنحون كل شيء للدعوة الجديدة . .

جاءوا عاشقين . . والأصل فى العاشق أن يعطى متصوراً أنه يأخذ . .

تروى كتب السنة المطهرة ما وقع فى بيعة العقبة الكبرى ، فتقول إن العباس بن عبد المطلب جاء مع النبى ، وهو يومئذ على دين قومه . . أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له . . فلما جلس وتكلم قال كلمة تفيد أن محمدا فى عزة من قومه ومنعة فى بلده ، لكنه يأبى إلا أن ينحاز لكم ويلحق بكم يأهل المدينة ، فإذا كنتم ستوفون بعهده وتحمونه فخذوه ، وإن خشيتم أن تخذلوه وتسلموه فمن الآن اتركوه فى بلده .

كانت كلمة العباس بن عبد المطلب كلمة تنبعث من منابع العصبية القبلية وروابط الدم الأسرية . . وتجاوز أهل المدينة كلمة العباس ، فهو ليس على دينهم ، ولا يستطيع أن يدرك المدى الذى وصلوا إليه فى حب الرسول .

انتظر العباس بن عبد المطلب جواب أهل المدينة ، فقالوا له : قد سمعنا ما قلت . . فتكلم يا رسول الله ، وخذ لنفسك وربك ما أحببت . .

نريد أن نتوقف عند جواب هذه الطليعة المؤمنة من أهل المدينة . . ليتكلم رسول الله . . إن الجواب الذى يبحث عنه العباس بن عبد المطلب كامن فى كلام النبى . . انتهى الأمر ولم يعد لهم بعد كلام رسول الله كلام . .

يكفى أن يتكلم هو . . ليطيعوا هم . . ها هم أولاء يسألونه أن يأخذ لنفسه وربه ما أحب أن يأخذ . . لم يعد لهم فى أنفسهم ملك ولا تحكم . .

وتكلم النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ودعا إلى الله وتحدث عن الإسلام وبايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم فبايعوه . .

هكذا تمت بيعة العقبة الكبرى . . ولقد أدرك هؤلاء المختارون من الله ، أنهم سيدعون إلى سيوفهم قريبا ، وسيدعون إلى الموت تحت ظلال السيوف . . وطمأنوا الرسول إلى أنه سيجدهم أبناء الحروب ورثوها كابرا عن كابر . .

وأثار أحد السبعين مسألة مهمة . . قال أبو الهيثم : إن بين عرب المدينة واليهود حبالا ، وإنهم لقاطعوها ، فما هو الموقف إن فعلوا ذلك وخاصموا اليهود ، ثم نصر الله النبى ، وأظهره على قومه ، فعاد إليهم وتركهم تحت رحمة اليهود . . ؟

لاحظ أن السؤال يلف ويطوف حبا حول النبى . . ورغبة فى بقائه معهم على امتداد الأيام والشهور . . إن القضية التى طالب العباس بن عبد المطلب بإيضاحها ، وهى قضية حمايتهم للنبى ، ليست واردة فى نقاش المختارين من أهل المدينة . . القضية التى يحرصون عليها هى قضية حماية النبى لهم هم ، هى بقاؤه معهم بالمدينة . .

تبسم النبى وقال كلمته التى تضع أواصر العقيدة فوق أواصر الدم . .

قال : بل الدم الدم والهدم الهدم . . أنا منكم وأنتم منى . . أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . انصرف أهل المدينة عائدين إلى بلادهم ، وتسربت أنباء هذه البيعة إلى رؤساء مكة ومشركيها ، فزادوا من ضغطهم على رسول الله والمسلمين . . واجتمع جبابرة مكة فى دار الندوة ، وقرروا اتخاذ قرار حاسم بشأن النبى ، اقترح أحدهم أن يقيد فى الحديد ، ويلقى فى السجن حتى يموت جوعا .

واقترح أحدهم أن ينفى من مكة ويطرد منها وتنفض قريش يدها منه .

واقترح أبو جهل أن يأخذوا من كل عائلة من عائلات قريش شابا قويا ، ثم يعطوا كل واحد فيهم سيفا باترا ، ثم يضربوه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها ، وعجزت بنو هاشم عن قتال العرب جميعا . . وقبلت فيه الدية . .

أحكمت أطراف المؤامرة ، واتفق على موعد التنفيذ ، وكشف القرآن الكريم تدبير الذين كفروا فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) . .

أوحى الله إلى نبيه أن يهاجر . . وأخذ النبى بأسباب النجاح كلها فى البداية . . كتم أمره فلم يحدث به حتى صاحبه الذى علم أنه سيرافقه . . واستأجر عليه الصلاة والسلام دليلا خبيرا يعرف الصحراء مثلما يعرف خطوط كفه . . ومن المدهش أن هذا الدليل كان مشركا . . وهكذا استعان النبى بأهل الكفاية دون نظر إلى عقائدهم أو اهتماماتهم . .

وجاءت ليلة تنفيذ الجريمة . . وأمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم (على بن أبى طالب) أن ينام فى فراشه هذه الليلة ، وجاء منتصف الليل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنفال مدنية .

كان فتيان مكة يحاصرون البيت ، وقد توشحوا سيوفهم . . وأمسك النبى قبضة من التراب ورماها على القوم فنعسوا ، واخترق النبى حصارهم . . خرج من مكة مهاجرا . .

بهذه الخطوة المباركة يؤرخ المسلمون أعوامهم . . السنة فى الإسلام سنة هجرية . .

يؤرخ لعيسى بمولده . . وهذه هى السنة الميلادية ، أما أعوام الإسلام فيؤرخ لها بأول خروج فى سبيل الله . .

وأول خروج من مركز الضعف والحصار والاضطهاد . . إلى مركز القوة والانتشار والهجوم . . لم تكن هجرة الرسول فرارا من الاضطهاد فحسب ، وإنما كانت سأما من التجمد . . لم تكن الهجرة خروجا إلى الأمن ، وإنما كانت خروجا إلى الخطر ، كان الإسلام فى مكة يدافع عن نفسه بمجرد الدفاع ، وحين خرج إلى المدينة دافع عن نفسه بالهجوم . .

وطوال الأعوام التى قضاها النبى فى مكة ، لم يحمـــل أحـــد من المسلمين سلاحا فى سبيل الله . .

وحين خرجوا إلى المدينة بدأ حمل السلاح ، وبدأ مد المعارك ، وبدأ الإسلام يحمل السيف مثلما يحمل الجراح مشرطه للشفاء والصحة . .

أدرك النبى أن الإسلام لن يقضى عمره فى صد الهجوم عن نفسه . . يريد الإسلام أن ينتشر . . يريد الإسلام أن يؤسس دولته الأولى . . وهى دولة لا نعرف دولة غيرها من دول الأرض بلغت ما بلغته من عدالة ورحمة وواقعية ومثالية وتفان فى الله واحترام للإنسان . .

هذا هو عمق الهجرة البعيد . .

تأسيس دولة الإسلام . . بعد بناء الفرد يبنى المسجد ثم تبنى الدولة . . بعدها تنطلق الدعوة . .

لا نحسب القارئ سيسأل : فما بال بناء المساجد يزيد ، وينحسر الإسلام من الأرض ويضطهد . . ؟ نحسب القارئ أذكى من أن يجهل أن المسجد الذى خرج الرسول لبنائه فى المدينة لم يكن استراحة من مغارم الحياة ، وإنما كان مركزا لقيادة معارك الإسلام ، معركة بعد معركة . . كان الناس يغتسلون فى المساجد بنور الله ، بعدها يغتسلون فى المعارك بدمائهم . .

كان السؤال : أيهم يقتل فى سبيل الله قبل أخيه ؟ وكان السباق بينهم على ذلك . . بهذا انتشر الإسلام . .

لجأ النبى إلى كهف فى جبل اسمه ثور . .

دخل الكهف مع صاحبه أبى بكر . . وانطلق المشركون بالسيوف ، وقد أهاجهم إفلات الصيد . . فوصلوا إلى الجبل . . وقال أبو بكر لصاحبه منزعجا :

ـ لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا . .

رد الرسول مطمئنا : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما . . ؟

قبل أن ينتهى النبى صلى الله عليه وسلم من كلمته ، كانت العنكبوت قد انتهت من نسج بيتها على باب الغار . . تروى كتب السيرة أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا جبل ثور ، اختلط عليهم الأمر ، فصعدوا الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ها هنا أحد ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه . فمكث فيه ثلاث ليال . . وانتصر إيمان نسيج العنكبوت اللين ، على حديد السيوف المصقولة المشركة ، ونجا النبى وصاحبه . .

وحين اطمأن المهاجران إلى الله ، إلى أن البحث عنهما قد فتر . . خرجا إلى المدينة . .

وخرجت المدينة إليهما . . وحين دخل الرسول وصاحبه المدينة ، لم يعرف الناس بادئ ذى بدء أيهما الرسول الكريم وأيهما صاحبه . . من فرط تواضع الرسول ، ومعاملته لصاحبه بأخوة الإسلام . .

أخيرا نور النبى المدينة . .

بنى مسجده ، وأسس دولته ، وحارب أعداءه ، ونشر الإسلام ، وفتح مكة ، وطهر البيت الحرام ، وألقى فى العقول والقلوب نورا لا ينطفئ . .

مرت عليه عشر سنوات لم يسترح فيها يوما فى المدينة . .

ومرت عليه قبلها ثلاثة عشر عاما فى مكة لم يسترح فيها يوما . .

إن الأثقال الهائلة التى احتملها ظهره الشريف كانت أقوى من احتمال الجبال ، وهو رجل واحد ، لكنه حمل أمانة عرضها الله تعالى فى بدء الخلق على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها .

وجاء هو واحتملها كاملة وأداها كاملة . . أمانة التبليغ عن الله ، وأمانة تنقية العقل البشرى من الأوهام والخرافة ، وأمانة السجود لله وحده . .

وانساب فى ذاكرة النبى تيار من الصور الحية وهو يدخل المدينة . .

مر أمام العقل موكب الذكريات . .

ها هو ذا الوحى يتنزل عليه بالرسالة فى غار حراء . . أى خوف مشفق وسلام عميق أحسهما على التعاقب ؟ . . ثم تغير المنظر وهبت زوبعة من الكراهية ، وحملت أيدى الرياح رمالا وشائعات واتهامات وألقتها فى وجهه . .

وقف يبتسم بشفتيه وقلبه حزين وسط أمواج الصحراء والوحدة وعواصف الشقاء . .

- أيها الناس . . لا إله إلا الله وحده . .

قال كلمته . . رغم بساطة الكلمة ، فقد أثارت عليه الدنيا . . تحركت الأصنام العديدة التى تملأ الحياة ، وسلحت نفسها بالظلام والحقد وسارت نحوه . .

الرئاسات والحكام والنقود والذهب والأوضاع السائدة وأحقاد الشيطان القديمة وتعدد المنافقين . . صار هذا كله عدوا للنبى فى اللحظة التى قال فيها لا إله إلا الله وحده . .

وتذكر ورقة بن نوفل حين حدثه عما وقع له فى غار حراء . . ألم يقل له ورقة : إن قومك سيخرجونك . . ؟ انسابت أيام الهجرة الطويلة الشاقة . . يوما وراء يوم . . كانت الشمس قريبة من الرءوس ، والحر قاتلا ، والصداع عظيما . .

ها هو ذا يدخل المدينة بعد الهجرة . . استقبله الأنصار أكرم استقبال . . جاءهم وحيدا فنصروه . . خائفا فأمنوه . . جائعا فأطعموه . . مطاردا فالتفوا حوله . .

وبدأ بناء الإسلام فى المدينة . . بدأ بناء دولته بعد أن تم بناء إنسان هذه الدولة . .

الإنسان أولا وبعد ذلك الدولة . .

لا قيمة لنظام يعتمد على المبادئ العظيمة التى لا تزيد عن كونها حبرا على ورق . . إن تطبيق المبادئ هو المعيار النهائى لقيمة أى نظام ، ولقد نبع من تطبيق الإسلام فى أيامه الأولى نظام لن تعرف البشرية له مثيلا فى العدل والإخاء والرحمة . . وليس ذنب الإسلام أنه انقلب على أيدى الخلف إلى رسوم وأشكال زخرفية . . هذا ذنب الخلف وليس ذنب الإسلام . .

كان أول شىء فعله الرسول أن بنى مسجده حيث بركت ناقته . .

جاء المسجد بسيطا غاية البساطة . . فراشه الرمال والحصباء ، وسقفه الجريد وأعمدته جذوع النخل ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وربما هبت الرياح فنزعت جزءا من سقفه . . وقد تفلت القطط والكلاب إليه فتغدو وتروح فيه . .

فى هذا البناء المتواضع ، ربى الرسول رجالا أدبوا الطغاة ، وكسروا الجبابرة وأعادوا الحقيقة لعرشها المهجور ، ونشروا الإسلام فى الأرض . .

كان المسجد صغيرا فقيرا ، يمتلئ بالعمالقة . . ولم يكن شامخا مزخرفا يمتلئ بالأقزام . . كان القرآن يتلى فى المسجد ، فيعتبر من يستمعون إليه أنهم يتلقون أوامر يومية للتطبيق والتنفيذ ، ولم يكن القرآن يتلى فى المسجد غناء وتطريبا فيتصايح الجالسون إعجابا بأداء المغنى وصوت القارئ . .

والمسجد فى الإسلام ليس هو المكان الوحيد للعبادة . . الأرض عند المسلمين كلها مسجد . . إنما هو رمز لحضارة تؤمن بالله واليوم الآخر ، كما تؤمن بالعلم والحرية والأخوة . .

ولقد تحدث الأنبياء جميعا عن الإخاء ، ودعوا إليه بآلاف الكلمات . . أما رسول الله ، فقد حقق الإخاء عمليا ، حين صار طبع الناس هو القرآن . .

نزل المهاجرون على الأنصار . . ووقف الأنصار أنبل موقف يمكن للإنسان أن يقفه . . ألغيت أخوة الدم ، وأرسيت أخوة العقيدة . .

وراح النبى يؤاخى بين المهاجرين والأنصار . . كان نصيب الأنصارى سعد بن الربيع ، أحد أغنياء المدينة ، أن يحظى بأخوة عبد الرحمن ابن عوف المهاجر . . قال سعد لعبد الرحمن : أنا أكثر الأنصار مالا ، وقد قسمت مالى نصفين لك أحدهما . . ولى امرأتان فانظر أيتهما تعجبك كى أطلقها فتتزوجها . .

ويرد عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك . . أين سوقكم ؟

ويخرج عبد الرحمن إلى السوق ليعمل ، يعود بما يطعم به نفسه ، يرفض سماحة سعد وكرمه ، ويعتمد على إيمانه بالله وساعده وجهده . . ولا تمر أيام إلا وهو رجل يكسب ما يستطيع الزواج به . . ويقدم لزوجته نواة من ذهب .

يوما بعد يوم . . راح المجتمع الإسلامى يبنى قواعده على قيم العمل والحب والحرية والشورى والجهاد . .

ليس العمل فى الإسلام شقاء من أجل رغيف الخبز أو قطعة اللحم كما تقول حضارتنا المعاصرة . . إنما يتجاوز العمل فى الإسلام هذا الإطار المادى ، مستهدفا ذروة أخرى . .

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) . .

إن الاحساس بأن ما نعمله سيعرض على الله ، يجعل للعمل مذاقا آخر . . مذاقا يتجاوز طعم الخبز واللحم . . بعد العمل . . يجىء الحب . .

---

(١) من الآية ١٠٥ من سورة التوبة مدنية .

والحب فى الإسلام ليس إحساسا يستقر فى القلب ، ولا يصدقه العمل . . الحب فى الإسلام خطوة يومية تغير شكل الحياة حول الناس نحو الأرقى والأكرم . .

يحب المسلم خالقه رب العالمين سبحانه ، ويحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ويحب المسلمين ومن سالمهم ، وإن اختلفت عقائدهم معه ، ويحب الوجود والكائنات جميعا . . يحب الأطفال والحيوانات والزهور والرمال والجبال . . حتى الجمادات يشيع فى قلب المسلم نحوها إحساس بالحب . .

يرث المسلم إذا أسلم حقا ، إحساس داود بالكون والكائنات ، هذا الإحساس الصوفى العميق . ويرث المسلم ، إذا أسلم حقا ، إحساس عيسى بالجوانب الطيبة من الحياة ، فينظر إلى جسد كلب مات ، فلا يرى غير بياض أسنانه . .

هذا الحب الذى يشيع فى حياة المسلمين ويتجاوز الناس إلى الحيوان والجماد . . هذا الحب لا يتحقق بقرار ، ولا يصدر به قانون ، إنما يجىء عادة من اقتناع العقل والقلب بقيادة عظيمة تهوى إليها الأفئدة ، وتقتبس من نورها العقول . . ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم هو هذه القيادة العظيمة . . كان نموذجا ومثالا أعلى وذروة . .

كان أكثر الناس عملا للإسلام ، وأقلهم جزاء منه واستفادة . . كان قائدا يعيش فى تواضع أبسط الجنود . . فراشه نظيف ولكنه خشن ، وبيته لا توقد فيه نيران الطهى إلا أياما قليلة معدودة كل شهر . . وطعامه الأساسى هو الخبز الجاف بالزيت . . وهمه الأكبر أن ينتشر هدى الإسلام . . وأدرك المسلمون أن كمال الإسلام لا يتحقق إلا إذا صار الله ورسوله مقدما على حب الذات والمرأة والمال والولد والمصلحة والسلطان والحياة والآخرين وكل شىء . . وأحب المسلمون قائدهم أكثر مما أحبوا حياتهم ذاتها . .

وإلى جوار العمل والحب ، أقيمت دولة الإسلام على قواعد الحرية والشورى والجهاد . .

ليست الحرية فى الإسلام حلية تضاف إلى جسم الإسلام ، إنما هى نسج الخلايا الحى ذاته . . لقد حرر الله المسلمين من عبادة غيره . . وإذن تسقط كل القيود على العقل والقلب والمجتمع . . والمسلم يملك فى الإسلام حرية تتيح له أن ينظر فى كل شىء بعقله ، وأن يناقش كل شىء بعقله ، وأن يقتنع بما يطمئن به وجدانه ، وليست الحرية فى الإسلام حرية مطلقة تصل إلى مشارف الفوضى . . إنما هى حرية مسئولة . .

فى نطاق النصوص القاطعة التى وردت فى القرآن أو السنة . . لا حرية أمام المسلم غير حرية السباق حبا نحو التطبيق . . وفيما عدا ذلك ، فالمسلم حر إلى ما لا نهاية ،

وباب الاجتهاد مفتوح إلى ما لا نهاية ، لأن باب الاجتهاد هو العقل . . وقفل باب الاجتهاد يعنى قفل العقول وإغلاقها وموتها فى النهاية . .

ولا يقبل الإسلام رجالا ماتت عقولهم أو تحجرت أو تخلفت . . الإسلام أصلا تعامل مباشر مع العقل والقلب . .

أقيمت دولة الإسلام على الشورى . . قال عز وجل :

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾(١) . .

والشورى هى الديمقراطية باصطلاحها السياسى الحديث ، ولم يبين الإسلام شكل هذه الديمقراطية أو نوعها أو درجاتها ، ترك هذا كله لعقول المسلمين واعتبارات الزمان والمكان . . نزل الدستور الأساسى وهو القرآن بالشورى . .

والشورى هى تمثيل الأمة وحكمها لنفسها فى كل منطقة . . باستثناء منطقة النصوص الحاكمة التى نزل بها الوحى أو حدث عنها الرسول . . هذه المنطقة يحكم فيها الله وحده . . وما عداها يحكمها الناس فهم أعرف بشئون دنياهم ومصالحهم واعتبارات الزمان . .

ومع قيمة العمل والحب والحرية والشورى . . ، تجىء قيمة الجهاد تتويجا لهذا كله . .

والجهاد فى الإسلام نوعان : جهاد أكبر . . وهو جهاد النفس لنوازعها ورغباتها وشهواتها . .

وجهاد أصغر . . وهو جهاد العدو ، والإعداد له ، والتفوق عليه ، والأخذ بالأسباب . .

وتحكم النصوص الإلهية الجهادين معا بأن يكونا فى سبيل الله عز وجل . .

ولقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأكبر ثلاثة عشر عاما فى مكة . . وحين انتهى من صنع المسلمين على عينه ، صلى الله عليه وسلم . . بدأ جهاده الأصغر . . ولقد كان جهاده الأصغر سلسلة من المعارك الدامية العظيمة التى انتهت بانتصار الإسلام وانتشاره . . ولقد كان صعبا على عروش الكراهية المنتشرة فى الجزيرة العربية أن تحتمل دولة الحب والحق التى قامت فى المدينة . .

وهكذا تغير المنظر ، واضطر الرسول الرحيم المسالم إلى أن يحمل سيفه ويرتدى

---

(١) من الآية ١٥٩ سورة آل عمران مدنية .

درعه ويستعين بالقوة دفاعا عن حق دولة الحب الإلهى فى البقاء وسط دول الكراهية العديدة المنتشرة . . وبدأت المعارك بين المشركين والمؤمنين . .

كان عدد الكافرين والمشركين كبيرا . . وكان الذين آمنوا قلة ، وثار غبار المعارك ، واختلطت الرمال بالعرق بتطاير السهام ، وانعقدت سحائب الموت ، وحطت طيور الرعب ، وسالت الدماء ، وانكسرت أسنان النبى فى إحدى المعارك ، وجرح رأسه الشريف فوقف يحارب ودمه ينزف دفاعا عن حق الإنسان فى الإيمان بالله . .

ورغم كثرة الكافرين وقلة المؤمنين . . انهزمت الكثرة . .

انهزمت طبقا لقانون إلهى قديم يقضى بأن يغلب الله تعالى ، ويغلب رسل الله تعالى ، ويغلب أكثر الفريقين إيمانا بالله تعالى ، وأخذا بأسباب النصر . .

ويثبت علماؤنا اليوم ، أن الحروب التى اشتبك فيها الإسلام ، على عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، كانت فريضة لحماية الحق ، ورد المظالم ، وقمع العدوان ، وكسر الجبابرة . بعد ذلك كانت حروب الإسلام لتحرير رقاب العبيد والمضطهدين ، وليس يضير الإسلام أن يسخره أحد الحكام لإرواء شهوة الفتح . . يضير ذلك من استخدم الإسلام ، بدلا من أن يستخدمه الإسلام . .

ذلك أن الإسلام يستخدم الناس حين يستخدمهم ـ لا للفتح المجرد ـ وإنما للتحرير الذى ينطوى عليه الفتح . لا للاستعمار ، وإنما للهدى ، لا لإضافة قيود جديدة إلى قيود الناس ، وإنما لفك قيودهم جميعا .

ذلك كان نوع حروب الإسلام بعد موته صلى الله عليه وسلم . . أما فى حياته ، فقد كانت حروبه كلها ردا للسيوف أن تهوى على رقاب نساء وأطفال ورجال يؤمنون بأحدية الخالق وحب الكائنات . .

ها هى ذى أولى المعارك الفاصلة فى الإسلام . . معركة « بدر » . .

ترامت الأنباء إلى المدينة بأن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشارف الشام عائدة إلى مكة ، تحمل لأهلها ثروة طائلة . . ألف بعير محملة بالأموال ، يقودها أبو سفيان بن حرب مع رجال لا يزيد عددهم على الأربعين . . أى خسارة تنزل بالمعتدين من أهل مكة لو أسر المسلمون هذه القافلة ؟ خرج أول جيش من جيوش المسلمين . . يقوده محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم . . كان عدد الجيش ٣١٧ رجلا ، ستة وثمانين رجلا من المهاجرين ومائتين وواحدا وثلاثين من الأنصار ، وكان بين الأنصار مائة وسبعون من الخزرج ، وواحد وستون من الأوس . .

وكان جيش المسلمين فقيرا يثير فقره الدهشة ، مجهداً يثير إجهاده الإشفاق ، ضعيفا بمقاييس البشر . كان كل ثلاثة من المقاتلين فى جيش المسلمين يتناوبون على بعير واحد

يركبونه . . وكانت المسافة بين المدينة وبدر تزيد على مائتى كيلو متر بطريق القوافل القديم . . وسار هذا الجيش لاعتراض القافلة ، فأفلتت القافلة منه . . استطاع أبو سفيان أن يغير طريق قافلته وينجو بها ، وأرسل إلى مكة يدعو قريشا إلى قتال المسلمين . .

وخرج من مكة جيش يضم ألف صنديد من صناديد قريش . . ورغم أن المسلمين خرجوا لغير هذا الجيش ، فقد احتملوا التحدى ، وساروا للقتال . .

قال تعالى فى سورة (الأنفال) :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾(١) . .

كان المسلمون ، لفقرهم وحاجتهم وظروفهم الاقتصادية القاسية ، يودون أن يلتقوا بغير ذات الشوكة ، يودون أن يلتقوا بالقافلة الغنية لا الجيش المدجج بالسلاح . . كانوا فى حاجة إلى المال لنشر دعوتهم ، وأراد الله بوضعهم وجها لوجه أمام جيش الكافرين ، أن يقطع دابر الكافرين ويحق الحق . .

خرج المسلمون فى معركة بدر ، تحت تصور أنهم فى طريقهم لنزهة حربية تسفر عن ضربة اقتصادية خاطفة تنزل بمكة وتثرى المدينة . . فأراد الله أن تكون معركة شاقة تسفر عن تطهير مكة من رءوس الكفر فيها ، ولتحتمل المدينة فقرها ، فليس الإسلام مغانم ، إنما هو مغارم ، ليس أخذا وإنما هو عطاء . .

ولقد أدرك النبى - كقائد عسكرى - أن عليه أن ينبه جيشه إلى أن ما سيلقاه من مشقة وعنت ، لا يشبه الأمر اليسير الذى خرج من أجله . .

واستشار النبى ، صلى الله عليه وسلم الناس . .

وتحدث أبو بكر الصديق . . وتحدث عمر . . وتحدث المقداد بن عمرو . . واتفقت أقوالهم على المضى فى القتال . . مهما تكن النتائج أو التضحيات . .

وعاد الرسول يقول : أيها الناس . . أشيروا على .

كان الرسول يقصد الأنصار . . كان يخشى أن يكونوا قد فهموا البيعة بينه وبينهم على حمايته إذا هوجم فى المدينة فقط . . ولقد كانت نصوص البيعة فعلا تؤيد ذلك . .

---

(١) الآية ٧ من سورة الأنفال مدنية .

ألم يقولوا له : « يا رسول الله ، إنا براء من ذمامك (لسنا مسئولين عنك) حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت فى ذمتنا » . . وكان معظم الجيش من الأنصار . . وأراد الرسول أن يعرف قرار أغلبية الجند قبل بدء المعركة . . وأدرك الأنصار أن الرسول يريد رأى الأنصار . . قال سعد بن عوف : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . . قال النبى : نعم . .

وتحدث الأنصار . . ذهبت مخاوف النبى بعد حديثهم، وأشرق وجهه . . لقد رباهم على الإسلام ، والإسلام لا يعرف نصوص المعاهدات ، وإنما يغوص لروحها وعمقها البعيد . . أفهم الأنصار النبى أنهم يؤمنون به ويحبونه ويسمعون له ويطيعون . .

قال سعد بن معاذ : امض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك . . فو الذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد . .

انتهى الأمر . . وحسمت هذه الكلمات مصير معركة من أخطر معارك الإسلام . .

لقد كان شعور الأنصار والمهاجرين فى جيش الرسول يختلف تماما عن شعور قوم موسى حين قالوا له :

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[1] . .

كان شعور المسلمين أن الرسول لو أمرهم باجتياز البحر سيرا على أمواجه لفعلوا وغرقوا وماتوا ، ما تخلف منهم رجل واحد . .

انتهى الأمر وتأهب المسلمون لخوض المعركة . . وعسكروا فى مكان وقع عليه اختيار الرسول . .

وقد ترك الله عز وجل رسوله يخطئ فى اختيار المكان ليشرع للمسلمين قاعدة مهمة من قواعد القتال ، وهى نزول قائد الجيش على رأى الخبرة . .

جاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يسأله : أهذا الموقع الذى نعسكر فيه اختيار من الله ورسوله ، وليس لنا أن نتقدم عنه ولا نتأخر ؟ . . أم أن الأمر هو أمر الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال الرسول : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . .

قال الحباب : يا رسول الله . . إن هذا ليس بموقع . .

---

(١) الآية ٢٤ من سورة المائدة .

واختار الخبير موقعا يشرب فيه جيش المدينة ولا يشرب جيش مكة . .

وتحول الجيش إلى الموقع الذى حددته الخبرة العسكرية . .

ووصل جيش مكة . . كان عدده يقترب من ألف جندى يواجهون ٣١٧ مسلما . .

وعسكر جيش قريش فى العدوة القصوى من الوادى . .

كان جيش الكافرين فى بدر يضم سادة قريش وأبطالها وفلذات أكبادها المحاربين . .

وكان جيش المسلمين فى بدر يضم أقارب وأصهارا لجيش العدو . . ولقد قدر الله تعالى أن يلتقى الابن بأبيه . . والأخ بأخيه . . وزوج الابنة بوالد زوجته . . فصلت بينهم المبادئ ، فحكمت بينهم السيوف . . انتهى الأمر وشيعت معركة بدر أخوة الدم إلى مثواها الأخير ، وأرست قاعدة رئيسية ومهمة هى أخوة العقيدة الإسلامية . .

وعلى حين كان جيش المسلمين متماسكا يلتئم جسده على روح الإسلام ، كان جيش الكافرين منشقا على نفسه ، وإن أخفى انشقاقه بادعاء الشجاعة . .

وقف عتبة بن ربيعة خطيبا فى جيش مكة يدعو إلى الانسحاب قائلا بتحكيم العقل :

- يا معشر قريش . . إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه ، لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه لأنه قتل ابن عمه أوابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب . . فإن أصابوه فذلك الذى أردتم . . وإن كان كان غير ذلك ألفاكم سالمتموه .

كانت هذه الكلمات العاقلة الحكيمة أول شرخ فى جيش مكة . . إن عددا من الجيش كان مقتنعا بانعدام جدوى المعركة ، ولن يكون قتال هؤلاء قتالا حقيقيا . . وأخمدت أصوات السفه هذه الكلمة العاقلة . . واتهم أبو جهل قائلها بالخوف . . وأثار باتهامه حماس القائل، فرجع عن رأيه وقرر قتال المسلمين . .

ولقد كان قائد الجيش المهاجم . . وهو أبو جهل . . يعلم أن محمدا لا يكذب . .

تروى كتب المؤرخين أن الأخنس بن شريف خلا بأبى جهل فى بدر قبل نشوب المعركة وسأله : يا أبا الحكم . . أترى محمدا يكذب ؟

قال أبو جهل : كيف يكذب على الله ، وقد كنا نسميه الأمين؟ ! ولكن إذا اجتمعت فى بنى عبد مناف السقاية والرفادة والحجابة والمشورة ، ثم تكون فيهم النبوة ، فأى شىء بقى لنا؟ ليست الحرب تكذيبا للرسول، وإنما هى حماية للمصالح الحاكمة و الوضع الاقتصادى . .

و هكذا وقف الكافرون يدافعون عن أدنى قيم الأرض التى تشترك معهم فيها الدواب ، ووقف المسلمون يدافعون عن أرفع قيم الأرض و السماء التى تشترك معهم فيها الملائكة . .

و جاء الليل على الجيشين . .

ثلاثمائة جندى مؤمن على التقريب فى مواجهة ألف جندى مشرك . .

كل المشركين جاءوا راكبين مسلحين . . و كل ثلاثة مسلمين جاءوا على دابة . .

ثياب المشركين جديدة وسيوفهم مصقولة ودروعهم تلمع ، و تسليحهم متفوق، و عتادهم هائل ، و ثياب المسلمين بالية ، و سيوفهم قديمة ، و دروعهم ليست سابغة . .

نظر النبى إلى جيشه فرق قلبه لمرأى الجيش و دعا ربه بقوله : اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم . .

و تسلل النوم إلى الجفون يحمل الراحة للأجساد المتعبة . . و تساقط أثناء الليل مطر خفيف رطب الجو حول المسلين ، و تماسك الرمل تحت أقدامهم ، و صارت حركتهم عليه ميسرة ، و غسل المطر الخفيف تراب السفر و غبار التعب ، وطهر القلوب ، وربط عليها بالثقة فى نصر الله .

قال تعالى :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾(١) . .

و جاء الصباح على بدر . . بدأ جيش قريش بالهجوم . . و أمر النبى جيش المسلمين بالدفاع . . قال صلى الله عليه و سلم : « إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل ، و لا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا » . .

كان هذا القرار العسكرى الحكيم يعنى أن يتحصن المسلمون فى أماكنهم ، لتحميل المشركين عبء الهجوم بخسائره المتوقعة ، و نحن نعلم من العلوم العسكرية اليوم ، أن المهاجم يحتاج عادة إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف العدد الثابت المحصن الذى يهاجمه ليكون هجومه فعالاً . . و لقد كان جيش المشركين ثلاثة جنود مقابل كل جندى

---

(١) الآية ١١ سورة الأنفال مدنية .

مسلم . . العدد المطلوب للنصر عند المشركين موجود ، و تسليح المشركين أفضل من تسليح المسلمين ، و عدد المطايا التى يركبها المشركون هى نفسها عددهم ، وثلثا الجيش الإسلامى يحارب على أقدامه ، الموقف فى صالح المشركين تماما ، و النذر و الدلائل كلها تعقد النصر للواء المشركين ، غير أن كسب الحروب ليس رهنا بضخامة العدد و تفوق التسليح و القوة الظاهرة . . أحيانا يكسب المعركة عنصر معنوى غير مرئى . إن روح الجندى المعنوية ، وإيمانه بالقضية التى يدافع عنها ، ورغبته فى إحدى الحسنيين ، النصر أو الموت ، و تهافته على الشهادة ، و هزيمته لروح الخوف داخله . . هذا كله يمكن أن يحول الجندى إلى مخلوق غير قابل للهزيمة . .

قابل للموت . . وإن استعصى على الهزيمة . .

و كذلك كان جيش المسلمين . .

انعقد الغبار فوق رءوس المقاتلين . . و بذل المسلمون جهدا فوق طاقة البشر . . و حين التحم الجيشان و نظر النبى ، صلى الله عليه و سلم ، فرأى جيشه يذوب بعدده القليل وسط السلاح الكافر . . عندئذ استغاث النبى ربه :

اللهم نصرك . . اللهم أنجز لى ماوعدتنى . .

اللهم إن تهلك هذه الجماعة لا تعبد بعدها فى الأرض . .

تأمل هموم النبى ساعة المعركة تفهم لماذا انتصر جيشه . .

إن قائد الجيش الأعلى ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه و سلم ، خرج يقاتل فى سبيل الله . .

وها هو ذا الموت يحدق بالمسلمين . . فيم يفكر النبى فى هذا الموقف العصيب ؟ . . إن تفكيره يتعدى الحاضر و يتجاوزه إلى المستقبل ، ليتوقف عند شىء واحد . . أن يعبد الله فى الأرض : «اللهم إن تهلك هذه الجماعة لا تعبد بعدها فى الأرض » . .

ليس النبى مشفقًا على هلاك المسلمين و هلاكه ، لأنهم سيخسرون الحياة ، إنما هو مشفق أعظم الإشفاق ، خائف أشد الخوف ألا يعبد الله تعالى بعدها فى الأرض . . وكأن الرسول يستغيث به ، محاولا تذكير ربه سبحانه و تعالى بما الله أعلم به . .

عند هذه الدرجة من درجات التجرد . . تنزل الملائكة يقودها جبريل عليه السلام .

قال تعالى فى سورة [الأنفال] :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ

مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .(١)

أغمض النبى لحظة فى عريشه الذى يقود منه المعركة ثم انتبه يقول لأبى بكر :

ـ أبشر يا أبا بكر . . أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع .

كان نزول الملائكة تثبيتا للمسلمين و بشرى لهم . ولم يكن معجزة تعنى اشتراك الملائكة فى القتال . تؤكد النصوص أن دور الملائكة لم يزد على دور البشارة والتأييد المعنوى و ملء القلوب بالطمأنينة . و نحسب أن الله عز و جل أراد أن يشهد ملائكة الله ملائكة البشر و هم يدافعون عن عقيدة التوحيد . و هكذا أوحى الله إلى الملائكة أنه معهم ، فليثبتوا الذين آمنوا إذن ، وسوف يلقى الحق فى قلوب الذين كفروا الرعب . فليضرب المسلمون فوق الاعناق والأيدى . و لينتصروا لله .

قال تعالى فى سورة [الأنفال] :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢).

وتساقطت سيوف الإسلام كالمطر على وجوه الكافرين و رقابهم . و انكسر جيش مكة ، وبدأ الرعب يسلم الأقدام للرياح . و انجلت المعركة عن سبعين قتيلاً من الكافرين ، و سبعين أسيرا منهم ، و فرار بقية الجيش . .

سقط سادة البغضاء و ملوك الظلام فى المعركة . سقط أبو جهل قائد الجيش ، و أصيبت مكة فى أبطالها إصابة قاتلة . ووقف رسول الله صلى الله عليه و سلم على جثث القتلى من الكافرين بعد أن طرحوا فى القليب يقول : يأهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام . هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا .

قال المسلمون : يا رسول الله . أتنادى قوما جيفوا ؟!

---

(١) الأيتان ٩ ، ١٠ سورة الأنفال مدنية .

(٢) الآيات ١٢ ـ ١٤ سورة الأنفال.

قال : ما أنتم بأعلم لما أقول منهم، و لكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى .

و انتهى اليوم السابع عشر من رمضان لسنتين خلتا من الهجرة .

مكث النبى صلى الله عليه و سلم ثلاث ليال فى بدر . . ثم قفل عائدًا إلى المدينة، يسوق أمامه الأسرى و الغنائم . وحوسب المسلمون حسابا عسيرا على إبقائهم على حياة الأسرى .

فى البدء استشار رسول الله صلى الله عليه و سلم أبا بكر و عمر . .

قال أبو بكر : يا رسول الله . ، هؤلاء بنو العم و العشيرة و الإخوان . و إنى أرى أن تأخذ منهم الفدية . فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار . و عسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضدا .

والتفت الرسول إلى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قائلاً :

ـ ما ترى يا بن الخطاب ؟

قال الرجل العظيم : و الله ما أرى ما رأى أبو بكر . و لكن أرى أن تمكننى من قريب لى فأضرب عنقه ، و تمكن عليا من قريبه فيضرب عنقه . و تمكن حمزة من قريبه فيضرب عنقه . . حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين، و هؤلاء صناديدهم و أئمتهم وقادتهم .

كان جيش المدينة و جيش مكة يضمان عائلات تربط بينها القرابة ، و شاءت الأقدار العليا أن يقع القتل بين الأخ و أخيه ، و الابن ووالده . . و كان عمر يريد أن يستمر هذا الحسم ليعلم المشركون أن الإسلام لن يعود إلى المهادنة أو السلام .

انتهى الأمر و نشبت الحرب فى سبيل الله . . و صار حمل السلاح و القتال واجبا لا تردد فيه و لا رجوع عنه .

و التفت النبى إلى المسلمين فوجدهم يميلون إلى رأى أبو بكر ، و كان يمثل الأغلبية . . ونزل النبى صلى الله عليه و سلم على رأى الأغلبية . . و كانت الأغلبية على الخطإ . . و كان عمر وحده على الحق . .

أدرك عمر ببصيرته كجندى رباه رسول الله صلى الله عليه و سلم ، كما أدرك بنظرته الإستراتيجية البعيدة، أن الموقف ليس موقف مفاضلة بين رقاب الأسرى وثرواتهم التى يمكن لأهلهم أن يفتدوهم بها . . أدرك أن الموقف يتجاوز هذا بكثير .

هذه أول معركة يخوضها الإسلام ، و ينبغى على المسلمين أن يتجردوا فيها من كل الدوافع الإنسانية ، باستثناء إلقاء الرعب فى قلوب الكافرين . . أى قتلهم جميعا ، ليعلم أعداء الله أن الإسلام قد اختار الدم .

و لقد أيد الله تعالى عمر بن الخطاب فى محكم كتابه ، و بكى النبى وبكى أبو بكر حين أدركا خطأهما فى اليوم التالى . و دخل عليهماعمر بن الخطاب فرآهما يبكيان ، وتساءل : ما الذى يبكى رسول الله صلى الله عليه و سلم وصاحبه فى الغار ؟

وتلا عليه الرسول تنزيل الحق عز و جل :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١) .

تقول الآيتان إن هذا ليس أوان الاحتفاظ بالأسر ى وافتدائهم ، لم يحن الوقت لذلك بعد . لا يصح أن يكون للنبى أسرى إلا إذا حارب كثيراً وجاهد كثيراً وقاتل كثيراً و أثخن فى الأرض و استقرت دعوته . . أما فى بداية الحرب فلا . .

كشفت الآياتان عن الهدف من وراء افتداء الأسرى صراحة بقول الحق عز و جل :

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾(٢) .

هذا تفكير ينظر للظروف الحالية الصعبة فحسب ، هو تفكير تكتيكى كما نقول بالاصطلاح الحديث ، و ليس تفكيراً إستراتيجيا . ثم إن هؤلاء الأسرى ليسوا أسرى عاديين ، و إنما بالاصطلاح الحديث مجرمو حرب عتاة . . ينبغى إزهاق أرواحهم عند التمكن من رقابهم ، وليكن ما يكون من ثرائهم أو جاههم . . إن الإسلام لا يعترف بالثراء أو الجاه . لايعترف الإسلام إلا بالإيمان ، و لا يقيم وزنا لما عداه من قيم دنيوية زائلة .

و يمضى النص القرآنى فينبه المنتصرين إلى أن خطأهم يستحق عقوبة سامح الله فيها لسبق رحمته وعظيم غفرانه .

﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٣) .

كان العذاب أقرب إليهم من هذه الشجرة القريبة . . ثم سامح الله وعفا . . اطلع على أهل بدر فغفر لهم ما تأخر وما تقدم من ذنوبهم . وكذلك كان القرآن يربى المسلمين على التجرد . .

---

(١) الأيتان ٦٧ ، ٦٨ سورة الأنفال مدنية . (٢) من الآية ٦٧ سورة الأنفال مدنية .

(٣) الآية ٦٨ من نفس السورة .

انتهى الأمر وبدأ الإسلام حروبه . . و هى حروب ينبغى أن تتجرد لله عز وجل وحده ، وينبغى أن ترتفع على دواعى اللحظات الصعبة و مقتضيات الحاضر البائس ولسوف يعلم أتباع النبى فيما بعد أن أى ميل من جانبهم لأعراض الدنيا الزائلة، يعنى وقوع العقوبة والهزيمة بهم . فى معركة أحد . . كان عدد المشركين ثلاثه آلاف . . وكان عدد المسلمين سبعمائة بعد أن انسحب منهم رأس النفاق عبد الله بن أبى . . و عسكر المسلمون جاعلين ظهرهم إلى الجبل . . ورسم النبى صلى الله عليه و سلم خطة لكسب المعركة ، فوزع الرماة لحماية ظهر المسلمين و وضعهم على الجبل . . و أمرهم أن يدفعوا الخيل عن جيش المسلين بالسهام ، حتى لا يهاجم المسلمون من الخلف . . وأفهم الرسول هؤلاء الرماة أن يثبتوا فى أماكنهم مهما يكن سير المعركة . ليكن النصر أو الهزيمة للمسلمين، هذا أمر لا يعنى الرماة . . عليهم أن يلزموا أماكنهم لتأمين ظهر المسلمين . قال صلى الله عليه و سلم : «احموا ظهورنا . إن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا . وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا » .

بعد هذا التأمين الحكيم لظهر الجيش ، انصرف النبى إلى مقدمة جيشه ، و بدأ يرسم لقلب الهجوم مهمته و أسلوبه وواجباته .

و بدأت الحرب . واندفع جند الإسلام كإعصار يخترق قلب ثلاثة آلاف مشرك .

وأظهرت المراحل الأولى من سير القتال اكتساح المسلمين للمشركين . قاتل جيش مكة قتالا يائسًا ، و كان متفوقًا فى العدد أربعة أضعاف، و رغم التفوق العددى و التسليح ، فوجئ الجيش بأن المسلمين يقاتلون قتالا لا سبيل معه لنصر أو صمود أمامهم .

وبدأ غبار المعركة يسفر عن تمزق جيش مكة و بداية فراره .

و فكر الرماة الذين وضعهم رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الغنائم . . لقد انهزم جيش مكة، وبدأ يعطى ظهره للمسلمين ويعدو . . ماذا لو نزل الرماة من أماكنهم لجمع الأسلاب والغنائم؟ لقد حذرهم الرسول من مغادرة أماكنهم مهما تكن الأسباب . . و عصى الرماة القائد الأعلى بعد أن تصوروا أن المعركة قد انتهت لصالح جيش المدينة المؤمن .

ظن الرماة أن الله سيستر خطأهم و يحمى ظهورهم حتى ينتهوا من أخذ الأسلاب والغنائم . انسحب التجرد من قلوب بعض الجنود . .

لم يكد هذا الأمر يقع . . حتى وقع تحول خاطف فى سير المعركة .

كان قائد فرسان المشركين فى معركة أحد هو خالد بن الوليد . . سيف الله العظيم فيما بعد . . وأحد المسلمين الكبار فيما بعد . . وخالد بن الوليد عبقرية عسكرية من

نوع نادر . . لم يكد يلاحظ نزول الرماة من أماكنهم ، حتى رأى ظهر المسلمين مكشوفًا، فاستدار بالخيل وانحدر على المسلمين من حيث لا يتوقعون .

و انحدرت ضربة خالد عنيفة مفاجئة . و اغتنم المشركون الفرصة فانكفئوا من الفرار إلى الهجوم . و حوصر جيش المسلمين بين فرسان يضربونه فى ظهره . . و فرسان يضربونه فى صدره . و ارتفع عدد القتلى فى جيش محمد بن عبد الله صلى الله عليه و سلم .

استشهد كثيرون و هم يدافعون عن النبى و يحاولون حمايته . وأصيب النبى فانكسر أنفه وتحطمت رَباعيته . و أصاب رأسه الشريف جرح فتفجر منه الدم . . و انطلقت الشائعات بأن محمدا قد قتل . . وأثقل أيدى المسلمين حزن غامر لما يسمعونه . . وتفرق المسلمون فعاد بعضهم إلى المدينة و انطلقت طائفة فوق الجبل و ثبت حول النبى أكرم جنده . . و صرخ أنس ابن النضر حين سمع عن موت النبى قائلا لقومه : قوموا فموتوا على ما مات عليه . . ما تصنعون بالحياة بعده ؟!

وراح جيش المسلمين يتماسك و يقاتل . . واشتد ضغط المشركين على النبى و صحابته وجنده . و مرت ساعات من أحرج ساعات التاريخ . . و صاح النبى و هو يرى انحدار المشركين عليه وإرهاقهم له و محاولتهم قتله : من يردهم عنى وله الجنة؟

و التف المسلمون حول رسولهم واستشهد منهم خلق كثير، وصنع أبو دجانة من ظهره درعًا يقى بها ظهر النبى صلى الله عليه وسلم . . فكانت السهام تقع فى جسده وهوثابت يدافع عن الرسول .

وانقلب الموقف نتيجة لهذا القتال الباسل الذى أداره المسلمون . واكتفى جيش مكة بما حصل عليه وآثر الانسحاب، ولم تكن قريش أقل من المسلمين معاناة لأهوال هذا اليوم .

أسفرت المعركة عن انسحاب المشركين بعد أن قتلوا عديدًا من المسلمين وجرحوا قائد الجيش الأعلى صلى الله عليه و سلم .

وقع هذا كله بسبب خطأ واحد . تمثل هذا الخطأ فى عصيان الرماة لأمر الرسول، و مغادرتهم لأماكنهم .

حين قلت نسبة التجرد والفداء فى قلوب المسلمين . . دفع أشجع الرجال وأفضلهم من دمائهم ثمن هذا الخطإ. لم تحاب السماء أحدًا من المسلمين . لم تتدخل السماء لإنقاذ ظهر الجيش الإسلامى المكشوف .

أخطأ المسلمون فدفع رسولهم ثمن خطئهم .

أصيب فى وجهه، ونزف الدم بغزارة من جراحه ، كلما سكب الماء على الجرح ازداد تدفقًا . . لم يتوقف النزيف إلا بعد أن أحرقت قطعة من حصير فألصقت به .

لم تكن كل جراح النبى مادية . . زادت الجراح المعنوية فى ألمه صلى الله عليه وسلم .

أصيب فى أعز أهله إلى قلبه، استشهد عمه حمزة وجاءت امرأة أبى سفيان فشقت بطنه واستخرجت كبده ومضغتها بفمها . .

مثلت قريش بجيش المسلمين . . وأصابت منهم ما تحب، ولولا رحمة الله تعالى لانهزم المسلمون . ونزلت آيات الكتاب الحكيم تربى المسلمين على التجرد المطلق والإخلاص الكامل، وتفهمهم أن هزيمتهم نبعت لأن جيشهم كان يضم من يريد الدنيا ، رغم أن فيه من يريد الآخرة، وليس هذا هو الطريق للنصر . . ليس هذا هو الأمل المتوقع من جيش المسلمين، المفروض أن يتجرد الجيش كله لله، أن يريد كله الآخرة . . ساعتها يؤتيه الله ثواب الدنيا والآخرة .

قال تعالى تعليقا على معركة أحد فى سورة [آل العمران] :

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) .

عفا الله تعالى عن الخطإ . . واستدار المسلمون يحصون قتلاهم ويضمدون جراحهم . . وتساءل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمه حمزة . . فلما رآه فى القتلى وقد مثل الكافرون بجسده، قال وهو يبكى : لن أصاب بمثلك أبدا . .

ثم وقف صلى الله عليه وسلم وأثنى على ربه عز وجل . وأمر برد القتلى من المسلمين إلى مضاجعهم التى قتلوا فيها، وكان أهلهم قد حملوهم إلى المقابر . . وراح النبى يجمع بين الرجلين من قتلى «أحد» فى ثوب واحد .

ثم يسأل : أيهما أكثر أخذا للقرآن . . ؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدمه فى اللحد . . وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصل عليهم ولم يغسلهم .

وأراه الله تعالى كيف يبعثون يوم القيامة ، فحدث الناس قائلا :

- ما من جريح فى سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة ينزف جرحه . اللون لون الدم . والريح ريح المسك .

---

(١) من الآية ١٥٢ سورة آل عمران مدنية .

لم يكن الألم العميق هو الدرس الذى وعاه المسلمون من معركة أحد . جزاء سريعا لعصيانهم أمر الرسول وعدم طاعته . . إنما تنزل الوحى ببقية الدروس المستفادة ، وكان أخطر هذه الدروس بعد درس الطاعة ، هو بيان المركز الذى يجتمع حوله المسلمون . .

ليس شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المركز الذى يجتمع المسلمون حوله ، فإذا رحل شخصه الكريم لسبب من الأسباب انفض المسلمون وانصرفوا .

لا ينبغى أن يكون «شخص» الرسول هو المركز ، إنما «فكره» هو الأهم والأخطر .

وهكذا عاتب القرآن الكريم من ألقى سلاحه حين انتشرت شائعة قتل النبى صلى الله عليه وسلم . إن الإسلام لا يبلغ منتهاه إذا كان المسلمون سيتجمعون حول الرسول فى حياته ، فإذا مات أو قتل انقلب كل واحد يرمى سلاحه وينصرف لشأنه . المسلمون أتباع مبادئ ، لا أتباع أشخاص .

وليكن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد البشر وإمام المرسلين وخاتم النبين وخير خلق الله . . ليكن هذا كله وأكثر . لا يبرر هذا كله أن يرمى المسلم سلاحه إذا مات الرسول أو قتل . على المسلم أن يحمل سلاحه فلا يرميه من يده إلا فى حالة واحدة من اثنتين . . أن ينتصر أو يموت . قبلها . . لا يكون إلقاؤه للسلاح إلا فراراً من المعركة . .

كان النص القرآنى واضحًا أعظم الوضوح فى ربط المسلمين بعقيدة الإسلام لا شخص الرسول . قال تعالى تعقيبًا على معركة أحد :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(١) . .

مضت معركة أحد بجراحها الغائرة بعد أن تركت آثارا عميقة فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم . . وهى آثار لازمته إلى آخر عهده بالدنيا . ففى الأحضان القاسية لجبل «أحد» الذى يحرس المدينة ، أودع الرسول أعظم رجال الإسلام وأقربهم من قلبه . كان قتلى أحد هم خلاصة المسلمين وأكثرهم إيمانا ، كانوا هم صفوة الصفوة من المسلمين الأوائل ، حملوا أعباء الدعوة أيام الوحشة الأولى ، وعادوا فى سبيل الله الأقرباء والأصدقاء ، واغتربوا بعقائدهم قبل الهجرة وبعدها ، وأنفقوا وقاتلوا ،

---

(١) الآية ١٤٤ سورة آل عمران مدنية .

وصبروا وصابروا ، وحين جاءت لحظة الخطر الكبرى وأحيط بجيش الإسلام واقتربت السيوف من رسول الله . . صنعوا من دمائهم بحرا أغرق الكافرين وحمى الرسول وغير مجرى المعركة وأنقذ عقيدة التوحيد .

ولم تكن معركة أحد هي أولى تضحيات المسلمين ولا آخر معاركهم . . هي معركة واحدة من المعارك العديدة التي خاضها الإسلام لنشر كلمة الله في الأرض، وتبليغ عباده .

ولم تكن تضحيات الرسول في معركة أحد هي أولى تضحياته للإسلام ولا أخراها ، فقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بعثه إلى الناس حياة لا يملك فيها نفسه، ولا يملك فيها وقته، ولا يملك فيها راحته . . عاش يعطي كل شيء للدعوة . . حارب كل أنواع الحروب، واحتمل كل ألوان الاحتمال، وقاسى العذاب أشكالا وصنوفا . . ولم يكن يفرغ من مشكلة إلا ليواجه أخرى، ولم يكن ينتهي من حل أزمة إلا ليواجه أزمة أخرى . . وهيمن الصراع على حياته صلى الله عليه وسلم، وحكمها منذ البداية إلى النهاية . .

تأمل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من أي زاوية تحبها . . ابدأ دراسته من أي مستوى تختاره . لن تعثر إلا على قصة صراع عظيم .

خاض النبي صراعه العسكري الممثل في عديد من المعارك المتشابكة المتلاحقة ، وخاض النبي صراعه السياسي الممثل في المعاهدات ورسائله لدعوة الملوك والأباطرة ورؤساءالدول حوله إلى الإسلام، وخاض صراعه على المستوى النفسي ومعارك الأعصاب . . ولم تخل حياته الخاصه ولا بيته من الصراع ، وكان المحارب في كل وقت وأي وقت . كان إبراهيم هو المسافر دائما إلى الله، وكان محمد هو المحارب دائما في الله .

لم تكد معركة أحد تنتهي حتى بدأت آثارها السيئة في المسلمين .

تجرأ أعراب البادية عليهم، وتجرأ اليهود عليهم ، وتجرأ المنافقون عليهم . وتجرأت قريش عليهم، وأطلت المخالب التي كانت تخبئ نصالها وراء حرير القفاز . . ونشط النبي لخوض معاركه العسكرية .

وأقبلت السنة الرابعة للهجرة ، والمسلمون لم يبرءوا بعد من جراحهم في أحد . وحملت الرياح أنباء عن استعداد قبيلة بني أسد لغزو المدينة، وباغتهم جيش صغير أرسله النبي لديارهم قبل أن يتحركوا . أيضا وضع الإسلام حدا لحياة رجل كان يحشد الأعراب لحرب المسلمين . ورغم أن الإسلام كان يرفع سيفه تحت ضوء الشمس،

ويقاتل به فى وضوح النهار وبشرف، رغم ذلك تعرض المسلمون لحملة اغتيالات كانت تطعن فى الظهر بخسة، وتدارى إثمها الغادر بابتسمات النفاق .

جاء وفد من قبائل الأعراب إلى الرسول يحدثه أنهم سمعوا عن الإسلام ويريدون اعتناقه، فليرسل معهم عددا من الدعاة لتعليمهم أصول الدين. وأرسل النبى معهم مجموعة من الدعاة يرأسهم عاصم بن ثابت، ووثب الغادرون على رجال الدعوة فقتلوهم، واستسلم للأسر منهم ثلاثة، فبيعوا فى مكة، وكان بيعهم فى مكة يعنى تسليمهم للقتلة المتربصين بهم من قريش . . وقتلت مكة الأسرى الثلاثة . وحزن المسلمون لمصرع رجال الله على هذا النحو الفاجع . وحين جاء إلى النبى من يعرض عليه أن يرسل وفدا من الدعاة لنشر الإسلام بين قبائل نجد، وازن النبى صلى الله عليه وسلم بين عوامل الحذر و الرغبة فى نشر الإسلام . واختار نشر الإسلام، مدركا أنه يبعث رجاله إلى الخطر، ويعرضهم إلى مصير مجهول لايدريه إلا الله . . إلا أن الخطر صار جزءا من مذاق الحياة الذى تعيشه الدعوة الإسلامية . وحين أبدى النبى خشيته على رجال الله وسط قبائل لا يؤمن جانبها، طمأنه السائل أنه سيجيرهم. وأمر النبى سبعين من خيرة رجاله بالخروج فى سبيل الله والدعوة إلى الإسلام .

وخرج من يعرفون باسم «القراء»، هم دعاة من خيرة الدعاة إلى الله، عاشوا حياتهم يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل . فلما جاءهم أمر الرسول بالخروج خرجوا مستبشرين أنهم يدعون إلى الجهاد فى سبيل الله . . وحثوا الخطى الواثقة فى أرض المنافقين والغادرين حتى وصلوا بئرمعونة . . وبعثوا أحدهم إلى رأس الكفر فى هذه البقاع . . ومد الداعية إلى الله يده بكتاب النبى وهو يرجو إسلام القوم فى نفسه .

فوجئ بالطعنة الغادرة تخترق ظهره لينفذ النصل من صدره . . صاح الداعية إلى الله وهو يسقط : فزت ورب الكعبة .

وحمل رأس الكفر سلاحه وضم قبائل الغادرين وانقضوا على الدعاة إلى الله .

واستشهد خلاصة الدعاة إلى الله فى بئرمعونة . . صارت أجسادهم طعاما للنسور والطيور الجارحة . . ونجا من السبعين رجل واحد عاد إلى النبى يقص عليه ما لقيه فقهاء المسلمين وخيارهم من غدر. وأطرق النبى برأسه وهويسمع أخبار الكارثة . . ثم رفع رأسه وقال للناس : إن أصحابكم أصيبوا . . وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا .

كانت محنة الإسلام قاسية فيمن أدركتهم الشهادة فى بئر معونة . ولقد حزن النبى لاجتراء الأعراب والكافرين على الإسلام، وأثاره أن يستهين المجرمون بالمؤمنين لهذا

الحد، وقرر أن يلجأ إلى العنف ويستعيد للإسلام هيبته. وفى هذه الظروف، تحركت يهود لاغتيال رسول الله. ذهب إلى بنى النضير لشأن من شئون الحياة، فأظهروا الرضا لما يقوله، وأجلسوه فى ظل حصن من حصونهم، وتآمروا عليه، وقرروا إلقاء صخرة ثقيلة فوقه وهو لا يتوقع شرا. . وألهم الله رسوله الخطر، فنهض قبل نفاذ الكيد وانصرف مسرعا إلى بيته . . كان يفكر وهو عائد فى همومه الجديدة . .

لن يوقف هذا الغدر غير عنف عسكرى سريع من الإسلام، يسترد به هيبته، ويرد عنه الأيدى التى تقتل فى الظلام وتصطاد أرواح رجال الله غيلة. وأرسل الرسول إلى بنى النضيرىأمرهم أن يخرجوا من المدينة، وأجلهم رسول الله عشرة أيام، واتحد منافقو المدينة مع اليهود واتفقوا على قتال الإسلام معا. وقاتل الإسلام وانهزم اليهود، نزلوا على حكم الإسلام الذى أجلاهم عن ديارهم، ونزلت سورة الحشر تصف طرد اليهود وتكشف موقف المنافقين. بعد هذا النصر العسكرى الحاسم، خرج النبى صلى الله عليه وسلم ليثأر لأصحابه القراء، ويعيد هيبة الدعوة الإسلامية، واستطاعت هذه الانتصارات العسكرية أن تمزج حياة الغادرين من الأعراب بالرعب، وكان يكفى أن تشى الرياح باسم المسلمين حتى يتحول ذئاب الصحراء السابقين إلى فئران مذعورة تختفى فى رءوس الجبال. وتسامعت قريش بنشاط المسلمين العسكرى، فانسحب جيش قريش وهو يقترب من «الظهران»، وعسكر المسلمون فى «بدر»، ينتظرون اللقاء الذى اتفق عليه فى «أحد». وأوقد المسلمون النار ثمانية أيام تحديا وانتظارا، حتى إذا انصرفوا، كانت سمعتهم قد برئت تماما من غبار معركة أحد.

والتفت المسلمون إلى شمالى الجزيرة بعد تأكيد مهابتهم فى الجنوب. وكانت القبائل حول «دومة الجندل» قريبا من الشام تقطع الطريق هناك، وتنهب من يمر بها، وبلغت جرأتها حدا فكرت معه فى غزو المدينة، ولهذا خرج النبى صلى الله عليه وسلم فى ألف من المسلمين، يختفى بهم نهارا ويسير بهم ليلا، حتى وصلوا بعد خمس عشرة ليلة إلى مضارب خصومهم، فاجتاحوها. وفوجئ الجيش الذى كان يتصور أنه سيغزو المدينة، ولم يدر فى خلده قط أن المدينة هى التى ستنتقل إليه فى مكانه.

ولسوف نحس أن جهاز المعلومات فى جيش رسول الله كان متفوقا، كما كان أسلوب الدفاع متفوقا، ولقد كان هذا الهجوم الخاطف هو أعظم أساليب الدفاع أمنا، كما أن عنصر المفاجأة كان يعنى قدرة الجيش الإسلامى على الاستتار والمباغتة.

ومضت أيام الصراع العسكرى . . لا يكاد النبى يضع درعه ويعاود بناء نفوس المسلمين، حتى تضطره الحياة إلى ارتداء درعه والعودة إلى القتال . .

وحين رأى أعداء الإسلام المحدقون به أن قبضتهم العسكرية حول رقبة الإسلام

تنهار، عمدوا إلى أسلوب جديد فى الحرب . . هو الحرب النفسية وإطلاق الشائعا ، أو ما سماه القرآن الكريم بحادث «الإفك» . .

بعد غزوة بنى المصطلق، وهى غزوة كانت تحمل نصرا سريعا للمسلمين، تشاجر خادمان طائشان من خدم القوم على الماء، فصاح أحدهما: يا للمهاجرين . . وصاح الآخر : يا للأنصار . .

والتقط الحادث التافه أحد رءوس النفاق، وهو عبد الله بن أبى ، فراح يؤجج الأنصار على المهاجرين، ويحاول أن يثير نعرات الجاهلية القديمة التى دفنها الإسلام ، وقال فيما قاله : أو قد فعلوها، نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . .

ونقل زيد بن أرقم كلمة المنافق إلى النبى . . وكانت الكلمة بما تلاها من كلمات تحاول أن تثير الأنصار على المهاجرين وتوقع بينهم وتفتت وحدتهم . . وأسرع المنافق إلى الرسول ينفى ما قاله . . وأخذ المسلمون بالظاهر وصدقوا كلمات المنافق واتهموا سمع الناقل . . غير أن الحقيقة لم تخف على النبى ، صلى الله عليه وسلم، فأحزنه ما حدث ، وأصدر أمره بالرحيل فى ساعة ما كان يسير فى مثلها، ومشى بالناس سائر اليوم حتى سقط الليل عليهم، وسار بهم طيلة الليل حتى أصبحوا، ومعظم يومهم الجديد حتى آذتهم الشمس ثم عسكر بهم . .

ولقد تمخض هذا الرحيل السريع المفاجئ عن أكذوبة نسج خيوطها المنافق عبد الله بن أبى، هى أكذوبة كان هدفها هو نفس هدف الحريق العمد . . حين حاول إشعال النار فى بيت الرسول . . وما دام الرسول قد صار إلى حال من القوة التى تخيف من يحاول هزيمته عسكريا ، أو اغتياله غدرا . . فلا بأس من تجربة الاغتيال النفسى والمعنوى لزوجة من زوجاته وأم للمؤمنين وطفلة تنتسب إليها البراءة أكثر ما تنتسب هى إلى البراءة . .

وكانت عائشة، رضى الله تعالى عنها ، قد خرجت تقضى حاجتها وفى عنقها عقد، فلما فرغت انسل العقد من عنقها وهى لا تدرى ، وحين عادت إلى القافلة كانوا يتهيئون للرحيل، وعادت تبحث عن عقدها حتى وجدته . . وجاء من يحملون هودجها فحملوه وهم يظنون أنها داخله، وشدوه على البعير ولم يراودهم الشك فى أنها لم تكن فيه لنحافتها وخفة وزنها . . وسار جيش النبى وهو يحمل هودج عائشة الخالى . .

عادت هى فاكتشفت أن القوم قد رحلوا . . أصابتها الدهشة لهذا الرحيل السريع، وأدركها الخوف وهى تقف وحدها فى الصحراء . . وتصرفت أفضل تصرف

ممكن . . جلست في مكانها ، حيث كان بعيرها ، والتفت بثيابها وقالت لنفسها : سيكتشف الناس غيابى فيعودون إلى البحث عنى ويجدوننى . .

كان صفوان بن المعطل قد تخلف لبعض حاجته ، فلم يبت مع الناس ، وأقبل يمشى من بعيد فرأى مخلوقا لم يتبينه ، واقترب صفوان فاكتشف أنه يقف أمام عائشة . . وكان يراها قبل أن يضرب على نساء النبى الحجاب . .

قال صفوان حين رآها : إنا لله وإنا إليه راجعون . . زوجة رسول الله . . ما أخرك يرحمك الله . . ؟

لم ترد عائشة . .

تأخر صفوان . . وقرب بعيره إليها وهو يقول : اركبى . .

ركبت عائشة ، رضى الله عنها البعير وأخذ صفوان زمامه وانطلق يطلب الناس . .

كان جيش النبى قد أناخ . . وكان الناس يتصورون أن عائشة فى هودجها ، وفوجئوا بها تدخل عليهم ، وصفوان يقود بعيرها . .

وأسرع رأس النفاق عبد الله بن أبى يستغل فرصته السانحة . . فنسج من هذا المشهد المرئى قصة مختلقة ، تتهم زوجة النبى بالخيانة . .

وكان عبد الله بن أبى قد اختار نفرا من المسلمين استشف فيهم غفلة القلب التى تبلغ حد تصديق الظواهر . . أو أحس أن بينهم وبين عائشة من الحسد ما يثير الرغبة فى نشر الأكاذيب عنها . . وهكذا أوقع رأس النفاق فى حبال أكذوبته حسان بن ثابت ، ومسطح ، وامرأة تدعى حمنة بنت جحش ، وهى أخت زينب بنت جحش زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وانخدع الثلاثة بالأكذوبة ونشروها . وقال أهل الإفك ما قالوا . . وارتج العسكر ، وعائشة لاتدرى شيئا من ذلك . .

ولقد كانت هذه الشائعة تستهدف النيل من الإسلام ، وتجريح رسول الله ، وكانت جزءا من الحرب الضارية ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الإسلام ، وكانت تستهدف إظهار الإسلام بمظهر العقيدة التى يقول أتباعها شيئا ، وهم يتصرفون عكس ما يقولون ، كما كانت ضربة موجهة لنقاء بيت وشرف سيدة . .

عاد الجيش إلى المدينة ، فمرضت عائشة وهى لا تدرى شيئا عما تمضى به الألسنة حولها . . وبلغ الحديث رسول الله ، كما بلغ والدها أبا بكر وأمها . . ولم يذكر أيهما شيئا منه لها . . أيضا لم يحدثها الرسول بما يشاع عنها . . كل ما حدث ، أنه لم يكن يلاطفها كعادته حين تمرض . .

كان إذا دخل عليها وعندها أمها تمرضها قال : كيف تيكم . . ؟ لا يزيد على ذلك . .

وبدأت عائشة، رضى الله تعالى عنها تغضب، حين رأت من جفائه ما رأت . .

قالت له يوما: لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى . .

قال صلى الله عليه وسلم: لا عليك . .

وهكذا انقلبت إلى أمها وهى لا تعلم شيئا . . شفيت من وجعها بعد بضع وعشرين ليلة . . وهى لا تدرى شيئا عما يقال حولها . .

حكت أم المؤمنين عائشة كيف عرفت بحديث الإفك . . وكيف أظهر الله براءتها . . قالت:

كنا قوما عربا، لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها . . إنما كنا نخرج فى فسح المدينة، وكانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن . . فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح. فو الله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت: تعس مسطح! فقلت: بئس - لعمر الله - ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدرا!

قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟ . . قلت: وما الخبر؟ . . فأخبرتنى بالذى كان من أهل الإفك . . قلت: أو قد كان هذا؟

قالت: نعم . . والله لقد كان . . . !

قالت عائشة: فو الله ما قدرت على أن أقضى حاجتى . . ورجعت، فو الله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى . . وقلت لأمى: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا؟ . .

قالت: أى بنية، خففى عنك، فو الله لقل ما كانت امرأة حسناء، عند رجل يحبها، ولها ضرائر، إلا أكثرن وأكثر الناس عليها . .

قالت: وقد قام رسول الله، صلى الله عليه وسلم فخطبهم ولا أعلم بذلك - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق؟ . . والله ما علمت عليهم إلا خيرا . . ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا . . ولا يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى . . قالت: وكان كبر ذلك عند «عبد الله بن أبى» فى رجال من الخزرج . . مع الذى قال «مسطح» و «حمنة بنت جحش» . . وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تكن امرأة من نسائه تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها . . فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرا . . وأما «حمنة» فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارنى بأختها . . فلما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله،

إن يكونوا من « الأوس » نكفكهم ، وإن يكونوا من إخواننا « الخزرج » فمرنا أمرك . . فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم . . فقام سعد بن عبادة ـ وكان قبل ذلك يراه رجلا صالحا ـ فقال كذبت لعمر الله ، ما تضرب أعناقهم . . إنك ما قلت هذه المقالة إلا وقد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . .

فقال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين . .

وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين شر ، ونزل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليّ ، ودعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد ، فاستشارهما ، فأما «أسامة» فأثنى خيرا ثم قال يا رسول الله . . أهلك . . وما نعلم منهم إلا خيرا . . وهذا الكذب والباطل . .

وأما «على» فقال : يا رسول الله . . إن النساء لكثير . . وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها تصدقك . .

فدعا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم «بريرة » يسألها ، وقام إليها «على» فضربها ضربا شديدا وهو يقول : اصدقى رسول الله . . فتقول : والله ما أعلم إلا خيرا . . وما كنت أعيب على عائشة ، إلا أنى كنت أعجن عجينى ، فآمرها أن تحفظه ، ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة وتأكله .

قالت عائشة : ثم دخل على رسول الله وعندى أبواى ، وعندى امرأة من الأنصار ، وأنا أبكى وهى تبكى ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس . . فاتقى الله . . وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس ، فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده . .

قالت : فوالله إن هو إلا أن قال لى ذلك حتى جف دمعى ، فما أحس منه شيئا . . وانتظرت أبوى أن يجيبا عنى فلم يتكلما . .

قالت عائشة : وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأنا من أن يُنزل الله فى قرآنا . . لكنى كنت أرجو أن يرى النبى ، عليه الصلاة والسلام ، فى نومه شيئا يكذب الله به عنى ، لما يعلم من براءتى . . أما قرآنا ينزل فى ، فوالله ، لنفسى أحقر عندى من ذلك . .

قالت : فلما لم أر أبوى يتكلمان ، قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله ، عليه الصلاة والسلام؟ فقالا : والله لا ندرى بم نجيبه . قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ، ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام . . ثم قالت : فلما استعجما على استعبرت فبكيت . ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا ، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ـ والله يعلم أنى منه بريئة ـ لأقولن ما لم يكن . . ولئن أنا أنكرت ما

يقولون لا تصدقوننى . . قالت : ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت : أقول ما قال أبو يوسف :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١) . .

فو الله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسجى بثوبه ووضعت وسادة تحت رأسه . فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فو الله ما فزعت وما باليت ، وقد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى . . وأما أبواى فو الذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن نفساهما فرقا أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس . ثم سرى عن رسول الله فجلس وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان فى يوم شات فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : أبشرى يا عائشة : قد أنزل الله عز وجل براءتك فقلت : الحمد لله . . ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم الآيات :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

وهكذا تنزل الروح الأمين جبريل عليه السلام ببراءة عائشة مما نسب إليها من الإفك . . وانهارت الحرب النفسية ضد المسلمين وبيت الرسول . .

وأيقنت طوائف الكفار أن عليها أن تلجأ لنوع جديد من الحرب . .

ودخل الرسول صراعه ضد حرب الأعصاب . .

كانت غزوة الخندق أكبر نموذج لحرب الأعصاب التى خاض صراعها النبى ، صلى الله عليه وسلم . .

وضع اليهود أيديهم فى أيدى المشركين ، وبدأت سلسلة من المؤامرات والأحلاف بين زعماء اليهود وزعماء المشركين من العرب ، وأفتى أحبار اليهود أن ديانة قريش ، التى تؤله الأصنام ، أفضل من ديانة محمد ، التى تقصر الألوهية على إله واحد ، كما أن تقاليد الجاهلية أفضل من تعاليم القرآن . . ونجحت سياسة اليهود فى توحيد الأحزاب الكافرة وتوظيفها ضد المسلمين . . وتقرر الزحف على المدينة فى عشرة آلاف جندى . . وحملت الرياح أنباء المؤامرة إلى النبى . لم يدهشه أن يتحد اليهود -

---

(١) من الآية ١٨ سورة يوسف مكية .

(٢) الآية ١١ سورة النور مدنية .

وهم أهل ديانة تدعو للتوحيد ـ مع المشركين ضد ديانة تدعو للتوحيد . أدرك النبى أن العهد قد طال على اليهود فقست قلوبهم ، وباعدت الأيام بينهم وبين النبع الصافى الذى فجره موسى ، وانتهى بهم الأمر إلى أن صاروا ثمرة فاسدة غلافها على رسم التوحيد ، وعمقها البعيد مرارة الشرك . .

وأخطر من هذا اتفاق مصالح اليهود والمشركين من العرب . ونشط النبى لمواجهة الخطر . أدرك أن الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة فى ساحة مكشوفة لن يكسب للمسلمين المعركة . . وراح يفكر فى الدفاع عن المدينة بغير الخروج منها ، تغير تكتيكه العسكرى هذه المرة . . قبل ذلك كان يخرج من المدينة ويبتعد عنها ويهاجم من ينوى غزوها لصده ، غير أن نوع الخطر يختلف هذه المرة ، ويتغير تفكير النبى تبعا لاختلاف الخطر ، ويعقد النبى اجتماعات عسكرية مع جنوده ، يريد أن يستمع لاقتراحات الدفاع عن المدينة . . ويقترح سلمان الفارسى حفر خندق عميق حول المدينة ، خندق يكون بمثابة مانع طبيعى يمنع السيل المنحدر من التقدم، خندق لا تستطيع الخيل اجتيازه، ويمكن للمسلمين الدفاع من ورائه . .

وبدا الاقتراح شبه مستحيل ، أو صعبا لدرجة الاستحالة ، وتبنى النبى اقتراح سلمان ، وأدرك بحسه العسكرى الملهم أن الموقف الخطير يستدعى بذل جهد أخطر لتجاوزه . . وأمر النبى بحفر خندق حول المدينة . . كان العمل شاقا ، والفصل شتاء ، والجو مخيفا فى برودته، وهناك أزمة اقتصادية تهدد المدينة ، ورغم هذا كله بدأ حفر الخندق وتعميقه وتوسيعه . . اشترك النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فى أعمال الحفر وحمل الأتربة . . اشترك فيها وكان يقوم بأصعب المهام وأعظمها مشقة . . وتوهج المسلمون وانتهوا من حفر الخندق . .

وكان شيئا عسكريا فريدا لم يسمع العرب بمثله من قبل ، ولا ألفوه فى الحروب ، ورغم جهامة الحياة وجوع المسلمين وفقر أبنائهم وصحراء الكراهية التى عاشوا فيها ، كانت روح الجيش الإسلامى فى القمة ، كانوا واثقين من نصر الله لهم . . قال تعالى فى سورة (الأحزاب) :

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (١) . .

وانحدر جيش قريش على المدينة . . تحولت المدينة فجأة إلى جزيرة من الحب وسط بحر هائل من الكراهية ، وراح البحر يفور ويلطم الجزيرة محاولا إغراقها داخله . .

---

(١) الآية ٢٢ سورة الأحزاب مدنية .

وتطايرت سهام المسلمين تصد الجيش الكثيف المهاجم . . وراح الجيش يدور حول الخندق وهو دهش . . ما هذا الذى فعله المسلمون ؟ . . كيف استطاعوا حفر هذا الخندق ؟ . . وحاولت خيل العدو اجتياز الخندق فى أضعف أجزائه ، وصد المسلمون الهجوم . .

واستمرت معركة الأحزاب . . كانت فى جوهرها معركة أعصاب . .

استمر حصار الأعداء ثلاثة أسابيع ، لم تنقطع فيها الهجمات لحظة من نهار . . ولم تغلق فيها الأعين لحظة من ليل ، وكان المسلمون من فرط الهول لا يعرفون هل احتلت المدينة أم لا . . وهل نفذ المهاجمون من إحدى الثغرات أم لا ؟ . . أحيانا كان مد السيل يخترق الخندق ، وينفذ إلى المدينة ، ويكاد يصل إلى بيت الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لكن هذا كله ينحصر بفعل مقاومة جبارة وجهد مدهش . وإذا كان تدفق السيل من ثغرة يتفق مع القوانين المادية الحاكمة ، فقد كان انحسار السيل وعودته من نفس الثغرة التى نفذ منها يحتاج إلى معجزة . . وقد صنع المسلمون هذه المعجزة أكثر من مرة فى حصار المدينة . .

صور الله تبارك وتعالى الموقف فى غزوة الأحزاب بقوله تعالى :

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (١) . .

وزاد الموقف سوءا نقض اليهود لعهدهم من المسلمين ، وانضمامهم إلى الأحزاب . .

وهكذا نقضت قريظة عهدها ونسوا غدر بنى النضير وإجلاء النبى لهم . .

وراح الموقف يزداد سوءا كل يوم . . كانت أعصاب المسلمين هى التى تمتحن . .

وحين وصل الخطر ذروته ، سأل المسلمون الرسول ماذا يقولون ؟ . . حدثهم أن يقولوا : اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم . .

ولقد خرج هذا الدعاء من أفواه قوم أدوا واجبهم وصنعوا معجزتهم فى صد الهجوم ، وإذن لم يعد باقيا لهم غير الدعاء . . والله تعالى هو السميع المجيب . .

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ سورة الأحزاب مدنية .

سميع لمن يؤدى واجبه . . مجيب لمن يستحق الإجابة . . وأدركت رحمة الله المسلمين . .

وتطور سير المعركة على نحو غير مفهوم . . أدرك المهاجمون أنهم هزموا . . إن لهم ثلاثة أسابيع يهاجمون بغير جدوى ، ويفجرون عروقهم جهدا بلا أمل ، ويمكن أن يظلوا هكذا ثلاث سنوات . . واشتد عواء الرياح وتثلج الجو ، وبدأ التصدع الخفى فى جبهة الأحزاب . .

وجاءت ليلة لم ير المسلمون لها مثيلا فى الظلمة أو الريح . . زاد سواد الليل ، واشتدت سرعة الرياح ، حتى لتطن فيها أصوات كأمثال الصواعق ، ولم يعد أحد من المسلمين يستطيع أن يرى أصبعه من فرط القتام ، أو يقوم من مكانه بسبب البرد . .

وجاء النبى إلى حذيفة بن اليمان . . لم يستطع رؤيته رغم أنه كان يقف إلى جانبه . .

سأل النبى : من هذا ؟

قال حذيفة : حذيفة . .

قال النبى : حذيفة . .

وتقاصر حذيفة فى مكانه كراهية أن يقوم بسبب البرد والظلام ، وخوفا من أن ينتدبه الرسول لعمل فى هذه الليلة الليلاء . .

قال الرسول لحذيفة : إنه كائن فى القوم خبر فأتنى به . .

أحس حذيفة بفزع غامر ، وثقلت عليه وطأة البرد . . إن ما يحسه من التثلج يجعله يخشى أن يلتفت ، فكيف ينهض ويخرج من المدينة ويتوجه إلى جيش العدو ويتوغل فى صفوفه ويأتى النبى بأخبارهم . .

نهض حذيفة من مكانه حين انتهى النبى من كلامه . . دعا له النبى بخير . . انطلق حذيفة يمشى كأنه يمشى فى حمام . . لقد أمره الرسول ودعا له ، فانهزم الظلام والبرد خارج نفسه حين فاض باطنه بحرارة الإيمان . .

خرج من المدينة ، وتوغل فى جيش العدو ، أمره النبى ألا يتصرف أى تصرف . . ليعرف الأخبار وليعد . . هذه مهمته . . وصل حذيفة إلى قلب العدو . . كانوا يحاولون إيقاد نار ، وكانت الرياح تأكلها قبل أن تشتعل . . وقريبا من النار يقف رجل أدهم ضخم ، يمد يده إلى النار مستدفئا ويمسح خاصرته . . كان هذا الرجل هو زعيم المشركين «أبا سفيان» ، ووضع حذيفة سهما فى قوسه وأراد أن يرميه ، ولو رماه لقتله وأراح المسلمين منه ، غير أنه تذكر وصية الرسول له ألا يتصرف أى تصرف . . ووضع قوسه إلى جواره وكمن . . وقال أبو سفيان :

ـ يا معشر قريش . . إنكم ما أصبحتم بدار مقام . . فارتحلوا فإنى مرتحل . .

وقفز أبو سفيان على جمله وهو بارك فجلس عليه ثم ضربه فنهض الجمل . .

وعاد حذيفة إلى رسول الله بخبر انسحاب الأحزاب ، وفشل الهجوم ، وقال رسول الله ، حين بلغته أنباء انسحاب العدو : الآن نغزوهم ولا يغزوننا . .

لم يكد جيش الأحزاب ينحسر عائدا إلى بلاده وهو ينوء بثقل الفشل ، حتى خرج من المدينة جيش يتجه نحو يهود قريظة . . لقد خان هؤلاء اليهود عهدهم مع النبى وغدروا بالإسلام فى لحظة الخطر ، وإذن فليدفعوا ثمن غدرهم الآن . .

أمر النبى ألا يصلى الناس العصر إلا فى بنى قريظة . . وفهم المسلمون أن هذا يعنى اقتحام حصون اليهود قبل أن تغرب الشمس . . وانهزم اليهود وجىء بهم إلى سعد بن معاذ ليقضى فيهم بما يرى . وكان سعد سيد الأوس ، وكان الأوس حلفاء يهود قريظة فى الجاهلية ، وتوقع اليهود أن تنفعهم هذه الصلة القديمة ، كما تصور الأوس أن رجلهم سوف يتساهل مع حلفائهم القدامى . وكان سعد جريحا يمرض فى خيمته بسبب سهام الأحزاب التى أصابته . وراح بعض قومه يناشدونه أن يحسن إلى اليهود حلفائهم القدامى ، وراح اليهود يناشدونه أن يرفق بهم . . وقال سعد كلمته الشهيرة : قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم . . وحكم سعد أن يقتل الرجال ، وتسبى الذرية ، وتقسم الأموال . . وأقر النبى هذا القضاء الحازم لسعد . . وقال له : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات » . . ولقد أدرك سعد أن الوساطات والتوسلات والرجاء ومراعاة الاعتبارات القديمة ، أدرك أن هذا كله فى كفة ، ومستقبل الإسلام فى كفة . . لقد كان يهود قريظة هم السبب فى غزوة الأحزاب ، وإن دسائسهم وأحلافهم سعت وسوف تسعى لحصار الإسلام واقتلاعه . . وإذن تقلع الأشجار السامة من مكانها بغير شفقة . .

وهكذا تم تطهير المدينة من اليهود . .

وعاود النبى صراعه . . مضى صراعه العسكرى جنبا إلى جنب مع صراعه السياسى . . وكانت ذروة معاركه السياسية ، معاهدة عقدها مع قريش . .

كان النبى فى طريقه لأداء العمرة ، وزيارة البيت الحرام . .

خرج فى ألف وأربعمائة رجل يقصدون البيت الحرام لأداء العمرة . . فلما وصلوا إلى الحديبية أسفل مكة ، وبركت ناقة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، رفضت أن تتقدم خطوة نحو مكة ، وقال الناس : حرنت القصواء . .

قال النبى : ما حرنت ، وما هو لها بخلق . . ولكن حبسها حابس الفيل عن

مكة . . لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . .

وأمر الناس أن يستقروا فى الحديبية ، وأناخ المسلمون على أمل أن يدخلوا مكة فى الصباح ، كان الشهر حراما . . وقررت مكة ألا يدخلها مسلم . . خرجت قريش كلها لقتال المسلمين . . أرسلوا رسلهم إلى النبى فأفهمهم أنه لم يأت مقاتلا ، وإنما جاء معتمرا يؤدى الشكر لله تعالى ويعظم حرمات بيته الحرام . . وقررت مكة عقد معاهدة مع المسلمين يرحلون بمقتضاها هذا العام ، ولا يدخلون البيت الحرام ، على أن يعودوا بعد عامهم هذا . . وجاء مفاوض قريش فاستقبله الرسول واستمع منه إلى شروط المعاهدة التى يتم بموجبها الصلح وانسحاب المسلمين . . ووافق النبى على الشروط كلها . . وكانت الشروط تبدو فى غير صالح المسلمين . .

كانت تبدو تراجعا سياسيا وعسكريا من المسلمين . .

وزاد فى دهشة المسلمين أن الرسول لم يستشر أحدا من رجاله فى هذا الأمر ، ولم تكن هذه عادته . . شاهدوه يذهب فى ملاينة المشركين إلى أبعد حد ، وحين لم يعد باقيا غير كتابة المعاهدة والتوقيع عليها . . تحرك المسلمون يعارضون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . . سألوه : ألست رسول الله ؟ . . ألسنا مسلمين ؟ . . أليس أعداؤنا مشركين ؟ . . وأجاب النبى بالايجاب على هذا كله . . وعاد عمر بن الخطاب يسأل : فعلام نعطى الدنية فى ديننا . . . ؟

أراد التعبير أن يقول له بلغة عصرنا . . لماذا نتراجع إذا كنا على الحق ؟ . . لماذا ننزل على شروط معاهدة جائرة تبدو فى صالح المشركين ؟ هل نحن خائفون منهم ؟ . . لماذا ننزل على شروط الهدنة إذن ؟

وكان رد الرسول غريبا على آذان القوم . . قال : أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى . .

إن معنى كلمته . . أطيعوا ما أفعل بغير مناقشة ، واصبروا قليلا . . ولقد أثبتت الأيام ، أن المعاهدة التى أثارت كل هذا الصراع ، كانت أخطر انتصار سياسى حققه المسلمون . . كانت صراعا سياسيا بين ذكاء قريش وحكمة النبى . .

ولقد ركزت قريش كل ذكائها ليعود المسلمون فلا يدخلوا المسجد الحرام هذا العام ، بينما امتدت حكمة النبى لترى ما لا يراه القوم من أيام المستقبل . . ولئن بدت المعاهدة هزيمة للمسلمين الآن ، ولئن ظهرت استسلاما لشروط قريش ، فإنها ستصبح بعد أشهر قليلة شيئا آخر تماما . .

كان سهيل بن عمرو هو ممثل قريش . .

وكان على بن أبى طالب هو كاتب المعاهدة من قبل النبى . .

قال رسول الله لعلى : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . .

قال ممثل قريش : لا أعرف هذا ، اكتب باسمك اللهم . .

قال رسول الله لعلى : اكتب باسمك اللهم . .

إن تعنت ممثل قريش لا يعنى شيئا ، وليس هناك فارق بين باسمك اللهم . . وبسم الله الرحمن الرحيم ، غير نية القائل . .

قال النبى لعلى : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، سهيل بن عمرو . .

قال سهيل معترضا : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . . ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . .

قال النبى لعلى : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، سهيل بن عمرو . .

هذا هو التراجع الثانى كما يبدو للنظرة السريعة . . غير أن النبى يريد أن يحقق هدفا ما . . هدفا لم يكشف الستار عنه بعد ، ولن يكشف عنه الآن . . إن الأمر كله يمضى بإلهام من الله . . وعاد على يكتب : إن محمد بن عبد الله ، وسهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض . . على أنه من أسلم من قريش وجاء إلى محمد بغير إذن وليه . . رده المسلمون إلى قريش ، ومن عاد إلى دين آبائه ممن مع محمد لم ترده قريش إلى النبى . .

كان هذا الشرط موجعا للمسلمين . . إن قريشا تفرض شروطها الجائرة فى المعاهدة . .

ومضى على يكتب . . إن بين المسلمين وقريش صدورا تنطوى على ما فيها ، ورغم ذلك فلا سرقة ولا خيانة ، ومن أحب أن يدخل فى عقد محمد دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش دخل فيه . . وإن على النبى أن يرجع عن مكة عامه هذا فلا يدخلها ، فإذا كان العام القادم خرجت قريش منها فدخلها معتمرا ثلاثة أيام . . بعدها يرحل عنها . .

كانت شروط المعاهدة قاسية على المسلمين . . كانت تبدو تراجعا غير مفهوم . .

ووقع أثناء المعاهدة حادث زاد من ألم المسلمين ودهشتهم . . لجأ إلى المسلمين ابن ممثل قريش فى توقيع المعاهدة . . أسلم وجاء لاجئا إلى المسلمين ، ونهض إليه أبوه سهيل يضربه ويرده إلى قومه . . واستغاث المسلم المهاجر بالمسلمين أن ينقذوه من قريش حتى لا يفتنوه فى دينه ، وحدثه رسول الله أن يصبر ويحتسب ، فإن الله جاعل له ولمن معه فرجا ومخرجا ، أفهمه النبى أنه قد عقد بينه وبين قريش صلحا ، وأعطوا

عهد الله على ذلك ، وأن المسلمين لا يغدرون بعهدهم . . وأعيد الابن المسلم إلى مكة مخذولا . .

وتم توقيع المعاهدة من جانب المسلمين والمشركين . . وقام الرسول بعد توقيع المعاهدة يأمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا للتحلل من عمرتهم والعودة إلى المدينة . . فلم يقم منهم رجل . .

كرر أمره ثلاث مرات وسط مسلمين واجمين من فرط الهم والذهول . . ثم نحر بدنة ودعا حالقه فحلق ولم يكلم أحدا من المسلمين . . فلما رأى المسلمون أنه غاضب وقد سبقهم بالتحلل من عمرته ، نهضوا ينحرون ويحلق بعضهم رءوس بعض ، وقد كادوا يقتل بعضهم بعضا من فرط الغم . .

ثم أثبتت الأيام أن المعاهدة على العكس مما تصوره المسلمون . .

كانت انتصارا ولم تكن هزيمة . . كانت فتحا ولم تكن استسلاما . .

لقد تهاوى اتحاد الكفار فى الجزيرة منذ تم توقيع المعاهدة . . كانت قريش تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء التحدى للإسلام ، فلما شاع نبأ تعاهدها مع المسلمين ، خمدت فتن المنافقين الذين يعملون لها ، وتبعثرت القبائل الوثنية فى أنحاء الجزيرة . .

وعلى حين توقف نشاط قريش . . انطلق نشاط المسلمين وراحوا يجذبون إليهم كل من يملك قدرة على رؤية الحقيقة . .

وقد دخل فى الإسلام خلال عامين من توقيع المعاهدة أضعاف أضعاف من دخلوه قبلها . . والدليل على ذلك أن الرسول خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة مسلم ، ثم خرج عام فتح مكة فى عشرة آلاف مسلم . . ولقد كان فتح مكة بعد توقيع المعاهدة بعامين . . زاد فيهما المسلمون كل هذه الزيادة الهائلة بسبب حكمة النبى وبعد نظره . .

وخرج النبى من صراعه السياسى منتصرا . . وانقلبت الشروط الظالمة للمسلمين إلى شروط ضد قريش . .

من كفر من المسلمين وذهب إلى قريش فليحتفظوا به ، فقد أغنى الله الإسلام عنه . .

ومن أسلم من الكفار وذهب إلى المسلمين فليردوه إلى قريش ، حيث يبقى فيها عينا للمسلمين ، أو يهرب من قريش لتأليف فرقة مقاتلة صغيرة يقطع بها الطريق على القبائل ويعيش كالشوكة فى جنب قريش . .

ولا تكاد الأيام تمضى حتى ترسل قريش إلى النبى ترجو منه أن يؤوى إليه من أسلم من قريش ، بدلا من تركهم هكذا سهاما طائرة نحو قريش . .

وهكذا نزلت قريش عن الشرط الذى أملته تعنتا ، وقبله النبى راضيا . .

مكنت المعاهدة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، من كف قريش عنه ، ليتفرغ لمن بقى من اليهود فى الجزيرة العربية . . وكان اليهود لا يتوقفون عن غدرهم وكيدهم للإسلام ، فأعطت الهدنة بين المسلمين والمشركين فرصة عظمى للإسلام كى يواجه كيد اليهود وغدرهم . .

وبدأت سلسلة المعارك التى انتهت بكسر شوكة اليهود وإجلائهم . . ثم تنازلت قريش عن المعاهدة حين اكتشفت أنها كانت شركا سيقوا إليه دون أن يدركوا . .

ومضت حياة النبى صراعا لا يتوقف ، ومشقة لا تدع له وقتا للراحة . .

لم ينج بيته ولا خلت حياته الخاصة من المشقة . .

تزوج النبى ، صلى الله عليه وسلم من تسع زوجات ، وقد كان زواجه من تسع خصوصية اختص بها وحده ، صلى الله عليه وسلم . . لأسباب تتصل بالدعوة الإسلامية ، وهى دعوة أباحت لمعتنقيها الزواج من أربع ، بشرط العدل ، وأمرت بالاقتصار على زوجة واحدة إذا خاف المسلم عدم العدل . . وقد أساء كثير من المستشرقين وأعداء الإسلام إلى النبى ، وكانت الثغرة التى نفذوا منها أو ظنوا أنهم نفذوا منها هى زواجه من تسع . .

ولقد تمت أكثر تلك الزيجات لأسباب سياسية أو إنسانية تتصل بالدعوة الإسلامية . .

والمعروف من سيرة النبى أنه تزوج بالسيدة «خديجة» وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . . وكانت هى فى سن الأربعين ، وظل مقتصرا عليها وحدها حتى وصل عمرها إلى الخامسة والستين . . وماتت وهو - صلى الله عليه وسلم - فوق الخمسين . .

تزوجها قبل أن يبعث بالإسلام ، وظل وفيا لها حتى ماتت وهو نبى . . غير أن أعباء النبوة ، ومشقة الجهاد ، ورأفته بالناس ، وتضحياته للإسلام ، وأمر الله تعالى ، اضطره هذا كله للزواج بعدها بأكثر من واحدة حتى بلغ عدد زوجاته تسعا . .

كان زواجه من « عائشة » - على صغر سنها - ارتباطا بأبى بكر . . فقد كانت ابنته . . وكان زواجه من «حفصة» - رغم قلة وسامتها - ارتباطا بعمر ، فقد كانت ابنته . .

تزوج من « أم سلمة » أرملة قائده الذى استشهد فى سبيل الله وعانت معه امرأته ما عانت فى الهجرة إلى الحبشة ، والهجرة إلى المدينة ، فلما مات عنها زوجها وتركها وحيدة تواجه عواصف الحياة ، ضمها النبى إلى بيت النبوة . .

وكان زواجه من « سودة » ، إكراما لقيم إسلامها وكبرها وعزوفها عن الرجال ووحدتها أمام الحياة . .

وكان زواجه من « زينب بنت جحش » ، امتحانا قاسيا له ، وقد جاء الأمر بزواجها، من الله عز وجل ، لتحريم عادة كانت شائعة فى الجاهلية ، وهى عادة التبنى . .

إن زينب من قريبات الرسول ، صلى الله عليه وسلم . هى إذن من بنى هاشم ، وهى تعتز بنسبها اعتزازا يدعوها إلى رفض الزواج من زيد بن حارثة ، وهو مولى النبى الذى أعتقه وألحقه بنسبه وتبناه فصار يدعى زيد بن محمد . .

غير أنها تنزل على رأى النبى وأمر الله فتتزوج من زيد . .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾(1) . .

كان واضحا منذ البداية أن هذا الزواج سيتحطم . . لم تكن زينب تحب زيدا ، ولم يكن زيد رجلا يطيق الحياة مع امرأة قلبها منصرف عنه . . وجاء زيد يشكو للنبى ويطلب الإذن بطلاق زوجته . . وأوحى الله إلى رسوله أن يدع زيدا يطلقها ويتزوجها هو . . وأحس النبى بالحرج الهائل وحدث زيدا أن يستمر ويحتمل . . تصور ما سيقوله الناس عنه من أنه تزوج امرأة ابنه ، غير أن ما خشيه النبى هو ما يريد الله إبطاله . . ليس زيد ابنه ، لا وجود لنظام التبنى فى الإسلام ، وإذن فليطلق زيد وليتزوج النبى لإثبات ما يريد الإسلام إثباته . . وليتحمل رسول الله على نفسه ما سيقوله الناس عنه ، فليست هذه أول تضحية ولا آخر تضحية يقدمها للاسلام . قال تعالى فى ذلك :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾(2) . .

---

(1) الآية ٣٦ سورة الأحزاب مدنية .

(2) الآية ٣٧ سورة الأحزاب مدنية .

كانت الظروف التى أحاطت بزواجه ، صلى الله عليه وسلم ، تجعل من هذا الزواج بعض ما كلف الرسول بحمله من سياسة الأفراد والجماعات ، وبعض ما كلف بتحقيقه من إقامة الخير والرحمة ، واحترام القيم الرفيعة ، وضمها لبيت النبوة . .

أسلمت « أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب » ، سيد قريش وقائدها فى حرب الإسلام ، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، وعرفت الغربة والوحشة والخوف فى الله ، ثم مات عنها زوجها وتركها وحيدة تواجه الحياة ، وكان موقفها النبيل من الإسلام ، والوقوف ضد أبيها ، هو القيمة التى حملت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ضمها لبيت النبوة . .

ولقد دخل أبو سفيان عليها يوما وهى زوجة لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم . . وأراد أن يجلس على فراش النبى ، فحملت أم حبيبة الفراش بعيدا عنه . . وسألها أبوها : أرغبت بى عن الفراش ، أم رغبت به عنى . . . ؟

قالت بشجاعة : هذا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وأنت مشرك فلا تلمسه . .

أما « صفية بنت حيى » ، فكان أبوها ملك اليهود . .

أما « جويرية بنت الحارث » ، فكان أبوها زعيم قبيلة بنى المصطلق . . وقد انتهت حرب اليهود وبنى المصطلق بالهزيمة ، ووقعت ابنتا الملك والزعيم فى الأسر ، وكان زواج النبى منهما جبرا لخاطر المنهزمين ، ودعوة الى أن يحسن المسلمون معاملتهم . وقد حدث ما أراده النبى ، فقد رفض المسلمون استرقاق أصهار النبى ، وهكذا عادت الحرية إلى قبيلة بنى المصطلق . وكان النبى بتصرفاته يريد أن يكتشف العمق الإنسانى فى حروبه ، ويشير للمسلمين إلى الأخوة الإنسانية ، وأن الحرب فى ذاتها ليست مطلبا ، هى دفاع عن الإسلام ، والإسلام فى عمقه البعيد رحمة وحب . . وإذن يتزوج النبى من بنات المهزومين المسترقين كى ترتد الحرية والكرامة لأهلهم ، ويدخلوا الإسلام إن أرادوا عن اقتناع . .

جاء زواجه من « مريم القبطية » وقد بعث بها المقوقس إليه كأمة ، رمزا للود الذى أشار إليه القرآن بين الإسلام والمسيحية ، وتشريعا للمسلمين بحل الزواج من كتابيات . . وقد أنجبت له مريم ابنا سماه إبراهيم ، باسم جده أبى الأنبياء ، غير أنه لم يعمر طويلا ، مات وهو رضيع . . وكان موته امتحانا للنبى ، وإشارة إلهية إلى أن ورثة الرسول من الرجال هم أتباع القرآن وحملة الإسلام لا الأبناء من صلبه . .

يخطئ من يتصور أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم كان يجد وقتا ينفقه فى البحث عن متعة ، ولو كانت حلالا . . أبيحت المتع لغيره واستأثر وحده بشقاء

الجهاد والتشريع والاحتمال . . يخطىء من يتصور أن الرسول كان يعيش فى بيته أفضل مما يعيش أقل المسلمين فى عصره . . كانت حياته فى البيت احتمالا وزهدا يفوقان الطاقة ، حتى اشتكت بعض زوجاته ، ومنهن من جاءت من بيت ثرى كبيت أبى بكر أو بيت عمر . . واتحدت بعض زوجاته عليه يسألنه أن يزيد من النفقة ، وهجر النبى زوجاته ، وانتشرت شائعة تقول إنه طلقهن جميعا . . ثم نزلت آيات التخيير . . نزل القرآن الكريم يخير زوجات النبى بين حياة الشظف التى يحيينها فى بيت النبوة ، أو الطلاق . .

قال تعالى فى سورة (الأحزاب) :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) . .

وانتهت الفتنة ، وهدأ الصراع فى بيت الرسول ، صلى الله عليه وسلم . . واختارت زوجاته حياة الزهد والاحتمال والدار الآخرة ، على الدنيا . .

ولم تكن مطالب زوجات النبى تتجاوز حدود المباحات . . غير أن الرسول كان أسوة للعالمين ، وينبغى أن يعيش أسوة العالمين حياة زاهدة ليضرب المثل الأعلى فى حياة من يتصدى لقيادة المسلمين . .

ولقد عوض الله تعالى زوجات النبى عن تضحياتهن ، ورفع درجاتهن فصرن أمهات للمؤمنين جميعا . . قال تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾(٢) . .

وتأكيدا لهذه الأمومة الروحية ، شرع الحجاب الدقيق عليهن ، وهو حجاب لم يشرع على النساء المسلمات بنفس الدرجة . .

مضى النبى فى صراعه ، وكانت رسائله إلى الملوك والحكام وقادة الجماعات والدول حوله تشير لعالمية الإسلام وتؤكده . . بعث النبى يدعو قيصر الرومان إلى الإسلام . . وبعث إلى أمير دمشق يدعوه إلى الإسلام . . وبعث إلى أمير بصرى من ولايات الروم يدعوه إلى الإسلام . . وبعث إلى عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام . . وبعث إلى كسرى أبرويز ملك فارس يدعوه إلى الإسلام . . أرسل إلى أمير البحرين المجوسى يدعوه إلى الإسلام . .

---

(١) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ سورة الأحزاب مدنية .

(٢) من الآية ٦ سورة الأحزاب مدنية .

واختلفت ردود أفعال من بعث النبى إليهم برسائله . . منهم من حاول إيهام حامل الرسالة أنه أسلم ورده يهدية ، ومنهم من مزق الرسالة وهو حانق . . ومنهم من تلطف وأجاب الرسول جوابا حسنا . . ومنهم من أسلم حقيقة . .

ولقد كان إحساس النبى بشمول الدعوة وعالميتها استشفافا لأيام لم ترفع عنها أستار الغيب بعد . .

ومضت الأيام صراعا لا يهدأ . . صراع قاده النبى ، صلى الله عليه وسلم ، حتى فتحت مكة ، وطهرت الجزيرة العربية ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأكمل الله للمسلمين دينهم ، وحج بهم النبى حجة الوداع ، وتنزل عليه الوحى فى عرفات بقوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١) . .

تليت الآيات على أبى بكر فبكى . . أحس أن الله تبارك وتعالى قد أنهى مهمة رسوله . .

أحس أن النص القرآنى ينعى الرسول لقومه . .

قالت عائشة لأطفال يتصايحون ويلعبون خارج الدار :

- اصمتوا فإن رسول الله مريض . .

هدأ الأطفال وشعروا بخوف مفاجئ . . فى الأيام الأخيرة لاحظوا أن رسول الله لا يلاعبهم كما كان يفعل ، لاحظوا أن شحوبا غريبا يكسو وجه النبى الذى كان يبتسم فيضىء وجهه كصفحة الذهب . .

دخل آخر الأنبياء إلى بيته وقدماه لا تكادان تحملانه . . دخل بيته وهو يستند إلى ذراعى الفضل بن العباس ، وعلى بن أبى طالب . . كان يحس التعب والمرض . .

انتهى الأمر واستسلم الجسد العظيم لرقدة الفراش وأوجاع المرض ونذر النهاية . .

أرقدته عائشة على فراشه الخشن ، ووضعت يدها على جبينه . . كان رأسه يلتهب من الحمى . . قالت عائشة وعيناها تلمعان بالدمع :

- بأبى أنت وأمى يا رسول الله . . هل تحس ألمًا ؟

ابتسم النبى ليطمئنها واستسلم للنعاس . .

وانساب فى ذاكرة النبى تيار من الصور الحية . .

---

(١) من الآية ٣ سورة المائدة مدنية .

مر أمام العقل موكب الذكريات . .

ها هو ذا الروح الأمين جبريل عليه السلام يتنزل عليه بالوحى فى غار حراء . .

مرت على اللحظة المباركة ثلاث وعشرون سنة ، تبدو الآن مثل حلم خاطف . . حتى الأعوام الأربعون التى سبقتها تبدو كأنها صورة لم تستغرق من الوقت غير لحظة . .

هان كل شيء فى الله ، واحتمل احتمالا أضعاف طاقته فلم يستسلم يوما للشكاة . وأعطى توهج العقيدة لأتباعها قوة بغير حد ، وتجربة بلا نهاية . . أخيرا عز الإسلام وارتفعت رايته . . فحمدا لله . .

أغفى النبى قليلا . . ثم استيقظ على صوت بكاء مكتوم لعائشة . . فتح عينيه ونظر فى وجهها وقاوم إحساسه بالصداع والحمى والألم ، وابتسم يطمئنها وعاد يغمض عينيه ويستسلم للإغفاء . .

ما الذى يبكى عائشة . . ؟

ألم يتوج الله جهاده الشاق بفتح مكة وتطهير البيت الحرام . . . ؟

تداعت الصور حية طرية فى ذاكرته ، صلى الله عليه وسلم . .

تذكر ما كان من أمر قريش حين نقضت معاهدة الحديبية ، وقاتلت خزاعة وهى مع المسلمين فى حلف واحد ، ووصل الأمر بقريش إلى حد قتل حلفاء المسلمين فى البيت الحرام . . وطارت الأنباء للرسول . .

وسار ، صلى الله عليه وسلم فى جيش عدد جنده عشرة آلاف . . كان الجيش مهيبا ، وجند المسلمين ينحدر من جبال مكة كسيل لا يقف فى طريقه شيء . .

مرت الفرق والكتائب والسرايا . .

فرقة بعد فرقة . . وكتيبة بعد كتيبة ، وسرية بعد أخرى . . مر حملة السهام والسيوف والفرسان . . مر رسول الله فى كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار . .

لا شيء يظهر منهم غير حدقات العيون ، وبقية الأجساد مغطاة بالدروع والسلاح . .

ولمعت سيوف الإسلام بما يمثله من حق يستند إلى القوة . .

ووسط هذا الجيش العظيم الذى فتح مكة ، كان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يركب ناقته وقد حنى رأسه خشوعا لله وتواضعا حتى كاد رأسه يمس ظهر البعير الذى يركبه . .

وانفتحت أبواب مكة لهذا الجيش . . استسلم سادتها وأتباعهم ، ارتفعت كلمة الله فيها . . ودخل النبى البيت الحرام فطاف حول الكعبة ، وهو يكسر الأصنام المصفوفة حولها . . ويضربها بقوسه ظهرا لبطن . .

وانكفأت الأصنام على وجوهها وانكبت على الأرض . . أمر بالكعبة ففتحت . . رأى الصور تملؤها ، وفيها صورتان لإبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام . . قال ساخطا على التهمة التى ألصقها المشركون بإبراهيم وإسماعيل : قاتلهم الله . . والله ما استقسما بها قط . .

ومحا ذلك كله . . حتى إذا طهر المسجد من الأوثان وأعاده كما خلقه الله بيتا للتوحيد المطلق . . التفت إلى قريش وعفا عنهم ودعاهم إلى الله ، ثم حان وقت الصلاة ، وصعد بلال فوق ظهر الكعبة وأذن للصلاة . .

واستمع أهل مكة لهذا النداء الجديد يتردد صداه بين الجبال :

الله أكبر * الله أكبر * الله أكبر * الله أكبر * أشهد أن لا إله إلا الله * أشهد أن لا إله إلا الله * أشهد أن محمدا رسول الله * أشهد أن محمدا رسول الله * حى على الصلاة * حى على الصلاة * حى على الفلاح * حى على الفلاح * الله أكبر * الله أكبر * لا إله إلا الله *

أخيرا عادت للبيت حرمته وكرامته . . عاد تيار الصور ينساب فى ذاكرته . .

ها هى ذى معركة حنين بهزائمها وانتصاراتها وغنائمها . . ها هو ذا النبى يعطى الغنائم من التحق بالإسلام من يومين من أهل مكة ، ويحرم من أعطى الإسلام كل شىء كالأنصار . .

حرم رسول الله الأنصار جميعا من غنائم حنين ، وقال قائل منهم :

ـ لقى والله رسول الله قومه . .

ومشى سعد بن عبادة إلى رسول الله فأخبره أن الأنصار غاضبون . .

سأل الرسول : فيم ؟

قال سعد : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ، ولم يكن لهم من ذلك شىء . .

سأل رسول الله سعد بن عبادة : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال سعد : ما أنا إلا امرؤ من قومى . .

قال رسول الله : اجمع لى قومك فى هذه الحظيرة . . فإذا اجتمعوا فأعلمنى . .

وجمع سعد الأنصار جميعا وأنبأ الرسول أنه جمعهم . .

وخرج إليهم رسول الله ووقف يتكلم فيهم . .

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـ يا معشر الأنصار ألم آتكم ضالين فهداكم الله ، وفقراء فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى .

قال رسول الله : ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟

قالوا : وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك . . ؟ المن لله ورسوله .

قال رسول الله : والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : جئتنا مطاردا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، وخائفا فأمناك ، ومخذولا فنصرناك .

قالوا : المن لله ورسوله .

قال رسول الله : أغضبتم يا معشر الأنصار لمال أعطيته قوما لأحببهم فى الإيمان، وتركتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام . . ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذى نفسى بيده ، لو أن الناس سلكوا طريقا وسلكت الأنصار طريقا لسلكت طريق الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار .

اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . .

ويبكى القوم حتى تبتل لحاهم ويقولون:

ـ رضينا بالله ربا، ورسوله قسما . .

وينصرف النبى فينصرفون راضين . . أكان درس الأنصار إشارة إلى عطاء المسلمين الدائم، وعدم توقعهم للجزاء فى هذه الأرض . . ؟

لقد فهم الأنصار أن المسلم الحقيقى فى الدنيا . . هو من يجىء إلى الدنيا ليعطى لا ليأخذ.

استيقظ النبى فوجد نفسه وحيدا فى الغرفة . كان جسده يلتهب من الحمى والألم . . ونادى عائشة وطلب منها أن تأتيه بماء يتبرد به . . ماء كثير . . وراحت أمهات المؤمنين يصببن الماء على رسول الله حتى اكتفى، وخفت الحمى قليلا عن جسده . .

مضت الساعات بطيئة متثاقلة . . زادت وطأة المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم . أحس أنه لا يستطيع الصلاة بالناس . .

وأمر أن يصلى أبو بكر بالناس . . وراجعته عائشة أكثر من مرة خشية على أبيها من كراهية الناس وتشاؤمهم منه . . وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أن يؤ م المسلمين صاحبه فى الغار .

فى اللحظات التى تقع بين يقظة الألم وراحة النوم المتقطع . . كان ذهن النبى يفكر . . ما الذى نسى أن يقوله للناس . . لقد بلغهم كل شىء وعلمهم كل شىء وترك فيهم كتابا لا يضل بعده من يتمسك به .

ونعس الرسول قليلا . وعادت الذكريات تعبر رأسه .

رأى نفسه فى حجة الوداع .

انتهت العهود المعطاة للمشركين وحظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام .

وها هو ذا النبى يخرج أميرا للحج ومعلما للمسلمين مناسكهم . .

ويتأمل رسول الله آلاف الموحدين وهم يتجهون إلى البيت الحرام ، ملبين طائعين مسلمين، يحيون ذكريات جدهم إبراهيم خليل الله . ويقف النبى خطيبا فى الحجيج .

إن هاتفا خفيا يشعره صلى الله عليه وسلم أن مقامه فى الدنيا يوشك على النهاية . وهو يحس أن هذا الركب سينطلق فى الحياة وحده ، فهو يركز له الدعوة ، ويوصيه بالإسلام ، ويدعوه إلى الله ، ويسأل الناس قلقا بعد ثلاث وعشرين سنة من كفاح الدعوة إلى الله : هل بلغت . . ؟ ويشهد الناس أنهم سمعوا وأنه قد بلغ . ها هو ذا يدعو معاذ بن جبل . . ويعلمه كيف يدعو الناس إلى الله ، وكيف يعرفهم دينهم ، ثم يخرج معه إلى خارج المدينة يوصيه . . ومعاذ راكب ، ورسول الله يمشى إلى جوار ناقته يوصيه ويحدثه ويعلمه . إن أولى الناس بى . . المتقون . . من كانوا وحيث كانوا . .

كان النبى رحمة لكل الناس ، وصورة عليا من صور الإخاء والتواضع .

كان حاكما على المسلمين بالقرآن . . ولكنه كان يرفض أن يظهر فى أى مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة . . كان يقول لأصحابه :

إنما أنا عبد الله . . فقولوا عبد الله ورسوله .

وخرج على جماعة من أصحابه فقاموا احتراما له فأمرهم ألا يقوموا له . . وكان إذا خرج للقاء أصحابه وتلاميذه جلس معهم فى آخر مكان يجده . . وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب أطفالهم ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الكبير والصغير ، ويزور المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر ، ويبدأ من يلقاه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، فإذا جاءه أحد وهو يصلى خفف صلاته وسأله عن حاجته . فإذا فرغ من قضاء حوائج الناس عاد إلى صلاته ، وكان أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا . . وكان يخدم نفسه إذا دخل بيته ويخدم أهله . . فهو يغسل ثوبه ويرتقه ، ويحلب شاته ويصلح نعله ويسقى البعير ويأكل مع الخادم ويقضى حاجة الضعيف والبائس والمسكين والمحزون .

وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنه كان يترك أحفاده يتسلقون ظهره أثناء صلاته . . ولم تنتشر رحمته على الإنسان وحده ، وإنما جاوزتها إلى الحيوان والطيور والأشجار . كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لقطة تلتمس عنده ملجأ من البرد . . وكان يطعم الحيوانات بيديه ويسقيها ويرحمها ويقوم بنفسه على تمريض كلب مريض . وكان يمسح لجواده بكم قميصه . . ولم يكن يقطع شجرة أو زهرة . . وأمر جيوش المسلمين وهى تفتح الأرض وتنشر عدالة الإسلام ألا يقاتلوا طفلا أو شيخا أو امرأة أو صبيا ولا يقطعوا شجرة ولا يهدموا بيتا .

لم يكن ما جـــاء به النبى صلى الله عليه وسلم قانونا ينظم به العلاقة بين الإنسان والإنسان فحسب . .

ولم يكن ما جاء به نظاما لرقى الحياة وتقدمها فحسب . . هذه كلها أمور نسبية .

إنما جاء بحضارة خالدة تنظم العلاقة بين الإنسان والكون ، وتعيد إلى الوجود تناغمه حين تبنى هذه العلاقة بين إنسان حى وكون مأنوس . . يتجهان معا . . الإنسان والكون إلى الله سبحانه وتعالى .

وقد ظل صلى الله عليه وسلم حتى آخر أيامه فى الأرض مشغولا بمستقبل الدعوة ، قلقا على مصير الرسالة ، مهموما بأمور المسلمين ، معلق القلب بشئون أمته والأمم التى لم تأت بعد وربما حملت الإسلام اسما دون أن يتمكن هواه من القلب ويحكم الجوارح .

وأراه الله قبل أن يموت ما ملأ قلبه طمأنينة .

فى فجر الاثنين الذى اختاره الرفيق الأعلى فيه . .

أقبل المسلمون من بيوتهم إلى المسجد واصطفوا للصلاة خاشعين وراء أبى بكر ، وهو إمام رقيق التلاوة يبكى إذا قرأ القرآن فيبكى من يصلى خلفه . .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت عائشة . . وكاد المسلمون يفتنون فى صلاتهم . . وأفسحوا له مكانا بينهم ، وأشار بيده أن اثبتوا على صلاتكم . . وتبسم فرحا من هيئتهم فى الصلاة .

قال أنس بن مالك : مارأيت رسول الله أحسن هيئة منه فى تلك الساعة . .

ثم رجع إلى فراشه . . والناس يظنون أنه أفاق من مرضه . .

قالت عائشة : عاد رسول الله من المسجد فاضطجع فى حجرى .

ودخل علينا رجل من آل أبى بكر فى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يده نظرة عرفت منها أنه يريده .

فأخذته فألنته له ثم أعطيته إياه .

فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قبله ، ثم وضعه .

أغمض النبى عينيه .

وجد جبريل يقف أمام قلبه .

قال جبريل عليه السلام : الصلاة والسلام عليك يا رسول الله . إن ملك الموت يستأذن عليك . لم يستأذن على بشر من قبلك ولن يستأذن على بشر من بعدك .

إن الله يخيرك بين الملك والخلود فى الدنيا وبين لقاء وجهه الكريم .

تجاوز النبى خلود الدنيا والملك فيها ، وذوى قلبه حنينا إلى لقاء ربه عز وجل .

تذكر يوم عرج به جبريل إلى الله تعالى ، ونبض وجدانه بنفس الفرح القديم والفناء المستطاب فى الله ، والسكينة الراضية .

والتقط جبريل رسالة النبى .

وأفسح مكانه لملك الموت . .

ودخل ملك الموت حجرة النبى وهو يضع أجنحته ويصلى عليه . .

كلمة عن الكتاب ومنهجه

أريد أن أعترف اعترافا مبدئيا بأننى لست مؤلف هذا الكتاب . . يمكن القول إننى كاتبه . إن تأليف الشيء يعنى خلقه أو إبداعه . وكل ما فى كتاب أنبياء الله قديم ، وقد اعتمدت فيه على كتب وأفكار أخرى ، وربما كان الجديد فى الكتاب هو أسلوب التقديم وزاوية الرؤية .

وإذن . . فلا فضل لى فيه إن أصبت . للعلماء السابقين والمعاصرين ثواب هذا الفضل . .

أما الخطأ فأرانى مضطرا لاحتماله وحدى .

لا أنكر أننى بحكم ميلادى فى زمان متأخر ، قد حاولت ما استطعت أن أستفيد مما كتبه السلف والخلف عن قصص الأنبياء . غير أن هذا لا ينفى أن أعرف قدر نفسى فلا أتجاوزه . ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

أعترف أيضا أننى قد توقفت قبل أن أخط فى الكتاب حرفا أمام هذا التساؤل : كيف تجرؤ . . من واقع القصور البشرى والخطيئة أن تتصدى للكتابة عن قمم النقاء فى الأرض . . ؟! منعنى السؤال فترة طويلة من الكتابة ، ثم حدثتنى نفسى أن الأنبياء قد بعثوا لأمثالنا من الخاطئين ، ولو كان أهل الأرض أنقياء أتقياء يعرفون الله ويذكرون عهده لانتفت الحكمة من بعث الرسل إليهم .

تسقط مهمة الرسل لو كانت الأرض كلها على الحق .

إن الخطأ هنا . . هو المسئول الأول عن بعث الرسل حين يبعثون برحمة الله .

زايلنى التردد وبدأت أكتب . .

فى المرة الأولى التى ظهر فيها هذا الكتاب ، ظهر فى طبعة مبسطة للأطفال . . نشر أولا على امتداد ستة أشهر فى مجلة «ميكى» للأطفال ، ثم جمع ونشر كما هو فى كتاب قلت فى نهايته : إن أحد أحلامى الكبيرة أن أكتب قصص الأنبياء للكبار ، لو جعل الله فى العمر بقية ، وشاءت رحمته أن تمنح الإذن والعون .

وهذا الكتاب هو ثمرة لاستجابة الرحمة لهذا الدعاء .

وهو ثمرة لقراءة بدأت فى الإسلام والصوفية منذ سن الخامسة عشرة حتى سن الأربعين . وعلى الرغم من أننى أعمل فى الصحافة فى ميدان النقد والأدب ، فإن هوى قديما للإسلام جعلنى أنظر لكل ما كتبته مثلما ينظر المرء إلى سحابة مارة لا تلبث أن تتبدد .

لا خلود لشىء على الأرض . الخلود لله وحده . . لكلمات الله وحدها . .

وإذن يحتضن المرء كلمات الله كى ينجو من الفناء ويهزم الموت . ولا شىء ينجو من الفناء ويهزم الموت غير الحب الإلهى . لأن أحد طرفى هذا الحب . . وهو الله سبحانه وتعالى . . حى أبدا . خالد أبدا . . باق أبدا .

ونحن لا نعرف أن أحدا أحب الله عز وجل مثلما أحبه أنبياؤه ، لأن الحب ينبع من العلم ، وقد كان أنبياءالله أعلم الناس بالله .

وإذن نلتصق بأنبياء الله . هم كبار العاشقين . . وهم رسل الرحمة . . ولن يُنجى من طوفان الأرض غير سفينة نوح . . وإذا كانت أخشاب السفينة القديمة قد تآكلت ، فإن السفينة ذاتها لم تزل موجودة . . ولم تزل قادرة على مقاومة الطوفان .

وإنك لواجد هذه السفينة فى كلمات أنبياء الله كما وردت فى القرآن .

توقفت قبل أن أكتب الكتاب عند سؤالين سألتهما لنفسى : ما الجديد الذى تنوى تقديمه فى الكتاب ؟ وأى منهج سوف تتبع فى كتابته ؟

إن الإجابة عن السؤالين تضطرنا اضطرارا لنقد كتب السابقين عن الأنبياء برغم احترامنا البالغ لمؤلفيها . ضمت هذه الكتب عددا من الحقائق الطيبة ، كما ضمت جهدا علميا عميقا ، غير أن معظمها كُتب بلغة عصره الذى وضع فيه . . ومن الصعب أن نقرأ اليوم كتابا بشريا وضعت أفكاره بلغة الماضى . إن صعوبة الأسلوب القديم . . تمثل عقبة أمام أبناء عصرنا فى قراءة قصص الأنبياء . . وهناك كتب تتحدث عن الأنبياء بحياد . . وتذكرهم كجزء من التاريخ الذى ذهب وانقضى . . والأصل أن الأنبياء هم قادتنا على الأرض ، وهم حكامنا الحقيقيون إن أرادنا النجاة . وهم مستقبلنا وليس ماضينا القديم إن أردنا الخلاص .

وهناك كتب تضع الحقائق جنبا إلى جنب مع الأساطير ، وتمزج الحق بما لا علاقة له بالحق ، ويبدو مؤلفوها مثل قوم خرجوا يجمعون ثمارهم أثناء الليل . . فلم يدروا

أى الثمار استوى وأيها لم يزل فجا، وخلطوا . وهناك كتب تمد يدها للمأدبة الإسرائيليات الحافلة بالخرافة . وهناك كتب تعرض القصص بما أثير حولها من اختلافات ومشكلات، وتسود الصفحات بهذه الخلافات التى تدعو ذهن القارئ إلى الشرود . . أو تدعوه إلى الغوص فيها فيسقط منه مغزى القصة الأصلى . وهناك كتب تقليدية كتبت بعلم لا يتوهج بالحب ، أو كتبت بحب طاش فلم يسنده العلم .

قلت لنفسى : لو استطعت أن تكتب عن الأنبياء كتابا بلغة هذا العصر اليسيرة المفهومة ، ولجوت فيه مما شاب الكتب السابقة من أخطاء واختلافات وخرافات ، فإنك تكون قد قدمت جديدا . ولقد قادت هذه النظرة إلى اختيار منهج الكتاب على الفور .

إن الكتاب الوحيد الذى وردت فيه قصص الأنبياء بكمال لا يطاول ، وبصدق لا يخدش ، هو القرآن الكريم ، ولئن بدل أصحابه بعده فى أنفسهم وحرفوا فى ذواتهم ، فإن الكتاب الحكيم بقى بغير تبديل أو تحريف ، حفظه الله تعالى كما أنزل .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١) .

وإذن تحدد منهج الكتابة . . بالمنهج القرآنى .

وتمثل هذا فى أن يكون تناول أحداث القصص نابعا من أرقى التصورات الإسلامية ، وأكثر التفسيرات احتراما . وطبقا لهذا المنهج كان روح الآيات القرآنية مرجعا حاسما ، وكانت عصمة الأنبياء إطارا حاكما طيلة الوقت ، وكانت أساطير التوراة والحواديت المسماة بالإسرائيليات شيئا مستبعدا ومرفوضا بعد خضوعه للمناقشة .

وهكذا اعتمدت فى قصص الأنبياء على القرآن الكريم أساسا ، وأثار هذا عديدا من المشكلات ، أهمها أن القرآن ليس كتابا فى التاريخ ، إنما هو كتاب دعوة إلى الله ، وهو لا يذكر أحداث قصص الأنبياء مرتبة بزمن وقوعها ، ولا يعبأ بالتفصيلات الصغيرة ، وأوقع هذا فى مشكلة ترتيب أحداث القصص .

إن العودة لصحف اليهود والنصارى وتفاسيرهم . وكتبهم يمكن أن تضىء الموقف ، ولكنها لا تحل المشكلة .

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر مكية .

رغم ذلك أخذت من صحف العهد القديم والجديد ما رأيته غير متعارض فى جوهره مع القرآن . . أما ما تعارض مع القرآن ، فعرضته إعمالا لحرية الرأى ، ورفضته نزولا على الحق .

من بين المشكلات التى واجهتها ، هذه الفجوات الصامتة فى القصص . . وهى فجوات لا حرج على الخيال أن ينشط لتصورها وتصور ما دار فيها من حوار ، وكنت أبدأ هذا الحوار المتخيل عادة بأن أقول : «ربما دار هذا الحوار» .

وكثيرا ما توقف القلم أياما عديدة محاولا أن يبحث عن إجابة عن سؤال حائر . . يتعلق بترتيب حادث زمنى معين وقع فى قصة من قصص الأنبياء .

أبحرت وسط هذه المشكلات - مجهد العقل - محاولا الوصول إلى الشاطئ الآخر من قصص أنبياء الله . . وهناك رأيت ترتيب الأحداث ليس هو المشكلة . المشكلة هى معنى الأحداث . . رأيت أن الأنبياء جميعا هم رسل الحب الإلهى ، والرحمة .

وأى عقيدة إلهية هى فى عمقها البعيد حب ورحمة .

حب من لون لا وجود له على الأرض . .

وفى أى حب بشرى ، هناك احتمال أن يخونك الطرف الآخر أو يهجرك أو يصيب بغدره مشاعرك . وفى قصص الحب الإلهى ليس هناك احتمال للخيانة أو الهجر أو الغدر إلا من جانبك أنت . . تخون أنت وتهجر أنت وتغدر وتبتعد . ويرحم هو . . ويعفو هو . . ويتوب ويهدى سبحانه .

ويجيء الأنبياء أصلا لإعادتك إلى مصدر الحب فى الكون ، وتعليمك معنى الحب ، وتوجيهك إلى المستحق وحده للحب . ولأن الأنبياء رسل حب فى الأرض ، ولأن الكراهية أغلبية حاكمة على الأرض ، يعيش الأنبياء صراعا لا يهدأ ، ويدفعون من وقتهم وخبزهم وأعصابهم ودمائهم ثمن انتشار دعوتهم .

ولقد أردت تصوير هذا فى الكتاب وإبرازه . كما أبرزت كون الأنبياء جميعا مسلمين بنص الآيات . . وأردت أن يتم هذا كله فى إطار من بساطة الأسلوب وسهولته .

بحيث لا يستعصى الكتاب على أحد من قرائه ، واستلزم هذا تكرار بعض الأفكار والعودة إليها . . بهدف تثبيتها فى ذهن القارئ . وحين تعارضت اعتبارات الفن التى

تستوجب الإيجاز وعدم التكرار، مع اعتبارات السهولة وضمان توصيل الأفكار، كنت آخذ بالاعتبارات الثانية، مدركا أن هذا الكتاب ليس عملا فنيا، وإنما هو دراسة، ولعل هذا هو السر فى عدم رضائى عن أسلوب الكتاب، فقد كنت أتمنى أن يجىء دراسة وعملا فنيا فى وقت واحد. ولو جعل الله فى العمر بقية، وشاءت رحمته أن تمنح الإذن والعون، فربما بذلت جهدا أكبر وأعدت كتابته بشكل أدعى إلى الرضا .

وأعترف أن إحساسى بهذا الكتاب قد تغير . قبل كتابته راودنى خوف عذب وحب عميق. وأثناء كتابته عشت ذروة الرضا وأحلى ساعات العمر . .

فلما انتهيت منه ودفعته للمطبعة وقرأت صفحاته . . ملأنى الحزن والبؤس. . أحسست أننى أنقصت حبى للأنبياء وخدشته بالكتابة عنهم . . كان إحساسى بهم سرا يضيع لو أفصحت عنه، وقد أفصحت فى هذا الكتاب . . فضاع السر ولم أقل ما بداخلى . . نعم . .

كان هذا الكتاب أجمل آلاف المرات وهو وجدان داخلى منه الآن بعد أن ولد. .

ولست أعرف صراحة . . هل يرحمنى الله تعالى بهذا الكتاب ، أو يعذبنى به، أو لا يلتفت إليه أصلا . .

إن الدوافع الظاهرة التى أملت على كتابته هى الرغبة فى عرض قصص الأنبياء بأسلوب معاصر حى. . على أساس أن قصصهم دعوة إلى الله. . وثورة على الطغاة. . وإحياء لإنسانية الإنسان وحريته .

هذه هى دوافعى الظاهرة فى كتابته . . غير أننى أجهل ما بداخلى من دوافع خفية. .

ربما كنت أريد بهذا الكتاب ثناء الناس والكسب، أو ادعاء العلم والفضل، أو إظهار المعرفة والتواضع ، أو التمسح فى الأنبياء . أو أتصور النجاة من النار بكلمة أقولها لا بعمل أعمله.

ليس يدرى حقيقه دوافعى لكتابته غير الله عز وجل .

سوف أعرف يوم القيامة من الجزاء الذى ينالنى عليه . . حقيقة دوافعى لكتابته . .

نسأل الله تعالى التوبة .

وندعو لقارئه أن يكون ـ بالعمل ـ أفضل من كاتبه . .

أحمد بهجت

مراجـع الـكتاب

(١) القرآن الكريم .
(٢) العهدان القديم والجديـد (الطبعـات القديمة وطبعة متى الجديدة بتفاسيرها وشروحها) .
(٣) إنجيل برنابا ـ ترجمة دكتور خليل سعادة (طبعة المنار للشيخ رشيد رضا ١٩٠٨) .
(٤) تفسير ابن كثير .
(٥) تفسير الرازى .
(٦) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ـ ٣٠ جزءا (صورة عن طبعة دار الكتب ، نشر دار الكاتب العربى) .
(٧) تفسير القرآن الحكيم لمحمد عبده ـ ١٢ جزءا (طبعة المنار للشيخ رشيد رضا) .
(٨) فى ظلال القرآن لسيد قطب ـ ٣٠ جزءا (الطبعة التاسعة ـ دار الشروق) .
(٩) قصص الأنبياء للإمام ابن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد فى جزأين (دار الكتب الحديثة) .
(١٠) قصص الأنبياء المسمى بالعرائس للثعلبى (مكتبة ومطبعة ابن شقرون) .
(١١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ـ طبعة ثانية (مؤسسة الحلبى و شركاه)
(١٢) قصص الأنبياء لمحمد أحمد جاد المولى ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٣٩ (المطبعة التجارية) .
(١٣) محمد والذين أمنوا معه لعبد الحميد جودة السحار ـ ٢٠ جزءا
(١٤) الإسلام والإيمان للدكتور عبد الحليم محمود .
(١٥) محاضرات فى النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة .
(١٦) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى .
(١٧) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق .
(١٨) العقيدة والأخلاق للدكتور عبد الرحمن بيصار .
(١٩) معارك الإسلام الفاصلة لمحمد أحمد باشميل .
(٢٠) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى .
(٢١) « محمد » لتوفيق الحكيم .
(٢٢) « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل
(٢٣) « ٥محمد رسول الحرية » لعبد الرحمن الشرقاوى .
(٢٤) « محمد رسول الله » لأتيين دنييه وسلمان الجزائرى ، ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود
(٢٥) « الإنسان الخالد » لفالتون أورسلر ، ترجمة رمسيس جبراوى .
(٢٦) « عبقرية المسيح» للعقاد .
(٢٧) التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب (طبعة دار الشروق) .
(٢٨) «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان .
(٢٩) الإسلام فى مؤلفات الغرب لعباس العقاد .
(٣٠) روح الإسلام لجمال البنا .
(٣١) الفصل الخاص بيونس فى رواية موبى ديك لهرمان ملفيل .
(٣٢) الفصل الخاص برداء التقوى فى مذكرات صائم لأحمد بهجت

الفهـرس

كتب للمؤلف

١ - أنبياء الله « ستة وعشرون طبعة »
٢ - فى رحاب الله « طبعتان » .
٣ - الله فى العقيدة الإسلامية «٣ طبعات» .
٤ - بحار الحب عند الصوفية «٣ طبعات » .
٥ - قصص الحيوان فى القرآن «٤ طبعات » .
٦ - الوقوع فى هوى الكعبة « طبعتان » « كتيب » .
٧ - التوبة « كتيب » .
٨ - حراس الحقيقة .
٩ - وجه فى الزحام .
١٠ - مذكرات زوج « ٣ طبعات » .
١١ - مذكرات صائم « ٣ طبعات »
١٢ - صائمون والله أعلم « طبعتان »
١٣ - «كلمتين وبس» « كتاب بالعامية »
١٤ - ثانية واحدة من الحب « مجموعة قصصية»
١٥ - رحلة إلى إفريقيا
١٦ - قناة السويس شريان من دم المصريين .
١٧ - تفاحه آدم .
١٨ - الطريق إلى الله .
١٩ - تأملات فى عذوبة الكون . .
٢٠ - تأملات مسافر .
٢١ - تأملات ساخرة .
٢٢ - البراق .
٢٣ - يقظه النمر الآسيوى .
٢٤ - الحوار الأخير « مع الملك المكلف بكتابة السيئات » .
٢٥ - تحتمس ٤٠٠ بشرطة « ٣ طبعات » .
٢٦ - أهل اليسار يا ليل .
٢٧ - الأمير والدرويش .
٢٨ - مذكرات صحفى فى الجحيم .

كتب مترجمة

١ - الله فى العقيدة الإسلامية « ترجم إلى اللغة الصربو كرواتيه» .
٢ - قصص الحيوان فى القرآن « ترجم إلى اللغة الهندية » .
٣- مذكرات صائم « ترجم إلى اللغتين الفرنسية والإنجليزية » .
٤ - أنبياء الله « ترجم إلى اللغة التركية » .

كتب للأطفال

١ - أنبياء الله للأطفال « عشر طبعات » .
٢ - قصص القرآن المصورة للأطفال« ٣ طبعات » .
٣ - أحسن القصص المصورة للأطفال « طبعتان » .
٤ - جحا والحمار .
٥ - جحا والقاضى .
٦ - جحا والسلطان .

رقم الإيداع ٩٣٠٨/ ٩٩

الترقيم الدولى 0 - 0555 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

إهداء

لو أنه تكرم وسمح، بأن أضع خدى على التراب وأبكى حتى ينبت العشب من دموعى.. فسوف أهدى الكتاب إليه..

إلى الروح الأمين جبريل عليه السلام

إيمانًا بالغيب.. وخشوعًا للجلال.. واعترافًا بفضله على البشر، بوصفه رسول رب العالمين إلى الأنبياء.

مع اعتذار عميق وخوف مشفق.. لجرأة الطين الخاطئ على مجرد التوجه إليه بالحديث فضلاً عن الإهداء.

أحمد بهجت

مقدمة الطبعة الخامسة والعشرين

قال لى إبراهيم المعلم وعادل المعلم: نحن نعد الطبعة الخامسة والعشرين.

تحرك قلبى بحمد الله حمدا ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه وقديم إحسانه.. وتذكرت كلمة لابن العماد.. يقول فيها:

لا يكتب الإنسان كتابا فى يومه إلا قال فى غده: لو زيد هذا لكان أحسن، ولو نقص هذا لكان يستحسن.. وهذا من أبلغ العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر..

لقد نظرت فى الكتاب نظرة ناقدة.. وعدلت بعض كلماته، وأحسب أنى قد رضيت عنه بعض الرضا بعد هذه التعديلات اليسيرة الأخيرة..

أما الكمال فهو لله تعالى وحده..

وقد أسعدنى خلال هذا العام المنصرم ظهور أكثر من ترجمة لهذا الكتاب، فقد ترجم إلى الإنجليزية والتركية، وهو يترجم للفرنسية والألمانية..

والحق أن الكاتب ــ أى كاتب ــ يسعده أن ينتشر أدبه ويترجم إلى لغات أخرى، أما فى حالتنا هذه، فإن السعادة تنبع من نشر الحقيقة وإلقاء الضوء عليها بلغات العالم المختلفة.. وتكفينا نحن سعادة حمل الحقيقة وإظهار أنوارها أمام عيون العالم

إن آمالى تتزايد.. كما أن مخاوفى تتزايد..

أحد آمالى المتزايدة أن يضع الله هذا الكتاب فى سجل حسناتى يوم قيامة الموتى وعرضهم عليه.

أما مخاوفى المتزايدة فخشيتى أن يكون نجاح الكتاب فى الدنيا توفية لأجرى عليه فى الدنيا والآخرة..

هذا ما أخشاه، وإن كان جانب الرجاء يغلب جانب الخوف لأن الله أكرم الأكرمين.. وهو أرحم بالواحد منا من أبيه وأمه وبنيه بل هو أرحم بنا منّا بأنفسنا..

نسأل الله تعالى لناشره وكاتبه وقارئه من خيرى الدنيا والآخرة، وأن يتقبل الله عملنا ويرضى عنه ويجعله خالصا لوجهه الكريم سبحانه.

أحمد بهجت

يونيـة ١٩٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة العشرين
ثناء .. وحمد

يا رب العالمين سبحانك.

يا فاطر السموات والأرض سبحانك.

يا بديع السماوات والأرض سبحانك.

يا نور السماوات والأرض سبحانك.

يا رفيع الدرجات يا ذا العرش المجيد سبحانك.. لك الحمد والكبرياء والمجد.

يا عالم الغيب والشهادة سبحانك.

يا عالم السر والنجوى سبحانك.

يا عالم السر وأخفى سبحانك.

يا من إذا قضى أمرا فإنه يقول له كن فيكون سبحانك.

يا من بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع الأمر كله سبحانك.

يا من يصلي علينا وملائكته ليخرجنا من الظلمات إلى النور سبحانك.

يا رب السماوات والأرض وما بينهما سبحانك.

يا رب المجرات والنجوم والكواكب والأفلاك والأبعاد سبحانك.

يا رب المشرقين ورب المغربين سبحانك.

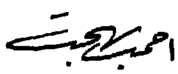
يا رب المشارق والمغارب سبحانك.

يا رب السماوات السبع وما أظللن سبحانك.
يا رب الأرضين السبع وما أقللن سبحانك.
يا رب التوراة والزبور والإنجيل والقرآن سبحانك.
يا رب موسى وهارون سبحانك.
يا رب داود وسليمان سبحانك.
يا رب يحيى وعيسى سبحانك.
يا رب محمد وإبراهيم سبحانك.
يا رب آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران سبحانك.
يا رب الملائكة والروح سبحانك.
يا رب جبريل وميكال سبحانك.
يا رب سدرة المنتهى سبحانك.
يا رب جنة المأوى سبحانك.
يا رب الفردوس الأعلى سبحانك.
يا رب الجحيم سبحانك وحنانك.. أعتق رقابنا من النار برحمتك يا أرحم الراحمين..
يا مالك يوم الدين سبحانك.
يا صاحب الأسماء الحسنى سبحانك.
تباركت يا ربنا وتعاليت.. لا نحصى ثناء عليك.. أنت سبحانك كما أثنيت على نفسك.
ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيبا طاهرا مباركا فيه.
ربنا لك الحمد حمدا يوافى نعمك ويكافئ مزيدك، وليس هناك حمد يوافى نعمك ويكافئ مزيدك.
ربنا لك الحمد حمدا لا ندريه ولا نحصيه على نعم لا نحصيها ولا ندريها.
ربنا لك الحمد حمدا ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك وقديم إحسانك.

أقول هذا عدد خلقك.. وزنة عرشك.. ومداد كلماتك.. ورضا نفسك.. وواسع رحمتك.

أقول هذا حتى ترضى يا أكرم الأكرمين.. يا رب العالمين..

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.



القاهرة ٦ / ١/ ١٩٩٣